سلاطين الدولة العثمانية

عوامل النهوض و أسباب السقوط

دكتور / ابراهيم حسنين
جامعة التحدى - سرت ليبيا

دار التعليم الجامعى
١٢ش شادى عبد السلام - برج زهرة الأنوار - ميامى - الإسكندرية - ج.م.ع
تليفاكس : ٠٣/٥٥٦٣٩٦١١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠١٨٣١٧٩٦
٠٠٢/٠١١١٩٩٩٥٠٠٩
Email : darlalemg@yahoo.com

سلاطين الدولة العثمانية

عوامل النهوض وأسباب السقوط

د \ ابراهيم حسنين
جامعة التحدي – سرت – ليبيا

٢٠١٤



دار التعليم الجامعي
٢٧ش شادي عبد السلام - برج زهرة الأنوار - بياض - الإسكندرية - ج.م.ع.
تليفاكس: ٠٠٢٠٣/٥٥٦٢٤٦١١ موبايل: ٠٠٢/٠١٠٠٠٨٣١٧٢٩٦
٠٠٢/٠١١١٤٩٩٥٠٠٩ Email:dartalemg@yahoo.com



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

حسنين ، ابراهيم

سلاطين الدولة العثمانية : عوامل النهوض واسباب السقوط

ابراهيم حسنين - ط1 ـ الإسكندرية: دار التعليم الجامعي، 2014

ص ؛ سم.

تدمك 0978 977 6341 999

1- الامبراطورية العثمانية

أ ـ العنوان

953,9

رقم الإيداع / 5928

المقدمة:

إن هذا الجهد المتواضع يسلط الأضواء على المجهود العظيم الذي قام به العثمانيون نصرة لدين الله، وحباً في الشهادة في سبيله، ويهتم بإبراز عوامل النهوض التي ساهمت في بناء الدولة العثمانية وحضارتها الاسلامية ، سواء كانت تلك العوامل متمثلة في صفات القادة، أو الأمة، أو المنهج الذي سارت عليه الدولة، ويدافع عن التاريخ العثماني الاسلامي الذي تعرض للتزوير ، والتشكيك والبهتان من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين ، ويركز على اسباب السقوط التي تعرضت لها الدولة في تاريخها الطويل من المنظور القرآني، ليبين للقارئ الكريم أن أسباب السقوط عديدة منها؛ انحراف الأمة عن مفاهيم دينها؛ كعقيدة الولاء والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشار مظاهر الشرك والبدع، والخرافات في عموم الأمة ويتحدث عن غياب القيادة الربانية كسبب في ضياع الأمة وخصوصاً عندما يصبح علمائها ألعوبة بيد الحكام الجائرين، ويتسابقون على الوظائف والمراتب وغاب دورهم المطلوب منهم، وكيف أصيبت العلوم الاسلامية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر؟ وكيف تباعد العلماء وأبناء الأمة عن روح الاسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟

ويصل الى حقيقة مهمة وسنة من سنن الله في المجتمعات الاسلامية؛ وهي أن جهود النصارى واليهود، والعلمانيين ماكانت لتؤثر في الدولة العثمانية إلا بعد أن انحرفت عن شرع الله وفقدت شروط التمكين ؛ وأهملت أسبابه المادية والمعنوية.

إن هذه الجولة التاريخية العثمانية تعييننا على التفكير والتأمل في أحوال الأمم والشعوب والدول قال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الألباب ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} (سورة يوسف : آية ١١١).

المؤلف

المدخل

المناهج المعاصرة في كتابة تاريخ الدولة العثمانية

تمهيد

لم يتورع المؤرخون الأوروبيون واليهود والنصارى والعلمانيون الحاقدون بالهجوم على تاريخ الدولة العثمانية، فأستخدموا أساليب، الطعن والتشويه والتشكيك فيما قام به العثمانيون من خدمة للعقيدة والاسلام، وسار على هذا النهج الباطل أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماءاتهم واتجاهاتهم، القومية ، والعلمانية، وكذلك المؤرخون الأتراك الذين تأثروا بالتوجه العلماني الذي تزعمه مصطفى كمال، فكان من الطبيعي أن يقوموا بإدانة فترة الخلافة العثمانية، فوجدوا فيما كتبه النصارى واليهود ثروة ضخمة لدعم تحولهم القومي العلماني في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى.

كان الموقف من التاريخ العثماني بالنسبة للمؤرخ الأوربي بسبب تأثره بالفتوحات العظيمة التي حققها العثمانيون، وخصوصاً بعد أن سقطت عاصمة الدولة البيزنطية (القسطنطينية) وحولها العثمانيون دار إسلام واطلقوا عليها اسلام بول (أي دار الاسلام) ، فتأثرت نفوس الأوربيين بنزعة الحقد والحقد والمرارة المورثة ضد الاسلام فأنعكست تلك الأحقاد في كلامهم وافعالهم ، وكتابتهم وحاول العثمانيون مواصلة السير لضم روما الى الدولة الاسلامية ومواصلة الجهاد حتى يخترقوا وسط اوروبا ويصلوا الى الاندلس لإنقاذ المسلمين فيها، وعاشت أوروبا في خوف وفزع وهلع ولم تهدأ قلوبهم إلا بوفاة السلطان محمد الفاتح.

وكان زعماء الدين المسيحي من قساوسة ورهبان وملوك يغذون الشارع الأوروبي بالأحقاد والضغائن ضد الاسلام والمسلمين ، وعمل رجال الدين المسيحي على حشد الأموال والمتطوعين لمهاجمة المسلمين (الكفرة على حد زعمهم) البرابرة، وكلما انتصر العثمانيون على هذه الحشود ازدادت موجة الكره والحقد على الاسلام وأهله، فأتهم زعماء المسيحيين العثمانيين بالقرصنة، والوحشية والهمجية، وعلقت تلك التهم في ذاكرة الأوروبيين.

لقد كانت الهجمات الأعلامية المركزة من زعماء المسيحية بسبب الحفاظ على مكاسبهم السياسية والمادية، وكرههم للإسلام وأهله، وبالفعل استطاعت بعض الاسر الحاكمة في أوروبا أن يتربعوا على صدور المجتمعات الأوروبية في الحكم فترة زمنية طويلة، وحققوا مكاسب ضخمة فأثروا ثراء كبير ونصبوا حول أنفسهم هالة كبيرة اعتمدت في مجملها على الضلال والتضليل .

ومع أن المجتمعات الأوروبية ثارت على هذه الفئات، بعد أن اكتشفت ضلالها وتضليلها، مع بداية عصر النهضة ، وبداية مرحلة جديدة في التاريخ الأوروبي، إلا أنه لم يستطع وجدان المجتمع الاوروبي أن يتخلص من تلك الرواسب الموروثة من هذه الفئات تجاه العالم الاسلامي بشكل عام وتجاه الدولة العثمانية بشكل خاص. ولذلك اندفعت قواتهم العسكرية المدعومة بحضارته المادية للإنتقام من الاسلام والمسلمين، ونزع خيراتهم بدوافع دينية واقتصادية وسياسية وثقافية ، وساندهم كتابهم ومؤرخوهم، للطعن والتشويه والتشكيك في الاسلام وعقيدته وتاريخه، فكان نصيب الدولة العثمانية من هذه الهجمة الشرسة كبير.

وشارك اليهود الأوروبيون بأقلامهم المسمومة، وأفكارهم المحمومة في هذه الهجمات المتواصلة ضد الدولة العثمانية خصوصاً والاسلام عموماً، وازداد عداء اليهود للدولة العثمانية بعد أن فشلت كافة مخططاتهم في اغتصاب اي شبر من أراضي هذه الدولة لإقامة كيان سياسي لهم طوال أربعة قرون هي عمر الدولة العثمانية السنية، استطاع اليهود بمعاونة الصليبية والدول الاستعمارية الغربية ومن خلال محافلهم الماسونية أن يحققوا أهدافهم على حساب الأنظمة القومية التي قامت في العالم الغربي والاسلامي والتي وصفت نفسها بالتقدمية والتحضر واتهمت الخلافة العثمانية على طول تاريخها بالتخلف والرجعية والجمود والانحطاط وغير ذلك واعتبرت المحافل الماسونية ، والمنظمات الخفية التابعة لليهود والقوى العالمية المعادية للاسلام والمسلمين أن مسألة تشويه الفترة التاريخية للدولة العلية العثمانية من أهم أهدافها.

أما المؤرخون العرب في العالم الاسلامي فقد ساروا في ركب الاتجاه المهاجم لفترة الخلافة العثمانية مدفوعين الى ذلك بعدة أسباب يأتي في مقدمتها إقدام الاتراك بزعامة

(مصطفى آتاتورك(على إلغاء الخلافة الاسلامية في عام ١٩٢٤م، وأعقب ذلك إقدام الحكومة العلمانية التركية بالتحول الكامل الى المنهج العلماني في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على حساب الشريعة الاسلامية التي ظلت سائدة في تركيا منذ قيام الدولة العثمانية ، وتحالفت هذه الحكومة مع السياسة الأوروبية المعادية للدول الاسلامية العربية، واشتركت سلسلة الاحلاف العسكرية الأوروبية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي رفضتها الشعوب العربية الاسلامية وبعض حكوماتها ، وقد كانت تركيا من أوائل الدول التي اعترفت بقيام الكيان السياسي الاسرائيلي في فلسطين عام ١٩٤٨م مما جعل الشعوب العربية الاسلامية تندفع خلف حكوماتها القومية، بعد غياب الدولة العثمانية التي كانت تجاهد كل من تسول له نفسه بالاعتداء على شبر من أراضي المسلمين.

ويأتي سبب التبعية البحثية لمدرسة التاريخ العربي لتاريخ المنهجية الغربية كعامل هام في الاتجاه نحو مهاجمة الخلافة العثمانية ، خصوصاً بعد التقاء وجهات النظر بين المؤرخين الأوروبيين المؤرخين العرب حول تشويه الخلافة الاسلامية العثمانية.

ولقد تأثر كثير من مؤرخين العرب بالحضارة الأوروبية المادية، ولذلك اسندوا كل ماهو مضيء في تاريخ بلادهم الى بداية الاحتكاك بهذه الحضارة البعيدة كل البعد عن المنهج الرباني، واعتبروا بداية تاريخهم الحديث من وصول الحملة الفرنسية على مصر والشام وما انجزته من تحطيم جدار العزلة بين الشرق والغرب، وما ترتب عليه بعد ذلك من قيام الدولة القومية في عهد محمد علي في مصر، وصحب ذلك اتجاههم لإدانة الدولة العثمانية التي قامت بالدفاع عن عقيدة الشعوب الاسلامية ودينها واسلامها من الهجمات الوحشية التي قام بها الأوروبيون النصارى.

لقد احتضنت القوى الأوروبية الاتجاه المناهض للخلافة الاسلامية وقامت بدعم المؤرخين والمفكرين في مصر والشام الى تأصيل الاطار القومي وتعميقه من أمثال البستاني واليازجي وجورج زيدان وأديب اسحاق وسليم نقاش وفرح انطوان وشبلي شميل وسلامة موسى وهنري كورييل وهليل شفارتز وغيرهم، ويلاحظ ان معظمهم من النصارى واليهود، كما أنهم في أغلبهم ان لم يكونوا جميعاً من المنتمين الى الحركة الماسونية التي تغلغلت في الشرق الاسلامي منذ عصر محمد علي والتي كانت بذورها الاولى مع قدوم

نابليون في حملته الفرنسية.

لقد رأى اعداء الأمة الاسلامية أن دعم التوجه القومي والوقوف مع دعاته كفيل بتضعيف الأمة الاسلامية والقضاء على الدولة العثمانية.

واستطاعت المحافل الماسونية أن تهيمن على عقول زعماء التوجه القومي في داخل الشعوب الاسلامية، وخضع أولئك الزعماء لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصة موقفها من الدين الاسلامي الذي يشكل الإطار الحقيقي لحضارة المسلم وثقافته وعلومه ولم يتغير هذا المنهج المنحرف لدى المؤرخين العرب بشكل عام بعد قيام الانقلاب العسكري في مصر سنة ١٩٥٢م، حيث اتجهت الحكومة العسكرية في مصر منذ البداية، والتفت حولها أغلب الحكومات العسكرية الى دعم التوجه القومي، كما أن معظم هذه الحكومات ارتكزت على أسس اكثر علمانية في كافة الجوانب بما في ذلك الجانب الثقافي والفكري، فنظروا الى الخلافة العثمانية والحكم العثماني للشعوب الاسلامية والعربية بأنه كان غزواً واحتلالاً، واسندوا إليه كافة عوامل التخلف والضعف والجمود والانحطاط التي ألمت بالعالم العربي الأسلامي، واعتبروا حركات الانشقاق والتمرد التي قامت ابان الفترة العثمانية، والتي كان دافعها الاطماع الشخصية، أو مدفوعة من القوى الخارجية المعادية للخلافة الاسلامية ، اعتبروها حركات استقلالية ذات طابع قومي كحركة علي بك الكبير في مصر، والقرمانليين في ليبيا، وظاهر العمر في فلسطين، والحسينيين في تونس، والمعنيين والشهابيين في لبنان، وغير ذلك من أجل تأصيل الاتجاه القومي الذي طرحوه. بل زعموا أن محمد علي كان زعيماً قومياً حاول توحيد العالم العربي ، وأنه فشل بسبب انه لم يكن عربي الجنس، وتناسوا أن محمد علي كان ذا أطماع شخصية، جعلته يرتبط بالسياسة الاستعمارية التي دعمت وجوده، وحققت به أهدافها الشريرة من ضرب الدولة السعودية السلفية ، واضعاف الخلافة العثمانية ، ومساندته المحافل الماسونية في ضرب القوى الاسلامية في المنطقة وتهيئتها بعد ذلك للاحتلال الغربي المسيحي الحاقد لقد تحالفت المحافل اليهودية الماسونية مع القوى الإستعمارية الغربية والقوى المحلية العميلة التي أمكن تطويعها من خلال أطماعها، والتقوا جميعاً في تدمير القوة الإسلامية ومصادرة حريات شعوبها وسلب خيراتها وإقامت حكم ديكتاتوري مدعوم

بالسلاح الغربي الحديث وهو ما مثله محمد علي وقد شارك بعض المؤرخين السلفيين في المشرق العربي في الهجوم على الفترة العثمانية مدفوعين إلى ذلك بالرصيد العدائي الذي خلفه دور الخلافة العثمانية ضد الدعوة السلفية في عديد من مراحلها بسبب مؤامرات الدول الغربية الإستعمارية التي دفعت السلاطين العثمانيين بالصدام بالقوة الإسلامية في نجد قلب الدعوة السلفية وكذلك لمساندة الخلافة للإتجاه الصوفي وبما يصاحبه من مظاهر تخل بالجوانب الأساسية للشريعة الإسلامية، فضلا عن أن دولة الخلافة في سنواتها الأخيرة قد سيطر عليها دعاة القومية التركية الذين ابتعدوا بها عن الالتزام بالمنهج الإسلامي الذي تميزت به الدولة العثمانية لفترات طويلة في تاريخها وشجع كافة المسلمين بالإرتباط بها وتأييدها والوقوف معها.

وأما المؤرخون الماركسيون فقد شنوا حرباً لاهوادة فيها على الدولة العثمانية واعتبروا فترة حكمها تكريساً لسيادة النظام الإقطاعي الذي هيمن على تاريخ العصور الوسطى السابقة، وأن العثمانيين لم يحدثوا أي تطور في وسائل أو قوى الإنتاج، وأن التاريخ الحديث يبدأ بظهور الطبقة البورجوازية ثم الرأسمالية التي أسهمت في إحداث تغيير في الجوانب الإقتصادية والإجتماعية في بداية القرن التاسع عشر، والتقوا في ذلك مع المؤرخين الأوربيين من أصحاب الإتجاه الليبرالي وكذلك مع أصحاب المنظور القومي وقام بعض المؤرخين والمفكرين من النصارى واليهود بترويج للإتجاهين الغربي والماركسي بواسطة التأليف والترجمة لمؤلفاتهم، والذي ساندته المحافل الماسونية، حيث أنهم حاولوا أن يبتعدوا عن أي من الأطر الإسلامية الوحدوية مفضلين عليها الدعوة القومية بمفهومها المحلي أو العربي، كمشروع الهلال الخصيب في الشام أو مشروع وحدة وادي النيل بين مصر والسودان فضلاً عن نشاطهم في ترويج الإتجاهات القومية المحدودة كالدعوة إلى الفرعونية في مصر، والآشورية في العراق، والفينيقية في الشام.الخ.

وأما المؤرخون الأتراك الذين برزوا في فترة الدعوة القومية التركية فقد تحاملوا كثيراً على فترة الخلافة العثمانية سواء لمجاراة الاتجاه السياسي والفكري الذي ساد بلادهم والذي حمّل الفترة السابقة كافة جوانب الضعف والانهيار أو لتأثر الاتراك بالموقف المشين الذي بدت عليه سلطة الخلافة والتي اصبحت شكلية بعد الإطاحة بالسلطان عبدالحميد

سنة ١٩٠٩م حيث انهزمت في معارك متعددة عندما دخلت الحرب العالمية الأولى وترتب على تلك الخسائر ضياع كثير من أراضيها وتسليمها بتوقيع معاهدة سيفر سنة ١٩١٨م ، والذي في حقيقته هزيمة لرجال الاتحاد والترقي ، ونتيجة لسياستها، في حين استطاعت الحركة القومية بزعامة مصطفى كمال أن تنقذ تركيا من هذه الإهانة وتستعيد الكثير من الاراضي التركية وتجبر اليونان والقوى التي تساندها ، الى جانب تأثر المفكرين الأتراك بموقف بعض العرب الذين ساندو الحلفاء الغربيين إبان الحرب الأولى ضد دولة الخلافة وإعلان الثورة عليها سنة ١٩١٦م وبرغم تفاوت الأسباب وتباينها الا أن كثير من المؤرخين اتفقوا على تشويه وتزوير تاريخ الخلافة الاسلامية العثمانية، لقد اعتمد المؤرخون الذين عملوا على تشويه الدولة العثمانية على تزوير الحقائق، والكذب والبهتان والتشكيك والدس ولقد غلبت على تلك الكتب والدراسات طابع الحقد الاعمى، والدوافع المنحرفة، بعيدة كل البعد عن الموضوعية، وأدى ذلك الى ظهور رد فعل اسلامي للرد على الإتهامات والشبهات التي وجهت للدولة العثمانية ولعل من أهمها وأبرزها تلك الكتابة المستفيضة التي قام بها الدكتور عبدالعزيز الشناوي في ثلاثة مجلدات ضخمة تحت عنوان (الدولة العثمانية دول اسلامية مفترى عليها(وبرغم الجهد الذي بذله ودافعه الاسلامي ، والموضوعية التي اتسم بها هذا العمل في أغلبه، إلا أنه لم يعالج كافة جوانب التاريخ العثماني وعليه بعض الملاحظات مثل حديثه عن حقيقة الإنكشارية والتي لاتثبت أمام البحث العلمي النزيه، ومن الجهود المشكورة في هذا الميدان ما قام به الباحث الكبير والاستاذ الشهير المتخصص في تاريخ الدولة العثمانية الدكتور محمد حرب الذي كتب للأمة الاسلامية بعض الكتب القيمة مثل؛ العثمانيون في التاريخ والحضارة، السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، والسلطان عبدالحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، ومن الأعمال القيمة في تاريخ الدولة العثمانية ماقدمه الدكتور موفق بني المرجة كرسالة علمية لنيل درجة الماجستير تحت عنوان (صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد(أو الخلافة الاسلامية واستطاع هذا الكتاب أن يبين كثير من الحقائق المدعومة بالوثائق والحجج الدامغة وغير ذلك من الكتاب المعاصرين إلا أن هناك جوانب في تاريخ الخلافة العثمانية وفي تاريخنا الاسلامي في العصر الحديث تحتاج الى إعادة النظر من منظور اسلامي يساهم في إبراز الحقائق، والتئام تلك الشروخ التي نتجت عن صياغة

تاريخنا من منظور قومي علماني خدم أعداءنا في المقام الاول واستخدموه كوسيلة من وسائلهم في تمزيق الشعوب الاسلامية.

وعلينا عندما نكتب التاريخ الحديث أن نبين ونظهر دور المحافل الماسونية والمخططات الغربية في توجيه هذه الصياغة التاريخية الخبيثة والتي يقوم بها مجموعة من عملاء اليهود والنصارى من أدعياء المنهج الليبرالي والعلماني حيث يقومون بإبراز العناصر الماسونية على الساحة التاريخية ووضعهم في دور الحركة الماسونية في الوقوف مع حركات التحرر.

إن التاريخ الاسلامي القديم والحديث علم مستهدف من قبل كل القوى المعادية للاسلام بإعتباره الوعاء العقدي والفكري والتربوي في بناء وصياغة هوية الشعوب الاسلامية[1].

وهذه محاولة متواضعة للبحث في التاريخ العثماني في عمومه ونهتم بدور الخلافة العثمانية في الشمال الافريقي ، وتمتد هذه الدراسة الى الجذور القديمة التي قامت عليها الدولة العثمانية الى أن سقطت الخلافة على يد العميل الأنجليز، والملحد الكبير مصطفى كمال وفي ثنايا هذه الدراسة يتعرض الباحث لأسباب القوة العثمانية وأسباب ضعفهم ، وصفات رجالهم وسلاطينهم الأقوياء، واهتمامهم بالعلماء وتطبيق شرع الله وجهادهم العظيم لنشر الاسلام والدفاع عن دياره ضد الحملات الصليبية التي لا تنتهي ، ويلتزم الكاتب بمنهج أهل السنة عند عرض الاحداث محاولاً أن يتقيد بالعدل والإنصاف عند الحكم على الأحداث لعله يساهم في تصحيح الكثير من الأحكام والمفاهيم الخاطئة التي ألمت بالدولة الاسلامية العثمانية والله من وراء القصد وهو الهادي الى الصراط المستقيم.

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د. زكريا بيومي ، ص٧،٨،٩ الى ١٦،١٧.

الفصل الأول

جذور الأتراك وأصولهم

المبحث الأول

أصل الأتراك ومواطنهم

في منطقة ماوراء النهر والتي نسميها اليوم (تركستان) والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً الى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السهول السيبرية شمالاً الى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً، استوطنت عشائر الغز[١] وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك[٢].

ثم تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، في الانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة. وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التي ساهمت في هجرتهم، فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية ، فالجدب الشديد وكثرة النسل، جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية؛ فهاجرت بحثاً عن الكلاء والمراعي والعيش الرغيد[٣] والبعض الآخر يعزوا تلك الهجرات لأسباب سياسية حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل اخرى أكثر منها عدداً وعدة وقوة وهي المغولية، فأجبرتها على الرحيل، لتبحث عن موطن آخر وتترك أراضيها[٤] بحثاً عن نعمة الأمن والاستقرار وذهب الى هذا الراي الدكتور عبداللطيف عبدالله بن دهيش[٥].

واضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غرباً، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر

(١) انظر: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد العيد ص١٠٦.

(٢) انظر : أخبار الأمراء والملوك السلجوقية تحقيق د. محمد نور الدين ص٢-٤.

(٣) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص٨.

(٤) انظر: كتاب السلوك، أحمد المقريزي، ج١، قسم ١ ، ص٣.

(٥) انظر: قيام الدولة العثمانية للدكتور عبداللطيف دهيش، ص٨.

جيحون ، ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان، وجرجان[1]، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الاسلامية والتي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة ٢١هـ/٦٤١م[2].

اتصالهم بالعالم الاسلامي:

في عام ٢٢هـ/٦٤٢م تحركت الجيوش الاسلامية الى بلاد الباب لفتحها وكانت تلك الأراضي يسكنها الاتراك، وهناك ألتقى قائد الجيش الاسلامي عبدالرحمن بن ربيعة بملك الترك شهربراز، فطلب من عبدالرحمن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة في الجيش الاسلامي لمحاربة الأرمن ، فأرسله عبدالرحمن الى القائد العام سراقة بن عمرو، وقد قام شهر براز بمقابلة سراقة فقبل منه ذلك، وكتب للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ يعلمه بالأمر، فوافق على مافعل، وعلى إثر ذلك عقد الصلح، ولم يقع بين الترك والمسلمين أي قتال، بل سار الجميع الى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الاسلام فيها[3].

وتقدمت الجيوش الاسلامية لفتح البلدان في شمال شرق بلاد فارس حتى تنتشر دعوة الله فيها، بعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الاسلامية والتي كانت تقف حاجزاً منيعاً أمام الجيوش الاسلامية في تلك البلدان، وبزوال تلك العوائق، ونتيجة للفتوحات الاسلامية ، أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شعوب تلك البلدان والاقاليم ومنهم الاتراك فتم الاتصال بالشعوب الاسلامية، واعتنق الاتراك الاسلام، وانضموا الى صفوف المجاهدين لنشر الاسلام وإعلاء كلمة الله[4].

وفي عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ تم فتح بلاد طبرستان، ثم عبر المسلمون نهر جيحون سنة ٣١هـ، ونزلوا بلاد ماوراء النهر، فدخل كثير من الترك في دين

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٢٢/٨).

(٢) انظر: شوقي أبو خليل: نهاوند ، ص٥٥-٧٠.

(٣) انظر: تاريخ الأمم والملوك محمد بن جرير الطبري (٢٥٧/٣، ٢٥٦).

(٤) انظر: الدولة العثمانية والشرق العربي ، محمد انيس ، ص١٣، ١٢.

الاسلام، وأصبحوا من المدافعين عنه والمشتركين في الجهاد لنشر دعوة الله بين العالمين[١].

وواصلت الجيوش الاسلامية تقدمها في تلك الاقاليم فتم فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ وتوغلت تلك الجيوش المضفرة حتى وصلت سمرقند، وما أن ظهر عهد الدولة الاسلامية حتى صارت بلاد ماوراء النهر جميعها تحت عدالة الحكم الاسلامي وعاشت تلك الشعوب حضارة إسلامية عريقة[٢].

وازداد عدد الأتراك في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا في تولي المناصب القيادية والادارية في الدولة، فكان منهم الجند والقادة والكتاب. وقد ألتزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب.

ولما تولى المعتصم العباسي الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركي وأسند إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا بذلك يشاركون في تصريف شؤون الدولة، وكانت سياسة المعتصم تهدف الى تقليص النفوذ الفارسي ، الذي كان له اليد المطلقة في إدارة الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المأمون[٣].

وقد تسبب اهتمام المعتصم بالعنصر التركي الى حالة سخط شديدة بين الناس والجند، فخشي المعتصم من نقمة الناس عليه، فأسس مدينة جديدة هي (سامراء) ، تبعد عن بغداد حوالي ١٢٥كم وسكنها هو وجنده وأنصاره.

وهكذا بدأ الأتراك منذ ذلك التاريخ في الظهور في أدوار هامة على مسرح التاريخ الاسلامي حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية[٤].

---

(١) انظر: فتوح البلدان ، احمد بن يحيى البلاذري ، ص٤٠٩،٤٠٥.

(٢) انظر: خراسان لمحمود شاكر ، ص٢٠-٢٥.

(٣) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص١٢.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص١٢.

المبحث الثاني

قيام الدولة السلجوقية

كان لظهور السلاجقة على مسرح الأحداث في المشرق العربي الاسلامي، أثر كبير في تغير الاوضاع السياسية في تلك المنطقة التي كانت تتنازعها الخلافة العباسية السنية من جهة، والخلافة الفاطمية الشيعية من جهة ثانية.

وقد أسس السلاجقة دولة تركية كبرى ظهرت في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر الميلادي) ، لتشمل خراسان وماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى. وكانت الري في إيران ثم بغداد في العراق مقر السلطنة السلجوقية، بينما قامت دويلات سلجوقية في خراسان وماوراء النهر (كرمان) وبلاد الشام (سلاجقة الشام) وآسيا الصغرى سلاجقة الروم، وكانت تتبع السلطان السلجوقي في إيران والعراق.

وقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السني بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر والشام. فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية)[١].

لقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام ٤٤٧هـ في بغداد وأن يقضي على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبي عبدالله الجلاب لغلوه في الرفض[٢].

لقد كان النفوذ البويهي الشيعي مسيطراً على بغداد والخليفة العباسي ، فبعد أن أزال السلاجقة الدولة البويهية من بغداد ودخل سلطانهم طغرل بك الى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة العباسي القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنية، وأجلسه الى جواره، وأغدق عليه القاب التعظيم ، ومن جملتها أنه لقبه بالسلطان

---

(١) انظر: السلاطين في المشرق العربي ، د. عصام محمد شبارو، ص١٧١.

(٢) انظر: أيعيد التاريخ نفسه ، محمد العبده ، ص٦٧.

ركن الدين طغرل بك، كما أصدر الخليفة العباسي أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرلبك على العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة. ومنذ ذلك الحين حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر في بغداد، وتسيير الخليفة العباسي حسب إرادتهم(١).

كان طغرلبك يتمتع بشخصية قوية ، وذكاء حاد، وشجاعة، فائقة ، كما كان متدينا ورعا عادلاً، ولذلك وجد تأييداً كبيراً ومناصرة عظيمة من شعبه، وقد أعد جيشاً قوياً، وسعى لتوحيد كلمة السلاجقة الأتراك في دولة قوية(٢).

وتوطيداً للروابط بين الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وبين زعيم الدولة السلجوقية طغرلبك، فإن الخليفة تزوج من أبنة جفري بك الأخ الأكبر لطغربك، وذلك في عام ٤٤٨هـ/١٠٥٩م ثم في شعبان عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م تزوج طغربك من أبنة الخليفة العباسي القائم بالله. لكن طغربك لم يعش طويلاً بعد ذلك، حيث أنه توفى ليه الجمعة لليوم الثامن من شهر رمضان عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٢م ، وكان عمره إذ ذاك سبعين عاماً، بعد أن تمت على يده الغلبة للسلاجقة في مناطق خراسان وإيران وشمال وشرق العراق(٣).

أولاً: السلطان (محمد) الملقب ألب أرسلان أي الأسد الشجاع:

تولى ألب أرسلان زمام السلطة في البلاد بعد وفاة عمه طغرلبك، وكانت قد حدثت بعض المنازعات حول تولي السلطة في البلاد، لكن ألب أرسلان استطاع أن يتغلب عليها. وكان ألب أرسلان -كعمه طغرل بك- قائداً ماهراً مقداماً، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة ، قبل التطلع الى أخضاع أقاليم جديدة، وضمها الى دولته. كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله ، ونشر دعوة الاسلام في داخل الدولة المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الاسلامي هي المحركة لحركات الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية،

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص١٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٧.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك ، ص٢٥.

وأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد، وحريصاً على نصرة الاسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الاسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية[1].

لقد بقي سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم باي توسع خارجي.

وعندما أطمئن على استتباب الأمن، وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية (العبيدية في مصر، وتوحيد العالم الاسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنيّة ونفوذ السلاجقة، فأعد جيشاً كبيراً أتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها الى مملكته، كما عمل على نشر الاسلام في تلك المناطق[2]. وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة (الفاطمي/ العبيدي سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م)[3]. ثم أرسل قائده الترك أتنسز بن أوق الخوارزمي في حملة الى جنوب الشام فأنتزع الرملة وبيت المقدس من يد (الفاطميين) العبيديين ولم يستطيع الاستيلاء على عسقلان التي تعتبر بوابة الدخول الى مصر، وبذلك أضحى السلاجقة على مقربة من قاعدة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي داخل بيت المقدس[4].

وفي سنة ٤٦٢هـ ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم الى السلطان يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم وللسلطان وإسقاط خطبة صاحب مصر (العبيدي) وترك الأذان بـ (حي على العمل) فأعطاه السطان ثلاثين ألف دينار وقال له : إذا فعل أمير المدينة

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص٢٠.

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص٢٠.

(٣) انظر: السلاطين في المشرق العربي ، د.عصام محمد ، ص٢٥.

(٤) انظر: مرآة الزمان لسبط بن الجوزي، ص١٦١.

كذلك أعطيناه عشرين الف دينار[1].

لقد أغضبت فتوحات ألب أرسلان دومانوس ديوجينس امبراطور الروم، فصمم على القيام بحركة مضادة للدفاع عن امبراطوريته. ودخلت قواته في مناوشات ومعارك عديدة مع قوات السلاجقة، وكان أهمها معركة (ملاذكرد) في عام ٤٦٣هـ الموافق أغسطس عام ١٠٧٠م[2] قال ابن كثير: (وفيها أقبل ملك الروم ارمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والرخ والفرنج، وعدد عظيم وعُدد، ومعه خمسة وثلاثون ألفاً من البطارقة، مع كل بطريق مائتا ألف فارس، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفاً، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفاً، ومعه مائة ألف نقّاب وحفّار[3]، وألف روزجاري، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والغرادات والمناجيق، منها منجنيق عدة ألف ومائتا رجل، ومن عزمه قبحه الله أن يبيد الاسلام وأهله، وقد أقطع بطارقته البلاد حتى بغداد، واستوصى نائبها بالخليفة خيراً، فقال له: ارفق بذلك الشيخ فانه صاحبنا، ثم إذا استوثقت ممالك العراق وخراسان لهم مالوا على الشام وأهله ميلة واحدة، فاستعادوه من أيدي المسلمين، والقدر يقول: {لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون} (سورة الحجر: الآية: ٧٢). فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه وهم قريب من عشرين ألفاً، بمكان يقال له الزهوة، في يوم الأربعاء لخمس بقين من ذي القعدة، وخاف السلطان من كثرة جند الروم، فأشار عليه الفقيه ابونصر محمد بن عبدالملك البخاري بأن يكون وقت الوقعة يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين، فلما كان ذلك الوقت وتواقف الفريقان وتواجه الفئتان، نزل السطان عن فرسه وسجد لله عزوجل، ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، فأنزل نصره على المسلمين ومنحهم اكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وأسر ملكهم ارمانوس، أسره غلام رومي، فلما أوقف بين يدي الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع وقال: لو كنت أنا

(١) انظر: أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده، ص٦٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٠.

(٣) النقاب والحفار: من ينقب ومن يحفر.

الأسير بين يديك ماكنت تفعل؟ قال : كل قبيح، قال فما ظنك بي؟ فقال: إما أن تقتل وتشهرني في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدني. قال : ماعزمت على غير العفو والفداء. فأفتدى منه بألف ألف دينار وخمسمائة الف دينار. فقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبل الأرض بين يديه، وقبل الأرض الى جهة الخليفة إجلالاً وإكراماً، وأطلق له الملك عشرة ألف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيعه فرسخاً، وأرسل معه جيشاً يحفظونه الى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله..)[1].

لقد كان نصر ألب أرسلان بجيشه الذي لم يتجاوز خمسة عشر ألف محارب على جيش الامبراطور دومانوس الذي بلغ مائتي الف، حدثا كبيراً، ونقطة تحول في التاريخ الاسلامي لأنها سهلت على اضعاف نفوذ الروم في معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت من ركائز وأعمدة الامبراطورية البيزنطية. وهذا ساعد تدريجياً للقضاء على الدولة البيزنطية على يد العثمانيين.

لقد كان ألب ارسلان رجلاً صالحاً أخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية، فكان يقرب العلماء ويأخذ بنصحهم وما أروع نصيحة العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبدالملك البخاري الحنفي، في معركة ملاذكرد عندما قال للسلطان ألب أرسلان: إنك تقاتل عن دين وعدالله بنصره واظهاره على سائر الاديان. وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين.

فلما كان تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان ، فبكى الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال لهم من أراد الإنصراف فلينصرف، فما ههنا سلطان يأمر ولا ينهى. والقى القوس والنشاب ، واخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفني[2] الله أكبر على مثل هؤلاء ينزل نصر الله.

---

(١) البداية والنهاية (١٢/١٠٨).

(٢) انظر : تاريخ الاسلام للذهبي ، حوادث ووفيات ٤٧٠-٤٦١، ص٢.

وقتل هذا السلطان على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمي وذلك يوم العاشر من ربيع الأول عام ٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٢م ودفن في مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه ابنه ملكشاه[1].

شيء من أخلاق السلطان ألب أرسلان:

(كان رحيم القلب، رفيقاً بالفقراء وكثير الدعاء بدوام ما أنعم الله عليه، اجتاز يوماً بمرو على فقراء الخرائسين ، فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله وكان يكثر الصدقة ، فيتصدق في رمضان بخمسة عشر الف دينار، وكان في ديوانه اسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه، عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم)[2].

كتب إليه بعض السعاة في شأن وزيره نظام الملك وذكروا ماله في ممالكه فاستدعاه فقال : خذ إن كان هذا صحيحاً فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كان كذبوا فأغفر له زلته، الحرص على حفظ مال الرعايا، بلغ أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض أصحابه فصلبه فارتدع سائر المماليك خوفاً من سطوته[3].

وكان كثيراً مايقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولما اشتهر بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظته على عهوده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ماوراء النهر الى أقاصي الشام[4].

ثانياً: ملكشاه ودوره في توحيد الخلافة والسلطنة:

تولى السلطنة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه وعارضه عمه قاورد بن جفري حاكم سلاجقة كرمان وطالب بالسلطنة ووقع الصدام بينهما قرب همذان حيث انهزم قارود

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص٢١.

(٢) الكامل لابن الأثير (٦/٢٥٢).

(٣) انظر : البداية والنهاية (١٢/١١٤).

(٤) الكامل لابن الأثير (٦/٢٥٣).

وقتل وبذلك سيطر ملكشاه على دولة سلاجقة كرمان عين عليها سلطان شاه بن ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م.

واتسعت الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملكشاه لتبلغ أقصى أمتداد لها من أفغانستان شرقاً الى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً، وذلك بعد أن سقطت دمشق على يد قائده أتسز سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٥م، وأقيمت الدعوة للخليفة العباسي.

وأسند ملكشاه المناطق التي سيطر عليها في بلاد الشام، لأخيه تاج الدولة تتمش سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، وذلك من أجل متابعة الفتح. فاسس هذا الأخير دولة سلاجقة الشام كما عين ملكشاه أحد أقاربه ويدعى سليمان بن قتلمش بن اسرائيل واليا على آسيا الصغرى التي كانت تتبع بلاد الروم، لمتابعة الفتح سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، فأسس هذا أيضاً دولة سلاجقة الروم[١] وقد استمرت هذه الدولة ٢٢٤ سنة ، ليتعاقب على حكمها أربعة عشر من سليلة أبي الفوارس قتلمش بن اسرائيل، وكان أولهم سليمان بن قتلمش الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة[٢] وقد تمكن من فتح انطاكية سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م ، كما تمكن ابنه داود من السيطرة على قونية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ليتخذها عاصمة له. وكانت قونية من أغنى وأجمل المدن البيزنطية في آسيا الصغرى؛ وقد حولها السلاجقة من مدينة بيزنطية مسيحية الى مدينة سلجوقية اسلامية. وقد سقطت هذه الدولة على يد المغول سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م[٣] وأصبحت فيما بعد من أملاك الدولة العثمانية.

لقد كان سلاجقة الروم حريصين على تتريك آسيا الصغرى ونشر الاسلام فيها على المذهب السني وكانوا سبباً في نقل الحضارة الاسلامية الى تلك الأقاليم، واسقطوا الخط الدفاعي الذي كان يحمي المسيحية من أوروبا ضد الاسلام في الشرق[٤].

ورغم هذه السلطنة القوية زمن ملكشاه، لم يفلح قائده أتسز في توحيد بلاد

---

(١) انظر: السلاطين في المشرق العربي ، ص٢٨.

(٢) المصدر السابق، ص٢٩.

(٣) انظر : السلاطين في المشرق العربي، ص٢٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٩.

الشام ومصر، بعد ان شكل السلاجقة تهديداً فعلياً للدولة العبيدية (الفاطمية) داخل مصر.

وعندما أراد أتسز غزو مصر، حلت به الهزيمة على بد قوة من العرب، قبل مواجهة الجيش الكبير الذي أعده الوزير بدر الجمالي في رجب ٤٦٩هـ/١٠٧٦م، وقد أدى فشل أتسز الى مزيد من التشرذم، والتمزق السياسي والصراع الدامي، لينتهي الأمر بمقتله سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م(١).

كذلك لم يفلح ملكشاه في جعل الخلافة العباسية تتحول الى أسرته السلجوقية، عندما زوج ابنته الى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م، فرزقت منه بولد، كما زوج ابنته الأخرى الى المستظهر العباسي. ولم يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة في شخص حفيده(٢).

وفاته:

توفى السلطان ملكشاه وانتهى دور القوة والمجد (٤٤٧-٤٨٥هـ/١٠٥٥-١٠٩٢م) الذي عرفته الدولة السلجوقية في عهد السلاطين الثلاثة، طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه، لتبدأ مرحلة الضعف والصراع ولقد ظهر في زمن ألب أرسلان وملكشاه الوزير نظام الملك الذي يهمنا معرفة سيرته ودروه في قوة الدولة السلجوقية.

ثالثاً: نظام الملك:

قال عنه الذهبي: (الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي ابن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خبير، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقرّاء والفقهاء.

أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم،

---

(١) انظر: مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، ص١٨٢.

(٢) انظر: السلاطين في المشرق العربي، ص٣٠.

وأدرّ على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته)[1].

تنقلت به الأحوال الى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ماينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبني الوقوف، وهاجرت الكبار الى جانبه[2].

واشار على ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نورالدين محمود، الذي ولي على حلب وديار بكر والجزيرة قال عنه ابن كثير: (من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة)[3] وقام ولده عمادالدين زنكي ببداية الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام من بعده نور الدين محمود ، هذه الأسرة هي التي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة في العالم الاسلامي[4].

وكذلك كان آق سنقر البرسقي من قواد السلطان محمود السلجوقي، وكان أميراً للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين، وفي سنة ٥٢٠هـ قتله الباطنيون، وهو يصلي في الجامع الكبير في الموصل. قال عنه ابن الأثير: (وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله، وكان خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً([5]).

ويحدثنا المؤرخ ابوشامة من آثار السلاجقة لاسيما في زمن نظام الملك: (فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ماكان قد درس لاسيما في وزارة النظام الملك، فانه

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٩٤).

(٢) المصدر السابق (١٩/٩٥).

(٣) البداية والنهاية (١٢/١٥٧).

(٤) انظر: أيعيد التاريخ نفسه، ص٦٨.

(٥) الكامل (١٠/٦٣٢) نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه، ص٦٨.

أعاد الناموس والهيبة الى أحسن حالاتها) [1].

ضبطه لأمور الدولة:

لما تولى ملكشاه أمور الدولة انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم في أموال الناس، وقالوا مايمنع السلطان أن يعيطنا الأموال إلا نظام الملك، وتعرض الناس لاذى شديد، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، فبين له ما في هذا الفعل من الضعف، وسقوط الهيبة، والوهن، ودمار البلاد، وذهاب السياسة ، فقال له: أفعل في هذا ماتراه مصلحة! فقال له نظام الملك: مايمكنني أن افعل إلا بأمرك فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد؛ وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ماكان ، وخلع عليه ، ولقبه ألقاباً من جملتها : أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهرت من كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس، فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بعض حجابه ، فأنكر ذلك عليه وقال : إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والاعيان لاحاجة لهم إليك، ثم صرفه عن حجابته [2].

حبه للعلم واحترامه للعلماء وتواضعه:

كان يحب العلم وخصوصاً الحديث، شغوفاً به وكان يقول : إني أعلم بأني لست أهلاً للرواية ولكني أحب أن أربط في قطار [3] نقلة حديث رسول الله ﷺ [4]، فسمع من القشيري ، أبي مسلم بن مهر بزد، وأبي حامد الأزهري [5].

وكان حريصاً على أن تؤدي المدارس التي بناها رسالتها المنوطة بها فعندما ارسل إليه أبو الحسن محمد بن علي الواسطي الفقيه الشافعي أبيات من الشعر يستحثه على

---

(١) الروضتين في اخبار الدولتين (٣١/١) نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه.

(٢) انظر: الكامل لابن الأثير (٢٥٦/٢).

(٣) قطار : قافلة.

(٤) انظر: البداية والنهاية (١٥٠/١٢).

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٩٥/١٩).

المساعة للقضاء على الفتن التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة قام نظام الملك وقضى على الفتنة ومما قاله ابو الحسن الواسطي من الشعر :

يانظام الملك قد حـلَ	ببغداد النظـــام
وابنك القاطن فيهـــا	مستهان مستضام
وبها أودى له قتلـــى	غلام، وغـــلام
والذي منهم تبقـــي	سالماً فيه سهـــام
ياقوام الدين لـــــم	يبقى ببغدا مقـــام
عظم الخطبُ وللحرب	اتصـــال ودوام
فمتى لم تحسم الــداء	أياديك الحســـام
ويكف القوم فـــي	بغداد قتل وانتقام
فعلى مدرسة فيهـــا	ومن فيها السلام
واعتصام بحَريـــــم	لك من بعدُ حرام[1]

لقد كان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء، حيث يقضي معهم جُلَ نهاره، فقيل له: (إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على راسي لما استكثرت ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبوالمعالي الجويني قام لهم وأجلسهما معه في المقعد، فإن دخل أبو علي الفارندي قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب في ذلك فقال : إنهما إذا دخلا عليَ قال: أنت وأنت، يطروني ويعظموني، ويقولوا فيَ مالا فيَ، فأزداد بهما ماهو مركوز في نفس البشر، وإذا دخل عليَ أبوعلي

---

(١) انظر: الكامل (٦/٢٣٦).

الفارندي ذكرني عيوبي وظلمي ، فأنكسر فأرجع عن كثير مما أنا فيه..)[1].

قال عنه ابن الأثير : (وأما أخباره، فإنه كان عالماً، ديناً، جواداً، عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن المذنبين ، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقرّاء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح..)[2].

كان من حفظة القرآن ، ختمه وله إحدى عشرة، واشتغل بمذهب الشافعي، وكان لايجلس إلا على وضوء، وما توضأ إلا تنفل[3]، واذا سمع المؤذن أمسك عن كل ماهو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لايبدأ بشيء قبل الصلاة وكان، إذا غفل المؤذن ودخل الوقت فأمره بالأذان ، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الاوقات، ولزوم الصلوات[4]. وكانت له صلة بالله عظيمة وقال ذات مرة: رأيت ليلة في المنام إبليس فقلت له : ويحك خلقك الله وأمرك بالسجود له مشافهة فأبيت، وأنا لم يأمرني بالسجودله مشافهة وانا أسجد له في كل يوم مرات، وانشأ يقول:

من لم يكن للوصال أهلاً فكلُ إحسانه ذنوب[5]

وكان يتمنى أن يكون له مسجد يعبد الله فيه، ومكفول الرزق قال في هذا المعنى : كنت لتمنىأن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أتفرد فيه لعبادة ربي، ثم تمنيت بعد ذلك أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه[6].

ومن تواضعه انه كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خراسان، والى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر نظام الملك فرأى

---

(١) البداية والنهاية (١٢/١٥٠).

(٢) الكامل (٦/٣٣٧).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/٩٦).

(٤) انظر: الكامل (٦/٣٣٧).

(٥) البداية والنهاية (١٢/١٥٠).

(٦) انظر: الكامل (٦/٣٣٨).

العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال الى الجانب الآخر، وقرب المقطوع إليه فأكل معه.

وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه ويقربهم إليه، ويدنيهم[1].

ومن شعره:

بعد الثمانين ليس قوة   قد ذهبت شهوة الصُبوة

كأنني والعصا بكفي   موسى ولكن بلا نُبوّة[2]

وينسب إليه أيضاً:

تقوس بعد طول العُمر ظهري   وداستني الليالي أيَّ دوْسِ

فأمسي والعصا تمشي أمامي   كأن قوامها وتر بقوسِ

وكان يتأثر بسماع الشعر فعندما دخل عليه أبوعلي القومساني في مرضة مرضها، يعوده فأنشأ يقول:

إذا مرضنا نوَينا كل صالحةٍ   فإن شفينا فمنا الزيغ والزّللُ

نرجو الإله اذا خفنا ونسخطه   إذا أمنا فما يزكو لنا عمل

فبكى نظام الملك وقال : هو كما يقول[3].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) تاريخ الاسلام حوادث ووفيات ٤٨١-٤٩٠/ ص١٤٧.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣٢٨/٤).

وفاته:

في عام ٤٨٥هـ من يوم الخميس، في العاشر من شهر رمضان وحان وقت الإفطار، صلىَ نظام الملك المغرب، وجلس على السماط، وعنده خلق كثير من الفقهاء، والقراء، والصوفية، وأصحاب الحوائج، فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أراضي نهاوند، وأخبار الوقعة التي كانت بين الفرس والمسلمين، في زمان أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب ﷺ، ومن استشهد هناك من الاعيان ، ويقول : طوبى لمن لحق بهم.

فلما فرغ من إفطاره ، خرج من مكانه قاصداً مَضرب حرَمه فبدر إليه حدث ديلميَ، كأنه مُستميح، أو مستغيث، فعلق به ، وضربه، وحمل الى مضرب الحرم.

فيقال : إنه أول مقتول قتلته الاسماعيلية (الباطنية)، فأنبث الخبر في الجيش، وصاحت الأصوات، وجاء السلطان ملكشاه حين بلغه الخبر، مظهراً الحزن، والنحيب والبكاء وجلس عند نظام الملك ساعة، وهو يجُود بنفسه، حتى مات، فعاش سعيداً ، ومات شهيداً فقيداً حميداً[1].

وكان قاتله قد تعثر بأطناب الخيمة، فلحقه مماليك نظام الملك وقتلوه.

وقال بعض خدامه: كان آخر كلام نظام الملك أن قال : لاتقتلوا قاتلي، فإني قد عفوت عنه وتشهد ومات[2].

ولما بلغ أهل بغداد موت نظام الملك حزنوا عليه، وجلس الوزير والرؤساء للعزاء ثلاثة أيام ورثاه الشعراء بقصائد، منهم مقاتل بن عطية حيث قال:

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٣٢٢،٣٢٣/٤).

(٢) نفس المصدر السابق (٣٢٣/٤).

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمة صاغها الرحمن من شرف

عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيره منه الى الصدف[1]

قال عنه ابن عقيل: بهر العقول سيرة النظام جوداً وكرماً وعدلاً، وإحياء لمعالم الدين، كانت أيامه دولة أهل العالم، ثم ختم له بالقتل وهو مارٌ الى الحج في رمضان فمات ملكاً في الدنيا، ملكاً في الآخرة ، رحمه الله[2].

---

(١) البداية والنهاية (١٥١/١٢).

(٢) نظر: سير أعلام النبلاء (٩٦/١٩).

المبحث الثالث

نهاية الدولة السلجوقية

كان للسلطان ملكشاه عند وفاته أربعة أبناء هم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود. وكان محمود، والذي عرف فيما بعد بناصر الدين محمود، طفلاً فبايعوه على تولي السلطة لأن أمه تركان خاتون، كانت ذات شأن كبير ايام ملكشاه. وقد استمر حكمه حوالي العامين من ٤٨٥هـ/١٠٩٢م والى عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م، حيث توفي هو وأمه. ثم جاء من بعده ركن الدين أبوالمظفر بركيارق بن ملكشاه، واستمر حكمه حتى عام ٤٩٨هـ/١١٠٥م، ثم تلاه ركن الدين مكلشاه الثاني وفي نفس العام تولى السلطة غياث الدين أبو شجاع محمد، واستمر حكمه حتى عام ٥١١هـ/١١٢٨م وكان آخر حكام الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر والتي كانت لها السيطرة على خراسان وإيران والعراق. وقد انقرضت دولتهم عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م وذلك على يد شاهنات خوارزم[١]. وبسقوط الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر انفرط عقد السلاجقة وتمزقت وحدتهم، وضعفت قوتهم، حتى أصبح السلاجقة شيعاً وأحزاباً ومعسكرات متباينة، تتصارع فيما بينها، حول الظفر بالعرش، وانقسمت على ضوء ذلك الدولة السلجوقية العظمى الى عدة دول وإمارات صغيرة. ولم تكن هذه الدولة والإمارات الصغيرة تخضع لحكم سلطان واحد كما كان الحال في عهد كل من السلطان طغرلبك الأول والسلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه وأسلافهم. بل كان كل جزء من أجزاء الدولة السلجوقية مستقلاً تحت قيادة منفصلة، لايوجد بينها أي تعاون يذكر[٢].

ونتيجة لذلك خرجت الدولة الخوارزمية فيما وراء النهر وهي تلك الدولة التي وقفت ردحاً من الزمن أمام الهجمات المغولية وقد قامت معها إمارات سلجوقية في شمال العراق والشام عرفت بالأتابكيات، وأثناء ذلك برزت سلطنة سلاجقة الروم، وهي السلطنة التي قاومت الحملات الصليبية ، واستطاعت أن تحصرها في الركن الشمالي الغربي من آسيا

---

(١) انظر: تاريخ دولة آل سلجوق لمحمد الاصبهاني ص١٥٤.

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية ص٢٢.

الصغرى. أما سلطنة سلاجقة الروم فقد دمرتها الغارات المغولية المتلاحقة.

لقد تضافرت عوامل عديدة في سقوط السلطنة السلجوقية التي مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية.

ومن هذه العوامل:

١- الصراع داخل البيت السلجوقي بين الأخوة والأعمام والأبناء والأحفاد.

٢- تدخل النساء في شؤون الحكم.

٣- اذكاء نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والأتابك

٤- ضعف الخلفاء العباسيين الذين تميزوا بالضعف أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة لكل منتصر قوي(١).

٥- عجز الدولة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.

٦- الأنقسام الداخلي بين السلاجقة والذي وصل الى حد المواجهة العسكرية المستمرة، وهذا ما أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم في العراق.

٧- المكر الباطني الخبيث بالدولة السلجوقية وتمثل ذلك في حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقاداتهم.

٨- الغزو الصليبي القادم من وراء البحار وصراع الدولة السلجوقية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا وغير ذلك من الاسباب والعوامل إلا أن السلاجقة كانت لهم أعمال جليلة من أهمها:

أ. كان لهم دور في تأخير زوال الخلافة العباسية، حوالي قرنين من الزمان، حيث

---

(١) انظر: السلاطين في المشرق العربي ص٥٠.

أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظل سيطرة البويهين الشيعة الروافض.

ب. منعت الدولة السلجوقية الدولة العبيدية في مصر من تحقيق اغراضها الهادفة الى توحيد المشرق العربي الاسلامي تحت الراية الباطنية العبيدية الرافضية.

ت. كانت الجهود التي بذلتها الدولة السلجوقية تمهيداً لتوحيد المشرق الاسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي وتحت راية الخلافة العباسية السنية[١].

ث. قام السلاجقة بدور ملموس في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإدارياً ونشروا الأمن والاستقرار فيها.

ج. وقفوا في وجه التحركات الصليبيبة من جانب الامبراطورية البيزنطية، وحاولوا صد الخطر المغولي الى حد كبير .

ح. رفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه في تلك المناطق[٢]

هذه نبذة موجزة عن السلاجقة السنيين ودورهم في نصرة الاسلام، وإن من الظلم والزور والبهتان أن نطلق على أولئك الشجعان كلمة الشراذم كما فعل الاستاذ نجيب زبيب في الموسوعة العامة في لتاريخ المغرب والأندلس[٣].

---

(١) انظر: السلاطين في المشرق العربي ص٥٦.

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية ص٢٤.

(٣) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (١٠/٢).

الفصل الثاني

قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها

ينتسب العثمانيون الى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيزخان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام ٦١٧هـ الموافق ١٢٢٠م مع قبيلته من كردستان الى بلاد الأناضول فأستقر في مدينة اخلاط[١] ثم بعد وفاته في عام ٦٢٨هـ الموافق ١٢٣٠م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول ، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس[٢] وحين كان ارطغرل والد عثمان فاراً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها اربعمائة عائلة، من ويلات الهجمة المغولية، فاذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة اخوانه في الدين والعقيدة، فكان ذلك التقدم سبباً في نصر المسلمين على النصارى[٣] وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الاسلامي السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعهم ارضا في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم[٤]، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا

---

(١) أخلاط مدينة في شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وآن في ارمينيا.

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية ص٣٦.

(٣) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، زياد ابو غنيمة ص٣٦.

(٤) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور د. عبدالعزيز العمري ص٣٥٢.

توفي سنة ٦٩٩هـ-١٢٩٩م[١] خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم[٢].

(١) تاريخ سلاطين آل عثمان تحقيق بسام الجابي للقرماني ص١٠.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية ص١١٥ محمد فريد.

المبحث الأول

عثمان مؤسس الدولة العثمانية

في عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ولد لارطغرل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية[1] وهي السنة التي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة، يقول ابن كثير: (ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أياما لايظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الحانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم[2].

لقد كان الخطب عظيم والحدث جلل، والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال. وخربوا الديار، في تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمة في التمكين هي أقصى نقطة من الضعف والانحطاط تلك هي بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين، إنها حكمة الله وإرادته ومشيئته النافذة.

قال تعالى: {إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبنائهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين} (سورة القصص:٣).

وقال سبحانه وتعالى : {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح ص١٢ عبدالسلام عبدالعزيز ص١٢.

(٢) البداية والنهاية (١٣/١٩٣،١٩٢).

أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض} (القصص، آية: ٥،٦).

ولاشك أن الله تعالى قادر على ان يمكن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها، بل في طرفة عين قال تعالى: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه ان نقول له كن فيكون .} (النحل: ٤٠).

فلا يستعجل أهل الحق موعود الله عزوجل لهم بالنصر والتمكين، فلابد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية، ولابد من الصبر على دين الله عزوجل: {ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض} (سورة محمد: ٤).

والله إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لادفعة واحدة.

وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان الذي ولد في عام سقوط الخلافة العباسية في بغداد.

أولاً: أهم الصفات القيادية في عثمان الأول:

عندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة في شخصيته كقائد عسكري، ورجل سياسي، ومن أهم هذه الصفات:

١- **الشجاعة:** عندما تنادى أمراء النصارى في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون في عام ٧٠٠هـ/١٣٠١م لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين[1].

٢- **الحكمة:** بعد ما تولى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء

---

(١) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك ص١٩٧.

الدين ضد النصارى، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة . وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم. وسمح له سك العملة باسمه، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحته[1].

٣. **الاخلاص:** عندما لمس سكان الأراضي القريبة من إمارة عثمان أخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة اسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للاسلام والمسلمين[2].

٤. **الصبر:** وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان، ففتح في سنة ٧٠٧هـ حصن كته، وحصن لفكه، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار. وفي سنة ٧١٢هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكرر بيكارى وغيرها وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة في عام ٧١٧هـ/١٣١٧م. وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات. ولم يكن فتح بروسة من الأمور السهلة بل كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته، حيث حدثت بينه وبين حاميتها اقرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان. قال تعالى: {يأيها الذين أمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون} (سورة آل عمران:٢٠٠).

٥. **الجاذبية الايمانية:** وتظهر هذه الصفة عندما احتك به اقرينوس قائد بروسه واعتنق الاسلام أعطاه السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية ص٢٥.

(٢) انظر: قيام الدولة العثمانية ص٢٦.

بشخصية عثمان ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم[1]، بل أن كثيراً من الجماعات الاسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (غزياروم) أي غزاة الروم، وهي جماعة اسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات في جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للاسلام والتزامها بكل ماجاء به الاسلام من نظام، وجماعة (الإخيان) (اي الاخوان) وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذي سخروا أموالهم للخدمات الاسلامية مثل : إقامة المساجد والتكايا و(الخانات(الفنادق، وكانت لهم في الدولة مكانة عالية، ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا في نشر الثقافة الاسلامية وحببوا الناس في التمسك بالدين، وجماعة (حاجيات روم) أي حجاج أرض الروم، وكانت جماعة على فقه بالاسلام، ومعرفة دقيقة لتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً والمجاهدين خصوصاً وغير ذلك من الجماعات[2].

٦- **عدله:** تروي معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحي وانا على غير دينك، فأجابه عثمان: بل كيف لا احكم لصالحك، والله الذي نعبده ، يقول لنا : {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} (سورة النساء،) وكان هذا

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٨.

(٢) انظر: التراجع الحضاري في العالم الإسلامي د. علي عبدالحليم ص٣٣٦،٣٣٢.

العدل الكريم سبباً في اهتداء الرجل وقومه الى الاسلام[1].

إن عثمان الأول استخدم العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر، أو الطغيان، أو البطش وإنما عاملهم بهذا الدستور الرباني: {أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴿﴾ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً} (سورة الكهف: آية: ٨٧،٨٨). والعمل بهذا الدستور الرباني يدل على إيمان وتقوى وفطنة وذكاء وعلى عدل وبر ورحمة.

٧- **الوفاء:** كان شديد الإهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أمير قلعة اولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني، أن لايمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم الى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده[2]. قال تعالى {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلا} (سورة الاسراء:آية)

٨- **التجرد لله في فتوحاته:** فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه ولذلك وصفه المؤرخ احمد رفيق في موسوعته (التاريخ العام الكبير) بأنه (كان عثمان متديناً للغاية، وكان يعلم أن نشر الاسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حباً في السلطة وإنما حباً في نشر الاسلام) [3].

ويقول مصر اوغلو: (لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لأعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه

---

(١) انظر: جوانب مضيئة ص٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٢.

(٣) انظر: جوانب مضيئة ص٣٣.

وقواه نحو تحقيق هذا الهدف[1].

هذه بعض صفات عثمان الأول والتي كانت ثمرات طبيعية لإيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر ، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان وحبه العميق للجهاد في سبيل الله والدعوة إليه ولذلك كان عثمان في فتوحاته يطلب من أمراء الروم في منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور هي الدخول في الاسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وبذلك أسلم بعضهم، وانضم إليه البعض الاخر وقبلوا دفع الجزية. أما ماعداهم فقد شن عليهم جهاداً لاهوادة فيه فانتصر عليهم، وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته.

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر ، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده عثمان، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ماتطلع إليه من أهداف وغاية سامية لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة الى الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم الى الحق والايمان بالله تعالى وكان حريصاً على الأعمال الأصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة ، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران.

ثانياً: الدستور الذي سار عليه العثمانيون:

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً ودعوة في سبيل الله وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٢.

يقول عثمان في وصيته: (يابني: اياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين مؤئلاً.

يابني: أحط من أطاعك بالأعزاز. وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يابني: إنك تعلم أن غايتنا هي أرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله.

يابني : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالاسلام نحيا وللاسلام نموت، وهذا ياولدي ما أنت له أهل)[١].

وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) تجد رواية آخرى للوصية: (اعلم يابني ، أن نشر الاسلام ، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها)[٢].

وفي كتاب مأساة بني عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: (يابني ، أنني أنتقل الى جوار ربي ، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل الله، لنشر دين الاسلام.

يابني ، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم، فانهم لايأمرون إلا بخير.

يابني ، اياك أن تفعل أمراً لا يرضى الله عز وجل ، واذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فانهم سيدلونك على الخير.

واعلم يابني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة، د.محمد حرب، ص١٦.

(٢) انظر: جوانب مضيئة ، ص٢١.

الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا)[١].

وفي التاريخ العثماني المصور، عبارات اخرى من وصية عثمان تقول: (وصيتي لابنائي واصدقائي ، اديموا علوا الدين الاسلامي الجليل بادامة الجهاد في سبيل الله. امسكوا راية الاسلام الشريفة في الاعلى باكمل جهاد. أخدموا الاسلام دائماً؛ لان الله عز وجل قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان. اذهبوا بكلمة التوحيد الى اقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الاعظم يوم المحشر.

يابني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب اجلي بأمر الله جل جلاله اسلمك هذه الدولة واستودعك المولى عز وجل. اعدل في جميع شؤونك..)[٢].

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون، فأهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية وبالجيش، وبالمؤسسات العسكرية ، وبالعلماء واحترامهم، وبالجهاد الذي أوصل فتوحاً الى اقصى مكان وصلت إليه رايته جيش مسلم وبالامارة وبالحضارة)[٣].

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولة العثمانية من خلال تلك الوصية:

١- (يابني اياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين):

إنها دعوة الى الالتزام بشرع الله في كل صغيرة وكبيرة، وبحيث يكون حكم الله وامره مهيمناً على كل شيء قال تعالى : {إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون} (سورة يوسف: آية٤٠).

يعني : (ما الحكم الحق في الربوبية والعقائد والمعاملات إلا لله وحده يوحيه لمن

---

(١)انظر: جوانب مضيئة، ص٣.

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص٣٢.

(٣) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٦.

اصطفاه من رسله، لايمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على السنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة)[1] لقد نزل القرآن الكريم من اجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى قال سبحانه : {إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} (سورة النساء، آية ١٠٥) فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من انزاله[2].

إن عثمان يوصي ابنه كحاكم من بعده لدولة إسلامية أن يتقيد بحكم الله في اعماله، لأنه يعلم أن إقامة حكم الله من خلال الحاكم المسلم عهد وميثاق ذكره الله تعالى، {واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به، إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور} (سورة المائدة: ٧). فهذا تذكير من الله تعالى لعباده المؤمنين بنعمته عليهم في الشرع الذي شرعه لهم في هذا الدين العظيم، المرسل به الرسول الكريم، واخذ للعهد والميثاق عليهم في متابعته ونصرته وابلاغه والقيام به، وهذا مقتضى البيعة التي كان الصحابة يبايعون عليها رسول الله ﷺ ، على السمع والطاعة في المنشط والمكره، كما أن الإخلال بعهد الحاكمية جاهلية قال تعالى : {افحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون} (سورة المائدة، ٥٠). ففي الآية الكريمة إنكار وتوبيخ وتعجب من حال من يتولى عن حكم الله وهو يبغي حكم غيره والآية تعبير لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التي هي هوى وجهل لايصد ر عن كتاب ولايرجع إلى وحي[3].

إن تحقيق الحاكمية، تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التي من اجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: {وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} (سورة الذاريات، ٥٦). أي

---

(١) تفسير المنار (٣٠٩/١٢).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٤٣٣/١).

(٣) تفسير أبي السعود (٧١/٢).

ليطيعوه وحده لاشريك له[1] .وإن المفهوم الواسع الرحيب للعبادة ليشمل علائق وأعمالاً كثيرة، منها مايمكن أن يقيمه الأفراد ومنها مالايمكن تحقيقه على الوجه الأكمل إلا في ظل دولة الإسلام وهذه المعاني الرفيعة كانت واضحة في ذهن المؤسس الأول للدولة العثمانية ولذلك وصى الأمير أورخان بهذه العبارة المنهجية المسددة (يابني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين) وهذا التوجيه من عثمان لابنه كفرد وكرئيس لدولة وفي طياته معنى كون العبادة لها أصلان:

احدهما: أن لا يعبد إلا الله، والثاني : أن يعبد بما أمر وشرع[2] . فإنه مما لاشك فيه كانت الدولة العثمانية حريصة على حماية هذين الأصلين بمحاربة الشرك في داخلها وعملت على تقليص نفوذه خارجها وكانت حريصة على حماية الشرع ضد من يعاود الاعتداء عليه بابتداع أو تحريف أو تغيير أو تبديل، وكل ذلك من حرص أميرها والعلماء الذين من حوله على تحقيق العبودية لله على الوجه المرضي، وعلى حماية الدين من دخائل وانتحالات المضلين، وبهذا تكون دولة بني عثمان أخذت الصبغة الشرعية. (لقد كانت نشأتها إسلامية ، خالصة، مشوبة بإيمان عميق، متوجهة الى أهداف عقائدية)[3] .

٢- إذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً:

إن الله تعالى قد شرع نظام الشورى لحكم بالغة، ومقاصد عظيمة. ولما فيها من المصالح الكبيرة، والفوائد الجليلة التي تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة ولذلك أمر عثمان الاول إبنه أن يجعل من العلماء مجلس شورى له في معضلات الأمور وفي هذا الارشاد امتثال لأمر الله واقتداء برسول اللهﷺ.

قال تعالى : {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٣٩/٤).

(٢) مجموع الفتاوي (١٧٣/١٠).

(٣) المسألة الشرقية ، محمود ثابت الشاذلي ، ص٥٤.

يحب المتوكلين} (سورة آل عمران: آية:١٥٩).

قال الاستاذ سيد قطب -رحمه الله- : (وبهذا النص الجازم {وشاورهم في الأمر} يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم - حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذي يتولاه، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ اساسي لايقوم نظام الاسلام على أساس سواه)(١).

- وقال تعالى : {والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} (سورة الشورى:آية: ٣٨).

يقول الاستاذ عبدالقادر عودة -رحمه الله- (الشورى من دعائم الايمان وصفة من الصفات المميزة للمسلمين ، سوى الله بينها وبين الصلاة والإنفاق في قوله: {والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} . فجعل للاستجابة لله نتائج بين لنا أبرزها، وأظهرها، وهي إقامة الصلاة والشورى والانفاق، واذا كانت الشورى من الايمان فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى، ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة، ومادامت الشورى صفة لازمة للمسلم لايكمل إيمانه إلا بتوفرها، فهي إذن فريضة إسلامية واجبة على الحاكمين والمحكومين، فعلى الحاكم أن يستشير في كل أمور الحكم والإدارة والسياسة، والتشريع وكل مايتعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة العامة، وعلى المحكومين أن يشيروا على الحاكم بما يرونه في هذه المسائل كلها، سواء استشارهم الحاكم أو لم يستشرهم(٢).

والأحاديث القولية والسنة الفعلية الدالة على وجوب الشورى كثيرة ونكتفي بما ذكرنا خوفاً من الإطالة.

وفي رواية ان عثمان أمر ابنه بأن ينزل على رأي العلماء في قوله : (وأنزل على

---

(١) في ظلال القرآن الكريم (٥٠١/٤).

(٢) الاسلام وأوضاعنا السياسية ، ص١٩٣.

مشورتهم فإنهم لايأمرون إلا بخير .)[1] وكأن عثمان - رحمه الله - يرأى أن الشورى ملزمة للحاكم وقد ذهب إلى هذا الراي مجموعة من العلماء المعاصرين منهم العلامة أبو الأعلى المودودي- رحمه الله - : (وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحاكمها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم، وامضاء نظام الحكم بالشورى. يقول تعالى: {وأمرهم شورى بينهم} ، {وشاورهم في الأمر})[2] .

(إن قاعدة: {وأمرهم شورى بينهم} تتطلب بذاتها خمسة أمور: خامسها التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو أكثريتهم، أما أن يستمع ولي الأمر إلى آراء جميع أهل الشورى ثم يختار هو بنفسه بحرية تامة، فإن الشورى في هذه الحالة تفقد معناها وقيمتها، فالله لم يقل: (تؤخذ آراؤهم ومشورتهم في أمرهم) وإنما قال : {وأمرهم شورى بينهم} يعني أن تسير الأمور بتشاور فيما بينهم، وتطبيق هذا القول الإلهي لايتم بأخذ الرأي فقط، وإنما من الضروري لتنفيذه وتطبيقه أن تجري الأمور وفق ما يتقرر بالإجماع أو الأكثرية.)[3].

وهكذا نرى الأمير عثمان يسبق كثير من العلماء والمفكرين المعاصرين في ذهابه إلى أن الشورى ملزمة ويأمر بأنه بالنزول عند رأي العلماء ولكونهم لايأمرون إلا بخير.

لقد ساهمت الشورى في بناء الدولة العثمانية وتماسك رعاياد وعززت السلطان السياسي والجهادي والدعوي للدولة وكانت الآراء تتقلب وفقا لجدارتها. وبمقدار انسجامها مع عقيدة الأمة ودستور الدولة، لقد كان الحكام العثمانيون يريدون لحكمهم أن يستمر ولنظام دولتهم أن يستقر ولذلك حرصوا على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلادهم وجعلوا من الشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ولقد تطورت الشورى في الدولة العثمانية بل أصبح لكل أقليم حاكم يطلق عليه

---

(١) انظر: جوانب مضيئة، ص٢١.

(٢) الخلافة والملك، ص٤١-٤٢.

(٣) الحكومة الاسلامية ، ص٩٤.

باشا وله مجلس الديوان يتشاورون في شؤون الحكم والرعية، ولقد شكلت مجالس وعين نواب وممثلون لكل جماعة واتيحت الفرصة للاختيار وتتطور الأمر حتى وصل في عهد السلطان محمد الفاتح إلى تشكيل مجلس استشاري لأمور الدولة.

إن أشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها كانت في زمن الدولة العثمانية عرضة للاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى في إدارة شؤون الدولة فكان بالنسبة لهم من قبيل المحكم الثابت الذي لايجوز تجاهله أو إهماله وإن كان تاريخ الدولة العثمانية لايخلو من ظهور بعض السلاطين المتسلطين.

٣- يابني أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم:

كان عثمان على صلة متينة مع كبار العلماء والفقهاء وكبار الصالحين في عهده وكثيراً ما يجلس الساعات الطوال بين أيديهم ويتلقى مواعظهم ويستفيد من علمهم ويشاورهم في أمور الدولة وكان يتردد على المولى الشيخ (إده بالي) القرماني المولد وقد زوجه ابنته بسبب رؤيا : (كان في أحد الأيام يبيت عنده، فرأى في المنام قمراً خرج من حضن الشيخ ودخل حضنه. وعند ذلك نبتت شجرة عظيمة سدت أغصانها الآفاق، وتحتها جبال عظيمة تتفجر منها الأنهار، والناس ينتفعون بتلك الأشجار لأنفسهم ودوابهم وبساتينهم، فقص هذه الرؤيا على الشيخ فقال: لك البشرى، بما نلت مرتبة السلطنة. وينتفع بك وبأولادك المسلمون. وإني زوجت لك ابنتي هذه .)[1].

لقد حاول بعض الكتاب أن يجعل من تلك الرؤيا أسطورة لا حقيقة لها مع أن هذه الرؤيا ذكرت في كتاب مهم اسمه الشقائق النعمانية في تاريخ الدولة العثمانية. وهذا الكتاب أفاد وأجاد في ذكر علماء وفقهاء الدولة لفترات زمنية ممتدة.

إن هذه الرؤيا لاتخالف العقل ولا النقل، لأن عثمان الأول رحمه الله كان رجلاً تقياً ورعاً ومن ثمار التقوى الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم : قال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي

---

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تأليف طاش كبر زاده، ص٧ نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية ، د.علي حسون ، ص٢٥.

الآخرة ..} (يونس : ٦٢-٦٤).

والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين، في غير مكان من كتابه وعن النبي ﷺ : (الرؤيا الصالحة من الله . ([١] وعنه عليه الصلاة والسلام : (لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات ؟ قال: (الرؤيا الصالحة([٢] وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله ﷺ : الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس (فقال تلك عاجل بشرى المؤمن([٣].

إن عثمان الأول - رحمه الله - وضع الله له محبة في قلوب المسلمين لجهاده وتقواه وصلاحه.

إن وصية عثمان لابنه بإحترام العلماء اصبحت منهجاً سار عليه حكام الدولة العثمانية وهذا يدل على التزام العثمانيين بشرع الله تعالى، لأن الشريعة أعطت اعتباراً للعلماء وبنته على أمرين:

- أن طاعتهم طاعة لله - عزوجل ولرسوله ﷺ ، فالتزام أمرهم واجب.

- أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها بل هي تبع لطاعة الله ورسوله ﷺ .

والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء في الشريعة كثيرة منها:

الدليل الأول: قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} (سورة النساء، الآية: ٥٩).

وقد اختلف المفسرون في أولي الأمر منكم على أقوال فقيل: هم السلاطين وذوو القدرة. وقيل: هم أهل العلم.

---

(١) البخاري ، كتاب الرؤيا، باب رؤيا الصالحين (٨٨/٨) رقم ٦٩٨٦.

(٢) البخاري ، كتاب الرؤيا ، باب المبشرات (٨٩/٨) رقم ٦٩٩٠.

(٣) مسلم ، كتاب الرؤيا، باب (٢٠٣٤/٤).

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - (يعني أهل الفقه والدين، وأهل طاعة الله الذين يعلمون الناس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، فأوجب الله سبحانه طاعتهم على عباده (1).

(والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء ولما كان قيام الإسلام بطائفتين، العلماء والأمراء، وكان الناس لهم تبعاً، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما(2).

والدليل الثاني : أن الله - سبحانه - أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عما أشكل: قال تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون} (سورة الأنبياء، الآية: ٧).

(وعموم هذه الآية، فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه، العلم بالكتاب المنزل، فإن الله أمر من لايعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث في ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة.)(3).

إن الآيات والأحاديث التي تبين دور العلماء كثيرة ونكتفي بما ذكرنا.

لقد كان العلماء في مسير الدولة العثمانية مرجع للسلاطين عند الفتن والملاحم والمحن وكانت لهم مقدرة عظيمة على حشد الناس تحت لواء الجهاد في سبيل الله تعالى، وإقامة شرعه على الرعية وكانوا لايسمحون للسلطان أن يتجاوز أحكام الشرع وإلا ربما هيجوا عليه الناس وعزلوه، وكانت أحكام العلماء والفقهاء تستنبط من:

---

(١) تفسير الطبري (١٤٩/٥).

(٢) إعلام الموقعين (١٠/١) بتحقيق عبدالرؤوف سعد.

(٣) تفسير السعدي (٢٠٦/٤).

١- القرآن الكريم:

قال تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} (سورة النساء: ١٠٥).

فهو المصدر الأول الذي يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التي تتعلق بشؤون الحياة البشرية، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكاماً قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

٢- السنة المطهرة:

هي المصدر الثاني الذي يستمد منه العلماء الأحكام ومن خلالها يعرفون الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن ممثلة في قيادة الرسول ﷺ للأمة ومن خلال السنة يمكن التعرف على نوعية المجتمع المثالي الذي ينشده الإسلام.

٣- إجماع الأمة:

وخاصة الصحابة، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدين قال تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً} (النساء: ١١٥).

٤- مذهب العلماء والمجتهدين:

قال تعالى: {وإذا جاءهم أمر من الأمن او الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم} (سورة النساءآية : ٨٣).

والآية دليل على الأخذ بالاجتهاد إذا عدم النص والإجماع[١]، ولأن العلماء في أمة محمد ﷺ كالأنبياء في بني إسرائيل، فهم المؤتمون على نقل العلم، والمفوضون في استنباط

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٢٩٢).

الأحكام المتجددة في عمومات الشريعة، لا لعصمة اختصوا بها - فليس في الإسلام كهنوت - ولكن لأهليتهم في أن يُسموا - (أهل الذكر (والله تعالى يقول : {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون} (سورة النحل، آية: ٤٣).

لقد كان علماء الدولة العثمانية على فهم عميق لروح الشريعة وقواعدها ولهم المقدرة على معالجة مايستجد من قضايا في ضوء هذا الفهم، وكانت لهم القدرة على فهم ضبط المناط في الأحكام وقياس الفروع على الأصول فيها.

ولقد كان المذهب الحنفي له القدح المعلى عند علماء الدولة وإن كانوا لايستغنون عن بقية المذاهب السنية التي كانت لها احترامها عند السلاطين العثمانيين.

لقد حرص علماء الدولة العثمانية على أن يكون نظامها السياسي على عقيدة التوحيد، وتطبيق شريعة الله، وتقوم على الشورى، وأن يقوم نظامها الاقتصادي على التعامل بالذهب والفضة، وعدم التعامل بالربا، وعدم الاستغلال والاحتكار، وعدم الاتجار بما حرم الله، وأن يقوم نظامها السلوكي والأخلاقي الإجتماعي على أساس عقيدة الإسلام، وأن يقوم نظامها التعليمي والإعلامي على قاعدة من العلوم الشرعية، وأن تقوم علاقتها الدولية على أساس عقيدة الإسلام التي وضعها الله سبحانه وتعالى - حيث قال: {لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون} (آية: ٨،٩ سورة الممتحنة).

لقد كان العلماء والفقهاء في الدولة العثمانية يشرفون على تطبيق شرع الله، وإقامة الحدود، وتحريم ماحرم الله، ولا تستحل إلا ما حرم الله[(١)].

لقد كان معظم سلاطين الدولة يحترمون العلماء ويجلونهم .

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د.جمال عبدالهادي ، ص٤.

٤- (اعلم يابني ، أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عزوجل عنها) [(١)]

لقد فهم عثمان الأول - رحمه الله - أن دين الإسلام، دين دعوة مستمرة، لاتتوقف حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض وأن من أهداف الدولة الإسلامية دفع عجلة الدعوة إلى الأمام ليصل نور الإسلام إلى كل إنسان. إن الدولة العثمانية كانت ترى من مسؤلياتها القيام بوظيفة الدعوة ونشرها في أرجاء الأرض وربط السياسة الخارجية على الأسس الدعوية العقدية، قبل بنائها على الأسس المصلحية النفعية. وذلك كما كان يفعل رسول الله ﷺ، كان يقوم بتبليغ الدعوة إلى الآفاق امتثالاً لقوله تعالى: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين} (سورة المائدة، ٦٧).

وقد امتثل عليه الصلاة والسلام للأمر وأرسل إلى ملوك الأرض، فكتب إلى ملوك الروم، فقيل له : إنهم لايقرءون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة وختم به الكتب إلى الملوك، وبعث كتباً ورسلاً إلى ملوك فارس والروم، والحبشة ومصر والبلقاء واليمامة في يوم واحد، ثم بعث إلى حكام عمان والبحرين واليمن وغيرهم[(٢)].

ولذلك اقتدى عثمان - رحمه الله - بالنبي ﷺ في دعوته وسار أبناءه من بعده على هذا المنهج وظهرت في الدولة جماعة الدعوة وكان الحكام والسلاطين يقفون معها ويدعمونها مادياً ومعنوياً. ولقد سلك العثمانيون دولة وشعباً سبلاً متعددة من أجل إدخال النصارى في الاسلام ومن هذه الطرق:

- الاحتفال بمن يعلن اعتناقه للاسلام وإمداده بكل ما يعينه على الحياة والابتهال به في المساجد.

- حرص العثمانيون على التمسك بالدين، والتواضع في أداء الشعائر مما جعل

---

(١) انظر: جوانب مضيئة ، ص٢١.

(٢) انظر: زاد المعاد (١/١١٩-١٢٤).

بعض المسيحيين يدخلون في الاسلام.

- معاملة الرقيق من المسيحيين باللين حيث كانوا يعتقونهم إذا ثبت إخلاصهم حتى ولو ظلوا على دينهم ويتولون رعايتهم وبخاصة كبار السن منهم بعد العتق فضلاً عن حسن معاملة من يسلم منهم أو يظل على دينه مما كان دافعاً لكثير منهم على اعتناق الاسلام(١).

- اقبل كثير من العثمانيين على الزواج من مسيحيات حرمت الكنيسة دخولهن فيها مما حدا ببعضهن الى اتباع أزواجهن.

- قام من دخل في الاسلام من النصارى بدعوة أقاربهم وذويهم لما رأو من سماحة الاسلام وانسجامه مع الفطرة، ومخاطبته للعقل، وأحياءه للقلب.

- قامت الدولة العثمانية بنقل قبائل اسلامية تابعة لها الى قرى مسيحية ونقلت أعداد من النصارى الى تجمعات اسلامية مما ساعد على انتشار الاسلام تدريجياً.

- قام السلطان مراد باتباع سياسة الأفراج عن الأسرى إذا هم اعتنقوا الاسلام وأسهم ذلك الأسلوب في زيادة عدد المسلمين.

- ومما ساعد على انتشار الاسلام في البلقان تعسف الإقطاعيين المحليين في فرض الضرائب الباهظة أن كبار رجال الدين من الإقطاعيين قد باعوا أسرار الكنيسة ووظائفها من جهة وسعوا في توثيق علاقاتهم بالنظام العثماني بل بعضهم دخل في الاسلام.

- توسع سلاطين العثمانيين في المنح والعطايا والتقدير لزعماء النصارى الذي أقبلوا على الاسلام وأظهر كثيرون منهم الاخلاص للدولة العثمانية(٢).

لقد أهتم العثمانيون بأمر الدعوة الى الله على مستوى الخارجي وادخال الناس في دين الاسلام ولم يتركوا أمر الإصلاح الداخلي في الدولة واحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

---

(١)انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د.زكريا بيومي، ص٥١، ٥٢، ٥٣.

(٢)انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين.

لقد بين عثمان الأول -رحمه الله- أن حماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنق الحاكم المسلم وهذه الأمور تدخل تحت عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود، والدعوة الى مكارم الأخلاق وتعليم الأمة أمر دينها، ويكون ذلك باشراف الحاكم المسلم، فيترتب على تلك الأمور فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد، والحكام والمحكومين ومن أهم هذه الفوائد:

- إقامة الملة والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله هي العليا.

قال تعالى : {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً} (سورة الحج: آية ٤٠).

إن الإنسان لابد له من أمر ونهي ودعوة ، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر[1].

- رفع العقوبات العامة: قال تعالى : {وما أصبكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} (سورة الشورى: آية ٣٠). وقال أيضاً في الجواب عن سبب مصابهم يوم أحد : {قل هو من عند أنفسكم} (سورة آل عمران: آية ١٦٥). فالكفر والمعاصي بأنواعها سبب للمصائب والمهالك قال تعالى: {فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً مما أنجينا منهم..} (سورة هود: آية ١١٦). وقال: {وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون} (سورة هود: آية ١١٧). (وهذه اشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، فإن الأمة التي يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هي أمم ناجية لايأخذها الله بالعذاب والتدمير[2].

- استنزال الرحمة من الله تعالى؛ لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة قال تعالى : {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدكم .} (سورة ابراهيم: آية٧) والقيام بالأمر بالمعروف

---

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خالد السبت، ص٧٢.

(٢) في ظلال القرآن (١٩٣٣/٤).

والنهي عن المنكر نوع من العبودية لله.

- تحقيق وصف الخيرية في هذه الأمة:

قال تعالى: {كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}.

- التجافي عن صفات المنافقين:

{والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله..} (سورة التوبة: اية ٧).

٥- (يابني أحط من أطاعك بالإعزاز ، وأنعم على الجنود) (١):

إن أمة الاسلام تحتاج لكي تقوم بمهمتها في هداية الناس للخير الى أن تكون صالحة في نفسها، مصلحة لغيرها، فهي الشهيدة على الأمم لأنها أمة الوسط.

قال سبحانه : {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً} (سورة البقرة: آية ١٤٣).

وهناك حقوق متبادلة بين الراعي والرعية، والحاكم والمحكوم، ومن وصية عثمان -رحمه الله- لابنه يبين له حق الرعية على الحاكم ولقد حرص العثمانيون كحكام على تنفيذ حقوق الرعية ومن أهم هذه الحقوق التي قاموا بها:

العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية.

بذل الأسباب المؤدية الى وحدة الأمة.

العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج.

أن يعمل الولاة على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين.

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص١٦.

إعداد الأمة إعداداً جهادياً.

حفظ ماوضعت الشريعة لاجله.

تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء وصرفها في مصارفها الشرعية.

تحري الأمانة في اختيار ارباب المناصب.

اعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

الإشراف المباشر على سير الأمور بين الرعية في كل النواحي الأدارية التي تتعلق بما يصلح أحوالهم(1).

ومن واجبات الرعية تجاه الحكام:

١- قال تعالى: {ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} (سورة النساء: آية ٥٩).

وكان المجتمع العثماني شديد السمع والطاعة لحكامه ماداموا ملتزمين بالشريعة، لأنهم كانوا على علم بأن طاعة الحكام مقيدة دائماً بطاعة الله ورسوله، كما قال ﷺ: (لا طاعة في المعصية ، إنما الطاعة في المعروف)(2).

٢- النصرة :

كان المجتمع العثماني دائماً يلتف حول حكامه الشرعيين ويلبي دعوة الجهاد ويبذل الغالي والرخيص ويرى ذلك عبادة لله تعالى قال تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى} (سورة المائدة: آية ٢).

---

(١) انظر: الحاكم والمحكوم في خطاب الوحي (٣١٥/٢ الى ٣٢٣).

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين (١٤٨٠/٣) رقم ١٨٥٢.

وكان من مفاهيم المجتمع العثماني السائدة عندهم : من نصرة الحاكم الا يهان، ومن معاضدته أن يحترم، وأن يكرم ، فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله، تستوجب تبجيله وإجلاله وإكرامه تبجيلاً وإجلالاً وإكراماً لشرع الله سبحانه الذي ينافح ويدافع عنه. يقول رسول الله ﷺ: (إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط)[1].

٣- النصح:

إن المجتمع العثماني كان يناصح ولاة أمره ويرى ذلك من صميم الدين لقول رسول الله ﷺ: (الدين النصحية -ثلاثاً- قال الصحابة ك لمن يارسول الله؟ قال : لله -عز وجل- ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[2].

٤- التقويم:

لقد استقر في مفهوم المجتمع العثماني أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن استقامة ولاتها، ولذلك نجد في التاريخ العثماني صور مشرقة في تقويم الحكام وارشادهم ونصحهم ، فهذا المولى علاء الدين علي بن أحمد الجمالي المتوفى سنة ٩٣٢هـ ، فقد كان عالماً عاملاً يمضي وقته في التلاوة والعبادة والدرس والفتوى، محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة، وكان كريم النفس ، طيب الاخلاق، عظيم المهابة ، صداعاً بالحق، عفيف اللسان لايذكر أحد بسوء ولعلاء الدين احتساب عظيم مع السلطان سليم خان المتوفى عام ٩٢٦هـ ومن ذلك: أن السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين من موظفيه، فلما سمع المولى علاء الدين بالأمر ذهب الى الديوان، ولم تكن عادته الحضور الى السلطان إلا لأمر عظيم، فلم يشعر الوزراء وأهل الديوان إلا بدخول الشيخ المفتي عليهم، فوثبوا يستقبلونه حتى أقعدوه في صدر المجلس وقالوا له : أي شيء دعا المولى الى المجيء الى الديوان العالي؟ قال: أريد أن أدخل على السلطان ولي معه كلام، فأستأذنوا له على السلطان، فأذن له وحده فدخل عليه وجلس، وقال : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد سمعت

---

(١) ابو داود ، كتاب الادب، باب تنزيل الناس منازلهم رقم الحديث ٤٨٢٢.

(٢) مسلم، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة، (٧٤/١) رقم ٥٥.

بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لايجوز قتلهم شرعاً، فغضب السلطان وكان صاحب حدة، وقال له: لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظفيتك، فقال الشيخ: بل أعترض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي ، ومهما عشت فإنك ميت ومعروض على الله، وواقف بين يديه للحساب، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فإن أمامك جهنم وعليك عقاب عظيم ، ولا يعصمك ملكك ولا ينجيك سلطانك، فما كان من السلطان إلا الاذعان والتسليم أمام نداء الحق من هذا المحتسب، وخضع للحق، وعفا عنهم جميعاً ، ثم إن المحتسب لم يكتف بذلك بل طالبه أن يعيد الجميع الى وظائفهم ففعل. رحم الله المولى علاء الدين الذي كان عظيماً باحتسابه جريئاً في الحق لايخشى فيه لومة لائم ولقد تأثر السلطان سليم بهذا العالم وأرسل إليه بعد ذلك وطلب منه أن يكون قاضي العسكر وقال له جمعت لك بين الطرفين لاني تحققت أنك تتكلم بالحق، فكتب إليه وصل اليّ كتابك سلمك الله تعالى وأبقاك وأمرتني بالقضاء واني امتثل أمرك إلا أن لي مع الله تعالى عهداً أن لاتصدر عني لفظة حكمت فأحبه السلطان محبة عظيمة[1].

وهكذا سار العثمانيون على المنهج الذي وضعه لهم المؤسس الأول.

٦- (ولايغرنك الشيطان بجندك ومالك) (٢):

وهذه المعاني يعيشها من فهم القرآن الكريم وتأثر به، وتأمل في سير الانبياء والمرسلين والمصلحين، لأنه يعلم أن التوفيق من الله تعالى وليس بالجند ولا بالمال وهكذا كان موقف يوسف عليه السلام قال تعالى: {رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً والحقني بالصالحين} (سورة يوسف:آية ١١٠). وهكذا يناجي يوسف عليه السلام ربه، فيقول أصبحت ممكناً في الأرض تشد الي الرحال، وتنصاع لكلمتي الرجال، ورزقتني الفهم وصواب تأويل الرؤى ، وتفسير الأحاديث ويرجع الفضل الى صاحب المن والفضل يقول ابن القيم: (جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من

---

(١) انظر: شذرات الذهب (١٨٥/٨).

(٢) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٦.

موالاة غيره سبحانه. ركون الوفاة على الاسلام أجل غايات العبد. وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء([1]).

وهذا ذو القرنين عندما تمَّ بناء سدّه العظيم وكان يملك الجنود والمال ويتحكم في الشعوب بالعدل قال: {هذا رحمة من ربي} (سورة الكهف: آية٩٧). إنها عبارة جميلة مباركة تشير الى عدة معاني:

١- قال سيد قطب : (ونظر ذو القرنين الى العمل العظيم الذي قام به: فلم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره. ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه..)([2]).

إن من أعظم صور الذكر أن يتذكر العبد فضل الله عليه ، فيستشعر أن فضل الله عليه عظيم ، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

وهكذا كانت وصية عثمان لابنه يحذره فيه من الشيطان ومسالكه ومداخله ويدعوه الى الاحتراز من كيده.

٧- (وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله) (٣)

إن عثمان الأول رحمه الله تعالى- كان يرى أن نشر دين الله في كل الأفاق من وسائله الجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الغاية العليا للجهاد في سبيل الله هي إعلاء كلمة الله لتحقيق عبادته وحدة لا شريك له كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ۞ ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون۞ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} (سورة الذاريات: آية ٥٦،٥٨).

---

(١) الفوائد لابن القيم ، ص٢٦.

(٢) الظلال (٢٢٩٣/٤).

(٣) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٦.

ومفهوم العبادة شامل لنشاط الاسلام كله ويفسر ذلك قوله تعالى: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له۞ وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} (سورة الأنعام: آية).

ومن أجل هذه الغاية انطلق عثمان الأول بجنوده وشعبه مجاهداً في سبيل الله ولسان حاله يقول ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الأديان الى عدل الاسلام، لقد كانت وسيلة العثمانيين من أجل إقامة حكم الله ونظام الاسلام في الأرض الجهاد في سبيل الله.

وعندما حاولت دول النصارى أن تعمل على منع توسع الدولة العثمانية وباشروا في شن هجموهم عليها كانت وسيلة الجهاد كالصخرة العظيمة التي تتحطم عليه محاولتهم المتكررة وامام قادة العثمانيين قول الله تعالى : {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين۞ واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل} (سورة البقرة: آية ١٩٠-١٩٢).

ولقد عمل العثمانيون بهذه النصيحة والوصية، فعملوا على إزالة كل العوائق التي تمنع الناس من سماع دعوة الله تعالى التي جاءت لتعطي الناس أكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطويرها.

ولقد جاهدت الدولة العثمانية في سبيل الله تعالى وفتح الله على يديها دول وشعوب لا زال الإسلام باقياً فيها حتى الآن مثل دول البلقان وعملت على حماية شعوب المسلمين من هجمات النصارى الغاشمة، فكانت سبباً في بقاء الشمال الأفريقي على اسلامه ودينه وعقيدته، وكانت عاملاً مهماً في حماية الأراضي المقدسة من البرتغاليين ومن دخل تحت لوائهم من النصارى الى غير ذلك من الأعمال الجليلة التي سنفصلها في بحثنا هذا باذن الله تعالى.

٨- (من انحرف عن سلالتي من الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول ﷺ الأعظم يوم المحشر) (١):

إن عثمان -رحمه الله تعالى - يتبرأ من ممن ينحرف عن الحق والعدل من ذريته ويدعوا من جاء بعده بالتمسك بالحق وإقامة العدل.

إن العدل هو الدعامة الرئيسية في اقامة المجتمع الاسلامي والحكم الرباني، فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل ولذلك اهتم الاسلام بتقرير هذه القاعدة وتأسيسها وتدعيمها، فأكثر الحديث عنها في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية ومن هذه النصوص:

- قال تعالى : {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} (سورة النحل: آية٩) وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه.

- قال تعالى : {إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل.} (سورة النساء : آية ٥٨) .

- وقال تعالى : {يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً او فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلوا او تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً} (سورة النساء: آية ١٣٥).

ثم إن ترك العدل يعد ظلماً، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذم أهله وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك في الدنيا[٢]. قال تعالى : {ولاتحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون} (سورة ابراهيم: آية ٤٢).

ومن خلال هذه التوجيهات الربانية حرص عثمان على إقامة العدل بين الناس وعمل أن يكون هذا المبدا واقعاً تعيشه الأمة العثمانية من بعده حيث وكان يتحرك

---

(١) السلاطين العثمانيون ، ص٣٣.

(٢) انظر: النظام السياسي في الاسلام :د.محمد ابوفارس، ص٤٩.

بجيوشه ويوظف كل إمكاناته من أجل نشر التوحيد وتعريف الناس بخالقهم، ولقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان وكان دستورد في التعامل مع الناس قول الله تعالى: {أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكراً ۝ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسراً. } (سورة الكهف: آية ٨٧،٨٨).

ولذلك حرص في وصيته على أن يحكم من بعده بالحق والعدل وفي رواية يقول لابنه في الوصية: (اعدل في جميع شؤونك..)[١].

٩- (يابني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالاسلام نحيا وبالاسلام نموت) (٢)

إن هذه الفقرة من الوصية تبين طبيعة تكوين الدولة العثمانية عن غيرها من الدول، فالغاية التي قامت من أجلها إنما هي الدفاع عن الاسلام ورفع رايته في مشارق آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية التي كانت تهدد المسلمين في ديارهم ومن ثم أطلق على زعيم هذه الدولة الناشئة لقب الغازي، أي المجاهد في سبيل الله، وكان يتلقى هذا اللقب في حفل مشهود بتسليم يه راية الجهاد من عالم كبير[٣] وأن الغازي عثمان -رحمه الله- دعا المسلمين من الترك وغيرهم لينضموا تحت راية الجهاد في سبيل الله فاستجاب له الكثير من المؤمنين الصابرين تحدوهم جميعاً رغبة شديدة في الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية[٤].

هذه الوصية الخالدة هي التي سار عليها الحكام العثمانيون في زمن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم.

---

(١) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص٣٢.

(٢) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٦.

(٣) انظر: المسألة الشرقية ، ص٣٩.

(٤) انظر: تركيا والسياسة العربية، ص١٣.

ترك عثمان الأول الدولة العثمانية وكانت مساحتها تبلغ ١٦,٠٠٠ كيلومتر مربع واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذ على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهي : ازنيق وبورصة[١].

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٥.

المبحث الثاني

السلطان اورخان بن عثمان

٧٢٦-٧٦١هـ/١٣٢٧-١٣٦٠م

بعد وفاة عثمان تولى الحكم ابنه أورخان، وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات، وفي عام ٧٢٧هـ الموافق ١٣٢٧هـ سقطت في يده نيقوميديا، وتقع في شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة اسطنبول وهي مدينة أزميت الحالية. فأنشأ بها أول جامعة عثمانية، وعهد بإدارتها إلى داود القيصري، أحد العلماء العثمانيين الذين درسوا في مصر[١] واهتم ببناء الجيش على أسس عصرية وجعله جيشاً نظامياً[٢].

وحرص السلطان أورخان على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف إلى محاصرت العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد. ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده (سليمان (لعبور مضيق (الدردنيل (والاستيلاء على بعض المواقع في الناحية الغربية.

وفي عام (٧٥٨هـ) احتاز سليمان مضيق (الدردنيل (ليلاً مع أربعين رجلاً من فرسان الإسلام ولما أدركوا الضفة الغربية، استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حينذاك حيث لاتزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر (سليمان (جنوده، أن يركبوا في الزوارق حيث تنقلهم إلى الشاطئ الأوربي حيث فتحوا ميناء قلعة (ترنب (، (وغاليبولي (التي فيها قلعة (جنا قلعة (و (ابسالا ((ورودستو (وكلها تقع على مضيق (الدردنيل (من الجنوب إلى الشمال، وبهذا خطا هذا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده في فتح (القسطنطينية ([٣].

---

(١) انظر : قيام الدولة العثمانية ، ص٢٩.

(٢) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٧.

(٣) انظر : الى الدولة العثمانية ، الدكتور جمال عبدالهادي ، ص٢٢.

أولاً : تأسيس الجيش الجديد ديني تتاري :

إن من أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الإسلامي وحرص على إدخال نظاماً خاصاً للجيش، فقسمه إلى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص، أو مائة شخص، او الف شخص، وخصص خمس الغنائم للانفاق منها على الجيش، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لايجتمع إلا وقت الحرب، وانشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها[١].

كما انه اضاف جيشاً آخر عرف بالانكشارية[٢]، شكله من المسلمين الجدد الذين ازداد عددهم بعد اتساع رقعة الدولة وانتصاراتها الكبيرة في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين، ودخول أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام، ثم انضمامهم إلى صفوف المجاهدين في سبيل نشر الإسلام، فبعد أن يعتنقوا الإسلام ويتم تربيتهم تربية إسلامية فكرياً وحربياً يعينون في مراكز الجيش المختلفة، وقد قام العلماء والفقهاء مع سلطانهم أورخان بغرس حب الجهاد والذود عن الدين والشوق إلى نصرته أو الشهادة في سبيله واصبح شعارهم (غازياً او شهيداً) عندما يذهبون إلى ساحة الوغى[٣].

ولقد زعم معظم المؤرخين الأجانب ان جيش الانكشارية تكون من انتزاع أطفال النصارى من بين أهاليهم ويجبرونهم على اعتناق الإسلام، بموجب نظام أو قانون زعموا أنه كان يدعى بنظام (الدفشرية)، وزعموا أن هذا النظام كان يستند إلى ضريبة إسلامية شرعية أطلقوا عليها اسم (ضريبة الغلمان (واسموها أحياناً (ضريبة الأبناء (، وهي ضريبة زعموا انها تبيح للمسلمين العثمانيين ان ينتزعوا خمس عدد أطفال كل مدينة او قرية نصرانية ، باعتبارهم خمس الغنائم التي هي حصة بيت مال المسلمين ومن هؤلاء المؤرخين الأجانب الذين افتروا على الحقيقة، كارل بروكلمان، وجيبونز، وجب[٤] ، إن

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٠٢

(٣) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص٣٠٢.

(٤) انظر: جوانب مضيئة ، ص١٣٢.

الحقيقة تقول أن نظام الدثرمة المزعوم ليس سوى كذبة دُسَّت على تاريخ أورخان بن عثمان ومراد بن أورخان وانسحبت من بعده على العثمانيين قاطبة، فلم يكن نظام الدثرمة هذا إلا اهتماما من الدولة العثمانية بالمشردين من الأطفال النصارى الذين تركتهم الحروب المستمرة أيتاما أو مشردين، فالإسلام الذي تدين الدولة العثمانية به يرفض رفضا قاطعا ما يسمى بضريبة الغلمان التي نسبها المغرضون من المؤرخين الأجانب إليها.

لقد كانت أعداد هائلة من الأطفال فقدوا آبائهم وأمهاتهم بسبب الحروب والمعارك، فاندفع المسلمون العثمانيون إلى احتضان أولئك الأطفال الذين هاموا في طرقات المدن المفتوحة بعد فقدانهم لآبائهم وأمهاتهم وحرصوا على تأمين مستقبل كريم لهم وهل من مستقبل كريم وأمين إلا في الإسلام، أفاءن يحرص المسلمون على أن يعتنق الأطفال المشردون التائهون الإسلام، انبرى المفترون يزعمون أن المسلمين كانوا ينتزعونهم من أحضان آبائهم وأمهاتهم ؟؟ ويكرهونهم على الإسلام.

ومن المؤسف أن هذه الفرية الحاقدة، وهذا الإفك المبين، وهذا البهتان العظيم التقفه بعض المؤرخين المسلمين يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم وكأنه أمر مسلم به ويطرح على الطلاب كأنه حقيقة من الحقائق ولقد تأثر بكتب المؤرخين الأجانب مجموعة من المؤرخين المسلمين ومن هؤلاء من يشهد له بالغيرة على الإسلام، فأصبحوا يرددون هذا البهتان في كتبهم من أمثال، المؤرخ محمد فريد بك المحامي في كتابه الدولة العلية العثمانية، والدكتور علي حسون في كتابه، تاريخ الدولة العثمانية، والمؤرخ محمد كرد في كتابه خطط الشام، والدكتور عمر عبدالعزيز في كتابه (محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية (والدكتور عبدالكريم غرايبه في كتاب العرب والأتراك.

الحقيقة تقول كل من ذكر ضريبة الغلمان أو أخذهم بالقوة من ذويهم تحت قانون أخذ خمس أطفال المدن والقرى ليس لهُ دليل إلا كتب المستشرقين، كجب، المؤرخ النصراني سوموفيل، أو بركلمان وهؤلاء لايطمئن إليهم في كتابة التاريخ الإسلامي ولا إلى نواياهم تجاه الإسلام وتاريخ الإسلام.

إن النين يربون تربية خاصة على الجهاد لم يكونوا نصارى وإنما كانوا أبناء آباء

مسلمين انخلعوا عن النصرانية، واهتدوا إلى الإسلام، وشرعوا من أنفسهم وعن طواعية لا عن إكراه، يقدمون أبناءهم للسلطان ليستكمل تربيتهم تربية إسلامية، أما باقي الأطفال فقد كانوا من الأيتام والمشردين الذين أفرزتهم الحروب فاحتضنتهم الدولة العثمانية.

إن حقيقة الجيش الجديد الذي أنشأه أورخان بن عثمان هي تشكيل جيش نظامي يكون دائم الاستعداد والتواجد قريباً منه في حالة الحرب أو السلم على حد سواء، فشكل من فرسان عشيرته ومن مجاهدي النفير الذين كانوا يسارعون لاجابة داعي الجهاد ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخل الإسلام في قلوبهم، وحسن إسلامهم وما كاد أورخان ينتهي من تنظيم هذا الجيش حتى سارع إلى حيث يقيم العالم المؤمن التقي الحاج بكتاش وطلب منه أن يدعو لهم خيراً، فتلقاهم العالم المؤمن خير لقاء ووضع يده على رأس أحد الجنود، ودعا لهم الله أن يبيض وجوههم، ويجعل سيوفهم حادة قاطعة، وأن ينصرهم في كل معركة يخوضونها في سبيل الله ثم مال تجاه أورخان فسأله: هل اتخذت لهذا الجيش اسماً. ؟ قال: لا، قال: فليكن اسمه (يني جري (وتلفظ (يني تشري (أي الجيش الجديد.

وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر وسطها هلال، وتحت الهلال صورة لسيف أطلقوا عليه اسم (ذي الفقار (تيمناً بسيف الإمام علي رضي الله عنه[1].

لقد كان علاء الدين بن عثمان أخو أورخان صاحب الفكرة وكان عالماً في الشريعة ومشهور بالزهد والتصوف الصحيح[2].

وعمل أورخان على زيادة عدد جيشه الجديد بعد أن ازدادت تبعات الجهاد ومناجزة البيزنطيين، فاختار عدداً من شباب الأتراك، وعدداً من شباب البيزنطيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم، فضمهم إلى الجيش واهتم اهتماماً كبيراً بتربيتهم تربية إسلامية جهادية.

ولم يلبث الجيش الجديد حتى تزايد عدده، وأصبح يضم آلافاً من المجاهدين في سبيل الله.

---

(١) انظر: جوانب مضيئة ، ص١٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٤٤.

لقد كان أورخان وعلاء الدين متفقين على أن الهدف الرئيسي لتشكيل الجيش الجديد، هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين وفتح المزيد من أراضيهم بهدف نشر الإسلام فيها، والاستفادة من البيزنطيين الذين أسلموا في نشر الإسلام بعد أن يكونوا تلقوا تربية إسلامية جهادية وترسخت في قلوبهم مبادئ الإسلام سلوكا وجهاداً.

وخلاصة القول، أن السلطان أورخان، لم ينتزع غلاماً نصرانياً واحداً من بيت أبيه، ولم يكره غلاماً نصرانياً واحداً على اعتناق الإسلام، وأن كل ما زعمه بروكلمان وجيب وجببونز، كذب واختلاق، ينبغي أن تزال آثاره من كتب تاريخنا الإسلامي[1] إن من مقتضيات الأمانة العلمية، والأخوة الإسلامية، تضع في عنق كل مسلم غيور، وخاصة العلماء والمثقفين والمفكرين، والمؤرخين والمدرسين، والباحثين، والإعلاميين، أمانة نسف هذه الفرية ودحض هذه الشبهة التي ألصقت بالعثمانيين وأصبحت كأنها حقيقة لاتقبل النقاش والمراجعة والحوار.

ثانياً: سياسة أورخان الداخلية والخارجية:

كانت غزوات أورخان منصبة على الروم ولكن حدث في سنة (٧٣٦هـ-١٣٣٦م) أن توفي أمير قره سي - وهي إحدى الإمارات التي قامت على أنقاض دولة سلاجقة الروم واختلف ولده من بعده وتنازعا الإمارة . واستفاد أورخان من هذه الفرصة فتدخل في النزاع وانتهى بالإستيلاء على الإمارة وقد كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة أن ترث دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وترث ماكانت تملكه واستمر الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمتها لسلطانه.

واهتم أورخان بتوطيد أركان دولته وإلى الأعمال الإصلاحية والعمرانية ونظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وانشأ المعاهد العلمية[2] وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة، وكانت كل قرية بها

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٥٥.

(٢) انظر: محمد الفاتح ، الدكتور سالم الرشيدي ، ص٢٥.

مدارسها وكل مدينة بها كليتها التي تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق والميتافزيقا وفقه اللغة وعلم الإبداع اللغوي والبلاغة والهندسة والفلك[1] وبالطبع تحفيظ القرآن وتدريس علومه والسنة والفقه والعقائد.

وهكذا أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قره سي عشرين سنة دون أن يقوم بأي حروب، بل قضاها في صقل النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة. وفي تعزيز الأمن الداخلي، وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها وإقامة المنشآت العامة الشاسعة، مما يشهد بعظمة أورخان وتقواه. وحكمته وبعد نظره، فإنه لم يشن الحرب تلو الحرب طمعاً في التوسع وإنما حرص على تعزيز سلطانه في الأراضي التي يتاح له ضمها. وحرص على طبع كل أرض جديدة بطابع الدولة المدني والعسكري والتربوي والثقافي وبذلك تصبح جزءاً لايتجزأ من أملاكهم، بحيث أصبحت أملاك الدولة في آسيا الصغرى متماثلة ومستقرة.

وهذا يدل على فهم واستيعاب أورخان لسنة التدرج في بناء الدول وإقامة الحضارة، وإحياء الشعوب.

وما أن تم أورخان البناء الداخلي حتى حدث صراع على الحكم داخل الدولة البيزنطية وطلب الأمبراطور (كونتاكوزينوس) مساعدة السلطان أورخان ضد خصمه، فأرسل قوات من العثمانيين لتوطيد النفوذ العثماني في أوربا. وفي عام ١٣٥٨ أصاب زلزال مدن تراقيا فانهارت أسوار غاليبولي وهجرها أهلها مما سهل على العثمانيين دخولها. وقد احتج الإمبراطور البيزنطي على ذلك دون جدوى. وكان رد أورخان أن العناية الإلهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته. ومالبثت غاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربا، ومنها انطلقت الحملات الأولى التي توجت في النهاية بالإستيلاء على كل شبه جزيرة البلقان. وحين انفرد حنا الخامس باليولوجس بحكم بيزنطة أقر كل فتوح أورخان في أوروبا في مقابل تعهد السلطان بتسيهل وصول الطعام والمؤن إلى القسطنطينية. وأرسل أورخان أعداداً كبيرة من القبائل المسلمة بغية الدعوة إلى الإسلام ومنع تمكن النصارى من

---

(١) انظر: في أصول التاريخ العثماني، محمد عبدالرحيم، ص٤٠.

طرد العثمانيين من أوربا[1].

ثالثاً: العوامل التي ساعدت السلطان أورخان في تحقيق أهدافه :

١- المرحلية التي سار عليها أورخان واستفادته من جهود والده عثمان ووجود الإمكانيات المادية والمعنوية التي ساعدتهم على فتح الأراضي البيزنطية في الأناضول وتدعيم سلطتهم فيها ولقد تميزت جهود أورخان بالخطى الوئيدة والحاسمة في توسيع دولته ومد حدودها، ولم ينتبه العالم المسيحي إلى خطورة الدولة العثمانية إلا بعد أن عبروا البحر واستولوا على غاليبولي[2].

٢- كان العثمانيون - يتميزون - في المواجهة الحربية التي تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية - بوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة المذهب الديني وهو المذهب السني.

٣- وصول الدولة البيزنطية إلى حالة من الإعياء الشديد وكان المجتمع البيزنطي قد أصابه تفكك سياسي وانحلال ديني واجتماعي، فسهل على العثمانيين ضم أقاليم هذه الدولة.

٤- ضعف الجبهة المسيحية نتيجة لعدم الثقة بين السلطات الحاكمة في الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر، ولذلك تعذر في معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسية والعسكرية للوقوف في جبهة واحدة ضد العثمانيين[3].

٥- الخلاف الديني بين روما والقسطنطينية أي بين الكاثوليك والأرثوذكسية الذي استحكمت حلقاته وترك آثاراً عميقة الجذور في نفوس الفريقين.

٦- ظهور النظام العسكري الجديد على أسس عقدية، ومنهجية تربوية وأهداف ربانية وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيين.

---

(١) انظر: اصول التاريخ العثماني ، ص٤٧.

(٢) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٢٢.

(٣) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث ، ص٢٣.

المبحث الثالث

السلطان مراد الأول

٧٦١-٧٩١هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م

كان مراد الأول شجاعاً مجاهداً كريماً متديناً، وكان محبا للنظام متمسكاً به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفاً بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين، شكل منهم مجلساً لشورته، وتوسع في آسيا الصغرى وأوربا في وقت واحد.

ففي أوربا هاجم الجيش العثماني أملاك الدولة البيزنطية ثم استولى على مدينة أدرنه في عام (٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م) وكانت لتلك المدينة أهمية استراتيجية في البلقان، وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية. واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام (٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوربا، وأصبحت أدرنه عاصمة إسلامية، وكان هدف مراد من هذه النقلة:

١- استغلال مناعة استحكامات أدرنة الحربية وقربها من مسرح العمليات الجهادية.

٢- رغبة مراد في ضم الأقاليم الأوربية التي وصلوا اليها في جهادهم وثبتوا أقدامهم فيها.

٣- جمع مراد في هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة وأصول الحكم، فتكونت فيها فئات الموظفين وفرق الجيش وطوائف رجال القانون وعلماء الدين، وأقيمت دور المحاكم وشيدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية لتدريب الانكشارية.

واستمرت أدرنة على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني حتى فتح العثمانيون القسطنطينية في عام (٨٥٧هـ- ١٤٥٣م)، فأصبحت عاصمة

لدولتهم[1].

أولاً: تحالف صليبي ضد مراد:

مضى السلطان مراد في حركة الجهاد والدعوة وفتح الأقاليم في أوربا، وانطلق جيشه يفتح مقدونيا، وكانت لانتصاراته أصداء بعيدة، فتكون تحالف أوربي بلقاني صليبي باركه البابا أوربا الخامس، وضم الصربيين والبلغاريين والمجريين، وسكان إقليم والاشيا. وقد استطاعت الدول الأعضاء في التحالف الصليبي أن تحشد جيشاً بلغ عدده ستين ألف جندي تصدى لهم القائد العثماني (لالاشاهين (بقوة تقل عدداً عن القوات المتحالفة، وقابلهم على مقربة من (تشيرمن(على نهر مارتيزا، حيث وقعت معركة مروعة وانهزم الجيش المتحالف، وهرب الأميران الصربيان، ولكنهما غرقا في نهر مارتيزا ، ونجا ملك المجر بأعجوبة من الموت أما السلطان مراد فكان في هذه الأثناء مشتغلاً بالقتال في بلاد آسيا الصغرى حيث فتح عدة مدن ثم عاد الى مقر سلطنته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن القائد الحكيم[2].

وكان من نتائج انتصار العثمانيين على نهر مارتيزا أمور مهمة منها:

١- تم لهم فتح إقليم تراقيا ومقدونيا ووصلوا الى جنوبي بلغاريا والى شرقي صربيا.

٢- اصبحت مدن وأملاك الدولة البيزنطية وبلغاريا وصربيا تتساقط في أيديهم كأوراق الخريف[3].

أول معاهدة بين الدولة العثمانية والمسيحية:

لما اشتد ساعد الدولة العثمانية خاف مجاوروها، خصوصاً الضعفاء منهم، فبادرت

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، د.اسماعيل باغي، ص٣٨.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص١٣٦.

(٣) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث ، ص٣٧.

جمهورية (راجوزه)[1] وارسلت الى السلطان مراد رسلاً ليعقدوا مع السلطان مراد معاهدة ودية وتجارية تعاهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهب وهذه أول معاهدة عقدت بين الدولة العثمانية والدول المسيحية[2].

معركة قوصره:

كان السلطان مراد قد توغل في بلاد البلقان بنفسه وعن طريق قواده مما أثار الصرب، فحاولوا في أكثر من مرة استغلال غياب السلطان عن أوروبا في الهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وماجاورها ولكنهم فشلوا في تحقيق انتصارات تذكر على العثمانيين ، فتحالف الصرب والبوسنيون والبلغار وأعدوا جيشا أوروبيا صليبيا كثيفا لحرب السلطان الذي كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعداداً قويا الى منطقة كوسفو في البلقان ومن الموافقات التي تذكر أن وزير السلطان مراد الذي كان يحمل معه مصحفا فتحه على غير قصد فوقع نظره على هذه الآية: {يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون} (سورة الانفال: الآية ٦٥) فاستبشر بالنصر واستبشر معه المسلمون ولم يلبث أن نشب القتال بين الجمعين وحمي وطيسه واشتدت المعركة وانجلت الحرب عن انتصار المسلمين انتصاراً باهراً حاسماً[3].

ثانياً : استشهاد السلطان مراد :

بعد الانتصار في قوصووه، قام السلطان مراد يتفقد ساحة المعركة ويدور بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين ويدعوا لهم، كما كان يتفقد الجرحى، وفي أثناء ذلك قام جندي من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنه تظاهر بأنه جاء يريد محادثة السلطان ويريد أن يعلن اسلامه على يديه،

---

(١) تطل على البحر الأدرياتيكي.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، د.محمد فريد، ص١٣٢.

(٣) انظر: محمد الفاتح د.سالم الرشيدي ، ص٣٠. الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص٣٨٩.

وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يطلقوه فتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وقام في حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان فاستشهد رحمه الله في ١٥ شعبان ٧٩١هـ[١].

أ- الكلمات الأخيرة للسلطان مراد:

(لايسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد إن لا إله إلا الله ، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الاسلام. أطيعوا ابني يزيد، ولاتعذبوا الأسرى ولا تؤذونهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم الى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء([٢]) لقد استشهد هذا السلطان العظيم بعد أن بلغ من العمر ٦٥ عاماً.

ب- دعاء السلطان مراد قبل إندلاع معركة قوصوه:

كان السلطان مراد يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه ومن دعاءه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية ، يقول السلطان مراد في مناجاته لربه : (يا الله يارحيم يارب السموات يامن تتقبل الدعاء لا تخزني يارحمن يارحيم استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة رسل السماء علينا مدراراً وبدد سحب الظلام فنرى عدونا وما نحن سوى عبيدك المذنبين إنك الوهاب ونحن فقراؤك. ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع، وأنت العليم ياعلام الغيوب والأسرار وما تخفي الصدور ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة ولا يحملني طلب المغنم فأنا لا أطمع إلا في رضاك ياالله ياعليم ياموجود في كل الوجود[٣] أفديك روحي فتقبل رجائي ولاتجعل المسلمين يبوء بهم الخذلان أمام العدو. ياالله ياأرحم الراحمين لاتجعلني سبباً في موتهم، بل أجعلهم المنتصرين، إن روحي أبذلها فداء لك يارب إني وددت ولازلت دوماً إبغي الاستشهاد من أجل جند الاسلام، فلا

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني ، ص١٦.

(٢) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٩.

(٣) أي موجود بعلمه في كل الوجود.

ترني ياإلهي محنتهم واسمح لي ياإلهي هذه المرة أن أستشهد في سبيلك ومن أجل مرضاتك..)[1].

وفي رواية : (يا إلهي ، أنني أقسم بعزتك وجلالك أننى لا أبتغي من جهادي هذه الدنيا الفانية، ولكنني أبتغي رضاك، ولا شيء غير رضاك ياإلهي. أنني أقسم بعزتك وجلالك أنني في سبيلك، فزدني تشريفاً بالموت في سبيلك)[2].

وفي رواية : (ياإلهي ، ومولاي ، تقبل دعائي وتضرعي ، وأنزل علينا برحمتك غيثاً يطفئ من حولنا غبار العواصف، وأغمرنا بضياء يبدد من حولنا الظلمات، حتى نتمكن من ابصار مواقع عدونا فنقاتله في سبيل اعزاز دينك العزيز.

إلهي ومولاي، ان الملك والقوة لك، تمنحها لمن تشاء من عبادك، وأنا عبدك العاجز الفقير. تعلم سري ، وجهري، أقسم بعزتك وجلالك انني لا أبتغي من جهادي حطام هذه الدنيا الفانية ، ولكني ابتغي رضاك ولا شيء غير رضاك.

إلهي، ومولاي، أسألك بجاه وجهك الكريم، أن تجعلني فداء للمسلمين جميعاً. ولا تجعلني سبباً في هلاك احد من المسلمين في سبيل غير سبيلك القويم.

إلهي، ومولاي ، ان كان في استشهادي نجاة لجند المسلمين فلا تحرمني الشهادة في سبيلك ، لأنعم بجوارك ونعم الجوار جوارك.

إلهي، ومولاي، لقد شرفتني بأن هديتني الى طريق الجهاد في سبيلك ، فزدني شرفاً بالموت في سبيلك)[3].

إن هذا الدعاء الخاشع دليل على معرفة السلطان مراد لله عز وجل ، وعلى انه حقق شروط كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ولقد اجتمعت شروطها في سلوكه وحياته فهو على :

---

(١) انظر : الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص٣٩٠.

(٢) انظر : جوانب مضيئة ، ص١٩٠.

(٣) جوانب مضيئة ، ص٤٠،٤١.

- علم بمعناها المراد بها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل بذلك قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله} (سورة محمد : آية ١٩).

وقال تعالى: {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} (سورة الزخرف: آية ٨٦). أي بـ (لا إله إلا الله(وهم يعلمون (بقلوبهم مانطقوا به بألسنتهم .

- اليقين المنافي للشك، فقد كان السلطان مراد مستقيناً بمدلول هذه الكلمة، يقيناً جازماً، فإن الايمان لايغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن[1]. قال تعالى: {إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون} (سورة الحجرات: آية ١٥).

قبوله لما أقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وانقياده لما دلت عليه من أوامر واجتناب للنواهي قال تعالى: {ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد إستمسك بالعروة الوثقى} (سورة لقمان: آية ٢٢).

قال تعالى: {فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما} (سورة

- كان صادقاً مع ربه، مخلصاً اخلاصاً طهر به شوائب الشرك من نفسه قال تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء} (سورة البينة: آية٥).

- كان مخلصاً لخالقه مستعداً لبذل النفس والمال في سبيله قال تعالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله..} (سورة البقرة: آية ١٦٥).

وقال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم

---

(١) معارج القبول (٤١٩/٢).

يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم..} (سورة المائدة: آية ٥٤).

وفي الحديث الصحيح: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)[١].

لقد فهم السلطان مراد حقيقة الايمان وكلمة التوحيد وذاق آثارها في حياته، فنشأت في نفسه آنفة وعزة مستمدة من الايمان بالله ، فايقن أنه لا نافع إلا الله، فهو المحي والمميت، وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة ومن ثم نزع من قلبه كل خوف إلا منه سبحانه، فلم يطأطأ راسه أمام احد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يرتع من كبريائه وعظمته، لأنه على يقين بأن الله هو القادر العظيم ، ولقد اكسبه الايمان بالله قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل والتطلع الى معالي الأمور ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، فكان في المعارك التي خاضها ثابتاً كالجبال الراسية وكان على يقين راسخ بأن المالك الوحيد لنفسه وماله هو الله سبحانه وتعالى ولذلك لم يبالي بأن يضحي في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص.

أن السلطان مراد عاش حقيقة الإيمان وبذلك اندفع الى ساحات الجهاد، وبذل مايملكه من أجل دعوة الاسلام.

لقد قاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها احد من ساسة عصره قال المؤرخ البيزنطي هالكو نديلاس عن مراد الأول : (قام مراد بأعمال هامة كثيرة. دخل ٣٧ معركة سواء في الاناضول أو في البلقان ، وخرج منها جميعاً ظافراً، وكان يعامل رعيته معاملة شفوقة دون النظر لفوارق العرق والدين)[٢].

ويقول عنه المؤرخ الفرنسي كرينارد: (كان مراد واحداً من اكبر رجالات آل

---

(١) البخاري، كتاب الايمان، باب حلاوة الايمان (١١/١) رقم ١٦.

(٢) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٩.

عثمان ، وإذا قومنا تقويما شخصيا ، نجده في مستوى أعلى من كل حكام أوروبا في عهده)[1].

لقد ورث مراد الأول عن والده إمارة كبيرة بلغت ٩٥,٠٠٠كيلومتر مربع وعند استشهاده ، تسلم أبنه بايزيد هذه الامارة العثمانية بعد أن بلغت ٥٠٠,٠٠٠كليومتر مربع بمعنى أنها زادت في مدى حوالي ٢٩ سنة أكثر خمسة أمثال ماتركها له والده أوروخان[2].

أما النتائج التي ترتبت على انتصار المسلمين في معركة قوصوه ما يلي:

انتشار الاسلام في منطقة البلقان وتحول عدد كبير من الأشراف القدامى والشيوخ الى الاسلام بمحض إرادتهم .

اضطرت العديد من الدول الأوروبية الى أن تخطب ود الدولة العثمانية ، فبادرت بعضها بدفع الجزية لهم، وقام البعض الآخر بإعلان ولائه للعثمانيين خشية قوتهم واتقاء غضبهم.

أمتدت سلطة العثمانيين على أمراء المجر ورومانيا والمناطق المجاورة للإدرياتيك حتى وصل نفوذهم الى البانيا[3].

---

(١)انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص١٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٠.

(٣) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، د.عبدالعزيز العمري، ص٣٨٨.

المبحث الرابع

السلطان بايزيد الأول

٧٩١-٨٠٥هـ/١٣٨٩-١٤٠٢م

بعد استشهاد السلطان مراد تولى الحكم ابنه بايزيد، وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمساً للفتوحات الاسلامية، ولذلك أهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية فاستهدف الإمارات المسيحية في الاناضول وخلال عام اصبحت تابعة للدولة العثمانية ، وكان بايزيد كمثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب (الصاعقة([1]).

أولاً: سياسته مع الصرب:

شرع بايزيد في إقامة علاقات ودية مع الصرب مع أنهم كانوا السبب في قيام تحالف بلقاني ضد الدولة العثمانية وكان غرض بايزيد من هذه العلاقة اتخاذ دولة الصرب كحاجز بينه وبين المجر، وكان يشعر بضرورة اتخاذ حليف له في سياسته العسكرية النشطة التي استهدفت الامارات السلجوقية التركية الاسلامية في آسيا الصغرى ولذلك وافق بايزيد على أن يحكم الصرب ابنا الملك (لازار) الذي قتل في معركة قوصوة وفرض عليهما أن يكونا حاكمين على صربيا، يحكمانها حسب قوانين بلاد الصرب واعرافها وتقاليدها وعاداتها، وأن يدينان له بالولاء ويقدمان له جزية وعدداً معيناً من الجنود يشتركون في فرقة خاصة بهم في حروبه[2] وتزوج ابنة الملك لازار.

ثانياً: اخضاع بلغاريا للسيادة العثمانية:

بعد أن تم التفاهم مع الصرب وجه بايزيد ضربه خاطفة في عام (٧٩٧هـ/١٣٩٣م) الى بلغاريا، فاستولى عليها وإخضع سكانها ، وبذلك فقدت البلاد استقلالها السياسي. وكان

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٤٠.

(٢) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الجديث ، ص٤١.

لسقوط بلغاريا في قبضة الدولة العثمانية صدى هائل في أوروبا وانتشر الرعب والفزع والخوف أنحاءها وتحركت القوى المسيحية الصليبية للقضاء على الوجود العثماني في البلقان[1].

ثالثاً: التكتل الدولي المسيحي الصليبي ضد الدولة العثمانية:

قام سيجسموند ملك المجر والبابا بونيفاس التاسع بالدعوة لتكتل اوروبي صليبي مسيحي ضد الدولة العثمانية وكان ذلك التكتل من أكبر التكتلات التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر، من حيث عدد الدول التي اشتركت فيه، ثم أسهمت فيه بالسلاح والعتاد والأموال والقوات وبلغ العدد الاجمالي لهذه الحملة الصليبية ١٢٠,٠٠٠ مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا وفرنسا إنجلترا واسكتلندا وسويسرا ولوكسمبرج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الامارات الايطالية)[2].

وتحركت الحملة عام (٨٠٠هـ/١٣٩٦م) الى المجر، ولكن زعمائها وقادتها اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة. فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتى يبدأ العثمانيون الهجوم، ولكن قواد الحملة شرعوا بالهجوم، وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا الى نيكوبوليس شمال البلقان وبدؤوا في حصارها وتغلبوا في أول الأمر على القوات العثمانية، إلا أن بايزيد ظهر فجأة ومعه حوالي مئة ألف جندي، وهو عدد يقل قليلاً عن التكتل الأوروبي الصليبي، ولكنه يتفوق عليهم نظاماً وسلاحاً ، فانهزم معظم النصارى ولاذوا بالفرار والهروب وقتل وأسر عدد من قادتهم. وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس بغنائم كثيرة وفيرة واستولوا على ذخائر العدو[3]. وفي نشوة النصر والظفر قال السلطان بايزيد انه سيفتح ايطاليا ويطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس بروما[4].

لقد وقع كثير من اشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفر نفسه في الأسر ، فقبل

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٤١.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د.علي حسون، ص٢٤،٢٥.

(٣) الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٤٢.

(٤) انظر: محمد الفاتح، د.سالم الرشيدي، ص٣٣.

السلطان بايزيد دفع الفدية وأطلق سراح الأسرى والكونت دي ينفر وكان قد ألزم بالقسم على أن لا يعود لمحاربته قال له أني أجيز لك أن لاتحفظ هذا اليمين فأنت في حل من الرجوع لمحاربتي إذ لاشيء أحب إليَ من محاربة جميع مسيحي أوروبا والانتصار عليهم[1].

أما سجسموند ملك المجر كان قد بلغ به الغرور والاعتداد بجيشه وقوته أن قال: لو انقضت السماء عليائها لأمسكناها بحرابنا . فقد ولى هاربا ومعه رئيس فرسان رودس ولما بلغا في فرارهما شاطئ البحر الأسود وجد هناك الأسطول النصراني فوثبا على احدى السفن وفرت بهما مسرعة لا تلوي على شيء وتضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوروبي بعد معركة نيكوبوليس وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة[2] لقد كان ذلك النصر المظفر له أثر على بايزيد والمجتمع الاسلامي. فقام بايزيد ببعث رسائل الى كبار حكام الشرق الأسلامي يبشرهم بالانتصار العظيم على النصارى، واصطحب الرسل معهم الى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلاً مادياً على انتصاره. واتخذ بايزيد لقب (سلطان الروم) كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول. كما أرسل الى الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعا شرعيا رسمياً فتزداد هيبته في العالم الاسلامي، وبالطبع وافق السلطان المملوكي برقوق حامي الخليفة العباسي على هذا الطلب لأنه يرى بايزيد حليفه الوحيد ضد قوات تيمورلنك التي كانت تهدد الدولة المملوكية والعثمانية وهاجر الى الاناضول آلاف المسلمين الذين قدموا لخدمة الدولة العثمانية ، وكانت الهجرة مليئة بالجنود وممن أسهموا في الحياة الاقتصادية والعلمية والحكومية في إيران والعراق وماوراء النهر- هذا بالاضافة الى الجموع التي فرت من أمام الزحف التيمورلنكي على آسيا الوسطى[3].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، محمد فريد بك، ص١٤٤.

(٢) انظر: محمد الفاتح، د.سالم الرشيدي، ص٣٢.

(٣) انظر: في أصول التاريخ العثماني ، أحمد عبدالحليم، ص٥٤،٥٥.

رابعاً: حصار القسطنطينية:

استطاع بايزيد قبل معركة نيكوبوليس أن يشدد النكير على الامبراطورية البيزنطية وأن يفرض على الامبراطور ان يعين قاضياً في القسطنطينية للفصل في شؤون المسلمين وما لبث أن حاصر العاصمة البيزنطية وقبل الامبراطور إيجاد محكمة اسلامية وبناء مسجد وتخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية الاسلامية، كما تنازل لبايزيد عن نصف حي غلطة الذي وضعت فيه حامية عثمانية قوامها ٦,٠٠٠ جندي وزيد الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية، وفرضت الخزانة العثمانية رسوماً على الكروم ومزارع الخضروات الواقعة خارج المدينة. وأخذت المآذن تنقل الآذان الى العاصمة البيزنطية[١].

وبعد الانتصار العظيم الذي حققه العثمانيون في معركة نيكوبوليس ثبت العثمانيون أقدامهم في البلقان، حيث انتشر الخوف والرعب بين الشعوب البلقانية، وخضعت البوسنة وبلغاريا الى الدولة العثمانية واستمر الجنود العثمانيون يتتبعون فلول النصارى في ارتدادهم . وعاقب السلطان بايزيد حكام شبه جزيرة المورة الذين قدموا مساعدة عسكرية للحلف الصليبي[٢] وعقاباً للامبراطور البيزنطي على موقفه المعادي طلب بايزيد منه أن يسلم القسطنطينية وإزاء ذلك استنجد الامبراطور مانويل بأوروبا دون جدوى. والحق أن الاستيلاء على القسطنطينية كان هدفاً رئيسياً في البرنامج الجهادي للسلطان بايزيد الاول. ولذلك فقد تحرك على رأس جيوشه وضرب حصاراً محكماً حول العاصمة البيزنطية وضغط عليها ضغطاً لاهوادة فيه واستمر الحصار حتى اشرفت المدينة في نهايتها على السقوط. بينما كانت أوروبا تنظر سقوط العاصمة العتيدة بين يوم وآخر إذا السلطان ينصرف عن فتح القسطنطينية لظهور خطر جديد على الدولة العثمانية[٣].

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٥٣.

(٢) الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٤٢.

(٣) الدولة العثمانية ، د.اسماعيل احمد، ص٤٣.

خامساً: الصدام بين تيمورلنك وبايزيد:

ينتمي تيمورلنك الى الأسر النبيلة في بلاد ماوراء النهر ، وفي عام ١٣٦٩م جلس على عرش خراسان وقاعدته سمرقند. واستطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبة وأن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الاسلامي؛ فقد انتشرت قواته الضخمة في آسيا من دلهي الى دمشق، ومن بحر آرال الى الخليج العربي واحتل فارس وأرمينيا وأعالي الفرات ودجلة والمناطق الواقعة بين بحر قزوين الى البحر الأسود وفي روسيا سيطر على المناطق الممتدة بين أنهار الفولجا والدون والدنيبر وأعلن بأنه سيسيطر على الأرض المسكونة ويجعلها ملكاً له وكان يردد: (أنه يجب الا يوجد سوى سيد واحد على الارض طالما أنه لايوجد إلا إله واحد في السماء([1]) وقد اتصف تيمورلنك بالشجاعة والعبقرية الحربية والمهارة السياسية وكان قبل ان يقرر أمر ان يجمع المعلومات ويرسل الجواسيس ثم يصدر أوامره بعد تروي وتأني بعيدة عن العجلة وكان من الهيبة بحيث أن جنوده كانوا يطيعون أوامره أيا كانت.

وكان تيمور باعتباره مسلماً يرعى العلماء ورجال الدين وبخاصة اتباع الطريقة النقشبندية([2]).

وكانت هناك عوامل واسباب ساهمت في إيجاد صراع بين تيمورلنك وبايزيد منها:

١- لجأ أمراء العراق الذين استولى تيمور على بلادهم الى بايزيد، كما لجأ الى تيمور بعض أمراء آسيا الصغرى - وفي كلا الجانبين كان اللاجئون يحرضون من استجاروا به على شن الحرب ضد الطرف الآخر .

٢- تشجيع النصارى لتيمورلنك ودفعه للقضاء على بايزيد .

٣- الرسائل النارية بين الطرفين ، ففي إحدى الرسائل التي بعث بها تيمور الى بايزيد أهانه ضمنياً حين ذكره بغموض أصل أسرته ، وعرض عليه العفو

---

(١) في اصول التاريخ العثماني ، ص٥٦.

(٢) في أصول التاريخ العثماني ، ص٥٦.

على اعتبار أن آل عثمان قد قدموا خدمات جليلة الى الاسلام، ولو أنه اختتم رسالته -بصفته زعيماً للترك- باستصغار شأن بايزيد الذي قبل التحدي وصرح بأنه سيتعقب تيمور الى تبريز وسلطانية[1].

وكان الزعيمان تيمور لنك وبايزيد يسعى كل منهما لتوسيع دولته .

سادساً: انهيار الدولة العثمانية:

تقدم تيمورلنك بجيوشه واحتل سيواس، وأباد حاميتها التي كان يقودها الامير أرطغرل بن بايزيد والتقى الجيشان قرب أنقرة في عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م وكانت قوات بايزيد تبلغ ١٢٠,٠٠٠ مجاهد لملاقاة خصمه وزحف تيمورلنك على رأس قوات جرارة في ٢٠ يوليو ١٤٠٢ (٨٠٤هـ) وانتصر المغول ووقع بايزيد في الأسر وظل يرسف في أغلاله حتى وافاه الأجل في السنة التالية[2].

وكانت الهزيمة بسبب اندفاع وعجلة بايزيد فلم يحسن اختيار المكان الذي نزل فيه بجيشه الذي لم يكن يزيد عن مئة وعشرين ألف مقاتل بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمائة ألف، ومات كثير من جنود بايزيد عطشاً لقلة الماء وكان الوقت صيفاً شديد القيظ. ولم يكد يلتقي الجيشان في انقرة حتى فر الجنود التتار الذين كانوا في جيش يزيد وجنود الامارات الآسيوية التي فتحها منذ عهد قريب وانضموا الى جيش تيمورلنك ولم يجد السلطان العثماني بعد ذلك ما اظهره هو وبقية جيشه من الشجاعة والاستماتة في القتال[3].

لقد فرحت الدول النصرانية في الغرب بنصر تيمورلنك وهزها الطرب لمصرع بايزيد ومآلت إليه دولته من التفكك والانحلال وبعث ملوك انجلترا وفرنسا وقشتالة وامبراطور القسطنطينية الى تيمورلنك يهنئونه على ما احرزه من النصر العظيم والظفر المجيد واعتقدت أوروبا انها قد تخلصت الى الابد من الخطر العثماني الذي طالما

(١) المصدر السابق نفسه ص٥٧.

(٢) الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٢٠٣.

(٣) محمد الفاتح، د.سالم الرشيدي، ص٢٥.

روعها وهددها[1].

واستولى تيمورلنك بعد هزيمة بايزيد على ازنيق وبروسة وغيرها من المدن والحصون ثم دك اسوار ازمير وخلصها من قبضة فرسان رودس[2] (فرسان القديس يوحنا) ، محاولاً بذلك أن يبرر موقفه أمام الرأي العام الاسلامي الذي أتهمه بأنه وجه ضربة شديدة الى الاسلام بقضائه على الدولة العثمانية وحاول تيمورلنك بقتاله لفرسان القديس يوحنا أن يضفي على معارك الأناضول طابع الجهاد[3].

كما أعاد تيمورلنك أمراء آسيا الصغرى الى أملاكهم السابقة، ومن ثم استرجاع الامارات التي ضمها بايزيد لاستقلالها كما بذر تيمور بذور الشقاق بين أبناء بايزيد المتنازعين على العرش[4].

سابعاً: الحروب الداخلية:

لقد تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي تمثل في نشوب حرب أهلية في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات (٨٠٦-٨١٦هـ/١٤٠٣-١٤١٣م)[5].

كان لبايزيد خمسة أبناء اشتركوا معه في القتال ، أما مصطفى فقد ظن أنه قتل في المعركة، أما موسى فقد أسر مع والده ونجح الثلاثة الآخرون في الفرار . أما أكبرهم سليمان فقد ذهب الى أدرنة وأعلن نفسه سلطاناً هناك، وذهب عيسى الى بروسة وأعلن للناس أنه خليفة أبيه، ونشبت الحرب بين هؤلاء الأخوة الثلاثة يتنازعون بينهم اشلاء الدولة المزقة والأعداء يتربصون بهم من كل جانب. ثم اطلق تيمورلنك الأمير موسى ليؤجج به

---

(١) محمد الفاتح، د.سالم الرشيدي ، ص٣٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٥.

(٣) انظر : في أصول التاريخ العثماني، ص٥٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٥٩.

(٥) الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٤٢.

نار الفتنة ويزيدها ضراماً وشدة واخذ يحرضهم على القتال ويغري بعضهم ببعض[1].

وبعد عام ارتحل تيمورلنك بجيشه الأخضر واليابس وترك وراءه البلاد على اسوأ حال من الدمار والخراب والفوضى[2].

لقد كانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية، ولقد جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية على الأمة الاسلامية لا تتخلف. فقد شاء الله -تعالى- أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك.

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكين ورسوخ قال تعالى: {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} (سورة العنكبوت: آية ٢،٣).

(الفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الاعداء وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأمور، ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم([3]).

قال ابن كثير -رحمه الله- : (والاستفهام في قوله تعالى: {أحسب الناس} إنكاري ومعناه: أن الله سبحانه لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ماعندهم من الإيمان)[4] كما جاء في الحديث الصحيح : (اشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، :

---

(١) انظر: محمد الفاتح ص٣٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٦.

(٣) تفسير النسفي (٢٤٩/٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٤٠٥/٣).

يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء[1].

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الابتلاء صفة لازمة للمؤمن ، حيث قال : (مثل المؤمن كمثل الزرع لاتزال الريح تميله ولايزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتهتز حتى تستحصد([2]).

إن سنة الابتلاء جارية في الأمم والدول والشعوب والمجتمعات ولذلك جرت سنة الله بالابتلاء بالدولة العثمانية.

صمد العثمانيون لمحنة أنقرة بالرغم مما عانوه من خلافات داخلية، الى أن انفرد محمد الأول بالحكم في عام ١٤١٣م، وأمكنه لم شتات الأراضي التي سبق للدولة أن فقدتها، إن إفاقة الدولة من كارثة أنقرة يرجع الى منهجها الرباني الذي سارت عليه حيث جعل من العثمانيين أمة متفوقة في جانبها العقدي والديني والسلوكي والأخلاقي والجهادي وبفضل الله حافظ العثمانيون على حماستهم الدينية وأخلاقهم الكريمة[3] ثم بسبب المهارة النادرة التي نظم بها أورخان وأخوه علاء الدين دولتها الجديدة وإدارة القضاء المثيرة للإعجاب والتعليم المتواصل لابناء وشباب العثمانيين وغير ذلك من الأسباب التي جعلت في العثمانيين قوة حيوية كاملة ، فما لبثت هذه الدولة بعد كارثة أنقرة إلا انبعثت من جديد من بين الأنقاض والأطلال وانتعشت وسرى في عروقها ماء الحياة، وروح الشريعة، واستأنفت سيرها الى الامام في عزم وإصرار حير الأعداء والأصدقاء[4].

---

(١) سنن الترمذي (٦٠١/٤) حديث حسن صحيح.

(٢) مسلم شرح النووي، كتاب القيامة والجنة والنار (١٥١/١٧).

(٣) في أصول التاريخ العثماني، ص٦١.

(٤) انظر: محمد الفاتح ، ص٣٧.

المبحث الخامس

السلطان محمد الأول

ولد السلطان محمد الاول عام (٧٨١هـ/١٣٧٩م)[١]، وتولى أمر الأمة بعد وفاة والده بايزيد وعرف في التاريخ (بمحمد جلبي) .

كان متوسط القامة ، مستدير الوجه، متلاصق الحاجبين، ابيض البشرة ، أحمر الخدين، واسع الصدر، صاحب بدن قوي، في غاية النشاط وجسوراً ، يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار الأقواس. اشترك اثناء حكمه في ٢٤ حرباً واصيب بأربعين جرحاً[٢] استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضي سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد اركانها[٣] ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية[٤].

ومما يؤثر عن هذا السلطان أنه استعمل الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شق عصا طاعة الدولة فإنه لما قهر أمير بلاد القرمان وكان قد استقل عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشريف بأن لا يخون الدولة فيما بعد وعفا عنه ثانية بعد أن حنث في يمينه[٥] وكانت سياسته تهدف الى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل ولذلك سالم امبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الاسود وفي تساليا وصالح البندقية بعد هزيمة اسطوله أمام كليتبولي وقمع الفتن والثورات في آسيا وأوروبا واخضع بعض الامارات الآسيوية التي أحياها تيمورلنك ودانت له بالطاعة

---

(١) انظر: اخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ، ص٣٣.

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٤١.

(٣) انظر: محمد الفاتح، ص٣٧.

(٤) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص٤١.

(٥) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٤٩.

والولاء[1].

وظهر في زمن السلطان محمد شخص يسمى بدرالدين انتحل صفة علماء الدين الاسلامي وكان في جيش موسى اخو السلطان محمد وتولى منصب قاضي العسكر أعلى مناصب الدولة العثمانية وقتئذ، وكان هذا القاضي قد احتضنه موسى بن بايزيد.

قال صاحب الشقائق النعمانية: (الشيخ بدر الدين محمود بن اسرائيل. المشهور بابن قاضي سيماونه ولد في قلعة سيماونه في بلاد الروم إحدى قرى أدرنة التي تقع في الجزء الأوروبي من تركيا، كان أبوه قاضياً لها وكان أيضاً أمير على عسكر المسلمين (فيها) وكان فتح تلك القلعة على يده أيضاً .. ولادة الشيخ بدرالدين كانت في زمن السلطان الغازي خداوندكار (مراد الأول) من سلاطين آل عثمان، ثم أخذ الشيخ انعلم في صباه عن والده ..وحفظ القرآن العظيم وقرأ على المولى المشتهر بالشاهدي، وتعلم الصرف والنحو عن مولانا يوسف، ثم ارتحل الى الديار المصرية.وقرأ هناك مع (اي مزمل) السيد الشريف الجرجاني ، على مولانا مبارك شاه المنطقي المدرس بالقاهرة، ثم حج مع مبارك شاه وقرأ بمكة على الشيخ الزيعلي ، ثم قدم القاهرة، وقرأ مع السيد الجرجاني على الشيخ أكمل الدين (البايبوري) وقرأ على الشيخ المذكور (اي تعلم وتتلمذ على يد الشيخ بدر الدين) السلطان فرج ابن السلطان برقوق ملك مصر (سلطان مصر المملوكي برقوق).

ثم أدركته (اي الشيخ بدرالدين) الجذبة الالهية، والتجأ الى كنف الشيخ سعيد الأخلاطي الساكن بمصر وقتئذ وحصل عنده ماحصل (اي اصبح مريده). وأرسله الشيخ اخلاطي الى بلدة تبريز للارشاد (الصوفي) حكى انه لما جاء تيمورلنك تبريز ..نال (اي بدر الدين) من الامير المذكور (تيمورلنك) مالاً جزيلاً بالغا الى نهايته، ثم ترك الشيخ الكل، ولحق ببدليس ثم سافر الى مصر.ثم الى حلب ثم الى قونية ثم الى تيرة من بلاد الروم ثم دعاه رئيس جزيرة ساقز (وهو نصراني) فأسلم على يدي الشيخ..ثم لما تسلطن موسى من أولاد عثمان الغازي نصب الشيخ (اي جعل من الشيخ بدر الدين) قاضياً لعسكره ثم أن

(١) انظر: محمد الفاتح ، ص٣٧.

أخا موسى (محمداً) قتل موسى وحبس الشيخ مع أهله وعياله ببلدة أزنيق)[1].

وفي أزنيق - وهي مدينة في تركيا- بدأ الشيخ بدر الدين محمود بن اسرائيل يدعو الى مذهبه الفاسد، فكان يدعو الى المساواة في الأموال، والأمتعة ، والأديان، ولايفرق بين المسلم وغير المسلم في العقيدة، فالناس أخوة مهما اختلفت عقائدهم وأديانهم وهو ماتدعو إليه الماسونية اليهودية ، وانضم الى هذه الدعوة الباطلة كثير من الاغبياء والجهلة وأصحاب الأغراض الدنيئة وأصبح للمفسد بدرالدين تلاميذ يدعون الى منهجه ومذهبه ومن أشهر هؤلاء الدعاة شخص يسمى (بير قليجة مصطفى) وآخر يقال إنه من أصل يهودي هو (طوره كمال) واليهود دائماً خلف المؤامرات من زمن النبي ﷺ وحتى عصرنا هذا.

وشاع أمر هذا المذهب الفاسد وكثر أتباعه وتصدى السلطان محمد جلبي لهذا المذهب الباطل وأرسل أحد قواده على رأس جيش كبير لمحاربة بدر الدين وللأسف قتل القائد سيسمان الذي ارسله محمد جلبي على يد الخائن (بير قليجة) وهزم جيشه وأعد السلطان محمد جلبي جيشاً آخر بقيادة وزيره الأول (بايزيد باشا) ، فحارب (بير قليجة) وانتصر عليه في موقعة (قره بورنو) وبعدها أقيم حد الحرابة على (بير قليجة مصطفى) امتثالاً لأمر الله[2] الذي يقول: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم} (سورة المائدة: آية ٣٣).

واستمر الشيخ بدرالدين في غيه وظن أنه سيتمكن من البلاد بسبب ماتمر به من حالة تمزق كامل وفوضى ضربت بأطنابها في كل ارجاء البلاد وكان بدر الدين يقول : (إني سأثور من أجل أمتلاك العالم، وباعتقاداتي ذات الاشارات الغيبية سأقسم العالم بين مريدي بقوة العلم وسر التوحيد، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبهم، وسأحلل -

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٣٤،١٣٣ نقله عن الشقائق النعمانية مخطوط (لا له لي) بالسليمانية رقم ٢٠٧٦.

(٢) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية) ، ص٣٥.

باتساع مشاربي- بعض المحرمات)[1].

وكان أمير الأفلاق (في رومانيا) يدعم هذا المنشق وهذا المبتدع وهذا الزنديق ماديا وعسكريا وكان السلطان محمد جلبي لهذه الدعوة الفاسدة بالمرصاد وضيق عليها الخناق، حتى اضطر بدر الدين أن يعبر إلى منطقة دلي أورمان (في بلغاريا الآن[2]) يقول محمد شرف الدين في مسألة توجه الشيخ بدر الدين إلى دلي أورمان : (إن هذه المنطقة وما يحيط بها من مناطق هي مأوى الباطنية، وهي منطقة تعج بأتباع ثورة بابا إسحق التي قامت ضد الدولة العثمانية في منتصف القرن السابع الهجري، وأن توجه الشيخ بدر الدين إلى هذا المكان وتمكنه من جمع الآلاف المؤلفة من المؤيدين له ولحركته من هذه المناطق لفيه الدلالة الكافية لاختيار الشيخ هذا المكان بالذات)[3].

وفي دلي أورمان بدأت المعونات الأوربية تفد إلى الشيخ، واتسع نطاق الثورة ضد السلطان العثماني محمد الأول، ووصلت فلولا المنشقين أعداء الإسلام الصحيح إلى مابين ٧-٨ آلاف مقاتل[4].

وكان السلطان محمد الأول يتابع الأمور بحذر ويقظة ولم يكن غافلاً عما يفعله الثوار وقام السلطان بنفسه لحرب الشيخ بدر الدين وكان هذا على رأس جيش عظيم في دلي أورمان.

اتخذ السلطان محمد من سيروز (في اليونان الآن) مركزاً لقيادته. أرسل السلطان قواته إلى الثوار فهزمتهم، وتوارى زعيمهم بدر الدين الثائر بعد هزيمته، في منطقة دلي أورمان، فراراً من السلطان[5].

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٤٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٤٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٤٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٤١.

(٥) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص١٤١.

واستطاعت مخابرات السلطان محمد الأول أن تخترق صفوف الثوار وأن تكيد مكيدة محكمة وقع على أثرها زعيم الثوار المبتدع بدر الدين في الأسر[1].

وعندما قابل السلطان محمد الأول بدر الدين قال له : مالي أرى وجهك قد اصفر؟

اجابه بدر الدين: إن الشمس يا مولاي ، تصفر عندما تقترب من الغروب.

وقام علماء الدولة بمناظرة علمية حرة مع بدر الدين ثم أقيمت محكمة شرعية، وأصدر حكم الإعدام بناء على فتوى العلماء التي استندت إلى توجيه رسول الله ﷺ : (من اتاكم وامركم جميعاً على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه ([2].

إن المذهب الفاسد الذي كان يدعو إليه (بدر الدين (هو نفس مذهب الماسونية اليهودية المعاصرة (القرن الخامس عشر الهجري / العشرون الميلادي) وهو يقوم على إلغاء الحواجز بين أصحاب العقيدة الإسلامية الصحيحة وأصحاب العقائد الفاسدة، إذ إنه يقول بالأخوة بين المسلمين واليهود والنصارى وعباد البقر والشيوعيين، وهذا يخالف عقيدة الإسلام التي تؤكد أنه لا أخوة بين المسلمين وبين غيرهم من أصحاب العقائد الفاسدة، لأنه كيف يكون هناك أخوة بين من يحاربون الله ورسوله، وبين المؤمنين الموحدين[3].

كان السلطان محمد الأول محباً للشعر والأدب والفنون وقيل هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التي يطلق عليها اسم الصرة، وهي عبارة على قدر معين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة[4].

وقد أحب الشعب العثماني السلطان محمد الأول وأطلقوا عليه لقب بهلوان (

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٤٢،١٤١.

(٢) مسلم، كتاب الامارة، باب إذا بويع لخليفتين (١٤٨٠/٢) رقم ١٨٥٢.

(٣) انظر: أخطاء يجب ان تصحح في التاريخ (الدولة العثمانية) ، ص٢٨.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٥٢.

ومعناها البطل) و ذلك بسبب نشاطه الجم وشجاعته كما أن أعماله العظيمة، وعبقريته الفذة التي قاد من خلالها الدولة العثمانية الى بر الأمان، كما أن جميل سجاياه وسلوكه وشهامته وحبه للعدل والحق جعل شعبه يحبه ويطلق عليه لقب جلبي ايضاً وهو لقب تشريف وتكريم فيه معنى الشهامة والرجولة.

حقيقة إن بعض حكام آل عثمان قد فاقوه شهرة ، إلا أن بالإمكان اعتباره من انبل حكام العثمانيين فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته واعتبره المؤرخون العثمانيون[1] بمثابة القبطان الماهر الذي حافظ على قيادة سفينة الدولة العثمانية حين هددتها طوفان الغزوات التترية، والحروب الداخلية، والفتن الباطنية.

وفاته:

بعد أن بذل السلطان محمد الأول قصارى جهده في محو آثار الفتن التي مرت بها الدولة العثمانية وشروعه في أجراء ترتيبات داخلية تضمن عدم حدوث شغب في المستقبل وبينما كان السلطان مشتغلاً بهذه المهام السليمة شعر بدنو أجله دعى الباشا بايزيد وقال له: (عينت ابني مراد خليفة لي فأطعه وكن صادقاً معه كما كنت معي . اريد منكم ان تأتونني بمراد الآن لانني لا استطيع أن أقوم من الفراش بعد. فان وقع الأمر الألهي قبل مجيئه حذاري ان تعلنوا وفاتي حتى يأتي)[2].

وفاجأه الموت في سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م) في مدينة أورنة واسلم روحه لخالقه وعمر ٤٣سنة.

وخوفاً من حصول مالاتحمد عقباه لو علم موت السلطان محمد الأول اتفق وزيراه ابراهيم وبايزيد على أخفاء موته على الجند حتى يصل أبنه مراد الثاني فأشاعا أن السلطان مريض وارسلا لابنه فحضر بعد واحد وأربعين يوماً واستلم مقاليد الحكم[1].

---

(١) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص٦٢.

(٢) السلاطين العثمانيون ، ص٤١.

الحكم[1].

ولقد كان السلطان محمد الأول محباً للسلام والعلم والفقهاء ولذلك نقل عاصمة الدولة من أدرنة (مدينة الغزاة) الى بروسة (مدينة الفقهاء)[2] وكان على خلق رفيع، وحزم متين، وحلم فريد، وسياسة فذة في معاملة الأعداء والأصدقاء.

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٥٢.

(٢) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص٦٣.

المبحث السادس

مراد الثاني

تولى السلطان مراد الثاني أمر الدولة بعد وفاة أبيه (محمد جلبي) عام (٨٢٤هـ/١٤٢١م)، وكان عمره لايزيد على ثماني عشرة سنة وكان محباً للجهاد في سبيل الله، والدعوة الى الاسلام في ربوع أوروبا[1].

كان معروفاً لدى جميع رعيته بالتقوى، والعدالة والشفقة[2]، استطاع السلطان مراد أن يقضي على حركات التمرد الداخلية التي قام بها عمه مصطفى والتي كانت تدعم من قبل أعداء الدولة العثمانية وكان الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني خلف الدسائس والمؤامرات والمتاعب التي تعرض لها السلطان مراد، فهو الذي دعم عم السلطان مراد الذي اسمه مصطفى بالمساعدات حتى استطاع أن يحاصر مدينة غاليبولي ابتغاء انتزاعها من السلطان واتخاذها قاعدة له إلا ان السلطان مراد قبض على عمه وقدمه للمشنقة ومع ذلك ، فقد مضى الامبراطور مانويل الثاني يكيد للسلطان واحتضن شقيقاً لمراد الثاني ، ووضعه على رأس قوة استولت على مدينة نيقيا في الأناضول، وسار إليه مراد واستطاع أن يقض على قواته واضطر خصمه للاستسلام ثم قتل . ومن ثم صمم السلطان مراد أن يلقن الامبراطور درساً عملياً، فأسرع بإحتلال سلونيك، فهاجمها ودخلها عنوة في مارس ١٤٣١م (٨٣٣هـ) ، واصبحت جزءاً لايتجزأ من الدولة العثمانية.

وكان السلطان مراد يوجه الضربات الموجعة لحركات التمرد في بلاد البلقان، وحرص على تدعيم الحكم العثماني في تلك الديار، واتجه الجيش العثماني نحو الشمال لأخضاع إقليم ولاشيا وفرض عليه جزية سنوية، واضطر ملك الصرب الجديد (ستيف لازار ميتش) الى الخضوع للعثمانيين والدخول تحت حكمهم وجدد ولاءه للسلطان ، واتجه جيش عثماني نحو الجنوب، حيث قام بتوطيد دعائم الحكم العثماني في بلاد اليونان.

---

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح (الدولة العثمانية)، ص٣٨.

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٤٣.

ولم يلبث السلطان أن واصل جهاده الدعوي وقام بالقضاء على العوائق في كل من ألبانيا والمجر.

واستطاع العثمانيون أن يفتحوا ألبانيا عام (٨٣٤هـ/١٤٣١م) وركزوا هجومهم على الجزء الجنوبي من البلاد. أما شمالي ألبانيا ، فقد خاض العثمانيون فيه جهاداً مريراً، وتمكن الألبانيون الشماليون من القضاء على جيشين عثمانيين في جبال ألبانيا، كما ألحقوا الهزيمة بحملتين عثمانيتين متعاقبتين كان يقودهما السلطان مراد بنفسه، وتكبد العثمانيون خسائر فادحة أثناء عملية الانسحاب، ووقفت الدول النصرانية خلف الألبان لدعمهم ضد العثمانيين وخصوصاً من حكومة البندقية التي كانت تدرك خطورة الفتح العثماني لهذا الاقليم الهام بشاطئيه وموانئه البحرية التي تربط البندقية بحوض البحر المتوسط والعالم الخارجي ، وأنهم في استطاعتهم حجز سفن البنادقة داخل بحر مغلق هو بحر الأدرياتيك. وهكذا لم يشهد السلطان مراد الثاني استقراراً للحكم العثماني في ألبانيا[1].

وأما ما يتعلق بجبهة المجر، فقد استطاع العثمانيون في عام (٨٤٢هـ/١٤٣٨م) أن يهزموا المجريين ويأسروا منهم سبعين ألف جندي وأن يستولوا على بعض المواقع، ثم تقدم لفتح بلغراد عاصمة الصرب، ولكنه أخفق في محاولته وسرعان ماتكون حلف صليبي كبير باركه البابا واستهدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوربا كلية. وشمل الحلف البابوية والمجر وبولندا والصرب وبلاد الأفلاق وجنوة والبندقية والإمبراطورية البيزنطية ودوقية برجنديا، وانضمت إلى الحلف أيضاً كتائب من الألمان والتشيك. وأعطيت قيادة قوات الحلف الصليبي إلى قائد مجري قدير هو يوحنا هنيادي. وقد قاد هنيادي القوات الصليبية البرية وزحف جنوباً واجتاز الدانوب وأوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين عام (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)، واضطر العثمانيون إلى طلب الصلح[2] وأبرمت معاهدة صلح لمدة عشر سنوات في (سيزجادن (وذلك في شهر يوليو عام ١٤٤٤م / ٨٤٨هـ تنازل فيها عن الصرب واعترف (بجورج برانكوفيتش(أميراً عليها. كما تنازل السلطان

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٤٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٦.

مراد عن الافلاق للمجر، وافتدى زوج ابنته (محمود شلبي (الذي كان قائداً عاماً للجيوش العثمانية، بمبلغ ٦٠ ألف دوقية. وقد حررت هذه المعاهدة باللغتين العثمانية، والمجرية وأقسم (لاديسلاسي (ملك المجر على الانجيل كما اقسم السلطان مراد بالقرآن على أن تراعي شروط المعاهدة بذمة وشرف.

وحين فرغ مراد من عقد الهدنة مع أعدائه الاوروبيين عاد إلى الأناضول وفجع بموت ابنه الأمير علاء واشتد حزنه عليه وزهد في الدنيا والملك ونزل عن السلطنة لابنه محمد وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره، ولصغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الراي والنظر من رجال دولته ثم ذهب إلى مغنيسيا في آسيا الصغرى ليقضي بقية حياته في عزلة وطمأنينة ويتفرغ في هذه الخلوة إلى عبادة الله والتأمل في ملكوته بعد أن اطمأن إلى استتباب الأمن والسلام في أرجاء دولته ولم يستمتع السلطان طويلاً بهذه الخلوة والعبادة[1] حيث قام الكاردينال سيزاريني وبعض أعوانه بالدعوة إلى نقض العهود مع العثمانيين وطردهم عن أوربا، خصوصاً وأن العرش العثماني قد تركه السلطان مراد لابنه الفتى الذي لا خبرة له ولاخطر منه وقد اقتنع البابا أوجين الرابع بهذه الفكرة الشيطانية[2] وطلب من النصارى، نقض العهد، ومهاجمة المسلمين وبين للنصارى أن المعاهدة التي عقدت مع المسلمين باطلة لأنها عقدت بدون إذن البابا وكيل المسيح في الأرض وكان الكاردينال سيزاريني عظيم النشاط دائم الحركة لايكل عن العمل، يجد ويسعى للقضاء على العثمانيين ولذلك كان يزور ملوك النصارى وزعمهم ويحرضهم على نقض المعاهدة مع المسلمين ويقنع كل من يعترض عليه نكث المعاهدة ويقول له أنه باسم البابا يبرئ ذمتهم من نكثها ويبارك جنودهم وأسلحتهم، وعليهم أن يتبعوا طريقه فان طريق المجد والخلاص ومن نازعه ضميره بعد ذلك وخشي الاثم فإنه يحمل عنه وزره وإثمه[3].

لقد نقض النصارى عهودهم، وحشدوا الجيوش لمحاربة المسلمين، وحاصروا

---

(١) انظر: محمد الفاتح ، ص٤٢،٤٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٣.

(٣) انظر: محمد الفاتح ، ص٤٤.

مدينة (فارنا (البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود، والتي كانت قد تحررت على أيدي المسلمين، ونقض العهود هو سمت ظاهر لأعداء هذا الدين، ولذلك أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين قتالهم يقول سبحانه : {فقاتلوا ائمة الكفر إنهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون} (التوبة: ١٢).

لاعهود، ولا مواثيق يرعونها، كما هو طابعهم دائماً . إنهم لا يتورعون عن مهاجمة اي امة، اي إنسان يلمحون فيه ضعفاً، يقتلون وينبحون[١] وصدق الله القائل في تصويرهم : {لايرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون} (التوبة : ١٠).

وعندما تحرك النصارى وزحفوا نحو الدولة العثمانية وسمع المسلمون في أدرنة بحركة الصليبيين وزحفهم انتابهم الفزع والرعب وبعث رجال الدولة الى السلطان مراد يستعجلون قدومه لمواجهة هذا الخطر وخرج السلطان المجاهد من خلوته ليقود جيوش العثمانيين ضد الخطر الصليبي. واستطاع مراد أن يتفق مع الأسطول الجنوي لينقل أربعين ألفا من الجيش العثماني من آسيا إلى أوروبا تحت سمع الأسطول الصليبي وبصره في مقابل دينار لكل جندي.

وأسرع السلطان مراد في السير فوصل وارنه في نفس اليوم الذي وصل فيه الصليبيون. وفي اليوم التالي نشبت المعركة بين الجيشين النصراني والإسلامي وكانت عنيفة حامية وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التي نقضها أعداؤه على رأس رمح ليشهدهم ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان وليزيد حماس جنده[٢]. واقتتل الفريقان، ودارت بينهما معركة رهيبة كاد يكون فيها النصر للنصارى نتيجة حميتهم الدينية وحماسهم الزائد إلا أن تلك الحماية والحماس الزائد اصطدم بالروح الجهادية لدى العثمانيين، والتقى الملك (لاديسلاس (ناقض العهود مع السلطان مراد الوفي بالعهود وجها لوجه واقتتلا، ودارت بينهما معركة رهيبة، تمكن السلطان المسلم من قتل الملك المجري النصراني، فقد عاجله بضربة قوية من رمحه اسقطته من على ظهر جواده فأسرع بعض

---

(١) انظر: أخطاء يجب ان تصحح (الدولة العثمانية) ، ص٤١.

(٢) انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، ص٤٥.

المجاهدين وجزوا رأسه ورفعوه على رمح مهللين مكبرين وفرحين[١] وصاح أحد المجاهدين في العدو (أيها الكفار هذا رأس ملككم (وكان لذلك المنظر أثر شديد على جموع النصارى، فاستحوذ عليهم الفزع والهلع، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية، بددت شملهم وهزموهم شر هزيمة، وولى النصارى مدبرين يدفع بعضهم ولم يطارد السلطان مراد عدوه واكتفى بهذا الحد من النصر وانه لنصر عظيم[٢].

كانت هذه المعركة في سهول قوصوه في ١٧ أكتوبر ١٤٤٨م (٨٥٢هـ) واستمرت المعركة ثلاثة أيام وانتهت بفوز ساحق للعثمانيين. وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين[٣].

ولم تفارق السلطان مراد زهادته في الدنيا والملك فنزل على العرش مرة أخرى لابنه محمد وعاد إلى عزلته في مغنيسيا كما يعود الأسد المنتصر إلى عرينه.

ولقد ذكر لنا التاريخ مجموعة من الملوك والحكام الذين نزلوا عن عروشهم وانقطعوا عن الناس وأبهة الملك إلى العزلة، وأن بعض هؤلاء الملوك قد عادوا إلى العرش ولكن لم يذكر لنا أحد منهم نزل عن العرش مرتين غير السلطان مراد فإنه لم يكد يذهب إلى معتزله بآسيا الصغرى حتى ثار الانكشارية في أدرنة وشغبوا وهاجوا وماجوا وتمردوا وطغوا وأفسدوا وكان السلطان محمد فتى يافعاً حديث السن وخشي بعض رجال الدولة أن يستفحل الأمر ويعظم الخطر ويتفاقم الشر، وتسوء العاقبة فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه ليتولى الأمر بنفسه[٤] وجاء السلطان مراد وقبض على زمام الأمر وخضع له الانكشارية وأرسل ابنه محمد إلى مغنيسيا حاكماً عليها بالأناضول، وبقي السلطان مراد

---

(١) انظر: محمد الفاتح، د. عبدالسلام عبدالعزيز، ص٢٢.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص٤٦.

(٣) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٤٧.

(٤) انظر: محمد الفاتح، ص٤٧.

الثاني على العرش العثماني إلى آخر يوم في حياته، وقد قضاها في الغزو والفتح[1].

أولاً: مراد الثاني وحبه للشعراء والعلماء وفعل الخير:

يقول محمد حرب: (مراد الثاني وإن كان مقلاً وكان مالدينا من شعره قليلاً، لصاحب فضل على الأدب والشعر لا يجحد، لأن نعمة حلت على الشعراء الذين كان يدعوهم إلى مجلسه يومين في كل أسبوع ليقولوا ماعندهم، ويأخذون بأطراف الأحاديث والأسمار بينهم وبين السلطان، فيستحسن أو يستهجن، ويختار أو يطرح، وكثيراً ماكان يسدّ عوز المعوزين منهم بنائلة الغمر أو بإيجاد حرفة لهم تدرّ الرزق عليهم حتى يفرغوا من هموم العيش ويتوفروا على قول الشعر، وقد أنجب عصره كثيراً من الشعراء[2].

لقد حول القصر الحاكم إلى نوع من الأكاديمية العلمية ووصل به الأمر أن كان الشعراء يرافقونه في جهاده[3].

ومن أشعاره : (تعالوا نذكر الله لأننا لسنا بدائمين في الدنيا)[4]. كان سلطاناً عالما عاقلاً عادلاً شجاعاً، وكان يرسل لأهالي الحرمين الشريفين وبيت المقدس من خاصة ماله في كل عام ثلاثة آلاف وخمس مئة دينار، وكان يعتني بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء، مهد الممالك، وأمّن السبل، وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين[5] وقال عنه يوسف آصاف : (كان تقياً صالحاً، وبطلاً صنديداً، محباً للخير، ميّالاً للرأفة والإحسان)[6].

---

(١) السلطان محمد الفاتح، ص٢٢.

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٤٦.

(٣) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٤٦.

(٤) السلاطين العثمانيون الكتاب المصور، ص٤٢.

(٥) انظر: تاريخ السلاطين آل عثمان للقرماني، ص٢٥.

(٦) تاريخ سلاطين آل عثمان، ص٥٥.

ثانياً: وفاته ووصيته

قال صاحب النجوم الزاهرة: في وفيات عام ٨٥٥هـ في مراد الثاني: (وكان خير ملوك زمانه شرقاً وغرباً، مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد، وأفنى عمره في الجهاد في سبيل الله تعالى، وغزا عدة غزوات، وفتح عدة فتوحات، وملك الحصون المنيعة، والقلاع والمدن من العدوّ المخذول. على أنه كان منهمكاً في اللذات التي تهواها النفوس، ولعل حاله كقول بعض الأخيار وقد سئل عن دينه فقال: أمزقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار ، فهو أحق بعفو الله وكرمه، فإن له المواقف المشهورة، وله اليد البيضاء في الإسلام ونكاية العدوّ، حتى قيل عنه إنه كان سياجاً للإسلام والمسلمين - عفا الله عنه، وعوّض شبابه الجنة ..)[1].

توفي السلطان في قصر ادرنه عن عمر يناهز ٤٧ عاماً وبناء على وصيته رحمه الله دفن في جانب جامع مرادية في بورصة. ووصى بان لايبنى على قبره شيء وأن يعمل أماكن في جوانب القبر يجلس فيها الحفاظ لقراءة القرآن الكريم وأن يدفن في يوم الجمعة فنفذت وصيته[2].

وترك في وصيته شعراً، بعد أن كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم، وكان يريد الأ يبنى شيء على مكان دفنه، فكتبها شعراً ليقول: فليأت يوم يرى الناس فيه ترابي[3].

لقد قام السلطان مراد ببناء جوامع ومدارس، وقصوراً وقناطر فمنها جامع ادرنه ذو ثلاثة شرف وبنى بجانب هذا الجامع مدرسة وتكية يطعم فيها الفقراء والمساكين[4].

---

(١) النجوم الزاهرة (٣/١٦) لجمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري.

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص٤٣.

(٣) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٢٤٦.

(٤) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٤٣.

الفصل الثالث

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

المبحث الأول

السلطان محمد الفاتح

هو السلطان محمد الثاني (٨٣٣هـ-١٤٨١م)، يعتبر السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان يلقب بالفاتح وأبي الخيرات. حكم مايقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين[١]. تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في ١٦ محرم عام ٨٥٥هـ الموافق ١٨ فبراير عام ١٤٥١م وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية. وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات ولقد برز بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف. وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر. وعمل على تطوير إدارة الأقاليم وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم وعزل من ظهر منه تقصيراً أو إهمال وطور البلاط السلطاني وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم في استقرار الدولة والتقدم إلى الإمام وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة في الإصلاح الداخلي تطلع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عدة في تحقيق أهدافه، منها الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٢٥٣.

الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطقها ومدنها ولم يكتف السلطان محمد بذلك بل انه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما اعتزت بها الامبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية[١].

أولاً: فتح القسطنطينية

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست في عام ٣٣٠م على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول[٢]، وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها: (لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها)[٣]، ومنذ تأسيسها فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها[٤] عندما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع، ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها في عدة مواقف، من ذلك: ما حدث أثناء غزوة الخندق[٥]. ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ: (لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش)[٦].

لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلامية عليها سنة ٤٤هـ ولم تنجح هذه الحملة، وقد تكررت حملات

---

(١) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص٤٢.

(٢) انظر: اوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور، ص٢٩.

(٣) فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، د.محمد مصطفى، ص٣٦-٤٦.

(٤) المجتمع المدني (الجهاد ضد المشركين)، د. أكرم ضياء العمري، ص١١٥.

(٥) احمد في مسنده (٣٣٥/٤).

(٦) المصدر السابق نفسه (٣٣٥/٤).

أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة.

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية وتعد هذه الحملة أقوى الحملات الأموية عليها، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبدالملك سنة ٩٨هـ(١).

واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينية حيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها وتهديدها مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد(٢) سنة ١٩٠هـ.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى كان من أهمها دولة السلاجقة، التي امتدت سلطتها إلى آسيا الصغرى. كما أن زعيمها ألب أرسلان (٤٥٥- ٤٦٥هـ / ١٠٦٣- ١٠٧٢م) استطاع أن يهزم امبراطور الروم ديمونوس في موقعة ملاذ كرد عام ٤٦٤هـ/١٠٧٠م ثم أسره وضربه وسجنه وبعد مدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقي، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من امبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية كان منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى والتي استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجة غربا وإضعاف الامبراطورية الرومانية.

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم(٣) وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد (الصاعقة (الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٣م(٤)، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلماً

---

(١)ابن خلدون العبر (٧٠/٣) ، تاريخ خليفة بن خياط، ص٣١٥.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخه، ص٤٥٨، تاريخ الطبري (٦٩/١٠)، ابن الأثير الكامل (١٨٦/٦، ١٨٥)

(٣) قيام الدولة العثمانية، ص٤٦.

(٤) تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص١٨.

إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوربية لصد الهجوم الاسلامي عن القسطنطينية ، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعيث فسادا ، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية ، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة ، والتي أسر فيها بايزيد (الصاعقة) ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة ١٤٠٢م[١] وكان نتيجة ذلك ان تفككت الدولة العثمانية مؤقتا ، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين .

وما أن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد ، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة ٨٢٤هـ-٨٦٣هـ/ ١٤٢١-١٤٥١م جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة ، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان[٢]، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله في هدفه الذي حرص عليه ، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد .

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة ابيه ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة ، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية ، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة ، وبالتالي فمنذ أن ولي السلطنة العثمانية سنة ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١هـ م[٣] كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية ويفكر في فتحها ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئته على حب الإسلام والإيمان والعمل بالقرآن وسنة سيد الأنام ولذلك نشأ على حب الإلتزام بالشريعة الإسلامية ، واتصف بالتقى والورع ، ومحبا للعلم والعلماء ومشجعا

---

(١) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، د. عبدالعزيز العمري، ص٣٥٨.

(٢) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٥٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٥٩.

على نشر العلوم ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الرشيدة التي تلقها منذ الصغر ، بتوجيهات من والده ، وجهود الشخصيات العلمية القوية التي أشرفت على تربيته، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار وعزوفهم عن الدنيا وابتعادهم عن الغرور ومجاهدتهم لأنفسهم ، ممن أشرفوا على رعايته[1].

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته ومن أخصهم العالم الرباني (أحمد بن اسماعيل الكوراني(مشهودا له بالفضيلة التامة ، وكان مدرسه في عهد السلطان (مراد الثاني(والد (الفاتح(. وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني -الفاتح- ، أميرا في بلدة (مغنيسيا(وقد أرسل إليه والده عددا من المعلمين ولم يمتثل أمرهم ، ولم يقرأ شيئا ، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم ، فطلب السلطان المذكور ، رجلا له مهابة وحدة ، فذكروا له المولى (الكوراني(، فجعله معلما لولده وأعطاه قضيبا يضربه بذلك إذا خالف أمره . فذهب إليه ، فدخل عليه والقضيب بيده ، فقال: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام ، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربا شديداً ، حتى خاف منه السلطان محمد خان ، وختم القرآن في مدة يسيرة . .).[2]

هذه التربية الاسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل، ممن كان منهم بالأخص هذا العالم الفاضل، ممن يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع أو لاينحني للسلطان ، ويخاطبه باسم، ويصافحه ولايقبل يده، بل السلطان يقبل يده. من الطبيعي أن يتخرج من بين جنباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح ، وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة، مقيد بالأوامر والنواهي معظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً ثم على رعيته، تقياً صالحاً يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين[3].

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون، ص٤٢.

(٢) كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، ص٥٢ نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية، ص٤٣.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون، ص٤٣.

وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما:

١- مضاعفة حركة الجهاد العثمانية.

٢- الإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي : (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) [١] لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور [٢].

ثانياً: الإعداد للفتح:

بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده الى قرابة ربع مليون مجاهد [٣] وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة كما أعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنوياً قوياً وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير ، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقي وفق أوامرَ الله.

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة (روملي حصار) في الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي ، وقد حاول الامبراطور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد به إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا

---

(١) رواه احمد في مسنده (٣٣٥/٤).

(٢) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٥٩.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، ص١٦١.

الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها الى ٨٢ متراً وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البسفور الى غربيه وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول الى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة[١].

أ- اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة:

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الاسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعى (أوربان) كان بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل الى مئات الأطنان وأنه يحتاج الى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها[٢].

ب- الاهتمام بالأسطول:

ويضاف الى هذا الاستعداد مابذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية ، تلك المدينة البحرية التي لايكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة وقد ذكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة[٣].

---

(١) انظر: سلاطين آل عثمان، ص٢٦.

(٢) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٦١.

(٣) انظر: محمد الفاتح ، ص٩٠، سالم الرشيدي .

ج- عقد معاهدات:

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بيهما مضيق (القرن الذهبي) ، كما عقد معاهدات مع (المجد) و(البندقية) وهما من الامارات الأوروبية المجاورة ، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية[1] مشاركة لبني عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين.

في هذه الاثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الامبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره[2] ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الامبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد الى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي ، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد وقد أضطر الامبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له. في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه الى القسطنطينية ، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الامبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس : (إنني افضل أن

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص٥٨.

(٢) انظر: فتح القسطنطينية، محمد صفوت، ص٦٩.

أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية)[1].

ثانياً: الهجوم:

كان القسطنطينية محاطة بالمياة البحرية في ثلاث جبهات: مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة الى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة الى القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه ٦٠ قدماً ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها الى ٦٠ قدماً، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماً وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند[2]، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة الى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها. ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة اسلامية سابقة كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها. كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها[3]، وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها الى القسطنطينية. وقد تحركت المدافع من أدرنة الى قرب القسطنطينية، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم الجيش حتى وصلت الاجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه الى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل ١٤٥٣م، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص٨٩.

(٢) انظر: سلاطين آل عثمان، ص٢؛ محمد الفاتح، ص٩٦.

(٣) انظر: محمد الفاتح، سالم الرشيدي، ص٨٢؛ فتح القسطنطينية محمد صفوت، ص٥٧.

ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للاسلام والمسلمين ، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء[1].

وكان العلماء مبثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب[2].

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب طب قابي ، كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول الى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي منعت أي سفينة من دخوله بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب، واستطاع الاسطول العثماني أن تستولي على جزر الامراء في بحر مرمرة[3].

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار، واحكموا التحصينات وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة، ولم يخلوا الامر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعين منذ الايام الأولى للحصار، وفتحت أبواب الشهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الابواب.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة ، وكان

---

(١) انظر: سلاطين آل عثمان، ص٢٥،٢٤.

(٢) انظر: الفتوحات الاسلامية عبر العصور، ص٣٦٤.

(٣) انظر: محمد الفاتح ، ص٩٨، العثمانيون والبلقان ص٨٩.

لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان مايعيدون بناء الأسوار وترميمها .

ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أوروبا ووصلت إمدادات من جنوة مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوي جوستنيان يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة واستطاعت سفنهم أن تصل الى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها جستيان قائداً للقوات المدافعة عن المدينة[١].

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الاسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة[٢].

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة، وأماكن التحصين ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على الذهاب الى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الامبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف[٣].

ثالثاً: مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين:

استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى راسهم محمد الفاتح وصمد البيزنطيون بقيادة قسطنطين صموداً بطولياً في الدفاع وحاول الامبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة. فقدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها ، ولكن الفاتح

---

(١) انظر: العثمانيون والبلقان، د.علي حسون، ص٩٢.

(٢) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٢٠.

(٣) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٠٠.

رحمه الله يرد بالمقابل طالباً تسليم المدينة تسليماً[1]، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة: (فليسلم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ومن شاء رحل عنها حيث اراد في أمن وسلام ايضا)[2].

كان الحصار لايزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في ايدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الانكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم ١٨ أبريل[3] تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار ، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستنيان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار ، واشتد القتال بين الطرفين ، وكانت الثغرة ضيقة وكثرة السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين،ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة اخرى للهجوم[4].

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة الى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعاً من صد السفن الاسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن الى العودة بعد أن

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، ص٥٨.

(٢) محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي ، ص٩٢.

(٣) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٦٧.

(٤) انظر: محمد الفاتح ، عبدالسلام فهمي، ص١٢٢.

فشلت في تحقيق مهمـها[1].

رابعاً: عزل قائد الأسطول العثماني وشجاعة محمد الفاتح:

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة اخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول الى الخليج، حيث بذلت السفن الاسلامية جهوداً كبيرة لمنعها ، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل وكان قد أرسل الى قائد الأسطول وقال له: (إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، واذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً)[2] لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول الى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك وبالتالي غضب السلطان محمد الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الاسطول[3] بعد ما رجع الى مقر قيادته واستدعاه وعنف محمد الفاتح قائد الاسطول بالطه أوغلي وعنفه واتهمه بالجبن، وتأثر بالطة أوغلي نهذا وقال : (إني استقبل الموت بجنان ثابت، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة. لقد قاتلت انا ورجالي بكل ماكان في وسعنا من حيلة وقوة، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة)[4].

أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر، فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا[5].

لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه الى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبطله أوغلي بأعلى صوته: ياقبطان! ياقبطان! ويلوح له بيده، وضاعف العثمانيون جهودهم في الهجوم دون أن يأثروا في السفن

---

(١) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٦٨.

(٢) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٠١.

(٣) انظر: مواقف حاسمة، محمد عبدالله عنان، ص١٨٠.

(٤) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٠٢.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص١٠٢.

تأثيراً ليناً[1].

كانت الهزائم البحرية للأسطول العثماني دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلى رأسهم الوزير (خليل باشا) إقتناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالي رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب ، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجدية في إدخال السفن الاسلامية الى القرن الذهبي ، خصوصاً وأن الأسوار من ناحية القرن الذهبي متهاوية، وبالتالي سيضطر البيزنطيون الى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الاسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيأ فرصة أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها[2].

خامساً: عبقرية حربية فذة:

لاحت للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش الى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حي غلطة خوفاً على سفنه من الجنوبيين، وقد كانت المسافة بين الميناء نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة.

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة، فتلقى منهم كل تشجيع، واعربوا عن اعجابهم بها.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، الا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٠٣.

(٢) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٦٩.

خفيفة الوزن[1].

وجرت السفن من البسفور الى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال ، حتى وصلت الى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك ، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته[2].

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل معجزة من المعجزات ، تجلى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على عقلية العثمانيين الممتازة، ومهارتهم الفائقة وهمتهم العظيمة. لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ماتم. لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة.

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها اثارة ودهشة. ويرجع الفضل في ذلك الى الله سبحانه وتعالى ثم الى همة السلطان وذكاءه المفرط، وعقليته الجبارة ، والى مقدرة المهندسين العثمانيين، وتوفر الايدي العاملة التي قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط.

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، واناشيدهم الإيمانية العالية[3]، في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين[4]، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: (ما

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي، ص١٠٠.

(٢) الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٧٠.

(٣) انظر: السلطان محمد الفاتح، عبدالسلام فهمي،ص١٠٢.

(٤) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٧٠.

رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض الى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر[1].

ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول: ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة[2] وكان لوجود السفن الاسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ أنها كانت أضعف الأسوار ، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى[3].

وقد حاول الامبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في القرن الذهبي إلا أن محاولته المستميته كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أفشلوا كل الخطط والمحاولات.

واستمر العثمانيون في دك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدافع، وحاولوا تسلق أسوارها، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم مايتهدم من أسوار مدينتهم ورد المحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد في مشقتهم وتعبهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس[4].

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزنتونا، ص١٣٥.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص١٠٦.

(٣) انظر: محمد الفاتح، ص١٠٦.

(٤) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص٣٧٦.

المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تماماً[١].

سادساً: اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونيه:

عقد الملك قسطنطين ومعاونيه ومستشاريه ورجال النصرانية في المدينة اجتماعاً، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجدات من الأمم المسيحية، والدول الأوروبية ، ولعل تأتي الجيوش النصرانية ،فيضطر محمد الفاتح لرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الراي وأصر على أن يقاوم الى آخر لحظة ولا يترك شعبه في المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحداً، وانه يعتبر هذا واجبه المقدس وأمرهم أن لا ينصحوه بالخروج أبداً وأكتفى بإرسال وفود تمثله الى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة[٢] ورجعت تلك الوفود تجر خلفها أذيال الخيبة وكانت الأجهزة الأستخباراتية للدولة العثمانية قد اخترقت القسطنطينية وماحولها بحيث أصبحت القيادة العثمانية على علم تام بما يدور حولها.

سابعاً: الحرب النفسية العثمانية:

ضاعف السلطان محمد الثاني الهجوم على الاسوار وجعله مركزاً وعنيفاً، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضاً لإضعاف العدو، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على الأسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفاني ، وكان أكثر ما يرعب جنود الامبراطور قسطنطين صيحاتهم وهي تشق عنان السماء وتقول: (الله أكبر الله أكبر) فتنزل عليهم كالصواعق المدمرة[٣].

وشرع السلطان محمد الفاتح في نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت احدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها في الحال، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار، واتخذت من

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٧.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص١١٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٠٦.

أسوار غلطة ملجأ لها، وظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلوى الاخرى وكان السلطان محمد الفاتح يوالي الهجمات واطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهاراً من أجل انهاك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أي قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليلة، وأعصابهم متوترة مجهودة تثور لأي سبب، واصبح كل واحد من الجنود ينظر الى صاحبه ويلاحظ على وجهه علامات الذل والهزيمة والفشل، وشرعوا يتحدثون علناً عن طرق النجاة والافلات بأرواحهم وما يتوقعونه من العثمانيين اذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم.

واضطر الامبراطور قسطنطين الى عقد مؤتمر ثاني، اقترح فيه احد القادة مباغتة العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي وبينما هم في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادي ليكونس، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه، واستدعى الجند الاحتياطي ودفع بهم الى مكان القتال، واستمر القتال الى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون(1).

وكان السلطان محمد -رحمه الله- يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الاعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو(2).

ففي المراحل المتقدمة من الحصار لجأ العثمانيون الى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة الى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الامبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه الى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض، للوصول الى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا،

---

(1) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص108.

(2) المصدر السابق نفسه، ص108.

حتى إذا وصل العثمانيون الى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا الى سراديب خاصة وسرية تؤدي الى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة ، فأختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا[1].

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين ، فعاودوا حفر انفاق اخرى ، وفي مواضع مختلفة، من المنطقة الممتدة بين (أكرى فبو) وشاطئ القرن الذهبي وكانت مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار وقد اصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لايوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون ان هي أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيراً ماكان يخيل لهم ان الارض ستنشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملئون المدينة ، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك في فزع ويقولون : (هذا تركي ، ...هذا تركي) ويجرون هرباً من أشباح يحسبونها انها تطارهم ، وكثيراً ماكان يحدث أن تتناقل العامة الاشاعة فتصبح كأنها حقيقة واقعة رأها احدهم بعيني راسه وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم (سكارى وماهم بسكارى) ، فريق يجري، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض ينظر في وجوه البعض الآخر في عصبية زائدة وفشل ذريع.

ولم يكن عمل العثمايين هذا سهلاً ، فان هذه الانفاق التي حفروها قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقاً واحتراقاً في باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في أسر الروم، فقطعت رؤوسهم وقذف بها الى معسكر العثمانيين[2].

مفاجأة عسكرية عثمانية:

لجأ العثمانيون الى اسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد

---

(١) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٧٢.

(٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص١١٠.

كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها ، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقنفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس، فاتجه الامبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتل شديد واستطاع بعض المسلمين ممن في القلعة تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلت به، إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلاء الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب[1].

ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على ماوقع: غداً نصنع اربعا أخرى[2].

زاد الحصار وقوي واشتد حتى أرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين، فعقد زعماء المدينة اجتماعاً ٢٤ مايو داخل قصر الامبراطور وبحضوره شخصياً، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الامبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكي يحاول جمع المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الامبراطور رفض ذلك مرة اخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار في قيادة شعبه وخرج لتفقد الأسوار والتحصينات.

وأخذت الاشاعات تهيمن على المدينة وتضعف من مقاومة المدافعين عنها، وكان من أقواها عليهم ماحدث في يوم ١٦ جمادىالأولى الموافق ٢٥ مايو، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء (بزعمهم)، وأخذوا يتجولون به في ضواحي المدينة، يدعونه ويتضرعون الى العذراء أن تنصرهم على أعدائهم، وفجأة سقط التمثال من أيديهم

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٤٤.

(٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص١٢٢.

وتحطم، فرأوا في ذلك شؤم ونذير بالخطر، وتأثر سكان المدينة وخصوصاً المدافعين عنها، وحدث في اليوم التالي ٢٦ مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشأم البطريق ، وذهب الى الامبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط في يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الامبراطور حتى اغمى عليه(١).

وكانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها في دك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلئت الخنادق بالأنقاض، التي يئس المدافعون من إزالتها وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد(٢).

ثامناً: المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين:

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام؛ فكتب الى الامبراطور رسالة دعاه فيه الى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة الى حيث يشاؤون بأمان(٣)، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة الى الامبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر ، فمال بعضهم الى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الامبراطور الى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الامبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها: (إنه يشكر الله إذ جنح السلطان الى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها الى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه او يدفن تحت أسوارها)(٤)، فلما وصلت الرسالة الى الفاتح قال:

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١١٨.

(٢) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٧٥.

(٣) انظر: محمد الفاتح للرشيدي ، ص١١٩.

(٤) محمد الفاتح ، عبدالسلام فهمي ، ص١١٦.

(حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش او يكون لي فيها قبر)[1].

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً الى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى راسهم المهندس المجري أوربان الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك ، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى. بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة الى ضربها للأسوار والقلاع[2].

تاسعاً: السلطان محمد الفاتح يعقد اجتماع لمجلس الشوري:

عقد السلطان محمد الفاتح اجتماعاً ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة الى الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكل صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعا الى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة، الى غير ذلك من المبررات التي طرحها، وكان متهماً بمواطئة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم[3]، وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها، كما أشار الى تحمس الجند لإتمام الفتح، وما في التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى (زوغنوش باشا) وهو من أصل الباني كان نصرانياً فأسلم حيث هون من شأن القوات الأوروبية على السلطان[4].

وذكرت كتب التاريخ موقف زوغنوش باشا فقالت: (ما أن سأله السلطان الفاتح عن رأيه حتى استوفز في قعدته وصاح في لغة تركية تشوبها لكنة ارناؤوطية: حاشا وكلا

---

(١) الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٧٦.

(٢) المصدر السابق، ص٣٧٦.

(٣) انظر: فتح القسطنطينية ، محمد صفوت، ص١٠٢.

(٤) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٧٧.

أيها السلطان، أنا لا أقبل أبداً ماقاله خليل باشا، فما أتينا هنا إلا لنموت لا لنرجع. وأحدث هذا الاستهلال وقعاً عميقاً في نفوس الحاضرين، وخيم السكون على المجلس لحظة ثم واصل زوغنوش باشا كلامه فقال: إن خليل باشا أراد بما قاله أن يخمد فيكم نار الحمية ويقتل الشجاعة ولكنه لن يبوء إلا بالخيبة والخسران. ان جيش الاسكندر الكبير الذي قام من اليونان وزحف الى الهند وقهر نصف آسيا الكبيرة الواسعة لم يكن اكبر من جيشنا فإن كان ذلك الجيش استطاع ان يستولي على تلك الأراضي العظيمة الواسعة أفلا يستطيع جيشنا أن يتخطى هذه الكومة من الأحجار المتراكمة، وقد أعلن خليل باشا أن دول الغرب ستزحف إلينا وتنتقم ولكن مالدول الغربية هذه؟ وهل هي الدول اللاتينية التي شغلها مابينها من خصام وتنافس، هل هي دول البحر المتوسط التي لاتقدر على شيء غير القرصنة واللصوصية؟ ولو أن تلك الدول أرادت نصرة بيزنطة لفعلت وأرسلت إليها الجند والسفن، ولنفرض أن أهل الغرب بعد فتحنا القسطنطينية هبوا الى الحرب وقاتلونا فهل سنقف منهم مكتوفي الأيدي بغير حراك، أو ليس لنا جيش يدافع عن كرامتنا وشرفنا؟

ياصاحب السلطنة ، أما وقد سالتني رأيي فلأعلنها كلمة صريحة، يجب أن تكون قلوبنا كالصخر ، ويجب ان نواصل الحرب دون أن يظهر علينا اقل ضعف أو خور، لقد بدأنا امراً فواجب علينا ان نتمه، ويجب أن نزيد هجماتنا قوة وشدة ونفتح ثغرات جديدة وننقض على العدو بشجاعة. لا أعرف شيئاً غير هذا، ولا استطيع ان اقول شيئاً غير هذا ..)[١].

وبدأت على وجه الفاتح أمارات البشر والانشراح لسماع هذا القول، والتفت الى القائد طرخان يسأله رأيه فأجاب على الفور : ان زوغنوش باشا قد اصاب فيما قال وانا على رأيه ياسلطاني. ثم سأل الشيخ آق شمس الدين والمولى الكوراني عن رأيهما. وكان الفاتح يثق بهما كل الثقة فأجابا أنهما على راي زوغنوش باشا وقالا: (يجب الاستمرار في الحرب، وبالغاية الصمدانية سيكون لنا النصر والظفر)[٢].

---

(١) انظر: محمد الفاتح للرشيدي، ص١٢٢.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص١٢٢.

وسرت الحمية والحماس في جميع الحاضرين وابتهج السلطان الفاتح واستبشر بدعاء الشيخين بالنصر والظفر ولم يملك نفسه من القول : من كان من اجدادي في مثل قوتي[1]؟

لقد أيد العلماء الرأي القائل بمواصلة الجهاد كما فرح السلطان حيث كان يعبر عن رايه ورغبته في مواصلة الهجوم حتى الفتح، وانتهى الاجتماع بتعليمات من السلطان أن الهجوم العام والتعليمات باقتحام المدينة باتت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك[2].

عاشراً : محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه:

في يوم الاحد ١٨ جمادى الأولى ٢٧ من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه ، لعل الله أن يسر لهم الفتح ، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين ، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر احوالها . وما وصلت إليه واوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة ، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثماني . تفقد فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية في قتال الأعداء ، كما بعث إلى أل غلطة التي وقفت على الحياد مؤكدا عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامنا لهم الوفاء بعهده معهم ، وانه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جراء ما يحدث. وفي مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيون نارا كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم بالتهليل والتكبير[3] ، حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيين ، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدما، مما أوقع الرعب في قلوب الروم ، وفي اليوم التالي ٢٨ مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها ، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقدا وموجها ومذكرا

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص١٢٢.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية ، محمد فريد، ص١٦٤.

(٣) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص٦٠.

بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد[1].

وكان الفاتح كلما مر بجمع من جنده خطبهم وأثار فيهم الحمية والحماس ، وأبان لهم أنهم بفتح القسطنطينية سينالون الشرف العظيم والمجد الخالد ، والثواب الجزيل من الله تعالى وستسد دسائس هذه المدينة التي طالما مالأت عليهم الاعداء والمتآمرين وسيكون لأول جندي ينصب راية الإسلام[2] على سور القسطنطينية الجزاء الأوفى والإقطاعات الواسعة.

وكان علماء المسلمين وشيوخهم يتجولون بين الجنود ويقرأون على المجاهدين آيات الجهاد والقتال وسورة الأنفال ، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري ويقولون للمجاهدين : لقد نزل سيدنا محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة في دار أبي أيوب الأنصاري ، وقد قصد أبو أيوب إلى هذه البقعة ونزل هنا ، وكان هذا القول يلهب الجند ويبعث في نفوسهم أشد الحماس والحمية[3].

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه اصدر إليهم التعليمات الأخيرة ، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: (إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فردا فردا ، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرا وشرفا ، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم ، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ، ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون . .)[4].

---

(١) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٧٨.

(٢) انظر: محمد الفاتح ، ص١٢٥.

(٣) انظر: محمد الفاتح، ص١٣٦.

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص١٣٦.

وفي هذا الوقت كان الامبراطور البيزنطي يجمع الناس في المدينة لإقامة ابتهال عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء في الكنائس على طريقة النصارى لعله أن يستجاب لهم فتنجوا المدينة من هذا الحصار ، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها ، حديث أكد عليهم بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو ، والاستماتة في حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين ، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين ، كما صلى الإمبراطور ومن معه من النصارى الصلاة الأخيرة في كنيسة آياصوفيا أقدس الكنائس عندهم[1] ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة فودع جميع من فيه واستصفحهم وكان مشهدا مؤثرا وقد كتب مؤرخو النصارى عن هذا المشهد ، فقال من حضره، (لو أن شخصا قلبه من خشب أو صخر لفاضت عيناه بالدموع لهذا المنظر)[2].

وتوجه قسطنطين نحو صورة (يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة في أحد الغرف فركع تحتها وهمهم بعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر عند نحو منتصف الليل مع زميله ورفيقه وأمينه المؤرخ فرانتزتس ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى المدافعة ولاحظوا حركة الجيش العثماني النشطه المتوثبة للهجوم البري والبحري . وقبيل ذلك الليل بقليل رنت السماء رذا خفيفا كأنما كانت ترش الأرض رشا فخرج السلطان الفاتح من خيمته ورفع بصره إلى السماء وقال: (لقد أولانا الله رحمته وعنايته فأنزل هذا المطر المبارك في أوانه فإنه سيذهب بالغبار ويسهل لنا الحركة)[3].

الحادي عشر: "فتح من الله ونصر قريب"

عند الساعة الواحدة صباحا من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٣٥م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار ، وخاف البيزنطيون خوفا عظيما ، وشرعوا في دق

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٩.

(٢) محمد الفاتح ، ص١٢٩.

(٣) المصدر السابق نفسه ،ص١٣٠.

نواقيس الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى وكان الهجوم النهائي متزامنا بريا وبحريا في وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام ، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة ، وكان الهجوم موزعا على كثير من المناطق ، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس ، بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه ، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين ، ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة[١] ، وبعد أن انهكت الفرقة الاولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية ، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء ، وتمكنت الفرقة الجديدة ، من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للإقتحام ، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستمية من الهاجمين ، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي لمحاولات التسلق ، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة ، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر أمرا إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا ان الأمر قد هدأ وكانوا قد أرهقوا ، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ نصيبهم من القتال[٢] كما كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد، ومع بزوغ نور الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر ، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على انجاح الهجوم ، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالإنسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف ، واتعبتهم بعد سهرهم طوال الليل ، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان

---

(١) الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص

الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تنفك عن محاولة منع المدافعين عنها وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء ، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابي ورفعوا الأعلام العثمانية[١].

مما زاد في حماس بقية الجيش للاقحام كما فتوا في عضد الأعداء ، وفي نفس الوقت أصيب قائد المدافعين جستنيان بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة[٢] مما أثر في بقية المدافعين ، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي ركب أحد السفن فارا من أرض المعركة ، وقد بذل الامبراطور جهودا كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً على اشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.

وقد واصل العثمانيون هجومهم في ناحية اخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين في باب أدرنة ورفعت الاعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لايعرف ، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة[٣].

وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على

---

(١) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص٢٨٢.

(٢) محمد الفاتح ، ص١٣٧.

(٣) انظر: محمد الفاتح، ص١٣٩.

المدينة وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاركهم فرحة النصر، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده وكان قواده يهنئونه وهو يقول :

(الحمدلله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر)(١).

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين ، وقد هرب أغلب أهل المدينة الى الكنائس ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادي الأولى ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون : ماشاء الله ، فالتفت إليهم وقال : لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذي أخبر عنهم رسول الله ﷺ وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم ، ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى)(٢).

الثاني عشر: معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين:

توجه محمد الفاتح الى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة الى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة الى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر ، فأزالوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنيسة الى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الاسلامية.

وقد اعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٣١.

(٢) الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٨٢.

الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع[١].

لقد حاول المؤرخ الأنجليزي ادوارد شيبر دكريسي في كتابة (تاريخ العثمانيين الاتراك أن يشوه صوره الفتح العثماني للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الاسلامي المجيد[٢] وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حماة الحقد الصليبي ضد الاسلام ، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية، وساقهم الى اسواق الرقيق في مدينة ادرنة حيث تم بيعهم هناك[٣].

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول أن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان، ورجال الدين ، واجتمع مع الاساقفة وهدأ من روعهم ، وطمأنهم الى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا أجناديوس برطيركا، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الاساقفة الى مقر السلطان، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تماماً على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل والمسلمين عامة. وشعر انه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وانسانية رفيعة، ورجولة مكتملة ، ولم يكن الروم انفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريقهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لابد لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام[٤].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٨٤.

(٢) انظر: جوانب مضيئة ، ص٢٦٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٧.

(٤) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص١٣٥، ١٣٤.

كان العثمانيون حريصون على الالتزام بقواعد الاسلام؛ ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التي حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم ، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم[1].

إن ملل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على كافة حقوقها الدينية ، واصبح لكل ملة رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن للعبادة والأديرة، كما أنه كان لايتدخل أحد في ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها[2].

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع إلتزامه الصادق بالإسلام العظيم، وتأسياً بالنبي الكريم ﷺ ، ثم بخلفائه الراشدين من بعده، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم[3].

---

(١) انظر: جوانب مضيئة ، ص٢٧٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٨٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٨٧.

المبحث الثاني

الفاتح المعنوي للقسطنطينية

الشيخ آق شمس الدين

هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي ارتحل مع والده الى الروم، وطلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح علم من أعلام الحضارة الاسلامية في عهدها العثماني.

وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق ﷺ، كان مولوده في دمشق عم ٧٩٢هـ (١٣٨٩م) حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، ودرس في أماسيا ثم في حلب ثم في انقرة وتوفي عام ١٤٥٩هـ.

درّس الشيخ آق شمس الدين الأمير محمد الفاتح العلوم الاساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الاسلامية واللغات (العربية ، والفارسية والتركية) وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسا ليتدرب على ادارة الولاية ، وأصول الحكم .

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش)(١).

وعندما أصبح الأمير محمد سلطاناً على الدولة العثمانية، وكان شاباً صغير السن وجّهه شيخه فوراً الى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية براً وبحراً. ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يوماً.

وعندما حقق البيزنطيون انتصاراً مؤقتاً وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن ارسلها البابا إليهم وارتفعت روحهم المعنوية اجتمع الأمراء والوزراء العثمانيون وقابلوا السلطان محمد الفاتح وقالوا له : (إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر الى هذا

---

(١) سبق تخريج الحديث.

الحصار جرياً وراء كلام أحد المشايخ -يقصدون آق شمس الدين- فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد ثم زاد الأمر على هذا بأن عون من بلاد الأفرنج للكافرين داخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح..)[1]. فأرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين أحمد باشا الى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ: (لابد من أن يمنّ الله بالفتح)[2].

ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة الى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها: (هو المعزّ الناصر .. إن حادث تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة وأحدث في الكفار الفرح والشماتة. إن القضية الثابتة هي : إن العبد يدبر والله يقدر والحكم لله.. ولقد لجأنا الى الله وتلونا القرآن الكريم وماهي إلا سنة من النوم بعد إلا وقد حدثت ألطاف الله تعالى فظهرت من البشارات مالم يحدث مثلها من قبل)[3].

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود. وعلى الفور قرر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد الى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال : علمني ياسيدي دعاءً أدعو الله به ليوفقني ، فعلمه الشيخ دعاءً، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام[4].

اراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه الى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر الى الداخل فإذا شيخه ساجداً لله في سجدة طويلة وعمامته

---

(١) انظر: البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، ص١٤٦.

(٢) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٧٣.

(٣) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٣٧٣.

متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بأنزال النصر ويسأله الفتح القريب[1].

وعاد السلطان محمد (الفاتح) عقب ذلك الى مقر قيادته ونظر الى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود الى القسطنطينية[2].

ففرح السلطان بذلك وقال ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني[3].

وقد ذكر الشوكاني في البدر الطالع أن الشيخ شمس الدين ظهرت بركته وظهر فضله وأنه حدد للسلطان الفاتح اليوم الذي تفتح فيه القسطنطبنية على يديه[4].

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية الى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ الى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة الله في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة كما هي في الشريعة الاسلامية[5].

وبعد أن أكرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام اقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد (سيد القوم خادمهم). ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال: ياجنود الاسلام. اعلموا واذكروا أن النبي ﷺ قال في شأنكم: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٣٧٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٧٤.

(٣) انظر: البدر الطالع (١٦٧/٢).

(٤) المصدر السابق نفسه (٢/١٦٦).

(٥) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٧٤.

الجيش)[1]. ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا. ألا لاتسرفوا في ما أصبتم من أموال الغنيمة ولاتبذروا وأنفقوها في البر والخير لأهل هذه المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه. ثم التفت الى الفاتح وقال له : ياسلطاني ، لقد أصبحت قرة عين آل عثمان فكن على الدوام مجاهداً في سبيل الله. ثم صاح مكبراً بالله في صوت جهوري جليد[2].

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية الى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بموضع قريب من سور القسطنطينية[3].

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقي خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا[4].

الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حباً عظيماً، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله -بعد الفتح- : (إنكم ترونني فرحاً . فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين.

وعبر الشيخ عن تهيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا. قال السلطان الفاتح: (إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري . إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة)[5].

ذكر صاحب البدر الطالع أن :(.. ثم بعد يوم جاء السلطان الى خيمة صاحب الترجمة - أي آق شمس الدين) - وهو مضطجع فلم يقم له فقبل السلطان يده وقال له

---

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) انظر: محمد الفاتح ، ص١٤٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٤٩.

(٤) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٧٤.

(٥) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٧٥.

جئتك لحاجة قال: وماهي؟ قال: ان ادخل الخلوة عندك فأبى فأبرم عليه السلطان مراراً وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال أنه يأتي إليك واحد من الاتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى عليّ فقال الشيخ: إنك اذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح ثم ارسل إليه ألف دينار فلم يقبل ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ماقام الشيخ لي. فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظام فاراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو..)[١].

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص على تربية محمد الفاتح على معاني الإيمان والاسلام والإحسان ولم يكن هذا الشيخ متبحراً في علوم الدين والتزكية فقط بل كان عالماً في النبات والطب والصيدلة، وكان مشهوراً في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض. وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح مثلاً بين الناس يقول: (إن النبات ليحدث آق شمس الدين)[٢].

وقال الشوكاني عنه: (..وصار مع كونه طبيباً للقلوب طبيباً للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول: أنا شفاء من المرض الفلاني ثم اشتهرت بركته وظهر فضله..)[٣].

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية.

واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتماماً خاصاً بالامراض المعدية، فقد كانت هذه الامراض في عصره تسبب في موت الآلاف، وألف في ذلك كتاباً بالتركية بعنوان (مادة الحياة) قال فيه: (من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الاشخاص تلقائيا، فالأمراض تنتقل من شخص الى آخر بطريق العدوى. هذه العدوى صغيرة ودقيقة الى درجة عدم القدرة على

---

(١) البدر الطالع (٢/١٦٧).

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٢٧٥.

(٣) البدر الطالع (٢/١٦٦).

رؤيتها بالعين المجردة. لكن هذا يحدث بواسطة بذور حية) [1].

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي. وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد. وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوجي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل الى نفس النتيجة.

وأهتم الشيخ آق شمس الدين أيضاً بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألف الشيخ كتابين هما: (مادة الحياة)، و(كتاب الطب)، وهما باللغة التركية والعثمانية. وللشيخ باللغة العربية سبع كتب، هي: حل المشكلات، الرسالة النورية، مقالات الأولياء، رسالة في ذكر الله، تلخيص المتائن، دفع المتائن، رسالة في شرح حاجي بايرام ولي[2].

وفاته:

عاد الشيخ الى موطنه كونيوك بعد أن أحسس بالحاجة الى ذلك رغم إصرار السلطان على بقائه في استنبول ومات عام ٨٦٣هـ/١٤٥٩م فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان[3].

وهكذا سنة الله في خلقه لايخرج قائد رباني وفاتح مغوار إلا كان حوله مجموعة من العلماء الربانيين يساهمون في تعليمه وتربيته وترشيده والأمثلة في ذلك كثيرة وقد ذكرنا دور عبدالله بن ياسين مع يحيى بن ابراهيم في دولة المرابطين، والقاضي الفاضل مع صلاح الدين في الدولة الأيوبية، وهذا آق شمس الدين مع محمد الفاتح في الدولة العثمانية فرحمة الله على الجميع وتقبل الله جهودهم وأعمالهم وأعلى ذكرهم في المصلحين.

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٧٦.

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٧٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٧٦.

المبحث الثالث

أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوروبي والإسلامي

كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الاسلام في اوروبا ولذلك فإن سقوطها يعني فتح الاسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكثر من ذي قبل ، ويعتبر فتح القسطنطينية من اهم أحداث التاريخ العالمي، وخصوصاً تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة[١] .

وقد قام السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة، وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب اسلام بول أي مدينة الاسلام[٢] .

لقد تأثر الغرب النصراني بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصارى شعور بالفزع والالم والخزي ، وتجسم لهم خطر جيوش الاسلام القادمة من استنبول ، وبذل الشعراء والادباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصارى ضد المسلمين ، وعقد الامراء والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة وتنادى النصارى الى نبذ الخلافات والحزازات وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الايطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمراً عقد في روما اعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك. وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين والتي تسببت في همه وحزنه فمات كمداً في ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥م[٣] .

---

(١) انظر : تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزيونا، ص٢٨٤.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص١٦٤.

(٣) انظر : السلطان محمد الفاتح ، ص١٣٧،١٣٦.

وتحمس الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا والتهب حماساً وحمية واستنفر ملوك النصارى الى قتال المسلمين وحذ حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية، وتحولت فكرة قتال المسلمين الى عقيدة مقدسة تدفعهم لغزو بلادهم ، وتزعمت البابوية في روما حروب النصارى ضد المسلمين وكان السلطان محمد الفاتح بالمرصاد لكل تحركات النصارى، وخطط ونفذ مارآه مناسباً لتقوية دولته وتدمير أعدائه، واضطر النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمد أو يتاخمون حدوده ففي آماسيا، وبلاد المورة ، طرابيزون وغيرهم أن يكتموا شعورهم الحقيقي، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم الى السلطان في أدرنة لتهنئته على انتصاره العظيم(١) .

وحاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مقدرة خطابية ، وحنكة سياسية، تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوباً وملوكاً، قادة وجنوداً ، استعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين ولما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية، فلقد انهكت حرب المائة عام انكلترا وفرنسا، كما أن بريطانيا كانت منهمكة في مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية، وأما أسبانيا فهي مشغولة بالقضاء على مسلمي الأندلس وأما الجمهوريات الايطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحباً في المال ، فكانت تهتم بعلاقتها مع الدولة العثمانية.

وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت زعيمها البابا واصبحت المجر والبندقية تواجه الدولة العثمانية لوحدهما، أما البندقية فعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها وأما المجر فقد انهزمت أمام الجيوش العثمانية واستطاع العثمانيون أن يضموا الى دولتهم بلاد الصرب، واليونان والافلاق والقرم والجزر الرئيسية في الأرخبيل. وقد تم ذلك في فترة قصيرة ، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم ، واخذهم اخذاً عظيماً(٢) .

وحاول البابا (بيوس الثاني) بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٤٠.

(٢) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص١٤٠.

جهوده في ناحيتين اثنتين : حاول أولاً أن يقنع الاتراك باعتناق الدين النصراني، ولم يقم بارسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض وانما اقتصر على ارسال خطاب الى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه ان هو اعتنق النصرانية مخلصاً، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكاً بدخول الجنة. ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ الى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدأ فشلها مسبقاً بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التي قادها هونياد المجري[1].

وأما آثار هذا الفتح المبين في المشرق الاسلامي - فنقول لقد عم الفرح والابتهاج المسلمين في ربوع آسيا وافريقيا فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الاجيال، ولقد تطلعت له طويلاً وهاقد تحقق وارسل السلطان محمد الفاتح رسائل الى حكام الديار الاسلامية في مصر والحجاز وبلاد فارس والهند وغيرها؛ يخبرهم بهذا النصر الاسلامي العظيم وأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط والاعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة[2].

يقول ابن إياس صاحب كتاب (بدائع الزهور) في هذه الواقعة : (فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم أن السلطان عين برسباي أمير آخور ثاني رسولاً الى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح)[3].

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ومعهم الهدايا واسيران من عظماء الروم، قال : (قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه اسيران من عظماء اسطنبول وطلع بهما الى السلطان (سلطان مصر إينال) وهما من أهل القسطنطينية وهي

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص١٤١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٤٢.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٤٢.

الكنيسة العظيمة باسطنبول فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران الى القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتار القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة. وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا في ذلك الى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل.) [١].

وهذا الذي ذكره ابن تغري بردي من وصف احتفال الناس وأفراحهم في القاهرة بفتح القسطنطينية ماهو إلا صورة لنظائر لها قامت في البلاد الاسلامية الاخرى. وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح الى سلطان مصر وشاه ايران وشريف مكة وأمير القرمان، كما بعث بمثل هذه الرسائل الى الأمراء المسيحيين المجاورين له في المورة والأفلاق والمجر والبوسنة وصربيا وألبانيا والى جميع أطراف مملكته[٢].

من رسالة الفاتح الى سلطان مصر:

واليك مقتطفات من رسالة الفاتح الى أخيه سلطان مصر الأشرف اينال وهي من إنشاء الشيخ أحمد الكوراني: (.إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالى أنهم مجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تيك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالى : {قاتلوا الذين لايؤمنون بالله}، ومستمسكين بقوله عليه السلام: (من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار) فهممنا في هذا العام عممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والاكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام الى أداء فرض الغزاء في الاسلام مؤتمرين بأمره تعالى: {قاتلوا الذين يلونكم من الكفار..} وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخراً .

فكأنها حصف على الخد الأغر   وكأنها كلف على وجه القمر

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٧١/١٦).

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص١٤٢.

هذه المدينة الواقع جانب منها في البحر وجانب منها في البر، فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله : {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .} كل أهبة يعتد بها وجميع أسلحة يعتمد عليها من البرق والرعد والمنجنيق والنقب والحجور وغيرها من جانب البر والفلك المشحون والجوار المنشآت في البحر كالأعلام من جانب البحر ونزلنا عليها في السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة

فقلت للنفس جدي الآن فاجتهدي وساعديني فهذا ما تمنيت

فكلما دعوا إلى الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين فأحطنا بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا وجرى بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوما وليلة

إذا جاء نصر الله والفتح هين على المرء معسور الأمور وصعبها

فمتى طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادي الأولى هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقي بالضرب الحيدري لآل عثمان قد من الله بالفتح قبل أن ظهرت الشمس من مشرقها {سيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} ، وأول من قتل وقطع رأسه تكفورهم اللعين الكنود فأهلكوا كقوم عاد وثمود فحفظهم ملائكة العذاب فأوردهم النار وبئس المآب فقتل من قتل وأسر من به بقى وأغاروا على خزاينهم وأخرجوا كنوزهم ودفافينهم موفوراً فأتى عليهم حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، فلما ظهرنا على هؤلاء الأرجاس الأنجاس الحلوس طهرنا القوس من القسوس وأخرجنا منه الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الأصنام مساجد أهل الإسلام وتشرفت تلك الخطة بشرف السكة والخطبة فوقع أمر الله وبطل ما كانوا يعملون...[1].

---

(١) محمد الفاتح، ص١٦٣ الى ١٦٧.

وأرسل السلطان الفاتح رسالة إلى شريف مكة عن طريق سلطان مصر وقد رد سلطان مصر على خطاب السلطان محمد وهداياه بمقطوعة من النثر الأدبي الرفيع وجاءت فيها بعض الأبيات الشعرية المعبرة مثل قول الشاعر:

خطبتها بكراً وما أمهرتها　　إلا قنا وقواضباً وفوارسا

من كانت السمر العوالي مهره　　جلبت له بيض الحصون عرايسا

الله أكبر ما جنيت ثمارها　　إلا وكان أبوك قبلك غراسا(1)

وقد جاء في رسالة سلطان مصر أيضاً هذا البيت: قال الشاعر:

الله أكبر هذا النصر والظفر　　هذا هو الفتح لا ما يزعم البشر(2)

وقال شاعر سلطان مصر بمناسبة فتح القسطنطينية:

كذا فليكن في الله جل العزايم　　وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها　　إذا ما تهدت موجه المتلاطم

تحيط بمنصور اللواء مظفر　　له النصر والتأييد عبد وخادم

فيا ناصر الإسلام يا من بغزوه　　على الكفر أيام الزمان مواسم

تهنْ بفتح سار في الأرض ذكره　　سرى الغيث يحدوه الصبا والنعايم(3)

---

(1) محمد الفاتح، ص١٧٥.

(2) المصدر السابق، ص١٧٦.

(3) محمد الفاتح، ص١٧٧.

رسالة السلطان محمد الفاتح إلى شريف مكة :

وجه السلطان محمد الفاتح رسالة إلى شريف مكة المكرمة بمناسبة فتح القسطنطينية بشره فيها بالفتح، وطلب الدعاء، وأرسل له الهدايا من الغنائم، وهذه بعض فقراتها:

بعد مقدمة في المدح والثناء على شريف (مكة المكرمة (يقول : (فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشراً بما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت، وهي تسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينية، فالمأمول من مقر عزكم الشريفة أن يبشر بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى، مع سكان الحرمين الشريفين، والعلماء والسادات المهتدين، والزهاد والعباد الصالحين، والمشايخ، والأمجاد الواصلين، والأئمة الخيار المتقين، والصغار والكبار أجمعين، والمتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام، التي كالعروة الوثقى لا انفصام لها والمشرفين بزمزم والمقام، والمعتكفين في قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام داعين لدوام دولتنا في العرفات، متضرعين من الله نصرتنا، أفاض علينا بركاتهم ورفع درجاتهم، وبعثنا مع المشار اليه هدية لكم خاصة ألفي فلوري من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة، وسبعة آلاف فلوري أخرى للفقراء، منها ألفان للسادات والنقباء، وألف للخدام المخصوصين للحرمين، والباقي للمساكين المحتاجين في مكة والمدينة المنورة، زادهما الله شرفاً، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم، وإشعار كيفية السير إلينا، وتحصيل الدعاء منهم لنا، دائماً باللطف والإحسان إن شاء الله تعالى، والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلى يوم الدين[(١)]

وقد رد شريف مكة على رسالة السلطان محمد الفاتح:

(وفتحناها بكمال الأدب، وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين أهل الحجاز وأبناء العرب فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين وماهي إلا فتح (القسطنطينية (العظمى وتوابعها التي

---

(١) الدولة العثمانية ، الدكتور جمال عبدالهادي ، ص٤٧.

متانة حصنها مشهورة بين الأنام، وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام وحمدنا الله بتيسير ذلك الأمر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير، وبششنا ذلك غاية البشاشة، وابتهجنا من إحياء مراسم آبائكم العظام والسلوك مسالك أجدادكم الكرام، روّح الله أرواحهم، وجعل أعلى غرف الجنان مكانهم، في إظهار المحبة لسكان الأراضي المقدسة[1]

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٤٨.

المبحث الرابع

أسباب فتح القسطنطينية

إن فتح المسلمين للقسطنطينية لم يأتي من فراغ وإنما هو نتيجة لجهود تراكمية قام بها المسلمون منذ العصور الأولى للإسلام رغبة من تلك الأجيال في تحقيق بشارة رسول الله ﷺ وزاد الاهتمام بفتح القسطنطينية مع ظهور دولة بني عثمان ونلاحظ أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا أصحاب فقه عميق لسنة الأخذ بالأسباب ومارس محمد الفاتح ذلك الفقه ويظهر ذلك من خلال سيرته الجهادية وحرصه على العمل بقوله تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ..} (سورة الأنفال، آية: ٦٠).

لقد فهم محمد الفاتح من هذه الآية أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولقد قام بشرح هذه الآية شرحا عمليا في جهاده الميمون فقام بحشد جيش عظيم لحصار القسطنطينية ولم يتوانا في جلب كل سلاح معروف في زمانه من مدافع، وفرسان، ورماة . الخ

ولقد كان الجيش الذي حاصر القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح قد أعد إعداداً ربانياً فتربى على معاني الإيمان والتقوى، وتحمل الأمانة وأداء الرسالة المنوطة به ونقد تربى على معاني العقيدة الصحيحة وأشرف العلماء الربانيون على تلك التربية ولقد جعلوا من كتاب الله تعالى وسنة نبيه منهجاً لهم في تربية الأفراد، فكانوا يربونهم على:

١- إن الله تعالى واحد لاشريك له، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه منزه عن النقائص، وموصوف بالكمالات التي لاتتناهى.

٢- وأنه سبحانه خالق كل شيء، ومالكه، ومدبر أمره {الا له الخلق والأمر} (سورة الأعراف: ٥٤).

٣- وأنه سبحانه وتعالى مصدر كل نعمة في هذا الوجود، دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت {وما بكم من نعمة فمن الله} (سورة النحل: ٥٣).

٤- وأن علمه محيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، ومالا يخفى الإنسان ومالا يعلن: {وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً} (سورة الطلاق: ١٢).

٥- وأنه سبحانه يقيد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتاب لايترك صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب {مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} (سورة ق: ٨).

٦- وأنه سبحانه يبتلي عباده بأمور تخالف مايحبون، وما يهوون، ليعرف الناس معادنهم، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره، ويسلم له ظاهراً وباطناً، فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة، ومن منهم يغضب ويسخط فلا يساوي شيئاً ولايسند إليه شيء : {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً} (سورة الملك: ٢).

٧- وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر : {إن وليّ الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين} (سورة الأعراف: ١٩٦).

٨- وأنه سبحانه وتعالى حقه على العباد أن يعبدوه، ويوحدوه، فلا يشركوا به شيئاً: {بل الله فاعبد وكن من الشاكرين} (سورة الزمر: ١٦).

٩- وأنه سبحانه - حدد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد في القرآن العظيم.

ولقد نهج علماء الدولة العثمانية منهج الرسول ﷺ في تربية الأفراد والجنود على حقيقة المصير وسبيل النجاة وركزوا في البيان على الجوانب التالية:

١- إن هذه الحياة مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير : {إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض، مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت،

وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون} (سورة يونس: ٢٤).

{قل متاع الدنيا قليل} (النساء: ٧٧).

٢- وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسؤولون ومحاسبون وفي الجنة أو في النار مستقرون: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} (القيامة:٣٦).

٣- وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارة في الدنيا، وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا : {أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون} (سورة الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧).

٤- وأن الناس مع زوال الدنيا، واستقرارهم في الجنة، أو في النار، سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد: {يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.} (سورة الحج: ١-٢). وقال تعالى : {فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً، السماء منفطر به كان وعده مفعولا} (سورة المزمل: ١٧-١٨).

٥- وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال، ومن تلك الشدائد، والظفر بالجنة والبعد عن النار[1] ، بالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير} (سورة البروج: ١١).

ومضى العلماء الربانيون في الدولة العثمانية على منهج الرسول ﷺ في تبصير

(١) انظر: منهج الرسول في غرس الروح الجهادية ، ص١٩ الى ٣٤.

الأفراد والجنود والقادة والشعب بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله وظلوا على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم، مالهم عند الله، ومادورهم ورسالتهم في الأرض، وتأثراً بهذه التربية الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس الأفراد والجنود والقادة فهذا محمد الفاتح نفسه الذي تربى على هذا المنهج يفتخر بهذه المعاني والقيم في أشعاره فنجده يقول:

وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني، دين الله

عزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي: جند الله

وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر على الفوز، بلطف الله

جهادي: بالنفس وبالمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله

وأشواقي: الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله

رجائي: في نصر الله. وسمو الدولة على أعداء الله(١).

وعندما أراد السلطان محمد فتح مدينة طرابزون وكان حاكمها نصراني وكان يريد أن يباغتها على غرة، فأعد العدة، واستصحب معه عدداً كبيراً من العمال المتخصصين في قطع الأشجار وتعبيد الطرق. وقد صادف الفاتح في طريقه بعض الجبال العالية الوعرة فترجل عن فرسه وتسلقها على يديه ورجيله كسائر الجند (وكانت معه والدة حسن اوزون زعيم التركمان جاءت للإصلاح بين السلطان محمد وابنها) فقالت له: (فيم تشقى كل هذا الشقاء يابني وتتكبد كل هذا العناء، هل تستحق طرابزون كل هذا؟) . فأجاب الفاتح: ياأماه ، إن الله قد وضع هذا السيف في يدي لأجاهد به في سبيله، فإذا أنا لم أتحمل هذه المتاعب وأؤد بهذا السيف حقه فلن أكون جديراً بلقب الغازي الذي احمله وكيف القى الله بعد ذلك يوم القيامة؟(٢) وهكذا كان معظم الجنود والقادة بسبب تربيتهم الايمانية العميقة.

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٢٥٨.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص٢٦٣.

لقد كان جيش محمد الفاتح في حصار القسطنطينية على جانب عظيم من التمسك بالعقيدة الصحيحة، والعبادات وإقامة شعائر الدين والخضوع لله رب العالمين[1].

لقد ذكر المؤرخون أسباب كثيرة في فتح القسطنطنية، كضعف الدولة البيزنطية، والصراعات العقدية بداخلها، والتآكل الداخلي للدول الأوروبية بسبب القتال الذي نشأ بين الدول الأوروبية لعقود طويلة وغير ذلك من الاسباب.

أثر تحكيم شرع الله تعالى على الدولة العثمانية في زمن السلطان محمد الفاتح:

إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي حياة الأمم والشعوب تكسب العبد معرفة اصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق، وكتاب الله تعالى مليء بسننه وقوانينه المبثوثة في المجتمعات والدول والشعوب قال تعالى: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم} (سوزة النساء: آية ٢٦).

وسنن الله تتضح بالتدبر في كتاب الله وفميا صح عن رسول الله ﷺ، فقد كان ﷺ يقتنص الفرص ويستفيد من الأحداث ليرشد أصحابه الى شيء من السنن ، ومن ذلك أن ناقته عليه الصلاة والسلام (العضباء(كانت لا تسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فقال نهم عليه الصلاة والسلام كاشفاً عن سنة من سنن الله : (حق على الله أن لا يرفع شيء من الدنيا إلا وضعه)[2].

وقد أرشدنا كتاب الله الى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسير، وفي الأزمنة من التاريخ والسير قال تعالى: {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين} (سورة آل عمران: آية ١٣٧-١٣٨).

---

(١) انظر: الحسبة في العصر المملوكي ، د. حيدر الصافح، ص٢٠٦.

(٢) اخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير ، باب ناقة رسول الله (٨٦/٦).

وأرشدنا القرآن الكريم الى معرفة السنن بالنظر والتفكر قال تعالى : {قل أنظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون، فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلو من قبلهم، قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين} (سورة يونس: الآيات ١٠١-١٠٢).

ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص:

أولاً: إنها قدر سابق:

قال تعالى: {ماكان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً} (سورة الأحزاب: آية ٣٨).

اي أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كائن لامحالة، وواقع لاحياد عنه. ولا معدل فيما شاء وكان ومالم يشأ لم يكن .

ثانياً: أنها لاتتحول ولاتتبدل :

قال تعالى : {لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم، ثم لايجاورنك فيها إلا قليلاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا} (سورة الأحزاب: الآيات ٢٢-٢٣، ٦٠-٦٢).

وقال تعالى: {ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيراً سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً} (سورة الفتح: الآية ٢٢،٢٣).

ثالثاً: إنها ماضية لا تتوقف:

قال تعالى: {قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين} (سورة غافر: الآيات ٨٢-٨٥).

رابعاً: أنها لاتخالف ولا تنفع مخالفتها:

قال تعالى: {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض، فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون} (سورة غافر: الآيات ٨٢-٨٥).

خامساً: لاينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون :

قال تعالى: {قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين} (سورة آل عمران : الآيات ١٣٧-١٣٨).

سادساً: إنها تسري على البر والفاجر:

فالمؤمنون والأنبياء أعلاهم قدراً تسري عليهم سنن الله ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل أمر الله أو أعرض عنه وبما أن العثمانيين ألتزموا بشرع الله في كافة شؤونهم ومروا بمراحل طبيعية في حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح بيّن:

وللحكم بما انزل الله آثار دنيوية وآخرى اخروية اما الآثار الدنيوية التي ظهرت لي من خلال دراستي للدولة العثمانية فإنها:

أولاً: الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد العثمانيين منذ زعيمهم الأول عثمان حتى محمد الفاتح ومن بعده حرصوا على إقامة شعائر الله على أنفسم وأهليهم وأخلصوا لله في تحاكمهم الى شرعه، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم واستخلفهم في الأرض وأقام العثمانيون شريعة الله في الأرض التي حكموها، فمكن لهم المولى عز وجل الملك ووطأ لهم السلطان.

وهذه سنة ربانية نافذة لاتتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة لإقامة

شرع الله.

وقد خاطب تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعداً إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه في سورة النور : {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض (بدلاً من الكفار) كما استخلف الذين من قبلهم} من بني أسرائيل[1].

ولقد حقق العثمانيون الإيمان وتحاكموا الى شريعة الرحمن، فأتتهم ثمرة ذلك واثره الباقي {وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم} فحققوا التحاكم الى الدين، فتحقق لهم التمكين.

ثانياً: الأمن والأستقرار:

كانت بلاد آسيا الصغرى مضطربة وكثرت فيها الإمارات المتنازعة ، وبعدأن أكرم الله تعالى العثمانيين بتوحيد تلك الإمارات وتوجيهها نحو الجهاد في سبيل الله تعالى يسر الله للدولة العثمانية الأمن والاستقرار في تلك الربوع التي حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن الدولة العثمانية بعد أن استخلفت مكن الله لها وأعطاها دواعي الأمن وأسباب الاستقرار حتى تحافظ على مكانتها وهذه سنة جارية ماضية ضمن الله لأهل الايمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذي ينشدون في أنفسهم وواقعهم ، فبيده سبحانه مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب ، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} (سورة الأنعام: آية) فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك، صغيره وكبيره ، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته.

إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من التأمين، والتطمين والبعد عن الخوف والفزع.

---

(١) سورة النور ، الآية:

إن العثمانيين عندما حققوا العبودية لله ونبذوا الشرك بأنواعه حقق الله لهم الأمن في النفوس على مستوى الشعب والدولة.

ثالثا: النصر والفتح:

إن العثمانيين حرصوا على نصرة دين الله بكل مايملكون وتحققت فيهم سنة الله في نصرته لمن ينصره لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته قال تعالى: {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ۞ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور} (سورة الحج: آية).

(وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف .. إن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ، وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسل الله ﷺ: {إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا} (سورة القصص: آية ٥٧)، فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان)[١].

إن الله تعالى أيد العثمانيين على الأعداء ومن عليهم بالفتح، فتح الأراضي وإخضاعها لحكم الله تعالى، وفتح القلوب هدايتها لدين الإسلام.

إن العثمانيين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جلبت لهم الفتح، واستنزلت عليهم نصر الله.

إن الشعوب الاسلامية التي تبتعد عن شريعة الله تذل نفسها في الدنيا والآخرة.

إن مسؤولية الحكام والقضاة والعلماء والدعاة في الدعوة الى تحكيم شرع الله مسؤولية عظيمة يسألون عنها يوم القيامة أمام الله: (إذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله،

---

(١) في ظلال القرآن (٢٧٠٤/٤).

وقع بأسهم بينهم.وهذا أعظم أسباب تغير الدول كما جرى هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره)، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه؛ فإن الله يقول في كتابه : {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز} الى قوله تعالى: {ولله عاقبة الأمور}[(١)] فقد وعد الله بنصرة من ينصره ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لانصر من يحكم بغير ماأنزل الله ويتكلم بما لا يعلم)[(٢)].

رابعاً: العز والشرف:

إن عز العثمانيين وشرفهم العظيم الذي سطر في كتب التاريخ يرجع الى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ الذي به تشرف الأمة وبه يعلو ذكرها ، وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: {لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون} (سورة الأنبياء : الآية ١٠).

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير هذه الآية : (فيه شرفكم)[(٣)] إن العثمانيين استمدوا شرفهم وعزهم من استمساكهم بأحكام الاسلام، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : (إنا كنا أذل قوم ، فأعزنا الله بالاسلام، فمهما نطلب العز بغير ماأعزنا الله أذلنا الله)[(٤)]، فعمر ﷺ كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزى وذلاً، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت في يوم بغير دين الله، ولا ذلت في يوم إلا بالإنحراف عنه قال تعالى: {من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً} (سورة فاطر: الآية ١٠)

---

(١) سورة الحج، الآيات (٤٠-٤١).

(٢) مجموع الفتاوي لابن تيمية (٣٥/٣٨٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٧٠).

(٤) اخرجه الحاكم في المستدرك ، كتاب الايمان (١/٦٢).

يعني من طلب العزة فيلعتز بطاعة الله عز وجل[1].

وقال تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لايعلمون} (سورة المنافقين: الآية ٨).

إن سيرة سلاطين العثمانيين من أمثال عثمان الأول، ومراد، ومحمد الفاتح تبين لنا أعتزازهم بالاسلام وحبهم للقرآن واستعدادهم للموت في سبيل الله، ولقد عاشوا في بركة من العيش ورغد من الحياة الطيبة وما نالوا ذلك إلا بإقامة دين الله قال تعالى : {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} (سورة الاعراف: آية ٩٦).

خامساً: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

لقد انتشرت الفضائل في زمن محمد الفاتح وانحسرت الرذائل، فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة متطلعاً الى ما عند الله من الثواب يخشى من عقاب الله لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه الى مايحبه الرحمن والى تعاليم الاسلام.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب والدول التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ وإن تلك الآثار الطيبة التي اصابت الدولة العثمانية لهي من سنن الله الجارية والتي لاتتبدل ولا تتغير فأي شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين ويرى آثار ذلك التحكيم على أفراده وحكامه ودولته.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الاسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالايمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله وأخذهم بسنن التمكين وفقه ومراعاة التدرج والمرحلية والانتقاء من أفراد الشعب والارتقاء بهم نحو الكمالات الاسلامية المنشودة. إن الإنتصارات العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه وأقام شرعه وزكى نفسه ولهذا لم يأتي فتحاً عظيماً وفتحاً مبيناً إلا لمن توفرت فيهم صفات جيل التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم.

---

(١) ابن كثير (٥٣٦/٢).

المبحث الخامس

أهم صفات محمد الفاتح

لقد ظهرت بعض الصفات القيادية في شخصية محمد الفاتح عند البحث والدراسة ومن أهم هذه الصفات:

١- الحزم:

وظهر ذلك عندما غلب ظنه ان هناك تقصيراً أو تكاسلاً من جانب قائد الاسطول العثماني بالطه اوغلي عند حصاره للقسطنطينية، فأرسل إليه وقال: (إما تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حيا)[١].

ولما لم يحقق بالطه أوغلي مهمته عزله، وجعل مكانه حمزة باشا.

٢- الشجاعة:

وكان رحمه الله يخوض المعارك بنفسه ويقاتل الأعداء بسيفه وفي احدى المعارك في بلاد البلقان تعرض الجيش العثماني لكمين من قبل زعيم البوغدان استفان حيث تخفى مع جيشه خلف الأشجار الكثيفة المتلاصقة وبينما المسلمون بجانب تلك الاشجار انهمرت عليهم نيران المدافع الشديدة من بين الأشجار وانبطح الجنود على وجوههم وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السلطان الفاتح وتباعد عن مرمى المدافع وعنف رئيس الانكشارية محمد الطرابزوني على تخاذل جنده، ثم صاح فيهم: (أيها الغزاة المجاهدون كونوا جند الله ولتكن فيكم الحمية الاسلامية)[٢] وأمسك بالترس واستل سيفه ركض بحصانه واندفع به الى الامام لايلوي على شيء وألهب بذلك نار الحماس في جنده فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابة على من فيها ونشب بين الأشجار قتال عنيف بالسيوف استمر من الضحى الى الأصيل.

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص١٠١.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص٢٤٦.

ومزق العثمانيون الجنود البوغدانية شر ممزق ووقع استفان من فوق ظهر جواده ولم ينج إلا بصعوبة وولى هارباً، وانتصر العثمانيون وغنموا غنائم وفيرة[(١)].

٣- **الذكاء:**

ويظهر ذلك في فكرته البارعة وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش الى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حي غلطة خوفاً على سفنه من الجنويين ، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن ارضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة وشرع في تنفيذ الخطة؛ ومهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، لقد كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل تجلى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، مما يدل على ذكاء محمد الفاتح الوقاد[(٢)].

٤- **العزيمة والإصرار:**

فعندما أرسل السلطان محمد الفاتح الى الامبراطور قسطنطين يطلب منه تسليم القسطنطينية حتى يحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها، فعندما رفض قسطنطين تسليم المدينة قال السلطان محمد: (حسناًعن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر)[(٣)].

وعندما استطاع البيزنطيون أن يحرقوا القلعة الخشبية الضخمة المتحركة كان رده (غداً نصنع أربعاً اخرى)[(٤)].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٤٧.

(٢) انظر: السلطان محمد الفاتح ، ص ١٠٢.

(٣) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور ، ص٣٧٦.

(٤) السطان محمد الفاتح، ص١٢٢.

وهذه المواقف تدل على عزيمته وإصراره في الوصول الى هدفه.

٥- عدله:

حيث عامل أهل الكتاب وفق الشريعة الاسلامية وأعطاهم حقوقهم الدينية ولم يتعرض أحد من النصارى للظلم أو التعدي بل أكرم زعمائهم وأحسن الى رؤسائهم وكان شعاره العدل أساس الملك[١].

٦- عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان:

نجد السلطان محمد عند دخول القسطنطينية يقول: (حمداً لله، ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبي الفخر والشكر)[٢].

فهو أسند الفضل الى الله ولذلك لهج لسانه بالحمد والثناء والشكر لمولاه الذي نصره وأيده وهذا يدل على عمق إيمان محمد الفاتح بالله سبحانه وتعالى.

٧- الأخلاص:

إن كثير من المواقف التي سجلت في تاريخ الفاتح تدلنا على عمق اخلاصه لدينه وعقيدته في اشعاره ومناجاته لربه سبحانه وتعالى حيث يقول:

نيتي : امتثالي لأمر الله (وجاهدوا في سبيل الله).

وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني، دين الله.

عزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي : جند الله.

وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر على الفوز، بلطف الله.

جهادي : بالنفس وبالمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله .

وأشواقي : الغزو الغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٥٢.

(٢) السلطان محمد الفاتح ، ص١٣١.

رجاني: في نصر الله. وسموا الدولة على أعداء الله[1].

٨- **علمه :**

أهتم والده به منذ الطفولة ولذلك خضع السلطان محمد الفاتح لنظام تربوي إشرف عليه مجموعة من علماء عصره المعروفين ، فتعلم القرآن الكريم والحديث والفقه والعلوم العصرية -آنذاك- من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية، وكان من كرم الله للسلطان محمد الفاتح أن أشرف على تعليمه مجموعة من أساطين العلماء في عصره وفي مقدمتهم الشيخ آق شمس الدين والملا الكوراني (عالم الدين عند العثمانيين الأوائل يكون موسوعياً في شتى العلوم المعروفة في عصره). ولقد تأثر محمد الفاتح بتربية شيوخه وظهرت تلك التربية في اتجاهاته الثقافية والسياسية والعسكرية[2].

ولقد تبحر السلطان محمد في اللغات الاسلامية الثلاثة التي لم يكن يستغني عنها مثقف في ذلك العصر وهي : العربية والفارسية والتركية ، ولقد كان السلطان محمد الفاتح شاعراً وترك ديواناً باللغة التركية[3].

---

(١) انظر : العثمانيون في التاريخ

(٢) السلطان محمد الفاتح، ص١٣١.

(٣) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٢٥٤ الى ٢٥٩.

المبحث السادس

شيء من أعماله الحضارية

• اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

كان السلطان محمد الفاتح محباً للعلم والعلماء ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته. وقد كان السلطان أورخان أول من أنشأ مدرسة نموذجية في الدولة العثمانية وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه وانتشرت المدارس والمعاهد في بروسة وأدرنة وغيرها من المدن.

ولقد فاق محمد الفاتح أجداده في هذا المضمار وبذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء المدارس والمعاهد وأدخل بعض الاصلاحات في التعليم واشرف على تهذيب المناهج وتطويرها وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن الكبيرة والصغيرة وكذلك القرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة. ونظم هذه المدارس ورتبها على درجات ومراحل ، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة ، ووضع لها نظام الامتحانات فلا ينتقل طالب من مرحلة الى اخرى إلا بعد اتقانه لعلوم المرحلة السابقة ويخضع لامتحان دقيق وكان السلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ويشرف عليها واحياناً يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس بين الحين والحين ولا يأنف من استماع الدروس التي يلقيها الاساتذة، وكان يوصي الطلبة بالجد والاجتهاد ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الاساتذة والطلبة وجعل التعليم في كافة مدارس الدولة بالمجان وكانت المواد التي تدرس في تلك المدارس : التفسير، والحديث، والفقه، والأدب، والبلاغة ، وعلوم اللغة من المعاني والبيان والبديع، والهندسة..الخ.

وأنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثمان مدارس على كل جانب من جوانب المسجد أربعة مساجد يتوسطها صحن فسيح وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته وألحقت بهذه المدارس مساكن للطلبة ينامون فيها ويأكلون فيها طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وكان الموسم الدراسي على طول السنة في هذه المدارس وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يشترط في الرجل الذي يتولى امانة هذه المكتبة أن يكون

من أهل العلم والتقوى متبحراً في اسماء الكتب والمؤلفين وكان المشرف على المكتبة يعير الطلبة والمدرسين مايطلبونه من الكتب بطريقة منظمة دقيقة ويسجل اسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص وهذا الأمين مسؤول عن الكتب التي في عهدته ومسؤول عن سلامة أوراقها[1] وتخضع هذه المكتبة للتفتيش كل ثلاثة أشهر على الاقل وكانت مناهج هذه المدارس يتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسماً خاصاً وللعلوم التطبيقية قسماً خاصاً أيضاً، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون في انشاء المعاهد والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية[2].

- **اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:**

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى محمد الفاتح، فقرب إليه العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والانتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا ليتفرغوا للعلم والتعليم ويكرمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه ؛ فبعد أن ضم إمارة القرمان الى الدولة أمر بنقل العمال والصناع الى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمد باشا ظلم الناس ومن بينهم بعض العلماء وأهل الفضل ومن بينهم العالم احمد جلبي بن السلطان امير علي فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه واعاده الى وطنه مع رفقائه معززاً مكرماً.

وبعد أن هزم اوزون حسن زعيم التركمان وكان هذا الزعيم لا يلتزم بعهد ويناصر أعداء العثمانيين من أي ملة كانت، فبعد أن هزمه محمد الفاتح وقع في يده عدد كبير من الأسرى، فأمر السلطان الفاتح بقتلهم (إلا من كان من العلماء واصحاب المعارف مثل القاضي محمد الشريحي وكان من فضلاء الزمان، فأكرمه السلطان غاية الاكرام.

وكان السلطان الفاتح يحترم العلماء وأهل الورع والتقى وقد تستبد به في بعض الاحيان نزوة جامعة او غضبة طارئة ولكنه ما يلبث إلا أن يعود الى وقاره واحترامه لهم.

وتحدثنا كتب التاريخ أن السلطان محمد بعث مع احد خدامه بمرسوم الى الشيخ

---

(١) انظر: محمد الفاتح ، ص٣٨٥،٣٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٨٤.

احمد الكوراني - وكان حين ذاك يتولى قضاء العسكر- فوجد فيه أمراً يخالف الشرع فمزقه وضرب الخادم. وشق ذلك على السلطان محمد وغضب من فعل الشيخ وعزله من منصبه، ووقع بينهما نفور وجفوة ورحل الكوراني الى مصر حيث استقبله سلطانها قيتباي وأكرمه غاية الاكرام واقام عنده برهة من الزمن. ومالبث الفاتح أن ندم على ماكان منه فكتب الى السلطان قيتباي يطلب منه ان يرسل إليه الشيخ الكوراني (فحكى السلطان قيتباي كتاب السلطان محمد خان للشيخ الكوراني ثم قال له لا تذهب إليه فاني اكرمك فوق مايكرمك هو. قال: نعم هو كذلك إلا أن بيني وبينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد. وهذا الذي جرى بيننا شيء آخر وهو يعرف ذلك مني ويعرف أني أميل إليه بالطبع فاذا لم أذهب إليه يفهم ان المنع من جانبك فتقع بينكما عداوة. فاستحسن السلطان قيتباي هذا الكلام واعطاه مالاً جزيلاً وهيأ له مايحتاج إليه من حوائج السفر وبعث معه هدايا عظيمة الى السلطان محمد خان. واسند إليه الفاتح ،تضاء ثم الافتاء واجزل له من العطاء واكرمه اكراماً لامزيد عليه(١).

قال عنه الشوكاني: (. وانتقل من قضاء العسكر الى منصب الفتوى وتردد إليه الأكابر وشرح (جمع الجوامع) وكثر تعقبه للمحلى (جلال الدين المحلي المفسر) وعمل تفسيراً ، وشرحاً للبخاري وقصيدة في علم العروض نحو ستمائة بيت. وانشأ بأسطنبول جامعاً ومدرسة سماها دار الحديث وانثالت عليه الدنيا وعمر الدور وانتشر علمه فأخذ عليه الأكابر وحج في سنة ٧٦١هـ احدى وستين وسبعمائة ولم يزل على جلالته حتى (مات) في أواخر سنة ٧٩٣هـ ثلاث وتسعين وسبعمائة وصلى عليه السلطان فمن دونه ومن مطالع قصائده في مدح سلطانه:

هو الشمس إلا أنه الليث باسلا　　　هو البحر إلا أنه مالك البر

وقد ترجمه صاحب (الشقائق النعمانية) ترجمة حافلة..وانه كان يخاطب السلطان بأسمه ولا ينحني له، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة ، وانه كان لا يأتي الى السلطان إلا اذا أرسل إليه وكان يقول له ، مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط.

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص٣٨٩.

وذكر له مناقب جمة تدل على أنه من العلماء العاملين..)[1].

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكان اصابه عوزاً وإملاق إلا بادر الى مساعدته وبذل له ما يستعين به على أمور دنياه.

وكان من عادة الفاتح في شهر رمضان أن يأتي الى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من العلماء المتبحرين في تفسير القرآن فيقوم في كل مرة واحد منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها ويناقشه في ذلك سائر العلماء ويجادلونه، وكان الفاتح يشارك في هذه المناقشات ويشجع هؤلاء العلماء بالعطايا والهدايا والمكافآت المالية الجزيلة.

اهتمامه بالشعراء والأدباء:

ذكر مؤرخ الأدب العثماني أن السلطان محمد الفاتح (راعٍ لنهضة أدبية، وشاعر مجيد حكم ثلاثين عاماً كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء وعرف بأبي الفتح لأنه غلب على إمبراطوريتين، وفتح سبع ممالك واستولى على مائتي مدينة وشاد دور العلم ودور العبادة، فعرف كذلك بأبي الخيرات)[2].

وكان الفاتح مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، واستوزر الكثير منهم مثل أحمد باشا محمود ومحمود باشا وقاسم الجزري باشا، وهؤلاء شعراء[3] وكان في بلاط الفاتح ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً قدره ألف درهم وكان طبيعياً بعد هذا الاهتمام أن يتفنن الشعراء والأدباء في مدح السلطان محمد لما قدمه الى العلم والأدب من كريم الرعاية وجميل التشجيع.

وكان محمد الفاتح ينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ويعاقب الذي يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاطه[4].

---

(١) البدر الطالع (٤١/١).

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٤٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٤٧.

(٤) انظر: محمد الفاتح، ص٣٩٣.

اهتمامه بالترجمة:

كان السلطان محمد الفاتح متقن للغة الرومية ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية من ذلك كتاب (مشاهير الرجال (لبلوتارك ونقل إلى التركية كتاب التصريف في الطب لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي مع زيادات في صور آلالات الجراحة وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية.

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومي جورج اميروتزوس ثم طلب اليه الفاتح والى ابنه (ابن العالم الرومي) الذي كان يجيد اللغتين الرومية والعربية بترجمة الكتاب إلى العربية وإعادة رسم الخريطة مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها باللغتين العربية والرومية وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمة وكان العلامة علي القوشجي وهو من أكبر علماء عصره في الرياضيات والفلك كلما ألف كتاباً بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح.

وكان الفاتح مهتم باللغة العربية، لأنها لغة القرآن الكريم كما أنها من اللغات العلمية المنتشرة في ذلك العهد. وليس أدل على اهتمام الفاتح باللغة العربية من انه طلب إلى (المدرسين بالمدارس الثماني أن يجمعوا بين الكتب الستة في علم اللغة كالصحاح والتكملة والقاموس وأمثالها (. ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالاكثار من نشر المكاتب العامة وأنشأ له في قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم وعين الشيخ لطفي أميناً عليها، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت عام ١٤٦٥م وقد وصف الاستاذ ديزمان هذه المكتبة بأنها بمثابة نقطة تحول في العلم بين الشرق والغرب[(١)].

اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:

كان السلطان محمد الفاتح مغرماً ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص٣٩٦.

قناطر خاصة وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاءً ورونقاً واهتم بالعاصمة (استنبول) اهتماماً خاصاً وكان حريصاً على أن يجعلها (أجمل عواصم العالم) وحاضرة العلوم والفنون. وكثر العمران في عهد الفاتح وانتشر واهتم بدور الشفاء ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب - ثم زيد إلى اثنين - من حذاق الأطباء من اي جنس كان، يعاونهما كحال وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم وأن لاتصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم[(١)].

الاهتمام بالتجارة والصناعة:

اهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على انعاشهما بجميع الوسائل والعوامل والأسباب وكان بذلك مقتفياً خط آبائه وأجداده السلاطين الذين : (كانوا دائماً على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم وأن كثيراً من المدن الكبرى قد ازدهرت ازدهاراً كبيراً عندما خلصها الفتح العثماني مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشلت حركتها، ومن هذه المدن نيقية وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة وانشأوا الكباري الجديدة مما سهل حركة التجارة في جميع أجزاء الدولة واضطرت الدول الأجنبية من فتح موانيها لرعايا الدولة العثمانية ليمارسوا حرفة التجارة في ظل الراية العثمانية وكان من أثر السياسة العامة للدولة في مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء الدولة وأصبحت للدولة

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص٤١٢.

عملتها الذهبية المتميزة[1] ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة وأقامت القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية في البلاد[2].

الاهتمام بالتنظيمات الإدارية:

عمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته ولذلك قنن قوانين حتى يستطيع أن ينظم شؤون الإدارة المحلية في دولته وكانت تلك القوانين مستمدة من الشرع الحكيم وشكل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع (قانون نامه) المستمد من الشريعة الغراء وجعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد ومايجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي أياً كان أصله وجنسه[3].

واهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من المسلمين، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل بين رعيته، وجد في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في ربوع الدولة العثمانية.

وأبقى السلطان محمد النظام الذي كان سائداً لحكم الولايات أيام أسلافه، وأدخل عليه بعض التعديلات الطفيفة التي تناسب عصره ودولته. وكانت الدولة تنقسم إلى ولايات كبرى يحكمها أمير الأمراء وكان يسمى (بكلربك (وإلى ولايات صغرى ويحكمها أمير اللواء، وكان يسمى (سنجق بك (وكلا الحاكمان كان يقوم بأعمال مدنية وعسكرية في آن واحد، وترك لبعض الإمارات الصقلبية في أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلي فكان يحكمها بعض أمراء منها ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة وهو يعزلهم ويعاقبهم اذا خالفوا أوامره أو فكروا في الثورة على الحكومة العثمانية.

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص٤١٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤١٠.

(٣) السلطان محمد الفاتح، ص١٥٤.

وعندما تعلن الدولة الجهاد وتدعوا أمراء الولايات وأمراء الالوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تاماً، وذلك حسب نسب مبينة، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجه من إيراد اقطاعه، فإذا كان إيراد اقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس، وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاه وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الالوية[1].

وقام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفاية وحدها أساساً في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته. واهتم بالنظام المالي ووضع القواعد المحكمة الصارمة في جباية أموال الدولة وقضى على إهمال الجباة وتلاعبهم مما كان يضيع على الدولة ثروات هائلة.

لقد أظهر السلطان محمد في الناحية الإدارية كفاية ومقدرة لاتقلان عن كفايته ومقدرته في الناحيتين السياسية والحربية[2].

اهتمامه بالجيش والبحرية:

لقد أنشأ الجيش النظامي من زمن السلطان أورخان واهتم من جاء بعده من السلاطين بتطوير الجيش وخصوصاً السلطان محمد الذي أولى الجيش رعاية خاصة، فالجيش في نظره من أسس الدولة وأركانها المهمة، فأعاد تنظيمه وتربيته وجعل لكل فرقة (آغا) يقودها وجعل لقيادة الانكشارية حق التقدم على بقية القواد، فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذي جعل له السلطان القيادة العليا للجيش.

وقد تميز عصر السلطان محمد الفاتح بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددي، بإنشاءات عسكرية عديدة ومتنوعة، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكانت هناك تشكيلات عسكرية متنوعة في

---

(١) السلطان محمد الفاتح، ص١٥٥.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص٤٠٧،٤٠٦.

تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان واعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال، وكان هناك صنف من الجنود يسمى (لغمجية (وظيفته الحفر للالغام وحفر الانفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها وكذلك السقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء ولقد تطورت الجامعة العسكرية في زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات، وكانت تمد الجيش بالفنيين المتخصصين وقد أكسب هؤلاء العثمانيين شهرة عريضة في الدقة والنظام[1].

لقد حرص السلطان محمد على تطوير الجيش البري والقوة البحرية وظهرت أهميتها منذ فتح القسطنطينية، حيث كان للأسطول البحري العثماني دور واضح في احكام حصارها وتطويقها من البحر والبر جميعاً وبعد فتح القسطنطينية ضوعفت العناية بالسلاح البحري، فلم تمضي إلا مدة من الزمن حتى سيطر الأسطول العثماني على البحرين الأسود والأبيض وعندما نطالع كتاب (حقائق الأخبار عن دول البحار) لمؤلفه اسماعيل سرهنك، نلاحظ اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية، وانه كان اهتماماً بالغاً استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الاسطول البحري العثماني، ولقد استفاد من الدول التي وصلت إلى مستوى رفيع في صناعة الأساطيل مثل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة البندقية وجنوا أكبر الدول البحرية في ذلك الوقت[2] وعندما وجد في سيئوب سفينة ضخمة نادرة المثال أمر السلطان محمد بأخذها وبناء سفن على نمطها مع ادخال التحسينات عليها[3].

وكان الأسطول العثماني تشرف الترسانة على إدارته وكانت احد فروع الخاصة وتسمى بطافة العزب، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندي بحري تتألف من: القبطان،

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص١٦٢.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص٤١ .

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٤١.

وقواد السفن، والضباط، والبحارة[1].

اهتمامه بالعدل:

إن إقامة العدل بين الناس كان من واجبات السلاطين العثمانيين، وكان السلطان محمد شأنه في ذلك شأن من سلف من آبائه - شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دولته ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة ويمنحهم مرسوم مكتوب يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم وقد أعطى هؤلاء المبعوثون الحرية الكاملة في النقد وتسجيل مايرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.

وقد كانت تقرير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز، وكان السلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته.

وكان على إدراك تام بأن رجال الفقه والشريعة هم أعرف الناس بالعدالة وأبصرهم بمواقعها وأشد الناس حرصاً على أنفاذها وكان يرى أن العلماء في الدولة بمنزلة القلب في البدن، إذا صلحوا صلحت الدولة ولذلك اعتنى الفاتح بالعلم وأهله ويسر سبل العلم على طالبيه وكفاهم مؤونة التعيش والتكسب ليتفرغوا للدرس والتحصيل، وأكرم العلماء ورفع منزلتهم، وقد اعتنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب بل لابد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس، وأن تتكفل الدولة بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة، فوسع لهم الفاتح في عيشهم كل التوسعة، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح ، ص١٦٢.

والجلالة والقداسة والحماية[١].

وتحدثنا كتب التاريخ: أن أحد غلمان محمد الفاتح ظهر منه بعض الفساد بأدرنة فأرسل إليه القاضي بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع، فركب إليه القاضي بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضرباً شديداً فما أن سمع السلطان الفاتح بذلك حتى أخذه الغضب واستطار به (وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة. وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم يقبل شفاعتهم فالتمسوا من المولى محي الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدى السلطان، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه فقال له المولى محي الدين : إن النائب (أي القاضي بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء فلم يكن هو عند الضرب قاضياً فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله (قتل الغلام) فسكت السلطان محمد خان. ثم جاء الغلام إلى قسطنطينية فأتى به الوزراء إلى السلطان محمد خان لتقبيل يده شكراً للعفو عنه. فأحضر السلطان محمد خان عصاً كبيرة فضربه بنفسه ضرباً شديداً حتى مرض الغلام أربعة أشهر فعالجوه فبرئ ثم صار ذلك الغلام وزيراً للسلطان بايزيد خان واسمه داود باشا. وكان يدعو للسلطان محمد خان ويقول: إن رشدي هذا ما حصل إلا من ضربه[٢]. أما القاضي المرتشي فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.

وكان السلطان الفاتح - برغم اشتغاله بالجهاد والفتوحات إلا أنه كان يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظة واهتمام وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة وجسم قوي وكان كثيراً ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس بنفسه ويستمع إلى شكاواهم بنفسه[٣] كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات والأخبار التي لها علاقة بالسلطنة وترفع إلى السلطان الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، وقد استنبط السلطان الفاتح هذه المعاني من حال سليمان عليه السلام في قوله تعالى : {وتفقد الطير} وذلك بحسب ماتقتضيه أمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة فيه وخاصة الضعفاء[٤].

---

(١) انظر: محمد الفاتح ، ص٤٠٩.

(٢) انظر: محمد الفاتح، ص٤٠٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٤١٠.

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٣/١٧٧).

المبحث السابع

وصية السلطان محمد الفاتح لأبنه

هذه وصية محمد الفاتح لأبنه وهو على فراش الموت والتي تعبر اصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها والتي يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها: (ها أنذا أموت، ولكني غير آسف لاني تارك خلفاً مثلك. كن عادلاً صالحاً رحيماً ، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الاسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء. ولاتفتر في المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لايهتمون بأمر الدين، ولايجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش، وجانب البدع المفسدة، وباعد الذين يحرضونك عليها وسع رقعة البلاد بالجهاد واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد، إياك أن تمد يدك الى مال أحد من رعيتك إلا بحق الاسلام، واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل اكرامك للمستحقين .

وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم ، واذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.

حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل الى أي عمل يخالف أحكام الشريعة، فان الدين غايتنا ، والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.

خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي، واحذ حذوي ، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير اهله ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو، واكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك)(1).

١- (كن عادلاً صالحاً رحيماً):

لقد قام محمد الفاتح بهذه المبادئ مع النصارى الذين اصبحوا من رعايا دولته

---

(1) السلطان محمد الفاتح، ص١٧٢،١٧٤.

وعندما دخل القسطنطينية فاتحاً كان يحارب حرب الاسلام (التي لاتهتك فيها حرمة، ولايقتل فيه صبي ولا شيخ ولا امرأة، ولايحرق فيها زرع، ولا يتلف فيها ضرع، ولايمثل فيها بإنسان، ولاتصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح في وجه المسلمين)[1].

كان (محمد الفاتح(وهو يمثل اسلامه وعقيدته ومنهجه الاسلامي في الحرب على تعاليم الصديق (ابي بكر) ﷺ في معاملته للروم (لاتخونوا، ولاتغلوا ولاتغدروا، ولاتمثلوا ، ولاتقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقود، ولاتقطعوا شجرة مثمرة. ولاتذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له .. اندفعوا باسم الله)[2].

لقد دخل محمد الفاتح الى قلب العاصمة البيزنطية وأعطى عالم الغرب النصراني دروس في العدالة والرحمة وأصبحت معلماً من معالم التاريخ العثماني.

إن الدولة العثمانية سارت على منهج الاسلام، فأخذت منه العدالة والرحمة بالرعايا الذين حكموهم ولقد تحدث عبدالرحمن عزام عن رحمة العثمانيين وعدالتهم بالشعوب التي حكموها فقال : (وقد يظن بعض الناس بما يتناقلون من احاديث أو فكاهات عن بعض العهود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة. ولكن لم تكن صفة الرحمة مميزاتها، وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق.. ولقد سمعت بنفسي حديث هذه الرحمة في (بسرابيا(من رومانيا على نهر (الدنيستر (وقيل لي : إن أمثلة الفلاحين في هذه الأطراف النائية للملك العثماني لا تزال تعبر عن رحمة التركي وعدله. ومنها مايشير الى أن العدل ينزع مع الأتراك من الأرض. وقد لفت نظري في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان في رحلاتي المتعددة أمثلة وأساطير لاتزال تشير الى ما استقر في نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركي المسلم كرحيم عادل.

وفي سنة ١٩١٧م كنت في فيينا فروي لي أن البوليونيين مستبشرون بوصول

---

(١) المسألة الشرقية ، محمود ثابت الشاذلي، ص١٠٤.

(٢) المسألة الشرقية ، محمود ثابت الشاذل، ص١٠٦.

العساكر العثمانية الى جاليسيا مددأ للنمساويين)[1].

(.. بأن العدل والرحمة الاسلامية هما اللذان مكنا للعثمانيين في أوروبا. وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من همجيتها وقسوتها وعرفت المساواة والإنصاف ، ويكفى أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظاماً دولياً متعاهداً عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية الى أن قضى عليه العثمانيون. وكانت هناك عهود دولية بين الملداف والبلونيين والمجر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من (البويار(الى أحد هذه الأوطان، وكانت المزارع تباع بما عليها من الحيوانات والفلاحين.

جاء العثمانيون الى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ﷺ ، ولم يكن الأتراك أكثر عدة ولا عدداً من أية أمة من الأمم التي سادوها، فوصلوا على رؤسهم جميعاً الى فيينا، تمهد لهم الرحمة صعاب الجبال والبحار والوهاد، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا)[2].

إن محمد الفاتح سار على منهج الرحمة والعدالة وأوصى أحفاده من بعده أن يلتزموا نفس المنهج الذي يمثل حقيقة الاسلام.

٢- (وابسط على رعيتك حمايتك دون تمييز):

وهذا ما قام به السلطان محمد بنفسه حيث حرص على حماية كل رعايا الدولة سواء مسلمين أو نصارى ومن القصص اللطيفة في هذا المعنى أنه كان على أهل جزيرة خيوس دين قدره أربعون الف دوقة لتاجر من تجار (غلطة(يدعى فرانسسكوا درا بيريو ولما عجز هذا الدائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأى السلطان الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف أن هذا التاجر من رعاياه الذين يجب على الدولة العثمانية حمايتهم واستيفاء حقوقهم وأرسل الى الجزيرة عدة سفن بقيادة حمزة باشا إلا أن أهالي جزيرة خيوس قتلوا بعض الجنود ورفضوا الانقياد ودفع الحقوق. فقال محمد الفاتح للتاجر درالبيريو (أنا الذي سيتحمل دينك من أهل الجزيرة وسأطلب به مضاعفاً ثمناً لدم الجنود

---

(١) الرسالة الخالدة ، ص٢٣،٢٤.

(٢) انظر: المسألة الشرقية ، ص١٠٧.

الذين هلكوا)[١].

وسير السلطان الى هذه الجزيرة اسطولاً وقام هو بقيادة الجيوش بنفسه الى الجزر القريبة منها وفتح اينوس بغير حرب ولا قتال وبادرت جزيرتا ايمبروس وساموتراس الى الاستسلام وفتحتا ابوابهما على مصاريعها للعثمانيين، فاضطرت جزيرة خيوس الى دفع ماعليها من دين للتاجر الجنوي ودفعت للسلطان جزية سنوية قدرها ستة آلاف دوقة، ودفعت له فوق ذلك تعويضاً للسفن العثمانية التي غرقت[٢].

إن حماية الرعية والحفاظ على حقوقهم من واجبات الدولة الاسلامية.

٣- (واعمل على نشر الدين الاسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض)

كان السلطان محمد الفاتح في حروبه لاينسى أنه داعية الى الاسلام ولذلك كان يشجع قواده وجنوده على نشر الدين والعقيدة والاسلام ويثني على القادة الذين تفتح المدن على أيديهم ، فعندما أمر قائده عمر بن طرخان أن يزحف بجيشه الى أثينا واستولى عليها ويضمها الى الدولة العثمانية وتحرك القائد عمر بجيشه واضطرت المدينة للتسليم وزار السلطان الفاتح المدينة بعد عامين من فتحها وقال : (ما أعظم مايدين به الاسلام لابن طرخان).

لقد اهتمت الدولة العثمانية بالدعوة الى الله وتركت بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة في أوروبا، فعلى امتداد قرون وتعاقب عصور ودهور ظلت جماعات اسلامية تقاوم شتى انواع الضغوط التي بذلت لتحويلها الى المسيحية ولازالت هذه الاقليات الاسلامية تعيش الى يومنا هذا في بلغاريا ورومانيا وألبانيا واليونان ويوغسلافيا يصل أعدادها الى الملايين من البشر[٣] وهذا يرجع الى فضل الله على تلك الشعوب ثم الى سياسة

---

(١) انظر: محمد الفاتح، ص٢١٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢١٨.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية، د. عبدالعزيز الشناوي (٣٠/١، ٢٩)

السلاطين العثمانيين الذين يحرصون على هداية الناس ودخولهم في الاسلام.

٤- (قدم الإهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبة عليه):

إن سلاطين الدولة العثمانية قبل زمن محمد الفاتح وبعده نشأوا نشأة اسلامية، خالصة، مشوبة بإيمان عميق، متوجهة الى أهداف عقائدية صريحة، خاضوا من أجلها حروباً دينية شديدة، وكانت أجمل عبارة على ألسن العثمانيين عند التنادي للجهاد الزحف الى الفتوحات إما غاز وإما شهيد، فمنذ بداية تأسيسها أطلق على زعيمها لقب الغازي - أي المجاهد في سبيل الله- وظل هذا اللقب الرفيع يتقدم كل الألقاب والنعوت بالنسبة للسلاطين العظام ، وكانت غاية الدولة العثمانية (الدفاع عن الاسلام ورفع رايته على الآنام).

لذلك صبغت الدولة شعباً وسلطاناً ، حكومة وجيشاً ثقافة وتشريعاً ، نهجاً وضميراً، هدفاً ورسالة، بصبغة اسلامية خالصة منذ النشأة وعلى مدى سبعة قرون لقد كان اهتمام السلاطين بأمر الدين عظيماً وقدموه على كل شيء وواظبوا عليه الى أقصى حدود وأكدوا أنهم لاينتسبون إلا للإسلام وتراثه وحضارته وكان الوطن عندهم هو كل أرض يسكنها المسلمون، وكلمة الملة تعني الأمة والدين معاً، وذلك كان هدف المنهج التربوي في جميع المدارس والجامعات والمعاهد، تصاغ به نفوس الناشئة منذ بداية تعليمهم في الكتاتيب وجميع المسلمين كانوا يسجلون في دوائر النفوس - سجلات المواليد- وفي التذاكر العثمانية -بطاقات الهوية- كمسلمين فحسب، دون أن يذكر الى جانب ذلك فيما اذا كانوا من الاتراك، أو من العرب أو من الشراكسة أو الألبان أو الأكراد إن مايهم الدولة كان ينحصر في ملتهم في ديانتهم ؛ إنهم مسلمون وكفى، واعتبر العثمانيون أي مقاتل مسلم جاهد في سبيل الله ميراثهم البطولي وخلفيتهم التاريخية، وإن تباينت الأنساب، وتباعدت الأزمان، من ذلك المجاهد (عبدالله البطال) الذي استشهد في معركة أكرنيون في آسيا الصغرى عام ١٢٢ للهجرة، زمن الدولة الأموية والذي يقول عنه الطبري وهو يعلق على حوادث سنة ١٢٢هـ : (وفيها قتل عبدالله البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم)(١).

---

(١) تاريخ الطبري، الجزء الثاني حوادث سنة ١٢٢هـ.

يعتبره العثمانيون بطلهم القومي وبين (عبدالله البطال(العربي وقيام الدولة العثمانية مايقرب من سبعمائة عام، لقد كان تاريخ العثمانيين وأبطال العثمانيين، نسب الإسلام ، وتاريخ الاسلام، ومجاهدي الاسلام[1].

إن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يلقبون بكثير من الألقاب والنعوت التي تبين أن هدفهم الأكبر ومقصدهم الأسمى هو خدمة دين الله تعالى، فكانوا يلقبون بمثل سلطان الغزاة، والمجاهدين ، وخادم الحرمين الشريفين، وخليفة المسلمين)[2].

٥- (ولا تستخدم الأشخاص الذي لايهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش)؛

ولذلك أهتم سلاطين الدولة العثمانية بإنشاء جامعات لتخريج قادة للجيش وللوظائف المهمة في الدولة ووضعوا منهجاً تربوياً لأعداد القادة وخصوصاً في داخل الجيوش وحرصوا على أن يختاروا لمناصب الدولة الأمناء والأكفاء أصحاب العقول والنهى والتقى وأسندوا إليهم الولايات والقيادات في الجيوش ومناصب القضاة، وباعدوا عنهم كل من لايهتم بأمر الدين، ويجتنب الكبائر والفواحش هكذا كان السلاطين الأوائل.

٦- (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها)؛

إن السلاطين العثمانيين الأوائل ساروا على منهج أهل السنة والجماعة وعرفوا خطورة البدع والاقتراب من أصحابها واكتفوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة واجتهادات العلماء الراسخين.

إن الشريعة الاسلامية الغراء التي سار عليها السلاطين العثمانيون ذمت البدع.

قال تعالى: {وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} (سورة الانعام: الآية ١٥٣).

---

(١) المسألة الشرقية، ص٥٧.

(٢)المسألة الشرقية، ص٦٥.

وقال تعالى: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون} (سورة الانعام : آية ١٥٩).

قال ابن عطية : (هذه الآية تعمّ أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام. هذه كلها عرضة للزّلل، ومظنة لسوء المعتقد)[١].

وفي الحديث الشريف قال ﷺ : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[٢].

وفي الصحيح عن حذيفة أنه قال : يارسول الله: هل بعد هذا الخير شر؟

قال : (نعم ؛ قوم يستنّون بغير سنتي ، ويهتدون بغير هديي).

قال : قلت : هل بعد ذلك الشرّ شرٌ؟

قال : (نعم، دعاة على نار جهنم ، من أجابهم قذفوه فيها).

قلت : يارسول الله : صفهم لنا.

قال : (نعم ؛ هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا) .

قلت: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟

قال : (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم).

قلت: فإن لم يكن إمام ولا جماعة؟

قال : (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة حتى يدرك الموت وأنت على ذلك)[٣].

وعن ابي بكر الصديق ﷺ قال : (لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا

---

(١) انظر: بدر التمام في اختصار الاعتصام لمحمد الجزائري، ص٣٢.

(٢) مسلم (١٣٤٤/٣).

(٣) مسلم، كتاب الامارة رقم ١٨٤٧.

عملت به، إني أخشى إن تركت شيئاً من امره أن أزيغ)[1].

إن الابتعاد عن المبتدعة ومحاربتهم من صميم الدين ، لأن المبتدع:

- لايقبل منه عمل، وينزع منه التوفيق، وملعون على لسان الشريعة ، ويزداد من الله بعداً، مانعة من شفاعة الرسول ﷺ يوم القيامة، مظنة العداوة والبغضاء بين أهل الاسلام، رافع للسنن، يلقى عليه الذل في الدنيا والآخرة، ويخاف عليه من سوء الخاتمة، ويسود وجهه في الآخرة، ويخشى عليه من الفتنة)[2].

ولذلك كانت وصية السلطان محمد -رحمه الله- لمن بعده (جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها).

٧- وسع رقعة البلاد بالجهاد:

إن السلاطين العثمانيين الأوائل قاموا بتوسيع رقعة الدولة بالجهاد وبسطوا الامن وقمعوا الاخطار التي هددت دولتهم، وعملوا على تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يستطيع الاعداء أن يظفروا بثغرة أو ينتهكوا محرماً ويسفكوا دماً مسلماً أو معاهداً، وعمل السلطان محمد ومن قبله على إعداد الأمة إعداداً جهادياً وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للاسلام حتى يسلموا أو يدخلوا في ذمة المسلمين ولقد صبغ المجتمع العثماني بالصبغة الاسلامية الجهادية الدعوية وكان أفراد الجيش يعدون للحياة الجهادية العنيفة، منذ نعومة أظافرهم، إعداداً دقيقاً، كاملاً ولقد حققت الجيوش العثمانية انتصارات رفيعة في الساحات الأوروبية[3]. لقد (حققت الدولة العثمانية الى عهد سليمان القانوني آمالاً عظيمة كان يستهدفها المسلمون منذ تسعة قرون برفع الراية المحمدية على قلاع كثير من العواصم الكبرى في أوروبا وإخضاع كثير من الماليك والامارات للحكومة الاسلامية وأخذ ظل الاسلام يمتد حتى أوشكت جيوش المسلمين في شرق أوروبا

---

(١) انظر: بدر التمام في اختصار الاعتصام لمحمد الجزائري، ص٣٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٦ الى ٣٧، ٣٨.

(٣) انظر: المسألة الشرقية، ص٦٠.

وغربها أن تلتقي في الأرض الكبيرة)[1].

ومن المؤتمر السابع لوزراء خارجية الدول الاسلامية في استنابول ألقي المجاهد البروفسور المهندس نجم الدين أربكان خطاباً استرجع فيه صدى الماضي الاسلامي الذي مثلته الدولة العثمانية فقال: (.. إن هذا القصر الذي شاء الله أن يعقد فيه هذا المؤتمر الاسلامي الكبير وقد نقشت على بابه كلمة الاسلام الجامعة: (لا إله إلا الله(. هو قصر السلطان محمد الفاتح الذي بناه عقب فتح استنبول. كيف لايكون هذا المكان تاريخياً ومنه كانت تدبر شؤون العالم الاسلامي ردحاً من الزمن؟ وكيف لايكون لتاريخنا ومنه كانت تنطلق جيوش المسلمين الى جميع أنحاء الدنيا، مجاهدة في سبيل الله، تنشر النور والهداية والعدل أينما حلت وحيثما ضربت. كيف لايكون تاريخياً وفوق هذا الحجر الذي يرتكز عليه الميكرفون كانت تنصب رايات الجيوش الاسلامية، المنطلقة للذب عن ديار المسلمين جميعاً. وأذكر على سبيل المثال لا الحصر : أن قرار إرسال الاسطول الاسلامي للحيلولة دون وقوع كل من أندونيسيا والفلبين في براثن الاستعمار الهولندي اتخذ من هذا المكان ، وفيه أيضاً اتخذت قرارات إرسال الجيوش والأساطيل الاسلامية لحماية شمال أفريقيا من الغزاة الطامعين.

وفوق هذا كله فإن هذا البناء التاريخي يضم بين جدرانه لواء الرسول الأعظم ﷺ وبردته المباركة وسيوفه وكثيراً من آثاره الشريفة ..)[2].

لقد كانت الدولة تعطي لمبدأ الجهاد أهمية قصوى ولذلك أعدت شعبها وجيشها لتحقيق هذا المبدأ الرباني وحققت من خلاله ثمرات مهمة الاسلام والمسلمين من أهمها:

- إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين.

- دخول الناس في دين الله فواجا[3].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٦٣.

(٢) المسألة الشرقية، ص٦٥،٦٤،٦٣.

(٣) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي محمد الصلابي، ص٣٦٩ الى ٢٧٥.

- إسعاد الناس بنور الاسلام وعدله ورحمته.

لقد انصبغت الدولة العثمانية بالروح الجهادية ووضعت أهدافا لها من أهمها:

- إقامة حكم الله ونظام الاسلام في الأرض.

- دفع عدوان الكافرين.

- إزاحة الظلم عن الناس.

- نشر الدعوة الإسلامية بين البشر[1].

٨- (واحرس أموال بيت المال من أن تتبد):

إن السلاطين العثمانيين كانوا يرون أن الدولة هي الهيئة التنفيذية والمعبرة عن رأي الأمة، والمكلفة بحماية مصالحها، فمسؤلية الدولة ليست خاصة بالأمن والدفاع وإنما هي مسؤولة عن رعاية المصالح الاجتماعية وحماية بيت المال من الاسراف والتبذير والمحافظة على مصادر وموارد بيت المال وأهم موارد بيت المال:

- جمع الزكاة المفروضة وتوزيعها في مصارفها المشروعة .

- ترتيب الخراج على أملاك الدولة المعمورة وتحصيل عائدته للإنفاق العام على الجيش وتنمية المرافق العامة.

- جباية الجزية على المعاهدين مقابل إعفائهم من القتال مع المسلمين .

- تحصيل عشور التجارة على الواردات من خارج نطاق الدولة العثمانية.

- التوظيف بقدر الحاجة على افراد الأمة سواء كان تطوعيا أو الزاميا لإنفاقها في دروب الجهاد وسائر المصالح العامة طبقاً لقاعدة المصالح المرسلة.

- تشغيل الموارد وحمايتها كالحمى والمناجم وإحياء الموات، وتحصيل أنصبة

---

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي محمد الصلابي، ص٣٦٦ ال ٣٦٧.

الدولة منها لاستخدامها في مجالات الإنفاق الحكومي[1].

وعلى الدولة أن تراقب النشاط الاقتصادي وتحرص على تطبيق أحكام الشريعة فيه، وتشمل:

- ضبط المقاييس والمواصفات المعيارية التي يحتاجها الناس في أسواقهم مثل المكاييل والموازيين، ومواصفات البضائع الجيدة.

- منع الغش ، وإبطال العقود الفاسدة في البيع والعمل (الاستضاع).

- الأمر بالمعروف في المعاملات كالصدق والعدل والوفاء في المعاملة كالبيع والشراء والنهي عن المنكر في البيوع كالحلف الكاذب على السلعة .

- منع تلقي الركبان والمناجشة في البيع والتدليس والغبن الفاحش وغيره من الأساليب التي تؤدي الى العداوة والبغضاء بين الناس.

- منع ترويج المحرمات كالخمر والخنزير وآلات القمار والميسر، ووسائل اللهو المؤدي الى تمويت القلوب.

- منع مظاهر الترف والإسراف ، والتشجيع على نبذها[2].

٩- (وإياك أن تمد يدك الى أحد من أموال رعيتك إلا بحق الاسلام):

إن وظيفة الدولة تنفيذ أوامر الشريعة والشريعة جاءت لحفظ أموال الناس التي هي قوام حياتهم. وقد حرم الاسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعي، قال تعالى: {ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل} (سورة البقرة: آية١٨٨).

وحرم السرقة وأوجب الحد على من ثبتت عليه تلك الجريمة فقال تعالى : {والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله..} (سورة المائدة: آية

---

(١) انظر: اقتصاديات الحرب في الاسلام، د. غازي التمام ، ص١٣٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٣٨.

٣٨). وكذلك حرم الاسلام الربا الذي يهدد مصالح الأفراد واقتصاد الدول، قال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة} (سورة آل عمران: آية ١٣٠).

وحرم كذلك الغش والاحتكار والنهب والاختلاس والغلول وغير ذلك من أشكال الاعتداء على المال وكل ذلك داخل في أكل أموال الناس بالباطل المنهي عنه.

ووظيفة الحاكم حماية أموال الرعية من السرقة والنهب لا أن يمد يده بغير وجه حق ويعتدي على أموال الناس .

١٠- (واضمن للمعوزين قوتهم وابذل أكرامك للمستحقين):

كان السلاطين العثمانيون يتسابقون في الإحسان للفقراء والمساكين وأبناء السبيل .وكل من هو محتاج الى البر والإحسان وقامت الدولة بأعمال جليلة في هذا الباب بل أوقف السلاطين والوزراء أوقافاً عظيمة على طلاب العلم والفقراء والمساكين والأرامل وغير ذلك وكان الوقف ركناً اساسياً في اقتصاد الدولة يقول الاستاذ محمد حرب : (.. نشطت الحركة العلمية في جوامع استنبول[1] .. وكان صقوللي محمد باشا -على سبيل المثال- ينفق على الحركة العلمية في استانبول من دخل وقف ٢٠٠٠ قرية عثمانية في تشيكوسلوفاكيا (وكانت تابعة للدولة العثمانية) وأسعد أفندي قاضي عسكر الروملي (يعني البلقان) أوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات اللاتي يصلن الى سن الزواج. وكان لدى العثمانيين أوقاف كثيرة ومتعددة ؛ مثل آخر كانت هناك أوقاف بصرف مرتبات للعائلات المعوزة -غير الأكل- لأن الأكل المجاني له أوقاف عامة أخرى تسمى (عمارت وقفي) اي وقف المطاعم الخيرية وكانت الـ(عمارات) تقدم أكلاً مجانياً لعدد يبلغ ٢٠,٠٠٠ شخص يومياً مجاناً، وكان مثل هذا في كل الولايات..)[2].

---

(١) الجامع في النظام العثماني معمارياً وإدارياً وحدة دينية وعلمية متكاملة فيها الجامع والمدرسة والمدارس الأقل من المدرسة والجامعة - والمكتبة ومدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيري العام والحمام ومدرسة الطب والمستشفى.

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٤٢٢.

وكان المطعم الخيري بجامع السليمانية تبلغ ميزانيته عام ١٥٨٦م ما يعادل (١٠) عشرة ملايين دولار أمريكي إلا قليلا[١].

وهكذا كانت سياسة الدولة على مستوى السلاطين والامراء والوزراء تضمن للمعوزين قوتهم وتكرم المستحقين بالإكرام.

١١- (وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة فعظم جانبهم وشجعهم واذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال..):

لقد أهتم السلطان محمد الفاتح بترتيب وظائف العلماء في الجوامع الكبرى ووضع لها تقاليد سابقة ونظمها بمرسوم خاص واهم الوظائف في المساجد الكبرى: الخطيب والإمام ، والقيم والمؤذن ويقوم المرشحون لهذه الوظائف بطلب العلم في المدارس الدينية الكبيرة التي كثيراً ما كان السلاطين والوزراء يتنافسون على تشييدها تنافساً نبيلاً ويخضع الموظفون الدينيون في العاصمة لسلطة المفتي مباشرة ولكان ينوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر، أما في الولايات الصغرى فكان الإمام يقوم بكافة المهام الدينية وخاصة في الأرياف.

وكانت المدارس التي تعد الموظفين الدينيين يوجد بها ثلاثة فئات من طلبة العلم: فا(الصوفتا) وهي أدناها تليها فئة المعيدين الذي يحمل الطالب عند التخرج منها لقب (دانشمند) أو عالم. أما الفئة الأعلى فهي منصب المدرس، وبلغ عدد الصوفتا في عهد السلطان مراد الثاني ٩٠ الفا. وكانوا كثيراً ما يكون لهم أثر في شؤون الدولة[٢].

وقد استحدث محمد الفاتح لقب شيخ الإسلام وهو الذي يترأس الهيئة الإسلامية في الدولة، وهو يلي السلطان في الأهمية. وكان التشريع والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد وممتلكات الأوقاف الواسعة جميعها خاضعة له، كما كان خاضعاً له القضاة الشرعيون والقضاة العسكريون والمفتون. وكانت الأولوية في بداية نشأة الدولة العثمانية لقاضي

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٤٢٢.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د.علي حسون، ص٤٠٥.

عسكر الذي رافق الجيش المحارب، ثم صارت للمفتي رئيس العلماء والفقهاء في عهد السلطان سليمان القانوني وأصبح المفتي هو شيخ الإسلام نفسه، وحرص السلاطين على تدعيم سلطة شيخ الإسلام فكانوا يلجؤون الى استغلال سلطته والإفادة منها كلما تعرضوا لأزمة خطيرة. وبلغ من ازدياد سلطة شيخ الإسلام أنه كان يحق له إصدار فتوى بعزل السلطان نفسه(١).

كما كانت الدولة لاتقدم على حرب دون صدور فتوى منه يقرر فيها أن أهداف هذه الحرب لاتتعارض مع الدين وكانت أحكام المفتي نهائية لامعقب عليها وكان الجهاز الإسلامي المنبث في جسم الدولة يضم الأشراف وهم الذين ينحدرون من سلالة الرسول ﷺ، وكان نقيب الأشراف يحتل مكانة عالية في المجتمع(٢).

لقد قامت الدولة العثمانية بتأسيس جهاز للهيئة الدينية الإسلامية وحرصت على أن تمتد جذورها في أوساط الشعب والجيش وكل رعايا الدولة المسلمين وقد أصبحت أفراد هذه الهيئة يتولون مناصب القضاء والإفتاء وتدريس علوم الدين واللغة والمشاركة على نحو ما في إدارة الأوقاف الخيرية وإقامة الدينية والإشراف على المساجد والمؤسسات الدينية والخيرية مثل التكايا والأسبلة وغيرها وكان أفراد من الهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة يصحبون شتى فرق الجيش إلى ميادين القتال ويقومون قبل المعركة بتسخين الجنود روحياً ابتغاء رفع روحهم المعنوية ويضربون للجنود أروع الأمثلة على استبسال الجنود المسلمين في صدر الإسلام حين انطلقوا على موجات بشرية متلاحقة من قلب شبه الجزيرة العربية واتجهوا شرقاً إلى العراق وفارس، وشمالاً إلى بلاد الشام، واتجهوا إلى مصر ثم شمال إفريقية، وعبروا البحر المتوسط إلى الأندلس. ويذكرون لهم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تدور حول الجهاد الديني والفوز بإحدى الحسنيين: النصر أو الاستشهاد. ويشرحون لهم مواقف الصحابة واسترخاصهم الموت حتى استطاعت الجيوش الإسلامية وقتذاك أن تدك معاقل دولة الفرس والدولة البيزنطية، كما كان رجال الهيئة الدينية الإسلامية يؤمون الجنود في صلاة الخوف وهم في ساحات

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٨٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٨٩.

القتال.[1]

كان علماء الدولة الذين قادوا الهيئة الدينية ينظرون إلى السلطان على أنه يعتبر إماماً للمسلمين وتجب عليهم طاعة السلطان بصفته ولي الأمر كما يأمرهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا .} (سورة النساء، آية: ٥٩).

وكانوا يعتقدون ليس لولي الأمر طاعة فيما وراء الشريعة لأن الطاعة لهم تبعية، وليست أصلية، إنها طاعة مستمدة من أصل، وليست هي بذاتها أصلا . وقد أشار إلى هذا المعنى أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين في أول خطبة عامة ألقاها بعد مبايعته بالخلافة أوضح فيها منهجه في الحكم وكان مما جاء في هذه الخطبة المشهورة قوله: (أيها الناس إني وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني .. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. ([2].

وهكذا طلب أبو بكر من جموع المسلمين طاعته طالما كان سائراً على هدى الله وسنة رسوله. لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وكان العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام يعتمدون على الشريعة عند الخلاف مع السلطان أو الصدر الأعظم ولايسمحون لهم أن ينحرفوا عن مبادئ الشريعة[3] وكان الشعب يقف معهم ويلتحم معهم في القضايا المصيرية، لأن العلماء كانوا يملكون القوتين الروحية والأدبية اللتين تمثلتا في ممارسة أعمال القضاء والإفتاء والإمامة والإشراف على المساجد وإقامة الشعائر الدينية وإدارة المؤسسات الخيرية، ونشاطهم في مجالات التعليم بشتى درجاته وعلى قمتها الدراسات العليا في الكليات حيث كانوا يقومون بتدريس علوم

---

(١) الدولة العثمانية دولة اسلامية (٤٥٥،٤٥٦/١).

(٢)الدولة العثمانية دولة اسلامية (٤٦٠/١).

(٣) المصدر السابق نفسه (٤٦٠/١).

الشريعة الإسلامية وأصول الدين ولذلك كانوا أكثر التفافاً برجل الشارع وأكثر تفاهماً وتعاطفاً وتجاوباً مع الأهلين[1].

١٢: (حذارِ حذارِ لايغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا):

إن السلطان محمد الفاتح يحذر وليه من بعده أن ينغمر بالمال أو الجند ويبين له خطورة ابعاد العلماء والفقهاء عن الحاكم، كما يحذره من أن يخالف أحكام الشريعة، لأن ذلك يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله وأحكامه تبدو على حياة الأمة في وجهتها الدينية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية.

وإن الفتن تظل تتابع وتتوالى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم قال تعالى: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} (سورة النور، الآية: ١٣). إن من الآثار عن الابتعاد عن أحكام الشريعة أن تصاب الأمة بالتبلد وفقد الاحساس بالذات وموات ضميرها الروحي فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه ويحدث لها ماحدث لبني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: {لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.} (سورة المائدة، الآيات ٧٨-٧٩).

فإن أي أمة لاتعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل: قال رسول الله ﷺ : (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذنّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق اصراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله على

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤٦٦/١).

قلوب بعضكم ببعض ثم ليلعنكم كما لعنهم)[1].

وعندما تتغير النفوس من الطاعة والانقياد لأحكام الله إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله تتحقق فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس : { ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} (سورة الأنفال : آية ٥٣) كما يترتب على ذلك توقف حركة الفتوح الإسلامية وتحرم شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع أحكام الشريعة وارتكاب ما يخالفها من أفعال قبيحة وتحدث الحروب فيما بين المسلمين وتكثر الاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض كما يقوى الأعداء وتشتد شوكتهم ويغيب نصر الله على الإسلام والمسلمين ويحرموا من التمكين ويصبحوا في خوف وفزع وجوع، وتضيع المدن والقرى ويتسلط عليها الأعداء وتتوالى المصائب وهذا ما حدث في تاريخ الدولة العثمانية المتأخر.

إن من سنن الله تعالى المستنبطة من حقائق الدين وأحداث التاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لايعرفونه كما حدث في تسليط النصارى على المسلمين في الأندلس[2] وكما فعل اليهود والانجليز والروس. في تفتيت الدولة العثمانية.

إن السر في قوة العثمانيين وعزهم وشرفهم كامنة في طاعة الله وتنفيذ أحكامه، والالتزام بشريعته والجهاد في سبيله والدعوة إليه ولذلك قال محمد الفاتح لابنه (فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا).

١٣- (واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله) :

إن تعزيز هذا الدين وإقامته في الأرض يحقق نتائج طيبة في حياة الأمة والدولة، ومن هذه النتائج تهذيب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخير، لذا كان الوازع الديني ثمرة من ثمار تعزيز هذا الدين ويكون مانعاً من ارتكاب الجريمة ومحاسبة النفس عليها، ويكون ماثلاً أمام العين مما يجعل النفس تخشى الله وتتقيه دائماً وأبداً كما أن

---

(١) سنن ابوداود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث ٤٦٧٠.

(٢) انظر : فقه التمكين عند دولة المرابطين لعلي الصلابي ، ص١٦٧.

تعزيز الدين وإقامة الشرع يحقق المساواة بين الراعي والرعية في الحقوق والواجبات وتنشر العدالة في الدولة الإسلامية لجميع ساكنيها، كما أن في تطبيق الشريعة نزول البركة، وتوالي النعم، إذ ليس هناك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة وطريق مستقل لصلاح الحياة في الدنيا، إنما هو طريق واحد تصلح به الدنيا والآخرة، وفي تطبيقها بركات في النفوس وبركات في المشاعر وبركات في طيبات الحياة، فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، ومن نتائج تطبيقها بناء مجتمع إسلامي معتز بدينه وعقيدته بما التزمه من سلوك مصدره كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففيهما المواد اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة كما أن من النتائج حفز الهمم، وبعث النفوس إلى الأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقي والتقدم لما تضمنته تلك الشريعة من الدعوة إلى الحياة كما أنها تتضمن نبذ عفن الحياة الحضاري لمجتمعات الرذيلة أيا كانت وأينما وجدت[1].

إن الناس يحتاجون إلى العلماء الربانيين ليعلموهم دينهم ويربون نفوسهم على طاعة الله ولذلك لابد من القيادة الإسلامية من احترامهم وتتديرهم وإكرامهم، فهم الذين يبينون للناس حكم الله ورسوله وتفسير النصوص الشرعية وفق قواعد الإسلام الكلية قال تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون}.

١٤- (ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك):

إن هذه الوصية ترشد ولي عهد السلطان محمد الفاتح إلى الاعتدال والتوسط في الاستهلاك وهذه الوصية فهم لأمر الله ورسوله بالقصد والتوسط ولقد أنزل الله كثيراً من الآيات التي تمتدح في التفقه وذم ماسواه من البخل والشح والتبذير والإسراف والترف قال تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً} (الإسراء: ٢٩). وقال تعالى يصف المؤمنين : {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان

---

(١) انظر: تطبيق الشريعة الاسلامية للطريقي ، ص٦١،٦٠.

بين ذلك قواما} (سورة الفرقان، الآية: ٦٧).

إن السلطان محمد الفاتح يرى وجوب ابتعاد الحاكم ودولته عن الإسراف لأن فيه معصية الله ورسوله.

إن الدولة العثمانية كدولة مجاهدة كانت لها خطة اقتصادية لتدبير موارد الأمة في ظروف الحرب لتأمين احتياجات جيشها، وتوفير الحاجات الضرورية لشعبها من السلع والخدمات ولذلك كان السلاطين الأوائل في الدولة العثمانية يمنعون الإسراف والتبذير في القطاع الحكومي والقطاع الخاص وكانت الدولة ترشد الاستهلاك العام والخاص حتى لاتقع الأمة في أزمات اقتصادية خلال الحرب التي تسبب في هزائم الأمم، فكانت الدولة بالتعاون مع قطاعات أخرى حكومية وشعبية تقوم بما يلي:

١- توفير الأموال اللازمة للإنفاق على الحرب، وعلى ضروريات المجتمع من الغذاء والدواء والحماية.

٢- توفير الإمدادات اللازمة خلال الحروب والأزمات.

٣- تعويض النقص من مخزون السلع والأجهزة الحيوية من الإنتاج المحلي بقدر الإمكان.

٤- السيطرة على التضخم في الأسعار الذي يصاحب عادة حالات الحرب.

٥- التوزيع العادل للسلع والخدمات الضرورية بما يؤمن حد الكفاية لكل فئات المجتمع[1].

إن الدول التي تقع في الترف واللهو وتصرف أموالها، في غير محلها مآلها إلى الهلاك والدمار. ولقد أدى الترف إلى انغماس بعض السلاطين المتأخرين في حياة الفسق واللهو بحيث يقضون أوقاتهم في الملذات وقضاء أوقاتهم بين الحريم وقد أدى ذلك إلى الابتعاد عن أمور الحكم وتركها للصدور العظام وللحريم، فانعكس ذلك على ضعف السلاطين، وعدم قدرتهم على تسيير أمور الدولة وقيادة الجيش، مما أثر على أوضاع الدول وأدى إلى ضعفها

---

(١) انظر: اقتصاديات الحرب في الاسلام، ص٢٣٩.

ثم اضمحلالها وضياعها فيما بعد[1].

وفاة السلطان محمد الفاتح وأثرها على الغرب والشرق

في شهر الربيع من عام ٨٨٦هـ - ١٤٨١م غادر السلطان الفاتح انقسطنطينية إلى آسيا الصغرى حيث كان قد أعد في اسكدار جيش آخر كبير. وكان السلطان محمد الفاتح قبل خروجه من استنبول قد أصابته وعكة صحية إلا أنه لم يهتم بذلك لشدة حبه للجهاد وشوقه الدائم للغزو وخرج بقيادة جيشه بنفسه، وقد كان من عادته أن يجد في خوض غمار المعارك شفاء لما يلم به من أمراض إلا أن المرض تضاعف عليه هذه المرة وثقلت وطأته بعد وصوله إلى اسكدار فطلب أطباءه. غير أن القضاء حم به فلم ينفع فيه تطبيب ولا دواء، ومات السلطان الفاتح وسط جيشه العرمرم يوم الخميس الرابع من ربيع الأول ٨٨٦هـ (٣ مايو ١٤٨١م) وهو في الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم نيفاً وثلاثين عاماً[2].

وبعد أن ذاع نبأ الوفاة في الشرق والغرب، أحدث دوياً هائلاً اهتزت له النصرانية والإسلام، أما النصرانية فقد غمرها الفرح والابتهاج والبشرى وأقام النصارى في رودس صلوات الشكر على نجاتهم من هذا العدو المخيف[3] وكانت جيوش الدولة العثمانية قد وصلت إلى جنوب إيطاليا لفتح كل ايطاليا وضمها للدولة العثمانية إلا أن خبر الوفاة وصلهم فانتاب الجنود هم شديد وحزن عميق واضطر العثمانيون في الدخول لمفاوضات مع ملك نابولي لينسحبوا آمنين على حياتهم وامتعتهم وعتادهم وتمّ الاتفاق على ذلك إلا أن النصارى لم يفوا بما تعهدوا واعتقلوا بعض الجنود الذين كانوا في المؤخرة وصفدوهم بالحديد[4].

وعندما وصل خبر وفاة السلطان إلى روما ابتهج البابا وأمر بفتح الكنائس

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي، ص٩٤.

(٢) انظر: محمد الفاتح ، ص٣٧٢.

(٣)المصدر السابق نفسه، ص٣٧٢.

(٤)انظر: محمد الفاتح، ص٣٧٢.

وأقيمت فيها الصلوات والاحتفالات، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع والطرقات وهي تنشد أناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع وظلت هذه الاحتفالات والمهرجانات قائمة في روما طيلة ثلاثة أيام، لقد تخلصت النصرانية بوفاة محمد الفاتح من أعظم خطر كان يهددها[1].

لم يكن أحد يعلم شيئاً عن الجهة التي كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه، وذهبت ظنون الناس في ذلك مذاهب شتى. فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة التي امتنعت على قائده مسيح باشا؟ أم كان يتأهب للحاق بجيشه الظافر في جنوبي إيطاليا ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما وشمالي إيطاليا ففرنسا وإسبانيا ؟

لقد ظل ذلك سراً طواه الفاتح في صدره ولم يبح به لأحد ثم طواه الموت بعد ذلك[2].

لقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التي يقصدها ويتكتم أشد التكتم ويترك أعداءه في غفلة وحيرة من أمرهم، لايدري أحدهم متى تنزل عليه الضربة القادمة ثم يتبع هذا التكتم الشديد بالسرعة الخاطفة في التنفيذ فلا يدع لعدوه مجالاً للتأهب والإستعداد[3] وذات مرّة سأله أحد القضاة أين تقصد بجيوشك فأجابه الفاتح : (لو أن شعرة في لحيتي عرفت ذلك لنتفتها وقذفت بها في النار ..)[4].

إن من أهداف الفاتح أن يمضي بفتوحات الإسلام من جنوب إيطاليا إلى أقصاها في الشمال ويستمر في فتوحاته بعد ذلك إلى فرنسا وأسبانيا وماوراءها من الدول والشعوب والأمم.

لقد تأثر المسلمون في العالم الإسلامي لوفاة محمد الفاتح وحزنوا عليه حزناً

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٧٤.

(٢)انظر: محمد الفاتح، ص٣٧٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٥٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٠.

عميقاً وبكاه المسلمون في جميع أقطار المعمورة، لقد بهرتهم انتصاراته، واعاد إليهم سيرة المجاهدين الأوائل من السلف الصالح[1].

قال عن وفاته عبدالحي بن العماد الحنبلي في وفيات سنة ست وثمانين وثمانمائة : (. كان من أعظم سلاطين بني عثمان وهو الملك الضليل الفاضل النبيل العظيم الجليل أعظم الملوك جهاداً وأقواهم اقداماً واجتهاداً وأثبتهم جأشاً وقواداً وأكثرهم توكلاً على الله واعتماداً وهو الذي أسس ملك بني عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام ومآثر لايمحوها تعاقب السنين والأعوام وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام من اعظمها انه فتح القسطنطينية الكبرى وساق إليها السفن تجري رخاء برأ وبحراً هجم عليها بجنوده وأبطاله وأقدم عليها بخيوله ورجاله وحاصرها خمسين يوماً أشد الحصار وضيق على من فيها من الكفار الفجار وسل على أهلها سيف الله المسلول وتدرع بدرع الله الحصين المسبول ودق باب النصر والتأييد ولج ومن قرع باباً ولج ولج وثبت على متن الصبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج ونزلت عليه ملائكة الله القريب الرقيب بالنصر العزيز من الله تعالى والفتح القريب ففتح استنبول في اليوم الحادي والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرين من جمادي الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة وصلى في أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهي أيا صوفيا وهي قبة تسامي قبة السماء وتحاكي في الاستحكام قبب الاهرام ولا وهت ولا وهت كبراً ولاهرماً وقد أسس في استنبول للعلم أساساً راسخاً لايخشى على شمسه الأفول وبنى مدارس كالجفان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول فجزاه الله خيراً عن الطلاب ومنحه بها أجراً وأكبر ثواب فإنه جعل لهم أيام الطلب مايسد فاقتهم ويكون به من خمار الفقر افاقتهم وجعل بعد ذلك مراتب يترقون اليها ويصعدون بالتمكن والاعتبار عليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا ويتوسلون بها أيضاً إلى سعادة العقبى وأنه رحمه الله تعالى استجلب العلماء الكبار من أقصى الديار وأنعم اليهم وعطف باحسانه اليهم كمولانا علي القوشجي والفاضل الطوسي والعالم الكوراني وغيرهم من علماء الإسلام وفضلاء الأنام فصارت

---

(١) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص١٦٨.

استنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار والعليا واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن، فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام وأهل حرفها أدق الفطناء في الأنام وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام فللمرحوم المقدس قلادة منن لاتحصى في أعناق المسلمين لاسيما العلماء الأكرمين[1].

فرحمة الله ومغفرته ورضوانه على السلطان محمد الفاتح وأعلى ذكره في المصلحين.

---

(١) شذرات الذهب (٣٤٥/٧).

الفصل الرابع

السلاطين الأقوياء بعد محمد الفاتح

المبحث الأول

السلطان بايزيد الثاني

بعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى ابنه بايزيد الثاني (٨٨٦هـ ـ ٩١٨هـ) السلطة في البلاد وكان سلطاناً وديعاً، نشأ محباً للأدب، متفقهاً في علوم الشريعة الإسلامية شغوفاً بعلم الفلك. واستعان بالخبراء الفنيين اليونانيين والبلغاريين في تحسين شبكة الطرق والجسور لربط أقاليم الدولة ببعضها[1].

أولاً: الصراع على السلطة مع أخيه :

كان الأمير جم عندما بلغه وفاة أبيه يقيم في بروسة. وقد استطاع أن يتحصل على اعتراف السكان به سلطاناً على الدولة العثمانية في المناطق الخاضعة له، وبعد أن استتب له الأمر في بروسه وماحولها، أرسل إلى أخيه بايزيد يطلب منه عقد الصلح، ويقترح عليه التنازل، ورفض السلطان بايزيد ذلك لأن والده أوصى له بالحكم من بعده، لكن الأمير جم لم يقتنع بذلك فعاد واقترح على أخيه بايزيد تقسيم الدولة العثمانية إلى قسمين: القسم الأوربي لبايزيد والقسم الآسيوي له. ولكن بايزيد رفض أبضاً مبدأ التقسيم من أساسه لأن ذلك سوف يعمل على تفتيت الدولة التي سهر أسلافه على بنائها وتوحيدها، وأصر على أن تبقى الدولة موحدة تحت سلطته وأعد جيشاً ضخماً وسار به إلى بروسه وهاجمها وفر منها جم إلى سلطان المماليك قايتباي في مصر[2] فرحب به وأكرمه وأمده بجميع ما احتاجه من أموال للسفر مع أسرته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ولما عاد من الأراضي المقدسة إلى مصر أرسل إليه السلطان بايزيد يقول له : (بما أنك اليوم قمت

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٥٠.

(٢) قيام الدولة العثمانية ، ص٥٧.

بواجباتك الدينية في الحج، فلماذا تسعى إلى الأمور الدنيوية، من حيث أن الملك كان نصيبي بأمر الله، فلماذا تقاوم إرادة الله؟ فأجابه بقوله: هل من العدل أن تضطجع على مهد الراحة والنعيم وتقضي أيامك بالرغد واللذات، وأنا أحرم من اللذة والراحة وأضع رأسي على الشوك[1]؟ وقام جم بالاتصال بكبار أتباعه في الأناضول، وأثارهم ضد بايزيد، وتقدم بأتباعه ليغتصب العرش، ولكنه هزم، واستأنف المحاولة فهزم أيضاً.

والتجأ جم إلى رودس حيث يوجد بها فرسان القديس يوحنا، وعقد مع رئيس الفرسان اتفاقاً إلا أنه نقضه تحت ضغط بايزيد وأصبح جم سجيناً في جزيرة رودس، وكسب فرسان القديس يوحنا بهذه الرهينة الخطيرة امتيازات طوراً من بايزيد الثاني، ومرة أخرى من أنصار جم بالقاهرة، فلما تحصل على أموال ضخمة باع رهينته للبابا أنوست الثامن، فلما مات هذا البابا ترك جم لخلفه اسكندر السادس ولكن الأخير لم يبق على جم كثير حيث قتل واتهم في ذلك بايزيد الثاني الذي تخلص من خطر أخيه[2].

ثانياً: موقف السلطان بايزيد من المماليك :

حدثت معارك بين العثمانيين والمماليك على الحدود الشامية إلا أنها لم تحتدم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما الأمر الذي أدى إلى تعثر مفاوضات الصلح سنة ١٤٩١م ومع أن السلطان المملوكي (قايتباي (قد ساورته مخاوف من احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكه ما كان عليه العثمانيون من قوة أو لانشغال جزء هام من قواته في مواجهة البرتغاليين، إلا أن السلطان العثماني (بايزيد الثاني (قد بدد له هذه المخاوف حيث قام بإرسال رسول من قبله إلى السلطان المملوكي سنة ١٤٩١م ومعه مفاتيح القلاع التي استولى عليها العثمانيون على الحدود وقد لقى هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكي فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين، وأسهمت سياسة بايزيد السلمية في عقد صلح بين العثمانيين والمماليك في نفس السنة (١٤٩١م) وظل هذ الصلح سارياً حتى نهاية عهد

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص٦٣ الى ٦٥.

(٢) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٥١.

السلطان بايزيد الثاني عام ١٥١٢م وأكد هذا الحدث على حرص السلطان بايزيد في سياسة السلام مع المسلمين[1].

ثالثاً: السلطان بايزيد الثاني والدبلوماسية الغربية :

استمرت راية الجهاد مرفوعة طيلة عهد السلطان بايزيد وأدرك الأعداء، أنه لايستطيعون مواجهة القوات الجهادية في حرب نظامية يحققون فيها أطماعهم لهذا لجأوا إلى أسلوب خبيث تستروا به تحت مسمى العلاقات الدبلوماسية لكي ينخروا في عظام الأمة ويدمروا المجتمع المسلم من الداخل، ففي عهد السلطان بايزيد وصل أول سفير روسي إلى (إسلامبول) عام (٨٩٨هـ / ١٤٩٢م).

إن وصول السفير الروسي عام (١٤٩٢م) على عهد دوق موسكو (إيفان) وما تابع ذلك، وما أعطى له ولغيره من حصانة وامتيازات، فتح الباب أمام أعداء الأمة الإسلامية لكشف ضعفها ومعرفة عوراتها، والعمل على إفسادها والتآمر عليها بعد تدميرها وإضعاف سلطان العقيدة في نفوس أبنائها.

وفي عهد بايزيد الثاني في عام (٨٨٦هـ) استطاع دوق موسكو (إيفان الثالث) أن ينتزع إمارة (موسكو) من أيدي المسلمين العثمانيين، وبدأ التوسع على حساب الولايات الإسلامية[2].

ولايعني ذلك أن السلطان (بايزيد) وقف موقفاً ضعيفاً أمام هذه الظروف ولكن الدولة كانت تمر بظروف صعبة في محاربتها لأعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول، وأوروبا الشرقية كلها، فانشغلت بها[3].

رابعاً: وقوفه مع مسلمي الأندلس:

تطورت الأحداث في شبه الجزيرة الأيبرية في مطلع العصور الحديثة، فأصبح

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص٦٦.

(٢) الدولة العثمانية ، د. جمال عبدالهادي ، ص٤٩،٥٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٥٠.

اهتمام الأسبان ينحصر في توحيد أراضيهم، وانتزاع ماتبقى للمسلمين بها خصوصاً بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة وفريدناند ملك أراغوان، فاندفعت الممالك الأسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة في تصفية الوجود الإسلامي في كل اسبانيا، حتى يفرغوا انفسهم ويركزوا إهتمامهم على المملكة الإسلامية الوحيدة غرناطة، التي كانت رمز للمملكة الإسلامية الذاهبة[١].

وفرضت اسبانيا أقسى الإجراءات التعسفية على المسلمين في محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبرية.

نتيجة لذلك لجأ المسلمون المورسكيون -إلى القيام بثورات وانتفاضات في أغلب المدن الأسبانية والتي يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولاشفقة من قبل السلطات الأسبانية التي اتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد للمسلمين، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يرنوا المورسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق والمغرب لإنقاذهم وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على انقاذهم مما يعانوه من ظلم، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التي عاثت في الأرض فساد وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم[٢].

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فارتج لها العالم الإسلامي[٣]. وبعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية، في حين أن أبناء دينه في المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعايا المسيحيين، إذا لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم ولم يستجيب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الاندلس، د. نبيل عبدالحي، ص١٢٥.

(٢) انظر رسالة من مسلمي غرناطة للسلطان سليمان عبدالجليل التميمي، المجلة المغربية العدد -٣، ص٣٨.

(٣) انظر: خلاصة تاريخ الأندلس، شكيب ارسلان، ص٢١٣.

الأشرف ومارسوا خطتهم في تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس، وجددت رسائل الاستنجاد لدى السلطان العثماني بايزيد الثاني، فوصلته هذه الرسالة: (.الحضرة العلية، وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذل عداتها، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، قامع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب، والعجم، والترك والديلم، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، ملك البرين وسلطان البحرين، حامي الذمار، وقامع الكفار، مولانا وعمدتنا، وكهفنا وغيثنا، لازال ملكه موفور الأنصار، مقرونا بالانتصار، مخلد المآثر والآثار مشهور المعالي والفخار، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل، في الدار الآخرة والثناء الجميل، والنصر في هذه الدار، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها، مايروي صدور السحر والصفاح، وألسنة السلاح بأذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد[1] وكانت ضمن الرسالة أبيات القصيدة يمدح صاحبها فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد، ويدعوا للدولة بدوام البقاء قائلاً:

سلام كريم دائم متجدد	أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعلا	ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه	وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه	قسطنطينية أكرم بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه	بجند وأتراك من أهل الرعاية

(١) انظر: ازهار الرياض في أخبار رياض للتلمساني (١/١٠٩-١٠٨).

سلام عليكم شرف الله قدركم وزادكم ملكاً على كل ملة

سلام على القاضي ومن كان مثله من العلماء الأكرمين الأجلة

سلام على أهل الديانة والتقى ومن كان ذا رأي من أهل المشورة

بعد ذلك وصفت القصيدة الحالة التي يعاني منها المسلمون وماتعرض له الشيوخ والنساء من هتك للإعراض ومايتعرض له المسلمين في دينهم حيث استطرد قائلاً:

سلام عليكم من عبيد تخلفوا بأندلس بالغرب في أرض غربة

أحاط بهم بحرٌ من الردم زاخر وبحرٌ عميق ذو ظلام ولجة

سلام عليكم من عبيد أصابهم مصاب عظيم يالها من مصيبة

سلام عليكم من شيوخ تمزقت شيوخهم بالنتف من بعد عزة

سلام عليكم من وجوه تكشفت على جملة الأعلاج من بعدة سترة

سلام عليكم من بنات عوائق يسوقهم اللباط قهراً لخلوة

سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل خنزير ولحم جيفة

بعد ذلك الوصف، أخذت القصيدة تعالج شكلاً آخر، إذ أخذت توضح شعور المسلمين نحو الدولة العثمانية وتقدم الشكوى للسلطان قائلة:

نقبل نحن الكل أرض بساطكم وندعوا لكم بالخير في كل ساعة

أدام الإله ملككم وحياتكم وعافاكم من كل سوء ومحنة

وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا وأسكنكم دار الرضا والكرامة

شكونا لكم مولاي ماقد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم الرزية

ثم تعود القصيدة في شرح المأساة، وتغيير الدين ما إلى ذلك، فاستطردت بقولها:

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا ... ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنا على دين النبي محمد ... ثقاتل عمال الصليب بنية

وتلقي أموراً في الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر ثم جوع وقلة

فجاءت علينا الروم من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيل وعدة

فكنا بطول الدهر نلقي جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة

وفرسانها تزداد في كل ساعة ... وفرسانا في حال نقص وقلة

فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة

وجاؤوا بأنفاظ عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة

وشدوا عليها الحصار بقوة ... شهوراً وأياماً بجد وعزمة

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا ... ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنا على دين النبي محمد ... نقاتل عمال الصليب بنية

وتلقى أموراً في الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر ثم جوع وقلة

فجاءت علينا الروم من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم فنقتل فيها فرقة بعد فرقة

وفرسانها تزداد في كل ساعة وفرساننا في حال نقص وقلة

فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ومالوا علينا بلدة بعد بلدة

وجاؤوا بأنفاظ عظام كثيرة تهدم أسوار البلاد المنيعة

وشدوا عليها الحصار بقوة شهوراً وأياماً بجد وعزمة

فلما تفانت خيلنا ورجالنا ولم نر من إخواننا من إغاثة

وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا أحطناهم بالكره خوف الفضيحة

وخوفاً على أبنائنا وبناتنا من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة

على أن نكون مثل من كان قبلنا من الدجن من أهل البلاد القديمة

ثم تحدثت القصيدة عن الخيار في مثل هذه الحالة، فإما القبول بالوضع السابق أو الإرتحال، إذ استطردت قائلة:

ونبقى على آذاننا وصلاتنا ولانترك شيئاً من أمر الشريعة

ومن شاء منا الجر جاز مؤمناً بما شاء من مال إلى أرض عدوة

إلى غير ذلك من شروط كثيرة تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة

فقال لنا سلطانهم وكبيرهم لكم ماشرطتم كاملاً بالزيادة

فكونوا على أموالكم ودياركم كما كنتم من قبل دون أذية

إلا أن الملكين الكاثوليكيين لم يفيا بتلك المواثيق إذ بدأ غدرهما على المسلمين

فقال:

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة

وخان عهوداً كان قد غرنا بها ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة

وأحرق ما كانت لنا من مصاحف وخلطها بالزبل أو بالنجاسة

وكل كتاب كان في أمر ديننا ففي النار ألقوه بهزءة وحقرة

ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ولا مصحفاً يخلى به للقراءة

ومن صام أو صلى يعلم حاله ففي النار يلقوه كل حالة

ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم يعاقبه اللباط شر العقوبة

ويلطم خديه ويأخذ ماله ويجعله في السجن في سوء حالة

وفي رمضان يفسدون صيامنا بأكل وشرب مرة بعد مرة

وهكذا مضت المسيحية في هتك الإسلام، وذل المسلمين، فمن تدخل في عبادة المسلم إلى شتم الإسلام فقالت القصيدة في ذلك:

وقد أمرونا أن نسب نبينا ولانذكرنه في رخاء وشدة

وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه فأدركهم منهم أليم المضرة

وعاقبهم حكامهم وولاتهم بضرب وتغريم وسجن وذلة

ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي يذكرهم لم يدفنوه بحيلة

ويترك في زبل طريحاً مجدلاً   كمثل حمار ميت أو بهيمة

إلى غير هذا من أمور كثيرة   قباح وأفعال غزار ردية[1]

بعد ذلك أخذ الملوك الكاثوليك في إذابة المجتمع المسلم وذلك بتغيير الهوية الإسلامية إذ قالت القصيدة:

وقد بدلت أسماءنا وتحولت   بغير رضا منا وغير إرادة

فآها على تبديل دين محمد   بدين كلاب الروم شر البرية

وآها على أسمائنا حين بُدلت   بأسماء أعلاج من أهل القيادة

وآها على أبنائنا وبناتنا   يروحون للباط في كل غدوة

يعلمهم كفراً وزوراً وفرية   ولايقدروا أن يمنعوهم بحيلة

وآها على تلك المساجد سورت   مزابل للكفار بعد الطهارة

وآها على تلك الصوامع علقت   نواقيسهم فيها نظير الشهادة

وآها على تلك البلاد وحسنها   لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة

وصارت لعباد الصليب معاقلاً   وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة

وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدي   ولا مسلمين منطقهم بالشهادة

ثم تتوجه القصيدة باستجداء السلطان لإنجادهم، وإنقاذهم من تلك المحنة فتقول:

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس، ص١٣٠.

فلو أبصرت عيناك ماصار حالنا إليه لجادت بالدموع الغزيرة

فيا ويلنا يابؤس ماقد أصابنا من الضر والبلوى وثوب المذلة

سألناك يا مولاي بالله ربنا وبالمصطفى المختار خير البرية

عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا لعل إله العرش يأتي برحمة

فقولك مسموع وأمرك نافذ وما قلت من شيء يكون بسرعة

ودين النصارى أصله تحت حكمكم ومن ثم يأتيهم إلى كل كورة

فبالله يامولاي منوا بفضلكم علينا براي أو كلام بحجة

فأنتم أولوا الأفضال والمجد والعلا وغوث عباد الله في كل آفة

كما طلب المسلمون أن يتوسط السلطان بايزيد الثاني لدى البابا في روما وذلك لما للسلطان من ثقل سياسي في أوروبا فقال:

فسل بابهم أعني المقيم برومة بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة

ومالهم مالوا علينا بغدرهم بغير أذى منا وغير جريمة

وجنسهم المقلوب في حفظ ديننا وأحسن ملوك ذي وفاء أجلة

ولم يخرجوا من دينهم وديارهم ولانالهم غدر ولاهتك حرمة

ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده فذاك حرام الفعل في كل ملة

ولاسيما عند الملوك فإنه قبيح شنيع لايجوز بوجهة

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم فلم يعلموا منه جميعاً بكلمة

ومازادهم إلا اعتداء وجرأة علينا وإقداماً بكل مساءة

ويشير المسلمون أن توسط ملوك مصر لدى المسيحيين لم تجد شيئاً، بل زادوا تعنتاً فقالوا:

وقد بلغت ارسال مصر إليهم ومانالهم غدر ولاهتك حرمة

وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا رضينا بدين الكفر من غير قهرة

وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم ووالله مانرضى بتلك الشهادة

لقد كذبوا في قولهم وكلامهم علينا بهذا القول أكبر فرية

ولكن خوف القتل والحرق روننا نقول كما قالوه من غير نية

ودين رسول مازال عندنا وتوحيدنا لله في كل لحظة

بعد ذلك أوضح المسلمون للسلطان بايزيد أنه مع كل ذلك فإنهم متمسكون بالدين الإسلامي ويؤكدون ذلك بقولهم:

ووالله مانرضى بتبديل ديننا ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة

وإن زعموا أنا رضينا بدينهم بغير أذى منهم لنا ومساءة

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة

وسل بلفيقاً عن قضية أمرها لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة

وضيافة بالسيف مزق أهلها كذا فعلوا أيضاً بأهل البشرة

وأندرش بالنار احرق أهلها بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة

ويكرر المسلمون ويجددوا الاستغاثة بالدولة العثمانية بعد تقديم هذه الشكوى:

فها نحن يامولاي نشكو إليكم — فهذا الذي نلناه من شر فرقة

عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا — كما عاهدونا قبل نقض العزيمة

وإلا فيجلونا جميعاً عن أرضهم — بأموالنا للغرب دار الأحبة

فأجلاؤنا خير لنا من مقامنا — على الكفر في عز على غير ملة

فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم — ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة

ومن عندكم نرجو زوال كروبنا — وما نالنا من سوء حال وذلة

فأنتم بحمد الله خير ملوكنا — وعزتكم تعلو على كل عزة

فنسأل مولانا دوام حياتكم — بملك وعز في سرور ونعمة

وتهدين أوطان ونصر على العدا — وكثرة أجناد ومال وثروة

وثم سلام الله قلته ورحمة — عليكم مدى الأيام في كل ساعة[1]

كانت هذه هي رسالة الاستنصار التي بعث بها المسلمون في الأندلس، لإنقاذ الموقف هناك، وكان السلطان بايزيد يعاني من العوائق التي تمنعه من إرسال المجاهدين، بالإضافة إلى مشكلة النزاع على العرش مع الأمير جم، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب في ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبي الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا جويلس

---

(١) رسالة أهل الجزيرة بعد استيلاء أهل الكفر على جميعها الى السلطان بايزيد المكتبة الوطنية بالجزائر برقم ١٦٢٠. وانظر: اخبار عياض (١/١٠٩ الى ١١٥). نقلاً عن جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس.

الثاني وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا، وما أسفر عنه هذا التحالف[1] من توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق، ومع ذلك قام السلطان بايزيد بتقديم المساعدة وتهادن مع السلطان المملوكي الأشرف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقاً بموجبه يرسل السلطان بايزيد اسطولاً على سواحل صقلية بإعتبارها تابعة لمملكة اسبانيا، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية أفريقيا[2] وبالفعل أرسل السلطان بايزيد اسطولاً عثمانياً تحول إلى الشواطئ الأسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذي أدخل الفزع والخوف والرعب في الأساطيل النصرانية في أواخر القرن الخامس عشر[3] ، كما شجع السلطان بايزيد المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم، وكان المجاهدون العثمانيون قد بدأوا في التحرك، لنجدة اخوانهم المسلمين، وفي نفس الوقت كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول من النصارى، كذلك وصل عدد كبير من هؤلاء المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثماني، ودخلوا في خدمته بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة في غرب البحر المتوسط بتشجيع من هؤلاء المجاهدين[4] وهذا الذي كان في وسع السلطان بايزيد الثاني فعله.

لاشك أن تصرفات جم المشينة كانت سبباً أعاق حركة التوسع الإقليمي وعرقلت السلطان بايزيد عن العمل الخلاق، وأصبح اهتمام السلطان منصباً على تعقب أخبار أخيه والعمل على التخلص منه بكافة الوسائل[5] .

وعلى العموم، فقد استطاع بايزيد أن يحرز نصراً بحرياً على البنادقة في خليج لبانتوا ببلاد اليونان عام ١٤٩٩م/ ٩٠٥هـ وفي العام التالي استولى على مدينة لبانتو وباستيلاء العثمانيين على مواقع البنادقة في اليونان، أقام البابا (إسكندر السادس) بناء

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٩٠٣/٢).

(٢) انظر: علاقات بين الشرق والغرب، عبدالقادر احمد ، ص٢٥٦.

(٣) انظر: خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب ارسلان، ص٢١٣.

(٤) انظر: في أصول التاريخ العثماني ، ص٧٤.

(٥) انظر : الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ، ص٥٢.

على طلب البنادقة حلفاً ضد العثمانيين مكوناً من فرنسا واسبانيا. وتعرض العثمانيون لهجوم الأساطيل الثلاثة: الفرنسي والإسباني والبابوي واستطاعت الدولة العثمانية أن تعقد صلحاً مع البنادقة[1].

وكان بايزيد ميالاً للسلام. ونشطت العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وأوروبا، وكانت من قبل مقصورة على البلاد الواقعة على حدودها، ولكنها أقيمت بينها وبين البابوية وفلورنسا ونابلي وفرنسا وعقد صلحاً مع البنادقة والمجر.

اهتم بايزيد بإنشاء المباني العامة وفعل الخيرات، فبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودور الضيافة والتكايا والزوايا والمستشفيات للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتي ومن في رتبته من العلماء في زمنه كل عام عشرة آلاف عثماني ولكل واحد من مدرسي المدارس السلطانية مابين سبعة آلاف وألفين عثماني، وكذلك رتب لمشايخ الطرق الصوفية ومريديهم ولأهل الزوايا كل واحد على قدر رتبته، وصار ذلك أمراً جارياً ومستمراً، وكان يحب أهل الحرمين الشريفين مكة والمدينة[2].

وحدثت في زمانه زلازل عظيمة في القسطنطينية فأخربت ألفا وسبعين بيتا ومئة وتسعة جوامع، وجانبا عظيماً من القصور وأسوار المدينة، وعطلت مجاري المياه، وصعد البحر إلى البر، فكانت أمواجه تتدفق فوق الأسوار، ولبثت تلك الزلزلة تحدث يومياً مدة ٤٥ يوماً، وما أن سكنت الأمور كلف السلطان ١٥ ألفاً من العمال بإصلاح ماتهدم[3].

عاش سبعاً وستين عاماً، وكان قوي البنية، أحدب الأنف، أسود الشعر رقيق الطبع، محباً للعلوم، مواظباً للدرس، وشاعراً أديباً، ورعاً تقياً، يقضي العشرة الأخيرة من شهر رمضان في العبادة والذكر والطاعة، وكان بارعاً في رمي السهام، ويباشر الحروب بنفسه[4] وكان يجمع في كل منزل حل من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه، ولما

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٥٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٥٢.

(٣) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص٦٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٦٦.

دنا أجل موته، أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر أن توضع معه في القبر تحت خده الأيمن، ففعل ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله ﷺ : (من أغبرت قدماه في سبيل الله حرم الله عليه النار). وكان مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياماً(١)

كان السلطان بايزيد الثاني عالماً في العلوم العربية والإسلامية، كما كان عالماً في الفلك، مهتماً بالأدب مكرماً للشعراء والعلماء وقد خصص مرتبات لأكثر من ثلاثين شاعراً وعالماً، كما كان هو نفسه شاعراً يمتاز شعره بعمق الإحساس بعظمة الله وقدرته وكانت له أشعار في الحكمة توصي بالاستيقاظ من نوم الغفلة والنظر في جمال الطبيعة التي أبدعها الله وفي ذلك يقول:

استيقظ من نوم الغفلة وانظر إلى الزينة في الأشجار

انظر إلى قدرة الله الحق . انظر إلى رونق الأزهار

وافتح عينيك لتشاهد حياة الأرض بعد الممات(٢)

في ١٨ صفر ٩١٨هـ الموافق ١٢٥ ابريل ١٥١٢م ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول (٩١٨- ٩٢٦هـ / ١٥١٢- ١٥١٩م) وذلك بدعم من الجيش، الذي كان ينظر إليه على أنه الأمل المرتجى في بعث النشاط الحربي للدولة العثمانية بصورة أوسع ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام، ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده وتولية ابنه سليم مكانه(٣).

وتوفي السلطان بايزيد الثاني وهو ذاهب إلى ديمتوقة(٤) فنقل نعشه إلى إسلامبول حيث دفن بجوار جامعه الشريف(٥).

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني ، ص٣٦.

(٢) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٢٤٩.

(٣) انظر: قيام الدولة العثمانية ، ص٥٨.

(٤) ديمتوقة - ديموتيقا.

(٥) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص٦٦.

المبحث الثاني

السلطان سليم الأول

(٩١٨- ٩٢٦هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م)

تربع السلطان سليم الأول على العرش العثماني في عام ٩١٨هـ، وقد أظهر سليم منذ بداية حكمه ميلاً إلى تصفية خصومه ولو كانوا من إخوته وأبنائهم، وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي[1].

عندما ارتقى السلطان سليم الأول العرش العثماني، كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى مفترق الطرق، هل تظل على هذا الوضع وهذا القدر من الاتساع دولة بلقانية أناضولية؟ أو تستمر في التوسع الإقليمي في أوربا؟ أو تتجه نحو المشرق الإسلامي؟

والواقع أن السلطان سليم الأول قد أحدث تغييراً جذرياً في سياسة الدولة العثمانية الجهادية فقد توقف في عهد الزحف العثماني نحو الغرب الأوربي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاهاً شرقياً نحو المشرق الإسلامي وقد ذكر بعض المؤرخين الأسباب التي أدت إلى تغير السياسة العثمانية منها:

١- التشبع العسكري العثماني في أوربا، إذ يرى أصحاب هذا الرأي أن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر، وأنه كان عليها في أوائل القرن السادس عشر أن تبحث عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع وهذا الرأي يخالفه الصواب لأن الفتوحات العثمانية لم تنقطع تماماً من الجبهة الغربية، ولكن لاريب في أن مركز الثقل في التوسع العثماني قد انتقل نهائياً من الغرب إلى الشرق[2] ليس بسبب التشبع كما تقول بعض المصادر غير المدركة للواقع.

---

(١) انظر: في أصول التاريخ العثماني ص٧٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٢٦.

٢- كان تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من جانب الإسبان في البحر المتوسط والبرتغاليون في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر، الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي، ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتى يسهل عليهم ابتلاعه(١).

٣- سياسة الدولة الصفوية في إيران والمتعلقة بمحاولة بسط المذهب الشيعي في العراق وآسيا الصغرى، هي التي دفعت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى المشرق العربي لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة(٢).

إن سياسة الدولة العثمانية في زمن السلطان سليم سارت على هذه الأسس الا وهي القضاء على الدولة الصفوية الشيعية، وضم الدولة المملوكية ، وحماية الأراضي المقدسة وملاحقة الأساطيل البرتغالية ودعم حركة الجهاد البحري في الشمال الأفريقي للقضاء على الأسبان ومواصلة الدولة جهادها في شرق أوروبا.

أولاً: محاربة الدولة الصفوية الشيعية:

يعد نسب الصفويين الى الشيخ صفي الدين الأردبيلي ٦٥٠- ٧٣٥هـ/ ١٢٥٢-١٣٣٤م الجد الأكبر للشاه اسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية.

وقد التف حول الشيخ صفي الدين الأردبيلي عدد كبير من الاتباع المريدين نتيجة للدعوة القوية او الدعاية المؤثرة التي قام بها هو وأتباعه من المتصوفة والدراويش الذين استطاعوا نشر دعوتهم لا في إيران وحدها وإنما في بعض أقاليم الدولة العثمانية وفي العراق وبلاد الشام(٣).

استطاع الشيخ صفي الدين عن طريق احدى الفرق التي تزعمها أن يشق طريقه في المجتمع الايراني كما استطاع أن يكسب تأييد ومساندة الكثيرين من الايرانيين مما أدى

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٦.

(٢) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، د. محمد نصر، ص٢٤٠.

(٣) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، ص٢٤٠.

الى تحول هذه الفرقة الى الدعوة للمذهب الشيعي حيث أشيع أن الشيخ صفي الدين وأولاده ينتمون الى علي بن أبي طالب ﷺ ومن ثم لهم الحق في المطالبة بالحكم وكان صفي الدين قد لجأ الى التقية إذ كان مظهره يوحي بأنه سني الاتجاه بل إنه من أتباع المذهب الشافعي ولما تمهدت السبل أمام هذه الدعوة الشيعية أعلن أحد أحفاده الشاه اسماعيل الدعوة الشيعية، بل إن السلطان حيدر أكد صلة نسبه بالامام موسى الكاظم ومن ثم أصبحت الدولة الصفوية في ايران تعد نفسها من آل بيت رسول الله ﷺ[1].

صمم اسماعيل الصفوي فرض المذهب الشيعي على شعبه وأعلنه مذهباً رسمياً للدولة في ايران، وقضى بالقوة المسلحة على معارضيه واستطاع الصفويون أن يجمعوا حولهم أعداداً غفيرة من الاتباع والمريدين، وتكاتفت الدعاية الشيعية القوية سواء في بقايا (العبيدين) الفاطميين في مصر أو الإسماعيلية أو الأسرة الصفوية نفسها في اعلان المذهب الشيعي في ايران لتتحول كلها من بعد ذلك من المذهب السني الى مذهب الدولة الجديدة وهو المذهب الشيعي.

وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة وأن كثيرين من سكان المدن الرئيسية في ايران مثل تبريز كانوا من السنة، بل أن علماء الشيعة أنفسهم كانوا يخشون على المذهب من رفض السنة له وإعلان عصيانهم على الحاكم الصفوي شيعي المذهب.

بذل الشاه اسماعيل الصفوي جهوداً ضخمة في فرض المذهب الشيعي في ايران، فعلى الرغم من التهيئة الروحية للدعوة الشيعية بين سكان ايران الذين كانوا في غالبيتهم من السنة فقد لاقى المذهب اسماعيل الصفوي ان يواجه هذا الموقف بتجنيد العناصر الشيعية للغرض هذا ووجد منها تأييداً ومناصرة واستغل حميتهم لمناصرتهم فدفعهم لضرب معارضيه والتأكيد لمذهبه في ايران.

لجأ السلطان اسماعيل الصفوي الى سياسة ماهرة في تأكيد دعوته السياسية والمذهبية فاعتمد على قبائل الترلباش التركية الأصل لتكون نواة لقوته العسكرية ذلك أن المجتمع الايراني في ذلك الوقت كان يتكون من عناصر مختلفة نتيجة لموجات الغزو

---

(١) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، د.محمد نصر، ص٢٤٠.

المتعاقبة على البلاد مما كان يصعب معه صهر كل هذه العناصر في بوتقة واحدة لقد استطاع اسماعيل الصفوي بهذه السياسة أن يجند الطاقة المذهبية عند هذه العناصر لتكون المحور الذي تلتف حوله وتذوب فيها الفوارق العرقية وتحل محلها وحدة مذهبية يمكن له أن يقيم عليها الكيان السياسي الجديد(١).

لقد كان اسماعيل الصفوي شرساً في حروبه شديد الفتك بمعارضيه وخصوصاً إن كانوا من أهل السنة (.. افتتح ممالك العجم جميعها وكان يقتل من ظفر به وما نهبه من الاموال قسمه بين أصحابه ولا يأخذ منه شيئاً ومن جملة ما ملك تبريز واذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب خراسان وكاد أن يدعي الربوبية وكان يسجد له عسكره ويأتمرون بأمره قال قطب الدين الحنفي في الأعلام انه قتل زيادة على ألف ألف نفس قال بحيث لايعهد في الجاهلية ولا في الاسلام ولا في الأمم السابقة من قبل في قتل النفوس ماقتله شاه اسماعيل وقتل عدة من اعاظم العلماء بحيث لم يبق من أهل العلم أحد من بلاد العجم واحرق جميع كتبهم ومصاحفهم وكان شديد الرفض بخلاف آبائه ومن جملة تعظيم أصحابه له أنه سقط مرة منديل من يده الى البحر وكان على جبل شاهق مشرف على ذلك البحر فرمى بنفسه خلف المنديل فوق ألف نفس تحطموا وتكسروا وغرقوا وكانوا يعتقدون فيه الألوهية ذكر ذلك القطب المذكرو ولم تنهزم له راية حتى حاربه السلطان سليم المتقدم ذكره فهزمه..)(٢).

لقد تزعم الشاه اسماعيل المذهب الشيعي وحرص على نشره ووصلت دعوته الى الأقاليم التابعة للدولة العثمانية وكانت الأفكار والعقائد التي تنشر في تلك الأقاليم يرفضها المجتمع العثماني السني حيث كان من عقائدهم الفاسدة، تكفير الصحابة، لعن العصر الأول، تحريف القرآن الكريم، وغير ذلك من الأفكار والعقائد فكان من الطبيعي أن يتصدى لتلك الدعوة السلطان سليم زعيم الدولة السنية ، فأعلن في اجتماع لكبار رجال الدولة والقضاة ورجال السياسة وهيئة العلماء في عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م أن ايران بحكوماتها الشيعية ومذهبها الشيعي يمثلان خطراً جسيماً لا على الدولة العثمانية بل على العالم

---

(١) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، ص٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) البدر الطالع (٢٧١/١).

الاسلامي كله وأنه لهذا يرى الجهاد المقدس ضد الدولة الصفوية وكان رأي السلطان سليم هو رأي علماء أهل السنة في الدولة، لقد قام الشاه اسماعيل عندما دخل العراق بذبح المسلمين السنيين على نطاق واسع ودمر مساجدهم ومقابرهم وازداد الخطر الشيعي ضرواة في السنوات الاخيرة من عهد السلطان بايزيد وعندما تولى السلطان سليم السلطنة قامت اجهزت الدولة العثمانية الأمنية بحصر الشيعة التابعين للشاه اسماعيل والمناوئين للدولة العثمانية ثم قام بتصفية اتباع الشاه اسماعيل، فسجن وأعدم عدداً كبيراً من انصار الشاه اسماعيل في الاناضول ثم قام بمهاجمة اسماعيل نفسه، فتداولت الرسائل الخشنة بينهما حسب المعتاد، وكتب السلطان سليم رسالة الى اسماعيل الصفوي قال فيها: (.. إن علمائنا ورجال القانون قد حكموا عليك بالقصاص ياأسماعيل، بصفتك مرتداً، وأوجبوا على كل مسلم حقيقي أن يدافع عن دينه، وأن يحطم الهراطقة في شخصك، أنت وأتباعك البلهاء ، ولكن قبل أن تبدأ الحرب معكم فاننا ندعوكم لحظيرة الدين الصحيح قبل أن نشهر سيوفنا وزيادة على ذلك فإنه يجب عليك أن تتخلى عن الاقاليم التي اغتصبتها منا اغتصبا ، ونحن حينئذ على استعداد لتأمين سلامتك.)(١).

وكان رد اسماعيل الصفوي على هذا الخطاب ان بعث للسطان العثماني هدية من الافيون قائلاً انه اعتقد ان هذا الخطاب كتب تحت تأثير المخدر(٢).

كذلك جاء في خطاب آخر مشابه: (.. أنا زعيم وسلطان آل عثمان ، أنا سيد فرسان هذا الزمان، أنا الجامع بين شجاعة وبأس أفريدون الحائز لعز الاسكندر، والمتصف بعدل كسرى، أنا كاسر الأصنام ومبيد أعداء الاسلام أنا خوف الظالمين وفزع الجبارين المتكبرين، أنا الذي تذل أمامه الملوك المتصفون بالكبر والجبروت، وتتحكم لدى قوتي صوالج العزة والعظموت، أنا الملك الهمام السلطان سليم خان بن السلطان الأعظم مراد خان، أتنازل بتوجيه إليك أيها الأمير اسماعيل، يازعيم الجنود الفارسية . ولما كنت مسلماً من خاصة المسلمين وسلطاناً لجماعة المؤمنين السنيين الموحدين. واذ قد افتى العلماء والفقهاء الذين بين ظهرانينا بوجب قتلك ومقاتلة قومك فقد حق علينا أن ننشط لحربك وتخلص

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص٤٣٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٣٥.

الناس من شرك)[١].

أعد السلطان سليم الأول لمعركة فاصلة مع الدولة الصفوية حيث وصل الى استانبول وبدأ في التحرك من استانبول تجاه الأراضي الإيرانية وبعد أن غادر اسكوتراي أرسل يهدد الشاه اسماعيل الصفوي في رسالة يقول فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم قال الله الملك العلام ان الدين عند الله الاسلام ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ومن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، اللهم اجعلنا من الهادين غير المضلين ولا الضالين وصلي الله على سيد العالمين محمد المصطفى النبي وصحبه أجمعين..)[٢].

وفي نفس الوقت أرسل السلطان سليم الأول الى أحد افراد أسرة آق قويونلو وهو محمد بن فرج شاه بيك يحثه على الاشتراك معه في قتال اسماعيل الصفوي، وبدأت حرب الاستطلاع بين المعسكرين المتحاربين، إلا أن سليم الأول قد بدأ التحرك نحو الدخول في القتال حيث عسكر في صحراء ياس جمن على مقربة من أذربيجان، ووصلت الأنباء التي اتت بها عيون ياس جمن تقول أن الشاه اسماعيل الصفوي لا ينوي القتال وأنه يؤخره الى ان يحل فصل الشتاء حتى يهلك العثمانيون برداً وجوعاً[٣].

وبدأ سليم الأول يسرع في تحريك الصراع بينه وبين الشاه اسماعيل فارسل إليه للمرة الثانية وأرسل مع رسالته خرقة ومسبحة وكشكولاً وعصا رمز فرق الدراويش وهو بهذا يقصد الى أن يذكره بأصله، وبأهل الأسرة الصفوية التي لاتستطيع الصمود في الحرب، ومع ذلك فقد رد الشاه اسماعيل بطلب المهادنة وتجديد علاقات السلم والصداقة بين الدولتين، ولم يقبل سليم الأول هذا من شاه الصفويين، وأهان رسوله وأمر بقتل رسول الشاه الصفوي وقد أدرك سليم الأول أن خطة أعدائه تتلخص في المهادنة والتباطؤ لتأجيل موعد اللقاء حتى يحين فصل الشتاء ، واستمر السلطان سليم في تحركه ووصلته الأخبار أن

---

(١) فتح العثمانيين عدن، محمد عبداللطيف البحراوي، ص١١٣.

(٢) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، ص٢٤٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٤٦.

اسماعيل الصفوي قد بدأ الاستعداد للقتال والحرب بل إنه على وشك الوصول الى صحراء جالديران، فبدأ سليم الأول المسير نحوها فوصلها في أغسطس عام ١٥١٤م واحتل المواقع الهامة بها واعتلى الاماكن الهضبية فيها مما مكنه من ايقاع الهزيمة باسماعيل الصفوي وجنوده وكانت هزيمة ساحقة حلت بالجيش الصفوي الشيعي على ارضه[١].

واضطر اسماعيل الى الفرار في نفس الوقت الذي كان سليم الأول يستعد فيه للدخول الى تبريز عاصمة الصفويين.

ودخل سليم الاول تبريز وحصر أموال الشاه الصفوي ورجال القلزباس واتخذها مركزاً لعملياته الحربية[٢].

لم ينته الصراع بين السنة في الدولة العثمانية والشيعة في ايران بانتهاء معركة جالديران وانما ازداد العداء حدة وازداد الصراع ضراوة وظل الطرفان يتربص كل منهما بالآخر.

لقد انتصر السلطان سليم بفضل الله تعالى وعقيدته السليمة ومنهجه الصافي، واسلحته المتطورة وجيشه العقدي المتدرب، وعاد الى بلاده بعد أن استولى على كردستان وديار بكر، ومرغش وأبلسين وباقي أملاك دلفاود، وبذلك صارت الأناضول مأمونة من الاعتداء من الشرق، وصارت الطرق الى أذربيجان والقوقاز مفتوحة للعثمانيين[٣].

وما أن هزمت فارس في موقعة جالديران السابقة أمام السلطان سليم حتى كان الفرس أنفسهم اكثر استعداداً وتقبلاً من قبل للتحالف مع البرتغاليين وبدأت تلك الاستعدادات للارتباط بالبرتغال عقب استيلاء البوكرك على هرمز، عندها وصل سفير من لدى شاه اسماعيل وتم الدخول في اتفاقية محدودة مابين البرتغاليين والصفويين نصت على مايلي: أن يقدم البرتغال اسطوله ليساعد الفرس في غزو البحرين والقطيف كما يقدم البرتغال المساعدة للشاه اسماعيل لقمع الثورة في مكران وبلوجستان وأن يكون

---

(١) انظر: الاسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، ص٢٤٧، ٢٤٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٤٧.

(٣) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الاندلس، ص٤٣٦.

الشعبان البرتغالي والفارسي اتحاداً ضد العثمانيين ، إلا أن وفاة البوكرك التي أتت بعد ذلك قد أعاق ذلك التحالف[1].

لقد أظهر البرتغاليون تودداً للشاه اسماعيل قبل معركة جالديران وكانوا يهدفون من وراء توددهم للصفويين أن تتاح لهم فرصة تحقيق أهدافهم في إيجاد مراكز لهم في الخليج العربي، وكانوا يدركون أنهم إذا لم يكسبوا ود الصفويين فإن تعاون قوتهم مع القوى المحلية في الخليج قد يؤدي الى فشل البرتغاليين في تحقيق أهدافهم ولاسيما أن مشروعاتهم في إيجاد مراكز نفوذ في البحر الأحمر منيت بالفشل الى حد كبير[2].

وتبدو سياسة البرتغال الرامية الى التحالف مع الفرس في رسالة ارسلها (البوكيرك(الى الشاه (اسماعيل الصفوي(جاء فيها:

(إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة، وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل مايريد)[3].

لقد أدت هزيمة الشاه اسماعيل امام العثمانيين الى حرصه الشديد للتحالف مع النصارى وأعداء الدولة العثمانية ولذلك تحالف مع البرتغاليين وأقر استيلاءهم على هرمز في مقابل مساعدته على غزو البحرين والقطيف الى جانب تعهدهم بمساندتهم ضد القوات العثمانية وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالي الصفوي تقسيم المشرق العربي الىمناطق نفوذ بينهما حيث اقترح أن يحتل الصفويون مصر والبرتغاليون فلسطين[4].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٤٣٧.

(٢) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص٦٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٦٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٦٤.

يقول الدكترر عبدالعزيز سليمان نواز: (.. إن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء ضد الدولة العثمانية التي أصبحت القوة الكبرى التي تحول بينه وبين الوصول الى البحر المتوسط وكان مستعداً لان يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطراً على العالم الاسلامي حينذاك. وهكذا بينما كان البرتغاليين يخشون من وجود جبهة اسلامية قوية ضدهم في المياه الاسلامية ، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم.

ومع أن ملك هرموز -الجزيرة الصغيرة التي أضيرت بشدة في اقتصادياتها التجارية بمجيء البرتغاليين المريعة، إلا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحقده الشديد على الاتراك العثمانيين في مقدمة اية تسوية او تحالف مع البرتغاليين، فلا غرو أن وافق على أن تظل هرموز تحت السيطرة البرتغالية في مقابل حصوله على الاحساء ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه. وكانت النتيجة أن ساعدت سياسة الشاه هذه على تقوية التسلط البرتغالي على الخليج.)[1].

اكتفى السطان العثماني بانتصاره في جالديران واضطر الى الرجوع الى بلادة وترك مطاردة الشاه اسماعيل لعدة أسباب:

١- حدوث نوع من التمرد بين صفوف ضباط الجيش العثماني على متابعة الحرب في فارس بعد أن حقق السلطان هدفه واضعف شوكة اسماعيل الصفوي.

٢- خوف السلطان سليم من أن يقع جيشه في كمائن للصفويين إذا توغل في بلادهم.

٣- رأى أن يهتم بالقضاء على المماليك لأن جهاز أمن الدولة العثمانية ضبط رسائل بين المماليك والصفويين تدل على وجود تعاون ضد الدولة العثمانية[2].

وكانت نتيجة الصراع بين العثمانيين والصفويين:

١- ضم شمالي العراق ، وديار بكر الى الدولة العثمانية.

---

(١) الشعوب الاسلامية، ص٢٢٦.

(٢) الشعوب الاسلامية ، ص٢٢٥.

٢- أمن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية.

٣ سيطرة المذهب السني في آسيا الصغرى بعد أن قضى على اتباع وأعوان اسماعيل الصفوي ثم هزيمة الشيعة في جالديران وهذا أشعر الدولة بمسؤوليتها تجاه العالم الاسلامي ، وبخاصة بعد أن أعلن نفسه حامياً للمسلمين[1].

٤ شعور الدولة العثمانية بضرورة القضاء على القوة الثانية ألا وهي دولة المماليك[2].

٥- أثر الصدام المسلح بين الدولة العثمانية والصفويين على قيمة ايرادات جمارك الدولة العثمانية من الطرق القديمة في الأناضول. لقد هبطت الايرادات بعد سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م نتيجة الحروب القائمة بين الصفويين والعثمانيين، إذ أقفلت معظم الطرق التجارية القديمة، كما سادها الاخطار ، وصار التبادل التجاري بين الاقاليم الايرانية والعثمانية محدوداً، إذ انخفض ايراد الدولة العثمانية من الحرير الفارسي[3].

٦- استفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عاماً على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب[4].

٧- دخل السرور على الأوروبين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لاتستطيع أن تستمر في زحفها على أوروبا[5].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسوان ، ص٥٦،٥٧.

(٢) انظر: تاريخ العرب مجموعة من العلماء، ص٣.

(٣) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص٤٣٧.

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص٤٢٨.

(٥) انظر: القوة العثمانية بين البر والبحر ، د. نبيل رضوان ، ص١١١.

ثانياً: ضم دولة المماليك:

بعد أن تغلب السلطان سليم الأول على الصفويين في شمال وغربي ايران بدأ السلطان العثماني يستعد للقضاء على دولة المماليك ولقد ساهمت عدة أسباب في توجه العثمانيين لضم الشام ومصر منها:

١ موقف المماليك العدائي من الدولة العثمانية حيث قام السلطان قانصوه الغوري (٩٠٧ ٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م) سلطان الدولة المملوكية بالوقوف مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم وكان في مقدمتهم الأمير أحمد أخ السلطان سليم، وأرادت السلطات المملوكية أن تتخذ من وجود هؤلاء الأمراء لديها أداة لإثارة مزيد من المتاعب في وجه السلطان سليم، كما كان الموقف السلبي للدولة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشاه اسماعيل الصفوي فهي لم تلتزم الحيادة التامة بين العثمانيين والصفويين، وهي لم تتخذ موقفا عدائياً صريحاً من السلطان سليم.

٢- الخلاف على الحدود بين الدولتين في طرسوس في المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام. فقد تناثرت في هذه المنطقة إمارات وقبائل تأرجحت في ولائها بين الدولة العثمانية ودولة المماليك. وكان هذا التأرجح مبعث اضطراب في العلاقات بين الدولتين ومصدر نزاع مستمر. وأراد السلطان سليم الأول بادئ ذي بدء أن يحسم مسألة الحدود بالسيطرة التامة على منطقتها وسكانها.

٣- تفشي ظلم الدولة المملوكية بين الناس ورغبة أهل الشام وعلماء مصر في التخلص من الدولة المملوكية والإنضمام الى الدولة العثمانية، فقد اجتمع العلماء والقضاة والأعيان والأشراف وأهل الراي مع الشعب، وتباحثوا في حالهم، ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة ، نيابة عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأول ويقولون أن الشعب السوري ضاق (بالظلم(المملوكي وإن حكام المماليك (يخالفون الشرع الشريف(، وإن السلطان إذا قرر الزحف على السلطنة المملوكية، فإن الشعب سيرحب به، وتعبيراً عن فرحته، سيخرج بجميع فئاته وطوائفه الى عينتاب -البعيدة عن حلب ولن يكتفوا بالترحيب به في بلادهم فقط، ويطلبون من سليم الأول أن يرسل لهم رسولاً من عنده، وزيراً ثقة، يقابلهم سراً ويعطيهم عهد الأمان، حتى تطمئن

قلوب الناس[1].

ولقد ذكر الدكتور محمد حرب أن هذه الوثيقة موجودة في الأرشيف العثماني في متحف طوب كابي في استانبول، رقم ١١٦٣٤ (٢٦) وبين أن ترجمة الوثيقة من العثمانية الى العربية كما يلي : (يقدم جميع أهل حلب: علماء ووجهاء وأعيان وأشراف وأهالي، بدون استثناء طاعتهم وولاءهم -طواعية- لمولانا السلطان عزنصره -وبإذنهم جميعاً، كتبنا هذه الورقة لترسل الى الحضرة السلطانية العالية. إن جميع أهل حلب، وهم الموالون لكم، يطلبون من حضرة السلطان، عهد الأمان، وإذا تفضلتم بالتصريح فإننا نقبض على الشراكسة، ونسلمهم لكم، أو نطردهم، وجميع أهل حلب مستعدون لمقابلتكم واستقابلكم، بمجرد أن تضع أقدامكم في أرض عينتاب، خلصنا أيها السلطان من يد الحكم الشركسي، احمنا أيضاً من يد الكفار، قبل حضور التركمان، وليعلم مولانا السلطان، إن الشريعة الاسلامية ، لاتأخذ مجراها هنا، وهي معطلة. إن المماليك إذا اعجبهم أي شيء ليس لهم، يستولون عليه، سواء كان هذا الشيء مالاً أو نساءً أو عيالاً ، فالرحمة لاتأخذهم بأحد، وكل منهم ظالم، وطلبوا منا رجلاً من ثلاثة بيوت، فلم نستجب لطلبهم، فأظهروا لنا العداء، وتحكموا فينا ، (ونريد) قبل أن يذهب التركمان أن يقدم علينا وزيراً من عندكم أيها السلطان صاحب الدولة، مفوض بمنح الأمان لنا ولأهلينا ولعيالنا، ارسلوا لنا رجلاً حائزاً على ثقتكم يأتي سراً ويلتقي بنا ويعطينا عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب هؤلاء الفقراء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين)[2].

أما علماء وفقهاء مصر فقد ذكر عبدالله بن رضوان في كتابه: تاريخ مصر (مخطوط رقم ٤٩٧١) بمكتبة بايزيد في استانبول ، إن علماء مصر (وهم نفس الشعب المصري وممثلوه) يلتقون سراً بكل سفير عثماني يأتي الى مصر، ويقصون عليه (شكواهم الشريف) و (يستنهضون عدالة السلطان العثماني) لكي يأتي ويأخذ مصر).

لقد كان علماء مصر يراسلون السلطان سليم الأول لكي يقدم الى مصر على رأس

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب ، ص١٧٠.

(٢) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٧٠،١٧١.

جيشه ، ليستولي عليها، ويطرد منها الجراكسة (المماليك)[١] .

٤- رأى علماء الدولة العثمانية بأن ضم مصر والشام يفيد الأمة في تحقيق أهدافها الاستراتيجية، فإن الخطر البرتغالي على البحر الأحمر والمناطق المقدسة الاسلامية وكذلك خطر فرسان القديس يوحنا في البحر المتوسط كان على رأس الأسباب التي دعت السلطان العثماني لأن يتوجه نحو الشرق، فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض في البداية، ثم تحمل العبء الكامل في مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكي[٢] .

ونستدل على ذلك بما قاله السلطان سليم الأول العثماني لطومان باي آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه في معركة الريدانية (أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار ، وأنا كنت متوجهاً الى جهاد الرافضة (ويعني الصفويين) والفجار (ويعني بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا) ، فلما بغى أميركم الغوري وجاء بالعساكر الى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمشي الى مملكتي التي هي مورث آبائي وأجدادي، فلما تحققت تركت الرافضة، ومشيت إليه)[٣] .

أ- وقوع الصدام:

بعد التطورات التي حدثت بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية كان على السلطان المملوكي قانصوه الغوري أن يتخذ أحدى المواقف تجاه الحدث اما:

١- ان يأخذ جانب العثمانيين ضد الصفويين.

٢- ان يأخذ جانب الصفويين ضد العثمانيين.

٣- ان يقف على الحياد بين الطرفين.

وفضل الغوري ان يقف على الحياد في ظاهره إلا أن المخابرات العثمانية عثرت على خطاب تحالف سري يؤكد العلاقة الخفية بين المماليك والفرس والخطاب محفوظ في

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١٦٩.

(٢) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص٧٠.

(٣) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص٧١.

أرشيف متحف طوب قابو في إستانبول.

وكان السلطان سليم يريد الكرة على الشيعة الصفوية في بلاد فارس ومع توتر الأحداث رأي السلطان سليم تأمين ظهره وذلك بضم الدولة المملوكية الى أملاكه.

والتقى الجمعان على مشارق حلب في مرج دابق عام ١٥١٧م وانتصر العثمانيون وقتل الغوري سلطان المماليك وأكرم العثمانيون الغوري بعد مماته وأقاموا عليه صلاة الجنازة ودفنوه في مشارف حلب ودخل سليم حلب ثم دمشق ودعي له في الجوامع وسكت النقود باسمه سلطان وخليفة[١] ومن الشام أرسل السلطان سليم الى زعيم المماليك في مصر طومان باي على أن يلتزم بالطاعة للدولة العثمانية وكان رد المماليك السخرية برسول السلطان ثم قتله.

وقرر السلطان سليم الحرب وتحرك نحو مصر وقطع صحراء فلسطين قاصداً مصر ونزلت الأمطار على أماكن سير الحملة مما يسرت على الجيش العثماني قطع الصحراء الناعمة الرمال بعد أن جعلتها الأمطار الغزيرة متماسكة يسهل اجتيازها.

يروي المؤرخ سلاحشور صاحب مخطوطة فتح نامه ديار العرب .وكان مصاحباً لسليم- أن سليم الأول كان يبكي في مسجد الصخرة بالقدس بكاءً حاراً وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر[٢].

وحقق العثمانيون انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية.

وتعود الأسباب التي أدت الى هزيمة المماليك وانتهاء دولتهم وانتصار العثمانيين وعلو نجمهم الى:

١- التفوق العسكري لدى العثمانيين: فسلاح المدفعية المملوكي كان يعتمد على مدافع ضخمة ثابتة لاتتحرك، في حين كان سلاح المدفعية العثماني يعتمد على مدافع

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٢٩.

(٢) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٠.

خفيفة يمكن تحركيها في كل الاتجاهات.

٢- سلامة الخطط العسكرية العثمانية: فرغم قطع العثمانيين لمسافات طويلة في سرعة اضطروا إليها ومحاربتهم في ارض يسيطر عليها عدوهم ومباغتتهم للمماليك كل ذلك كان مما يدخل في عوامل النصر، ومن سلامة التخطيط أيضاً استدارة القوات العثمانية من خلف مدافع المماليك الثقيلة الحركة إذا أريد تحريكها. ودخول هذه القوات العثمانية القاهرة عن طريق المقطم مما شل دور المدفعية المملوكية وأحدث بالتالي الاضطراب في صفوف الجيش المملوكي لتدافعهم بلا انتظام خلف العثمانيين.

٣- معنويات الجيش العثماني العالية وتربيته الجهادية الرفيعة واقتناعه بأن حربه عادلة بعكس القوات المملوكية التي فقدت تلك الصفات.

٤- حرص الدولة العثمانية على الالتزام بالشرع في جميع نواحي حياتها واهتمامها البالغ بالعدل بين رعايا الدولة، بعكس الدولة المملوكية التي انحرفت عن الشريعة الغراء ومارست الظلم على رعاياها(١).

٥ قناعة مجموعة قيادية من أمراء المماليك بالإنضمام لجيش السلطان سليم وكانوا مستعدين للتعاون مع الدولة العثمانية وتحمل مسؤولية الحكم تحت إطار الحكم العثماني ومن أمثال هؤلاء: فاير بك الذي اسند إليه سليم الأول حكم مصر، وجان بردي الغزالي الذي تولى حكم دمشق(٢).

لقد تلقى المماليك الهزيمة في سنة ١٥١٦/ ١٥١٧م وهم في شيخوخة دولتهم ومن آخر صفحة من صفحات تاريخهم كقوة اسلامية كبرى سواء في الشرق الأوسط أو في العالم، فقد كانوا فقدوا حيويتهم وقدرتهم على تجديد شبابهم، فكان أن زالت دولتهم، وذهبت البلاد التي كانت حكمهم للنفوذ العثماني(٣).

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ٣١.

(٢) انظر: الشعوب الاسلامية، د. عبدالعزيز نوار، ص٩٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٩٢.

وقد نقل الدكتور علي حسون عن الجبرتي من كتابه تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار في المجلد الأول وصفاً لفترة حكم العثمانيين في مصر إبان عهد سلاطينهم العظماء أقتطف بعضاً منها:

(..وعادت مصر الى النيابة كما كانت في صدر الاسلام ولما خلص له (أي السلطان سليم) أمر مصر، عفا عمن بقي من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلال الحرمين والأنبار ورتب للأيتام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوث والمغارم ولما توفي تولى ابنه الغازي السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان فأسس القواعد وأتم المقاصد ونظم الممالیك وانار الحوالك ورفع منار الدين وأخمد نيران الكافرين. لم تزل البلاد منتظمة في سلكهم ومنقادة تحت حكمهم . وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين وأشد من ذبّ عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين فلذلك أتسعت ممالكه بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم . هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الاسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين)[١].

ب- مسألة انتقال الخلافة:

إن مسألة انتقال الخلافة الى آل عثمان ترتبط بالفتح العثماني لمصر وقد قيل أن آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة قد تنازل لسليم عن الخلافة، فالمؤرخ ابن إياس المعاصر لضم العثمانيين لمصر لم يتطرق إليها، كما أن الرسائل التي أرسلها السلطان سليم الى أبنه سليمان لم ترد فيها أية إشارة لتنازل الخليفة عن لقبه للسلطان، كما أن المصادر المعاصرة لاتشير الى مسألة نقل الخلافة الى آل عثمان الذين لاينتسبون الى الرسول.

إن الواقع التاريخي يقول بأن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب (خليفة الله في طول الأرض وعرضها(منذ عام ١٥١٤م (٩٢٠هـ) أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان.

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص٦٢.

فالسلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانة عظيبة تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة في القاهرة لايعتد به. كما أن فتوح سليم اكسبته قوة ونفوذاً معنوياً ومادياً وخصوصاً بعد دخول الحرمين الشريفين تحت سلطانه وأصبح السلطان العثماني مقصداً للمستضعفين المسلمين الذين يتطلعون الى مساعدته بعد أن هاجم البرتغاليين الموانى الاسلامية في آسيا وإفريقيا. ملخص المبحث أن السلطان سليم لم يكن مهتماً بلقب الخلافة، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده وأن الاهتمام بهذا اللقب قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانية(١).

ج- اسباب انهيار الدولة المملوكية:

هناك مجموعة من العوامل تجمعت وساعدت في وضع نهاية لدولة المماليك أهمها:

١ عدم تطوير المماليك، اسلحتهم وفنونهم القتالية، فبينما كان المماليك يعتمدون على نظام الفروسية الذي كان سائداً في العصور الوسطى كان العثمانيون يعتمدون على استخدام الاسلحة النارية وبخاصة المدفعية.

٢- كثرة الفتن والقلاقل والاضطرابات بين المماليك حول ولاية الحكم مما أدى الى عدم استقرار الحكم في أحرج الأوقات.

٣- كره الرعايا للسلاطين المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة استقراطية مترفعة منعزلة عن الشعوب.

٤- وقوع بعض الانشقاقات بين صفوف المماليك، كما فعل والي حلب (خاير بك وجانبرد الغزالي(مما أدى الى سرعة انهيار الدولة المملوكية.

٥- سوء الأحوال الاقتصادية، وبخاصة عندما تغيرت طرق التجارة المارة بمصر واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

٦- العامل الجامع للأسباب السابقة ضعف التزام المماليك بمنهج الله ويقابله قوة

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص٦١-٦٢.

تمسك العثمانيين بشرع الله[1].

د- خضوع الحجاز للعثمانيين:

كانت الحجاز تابعة للمماليك وعندما علم شريف مكة بمقتل السلطان الغوري ونائبه طومان باي بادر شريف مكة (بركات بن محمد (الى تقديم السمع والطاعة الى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة وبعض الآثار فأقر السلطان سليم شريف الحجاز بركات باعتباره أميراً على مكة والحجاز، ومنحه صلاحيات واسعة[2].

وبذلك أصبح السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين وأصبحت مكانته أقوى أمام الشعوب الاسلامية وبخاصة أن الدولة أوقفت أوقافاً كثيرة على الاماكن المقدسة، وكانت ايراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني وقد أدى ضم الحجاز الى العثمانيين الى بسط السيادة العثمانية في البحر الأحمر مما أدى الى دفع الخطر البرتغالي عن الحجاز والبحر الأحمر واستمر هذا حتى نهاية القرن الثامن عشر[3].

س- اليمن:

بعد انهزام المماليك قدم حاكم اليمن المملوكي الجركسي (اسكندر) وفداً الى السلطان سليم ليقدم فروض الولاء والطاعة له فوافق السلطان العثماني على إبقائه في منصبه وكانت اليمن تشكل بعداً استراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر وفي سلامتها سلامة للأماكن المقدسة في الحجاز وكانت السيطرة العثمانية في بداية الأمر ضعيفة، بسبب الصراعات الداخلية بين القادة والمماليك الى جانب نفوذ الأمامة الزيدية بين قبائل الجبال، هذا فضلاً عن الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية وهذا دفع السلطان الى ارسال قوة بحرية إلا أنها فشلت بسبب النزاع الذي دب بين قائدها (حسين

---

(١) انظر: تاريخ العرب الحديث، مجموعة من العلماء ، ص٤٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٠.

(٣) انظر: تاريخ العرب الحديث، ص٤١.

الرومي) متصرف جدة و(الريس سلمان) احد قادة البحر العثمانيين[١].

ثم ارسل السلطان سليمان حملة (سليمان باشا ارناؤطي(سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م وقد ضمت الحملة ٧٤ سفينة و ٢٠,٠٠٠ شخص وكان هدف الحملة احتلال اليمن وبخاصة عدن ثم اغلاق مضيق باب المندب أمام السفن البرتغالية ودخل العثمانيون عدن عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م، وتعز عام ٩٥٢هـ/١٥٤٥م وسقطت صنعاء في قبضتهم عام ٩٥٤هـ/١٥٤٧م وتحرك (سلمان باشا(باسطوله ليستولي على بعض الموانئ العربية في حضرموت ومنها (الشحر ، والمكلا(واجتاح ساحل الحبشة، وسواكن ومصوع على الجانب الغربي من البحر الأحمر ٩٦٤هـ/١٥٥٧م.

وقد ظلت اليمن في فترة خضوعها للحكم العثماني (١٥٣٨-١٦٣٥م) تنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركة المقاومة التي تواجههم[٢].

وقد ظلت اليمن في فترة هيمنة الدولة العثمانية عليها (١٥٣٨-١٦٣٥م) تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية، فالعثمانيون لم يستطعوا أن يسيطروا كلياً على البلاد بسبب تمرد بعض القبائل[٣].

واستفاد العثمانيون من وجدوهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية الى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي[٤].

ثالثاً: الصراع العثماني البرتغالي:

قامت دولة البرتغال في عام ١٥١٤م بتحريك حملة على المغرب الأقصى يتزعمها الامير هنري الملاح واستطاعت تلك الحملة أن تحتل ميناء سبتة المغربي، وكان ذلك بداية

(١) نفس المصدر السابق ، ص٤١.

(٢) انظر: تاريخ العرب ، مجموعة من الاساتذة، ص٤١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٤٢.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٤٢.

لسلسلة من الاعمال العدوانية المتتالية[1] ثم واصلت البرتغال حملاتها على الشمال الأفريقي حتى تمكنت من الاستيلاء على اصيل، والعرائش ثم طنجة في عام ١٤٧١ للميلاد[2]. وواصلت بعد ذلك أطماعها في مراكز هامة جداً مثل ميناء (أسفى وأغادير، وازمورة، وماسة([3].

وأما عن توجه البرتغال الى المحيط الأطلسي ومحاولتهم الإلتفاف حول العالم الاسلامي فقد كان العمل مدفوعاً بالدرجة الاولى بدوافع صليبية شرسة ضد المسلمين ، حيث اعتبرت البرتغال انها نصيرة المسيحية وراعيتها ضد المسلمين ، حيث اعتبرت قتال المسلمين ضرورة ماسة وصارمة ورأت الاسلام هو العدو اللدود الذي لابد من قتاله في كل مكان[4].

وكان الأمير هنري الملاح شديد التعصب للنصرانية عظيم الحقد على المسلمين وقد تحصل هذا الأمير من البابا نيقولا الخامس حقاً في جميع كشوفه حتى بلاد الهند، حيث قال : (إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال، إذ يترسم خطى والده العظيم الملك يوحنا، وإذ تلهمه الغيرة التي تملك الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح، قد دفع باسم الله الى آقاصي البلاد وأبعادها عن مجال علمنا كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة..) [5].

وقال البوكيرك في خطابه الذي ألقاه على جنده بعد وصوله الى (ملقا(مانصه: (إن ابعاد العرب عن تجارة الأفاوية هي الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الاسلام).

وفي نفس الخطبة قال :(الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه

(١) التاريخ الأوروبي الحديث في عصر النهضة الى مؤتمر فينا ، د. عبدالعزيز نوار، ص٤٨.

(٢) انظر: الكشوف الجغرافية، شوقي عبدالله ، ص١٠٠،٩٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٠٠،٩٩.

(٤) انظر: آسيا الوسطى الغربية، بانيكار ، ص٢٥،٢٤.

(٥) دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب، يوسف الثقفي، ص٥٨.

البلاد وبإطفاءنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب وذلك لأني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة (ملقا(هذه من أيديهم (يقصد المسلمين) لاصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل مالم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك)[١].

وقال في يومياته: (كان هدفنا الوصول الى الأماكن المقدسة للمسلمين واقتحام المسجد النبوي وأخذ رفاة النبي محمد ﷺ رهينة لنساوم عليها العرب من اجل استرداد القدس[٢].

وقال ملك البرتغال عمانويل الأول معلناً أهداف الحملات البرتغالية: إن الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر النصرانية والحصول على ثروات الشرق[٣].

وهكذا يظهر للباحث المنصف أن الدافع الديني للكشوف البرتغالية كان من أهم العوامل التي دفعت البرتغال لارتياد البحار والإلتفاف حول العالم الاسلامي، فصدرت المراسيم والأوامر، ورسم الصليب والمدفع كشعار للحملات، وكان القصد من ذلك أن على المسلمين اعتناق المسيحية وإلا عليهم مواجهة المدفع.

وكان الدافع الاقتصادي في الدرجة الثانية كعامل مؤثر في سير الكشوف الجغرافية البرتغالية، فقد سهل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في عام ٩٠٤هـ/١٤٩٧م بواسطة فاسكو دي جاما مهمة وصول منتجات الشرق الاقصى للأسواق الأوروبية دون الحاجة الى مرورها عن طريق مصر، ولهذا ساعد تحويل الخط التجاري عن مناطق العبور العربية والاسلامية -ساعد- على تحقيق الهدف الديني وذلك لما للمجال الاقتصادي من اثر فعال في إضعاف القوة الاسلامية التي كان لها ابلغ الأثر في زعزعة أوروبا خلال عدة قرون، فضلاً عن الركود الاقتصادي الذي مُنيت به الدولة المملوكية بسبب هذا التحول

(١) انظر: دراسات متميزة، ص٥٩.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٦٩٨/٢).

(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، د.يوسف الثقفي، ص٣٧.

المفاجئ[1].

ومما يجدر ذكره أن البرتغاليين استعانوا في حملاتهم باليهود الذين استخدموا كجواسيس ، وقد ساعدهم في ذلك معرفتهم باللغة العربية، وعلى سبيل المثال فقد ارسل ملك البرتغال يوحنا الثاني خادمه الخاص ومعه رفيق آخر يهودي الى مصر والهند والحبشة وكان من نتائج رحلتها تقديمها تقرير يتضمن بعض الخرائط العربية عن المحيط الهندي[2].

وذكر ابن اياس إنه في زمن الشريف بركات أمير مكة تسلل ثلاثة أشخاص الى مكة وكانوا يحومون حول المسجد الحرام وعليهم لباس عثماني ويتحدثون العربية والتركية، فأمر بالقبض عليهم وبالكشف على اجسامهم اتضح أنهم مسيحيون لأنهم كانوا بغير ختان، وبعد التحقيق معهم ظهر أنهم جواسيس، ارسلوا للعمل كأدلاء للجيش البرتغالي الصليبي عند دخوله لمكة، وتم بعد ذلك إرسالهم الى السلطان قانصوه الغوري[3].

ولتحقيق الأهداف البرتغالية رأى رواد الكشوف وساستهم ضرورة التحكم في مضيقي (هرمز(و (باب المندب(لكي يحكم أعداء الاسلام غزوهم للعالم الاسلامي من الخلف ودق عصب الإقتصاد في المناطق العربية والاسلامية ثم بالتالي نشر المسيحية في كل موقع يصلون إليه[4].

ونجح البرتغاليون في خططهم وتمكنوا من السيطرة على معابر التجارة في الساحل الأفريقي والخليج العربي وبحر العرب، وقاموا بمنع وصول المنتجات الشرقية الى أوروبا عن طريقها، وقد ساعدهم في تحقيق ذلك عدم وجود منافس بحري لهم، مما سهل لهم السيطرة على المراكز الهامة بيسر وسهولة، ثم لم يتورع البرتغاليون بعد ذلك عن استخدام العنف فشهدت المناطق التي وصلوا إليها واحتلوها الكثير من المجازر وإشعال

---

(١) دراسات متميزة ، ص٦٠،٦١.

(٢)انظر: أوروبا في مطلع العصور الحديثة للشناوي، (١٢٣/١).

(٣) انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور (١٩١/٤).

(٤) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٣٨.

النيران والتدمير، والاعتداء على حرمات الناس ومنع المسلمين من الذهاب الى الحج وهدم المساجد عليهم[1].

إما عن موقف المسلمين من هذا الغزو الغاشم فقد كان المماليك آنذاك في موقف لايحسدون عليه حيث اصابهم الوهن الاقتصادي والسياسي وانشغل السلاطين بمشاكلهم الداخلية ومجابهة الدولة العثمانية وقمع نشاط الفرسان الإسبارتية في شرق البحر الأبيض المتوسط[2] ولهذا واجه السكان في الساحل الأفريقي والخليج واليمن مصيرهم بأنفسهم، فهاجموا الحاميات البرتغالية في كل مكان، في شرق أفريقيا وفي مسقط والبحرين وقريات وعدن ، ولكن دون جدوى لاختلاف ميزان القوى[3].

ثم ان المماليك شعروا بالمسؤولية على الرغم من المشاكل التي كانت تعيشها دولتهم ، وبذلوا مافي استطاعتهم للحد من وصول البرتغاليين الى الأماكن المقدسة، فقام السلطان قانصوه الغوري بإرسال حملة بحرية دكونة من ثلاثة عشرة سفينة عليه الف وخمسائة رجل بقيادة حسين الكردي الذي وصل الى جزيرة (ديو(ثم (شول(والتقى مع الأسطول البرتغالي بقيادة (الونز دي الميدا(وذلك في عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م فكان النصر حليفه[4]، ثم ان البرتغال عززوا قواتهم وأعادوا الكرة مرة أخرى مما أدى الى هزيمة الاسطول الاسلامي سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م في معركة (ديو) المشهورة في التاريخ[5].

أما عن الدولة العثمانية فكانت في البداية بعيدة عن ساحة المعركة ويفصل بينها وبين البرتغال دولة المماليك والدولة الصفوية ومع ذلك لبى السلطان بايزيد الثاني طلب السلطان الغوري مساعدته ضد البرتغال ، فأرسل في شهر شوال سنة ٩١٦هـ/ ١٥١١م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطاراً من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية

---

(١) انظر: علاقة ساحل عمان ببريطانيا، عبدالعزيز عبدالحي ، ص١٩.

(٢) انظر: دراسات في التاريخ المصري، أحمد سيد دراج ، ص١١٤.

(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٣٨.

(٤) انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور (١٤٢/٤).

(٥) انظر: النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، نوال صيرفي، ص١٠٦.

والأموال اللازمة[1]. ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا[2].

وبعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني ، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الاسلامية في البحر الأحمر مثل: مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير علي بك الى الساحل الأفريقي فتم تحرير مقديشو وممبسة ومنيت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة[3].

وفي عهد السلطان سليمان القانوني ٩٢٧-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م تمكنت الدولة العثمانية من إبعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومهاجمتهم في المراكز التي استقروا بها في الخليج العربي.

لقد ادرك السلطان سليمان أن مسؤولية الدفاع عن الأماكن المقدسة هي مسؤونية الدولة العثمانية، فبادر بعقد اتفاق مع حاكمي (قاليقوط) و(كامباي) وهما الحاكمان الهنديان اللذان تأثرا من الغزو البرتغالي وكان ذلك الاتفاق ينص على العمل المشترك ضد البرتغال، ثم أعقب ذلك الإتفاق إصداره مرسوماً الى سليمان باشا الخادم والي مصر هذا نصه: (عليك يابيك البكوات بمصر سليمان باشا، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك وحاجتك، وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف، فعليك أن تخرج الى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء، فإنك اذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية الى مكة المكرمة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر)[4].

وقام سليمان الخادم بتنفيذ أوامر السلطان العثماني ، ووصل بعد سبعة أيام الى

---

(١) انظر: المماليك الفرنج، احمد سيد دراج، ص١١٥.

(٢) انظر: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، شوقي الجمل، ص١٧٢.

(٣) انظر: موقف اوروبا من الدولة العثمانية، ص٣٩.

(٤) انظر: موقف اوروبا من الدولة العثمانية، ص٤٠.

جدة ثم اتجه الى كدران وبعد ذلك سيطر على عدن وعين عليها أحد ضباطه وزودها بحامية بلغ عدد جنودها ستمائة جندي ، ثم واصل سيره الى الهند، وعند وصوله الى ديو لم يتمكن من الإستيلاء عليها وانسحب عائداً بعد ان فقد حوالي اربعمائة من رجاله، وحاول مرة اخرى الاستيلاء على الأمامية حتى استسلمت إحداها وتم أسر ثمانيين برتغالياً ، ولولا الإمدادات الجديدة للجيش البرتغالي لاستسلمت جميع القلاع، وتمّ طرد البرتغاليين من الهند ولخضعت قلعة ديو للعثمانيين خضوعاً تاماً[١].

وهكذا تمكن العثمانيون من صد البرتغال وإيقافهم بعيداً عن المماليك الاسلامية والحد من نشاطهم ، وهكذا نجحت الدولة العثمانية في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالي المبني على أهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على الاسلام والمسلمين بطرق مختلفة.

إن النجاح الذي حققته الدولة العثمانية في درء الخطر البرتغالي على العالم الاسلامي يستحق كل تقدير وثناء، فدولة المماليك المتهالكة كانت على وشك الانهيار، ولم تكن على مستوى من القوة يكفل لها الوقوف أمام الغزو البرتغالي فتحملت الدولة العثمانية أعباء الدفاع عن حقوق المسلمين وممتلكاتهم، ونجحت أيما نجاح في الحد من مطامع الغزاة ووصولهم الى الأماكن المقدسة كما كانوا يرغبون[٢].

أما عن الدولة الصفوية فقد تخلت عن مساعدة سكان المناطق التي وصل إليها الغزو البرتغالي، فتركت مدن الخليج العربي تواجه مصيرها بنفسها، وزادت على ذلك أن سارت الدولة الصفوية في فلك الأعداء ولبت رغباتهم خاصة وأنها على عداء وخلاف مذهبي مع المماليك والدولة العثمانية ولذلك نجد البوكيرك القائد البرتغالي يستغل هذا الموقف ويرسل في عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م مبعوثه (روى جومير (ومعه رسالة ذكر فيها: (اني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، واعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو أن تهاجم مكة

---

(١) انظر: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، غسان الرمال، ص٢٣٦.

(٢) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٤٠.

فستجدني بجانبك في البحر الأحمر امام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في القطيف أو في البصرة ، وسيجدني الشاة بجانبه على امتداد الساحل الفارسي ، وسأنفذ له كل مايريد[1].

وقد صادف هذا العرض أو هذا الموقف الفترة التي كانت القوات العثمانية تتوجه فيها لمجابهة الصفويين على الحدود، حيث كانت بعد ذلك معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م التي انهزم فيها الفرس هزيمة ساحقة أمام الجيش العثماني، مما جعلهم - أي الفرس- أكثر استعداداً للتحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين، فكانت فرصة البرتغال التي لاتعوض لاسيما وانهم يدركون مدى الخطر الذي يهددهم ويقلق امنهم من قبل الدولة العثمانية ، فاستغلوا احتلالهم لهرمز عام ٩٢١هـ/١٥١٥م وارتبطوا بعد ذلك مباشرة مع الصفويين بمعاهدة كان من أهم بنودها؛ تقديم البرتغال أسطولها لمساعدة الشاة في حملته على البحرين والقطيف مقابل اعتراف الشاة بالحماية البرتغالية على هرمز، وتوحيد القوتين وفي حالة المواجهة مع الدولة العثمانية عدوهما المشترك[2].

ويظهر أن البرتغال رأوا في تحالفهم مع الصفويين وسيلة تحقق عدم الوفاق بين الدول الاسلامية التي فيما لو اتحدت ضدها لما تمكنت من السيطرة على مقدرات الشعوب في مناطق الخليج والبحر الأحمر وعدن وغير ذلك من الاماكن التي خضعت للسيطرة البرتغالية؛ ومن جهة اخرى فإن التحالف الصفوي البرتغالي والوضع السياسي والاقتصادي المتدهور لدى دولة المماليك، كل ذلك جعل الدولة العثمانية تتحمل المسؤولية كاملة في الدفاع عن الأماكن الاسلامية في كل موقع حاول البرتغاليون الوصول إليه والسيطرة عليه[3].

لقد كان من نتائج الصراع العثماني البرتغالي:

١- احتفظ العثمانيون بالاماكن المقدسة وطريق الحج.

---

(١) التيارات السياسية في الخليج العربي ، صلاح العقاد، ص١٧.

(٢) التيارات السياسية في الخليج العربي، ص٩٨.

(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٤١.

٢- حماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر.

٣- استمرار الطرق التجارية التي تربط الهند واندونيسيا بالشرق الادنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر.

٤- استمرار عمليات تبادل البضائع الهندية مع تجار أوروبا في أسواق حلب، والقاهرة واسطنبول ففي سنة ١٥٥٤م اشترى البندقيون وحدهم ستة آلاف قنطار من التوابل وفي الوقت نفسه كانت تصل الى ميناء جدة عشرين سفينة محملة بالبضائع الهندية (توابل ، أصباغ، انسجة)[١].

وفاة السلطان سليم:

في التاسع من شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة، ليلة السبت توفي السلطان سليم -رحمه الله ، فأخفى موته الوزراء، وأرسلوا يعلمون ولده السلطان سليمان، فلما وصل الى القسطنطينية أعلنوا موت السلطان سليم، وصلوا عليه في جامع السلطان محمد، ثم حملوه ودفنوه في محل قبره، وأمر السلطان سليمان خان ببناء جامع عظيم ، وعمارة لطعام الفقراء صدقة على والده.

وكان رحمه الله عالماً فاضلاً ذكياً، حسن الطبع، بعيد الغور، صاحب رأي وتدبير وحزم، وكان يعرف الألسنة الثلاثة: العربية والتركية والفارسية، ونظم نظاماً بارعاً حسناً، وكان دائم الفكر في أحوال الرعية والمملكة، وقهر الملوك وأبادهم، ولما كان بمصر كتب على رخام في حائط القصر الذي سكن فيه بخطه، فقال:

الملك لله من يظفر بنيل مني ... يردده قهراً ويضمن بعده الدركا

لو كان لي أو لغيري قدر أنملة ... فوق التراب لكان الأمر مشتركاً

توفي رحمه الله تعالى وله من العمر أربع وخمسون سنة، وكانت مدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر[٢].

---

(١) انظر: تاريخ العرب الحديث ، مجموعة من العلماء ، ص٤٦،٤٥.

(٢) انظر: تاريخ السلاطين آل عثمان للقرماني، ص٤٠.

المبحث الثالث

السلطان سليمان القانوني

ولد سليمان القانوني في مدينة (طرابزون) كان والده آنذاك والياً عليها اهتم به والده اهتماماً عظيماً، فنشأ محباً للعلم والأدب والعلماء والادباء والفقهاء، واشتهر منذ شبابه بالجدية والوقار، أرتقى عرش السلطنة في السادسة والعشرين من عمره وكان متأنياً في جميع شؤونه ولا يتعجل في الأعمال التي يريد تنفيذها بل كان يفكر بعمق ثم يقرر واذا اتخذ قراراً لايرجع عنه[1].

أولاً: الفتن التي واجهته في بداية حكمه:

ابتلى سليمان في السنوات الأولى في عهده بأربع تمردات شغلته عن حركة الجهاد، حيث ظن الولاة الطموحون أن فرصة الاستقلال بأقاليمهم حان وقتها، فقام جان بردى الغزالي والى الشام بتمرد على الدولة وأعلن العصيان عليها وحاول أن يستولي على حلب إلا أنه فشل في ذلك وأمر السلطان سليمان بقمع الفتنة فقمعت وقطع رأس المتمرد جان بردى وأرسل الى استنبول دلالة على انتهاء التمرد.

وأما التمرد الثاني فقد قام به أحمد شاه الخائن في مصر وكان هذا عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م وكان هذا الباشا طامعاً في منصب الصدر الأعظم ولم يفلح في تحقيق هدفه، وطلب من السلطان أن يعينه والياً على مصر فعينه. وما أن وصل الى مصر حتى حاول استمالة الناس وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً إلا أن أهل الشرع وجنود الدولة العثمانية من الإنكشارية قاموا ضد الوالي المتمرد وقتلوه وظل اسمه في كتب التاريخ مقروناً باسم الخائن.

والتمرد الثالث ضد خليفة المسلمين هو تمرد شيعي رافضي قام به بابا ذو النون عام ١٥٢٦م في منطقة يوزغاد حيث جمع هذا البابا مابين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ثائر وفرض الخراج على المنطقة، وقويت حركته حتى أنه استطاع هزيمة بعض القواد

---

(١) انظر: السلاطين العثمانيون الكتاب المصور، ص٥١.

العثمانيين الذين توجهوا لقمع حركته، وانتهت فتنة الشيعة هذه بهزيمة بابا ذو النون وأرسل رأسه الى استانبول.

والتمرد الرابع ضد الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني كان تمرداً شيعياً رافضياً أيضاً وكان على رأسه قلندر جلبي في منطقتي قونية ومرعش وكان عدد أتباعه ٣٠,٠٠٠ شعياً قاموا بقتل المسلمين السنيين في هاتين المنطقتين. ويقول بعض المؤرخين أن قلندر جلبي جعل شعاره أن من قتل مسلماً سنياً ويعتدي على امرأة سنية يكون بهذا قد حاز أكبر الثواب.

توجه بهرام باشا لقمع هذا العصيان فقتله العصاة، ثم نجحت الحيلة معهم إذ أن الصدر الأعظم إبراهيم باشا قد استمال بعض رجال قلندر جلبي ، فقلت قواته وهزم وقتل.

بعد هذا هدأت الأمور في الدولة العثمانية وبدأ السلطان في التخطيط لسياسة الجهاد في أوروبا(١) .

ثانياً: فتح رودس:

كانت رودس جزيرة مشاكسة إذ كانت حصن حصين لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج المسلمين الأتراك الى الحجاز، فضلاً عن اعمالهم العدوانية الموجهة لخطوط المواصلات البحرية العثمانية، فأهتم السلطان سليمان بفتحها وأعد حملة عظيمة ساعده على تحقيقها عدة أمور :

١- انشغال اوروبا بالحرب الكبرى بين شارل الخامس (كنت) -امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وفرانسوا ملك فرنسا.

٢- عقد الصلح بين الدولة العثمانية والبندقية.

٣- نمو البحرية العثمانية على عهد سليم الأول.

وشن سليمان القانوني حرباً كبيرة ضد رودس ابتداء من منتصف عام ١٥٢٢م،

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمج حرب، ص٩١.

وفتحها وأعطى للفرسان حق الانتقال منها، فذهبوا الى (مالطة) وهناك أعطاهم (شارك كنت) حق حكم هذه الجزيرة[1].

ثالثاً: قتال المجر وحصار فينا:

كان ملك المجر (فيلاد يسلاف الثاني جاجليو) قد عزم على فك أي تعهدات كانت قد اعطيت من قبل اسلافه لسلاطين الدولة العثمانية، وذهب الى حد قتل مبعوث السلطان سليمان إليه.

وكان المبعوث يطالب بالجزية السنوية المفروضة على المجر. ولهذا رد سليمان في عام ١٥٢١م بغزوة كبيرة ضد المجر، ولكن استمرت المعارك حتى أحرز الاتراك انتصارهم الكبير، في موقعة موهاكس عام ١٥٢٦م، ودخل سليمان القانوني (بودا) في ١١ سبتمبر (أيلول) عام ١٥٢٦م واستمرت المقاومة الهنغارية رغم هذا، وتابع السلطان ضغطه حتى بلغت جيوشه أسوار فينا عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٥٢٩م. إلا أن طول خطوط المواصلات وتحول (شارل كنت) من قتال فرانسوا الى التصالح معه للتفرغ لحرب العثمانيين ولانقاذ عاصمة الهايسبورج جعل من المستحيل على سليمان القانوني فتح هذه العاصمة، وتراجع عنها بينما استمر الصراع بين سليمان والقوى الأوروبية المؤيدة لملك المجر من أجل السيطرة على هذه المملكة حتى وفاة سليمان.

على أن أبرز حدث تاريخي في السياسة الخارجية العثمانية على عهد سليمان القانوني هو علاقته مع فرانسوا، تلك العلاقة التي تحولت الى محالفة[2].

رابعاً: سياسة التقارب العثماني الفرنسي:

كان عهد السطان سليمان القانوني بمثل رأس الهرم بالنسبة لقوة الدولة العثمانية ومكانتها بين دول العالم آنذاك. ويعتبر عصر السلطان سليمان هو العصر الذهبي للدولة العثمانية، حيث شهدت سنوات حكمه من ٩٢٦-٩٧٢هـ، الموافق ١٥٢٠-١٥٦٦م

---

(١) انظر: الشعوب الاسلامية ، د.عبدالعزيز نوار.

(٢) انظر: الشعوب الاسلامية ، ص١٤٧.

توسعاً عظيماً لم يسبق له مثيل، واصبحت أقاليم الدولة العثمانية منتشرة في ثلاث قارات عالمية.

وكان لهذا البروز أثره على دول العالم المعاصرة وبالأخص على دول أوروبا التي كانت تعيش انقسامات سياسية ودينية خطيرة، ولهذا تنوعت مواقف الدول الأوروبية من الدولة العثمانية حسب ظروف كل دولة. وكان تشارلز الخامس ملك الامبراطورية الرومانية المقدسة ينافس فرانسوا الأول ملك فرنسا على كرسي الحكم للامبراطورية الرومانية، وكان البابا ليو العاشر منافساً للراهب الألماني مارتن لوثر زعيم المقاومة البروتستانتية[1].

وكانت بلغراد تعاني من اضطرابات داخلية بسبب صغر سن ملكها لويس الثاني مما أدى الى نشوب النزاع بين الأمراء[2].

ولهذا رأى فرانسوا الأول أن يستغل مكانه وقوة الدولة العثمانية ويكسبها صديقاً له، فوقف منه موقف التودد والرغبة في الوفاق معتقداً أن الدولة العثمانية هي التي ستحد من طموحات تشارلز الخامس وتوقفه عند حده، ومما يثبت هذا التوجه الفرنسي ماذكره للسفير الفينسي عندما قال :(سعادة السفير لايمكنني أن أنكر أنني أرغب بشدة في أن أرى الأتراك أقوياء جداً ومستعدون للحرب ليس فقط لمصلحة السلطان العثماني الذاتية بل لإضعاف قوة الامبراطور تشارلز الخامس وتكليفه غالياً، وإعطاء جميع الحكومات الأمن والأمان ضد عدو عظيم كهذا (الامبراطور تشارلز([3].

بدأت مفاوضات فرنسا مع الدولة العثمانية بعد معركة (بافيا(التي أسر فيها ملك فرنسا (فرانسوا الأول(عام ١٥٢٥م، فأرسلت والدته والوصية على العرش مبعوثها (جون فرانجيباني(ومعه خطاب منها وخطاب من الملك الأسير يطلبان فيهما مهاجمة

---

(١) انظر: دراسات متميزة ، يوسف الثقفي، ص٩٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٩٢.

(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ص٤٧.

قوات عائلة الهابسبرج وإطلاق سراح الأسير[1].

وعلى الرغم من أن الأسير أطلق بموجب معاهدة تم عقدها في مدريد بين فرنسا وأسرة الهابسبرج سنة ١٥٢٦م، إلا أن فرنسوا، بعد إطلاق سراحه أرسل في عام ٩٤١هـ/١٥٣٥م سكرتيره (جان دي لافوريه) الى السلطان سليمان بهدف عقد تحالف في شكل معاهدة[2]، سُميت فيما بعد بـ (معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية)، ونظراً لما ستكون عليه هذه المعاهدة من أهمية كبرى بعد ذلك نورد هنا أهم نصوصها:

حرية التنقل والملاحة في سفن مسلحة وغير مسلحة بحرية تامة.

حق التجارة والمتاجرة في كل أجزاء الدولة العثمانية بالنسبة لرعايا ملك فرنسا.

تدفع الرسوم الجمركية وغيرها من الضرائب مرة واحدة في الدولة العثمانية.

الضرائب التي يدفعها الفرنسيون في الدولة العثمانية هي نفسها التي يدفعها الرعايا الأتراك.

حق التمثيل القنصلي، مع حصانة قنصلية ولأقاربه وللعاملين معه.

من حق القنصل الفرنسي النظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون أطرافها من رعايا ملك فرنسا، وان يحكم في هذه القضايا وإنما للقنصل الحق في الاستعانة بالسلطات المحلية لتنفيذ أحكامه.

في القضايا المختلفة التي يكون أحد أطرافها رعية من رعايا السلطان العثماني ، لا يستدعي ولا يستجوب رعية الملك الفرنسي ولا يحاكم إلا بحضور ترجمان القنصلية الفرنسية.

افادات رعية الملك في القضايا مقبولة ويؤخذ بها عند اصدار الحكم.

حرية العبادة لرعايا الملك.

---

(١) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ص٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٧.

منع استعباد رعية الملك.

وكان من نتائج هذه المعاهدة زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسي والعثماني وشن الاسطول العثماني هجمات قوية على شواطئ مملكة نابولي التي كانت تابعة لـ(شارل كنت(وفي عام ١٥٤٣م تجمعت وحدات الاسطولين العثماني والفرنسي وهاجمت نسير التابعة لدوق سافوي حليف شارل كنت[١].

واستفادت فرنسا من تقاربها مع الدولة العثمانية عسكرياً واقتصادياً وسياسياً واتخذت من المعاهدة السابقة وسيلة لفتح أبواب التجارة مع المشرق دون الخضوع للاحتكار التجاري الذي فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، كما حصلت بموجبها على الحق الكامل في الحماية تحت علمها رعيا الدول الغربية الاخرى، مما جعل لها مكانة مرموقة بين دول الغرب الأوروبي.

هذه المعاهدة بكل أسف لم يستفد منها رعايا الدولة العثمانية وكأنها عقدت فقط لتلبية المطالب الغربية ، وتحقيق مصالح الأعداء دون مقابل يذكر وقد كانت هذه المعاهدة الأساس الذي بني عليه وسار على نهجه الكثير من المعاهدات التي عقدت فيما بعد بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بصفة عامة[٢].

لم يستطع ملك فرنسا ان يلتزم بالعهود مع الدولة العثمانية بسبب الراي العام النصراني، فيضطر الى التراجع ونقض العهود ثم يعود من جديد فيستجدي عطف وتأييد العثمانيين من جديد فيثور عليه الرأي العام والحقيقة التاريخية تقول أنه لا يمكن للصليبيين أعداء الاسلام أن يتخلى بعضهم عن بعض أمام تحديه القوى لهم وإن كانوا مختلفين ظاهرياً تبعاً للمصالح والأهواء.

وإن أعداء الاسلام من الصليبيين الحقادين لا أحلاف ولا مواثيق لهم في تعاملهم مع المسلمين كما يبين لنا الله عز وجل في كتابه الكريم. وحينما تتبين لهم بادرة ضعف عند المسلمين فإنهم سرعان مايقوى ساعدهم كي يجهزوا عليهم وهم في الوقت نفسه

---

(١) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ص٤٧.

(٢) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية ، ص٤٨.

لايسمحون لحاكم منهم مهما كان اتجاهه او وضعه أن يتعاون مع المسلمين وأنه مهما اختلفت المصالح فهم جميعاً يتفقون في محاربة هذا الدين وتقتيل أهله في كل زمان ومكان(١).

لقد كانت تلك الامتيازات التي أعطيت للدولة الفرنسية أول إسفين يدق في نعش الدولة العثمانية ظهرت آثاره البعيدة فيما بعد.

وفي أواخر أيام الدولة العثمانية صارت دول أوروبا النصرانية تتدخل في شؤونها تحت حماية الامتيازات وللدفاع عن نصارى الدولة الذين كانوا يعدون رعايا للدول الأجنبية وخاصة في بلاد الشام(٢).

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون ص٧٥.

(٢) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص٧٧، ٧٨.

المبحث الرابع

الدولة العثمانية وشمال أفريقيا

كان من آثار التهجير الجماعي للمسلمين من الأندلس ونزوح أعداداً كبيرة منهم الى الشمال الأفريقي حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الأفريقي ولما كان من بين المسلمين النازحين الى هذه المناطق أعداداً وفيرة من البحارة، فكان من الضروري أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة الى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط. ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الدافع الديني بسبب الصراع بين الاسلام والنصرانية وإخراج المسلمين من الأندلس ومتابعة الاسبان والبرتغال للمسلمين في الشمال الأفريقي.

وقد ظلت حركات الجهاد الاسلامي ضد الاسبان والبرتغاليين غير منظمة حتى ظهور الأخوان خير الدين وعروج بربروسا واستطاعا تجميع القوات الاسلامية في الجزائر وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد اعداء الاسلام عن التوسع في موانئ ومدن الشمال الافريقي.

وقد اعتمدت هذه القوة الاسلامية الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر في البحر بسبب عدم قدرتها في الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق هؤلاء المجاهدين نجاحاً أثار قلق القوى المعادية، ثم رأو بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين ضد النصارى الحاقدين.

وقد حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك في طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة وكذلك شككوا في أصل أهم قادتها وهما خير الدين وأخوه عروج الأمر الذي يفرض ضرورة إلقاء الضوء على دور الأخوين وأصلهما، وأثر هذه الحركة على الدور الصليبي في البحر المتوسط في زمن السلطان سليم والسلطان سليمان القانوني.

أولاً : أصل الأخوين عروج وخير الدين:

يرجع أصل الأخوين المجاهدين الى الأتراك المسلمين وكان والدهما يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة مدللي إحدى جزر الأرخبيل[1]. وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الأسبان والبرتغاليين[2]. وكان لعروج وخير الدين أخوان مجاهدان هما إسحاق ومحمد إلياس ولقد استند المؤرخون المسلمون الى أصلهم الأسلامي الى الحجج التالية:

١- ماذكره المؤرخ الجزائري (أحمد توفيق مدني(مستنداً على أثرين مازالا موجودين في الجزائر أولهما رخامة منقوشة كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما رخامة كانت على باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية، وقد نقش على الرخامة الأولى: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله (أورج بن يعقوب(بإذنه بتاريخ أربعة وعشرين بعد تسعمائة (١٥١٨م) ونقش على الرخامة الثانية : (إسم (أوروج(بن أبي يوسف يعقوب التركي(). وهناك ثالثة مسجل عليها بعض ماشيده خير الدين في الجزائر سنة[3]

٢- إن اسم (عروج(- (أوروج(مأخوذ من حادثة الاسراء والمعراج التي يرجح أنه ولد ليلتها، وأن الترك ينطقونه (أوروج(ثم عرب الى (عروج([4].

٣- إن ماذكر عن الدور الذي لعبه الأخوان يؤكد حرصهما على الجهاد في سبيل الله ومقاومة أطماع أسبانيا والبرتغال في الممالك الأسلامية في شمالي أفريقيا ولقد أبدع الأخوان

---

(١) انظر: المغرب في بداية العصور الحديثة ، د. صلاح العقاد، ص٣٧.

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص١٦١،١٦٠.

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص١٦١،١٦٠.

(٤) انظر : الدولة العثمانية العلية ، ص٩٥.

في الجهاد البحري ضد النصارى وأصبحت لحركة الجهاد البحري في القرن السادس عشر مراكز مهمة في شرشال ووهران والجزائر ودلي وبجاية وغيرها في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس ، وقد قويت بفعل انضمام المسلمين الفارين من الأندلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدربين على صناعة السفن(١) .

ثانياً: دور الأخوين في الجهاد ضد الغزو النصراني:

اتجه الأخوان عروج وخير الدين الى الجهاد البحري منذ الصغر، ووجها نشاطهما في البداية الى بحر الأرخبيل المحيط بمسقط رأسهما حوالي سنة ١٥١٠م، لكن ضراوة الصراع بين القوى المسيحية في بلاد الأندلس وفي شمالي افريقيا بين المسلمين هناك، والذي اشتد ضراوة في مطلع القرن السادس عشر، قد استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما الى هذه المناطق وبخاصة بعد أن تمكن الاسبان والبرتغاليون من الاستيلاء على العديد من المراكز والموانئ البحرية في شمالي افريقيا(٢) .

وقد حقق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحين الأمر الذي أثار أعجاب القوى الاسلامية الضعيفة في هذه المناطق ، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان (الحفصي(لهم حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية وهو أمر عرضه لهجوم أسباني متواصل اضطره لقبول الحماية الاسبانية بالضغط والقوة، كما يبدو من خلال استنجاد أهالي هذه البلاد بهما، وتأثيرهم داخل بلادهم مما أسهم في وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة ويرى بعض المؤرخين أن دخول (عروج(وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناءً على رغبة السكان، ويستند هؤلاء الى وجود بعض القوى التي ظلت تترقب الفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما، لكن البعض الآخر يرون أن وصول (عروج(وأخيه كان بناءً على استدعاء من سكانها لنجدتهم من الهجوم الأسباني الشرس، وأن القوى البسيطة التي قاومت وجودهما كانت تتمثل في بعض الحكام الذين أبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة في توحيد البلاد حيث كانت قبل

---

(١) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص٨٠-٧٩.

(٢) انظر: الدولة العثمانية ، د.علي حسون ،ص٥٣.

وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف في الأندلس، وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين واشتركت أعداداً كبيرة منهم في هذه الحملات، كما ساندهما العديد من الحكام المحليين الذين شعروا بخطورة الغزو الصليبي الأسباني[(١)].

ويظهر دور الأخوين المجاهدين بمحاولة تحرير بجاية من الحكم الاسباني سنة ١٥١٢م، وقد نقلا -لهذا الغرض- قاعدة عملياتها ضد القوات الأسبانية في ميناء جيجل شرقي الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حماتها الجنوبيين سنة ١٥١٤م لكي تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى ويبدو أن الأخوين قد واجها تحالفاً قوياً نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعودوه لكن أجبروا عليه بفعل الاستقرار في حكم الجزائر، وزاد من حرج الموقف قتل (عروج(في إحدى المعارك سنة ١٥١٨م مما اضطر خير الدين للبحث عن تحالف يعينه على الاستقرار والمقامة ومواصلة الجهاد وكانت الدولة العثمانية هي أقوى القوى المرشحة لهذا التحالف سواء لدورها البارز في ساحة البحر المتوسط أم لأن القوى المحلية في الشمال الأفريقي كانت متعاطفة معها[(٢)].

وتتابع انتصاراتها على الساحة الأوروبية منذ فتح القسطنطينية وأن الاتجاه لمحالفتها سيكسب دور خير الدين مزيداً من التأييد من قبل هذه القوى، والى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أبدت استجابة للمساعدة حين طلب منها الأخوان ذلك، كما أبدت رغبتها في مزيد من المساعدة لدوره وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس، ومن منظور ديني أسهم في إكساب دورها تأييداً جماهيرياً وجعل محاولة التقرب منهما أو التحالف معهما عملاً مرغوبا[(٣)].

ومن جهة أخرى كانت الظروف في الدولة العثمانية على عهد السلطان سليم الأول مهيأة لقبول هذا التحالف وبخاصة بعد أن اتجهت القوات العثمانية الى الشرق العربي،

---

(١) انظر: المغرب في بداية العصور الحديثة، ص ٣٧،٣٨.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٩٠٢/٢).

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية (٩٠٢/٢).

وكان من أبرز أهدافها في هذا الاتجاه -كما سبق التوضيح- هو التصدى لدور البرتغاليين والأسبان وفرسان القديس يوحنا في المنطقة ، وكان من المنطقي التحالف مع أي من القوى المحلية التي تعينها على تحقيق هذه الأهداف[١] .

ثالثاً: التحالف مع العثمانيين:

اختلف علماء التاريخ حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخوين عروج خير الدين ، فتذكر بعض المراجع أن السلطان سليم الأول كان وراء إرسالهم الى الساحل الأفريقي تلبية لطلب المساعدة من سكان الشمال الأفريقي وعملاً على تعطيل أهداف البرتغاليين والأسبان في منطقة البحر المتوسط. وعلى الرغم من عدم تداول هذه الرواية بين المؤرخين إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تدور على ساحة البحر المتوسط[٢] .

ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين الى سنة ١٥١٤م في أعقاب فتح عروج وخير لميناء (جيجل(حيث ارسل الأخوان الى السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التي استوليا عليها بعد فتح المدينة، فقبلها السلطان ورد لهما الهدية بإرسال أربع عشر سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود[٣] وكان هذا الرد من السلطان العثماني يعكس رغبته في استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه. على أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثماني لهذه الحركة كان في أعقاب وفاة (عروج(سنة ١٥١٨م وبعد عودة السلطان العثماني من مصر الى استانبول سنة ١٥١٩م[٤] .

على أن الراي الأكثر ترجيحاً أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقاً لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر، وذلك يرجع الىأن الأخوين كانا في أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلهما في فتح (بجاية(، كما أنهما

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص٨٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٨٣.

(٣) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص٨٤.

(٤) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (٩٠٩/٢).

حوصروا في (جيجيل(بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الاسبان وبين (سالم التومي(حاكم الجزائر الذي ارتكز حكمه على دعم الأسبان له هو الآخر، فضلاً عن قوة الاسبان وفرسان القديس يوحنا التي تحاصرهم في البحر، فكان لوصول الدعم العثماني أثره على دعم دورهما وشروعهما في دخول الجزائر برغم هذه العوامل حيث اتفق العثمانيون مع الأخوين على ضرورة الإسراع بدخولهما قبل القوات الاسبانية لموقعها الممتاز من ناحية ولكي يسبقوا الاسبان إليها، لاتخاذها قاعدة لتخريب الموانئ الاسلامية الواقعة تحت الاحتلال الاسباني كبجاية وغيرها من ناحية اخرى.

وقد تمكن عروج من دخول الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه للاستعانة بالقوات الاسبانية، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر في الجزائر وبويع في نفس السنة التي هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية في الشام سنة ١٥١٦م في موقعة مرج دابق[١].

ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوما بهذه الفتوحات لولا تشجيع السلطان العثماني ودعمه الى جانب دعم شعوب المنطقة وقد سبق أن فشلا من دخول بجاية أمام نفس القوات المعادية[٢].

بعد أن بويع (خير الدين(في الجزائر في أعقاب ماحققه من انتصارات على الأسبان والزعماء المحليين المتحالفيين معهم أصبح محط آمال كثير من الولايات والموانئ التي كانت مازالت خاضعة سواء للأسبان أو لعملائهم ، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان. ومع أن استنجاد الأهالي كان من الممكن أن يكون كافياً لتدخل (خير الدين(إلا أن موقع تلمسان الاستراتيجي الذي كان يجعل وجود (خير الدين(في الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نجدته، وأن مطالبهم قد دعته للتعجيل بذلك[٣].

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص١٧٤، ١٧٥.

(٢) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص٥٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٨٦.

وأعد (خير الدين(جيشاً كبيراً زحف به الى تلمسان سنة ١٥١٧م، وأمن الطريق إليها. وبعد أن نجح في السيطرة عليها تمكن الاسبان ، وعملاؤهم من بني حمود، من استعادتها ولقي أحد إخوة (خير الدين(حتفه وهو (اسحاق(، كما قتل (عروج(وكثيرون من رجاله أثناء حصارهم للمدينة ذلك الحصار الذي أمتد لستة أشهر أو يزيد أمتد حتى سنة ١٥١٨م.

وقد تركت هذه الأحداث أثراً بالغاً في نفس خير الدين مما دفعه الى التفكير في ترك الجزائر لولا أن أهلها ألحو عليه بالبقاء. وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه ضرورة بذلك المزيد من الجهد خشية أن يهاجمه الاسبان ومؤيديهم، كما أن ذلك قد أدى الى أتجاهه الى مزيد من الارتباط بالدولة العثمانية، وبخاصة بعد أن والت لها مصر والشام، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين الى مزيد من الارتباط بالآخر[1] .

رابعاً: سكان مدينة الجزائر يرسلون رسالة استغاثة للسلطان سليم الأول:

قام الأستاذ الدكتور عبدالجليل التميمي بترجمة وثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية باستنبول -طوب قابي سيراى- تحت رقم ٤٦٥٦، وهذه الوثيقة عبارة عن رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر على اختلاف مستوياتهم ومؤرخة في أوائل شهر ذي القعدة عام ٩٢٥هـ، في الفترة من ٢٦من شهر اكتوبر (تشرين الأول) الى ٣ من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٥١٩م، وكتبت بأمر من خير الدين الى السلطان سليم بعد عودته من مصر والشام الى استانبول وكان الغرض من تلك الرسالة ربط الجزائر بالدولة العثمانية. وجاء في الرسالة أن خير الدين كان شديد الرغبة في ان يذهب بنفسه الى استانبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصياً ابعاد قضية الجزائر. ولكن زعماء مدينة الجزائر توسلوا إليه أن يبقى فيها كي يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحركوا. وطلبوا منه أن يرسل سفارة تقوم بالنيابة عنه وكانت الرسالة التي حملتها البعثة موجهة باسم القضاة والخطباء والفقهاء والأئمة والتجار والأعيان وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة، وهي تفيض بالولاء العميق للدولة العثمانية وكان الذي يتزعم السفارة (الفقيه العالم الاستاذ أبو العباس

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص٨٦.

احمد بن قاضي) وكان من أكبر علماء الجزائر ، كما كان قائداً عسكرياً وزعيماً سياسياً وكان بمقدوره أن يصور أوضاع بلاده والأخطار التي تحيط بها من كل جانب.

لقد أشاد الوفد بجهاد بابا عروج في مدافعة الكفار وكيف كان ناصراً للدين وحامياً للمسلمين وتكلموا عن جهاده حتى وقع شهيداً في حصار الاسبانيين لمدينة تلمسان وكيف خلفه أخوه (المجاهد في سبيل الله أبو التقى خير الدين. وكان له خير خلف فقد دافع عنا ، ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوي الشريف، وهو ينظر الى مقامكم العالي بالتعظيم والإجلال، ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وأعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهراً إجلالها وتعظيمها. على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية. وأهالي أقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالتكم مايجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام)[1].

إن الرسالة السابقة تبين للباحث آراء الجزائريين تجاه الدولة العثمانية وكان من تلك الآراء:

- أن خير الدين يمثل الحاكم المسلم الأمثل في شمال افريقية، فهو يحترم وينفذ مبادئ الشريعة الاسلامية ويتخذ من العدل شرعة ومنهاجاً له في الحكم .

- أن نشاطه يتركز في قيادة عمليات الجهاد ضد النصارى.

- أنه يكن للدولة العثمانية وسلطانها كل تقدير واحترام.

- تدل الرسالة على تماسك الجبهة الداخلية ووضوح الهدف أمام مسلمي الجزائر[2].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (٢/٩١٠).

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/٩١١).

خامساً: استجابة السلطان سليم الأول لأهل الجزائر:

سارع السلطان سليم الى منح رتبة بكلر بك الى خير الدين بربروس وأصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة في اقليمه ممثلاً للسلطان وبذلك أصبحت الجزائر تحت حكم الدولة العثمانية وأصبح أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية، إذ أرسل الى الجزائر قوة من سلاح المدفعية، وألفين من الجنود الانكشارية ومنذ ذلك الوقت (١٥١٩م) بدأ الانكشاريون يظهرون في الحياة السياسية والعسكرية في الأقاليم العثمانية في شمال افريقيا وأصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً في سير الأحداث بعد أن كثر إرسالهم الى تلك الأقاليم، وأذن السلطان سليم لمن يشاء من رعاياه المسلمين في السفر الى الجزائر والانخراط في صفوف المجاهدين وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون الى الجزائر الامتيازات المقررة للفيالق الإنكشارية تشجيعاً لهم على الانضمام الى كتائب المجاهدين ولقد هاجر سكان الأناضول الى الجزائر شوقاً الى عمليات الجهاد ضد النصارى ولقد ترتب على القرارات التي اصدرها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة كان من بينها:

١- دخول الجزائر رسمياً تحت السيادة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩م ودعي للسلطان سليم على المنابر في المساجد وضربت العملة باسمه.

٢- إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلد.

٣- إن إقليم الجزائر كان أول أقليم من أقاليم شمال أفريقيا يدخل تحت السيادة العثمانية، وأصبحت الجزائر ركيزة لحركة جهاد الدولة العثمانية في البحر المتوسط(١) وكانت حريصة على امتداد نفوذها بعد ذلك الى كل اقاليم الشمال الأفريقي لتوحيده تحت راية الاسلام والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الاسبان النصارى.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (٩١٢/٢).

لقد كان زمن السلطان سليم البداية المتواضعة لمد النفوذ العثماني الى أقاليم شمال أفريقية من أجل حماية الاسلام والمسلمين وواصل ابنه سليمان ذلك المشروع الجهادي.

لقد استجاب السلطان العثماني سليم لنداء الجهاد من أخوة الدين وشرعت الدولة العثمانية في انشاء أسطول ثابت لهم في شواطئ شمال أفريقيا والذي ارتبط منذ البداية باسم الأخوين عروج وخير الدين بربروسة[١].

سادساً: التحديات التي أمام خير الدين:

كان أمام خير الدين بربروس في وضعه السياسي والعسكري الجديد أن يحارب على جبهتين:

١- الجبهة الاسبانية لطرد الاسبانيين من الجيوب التي أقاموها فضم إليه عنابة وقالة في شرقي الجزائر وحقق انتصاراً باهراً على الإسبانيين حين استولى عام ١٥٢٩م على حض بينون الاسباني على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر وقد كان قد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل وأسر قائد الحصن مع كبار ضباطه.

إن استيلاء خير الدين على البينون سنة ١٥٢٩م يعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر ومنذ ذلك التاريخ أصبح ميناء الجزائر عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل ولكل شمال افريقية العثمانية فيما بعد. وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر.

٢ الجبهة الداخلية وكانت تتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط التي لم تخلوا من مؤامرات بني زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة ولكنه استطاع مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية ودخلت الامارات الصغيرة تحت السيادة العثمانية لكي تحتمي بهذه القوة من الأطماع الصليبية الاسبانية ومن قهرها على اعتناق النصرانية

---

(١) انظر: المشرق العربي والمغرب العربي ، د. عبدالعزيز قائد، ص٩٧.

ومالبث أن مد خير الدين النفوذ العثماني الى بعض المدن الداخلية الهامة مثل القسطنطينية[1].

لقد نجح خير الدين في وضع دعامات قوية لدولة فتية في الجزائر وكانت المساعدات العثمانية تصله بإستمرار من السلطان سليمان القانوني واستطاع خير الدين أن يوجه ضرباته القوية للسواحل الاسبانية وكانت جهوده مثمرة في انقاذ آلاف المسلمين من اسبانيا فقد قام عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م بتوجيه ست وثلاثون سفينة خلال سبع رحلات الى السواحل الاسبانية للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وبفضل الله ثم مساعدات الدولة العثمانية وموارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبي ومغانم وزكاة والعشر والجزية والفيء والخراج ومايقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد وغيرها أصبحت دولة الجزائر لها قاعدة اقتصادية قوية[2].

لقد تضررت اسبانيا من نجاح خير الدين في الشمال الإفريقي وكانت إسبانيا يتزعمها شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة والتي كانت تضم وقتذاك إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وكانت الدولة الرومانية المقدسة تدافع عن أوربا المسيحية الخطر العثماني نحو شرق ووسط أوربا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين ببليربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي، لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر، بل أرسل مبعوثاً للتجسس في شمال افريقيا سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م وهو الضابط (أوشوا دوسلا) الذي طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس، وحذر من امتداد النفوذ العثماني على تونس، وذكر أن هذا الإستيلاء سيسهل على العثمانيين السيطرة على افريقيا، ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا مايخشاه العالم المسيحي.

كانت سياسة المملكة الحفصية في تونس تسير نحو انحطاط مستمر، كان السلطان

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (٩١٣/٢).

(٢) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، د. نبيل عبدالحي، ص٣١١.

الحفصي الحسن بن محمد قد أساء السيرة في البلاد وقتل عدداً من أخوته، فاضطربت الأحوال في تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصي، وكان أخو الحسن المسمى بالأمير الرشيد قد هرب من أخيه خوفاً من القتل ولجأ عند العرب في البادية، ثم ذهب إلى خير الدين في الجزائر وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه[1] ، فمنحه ذلك خير الدين، الذي كان مركزاً اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التي مزقت الأسرة الحفصية، كما كان لتونس في نظره أهمية استراتيجية كبيرة لاشرافها على المضيق الصقلي بحيث تسمح له السيطرة عليها في تحديد وقطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي بالإضافة إلى رغبة خير الدين في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس[2] .

سابعاً: سفر خير الدين إلى استنبول

عزم السلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد، السفر بسائر جنوده إلى اسبانيا للاستيلاء عليها، وبدا للسلطان سليمان، أنه لابد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالماً بأحوالها فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجومه على تلك النواحي، وما فتحه من بلاد العرب في الشمال الإفريقي وكيف أقر الحكم العثماني فيها، فوجه إليه خطابا يطلبه فيه إلى حضرته ويأمره باستنابة بعض من يأمنه في الجزائر، وأن لم يجد من يصلح لذلك، يبعث إليه السلطان نائباً وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشي، فوصل الجزائر، وأوصل خطاب السلطان إلى خير الدين فقبله ووضعه فوق رأسه ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديواناً عظيماً، وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان البلاد، وقرأ عليهم خطاب السلطان، الذي وجهه إليهم وأعلمهم أنه لايمكنه التخلف عن أمره، وعندما سمع اندريا دوريا زعيم الأسطول النصراني في البحر المتوسط بما عزم السلطان عليه من فتح اسبانيا واستقدام

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس ، د.نبيل عبدالحي ،ص٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه ،ص٣١٥.

خير الدين من الجزائر لذلك، أراد أن يشغل خير الدين من سفره إلى حضرة السلطان[1] ، وأشاع بين الأسرى المسيحيين في الجزائر، عن عزم الحكومة الاسبانية في الهجوم على الجزائر، وتخليصهم من الأسر، ففرح الأسرى الاسبان لذلك الخبر وتمردوا على خير الدين، الذي رأى أن من المصلحة العامة اعدام اولئك الأسرى ليأمن غائلتهم، ثم قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر وزاد من عدد القلاع مظهراً أتم الطاعة للسلطان[2] .

عزم خير الدين على السفر الى استنابول ٩٤٠هـ / ١٥٢٣م، وعين مكانه حسن آغا الطوشي، وكان رجلاً عاقلاً وصالحاً، صاحب علم واسع[3] .

أبحر خير الدين شرقاً في البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعين سفينة وهزم في طريقه فرقة من اسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة[4] ، واستمر خير الدين في رحلته ووصل إلى مدينة بيروازن، وفرح أهالي المدينة لمقدمه وكانوا خائفين من هجوم اندريا دوريا، الذي ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين، ثم واصل خير الدين سفره، ورست مراكبه في قلعة اوارين (انا وارنيه (، فصادف هنالك اسطولاً للسلطان سليمان القانوني وفرحوا بذلك، ثم خرجوا جميعاً حتى وصلوا إلى قرون، ثم كتب خير الدين إلى السلطان يعلمه بوصوله ويستأذنه بالقدوم على حضرته، فوجه إليه السلطان خطاباً يستحثه بالقدوم عليه[5] ، اقلع خير الدين من قرون ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى استانبول ورسا بها ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك، ومثل خير الدين بحضرة السلطان ووقف بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه الجرايات الوافرة، وأنزلهم بقصر من قصوره وفوض إليه النظر في دار الصناعة[6] ، ومنحه لقب قبودان باشا وزير بحرية -

---

(١) انظر: سيرة خير الدين باشا، عبدالقادر عمر، ق٤٨ أ ٤٨ب.

(٢) انظر: حقائق الاخبار عن دول البحار، اسماعيل سر هنك (٣٦١/١).

(٣) انظر: فتوحات خير الدين ، محمد أمين ق٢٧٠، ٢٧٠.

(٤) انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص٣١٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص٣١٦.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٣١٦.

حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام في الجزائر لتحقيق هدف الدولة في استعادة الأندلس.

كان الصدر الأعظم في ذلك الوقت بمدينة حلب، فسمع بقدوم خير الدين على السلطان وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فاشتاق إلى لقاء خير الدين، فوجه خطاباً للسلطان يلتمس منه أن يوجه إليه خير الدين لمقابلته فأرسل السلطان إلى خير الدين مخبراً عن رغبة الصدر الأعظم فأجابه خير الدين بالموافقة، وسافر خير الدين متوجهاً إلى حلب، واحتفل الصدر الأعظم بمقدم خير الدين في حلب وأنزله في بعض القصور المهيبة، وفي اليوم الثاني من وصول خير الدين، وصل مبعوث من قبل السلطان ومعه خلعة وأمر بمقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويلبس الخلعة فنصب الديوان الأعظم والبسوه خلعة الوزارة واحتفل به احتفالاً مهيباً، وأكرم إكراماً عظيماً لما قدمه من خدمات للإسلام والمسلمين في حوض البحر المتوسط.

ثم رجع خير الدين إلى استنبول وأكرمه السلطان سليمان غاية الإكرام وشرع خير الدين في النظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان(١).

وبعد أن تم إعداد الأسطول العثماني الجديد خرج خير الدين بربروسا بأسطوله القوي من الدردنيل متجهاً نحو سواحل ايطاليا الجنوبية، فاستطاع أن يأسر الكثير منها، وأغار على مدنها وسواحلها، ثم اتجه نحو جزيرة صقلية، فاسترجع كورون وليبانتو(٢)، كان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين بربروسا بأهمية تونس وضرورة دخولها في إطار استراتيجية الدولة العثمانية، لتحقيق هدفها نحو استرداد الأندلس، وتأتي أهمية تونس بالنسبة للدولة من حيث موقعها الجغرافي إذ تقع في منتصف الساحل الشمالي لأفريقيا، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، ولقربها من إيطاليا التي تعتبر أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بينما يمثل الجناح الآخر اسبانيا، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس،

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص٣١٧.

(٢) انظر: ليبيا بين الماضي والحاضر، حسن سليمان محمود، ص ١٦٦.

وأشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين ثم الامكانيات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط وهكذا تضافرت تلك العوامل على اضفاء الأهمية العسكرية على تونس[1] .

كانت المرحلة الثانية بالنسبة لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة صقلية هي تونس، وذلك لتنفيذ خطة الدولة، والتي تقتضي تطهير شمال افريقيا من الاسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس، إذ سبق وأن أشار خير الدين بربروسا على السلطان سليمان القانوني في خطابه للسلطان الذي بعثه قبيل استدعاء السلطان له في ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م، إذ قال فيه (.. إن هدفي إذا قدر لي شرف الاشتراك هو طرد الاسبان في أقصر وقت من أفريقيا، ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الاسبان من جديد ليستعيدوا مملكة قرطاجة وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك أنني لا أبغي من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كلا .. لأن هذا لن يحتاج لكل ما تملك من قوات ولاسيما أن حروبك في آسيا أو أفريقيا تعتمد أكثر ما تعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فإن كل ما أطلبه هو جزء من أسطولك وسيكون ذلك كافياً، لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك ايضا .. [2].

وصل الأسطول العثماني تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية فعرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الامدادات، ثم تقدم نحو بنزرت ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منها بدون صعوبة[3] ، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء، وأكرموه وتوجهوا إلى تونس في نفس الوقت وهرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى اسبانيا[4] ، ثم عين خير الدين الرشيد أخو الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٢/٩١٥-٩١٦).

(٢) فتح العثمانيين عدن، محمد عبداللطيف البحراوي ، ص١٢٧.

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٢٣٠.

(٤) انظر: جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص٣١٩.

العثمانية، في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي[1] .

ثامناً: أثر جهاد خير الدين على المغرب الأقصى

استفاد السلطان أحمد الأعرج السعدي من الجهود التي بذلتها الدولة العثمانية والشعب الجزائري بقيادة خير الدين بربروسا، فقام بمحاصرة مدينة آسفي بأزمور وذلك سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجدات التي بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة، وقد بدا وكأن تعاونا قد حصل بين العثمانيين والقوى الإسلامية في المغرب ضد المسيحيين ومراكزهم في الشمال الأفريقي وعندما سمع الملك البرتغالي جان الثالث بوصول الأسطول العثماني في ٣ ربيع الأول ٩٤١هـ/ ١٣ سبتمبر؟ بقيادة خير الدين بربروسا إلى الشمال الأفريقي، فكر في الجلاء عن بعض المراكز مثل سبته وطنجة باعتبارها مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين في غرب البحر المتوسط، ولصد الهجوم العثماني عن شبه الجزيرة الايبرية بعث الملك يوحنا الثالث استفتاء الى جميع الوجهاء والأعيان والأساقفة في بلاده يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوبي المغرب، وكان المطلوب الاجابة على الأسئلة الآتية: هل ينبغي ترك آسفي وأزمور للمغاربة، هل ينبغي الجلاء عنهما أو عن بعضهما؟ وإذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما هل تحول إلى حصون للتقليل من حجم المصروفات؟ ثم ماهي الأضرار الناتجة عن ذلك؟ وكيف نتفاداها؟ .

تلقى الملك البرتغالي أجوبة عديدة بين مؤيد في الابقاء على المناطق الجنوبية في حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت أجوبة رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريباً تضمنت النصح بالتخلي عن المراكز الجنوبية، يحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك إلى المركز الشمالي لصد الخطر العثماني بقيادة خير الدين بربروسا فأسقف ينصح بإخلاء سانتاكروز وأسفي وأزمور لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التي تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبتة

---

(١) انظر: فتح العثمانيين عدن، ص١٢٨.

خوفاً من هجوم خير الدين عليها[1].

إن الوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما أدخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا، والإمبراطور شارل الخامس الذي اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحية، ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته[2]، فوصل التهديد العثماني أقصاه فضلاً عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وافريقيا[3].

تاسعاً: استيلاء شارل الخامس على تونس

كان الموقف ملائماً بالنسبة لاسبانيا وذلك للقيام برد عنيف فقد انشغلت الدولة العثمانية بالحرب مع الشيعة الروافض في بلاد فارس، وطغى على الـ -راع في أوربا ووعد فرنسوا الأول ملك فرنسا شارل الخامس بالحياد . تردد شارل في اختيار المكان الذي سيوجه إليه ضربته في شمال أفريقيا الجزائر أو تونس ولكن استنجاد السلطان الحفصي الحسن بن محمد والرغبة في عزل استانبول دفع شارل الخامس إلى اختيار تونس للهجوم[4] قاد شارل الخامس عملية بحرية شاقة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل اسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي، على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الأمبراطور البحر من ميناء برشلونة وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطرفين[5]، الأمر الذي أعاد السيطرة الاسبانية على تونس في ٩٤٢هـ/١٥٣٥م[6] إذ لم تكن قوة خير الدين بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الاسلامي تعداده سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد فكانت النتيجة الحتمية أن

---

(١) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص٣٢٠.

(٢) رسالة غرناطة الى السلطان سليمان ، عبدالجليل التميمي عدد(٣) تونس

(٣) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص٣٢١.

(٤) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، ص٣٤.

(٥) انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار (٤٢٠/١).

(٦) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص٣٢١.

استولى شارل على معقل حلق الوادي مرسى تونس، تونس[١]، ونصب الاسبان الحسن بن محمد حاكماً عليها، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان الحسن بن محمد سيسلم بونه والمهدية الى شارل الخامس، فاستولى على بونة، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين ، فإن الحسن لم يستطع الوفاء بعهده فاشترط الاسبان عليه أن يكون حليفاً ومساعداً لفرسان القديس يوحنا بطرابلس[٢]، وأن يقوم بمعاداة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي اسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الواد وعاد شارل الخامس الى اسبانيا واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين في الوقت الذي كان فيه السلطان يحارب فيه الدولة الصفوية الشيعية الرافضية لبلاد فارس[٣].

عاشراً: عودة خير الدين إلى الجزائر :

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس، واستقر أول الأمر بمدينة قسطنطينية، ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الاسبان في الجبهات التي يحددها، وكان لزاماً على خير الدين وقد استقر مؤقتا بمدينة الجزائر نظراً لالتزاماته التي تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلامي العثماني أن يشعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها فقام بالهجوم على جزر البليار الاسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الاسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة. فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في ٩٤٢هـ / ١٩٣٥م[٤]، من ناحية أخرى دخلت الدولة العثمانية في تحالف ر سمي مع فرنسا في ٩٤٣هـ/١٥٣٦م، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذي قام به الاسبان على

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص٣٢١.

(٢) انظر: الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، عزيز سامح، ص٣٨.

(٣) انظر: فتح العثمانيين عدن ص١٣٠.

(٤) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص٢٤١،٢٣٦، ٢٢٧، ٢٤٢.

تونس[1] وبدا وكأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد كما صارت أهداف اسبانيا والبرتغال واحدة وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب بالاضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الايبيرية.

الدبلوماسية البرتغالية وتفتيت وحدة الصف في الشمال الأفريقي :

تلقى الملك أحمد الوطاس هزيمة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م من السعديين في موقعة بير عقبة قرب وادي العبيد، بسبب تخلي قبائل الخلوط التي كادت تكون القوة الأمامية للجيش الوطاسي، ونشرت الفوضى في سائر الجيش وأثر هذه الهزيمة تقرب أحمد الوطاسي من البرتغال وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين في حروبهم ضد الاسبان ووقع معهم معاهدة لمدة أحد عشر عاماً[2] تقضي بوضع المغاربة المقيمين في ضواحي أصيلا وطنجة والقصر الصغير تحت السلطة القضائية لملك فاس، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسي المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الأسلحة والبضائع المحظورة وإذا وصلت مراكب عثمانية أو فرنسية أو تابعة لمسيحيين من غير الاسبان و/ البرتغاليين إلى أراضي برتغالية، محملة بغنائم أخذت من المغاربة فلن يشتري منها شيء، وكذلك الحال بالنسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانيين ويتم الاستيلاء على الغنائم وترد من طرف لآخر مالم يسمح قوات العدو في مهاجمتها[3].

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين، فبعثوا وفداً إلى مراكش للتفاوض مع المولى أحمد الأعرج الذي استجاب لذلك، لأنه كان في حاجة إلى تنظيم أمور دولته الناشئة سيما بعد الانتصارات التي حققها ضد خصومه الوطاسيين في موقعة بير عقبة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م، واتفق البرتغاليون مع السعديين لعقد هدنة بينهما في ٢٥ ذي القعدة

(١) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص٣٢٢.

(٢) انظر: جهود العثمانيين لإسترداد الأندلس، ص٣٢٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٢٣.

٩٤٤هـ/ ٢٥ابريل ١٥٣٧م لمدة ثلاث سنوات، مع إقامة تبادل تجاري بين رعايا الطرفين[١]

كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون قيام تعاون حقيقي بين العثمانيين من ناحية والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى، لأن أي تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الايبرية في المغرب، والأهم من ذلك خوف اسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الايبرية، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس[٢].

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٢٤.

المبحث الخامس

المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي

اشتغل خير الدين بربروسا بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل في الأسطول العثماني وبدأ نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بينما استمر حسن آغا الطوشي في منصبه المستخلف عليه نائب البيلر بك يعمل على قهر القرصنة الأوربية فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار شخصه في الجزائر مثالاً بارزاً في البطولة والتضحية الإسلامية في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام في الشمال الإفريقي فاكتسب الجزائر مهابة وجلالاً وجعلت الأمم المسيحية تهرع على عاهلها الأكبر الإمبراطور شارل الخامس مستنجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه، ومن بينها البابا بول الثالث، وقد حاول شارل الخامس ٩٤٦هـ/١٥٣٩م عقد هدنة مع خير الدين إلا انه خاب أمله[١] ، مثل ما خاب في محاولته السابقة عندما عرض على خير الدين سراً الاعتراف به حاكماً لشمال افريقيا مقابل جزية بسيطة، إذ كان شارل الخامس يأمل في قيام تحالف اسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني ويعمل على فصل شمال افريقيا عن استنبول على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال افريقيا إبداء مقاومة قوية يكون من السهل سقوطها[٢].

انهمك حسن آغا الطوشي في توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية[٣] ، فأخضع مدينة مستغانم لدولته ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصناً وأقام به حامية.

ركب الجيش العثماني في شهر جمادي الأول ٩٤٩هـ/ سبتمبر ١٥٣٩م البحر، وكان قوامه ١٣٠٠ رجل ، على ظهر ثلاث عشرة سفينة واندفعوا عنها من الاسبان نزل حسن آغا

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر العام، عبدالرحمن الجيلالي (٢/٦٣،٦٢).

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص٣٥.

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٢٧٩.

وجيشه إلى البر فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على مافيها من خيرات وأرزاق وغنائم للمسلمين وتوغل في جهات الساحل الاسباني الجنوبي، وغنم ماوقع تحت يده من أموال ومتاع الاسبان ويختار من بينهم جماعات من الأسرى والسبايا يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية خاصة تطوان ثم يعود للميدان وعندما أراد الرجوع إلى الجزائر اعترضت طريقه عمارة اسبانية كبيرة العدد، وقامت المعركة بين القوتين وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ومع ذلك كانت خسائر الاسبان في هذه المعركة عظيمة[1].

عزم شارل الخامس على القيام بحملة عسكرية تستهدف القضاء على حركة الجهاد الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط وقبل أن يشرع في تنفيذها كان هدوءاً نسبياً يسود القارة الأوربية إثر عقد هدنة نيس في محرم ٩٤٥هـ/ يونيو ١٥٣٨م مع فرنسا والتي كانت مدتها عشر سنوات[2] رسا شارل الخامس أمام مدينة الجزائر في يوم الثامن والعشرون من شهر جمادي الأخيرة سنة ٩٤٨هـ الموافق الخامس عشر من شهر اكتوبر ١٥٤١م وعندما شاهده حسن آغا الطوشي، اجتمع في ديوانه مع أعيان الجزائر وكبار رجال الدولة، وحثهم على الجهاد والدفاع عن الإسلام والوطن قائلاً لهم (.. لقد وصل العدو عليكم ليسبي أبناءكم وبناتكم، فاستشهدوا في سبيل الدين الحنيف.. هذه الأراضي فتحت بقوة السيف ويجب الحفاظ عليها، وبعون الله النصر حليفنا، نحن أهل الحق.. (، فدعا له المسلمون وأيدوه في جهاد العدو، ثم بدأ حسن آغا في إعداد جيوشه والاستعداد للمعركة[3].

من ناحية أخرى بدأ الاسبان في تحضير متاريسهم وتعجب شارل الخامس لاستعدادات حسن آغا وأراد أن يستهزئ به، فأمر كاتبه باعداد خطاب لحسن آغا جاء فيه (.. أنت تعرفني أنا سلطان . كل ملة المسيحيين تحت يدي إذا رغبت في مقابلتي سلمني القلعة مباشرة. انقذ نفسك من يدي وإلا أمرت بإنزال أحجار القلعة في البحار، ثم لا أبقي

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٨٠.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير ، ص٣٦.

(٣) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٢٦.

عليك ولاسيدك ولا ،ذتراك، وأخرب كل البلاد..) وصل ذلك الخطاب إلى حسن آغا وأجاب عليه (..أنا خادم السلطان سليمان .. تعالى واستلم القلعة ولكن لهذه البلاد عادة، أنه إذا جاءها العدو، لايعطي إلا الموت)[1] ، وفي رواية : (غزت اسبانيا الجزائر في عهد عروج مرة، وفي عهد خير الدين مرة، ولم تحصل على طائل، بل انتهبت أموالها وفنيت جنودها، وستحصل المرة الثالثة كذلك إن شاء الله)[2].

وفي الليلة ذاتها، وصل إلى معسكر شارلكان رسول من قبل والي الجزائر يطلب إذناً للسماح بحرية المرور لمن أراد من أهل الجزائر وخاصة نساءها وأطفالها مغادرة المدينة عبر (باب الواد) وعرف (شارلكان) أن حامية الجزائر مصممة على الدفاع المستميت، وأنه من المحال احتلال الجزائر إلا إذا تم تدميرها تدميراً تاماً. ولم يكن الإمبراطور قد أنزل مدفعية الحصار حتى تلك الساعة، فلم يتمكن بذلك من قصف الجزائر بالمدفعية، وفي الوقت نفسه كان المجاهدون يوجهون ضرباتهم الموجعة إلى القوات الاسبانية، في كل مكان، حتى قال أحد فرسان مالطة في تقريره عن المعركة: (لقد أذهلتنا هذه الطريقة في الحرب، لأننا لم نكن نعرفها من قبل)[3]. وكانت أعداد المجاهدين تتعاظم باستمرار بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان بمجرد سماعهم بإنزال القوات الاسبانية وكان المجاهدون يستفيدون في توجيههم لضرباتهم من معرفتهم الدقيقة بالأرض واستخدامهم لميزاتها بشكل رائع وسخر الله لجنود الإسلام الأمطار والرياح والأمواج (وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام واقتلعت خيام جنود الحملة وارتطمت السفن بعضها ببعض مما أدى إلى غرق كثير منها وقذفت الأمواج الصاخبة ببعض السفن إلى الشاطئ وهجم عليها المدافعون المسلمون واستولوا على أدواتها وذخائرها، أما الأمطار فقد أفسدت مفعول البارود. وفي وسط هذه الكوارث حاول الإمبراطور مهاجمة مدينة الجزائر، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل .)[4] وظهرت بطولات رائعة من القائد (الحاج البشير) الذي استطاع بجنوده أن يحصد رؤوس

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٢٦.

(٢) انظر: خير الدين بربروس ، بسام العسلي ، ص١٠٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٥٣.

(٤) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (٢/٩١٩).

النصارى بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، وبطولة رائعة لقد استطاعت القيادة العسكرية الجزائرية أن تستفيد من الوضع المحيط بالنصارى، ووجهت جنودها بطريقة متميزة في الكر والفر أفنت جزءاً كبيراً من الأعداء واضطر الإمبراطور إلى الانسحاب مع بقية جنوده على ما تبقى لهم من سفن واتجه بأسطوله إلى إيطاليا بدلاً من اسبانيا وكان من العوامل التي ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بالإمبراطور، القيادة الرشيدة والتفاف الشعب الجزائري حولها وتدفق رجال القبائل إلى ساحة الوغى طلباً للشهادة في سبيل الله، ودفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم فقالوا في رسالة وجهوها إلى السلطان سليمان إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده (بعقاب أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريحاً عاصفاً وموجاً قاصفاً، فجعلهم بسواحل البحر مابين أسير وقتيل، ولانجا منهم من الغرق إلا قليل)[1].

لقد قام سكان الجزائر - سواء أهل الأقليم الأصليين أو مسلمي الأندلس الذين فروا بدينهم إلى الجزائر - بعثوا برسالة في الشهر التالي لهزيمة شارل الخامس إلى السلطان سليمان وقد أوضحت هذه الرسالة الأحوال المؤلمة والمفجعة التي تحيط بالمسلمين الذين احتفظوا بدينهم في إسبانيا بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامي في الأندلس وتعرضهم لاضطهاد السلطات المسيحية ولمحاكمات ديوان التحقيق - محاكم التفتيش وإحراقهم، وأشادت الرسالة بالخدمات الجليلة التي أداها للإسلام خير الدين باشا (المجاهد في سبيل الله، وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين (. ومضت الرسالة تقول إن أهل الأندلس قد سبق لهم أن استغاثوا به فأغاثهم (وكان سبباً في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلى أرض الإسلام (وأصبحوا من رعايا الدولة العثمانية المخلصين. وحددت الرسالة مطلبين أساسيين:

١- إرسال نجدات عسكرية (لنصرة الجزائر، لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان، وهي موسومة باسمكم الشريف، وتحت إيالة مقامكم المنيف،

---

(١) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٢/٩٢٠).

وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة ([1]).

٢- إعادة خير الدين باشا إلى منصبه السابق بكلر بك الجزائر - (فهو المتمثل لأوامر مولانا، لأنه أحيا هذا الوطن، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار، .. وإنه لهذا الوطن نعم ناصر، وجميع أهل الشرك منه خائف وحائر ([2]).

وصل خير الدين بربروسا إلى مدينة الجزائر للاسهام في الدفاع عنها توفيق الله للمسلمين وسواعدهم قد قضت على أسطول الاسبان فاكتفى بتفقد أمور البليربكية واطلع على سير الأمور فيها، ثم انطلق بأسطوله نحو البلاد الاسبانية يذيقها العذاب الأليم، وأنعم السلطان سليمان على حسن آغا الطوشي برتبة الباشوية، لدوره الفعال في النصر وخلى البحر المتوسط تقريباً من الأساطيل الأسبانية التي كانت تضمد جراحها وتحاول استرجاع قوتها، فانطلقت السفن العثمانية نحو السواحل الاسبانية والايطالية وتوالت هنالك الغزوات وساد الرعب والفزع تلك النواحي التي بقيت مفتوحة في وجه العثمانيين يتوغلون داخلها ويغنمون مافيها[3]، كما صارت الدولة الأوربية تعمل للعثمانيين حساباً، فاهتز بذلك مركز الاسبان في وهران وغيرها من مناطق نفوذهم في الشمال الافريقي[4]، وحقق السعديون على صعيد آخر نصراً كبيراً على البرتغاليين وفتحوا حصن سانتاكروز، وما أن علم الملك البرتغالي جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفي وأزمور بالجلاء فوراً عنها، وقد وجه الملك جان الثالث في هذا الشأن إلى سفيره بمدريد رسالة مؤرخة في الثاني والعشرين رمضان ٩٤٨هـ/ ديسمبر سنة ١٥٤١م، يطلع فيها الامبراطور الاسباني شارل الخامس، حيث جاء فيها ذكر للاسباب التي اجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتي لاسفي وأزمور فبالاضافة إلى موقعها الحرج هناك تزايد قوات السعديين بفضل المساعدات العثمانية، حيث صار الحاكم السعدي يملك المدفعية العثمانية، والآلات الحربية،

---

(١) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٩٢١/٢).

(٢) المصدر السابق نفسه (٩٢١/٢).

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٢١٣.

(٤) انظر: المغرب العربي الكبير، شوقي عطا الله الجمل، ص٩.

وعلى جنود مدربين وظهرت تلك الإمدادات عند حصار سانتاكروز، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمراً شاقاً وصعباً، ثم أن الجلاء عن أسفي وازمور ليس معناه التخلي عن المغرب، فقد أعطيت الأوامر لتحصين مازكان لسهولة استغلال مينائها طوال أيام السنة[1]، يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية في تقديم المساعدة للقوى الإسلامية في المغرب ضد المسيحيين المتواجدين فيها وذلك لأن الدولة ترغب في تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم، فرغبت الدولة هنا في مساعدة السعديين لينهوا التواجد البرتغالي في المراكز الجنوبية من المغرب، ثم ليعبروا للأندلس، لأن المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور[2].

مصير شارلكان :

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) في حملته على الجزائر، ذا أثر عميق لا على الإمبراطورية الاسبانية، ولا على ملكها شارلكان، وإنما على مستوى الأحداث العالمية. وقد حفظ الشعر العربي هذا الحدث الذي قيل فيه:

سلوا شرلكان كم رأى من جنودنا	فليس له إلا همُ من زواجر
فجهز اسطولاً وجيشاً عرمرماً	ولكنه قد آب أوبة خاسر

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث هناك هنالك بسرعة. فلم يبقى حليف للإمبراطور سوى هنري الثالث ملك إنكلترا، وانضم إلى ملك فرنسا الدوق (دي كليف) وملك الدانمارك وملك اسكنديناڤيا. وكان فرح الفرنسيين عظيماً لأن سقوط الجزائر كان يؤدي لامحالة إلى سقوط فرنسا، وبادر ملكها فرنسوا الأول لإبرام معاهدات مع السلطان العثماني وكان لهذه الغارة أيضاً نتائج معنوية داخل الشمال الأفريقي وأما في أوربا (بقى رعب المسلمين في قلوب أهل أوربا لمدة طويلة). ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى أصبح الناس إذا رأوا جفناً عن بعد نسبوه إلى خير الدين،

---

(١) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٢٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٢٨.

فيتصاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهم ومن حقولهم ومتاجرهم. وإذا حطمت الزوابع مركباً توهم الناس أن خير الدين بربروسة هو الذي أثار البحر وهيجه وأغراه على اغراق سفنهم. وبلغ الخوف من قادة الجزائر أقصى درجة حتى أصبح أهل اسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالوا خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك[1] - وكانوا في نحيبهم يقولون:

بربروشة	بربروشة
أنت صاحب	كل شر
ما كان من	ألم أو عمل
مؤذ وجهنمي	مدمر
إلا والسبب	فيه
هذا القرصان	الذي
لانظير له في	العالم[2]

وفاة حسن آغا الطوشي :

استمر حسن آغا في القيام بواجبه المقدس حتى وفاته ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م فأجمع أهل الديوان في الجزائر على تولية الحاج بكير مكانه، وريثما يعين الباب العالي باستانبول الحاكم الجديد، الذي عين حسن ابن خير الدين وقدم في نفس السنة[3].

---

(١) انظر: خير الدين بربروس ، ص٢٠٠.

(٢) مجلة تاريخ وحضارة المغرب في كلية الآداب في الجزائر ١٩٦٩م العدد٦ ص٥٩٣٤.

(٣) انظر: تاريخ عام الجزائر، عبدالرحمن الجيلالي (٣/٨٤).

المبحث السادس

المجاهد حسن خير الدين بربروسة

شرع حسن بن خير الدين حال وصوله، ليستعد للجهاد ومواجهة المسيحيين، فعمل على تحصين مدينة الجزائر، وذلك في المناطق التي أظهر هجوم شارل الخامس عن ضعفها، كما أخذ يعمل على توطيد النظام في الجزائر وبين صفوف الجيش، ثم انصرف إلى حل مشكلة تلمسان، إذ تبين له أن بقاء الأسرة الزيانية ووجود الاسبان في وهران يعيقان حل المشكلة[1].

كان حاكم تلمسان (أبو زيان) أحمد الثاني قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين، غير أنه مالبث أن خضع لمؤامرات خارجية وانساق في تيارها وأخذ يتقرب من الاسبان، مما أدى إلى كره الأهالي له وقرروا خلعه عن العرش ومبايعة أحد أخوته (الحسن) فتوجه أبو زيان إلى وهران طالباً للدعم من الاسبان، مقدماً لهم التعهدات بأن يحفظ على ولائه لهم، فقرر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة، فجهز جيشاً، وانضم اليه جموع الخاضعين للاسبان من بني عامر وفليتة وبني راشد وعلى رأسهم القائد المنصور من بو غنام، وتقدموا إلى تلمسان لابعاد الحسن، واعادة تنصيب أبو زيان على عرش المدينة، وما أن علم حسن بن خير الدين بتحرك القوة الاسبانية، حتى قاد الجيش الإسلامي في تلمسان ليمنع الاسبان من الوصول إلى هدفهم، وتمكن حسن بن خير الدين من ذلك، ودعم حليفه الملك حسن في تلمسان[2]، الذي اعترف بسلطة الدولة العثمانية كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية بقيادة القائد محمد في قلعة المشوار في تلمسان، إلا أنه مع ذلك ظل نفوذ الدولة العثمانية مهتزاً خارج تلمسان، بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بوغنام، الذي يرغب في مساندة زوج ابنته الأمير مولاي أحمد، حليف الاسبان[3]. قامت الدولة العثمانية بدعم السلطان الشريف السعدي بنحو عشرين الف

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر الحديث لمحمد فارس، ص٣٩،٣٨.

(٢) انظر: الجزائر والحملات الصليبية، ص٢١-٢٢.

(٣) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٢٩.

مجاهد، فالتفوا حوله، ودفعوه إلى بناء مراكب حربية للإستيلاء على اسبانيا، فوافق الشريف السعدي على ذلك وصرف لهم أجورهم ومكافآت لهم[1].

واستطاع الشريف السعدي أن ينهي الحكم الوطاسي وأصبح الأسبان متخوفين من هجوم عثماني سعدي مشترك، فقاموا بإنهاء استحكامات مليلة، وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق وقادش وغير ذلك من الاحتياطات.

لقد ظهر السعديون أول الأمر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحي فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين، إذ اعتبروا ذلك نوعاً من الجهاد فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة لتحقيق ذلك، ثم عرضت على السعديين مشروع استرداد الأندلس، إلا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدي وانتهاء الحكم الوطاسي، توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسان، فأرسل جيوشاً كبيرة لإنهاء الحكم العثماني فيها، وعندما شعر العثمانيون بتلك الأطماع وانحراف الشريف السعدي عن الهدف الإسلامي أرسلت له حملات ليعود إلى بلاده[2].

استمر المجاهدون في شمال افريقيا يهددون أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أزعجت التجارة والسفن المحملة بين اسبانيا وايطاليا وغض المجاهدون من أهالي الشمال الأفريقي الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الأفريقي، وبذلك اضطرت السفن المسيحية أن تطرق الطرق الأكثر أماناً بالقرب من رأسي كورسيكا ولكن الاحتلال الفرنسي للرأس بمساعدة العثمانيين هددوا أيضاً الاتصالات بين اسبانيا وايطاليا، ولم تكن هناك مهلة لشارل الخامس في الدفاع عن الطرق البحرية ضد القسطنطينية التي كانت حلمه منذ سنوات طفولته، كما أنه صار غير قادر على تقديم مصالح مباشرة لاسبانيا[3].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٣٠.

(٢) انظر: جهود العثمانيين، ص٣٣٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٥٦.

أولاً: أخر أيام خير الدين بربوسة:

استمر خير الدين في قيادة الأسطول العثماني وحقق انتصارات رائعة هزت أوروبا كلها وبعد أن تحالفت الدولة العثمانية مع فرنسا جعل خير الدين من مدينة (مارسيليا) قاعدة لقيادته ومقراً لاسطوله وهناك -في مارسيليا باع خير الدين ورجال اسطوله الغنائم التي حملوها معهم من اسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الاسبان من الرجال والنساء. فتداولتهم أيدي القوم، واشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة، ثم اخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة الى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الارقاء الى الامبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وأنضم الاسطول الفرنسي الى الاسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الاسطول الفرنسي (الأمير فرانسوا دبو بوربون) قواته تحت قيادة (خيرالدين) باعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية-الفرنسية) وكان أول عمل قام به (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرد حاكمها (دوق سافوا) وانتزاعها من الحكم الاسباني وإعادتها لملك فرنسا. ثم استقر خير الدين باسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الاسلامي والاسطول الاسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا وتركوها في ايدي المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الأفرنسي، وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها الاسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها الى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم : (ان خير الدين قد اقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع في طولون إلا أذان المؤذنيين) وبقي خير الدين والجند الاسلامي بمدينة طولون حتى سنة ١٥٤٤م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا وانهزم تحت جدران (شاتوتييري)[(١)] ثم اضطر للذهاب الى المانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد اخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر -الى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم ١٨ أيلول (سبتمبر) ١٥٤٤م في مدينة (كريسبي دي فالوا). ونتج عن هذه المعاهدة جلاء (خير الدين) وقواته عن مدينة (طولون) ورجع الى العاصمة (استانبول). وبما أن

---

(١) انظر: خير الدين بربروس للعسلي، ص١٦٦.

الحرب لم تتوقف بين اسبانيا والمسلمين، فقد استمر (خير الدين) في ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف أمام مدينة جنوة، وارتاع مجلس شيوخها فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع (خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (البا) التي كانت تحت حكم اسبانيا والتي أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد. فاحتلها، وغنم مابها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، من بينها مدينة (لبياري) ورجع الى العاصمة بسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ماتستقبل به الأم أبناءها البررة.

ولم يعمر خير الدين بعد ذلك طويلاً، ومضى الى جوار ربه ، وكان قد سبقه رفيق جهاده حسن باشا الطوشي سنة ١٥٤٤م.

وغاب بوفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر ، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة.

لقد قاد خير الدين حروب الإيمان وحقق فوزاً عظيماً واتصف بالوفاء والاخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها ويحفظ لنا التاريخ رده على شارلكان عندما قال له (يجب ألا تنسى أن الاسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويه الياس وعروج، وان تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فإن عاقبته ستكون كعاقبة أخويه). فأجاب خير الدين: (سترى غداً، وإن غداً ليس ببعيد، أن جنودك ستتطاير أشلاؤهم وإن مراكبك ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة). وعندما حاصر شارلكان الجزائر بعد وفاة عروج بربروسة خرج له خيرالدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى: {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم : (إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق ، لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الاسلام)[1].

---

(١) انظر: خير الدين بربروسه ، ص١٧٠،١٧١.

فصاحوا كلهم (الله أكبر) وهاجموا الاسبان فأبادوهم عن آخرهم)[1].

إن هذه الصورة لا تختلف أبداً، لا في شكلها ولا في مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين في سبيل الله، والذين خرجوا من جزيرتهم فحملوا الى الدنيا رسالة الاسلام. غير أن الموقف العام لم يكن في عهد (خير الدين) مشابهاً لما كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضعف طريقه الى قلوب المسلمين وانظمتهم فقد كانوا من قبل تحت قيادة واحدة لاتسمح لأعداء الداخل بالظهور أو بممارسة دروهم في التأثير على التيار العام. في حين أصبح لهؤلاء دورهم في توجيه الأحداث وكان أخطر ما في الأمر أن هؤلاء كانوا يحتلون مراكزاً قيادية تسمح لهم بممارسة دور خطير ضد مواطنيهم وإخوانهم في الدين.

لقد كان من المحال تحقيق النجاح في مثل هذه العمليات لو لم تتوافر كفاءة قيادية عالية، تتولى إدارة المعركة في كل مرحلة من مراحلها الصعبة.

وقد توافرت العوامل الثلاثة للنصر: شعب مجاهد في سبيل الله، وتطبيق رائع للعقيدة القتالية الاسلامية وقيادة على درجة عالية من الكفاءة.

بذلك انتصر (شعب الجزائر) وبذلك انتصر خيرالدين، فكتب شعب الجزائر مع خير الدين تحت سيادة الدولة العثمانية قصته الرائعة في الجهاد والمجاهدين.

ولم يكن (خير الدين) قادراً على تحقيق مايريده لولا ما قام به شعب الجزائر المجاهد، وما كان شعب الجزائر ليصل الى هدفه لولا توافر قيادة حازمة مارس (خير الدين) دوره في تكوينها ووضعها لتصبح على مستوى الأحداث.

لقد مضى خيرالدين الى جوار ربه راضياً مرضياً، وبقي وبقيت الأمة الأسلامية تردد على مدى الدهر تلك المواقف البطولية التي صنعتها العقيدة ومبادئ الجهاد وقيمه في سبيل الله[2].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٧٦.

(٢) انظر: خير الدين بربروسة للعسلي، ص١٧٦.

ثانياً: عزل حسن بن خير الدين عن الجزائر:

كان حسن بن خير الدين بربروسا بعد أن هزم السعديين في تلمسان ووطد دعائم الحكم العثماني فيها ٩٥٩هـ/١١٥١م، انتهج سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية ، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصادية التي منحت لها مع استانبول والتي شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية، غير أن حسن ابن خير الدين لم يلتزم بذلك ، وأعلن عداءه لفرنسا في مناسبات عديدة فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد في استانبول الى الجزائر يهدف معرفة المدى الذي سيصل إليه حسن بن خير الدين في عدائه لفرنسا ، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية مابين فرنسا وبيلربكة الجزائر.

اجتمع سفير فرنسا بالبيلربك حسن بن خير الدين ، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية ، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية في مهاجمة اسبانيا ، ونجدة مسلمي الأندلس ، لكن حسن رفض هذا العرض، لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة من الدولة العثمانية نفسها، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين ، وبين بأنه لاينتصر بكافر على كافر ورجع السفير الفرنسي الى استانبول ، حتى أوغر صدر الباب العالي بقوله: (ان السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام)(١) خاصة وأن والدته من الاسر الجزائرية المعروفة.

رأت الدولة العثمانية انه لزاما عليها من تغيير سياستها في المنطقة خاصة بعد أن صار المغرب حليفاً قوياً للاسبان، مما أدى الى قلب الموازين الاستراتيجية رأساً على عقب فأتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانوني بيلر بك الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الاساءة الى حسن الجوار مع المغرب، كما دعا الى الوحدة الاسلامية والى حسن الجوار(٢).

---

(١) انظر: الجزائر والحملات الصليبية للعسيلي، ص٣٠-٣٢.

(٢) انظر: بداية الحكم المغربي للسودان الغربي لمحمد الغربي ، ص٩٠-٩١.

اسندت الدولة العثمانية بيلربيكيه الجزائر الى صالح رايس في صفر ٩٦٠هـ/يناير ١٥٥٢م، بدلاً من حسن بن خير الدين[١].

ثالثاً: رسالة السلطان سليمان القانوني الى حاكم فاس محمد السعدي:

(.. هذا مثالنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني لازال نافذاً مطاعاً بالعون الرباني والصون الصمداني اصدرناه الى الجناب العالي الاميري الكبير الأكرمي الافخمي الاكملي الارشدي، الاعدلي الهامي الماجد النصيري الذخيري الحسبي النسبي نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية المحفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصمد حاكم ولاية فاس يومئذ الشرف محمد دام علوه وزاد سموه.

اصدرنا هذا المثال الشريف العالي الى جنابة العالي نخصه منا سلام بتكميل صلاة (الصلات) المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزكيات وبعد فإن الله جلت قدرته وعظمت مشيئته منذ أقامنا في دولة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سائدة كالشمس وضحيها، وسعادة ساعيه كالقمر اذا تليها ، وخصنا خلافة جليلة عضد الايمان بها منصور ومنحنا سلطة ساعد الاسلام بها مرفوع لاجرم وجب علينا وتحتم على ذمتنا اداء (شكر) هذا اللطف الجسيم والاحسان العميم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وكان ابداد ابنا، ودائماً عادتنا الاهتمام باجراء الشرع المبين وانقاذ سيد الأولين عليه الصلوة وعلى آله اجمعين والقيام في اطفاء نايرة الكفر والطغيان وطي الظلم والعدوان ونشر العدل والاحسان ولما بلغ سمعنا الشريف ان أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين، لذلك بدلناهم غيره، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية وخلاصة خدام اعتابنا الجليلة امير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذي الجلال والاكرام والاحترام صاحب الفرد والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الاعلى صالح باشا

---

(١) انظر: المغرب في عهد السعدية، عبدالكريم كريم ، ص٧٩.

دام اقباله لفرط شهامته وشجاعته وكمال دينه وديانته فوضنا إليه تلك الديار وأمرنا باقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين، واحياء توافر سيد المرسلين وصون الرعايا وحفظ البرايا الذين هم ودائع الله تعالى وان يكون مع الاهالي الاسلام على أكمل اتحاد واجمل اتفاق مجداً فيما يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس سلطاننا المتين مثابراً على دفع اعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين على ان اقصى مراد حضرتنا العلية احياء مراسم الاسلام واطفاء ثائرة الكفرة والمتمردين اللئام وذلك المرام يكون باتفاق امراء الاسلام واتحاد امناء شرع سيد الانام ويتم به النظام ولاينفي لاثارهم في الشهور والاعوام.

وأمرناه أيضاً أن ينظر الى احوال المسلمين بنظر الاشفاق والمراحم وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكارم ليكونوا في ايام دولتهم العادلة أمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ولابد لكم ان تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم أولاد سيد الأنبياء ، واحفاد سيد الاصفياء سمعنا عدلكم وانصافكم وبكمال التقوى وصفات الكمال اتصافكم ، ولذلك الشأن كتبنا اليكم منشوراً يوجب مضمونة المصافات ويشفي مكنونة ان تكون المودة في اقصى الغايات ولك ان تنبئوا باخباركم صحتكم الغالية الى اعتبانا العالية..)[1].

تحريراً في أوائل شهر محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة، الموافق يناير ١٥٥٢م بمقام ادرنة كما بعث السلطان سليمان القانوني بخطاب آخر الى حاكم المغرب محمد الشيخ السعدي، يمنحه بخلع، والخطاب عبارة عن مرسوم سلطاني قال فيه: (.. هذا مثالنا الشريف .الخ اصدرنا الى الجناب العالي حاكم فاس يومئذ الشريف محمد .. نخصه بسلام تتكمل به صلات المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد.

فان الله جلت قدرته وتعالت عظمته منذ اقامنا في دولة هايلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سايدة كالشمس وضحيها.

---

(١) انظر : جهود العثمانيين ، ص٣٦٤.

وامضاء سني سنن سيد الاولين والآخرين ومظاهرة حماة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وانت من اولاد سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين صلوات الله عليه وسلامه وقد سمع سيدتنا العلية حسن اقدامك وكمال دينك وديانتك وخلوص طويتك وصفاء سيرتك وقيامك في الذب عن المسلمين وقمع اعداء الدين ولذلك الشأن حباك احساننا الشريف العالي السلطاني ورعاك جزيل فضلها السامي الخاقاني فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسبباً لنسج المودة بيننا، على ان اقصى مراد حضرتنا العلية ان تكون اهالي الاسلام وحماة دين النبي عليه السلام في ايام دولتنا العادلة في اكمل الراحة وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ان شاء الله تعالى..) [1].

رابعاً : مرسوم السلطان العثماني بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية:

بعث السلطان العثماني مرسومه الى العلماء والفقهاء وسائر رعايا الجزائر يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية وقد جاء في ذلك المرسوم مايلي: (.. هذا مرسومنا . ارسلناه الى العلماء والفضلاء والفقهاء والأئمة والخطباء وجميع العلماء والقواد والنقباء وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربية، زيد توفيقهم يتضمن اعلامهم ان صدقاتنا الشريفة العالية الخاقانية وعوارضنا السنية السامية السلطانية قد انعمت على مملوك حضرتنا العالية ومعتمد دولتنا القانية امير الأمراء الكرام.. صالح باشا دام اقبالاً ، بولاية الجزائر لفرط شهامته وشجاعته وكمال قوته وصلابته وحسن سيرته وصفاء سريرته فوضنا إليه تلك الارض وأمرناه باحياء السنن والفروض والرعايا الذين هم ودائع الله تعالى وحفظ الثغور وسد خارق الأمور، لتكون رعايا أهل الاسلام ثمة في ايام دولتنا العادلة في اكمل الراحة، واجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، فليكونوا مع امير الأمراء المشار إليه على احسن حال واكمل اتفاق مراد حضرتنا قيام قاموس الشرع القويم والصراط المستقيم واحيائه مراسم الاسلام وطريقة سيد الانام وحفظ العباد وصون البلاد وقمع الكفرة الفجرة بكل ناد وتقبلوا ذلك وتعتمدونه والله تعالى هو الموفق بمنه ويمنه والعلامة الشريف حجة بمضمونه) [2].

تحريراً في أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة الموافق يناير ١٥٥٢م.

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص٣٦٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٦٦.

المبحث السابع

سياسة صالح الرايس

عمل صالح رايس في سياسته الداخلية على تحقيق امرين:

١- تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل اجزاء الجزائر .

٢- ادخال بقية اجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للاندلس، اما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمي الى ثلاثة اهداف:

أولها: ابعاد الاسبان نهائياً عن اراضي الجزائر.

ثانيهما: وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجأت التي تقوم بها الدولة المغربية السعدية.

وثالثها :اعلان نفير الجهاد العام والسير براً وبحراً على رأس الجيوش الاسلامية الى بلاد الاندلس(١).

ابتدأ صالح رايس في مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية، واستطاع ان يخضع الامارات المستقلة لنفوذ الدولة العثمانية واصبح وضع العثمانيين في الجزائر أقوى مما كان عليه ثم بدأ صالح رايس في مخططه نحو المغرب الأقصى واستفاد من الظروف التي تمر بها تلك الديار ووقف مع احد افراد اسرة بني وطاس الذي فقد أمله في وقوف الاسبان والبرتغاليين معه.

وتحركت القوات العثمانية للوقوف مع ابي حسون الوطاسي وحصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التي رسا بها الاسطول العثماني إلا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، مما أفسح المجال امام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل، وقبل أن تنتهي سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٣م، سقطت مدينة تازة في يد العثمانيين الذين اشتبكوا مع السعديين في معارك متواصلة اهمها بكدية المخالي في ساحة

---

(١) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٦٦.

فاس، عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها ابوحسون نحو فاس التي دخلتها في ٣ صفر سنة ٩٦٤هـ/ ٨ يناير ١٥٥٤م[١].

واعلن الباب العالي ضم المغرب الى الدولة العثمانية بعد ان خطب الامام للسلطان العثماني[٢].

ازداد فزع الاسبان والبرتغال لرؤية الاساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم التي سيطر عليها العثمانيين ومن ثم التوجه للاندلس، وقد جاء في الرسالة التي بعثها الملك البرتغالي (جان الثالث) الى الامبراطور شارل الخامس، مايدل على هذا الفزع اذ كتب إليه يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لاقدامهم في هذه البلاد، لان ذلك يشكل خطراً كبيراً على مصالح الأمتين[٣].

مكث صالح رايس بمدينة فاس اربعة اشهر ضمن خلالها استقرار الامور للدولة العثمانية، وفي خلال تواجده في فاس لم يترك الجهاد ضد الاسبان فأرسل فرقة من جيشه الى الريف المغربي استرجع من الاسبان معقلهم الكبير باديس او صخرة فالين كما يدعونها[٤]، كما حاول صالح رايس ان يستبدل الباشا العثماني ابا حسون بالشريف الادريسي الراشدي مولاي بوبكر، بناء على اقتراح المرابطين الصوفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثماني، إلا ان ثورة الأهالي اضطرت صالح رايس لاعادة بوحسون الى حكم فاس، فأذعن بوحسون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية من حيث الخطبة باسم السلطان العثماني واقامة حامية عثمانية في مقر بلاطة[٥].

---

(١) انظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص٨٠-٨١.

(٢) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص٩١.

(٣) انظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص٨١.

(٤) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص٣٤٢.

(٥) انظر: اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ابراهيم شحاتة، ص١٤٧.

تمهيده للعمل المشترك في استرداد الاندلس:

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء إلا بمحاربة الاسبان، ولا يهدف من وراء أي عمل إلا جمع القوى الاسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحي، كان يرى قبل كل شيء وجوب طرد الاسبان من وهران، من النزول الى الاندلس، لكن كيف يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص وسلطان قلعة بني عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله، ترامت لصالح رايس يومئذ الانباء عن ضعف القوى الاسبانية بمدينة مجانة، علاوة عن معاناة الحامية بالضيق فرأى صالح أن يغتنم الفرصة وأن يبدأ بتطهير الشرق من الاسبان قبل أن يطهر الغرب ولعل انقاذ بجاية سيكون له اثر في عودة ملك بجاية الى حظيرة الوحدة الاسلامية تحت ضغط السكان سار صالح رايس في ربيع اول سنة ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥م نحو مدينة بجاية على رأس قوة كبيرة بنحو ثلاثين ألف رجل عززهم في الطريق بالمجاهدين في امارة كوكو، فوطدت الجيوش العثمانية وحاصروا المدينة، بينما جاء الاسطول العثماني يحمل الاسلحة والمدافع بجانب الجيش وصوب المسلمين قذائفهم على القلعة[(١)] ودارت معركة عنيفة ونجح صالح رايس في انتزاع بجاية من الاسبان في ذو القعدة سنة ٩٦٣هـ/سبتمبر ١٥٥٥م، ولم يستطيع حاكم نابولي من نجدة حاكمها في الوقت المناسب[(٢)]، كما استسلم الحاكم الاسباني للقوات العثمانية[(٣)].

أولاً : مقتل بوحسون الوطاسي:

واجه بوحسون منافسة محمد الشيخ السعدي الذي جمع قوات من السوس والحوز واتى بجنوده الى ان وصل رأس الماء من احواز فاس[(٤)] وكان بوحسون بعد انسحاب العثمانيين قد اخذ في اعداد الجيوش وآلات الحرب الى ان قضت ثمانية شهور فأمر بالخروج لمواجهة مولاي محمد الشيخ والوصول الى مراكش ولما تقابل الجيشان قام بينهم

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص٣٤٢-٣٤٤.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث محمد خير فارس، ص٤١.

(٣) انظر: تاريخ الجزائر العام (٨٨/٣).

(٤) انظر: تاريخ افريقيا الشمالية ، شارل جوليان (٣٤٤/١).

قتال عظيم واستطاع بوحسون أن ينزل بالسعديين هزيمة شنيعة حتى استطاع أن يردهم على أعقابهم، ثم أرسل بوحسون لمولاي محمد الشيخ وقال له: اخرج أنت وأولادك الى لقائي وأنا أخرج إليكم بنفسي ونترك المسلمين بدون قتال، فتظاهر محمد ورجع الى والده وأخوته الستة الذين اجتمعوا على بوحسون فجعل يطاردهم حتى طمر به فرسه فسقط فطعنوه فأجتزوا راسه وأتوا به جيشه، فأنهزموا بلا قتال، واخذ محمد الشيخ فاس[(١)] وهكذا مات بوحسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس، وان كانت قد ضاعت بموته الفرصة الاولى لاعلان السيادة العثمانية على فاس ، إلا ان احداث هذه الوقائع كانت تعني ان الفرصة مازالت واسعة امام العثمانيين لتطبيق غزوهم المحلي للمغرب، لاسيما وان محمد الشيخ السعدي باسم القضاء على الحزب العثماني بين المغاربة أنزل القتل في اكثر من مائتين من كبار اعيان فاس فضلاً عن الفقيهين المرينيين الى محمد عبدالوهاب الزقاق قاضي فاس، والى الحسن علي حرزوز خطيب فاس[(٢)].

ثانياً: التعاون البرتغالي الاسباني السعدي ضد العثمانيين:

بعد عودة فاس للسعديين ظهر محمد الشيخ كخصم عنيد للعثمانيين، ومن المعارضين لسياستهم التوسعية في بلاد المغرب، بل والأكثر من ذلك انه اعلن اثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب الى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك، فهذا التنافس السعدي العثماني على شمال افريقيا، بل وعلى الخلافة الاسلامية كان في صالح الاسبان والبرتغال، ولا عجب اذا رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيين[(٣)].

بعث الملك جون الثالث رسالة الى حاكم مازكان البرتغالي الفارودي كالفولو رداً على الطلب الذي تقدم به المولى محمد الشيخ الى كل من مدريد ولشبونة لتزويده بقوات عسكرية ضد العثمانيين كما حددت الرسالة بعض الشروط التي يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين كتسليم بعض المراكز البحرية المغربية مثل بادس بنيون والعرائش،

---

(١) انظر: تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص٢٠،٢١.

(٢) انظر: اطوار العلاقات المغربية، ص١٤٨.

(٣) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبدالكريم كريم ، ص٨٣.

بالاضافة الى تموين القوات المسيحية التي سيرسلها لمساعدته ، وأخيراً يختتم الملك البرتغالي يوحنا الثالث بضرورة إخبار الأمبراطور الاسباني بذلك للتنسيق في عمل مشترك ضد العثمانيين ، ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك في مطلع ٩٦٢هـ/١٥٥٥م، وظل مفعول هذه الهدنة زمناً طويلاً.

إذا كان حاكم مازكان هو الذي قام بدور الوساطة مع السعديين فإن المزوار بوغانم هو الذي كلف من قبل المولى محمد الشيخ بالوساطة مع الاسبان وأول رسالة للمنصور في هذا الصدد، تلك التي بعثها الى حاكم وهران الاسباني الكونت دي الكودين في مطلع ربيع أول ٩٦٣هـ/يناير ١٥٥٥م ، وقد أخبر المزوار الكونت الاسباني بوصول رسائله وأنه أعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه عبدالله الذين أعربا عن سرورهما لقدوم وفد اسباني للتفاوض معه، وقد ارسل حاكم وهران بالفعل الى فاس وفداً يتألف من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول إعداد حملة مشتركة اسبانية - مغربية ضد العثمانيين[1] .

وقد جاء في التقرير الذي رفعه الوفد للكونت حاكم وهران الاسباني الذي اشرف على سير المحادثات (.. بعد أسلمناه الرسائل .. طلب إلينا الملك السعدي أن نقول له شفوياً عن سبب المهمة التي قدموا من أجلها الى فاس . إننا جئنا استجابة لطلب مولاي عبدالله والقائد منصور بن غانم حيث طلب من حاكم وهران إرسال بعض الرجال للتفاوض في أمر الجزائر.

أجابنا الشريف بأنه لايزال عند فكرته وأنه يرغب في طرد العثمانيين من بقايا افريقيا ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الامبراطور امداده بعشرة آلاف مقاتل مسلحين بأسلحة نارية، وأنه (أي الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الأمبراطور بكل مايلزم لهؤلاء المقاتلين من نفقات ، ذلك لأن طرد العثمانيين انما هو عمل تستفيد منه ممالك الأمبراطور والمسيحية جمعاء .. وطالت المذكرات كثيراً واخيراً علمني

(١) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص٨٤،٨٣.

القائد برشميده، بأن الشريف قد ادخر كثيراً من المال لمحاربة العثمانيين، وأنه يسعده أن يعين الأمبراطور على ذلك وان الأمر مستعجل جداً ..).

(.. جاء ذكر الجزائر ماذا نصنع بها بعد احتلالها، فكان من رأي الملك السعدي تحطيم هذه المدينة وإزالتها تماماً، أما أهلها فتؤخذ أموالهم، وإذا امتنعوا فيقتلوا ورفض الملك السعدي أن يؤخذوا عبيداً للمسيحيين، وذكر الوفد أن الأتراك أجانب عن البلاد وانهم أعداء له فيجب معاملتهم معاملة الأعداء، أما العرب فيمكن أن تترك لهم حريتهم في حالة استسلامهم دون مقاومة. إلا أن الملك السعدي أوضح أنه لن يسمح أبداً بأن يصبح أي عربي عبداً، لأن هذا مخالف للشريعة)(١).

يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعدي على العثمانيين ، الذي لم يتورع في الاستنجاد بالقوى المسيحية اسبانيا والبرتغال في سبيل تحقيق أهداف شخصية، حتى لو كان على حساب عقيدته الاسلامية ومصالح المسلمين.

نتيجة لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك الى الأمير فليب ابن الأمبراطور شارل مشفوعة بخطاب هذا نصه: (.. يجب علينا أن نعتبر أنفسنا سعداء جداً في الوقت الذي يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الألد كل جهوده للحصول على أسطول السلطان العثماني، حتى يهاجم ممتلكات جلالة الأمبراطور وكون أمير عربي يعرض علينا نفوذه في مهاجمة العثمانيين في الجزائر ومحاربتهم وابعادهم عن الأرض التي يحتلونها في افريقيا وذلك فيما إذا قدمنا له اثنى عشر ألف من المقاتلين الاسبان على حسابه، كذلك يتعهد الشريف السعدي في حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائي رهينة لديه، وأن يصنع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة ، بما أن هذه الصفقة ستجر خيراً عظيماً على جلالته وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد في قبول طلب الشريف وأرسل إليه ابني رهينة حتى لو كنت على يقين أنه يريد أن ينبحه بل انني وجميع من حولي مستعدين لتقديم أنفسنا كرهائن حتى لو كان الشريف يريد بيعنا عبيداً..)(٢).

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص٦١-٦٢.

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٦٤-٣٦٥.

ثالثاً: المخابرات العثمانية تكتشف المؤامرة:

أطلع صالح ريس على تلك المؤامرة التي كانت تحاك ضد الدولة العثمانية بين ملك المغرب والاسبان والتي كان هدفها طرد العثمانيين من الجزائر، لأنه طالما أن الدولة في الجزائر معناه خطر على اسبانيا، فبعث صالح ريس للباب العالي يخبره بشأن تلك المحادثات، فكان جواب السلطان سليمان سريعاً وحاسماً بوجوب مهاجمة وهران قبل أن تستمر المحادثات بين الجانبين السعدي والاسباني عن نتيجة عملية، فأرسل السلطان سليمان أربعين سفينة لمساعدته في الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير، ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعي من مختلف أنحاء الدولة العثمانية هي التي تغذي الأوجاق، الذي كان تبعاً لذلك يتجدد على الدوام(١).

رابعاً: وفاة صالح ريس:

استعد صالح ريس لفتح وهران، وضم اسطوله الى جانب أسطول السلطان وصار لديه نحو سبعين سفينة، واجتمع لديه من الجند ما يقارب من اربعين ألف جندي، وكان ينوي من اتمام زحفه هذا بالمسير الى مراكش للقضاء على الفتن والاضطرابات واخضاعها لسلطانه، ولكن القدر لم يمهله فتوفى صالح ريس بالطاعون في شهر رجب ٩٦٣هـ/١٥٥٦م عن عمر سبعين سنة(٢).

إن الدولة العثمانية سعت الى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الاسلامية والوقوف بها صفاً واحداً ضد الهجمات المسيحية، ذلك أن استقرارها في قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الاطلسي، يعني في حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية في اعتراض الطرق البرية للبرتغال أو اسبانيا مع العالم الجديد والشرق، من هنا نرى أن نجاح الفكرة كان يعتمد اساساً على وصول العثمانيين الى تلك السواحل ليشاركهم في ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت أمرة أمراء البحر العظام،

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص٨١.

(٢) تاريخ الجزائر العام للجيلالي (٣/٨٨-٨٩).

امثال خير الدين وعروج بربروسا وصالح رايس[1].

قام القائد يحيى بإكمال خطة صالح ريس فأبحر نحو وهران وفي الطريق وصلت الأوامر السلطانية بتعيين حسن قورصو لمنصب بيلرباي ، ووصلت الجيوش البرية والبحرية الى وهران وحوصرت حصاراً شديداً، إلا أنها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيين الكبيرة وذلك بسبب النجدات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا الى المدينة المحاصرة[2].

خامساً: احتلال محمد الشيخ السعدي لتلمسان:

انتهز الشريف السعدي محمد الشيخ فرصة عودة الأسطول العثماني الى استنبول فأسرع بإرسال جيوشه نحو تلمسان التي كان رجالها قد انضموا الى صفوف المجاهدين في محاولتهم لاسترجاع وهران فدخلها الشريف السعدي على غفلة ووضع على رأسها القائد ابن غنام زعيم القبائل بني راشد ، ووزير آخر ملوك الزيانيين المحتمين باسبانيا، أما الحامية العثمانية الموجودة في تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك فقد استطاعت الصمود في وجه السعديين حتى احتوت ذلك الهجوم السعدي.

إن السعديين كانوا يرون في ضم تلمسان عاملاً قوياً في توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقي لصد كل تدخل عثماني في المغرب بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون في التمركز بتلمسان تدعيماً لوجودهم في الجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب[3]، باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس كما أن شواطئ المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والاسبان[4].

بدأت الدولة العثمانية بتغيير سياستها مع الحكام السعديين، عندما بعث السلطان سليمان القانوني برسالة الى سلطان الدولة السعدية يهنئه بما أحرزه من

---

(١) انظر: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص٣٤٣.

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٦٧،٣٦٦.

(٣) انظر: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص٣٤٥.

(٤) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٧٨.

انتصارات ويعلمه لما كان عليه بنو مرين من الهدايا والرد والخدمة والميل إليه، وأن السلطان في نصرتهم وقد سبق وأن ظهر ذلك في آخر ملوك دولتهم أبي حسون، الذي زوده بأربعة آلاف جندي كان ذلك في محاولة من السلطان لتكوين اتحاد اسلامي كبير يواجه به الأخطار الخارجية، غير أن ذلك قوبل بالرفض من السلطان السعدي محمد الشيخ، الذي رد على مبعوث السلطان بقوله: (سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان الغرب لابد أن ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك الى مصر والسلام)[1].

يظهر من ذلك استياء محمد الشيخ الذي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية، كما أظهر طموح محمد الشيخ الذي كان يحلم بإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها[2].

سادساً: مقتل محمد الشيخ:

قتل محمد الشيخ في عام ٩٦٤هـ/١٥٥٧م من قبل حرسه الخاص وتطورت الأحداث بالمغرب وخاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية، إذ لم يعد هناك مجال للشك في أن العثمانيين إنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الأفريقي فحسب، بل ولأهميته الاستراتيجية كأقرب نقطة الى بلاد الاسبان والبرتغال[3].

عودة حسن بن خير الدين الى الجزائر:

رأى السلطان العثماني ضرورة إعادة حسن بن خير الدين الى الجزائر وذلك بعد مصرع حسن قور عام ٩٦٤هـ/١٥٥٧م بعد انقطاع استمر لعدة أعوام قضاها في الجهاد في مواطن اخرى، واستبشر الناس برجوعه، وشرع في ترتيب أمور الجزائر، فنظم الادارة، ورتب الجيش ترتيباً أعانه على ضبطه وبدأ في رحلته الجهادية ووضع أمامه هدفين

---

(١) تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص٢٦،٢٧.

(٢) انظر: جهود العثمانيين، ص٣٧٩.

(٣) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبدالكريم كريم، ص٨٥.

عظيمين، تطهير الشمال الأفريقي من الوجود المسيحي واسترداد الأندلس لحوزة المسلمين[1].

سابعاً: الثورات الداخلية في المغرب الاقصى:

اندلعت الثورات المناهضة للإمارة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ في تارودانت، فقامت ثورة المولى عثمان في السوس بالجنوب في جمادى الأول عام ٩٦٥هـ/ فبراير عام ١٥٥٨م، وثورة المولى عمر في دبدو بالمشرق في رجب عام ٩٦٥هـ/ ابريل عام ١٥٥٨م وثورة المولى عبدالمؤمن في مراكش في ربيع الأول عام ٩٦٦هـ/ ديسمبر عام ١٥٥٨م، ثم كانت المذبحة الجديد التي أنزلها عبدالله الغالب بثلاث من أخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل، مما اضطر أخوته للهروب الى تلمسان والجزائر فهرب المولى عمر والمولى عبدالمؤمن وعبدالملك وأحمد المنصور، وذلك خوفاً من القتل[2].

قصد عبدالله الغالب الى مراكش ثم تارودانت حيث انتقم من قتلة أبيه، كما قضى على ثورة السوس التي نزعها عثمان، ثم عاد سريعاً الى فاس لاعداد قواته، لصد الحملة العسكرية التي يقودها حسن بن خير الدين الذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد[3] وقامت بين الطرفين معركة على وادي اللين بالقرب من فاس لم تسفر عن شيء إلا أن حسن بن خير الدين الذي وصلته أنباء عن تحرك الاسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط العودة، فذهب الجيش العثماني الى مرفأ قصاصة في الشمال فركب سفينة وعاد للجزائر بينما ذهب قائد تلمسان الى حاميته استعداداً للحوادث المقبلة[4].

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص٣٨٠.

(٢) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص١٧.

(٣) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبدالكريم كريم، ص٨٦.

(٤) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٧٢.

ثامناً: مقتل حاكم وهران الكوديت:

كان دو الكوديت حاكم وهران يدرك أن استرجاع العثمانيين لتلمسان يهدد الوجود الاسباني تهديداً خطيراً فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها العثمانيون قاعدة لهم للهجوم على وهران، وكان دا الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر[1] لذلك أعد قوة كبيرة تتكون من اثنى عشر الف مقاتل وخرج على رأسها فهاجم مدينة مستغانم ، إلا أن محاولته باءت بالفشل إذ تكبدت القوات الاسبانية في ذي القعدة عام ٩٦٥هـ/ أغسطس عام ١٥٥٨م خسائر فادحة وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى، ورغم فشل الحملة الاسبانية ضد مستغانم فإن العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك في تواطئ المولى عبدالله الغالب بالله مع الاسبان مما جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر عند محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين، فعندما ثار المولى عبدالمؤمن في مراكش في ربيع الأول عام ٩٦٦هـ/ ديسمبر ١٥٥٨م واستنجد بوالي الجزائر الذي لم يمده بأية مساعدة عسكرية بل رحب به في بلاد الجزائر وزوجه باحدى بناته ثم ولاه مدينة تلمسان[2].

---

(١) انظر: لسان المعرب ، لأبي عبدالله السليماني ، ص٩٤.

(٢) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص٨٧.

المبحث الثامن

سياسة حسن بن خير الدين

في التضييق على الاسبان

أراد حسن بن خير الدين أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الاسباني في وهران وأخذ يستعد في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة الى جانب الجيش العثماني، فجند عشرة آلاف رجل من زواوة[1]، كما أنشأ قوة أخرى ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضي وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية اخرى في الاستعانة بقوة ابن القاضي لمواجهة زعيم قبلي آخر (عبدالعزيز بن عباس) الذي أعلن استقلاله في المغرب[2]، بذلك صار اسطول الدولة العثمانية يتردد دائماً على مدينتي حجر باديس وطنجة[3].

عين حسن بن خير الدين في عام ٩٦٥هـ/١٥٥٨م بويحيى الرايس[4] قائداً على باديس، فقام بتخريب الساحل الاسباني من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته في باديس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق، وقد جاء في تقرير اسباني بقلم فرانسكوا دي ايبانير أن يحي يملك أربع سفن حربية الأولى بقيادته وعلى ظهرها ٩٠ عثماني مسلحين بالسهام والأقواس والمناجيق والثانية يقودها قره مامي وعلى ظهرها ٨٠ عثماني مسلحين بنفس الأسلحة والثالثة بقيادة مراد الرايس بقوة ٧٠ جندي، والرابعة تحمل نفس العدد وبنفس الأسلحة وبالاضافة الى هذه السفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق، كان في حوزة بويحي سفينتان في باديس ويقوم بصنع سفينة اخرى، ويتصل

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص٣٧٧.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص٤٥.

(٣) انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار (٣١٩/١).

(٤) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٨١.

بنشاط سفن باديس سفن تطوان العرائش وسلا، ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة ، وفي العرائش ثلاث سفن اخرى على شاكلة سفن تطوان، وفي سلا سفينتان من النوع الآخر، إلا أن السفن الأخيرة لم تتبع قيادة بويحي ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الاسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند ورفع تجار اشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الاسباني يشكوون فيها الفظائع التي تركتها سفن باديس والسفن الاسلامية الأخرى ضد السفن الاسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية[١] ، ولم تستطع السفن العبور دون إذن من بويحي، فعم الخوف سكان الساحل الاسباني ، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر، وغالباً ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يبتعدون كثيراً عن الشاطئ[٢].

سياسة المولى عبدالله:

تابع المولى عبدالله سياسة والده الرامية الى مقاومة الهدف في المغرب والاستعانة في سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من اسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم ، والمحافظة على أحوال السلم معهم وقد دفعته سياسة المهادنة مع النصارى الى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض الدول الأوروبية كفرنسا التي استقبل سفيرها وحمله الى الأمير أنطونيو دي بربون رسالة يعبر فيها عن استعداد المغرب للاستجابة للمطالب الفرنسية، ثم عقد الأمير الفرنسي معاهدة في شوال ٩٦٦هـ/ يوليو ١٥٥٩م مع المولى عبدالله الذي تنازل عن المرسى الصغير لفرنسا مقابل مده بالاسلحة والعتاد الحربي ، وإرسال فرقة عسكرية تكون بمثابة حرس خاص للغالب، بعد ان فقد ثقته بالحرس التركي الذي سبق وأن أغتال والده محمد الشيخ كانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتوكمبر سيس في ٢١ جمادى الأولى في سنة ٩٦٦هـ/ ١٣ ابريل ١٥٥٩م مع اسبانيا والتي أنهت الحرب الايطالية، أخذت تبحث عن أسلوب جديد يمكن الاعتماد عليه في حالة تجدد النزاع مع اسبانيا، خصوصاً وقد صار لفليب الثاني نفوذ قوى في اوروبا، لأن المعاهدة المذكورة دعمت نفوذ اسبانيا في ايطاليا

---

(١) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص٢١٩.

(٢) انظر: تاريخ الدولة السعدية ، ص٩٠.

والأراضي المنخفضة مما يهدد فرنسا، فأخذ في التقرب من المغرب البلد الاسلامي. ومما لاشك فيه أن فرنسا كانت ترى في المغرب حليفاً يمكن الاعتماد عليه، كما كانت ترى في ميناء القصر الصغير الاستراتيجي الذي لايبعد إلا بضع كيلومترات عن جبل طارق منطقة هامة يمكن إتخاذها للهجوم على اسبانيا.

ولعل ذلك كان سبباً في عدم قيام الدولة العثمانية بموقف إيجابي تجاه المعاهدة لأنها كانت تأمل في أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السعديين ، فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحد في مسألة الهجوم على اسبانيا وإن اختلفت من الناحية العقائدية ففرنسا كانت ترغب في الهجوم على اسبانيا من أجل تحقيق نصر عسكري لتكون سيدة الموقف في غرب البحر المتوسط، بينما الدولة العثمانية تهدف الى انقاذ المسلمين من الحكام الاسبان ثم استرداد الاراضي الاسلامية في الأندلس خوّل حسن بن خير الدين انظاره سنة ٩٦٦هـ/١٥٥٩م وتحرك بجيوشه نحو النواحي التابعة لأمير قلعة بني عباس عبدالعزيز فاستولى على المسيلة وحصنها وبني برجاً وذلك لتثبيت الوجود العثماني هناك، ووضع حامية بلغ عددها أربعمائة جندي، ثم عاد حسن بن خيرالدين متوجهاً الى بلاد حمزة في أنحاء بربرة، عندها انقض أمير قلعة بني عباس على الحصن العثماني ونشبت معارك بين الحامية العثمانية لقي فيها الأمير عبدالعزيز بن عباس صاحب القلعة حتفه وخلفه أحمد مقران الذي أمتلك نواحي بلاد كوكو فاعترف به حسن بن خير الدين[(١)].

اشتدت حملة ازعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانئ تونس والجزائر وذلك بالاغارة على السفن المسيحية، كما بعثت تلك الموانئ ببعض القوات العسكرية البرية وجزء من الأسطول، لمساندة السلطان في الشرق[(٢)].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة السعدية، ص٨٧-٨٨.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر العام (٩١/٣).

أولاً : الاسطول العثماني يهاجم جربة في تونس:

قام الاسطول العثماني بقيادة بيالي باشا بالهجوم على جزيرة جربة في رمضان سنة ٩٦٧هـ/مايو ١٥٦٠م، ونجح الاسطول في تحقيق أهدافه ضد الاسبان[١]، الذين لم يجدوا حرجاً من الاستنجاد بفرنسا[٢]، بعد ذلك كان من المقرر أن يقوم بيالي باشا ببعض الغارات في البحر المتوسط قبيل عودته لقسطنطينية، ولكن درغوث باشا الذي سبق وأن ضايقه الثوار في الداخل، أقنع بيالي باشا بالتوجه الى طرابلس لمساعدته في القضاء على التمرد قرب تاجوراء، وقد وصل بيالي باشا الى طرابلس وصول الفاتحين ودخلت السفن العثمانية المزينة بالأعلام والشارات التي غنمها من الاعداء بينما كانت أعلام الأعداء منكسة فوق سواري السفن وقام بيالي باشا بطرابلس أياماً قليلة كافية لمعاقبة سكان تاجوراء، ثم أقلع بأسطوله صوب عاصمته[٣].

ثانياً: اعتقال حسن خير الدين وأرساله الى استانبول:

استمر حسن خير الدين في استعداداته لمهاجمة المغرب، فشرع في تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوي أن يوكل إليها حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالانكشارية ، الذين احسوا بالخطر فقاموا في صيف ٦٩٦هـ/١٥٦١م بإعتقال حسن باشا وأعوانه وأرسلوه مقيداً الى استانبول ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التي دفعتهم الى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوي القضاء على الأوجاق والاعتاد على جيش محلي بغرض الاستقلال عن السلطان، لكن السلطان ارسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح احمد باشا في اعتقال زعماء التمرد وأرسلهم الى استانبول[٤].

---

(١) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٨٤.

(٣) انظر: ليبيا منذ الفتح العربي، اتوري روسي، ص١٩٠.

(٤) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص٤٦.

ثالثاً: عودة حسن بن خير الدين الى الجزائر:

أعاد السلطان العثماني سليمان القانوني حسن بن خير الدين الى بيلربكية الجزائر للمرة الثالثة في أواخر سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م معززاً بعشرة سفن حربية ومزوداً بقوة عسكرية مسلحة[١] قضى بعدها حسن بن خير الدين خمسة أشهر بعد عودته يهيء العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسى الكبير وهما كل مابقي لاسبانيا ببلاد الجزائر[٢].

خرج حسن بن خير الدين في سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م من مدينة الجزائر نحو الغرب، يقود جيشا كبيراً مؤلفاً من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية وألف فارس من الصباحية تحت أمرة احمد مقرن الزواوي، واثنى عشر ألف رجل من زواوة وبني عباس، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الاسطول العثماني الى مدينة مستغانم التي اتخذها قاعدة للعمليات وفي ١٣ ابريل وصل حسن خير الدين بكامل قوته أمام مدينة وهران وضرب حصار حولها، وكان الاسبان مستعدين لتلقي الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم[٣]، بعد أن توالت النجدات الاسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها، ومنذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين، وبينهما كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل مما اضطر حسن بن خير الدين الى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجدات التي اتخذت من مالطة مركزاً لتجمعها[٤] وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدين من تحقيق هدفه ذلك لأن فيليب الثاني كان قد وضع برنامجاً طموحاً للأسطول الاسباني، والبناء البحري في ترسانات إيطاليا وقطالونيا، كما وردت لخزانة اسبانية إعانة من البابوية واجتمعت سلطة قشتالة التشريعة في جلسة غير عادية، وأقرت وجوب امداد اسبانيا بمعونات مالية، لتساندها في حربها مع العثمانيين، ومما كانت ثمرة تلك المجهودات وإعادة التنظيم لهيكل اسبانيا وهزيمة العثمانيين في وهران سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م.

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر العام (٣/٩٣).

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة، ص٣٧٩.

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٧٩.

(٤) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص٢١٣.

بدأ فيليب الثاني يستعد لاحتلال جزيرة باديس وتشجع بذلك النصر الذي حققه في وهران ، وتوجه لذلك اسطولاً في نفس السنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة، اضطرت الأسطول الى التراجع[١] والجدير بالذكر أن جزيرة باديس كانت أقرب نقطة مغربية الى جبل طارق، وأنها كانت بالنسبة للمجاهدين ميناءً هاماً[٢]، إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس ، كما يمكنهم التسلل لداخل الأراضي الاسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء، وهذا مادفع الاسبانيين الهجوم عليها من خلال محاولتهم السابقة كما كانت جزيرة باديس بالإضافة الى ذلك مثار رعب وخوف لدى السلطان السعدي الغالب بالله، إذ خاف السلطان أن يخرج الأسطول العثماني من تلك الجزيرة الى المغرب، فاتفق مع الاسبان أن يخلي لهم الادالة من حجرة باديس ويبيع لهم البلاد ويخليها من المسلمين ، وينقطع اسطول العثمانيين في تلك الناحية[٣]، مقابل الدفاع عن شواطئ المغرب إذ هاجمها الاسطول العثماني الذي علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع الى الجزائر[٤] كما عزل بويحي رايس من منصبه في باديس في أواخر عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م، وانصرف العثمانيون عن الحرب في غرب البحر المتوسط، إذ توجه نشاط الاسطول الحربي الى جزيرة مالطة في الشرق[٥].

رابعاً: الصراع على مالطة:

كان السلطان العثماني سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة التي كانت أكبر معقل للمسيحيين في وسط البحر المتوسط، والتي سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثماني أسطوله بقيادة بيالي باشا نفسه، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجربة، وحسن خيرالدين أن يتوجها على رأس أسطوليهما

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص٣٨٩.

(٢) انظر: تاريخ الدولة السعدية، عبدالكريم كريم ، ص٣٦.

(٣) انظر: تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص٨٩.

(٤) انظر: تاريخ المغرب لمحمد بن عبود ، ص١٧.

(٥) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص١٩٠-١٩١.

الاسلاميين للمشاركة في عملية مالطة واخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعاقل الاسلامية بعد ذلك فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة وثلاثة آلاف رجل ووصل الاسطول الاسلامي أمام مالطة يوم ١٨ مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقاً شديداً الى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك في صقلية، برفقة اسطول تعداده ٢٨ سفينة حربية تحمل عدد كبير من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الاسطول الأسلامي من الانسحاب في ١٨ ربيع الأول ٩٧٣هـ/٨ ديسمبر ١٥٦٥م(١).

خامساً : حسن بن خير الدين بربروسة القائد العام للأسطول العثماني:

خلف السلطان سليمان القانوني السلطان سليم الثاني، الذي اسند منصب القائد العام للأسطول العثماني الى حسن بن خير الدين ، فترك الجزائر متوجهاً الى استانبول سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م(٢)، وتولى منصب بيلر بي الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رايس، في ذي الحجة ٩٧٤هـ/يونيو ١٥٦٧م وصادف في تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة، صحبها تمرد الجند العثماني واضرب الشعب، فاضطر الى صرف وقته في مواساة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأت محمد صالح رايس ثورة عامل قسنطية المتأثرة بولاة تونس الحفصيين فعزله البيلر باي وقضى على ثورته وولى على قسنطنية القائد رمضان بن تشولاق، وفي ربيع الأول سنة ٩٧٥هـ/سبتمبر ١٥٦٧م، هاجم الاسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم ، ثم لم تطل ولاية محمد صالح بن رايس، إذ تعين نقله الى ولاية أخرى في أنحاء الدولة(٣).

---

(١) انظر : حرب الثلاثمائة سنة ، ص٣٨٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٨٥.

(٣) انظر: تاريخ الجزائر العام (٩٤،٩٥/٣).

سادساً : قلج علي تولى بيلر بك الجزائر:

اسند منصب بيلربك الجزائر الى قلج علي في ١٤ صفر سنة ٩٧٦هـ/الموافق ٨ أغسطس ١٥٦٨م وعرف عنه بالعزم في تسيير الادارة والبطولة الحربية والشجاعة[١].

اتخذ قلج علي خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية وهو إعادة الحكم الاسلامي في اسبانيا وتحرير الشمال الافريقي من الجيوب الصليبية فوجه اهتمامه الى الأسطول أكثر من غيره وصار بعده مبعث قلق ورهبة للأوروبيين[٢]، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم في المنطقة التي نزلوا فيها تصرف السادة[٣].

سابعاً: إعادة تونس للحكم العثماني:

صمم قلج علي على ضرورة تصفية القواعد الاسبانية في تونس، قبل أن يبدأ نشاطه في شبه الجزيرة الايبيرية[٤]، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر وكان الاسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين في طرابلس والجزائر[٥]، لذلك لابد من تأمينها.

كان قلج علي على اتصال بالوزير الحفصي أبي الطيب الخضار ورأى ذلك الوزير أن فتح تونس قد حان وقته وأرسل الى قلج علي يهون عليه أمـ_ها ويتعهد له بتقديم العون[٦].

جهز بيلربك الجزائر قلج علي جيشاً مؤلفاً من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/٩٥).

(٢) انظر: تاريخ افريقيا الشمالية، شارل جوليان (٣/٣٤٦).

(٣) انظر: المغرب العربي الكبير، شوقي الجمل، ص ١٠٠.

(٤) انظر: المغرب العربي الكبير، جلال يحيى، ص٨٤.

(٥) انظر: الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا، عزيز سامح، ص٨٤.

(٦) انظر: تاريخ الجزائر الحديث ، ص٤٩.

نحو تونس فقابل سلطانها أبي العباس احمد بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصي وتقدم قلج علي بمجموعة نحو تونس واخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثاني ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد الى مقره بالجزائر[1]، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الاسبان، وكانت قوات قلج علي لاتكفي وحدها لتطهير البلاد من الاحتلال الاسباني ، لذا فإنه كتب الى استانبول يطلب مده بقوة تكفي لتحرير الموقع[2]، وكان اهتمام قلج علي بشرق الجزائر سياسة اختص بها من دون اسلافه، فكان يرى أنه لابد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب، ثم التوجه للأندلس، بعد أن يكون قد أضعف التواجد الاسباني في الشمال الأفريقي[3].

ثامناً: ثورة مسلمي الأندلس:

كانت حركة الجهاد في الشمال الأفريقي قد شجعت مسلمي الأندلس وفجرت طاقاتهم الكامنة وجعلتهم يتغلبون على الحواجز النفسية التي بنيت في نفوسهم على مر السنين وسادت الاقاليم الاسبانية موجة من الظلم والارهاب والفظائع، فهذه الحالة المربكة وماصاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمي اسبانيا في الجنوب سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المتنصرين ظاهرياً، يتأهبون للانقضاض على الحكم الاسباني[4].

سادت اسبانيا ارهاصات ثورة المسلمين في غرناطة فشكل الملك الاسباني فيليب الثاني نوعاً جديداً من الميلشيات تقيم في كل مدينة من مدن اسبانيا لمواجهة الثورة بين الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم في الولاء لسيادة الأمير السعدي، كما تلقى مسلمي الأندلس مساعدات عثمانية[5]، اصبح الموقف صعباً بالنسبة

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر العام (٣/٩٦).

(٢) انظر: الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، ص٨٥.

(٣) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٩٥.

(٤) انظر: حرب الثلاثمائة ، ص٣٩٢.

(٥) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص١٧٩-٢٠٤.

لاسبانيا خاصة غرناطة ومما زاد الحالة خطورة أن بحرية فيليب الثاني كانت متفرقة في أنحاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة، خاصة الشواطئ الجنوبية موقع المجاهدين.

بعد أن أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينة لمسلمي الأندلس وتحويلهم للمسيحية لجأوا الى العنف فحرموا على المسلمين التحدث بالعربية والاتصال بالمسلمين في الشمال الافريقي وفي بعض اقاليم اسبانيا كما حرموا على النساء الخروج الى الشوارع متحجبات وقفل أبواب دورهم وتحطيم الحمامات وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم، كل ذلك فجر الثورة وقاد مسلمي الأندلس الى حرب البوشارات التي هي أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة كانت هذه الحرب في ١٥٦٨م وتزعمها محمد بن أمية[1].

تاسعاً: خيانة السلطان السعدي الغالب بالله لمسلمي الأندلس:

بذل السلطان السعدي الغالب بالله الوعود المعسولة لرسل الثوار البورشارات ووعدهم بالنصر وتقديم كل مايحتاجونه من عتاد وسلاح ورجال.. ، لكن استمر الغالب بالله محافظاً على روابطه الودية مع فيليب الثاني، وعمل على خذلان أهل الأندلس: (وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة في دينهم وأقوالهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه ذرة من الايمان، وأدنى مملكة من الاسلام وذلك أنه لما احتوى عليهم النصراني ، وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه، بقي المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهروهم بكثرة المكس ، فصاروا يكتبون الى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً وهم يناشدونه الله في الإغاثة وأكثر كتبهم الى مولاي عبدالله لأنه هو القريب الى أراضيهم ، زمان قد قوي سلطانه وصحت أركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده فأمرهم غشاً منهم بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم ويظهروا فعلهم، فما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة وكذب عليهم وغشا منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة لملكه الزائل وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات، وأنه

---

(١) انظر: محنة المورسيكوس في اسبانيا لمحمد قشتيليو ، ص ٣٣-٣٤-٣٥.

استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس الى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في صالح ملكه) [1].

تسارعت الاحداث في اسبانيا، وبلغ عدد المجاهدين في أوائل سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٩م أكثر من مائة وخمسين ألف، وصادف تلك الثورة صعوبات كبيرة بالنسبة للحكومة الاسبانية ، إذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق البابا في الأراضي المنخفضة وأثبتت الدوريات البحرية أنها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين في الجزائر [2].

عاشراً : قلج علي يقف موقف الأبطال مع مسلمي الأندلس:

كان قلج علي على اتصال مباشر بقيادة مسلمي الأندلس عبر قنوات خاصة أشرف عليها جهاز الاستخبارات العثمانية واستطاع هذا القائد أن يمد الثوار في اسبانيا بالرجال والاسحلة والعتاد، وتم الاتفاق مع مسلمي الاندلس على القيام بثورة عارمة في الوقت الذي تصل فيه القوات الاسلامية من الجزائر الى مناطق معينة على الساحل الاسباني [3].

جمع قلج علي جيشاً عظيماً قوامه اربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستين ألفاً من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد، وأرسلهم الى مدينتي مستغانم ومازغران استعداداً للهجوم على وهران ثم النزول في بلاد الأندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدداً كبيراً من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق.

وفي اليوم المتفق عليه وصلت اربعون سفينة من الأسطول العثماني أمام مرسى المرية الاسباني ، لشد آزر الثورة ساعة نشوبها لكن أخفق ذلك المخطط وذلك بسبب سوء تصرف احد رجال الثورة الأندلسيين إذ انكشف أمره فداهمه الاسبان، وضبطوا ماكان

---

(١) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية، ص٣٨،٣٧.

(٢) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٩٨.

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٩٢٦/٢).

يخفيه من سلاح[1] بعد أن نجح قلج علي في انـزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الاسباني[2]، لم تقع الثورة في الموعد المحدد لها، وضاعت بذلك فرصة مفاجئة الاسبان[3].

لقد قام قلج علي في شعبان سنة ٩٧٦هـ/ يناير سنة ١٥٦٩م ببعث اسطول الجزائر لتأييد الثائرين في محاولتهم الأولى، وحاول انزال الجند العثماني في الأماكن المتفق عليها، لكن الاسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطط فصدوا قلج علي عن النزول وكان الثورة في عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية في البحر فالأسطول الجزائري صار يقاوم الاعاصير من أجل الوصول الى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب، إلا أن قوة الزوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح، وتمكنت ست سفن من انزال شحنتها فوق سواحل الأندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدين[4].

استمر قلج علي في امداد مسلمي الأندلس رغم الكارثة التي حلت بقواته، وتمكن ذلك المجاهد الفذ من انزال اربعة آلاف مجاهد من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين، للعمل في مراكز قيادة جهاد مسلمي الأندلس[5].

وعاد العثمانيون فأرسلوا دعماً جديداً من الرجال والسلاح وإعانة للثورة الاندلسية، فصدرت الأوامر الى قلج علي بذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧هـ/٣١ مارس ١٥٧٠م (.. عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الاسلام المذكورين بكل مايتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار أصابهم الدمار غير جائزة..) وكان القائد

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٩٢-٣٩٣.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٩٢٦/٢).

(٣) انظر: جهود العثمانيين، ص٣٩٩.

(٤) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٩٢.

(٥) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٩٤.

المجاهد قلج علي قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك لكن ماشاع عن تجمع الاسطول الصليبي للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين وأمر السلطان العثماني له بالاستعداد للمشاركة في هذه المعركة جعله مضطراً للبقاء في الجزائر منتظراً لأوامر استانبول(١).

وفي غمرة الثورة الاندلسية اتهم زعيم الثورة ابن أمية بالتقاعس عن الجهد وهاجمه المتآمرون وقتل في منزله واختير مولاي عبدالله بن محمد بن عبو بدلاً منه وبعث قلج علي تعزيزات له ونجح الزعيم الجديد في حملاته الأولى ضد النصارى الاسبان وطوق جيشه مدينة أرجيه.

انزعجت الحكومة الاسبانية لهذا التطورات وعينت دون جوان النمساوي على قيادة الاسطول الأسباني (وهو ابن غير شرعي للأمبراطور شارل) فباشر قمع الثورة في سنواتها ٩٧٧-٩٨٧هـ/١٥٦٩-١٥٧٠م، وأتى من الفظائع مابخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لاهوادة وانتهى الأمر بإذعان مسلمي الأندلس، لكنه إذعان مؤقت، إذ لم يلبث مولاي عبدالله أن عاد الكرة، فاحتال الاسبان عليه ، حتى قتلوه غيلة ونصبوا رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة زمناً طويلاً(٢).

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٠٠.

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٩٥.

المبحث التاسع

المتوكل على الله ابن عبدالله الغالب السعدي

تولى أمر السعديين بعد وفاة عبدالله الغالب بالله ابنه المتوكل على الله الذي كان يضمر الشر لعميه عبدالملك ابي مروان وأحمد المنصور فخرجا من المغرب واتجها الى السلطان العثماني يستنجدوا به[١]، وما من شك في أن انتصار العثمانيين في تونس ضد الاسبان واستتباب الأمر فيها، قد شجعهم على مساعدة المولى عبدالملك المطالب بالعرش المغربي، لبسط نفوذه على البلاد، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للدولة العثمانية، ويوطد أقدام العثمانيين في مجموع الشمال الأفريقي علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب في قلوب الاسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان في استانبول[٢].

تابع المتوكل على الله خطة والده في التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد العثمانيين ، حيث لم يعد لديه شك في أنهم سينجدون عميه بقوات عسكرية فعقد اتفاقاً مع انجلترا، التي كانت ترغب في تجارتها مع المغرب للفوائد التي تعود على التجار الانجليز من وراء ذلك، زيادة على أنها تدرك الأهمية العظمى التي للمغرب ، خصوصاً وقد كانت انجلترا في حالة حرب ضد اسبانيا[٣] وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الانجليز ، يعد العمل الوحيد الذي قام به خلال حكمه القصير، وقد فعل ذلك باعتبار أن الانجليز كانوا من بين التجار الاجانب الذي يبيعون مواد الحرب من ذخائر وأسلحة للمغاربة منذ زمن بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل في هذا الوقت الى السلاح لصد الخطر العثماني ولمقاومة عمه المطالب بالعرش.

وجدت الدولة العثمانية في انشغال ملك اسبانيا فيليب الثاني بأحداث أوروبا

---

(١) انظر: الحروب الصليبية في المشرق العربي لمحمد العمروسي، ص٢٦٥.

(٢) انظر: جهود العثمانيين ، ص٣٦٨.

(٣) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص٩٤.

الغربية حيث ثورة الأراضي المنخفضة، فرصة مناسبة للتدخل في المغرب[1]، فأمدوا المولى عبدالملك بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأحسن الأسلحة، ودخل المولى عبدالملك فاس بعد أن أحرز انتصاراً كبيراً على ابن أخيه المتوكل وعاد الجيش أدراجه الى الجزائر[2].

وقام عبدالملك بإصلاحات في دولته من أهمها:

١. أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

٢. اهتم بالتجارة البحرية ، وكان للأموال التي غنمها من حروبه على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.

٣- أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

٤ استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء واصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

٥- فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوروبيين ، احترموه وأجلوه قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بين المعاصر لأحداث هذه الفترة: (كان عبدالملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الاسبانية والإيطالية والأرمنية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية ، وباختصار، فإن معارفه لوكانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذه أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك)[3].

٦- أهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً

---

(١) انظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، عبدالكريم كريم، ص٩٩،٩٧.

(٢) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان، ص٩٤.

(٣) وادي المخازن ، ص٣٧.

شورياً للدولة اصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكان عامة، وعلى دراية بالسياسة الدولية وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية وكان أخوه أبوالعباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة)(١).

أولاً: تحالف محمد المتوكل السعدي مع ملك البرتغال سبستيان:

كان محمد المتوكل بعد هزيمته من عمه عبدالملك قد اتصل بملك البرتغال سبستيان واتفق معه على أن يعينه على طرد عمه من حكم المغرب، وأن يتنازل له مقابل ذلك عن جميع شواطئ المغرب، فقبل سبستيان ذلك العرض المغربي(٢).

انتقل المتوكل الى سبته وأقام بها أربعة شهور، ومنها اتجه الى طنجة في انتظار دون سبستيان على رأس القوات العسكرية.

وفي أثناء استعدادات الدول المسيحية وخاصة البرتغال للوثوب على المغرب، وإخضاعه بالكامل، أرسل العثمانيون مدربين وأسلحة متنوعة، واشفعوا في ذلك بفيلق عسكري(٣)، حيث تتجلى هنا الروح الاسلامية في الدفاع عن عقيدتهم لأن المعركة معركة المسلمين جميعاً وخصوصاً الدولة العثمانية التي كانت تحمل على عاتقها حماية المسلمين واراضيهم بعيدة عن المصالح المادية(٤).

ثانياً: معركة وادي المخازن:

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبدالملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ : ٣٠ جمادي الثانية ٩٨٦هـ الموافق ٤ آب (أغسطس) ١٥٧٨م.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٩،٤٠.

(٢) انظر: تاريخ المغرب، محمد بن عبود (١٩/٢).

(٣) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص٩٤.

(٤) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٧.

لقد كان لتلك المعارك أسباب من أهمها:

١- أراد البرتغاليون أن يمحو عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزمور واصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث آب (١٥٢١-١٥٥٧م).

٢- أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان ابن يوحنا أن يخوض حربا مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا، وزاد غروره بعد ماحققه البرتغاليين من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الاسلامي يدفعه في ذلك حقده على الاسلام واهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، لقد جمع ذلك الملك بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة ، في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة اخرى، ومن جهة اخرى خطط لغزو واحتلال المغرب[1].

ثالثاً: حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الاسبان والبرتغاليين والطليان والألمان وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، وجهز الف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب[2].

ووصلت قوات النصارى الى طنجة واصيلا في عام ١٥٧٨م.

رابعاً: الجيش المغربي:

كانت الصيحة من جنبات المغرب الأقصى: (أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله).

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبدالملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل

---

(١) انظر: وادي المخازن ، ص٤٦،٤٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٩.

المخلوع أن يخترق ذلك التلاحم فكتب الى أهل المغرب ماستنصرت النصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين وقد قال العلماء: إنه يجوز للانسان أن يستعين على من غصبه حق بكل ماأمكنه وتهددهم[1] قائلاً: {فإن لم تفعلوا، فأذنوا بحرب من الله ورسوله} (سورة البقرة، آية).

فأجابه علماء المغرب عن رسالته برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيه : (الحمدلله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضى به، حتى أسس الله دين الاسلام بشروط صحته وكماله وبعد:

فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب.

لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوب والمصاب . وأما قولك في النصارى فإنك رجعت الى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، فيه المقت الذي لايخفى ، وقولك رجع إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظورات يحضر عندهم غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال ، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله.

والثاني: إنك استعنت بالكفار على المسلمين: قال عليه الصلاة والسلام. إني لا استعين بمشرك. الاستعانة بهم -بالمشركين- على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً : لسان العاقل من وراء قلبه . وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية ، وتجدد لهم نور الايمان وأشرق عليهم شعاع الايقان، فمن قائل يقول لا دين إلا دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: {وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين.} (سورة العنكبوت: آية ١١٠) وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم

---

(١) انظر: وادي المخازن ، ص٥١.

وقيامهم معك، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم ، واني لك هذا[1] مع قول الله تعالى : {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطؤوا وصول السلطان عبدالملك أرادوا الفرار والتحصن في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبدالملك بالله المعتصم بالله من مراكش الى سبستيان : (إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبت الى أن تقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب)[2]. فليس من الشجاعة ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن العزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر[3].

وتحركت قواد عبدالملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وماحولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

خامساً: قوى الطرفين (البرتغالي النصراني والاسلامي المغربي):

الجيش البرتغالي :

١٢٥,٠٠٠، ومايلزمهم من المعدات والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن ١٤,٠٠٠راجحل، و٢٠٠٠ فارس ، و٣٦ مدفعاً، ومقابل ٥٠,٠٠٠ راجل في الجيش المغربي و٢٢,٠٠٠ ، ١,٥٠٠ من الرماة، ٢٠ مدفعاً. ذكر ابو القاضي في (المنتقى المقصور): (عدد الجيش البرتغالي مئة ألف وخمسة وعشرون الفا)[4].

---

(١) انظر: وادي المخازن ، ص٥٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٥٣.

(٣) انظر: وادي المخازن ،ص ٥٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٥٦.

وقال أبو عبدالله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن): أن مجموعهم كان مئة وعشرين ألفا، وأقل ماقيل في عددهم ثمانون الف مقاتل[1].

كان مع الجيش البرتغالي: ٢٠,٠٠٠ إسباني، ٣٠٠٠ ألماني، ٧٠٠٠ إيطالي.. وغيرهم عدد كبير . مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعا. وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان.

وكان معهم، المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح مابين ٣٠٠..٦٠٠ رجل على الأكثر[2].

الجيش المغربي:

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠,٠٠٠ مجاهداً يملكون تفوقاً في الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب :

١- ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من ايديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة.

٢- إلتفاف الشعب حول القيادة، تم إلتحام القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الاسلام وفاصلة في تاريخ المغرب وكان الشيخ ابو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات وقد قاد هذا الشيخ أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسناً رائعاً وثبت الى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم ، وعفّ عنها، ولم يأخذ منها شيئاً[3].

وأظهر عبدالملك المعتصم بالله وأخوه ابوالعباس والقادة العثمانيون عبقرية فذة في المعركة.

(لقد حنكت التجارب عبدالملك المعتصم بالله، فعزل عدوه عن اسطوله بالشاطئ

---

(١) انظر: الاستقصا (٦٩/٥) نقلاً عن وادي المخازن، ص٥٦.

(٢) انظر: وادي المخازن ص٥٦.

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص٥٨.

بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندما استدرج سبستيان الى مكان حدده عبدالملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبدالملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها[(1)].

لقد جعل عبدالملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف للرماة المشاة، وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماه فرسان والقوى الاسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلولا البرتغاليين ، واستثمار النصر[(2)].

كان صباح الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ/١٥٧٨م يوماً مشهوداً في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الاسلام.

وقف السلطان عبدالملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، مذكراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر[(3)] :

{ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز} (الحج: آية ٤٠).

{وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم} (الانفال: آية ١٠).

كما ذكر بوجب الثبات:

{يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولهم الأدبار} (الانفال: آية ١٥).

{يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون} (الانفال : آية ٤٥).

---

(١) انظر: وادي المخازن ، ص٦٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٢.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٦٢.

وبضرورة الانتظام:

{إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص} (الصف: آية ٤).

وذكر أيضاً حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للاسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة[1].

ولم يأل القسس والرهبان في إثارة حماس جند أوروبا الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من أوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي أتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبدالملك برد الهجوم الاول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنوده الى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته وماهي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان كذلك. فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه أحمد المنصور وحاجبه رضوان العلج. وصار حاجبه يقول للجند : (السلطان يأمر فلاناً أن يذهب الى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر)[2].

وقاد احمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي ، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الادبار قاصدين قنطرة نهر واد المخازن وكانت تلك القنطرة أثر بعد عين ، نسفها

---

(١) انظر: وادي المخازن ، ص٦٦.

(٢) انظر: وادي المخازن، ص٦٦.

المسلمون بأمر سلطانهم ، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر ، وقتل من قتل ، وصُرع سبستيان وألوف من حوله ، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن.

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للاسلام والمسلمين[1].

جاء في (درة السلوك) لأحمد بن القاضي ، وهو معاصر لأحداث المعركة (مخطوط بدار الوثائق بالرباط د ٤٢٨، ص١٤)[2]:

وابن اخيه[3] بالنصارى اعتصما	وصار يستجدهم لمن سَمَا
أجابه اللعين بستيان[4]	بجيشه ومعه الاوثان
وعدد الجيوش الذي جمعا	ينيف عن مائة ألف سُمعا
فخلص الاسلام من يد اللعين	بصبره على لقاء المشركين
مامنهم إلا قتيل وأسير	في ساعة من الزمان[5] ذا شهيد
مات بها بستيان اللعين	فماله عن الردى معين
ثم محمد[6] الذي أتى به	مات غريقاً يوما فانتبهِ

(١) المصدر السابق نفسه، ص٦٦،٦٧.

(٢) دعوة الحق السنة ١٩ العدد ٨ رمضان ١٣٩٨هـ، ص٥٦ نقلاً عن وادي المخازن ، ص٦٧.

(٣) اشارة الى المتوكل .

(٤) بستيان (لضرورة الوزن) والا فهو سبستيان.

(٥) اشارة الى قصر مدة المعركة.

(٦) محمد المتوكل المخلوع.

لحكمه الله العظيم القاهر	أفادهم وزين المنابر
بذكر عمه أبي العباس	الحازم الرأي شديد الباس
نجل الرسول المصطفى المختار	به زها المغرب على الأقطار [1]

سادساً: أسباب نصر وادي المخازن:

١- القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبدالملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال أبي علي القوري ، والحسن العلج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

٢- التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

٣- رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس ، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين والذين تحت حكمهم في الأندلس.

٤- اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية وشارك كذلك مجموعة من الاندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية .

٥- الخطة المحكمة التي رسمها عبدالملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه الى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

٦- القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبدالملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.

---

(١) برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن .

٧ تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة للفرار.

٨- استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.

٩- وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد(١).

١٠- دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم، وغير ذلك من الاسباب.

سابعاً: نتائج المعركة:

١- أصبح سلطان المغرب بعد عبدالملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسع مئة للهجرة.

٢- وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي الى مقر السلطنة العثمانية، وفي زمن السلطان مراد خان الثالث، والى سائر ممالك الاسلام المجاورة للمغرب وغيرها، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم ووردت الرسائل من سائر الاقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

٣- ارتفع نجم الدولة السعدية في آفق العالم وأصبحت دول أوروبة تخطب ودها واضطر ملك البرتغال الجديد وملك اسبانيا أن يرسلوا وفوداً محملة بالهدايا الثمنية. ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة وبعدها رسل ملك فرنسا واصبحت الوفود (تصبح وتمسي على اعتاب تلك القصور)(٢).

---

(١) انظر: وادي المخازن، ص٧٢،٧٥،٧٤،٧٣.

(٢) الاستقصاء (٩٢/٥) نقلاً عن وادي المخازن، ص٧٠.

٤- سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم ، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس ماريه -المؤرخ البرتغالي- واصفاً نتائج المعركة:

(وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الاعصار ، العصر، الذي لو وصفته -كما وصفه غيره من المؤرخين لقلت: هو العصر النحس البالغ النحوسة ، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال ، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل الذريع ، وانقطع الرجاء واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب([1]).

٥ مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد سبستيان ملك البرتغال، وملك مخلوع خائن محمد المتوكل، ومجاهد شهيد، عبدالملك المعتصم بالله.

٦- سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

٧- سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

٨- حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط على مستوى أوروبا حيث رأوا أهمية الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الاسلامية في المشرق والمغرب([2]).

استمر احمد المنصور على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ماوصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الادارة والقضاء والجيش، وترتيب الأقاليم وتنظيمها، وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات

---

(١) المصدر السابق نفسه (٥/٨٥-٨٦) نقلاً عن وادي المخازن، ص٧٦.

(٢) انظر: وادي المخازن ، ص٧٦.

العمل الرسمية، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وأحدث حروف لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لايعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تحمي به الدولة من الاخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائي ، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (١٦، ١٧م) فقال: (في الوقت الذي كانت أوروبة في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا ، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة ، وهذا ماكان يدعى بقضاء المظالم[١].

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش ، بجوار قصره وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الاقاليم ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الادارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلومتراً بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

وطور عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لايستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية ، ولوكانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الافق بحيث يسمع بدخول المختصين أو ممثلين

---

(١) انظر: دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن ، ص٤١.

المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الامر استشارات على نطاق شعبي واسع(١).

وطور السلطان احمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرتب واللباس واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية واثبتت الايام انه أهل لذلك ومن أهم هذه القيادات ، إبراهيم محمد السُفياني قائد الجبهة الامامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد العمري المعقلي.

ودعم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصا في مينائي العرائش وسلا(٢).

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الاسبان والانجليز والعثمانيين، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والأزدهار والرفاه والخصب لبلاده(٣).

ثامناً: اقتراح عثماني على السعديين:

بدأت القوات الاسبانية في اكتساح الأراضي البرتغالية، ولم يستطع الأمير البرتغالي دون أنطونيو مقاومة تلك القوات الاسبانية، التي ضمت أراضيه لسنة ٩٨٨هـ/١٥٨٠م عند ذلك اقترح السلطان العثماني مراد الثالث عقد تحالف عسكري ضد الاسبان على أساس امداده بأسطول حربي وقوات عسكرية فبعث برسالتين في رجب ٩٨٨هـ/ سبتمبر ١٥٨٠م، قال فيها (. فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الحقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وأنه احتوى على سلطنة برتغالي، أو كاد وانه جعل أهلها في الأغلال والأصفاد، وانه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الإسلامية . لإظهار الألفة الأزلية أن تتخذ عهداً وتؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة .. فإذا تم هذا الشأن . نوجه لكم

---

(١) انظر: وادي المخازن ، ص٤٣،٤٢.

(٢) انظر: وادي المخازن ، ص٤٤.

(٣) انظر: تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، نور الدين حسام ، ص٤٥٨،٤٥٧،٤٥٦.

ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصر وكماه عثمانية تستفتح بها إنشاء الله بلاد الأندلس . (.

كان قلج علي بعد استقرار الدولة العثمانية في تونس بدأت انظاره تتطلع إلى المغرب[1]، وأخذ يعمل في توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي، لضمه إلى الدولة العثمانية[2]، خاصة بعد تذبذب موقف المولى أحمد المنصور الأخير من الدولة صدرت الأوامر إلى قلج علي قائد الأسطول العثماني بالتوجه إلى المغرب لضمه للدولة العثمانية، فوصل قلج علي إلى الجزائر في جمادي الثانية ٩٨٩هـ/ يونيو ١٥٨١م، بينما كان المنصور يرابط بقواته عند نهر تانسيفت، وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل العثماني، إذ جهز المنصور جنوده وتقدم بها حتى حدود بلاده، كما سد مدخل مملكته، وحصن الثغور، وإلى جانب تلك الاستعدادات وجه المنصور سفارة خاصة لأسطنبول وذلك بعد أن توصل إلى شبه اتفاق عسكري مع الملك الاسباني الذي انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة البرتغالية لشبونة في ٢٧ جمادي الثانية ٩٨٩هـ/ ٣١ يوليو ١٥٨١م، على أساس تقديم المساعدة العسكرية للمغرب، لمواجهة التدخل العثماني، مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات أخرى وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثماني بدأ من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن أمر قلج علي[3]، وجعفر باشا نائب قلج علي في الجزائر، بالتخلي عن العمل بالمغرب والانتقال إلى الشرق، حيث اضطربت الأمور بالحجاز فتخلى قلج علي عن هدفه الطموح في استرداد الأندلس، بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الإسلامي[4].

تردد السفراء بين الاستانة وفاس فتوجهت سفارات أحمد بن ودة والشاظمي وابي الحسن علي بن محمد التمكروتي بين عامي ٩٧٩هـ/ ١٥٨٨م، ٩٩٩هـ/١٥٩٠م، واستقبل

(١) انظر: تاريخ الجزائر الحديث ، محمد خير فارس، ص٥٢.

(٢) انظر: تاريخ الجزائر الحديث للجيلاني، ص١٠١.

(٣) انظر: المغرب في عهد الدولة السعدية، ص١١٢.

(٤) انظر: تاريخ الجزائر للجيلاني ، ص١٠١.

أحمد المنصور سفيراً عثمانية في ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م[(١)] لم تتحقق رغبة السلطان العثماني في التحالف مع السعديين لاسترداد الأندلس وذلك بسبب انشغال الدولة بحروبها المضنية ضد الشيعة الصفوية في إيران، والهابسبرج في وسط أوروبا، بالإضافة إلى واجبها نحو حماية مقدسات الأمة الإسلامية في الحجاز، وتدعيم حزامه الأمني[(٢)].

تاسعاً: جهاد الوالي الجزائري وتغير الأوضاع :

جهز الوالي العثماني في الجزائر أسطوله في سنة ٩٩٠هـ/١٥٨٢م لمحاربة اسبانيا فوق أرضها، فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة فأعملوا فيها تدميراً ثم عبروا مضيق جبل طارق وهاجموا جزر الكناري التي تحتلها اسبانيا فدمروا المراكز العسكرية وغنموا مافيها ولم يكن الأسطول العثماني يذهب للأندلس لمجرد التنكيل بالاسبانيين ولتدمير منشآتهم بل كان بالدرجة الأولى لانقاذ المسلمين من نكبتهم وتعرض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم أحياناً[(٣)].

ازداد تطاول الانكشارية في الجزائر على الأهالي في الوقت الذي انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحري على نطاق واسع[(٤)]. لذلك حضر حسن فنزيانو من نشاطه البحري، الذي بادر إلى عودته إلى الجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى بين الجنود، فانتصب على الجزائر للمرة الثانية، وفرض طاعته على الرعية وذلك في ربيع الثاني سنة ٩٩١هـ/ ابريل ١٥٨٣م. ولم يعارض الباب العالي في توليه، لما كان له من العقل في حسم الخلاف وإطفاء نار الفتن واستتباب الأمن بالجزائر .

باشر حسن فنزيانو تسيير الإدارة بما عهد منه من نشاط وحزم فإنه لم يترك قيادة الأسطول العثماني بالجزائر لغيره. وكثرت في أيامه المغانم بما كانت تجلبه السفن من السواحل الاسبانية والجزر الشرقية من نفائس، وبما كان يستولي عليه من الأسرى

---

(١) انظر: بداية الحكم المغربي بالسودان، ص٩٧.

(٢) انظر: جهود العثمانيين ، ص٥٣٢.

(٣) انظر: الجزائر والحملات الصليبية، ص٥٩.

(٤) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص٥٩.

والمغانم في غزواته.

وفي ٩٩٢هـ/١٥٨٤م ابحر حسن فنزيانو بأسطوله على ثغر بلنسية وحمل أعداداً كبيرة من مسلمي الأندلس، إذ أنقذهم من اضطهاد الاسبان، كما استطاع في السنة التالية انقاذ جميع سكان كالوسا، إذ حملهم إلى الجزائر وفي السنة بعدها توغل مراد رايس في المحيط الأطلس فأغار على جزر الكناري وغنم منها غنائم كثيرة بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر، وبقي حسن فنزيانو على رأس الحكومة العثمانية بالجزائر إلى أن استدعاه السلطان في اسطنبول ليتولى منصب إمارة البحر (قبودان دوريا)[1] وذلك بعد وفاة قلج علي سنة ٩٩٥هـ/١٥٨٧م .

عاشراً: انتهاء نظام البيلربك في الجزائر:

بوفاة قلج علي انتهى في الجزائر نظم البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعي السلطة والنفوذ واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس[2] ، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان العثماني في أن يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

وكان الباشا موظف ترسله الاستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سند أساسي أو سند محلي بين القوى التي تسيطر على البلاد[3] ، ويكون الباشا في كل من طرابلس وتونس والجزائر وكيلاً للسلطان ويكون مطلق التصرف لبعد الولاية عن العاصمة اسطنبول.

كانت أحداث مابعد ٩٩٧هـ/١٥٨٨م في نيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطنة فيها على حساب سلطة الباشا إلا أن طبيعة علاقات السلطة في داخل الولاية مع امساك السلطنة العثمانية بسلطة إصدار الغرامات، قد ضمنا تحقيق الأهداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر العام للجيلاني (٣/١٠٣،١٠٢).

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٤١٠.

(٣) انظر: المغرب العربي للعقاد، ٢٨.

وتحصيل الأموال سنوياً والمساهمة في حروب الدولة والقبول بالباشا القادم من الاستانة ممثلاً أعلى للسلطان في حكم النيابة وهي جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية[1].

كان ذلك هو التحول الذي جرى في الدولة نحو الشمال الافريقي، إثر معركة ليبانتوسنه ٩٧٨هـ/١٥٧١م ، فبعد أن كان الشمال الأفريقي تحت مسؤولية البيلربك الموجود في الجزائر، انقسمت المنطقة إلى ثلاث ولايات هي طرابلس وتونس والجزائر وصارت ولايات عادية مثلها مثل سائر الولايات العثمانية الأخرى، لقد كان موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الانكشاريين من جهة وجبهات المشرق من جهة وغير ذلك من الأسباب أضعف همة الدولة في إرجاع الأندلس .

لقد حالت عدة أسباب دون ضم المغرب الأقصى للدولة العثمانية منها:

١- ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ونعني به المنصور السعدي.
٢- وفاة قلج علي في ١٥٨٧م ومن بعده أدخل الشمال الأفريقي في نظام الولايات.

٣- كان النصر الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سبباً في تقدير السلطات العثمانية للسعديين واحترامهم[2] لقد كانت الدولة العثمانية في جهودها البحرية في البحر المتوسط أكثر توفيقاً من البحر الأحمر والمحيطات لعدة أسباب منها:

١- قرب الشمال الأفريقي من كل من اسطنبول ومصر يجعل الامدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة، والتطورات العسكرية مفهومة، بعكس الحال في المحيطات حيث كانت تطورات الأمور لاتصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح.

٢- كانت للعثمانيين قواعد قوية في شمال افريقية تستند إلى خلفية إسلامية واسعة وخبرة عملية في محاربة النصارى وكانوا على استعداد للتعاون مع العثمانيين والدخول تحت نفوذهم.

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٧٧.

(٢) انظر: الشعوب الاسلامية ، د. عبدالعزيز سليمان، ص١٢٢.

٣. لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة في شمال افريقية بل كانت الهيمنة للمذهب السني الذي استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ويجتثها من جذورها[١].

(١) انظر: الشعوب الاسلامية ، د. عبدالعزيز سليمان ص١٢٤.

الفصل الخامس

بداية اضمحلال الدولة العثمانية

اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام (٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م) وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان، إذ وقع السلطان تحت تأثير زوجته روكسلانا التي تدخلت للتآمر ضد الأمير مصطفى ليتولى ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط، مما أدى إلى سخط الانكشارية ونشوب ثورة كبرى ضد السلطان وأخمدها السلطان سليمان، وبذلك تم القضاء على مصطفى وابنه الرضيع وكذلك قتل السلطان ابنه بايزيد وأبناءه الأربعة بدسيسة من أحد الوزراء[١] ومن مظاهر الضعف في عهد سليمان بدء انسحاب السلطان من جلسات الديوان، وبروز سطوة الحريم والعجز عن مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى نشوب القلاقل الشعبية في الروميلي والأناضول[٢].

---

(١) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص١٠٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ، ص٩٤.

المبحث الأول

السلطان سليم الثاني

تولى الحكم في ٩ ربيع الأول سنة ٩٧٤هـ، ولم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقللي(١) لانهارت الدولة، إذ قام بإعادة هيبتها وزرع الرهبة في قلوب أعدائها وعقد صلحاً مع النمسا وأتم توقيع معاهدة في عام ٩٧٥هـ الموافق ١٩٦٧م احتفظت بموجبها النمسا بأملاكها في بلاد المجر ودفعت الجزية السنوية المقررة سابقاً للدولة كما اعترف أمراء ترانسلفانيا والأفلاق والبغدان(٢).

أولاً: تجدد الهدنة مع شارل التاسع ملك فرنسا:

تجددت الهدنة مع ملك بولونيا وشارل التاسع ملك فرنسا في عام ٩٨٠هـ الموافق ١٥٦٩م كما زادت الامتيازات القنصلية الفرنسية وجرى تعيين هنري دي فالوا - وهو أخو ملك فرنسا - ملكاً على بولونيا باتفاق مع فرنسا التي أصبحت بذلك ملكة التجارة في البحر المتوسط. وطبقاً للمعاهدات السابقة فقد قامت تلك الدولة - أي فرنسا - بإرسال البعثات الدينية النصرانية إلى كافة أرجاء البلاد العثمانية التي يسكنها نصارى وخاصة بلاد الشام وقامت بزرع محبة فرنسا في نفوس نصارى الشام مما كان له أثر يذكر في ضعف الدولة، إذ امتد النفوذ الفرنسي بين النصارى وبالتالي ازداد العصيان وتشجعوا على الثورات فكان من أهم نتائج ذلك التدخل الاحتفاظ بجنسية ولغة الأقليات النصرانية حتى إذا ضعفت الدولة العثمانية ثارت تلك الشعوب مطالبة بالإستقلال بدعه، وتأييد من دول أوروبا النصرانية(٣).

إن اقتناع الدول الأوروبية بكون (نظام الامتيازات الأجنبية، حقاً من حقوقها

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص١٢٣.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص١٢٤.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص١٢٤.

الطبيعية هو الذي دفع فرنسة لإرسال جنودها لمساعدة البندقية التي كان السلطان مراد الرابع (١٦٢٤-١٦٤٠م) يحاربها، كما أرسلت سفيرها برفقة عمارة بحرية لإرهاب الدولة العلية ومطالبتها بتحديد الامتيازات. لكن الصدر الأعظم حينئذ والذي كان مازال يمتلك قراره السياسي، أخبر السفير (بأن المعاهدات هذه ليست اضطرارية واجبة التنفيذ ذلك لكونها منحة سلطانية فحسب، الأمر الذي جعل فرنسة تتراجع عن تهديداتها وتتحايل لدى السلطان ليوافق من جديد على تجديد نظام الامتيازات عام ١٦٧٣م، مما زاد الطين بلة، وبدل أن تتعظ الدولة العثمانية مما حدث أمر السلطان محمد الرابع ١٦٤٨-١٦٨٧م) بتفويض فرنسة حق حماية بيت المقدس[1] تتابع بتجديد الامتيازات، وفي كل مرة يضاف قيد جديد على السلطنة ففي تجديد عام ١٧٤٠م أضافت السلطنة امتيازات تجارية جديدة لفرنسة. ولكن الامتيازات تعرضت لتهديد حقيقي عندما احتل نابليون بونابرت مصر، فقد أوقفت السلطنة العمل بها، غير أن نابليون كان قد تراجع في الوقت المناسب حفاظاً على علاقته مع السلطنة، وذلك حين عرض انسحاب فرنسة من مصر لقاء تجديد الامتيازات، وقد تم ذلك بالفعل في ٩ تشرين أو (أكتوبر) ١٨٠١م وأضافت السلطنة امتيازاً جديداً يقضي بمنح فرنسة حرية التجارة والملاحة في البحر الأسود[2].

لقد كانت نتائج هذه الامتيازات وخيمة جداً على السلطنة ولقد بين المؤرخ اليوناني ويمتري كيتسيكس : (. أن الامتيازات حطمت اقتصاد الامبراطورية بتحطيمها النظام الضريبي العثماني القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الاجنبية .)[3]. بل هذه الامتيازات حالت دون قيام السلطنة بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم، لذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين مادام الأوربيون لايخضعون للسلطات العثمانية،

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي، ص٢٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي، ص٢٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٧.

فقد أصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية[1].

ثانياً: حاكم خوارزم يطلب الحماية من السلطان سليم الثاني

اشتكى حاكم خوارزم للسلطان سليم الثاني، من أن شاه فارس يقبض على الحجاج الوافدين من تركستان، بمجرد عبورهم حدوده، وأن موسكو بعد استيلائها على استراخان منعت مرور الحجاج والتجارة، ووضعت العقبات والعراقيل أمامهم، لهذا طلب حاكم خوارزم، وحكام بخارى وسمرقند من السلطان سليم الثاني أن يفتح استرخان بهدف إعادة فتح طريق الحج[2] لاقى ذلك الطلب القبول لدى الدولة العثمانية اعد صوقللي باشا الصدر الأعظم في الدولة حملة كبرى سنة ٩٧٦هـ/٩٧٧هـ/١٥٦٨، ١٥٦٩م للاستيلاء على استراخان وتحويلها إلى قاعدة عثمانية للدفاع عن المنطقة وأن يصل مابين نهري الفولجا والدون بقناة صالحة لمرور السفن لتسهل دخول الأسطول العثماني بحر الخزر (قزوين) عن طريق البحر الأسود لتمكن العثمانيين من وقف التوسع الروسي نحو الجنوب وتطرد الفرس من القوقاز واذربيجان بل وغزو فارس من الشمال، بدلاً من مرور الجيوش العثمانية بأرض أذربيجان الوعرة، والاتصال بالأزبك أعداء الصفويين وتتار القرم، ومن شأن كل ذلك أن يؤدي إلى إحياء طريق القوافل القديمة المارة بأواسط آسيا من الشرق إلى الغرب[3].

شرع العثمانيون في تنفيذ مشروع وصل نهر الدون بالفولجا، وحل شهر جمادي الأولى ٩٧٧هـ/ اكتوبر ١٥٦٩م حتى كان ثلث القناة قد اكتمل، وان يكن موسم الشتاء قد أدى إلى إيقاف العمل، وحينئذ اقترح قائد الحملة استعمال سفن صغيرة محملة بالمدافع والذخيرة لشن الهجوم على استراخان إلا أن الحملة فشلت بسبب الظروف الطبيعية ومع هذا استطاع صوقللي باشا أن يحقق بعض النجاحات كتشديد قبضة السلطان على أمراء مولدافيا وولاشيا وبولندا، وبذلك اعترضت الدولة العثمانية مرحلياً توسع روسيا شمال

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٧٥/١).

(٢) انظر: في أصول التاريخ العثماني ص١٤٤.

(٣) انظر: فتح عدن ، محمد عبداللطيف البحراوي، ص١٤٥.

وغرب البحر الأسود[١].

ثالثاً: فتح قبرص:

كانت إيطاليا واسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص وشاع في أوروبا عن تكون حلف ضد السلطان ولكن لم يعمل شيء في حينه لانقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوها بقوة كاسحة، نفذت إلى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا الحصينة أمام العثمانيين بقيادة باحليون وبراجادنيو الذين واجهوا القوة العثمانية التي وصلت مائة ألف مقاتل استعمل خلالها العثمانيين جميع وسائل الحصار المعروفة، من فر وكر، وزرع للألغام ولم ينتج أي تأثير على الحامية، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة، لصار العثمانيون في خطر، إلا أن المجاعة قامت بعملها، واستسلمت المدينة في ربيع الثاني ٩٧٩هـ / اغسطس ١٥٧١م .

نقلت الدولة العثمانية بعد فتحها لقبرص عدداً كبيراً من سكان الأناضول الذين لايزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة، ورغم ترحيب القبارصة الارثوذكس بالحكم العثماني، الذي انقذهم من الاضطهاد الكاثوليكي الذي مارسته البندقية لعدة قرون، إلا أن احتلال العثمانيين أثار الدولة الكاثوليكية[٢].

رسى الأسطول العثماني بعد انتهاء مهمته في ابنانجني وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشتاء، حيث تتوقف ساحة المعارك في مثل هذا الوقت من السنة، والاستعداد للسنة المقبلة[٣].

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٤٧.

(٢) انظر: في أصول التاريخ العثماني ، ص١٤٦-١٤٧.

(٣) انظر: فلسفة التاريخ العثماني لمحمد جميل بيهم، ص١٤٢.

رابعاً: معركة ليبانتي[1]

ارتعدت فرائص الأمم المسيحية من الخطر الإسلامي العظيم الذي هدد القارة الأوروبية، من جراء تدفق الجيوش العثمانية براً وبحراً فأخذ البابا بيوس الخامس (١٥٦٦ - ١٥٧٢م) يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة وتوحيد قواها براً وبحراً تحت راية البابوية[2] وقد كتب يقول (.. إن السلطنة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا)[3] عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك اسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة في أوائل ٩٧٩هـ/ مايو ١٥٧١م، تعهدوا فيه بالقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين شارك في الحلف كذلك بعض المدن الايطالية، وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف، فارتبطت توسكاني وجنوة، وسافوي، وبعض الايطاليين في الحلف المقدس[4]، وأرسل البابا إلى ملك فرنسا يريد العون: فاعتذر شارل التاسع بحجة ارتباطه بمعاهدات مع العثمانيين، فأجابه البابا طالباً منه التحلل من مواثيقه هذه ولم تمض سوى أيام قليلة حتى نقض الامبراطور عهوده ومواثيقه التي أبرمها مع العثمانيين واتجه نحو إيفان ملك الروس يطلب إجابته نفير الحرب ووجد تباطوأ عند ملك بولونيا واختير (دون جوان) النمساوي قائداً للحملة وجاء في أحد بنود المعاهدة النصرانية : (إن البابا بيوس الخامس وفيليب ملك إسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس)[5].

سار دون جون إلى البحر الادرياتيك ، حتى وصل إلى الجزء الضيق من خديج كورنث بالقرب من باتراس وليس ببعيدة عن ليبانتو والذي اسمها اعطى للمعركة.

---

(١) تقع في الطرف الشمالي للفم الغربي لخليج كورنث في اليونان اليوم.

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٩٦.

(٣) تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٢٥.

(٤) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٥٢.

(٥) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص١٢٦،١٢٥.

كان من رأي قادة الأسطول الإسلامي الإفادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالأسطول الصليبي، غير أن القائد العام علي باشا صمم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوقه في عدد سفنه، ونظم علي باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال إلى الجنوب، بحيث كانت ميمنتها تستند إلى مرفأ ليبانتو، ومسيرتها في عرض البحر، وقد قسمها علي باشا إلى جناحين وقلب فكان هو في القلب وسيروكو في الجناح الأيمن وبقي الجناح الأيسر بقيادة قلج علي.

ومقابل ذلك نظم دون جون قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الإسلامي ووضع جناحه الأيمن بقيادة دوريا مقابل قلج علي، وأسند قيادة جناحه الأيسر إلى بربريجو مقابل سيروكو وجعل دون نفسه لقيادة القلب وترك أسطولاً احتياطياً بقيادة سانت كروز[1].

خامساً: احتدام المعركة:

احتدمت المعركة في ١٧ جمادي الأولى سنة ٩٧٩هـ/ ١٧ اكتوبر ١٥٧١م أحاط الأسطول الإسلامي بالإسطول المسيحي وأوغل العثمانيون بين سفن العدو، ودارت معركة قاسية أظهر فيها الفريقان بطولة كبيرة وشجاعة نادرة[2]، وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل وقيل عشرين الفا، وخسروا ٢٠٠ سفينة حربية منها ٩٣ غرقت والباقي غنمه العدو وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة[3] وأسر لهم عشرة آلاف رجل[4] واستطاع قلج علي انقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التي غنمها ومن بينها السفينة التي تحمل عمل البابا، رجع بها لاسطنبول التي استقبلته استقبال الفاتحين، رغم الشعور بمرارة الهزيمة[5] وبادر السلطان سليم الثاني أثر ذلك

---

(١) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٩٦.

(٢) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٥٤.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص١٢٦.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٢٦.

(٥) انظر: الحرب الثلاثمائة سنة، ص٣٩٩،٣٩٨.

بترفيع قلج علي إلى رتبة قائد البحرية العثمانية (قبودان باشا (، مع الاستمرار في منصبه كبير لبك للجزائر[1] .

سادساً: أثر ليبانتو على أوروبا والدولة العثمانية:

احتفلت القارة الأوربية بنصر ليبانتو، فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين[2] فهلل الأوروبيون وكبروا لذلك الانتصار وأقيمت معالم الزينات في كل مكان وأفرطت في التسبيح بحمد دون جون أمير الأساطيل المتحدة الذي أحرز هذا الانتصار، إلى حد أن البابا لم يتورع عن القول أثناء الاحتفال في كنيسة القديس بطرس، بمناسبة هذا النصر (إن الإنجيل قد عنى دون جون نفسه، حيث بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا) وظل العالم المسيحي ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحري، حتى أن القواميس المدرسية الحديثة لاتذكر ثغر ليبانت، إلا وتذكر معه دون جون المشار إليه على اعتبار أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها[3].

لقد فرح البابا فرحاً عظيماً على الرغم من عدم ارتياحه لأنَّ عدوه لايزال عظيماً مرهوب الجانب وحاول إثارة شكوك الشيعة الأثنى عشرية الصفوية ضد العثمانيين مستغلاً بعض الضغائن والمشكلات والاختلاف العقائدي، فأرسل إلى الشاه طهماسب ملك العجم ومن جملة ماقال له : (. لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين ، إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات ..)[4].

وأرسل يستعدي ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنية عاجلته[5].

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٥٤.

(٢) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص١٤٧.

(٣) انظر: فلسفة التاريخ العثماني، ص١٤٢.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص١٣٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص١٣٦.

إن نتيجة معركة ليبانتو، كانت مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط ومع زوال الخطر، زال الخوف الذي كان قوياً، للمحافظة على حلف مقدسي دائم و استعاد الحسد والغيرة نشاطه بين الدول المسيحية(١).

إن أهمية ليبانتو كانت عظيمة وأسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعد للوجود ثانية على أقل تقدير في البحر، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب حكام إيطاليا، واسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لأوروبا، إذ كانت من الحقيقة القوات العثمانية هائلة في كل المجال البري، والمجال البحري(٢)، كما أن الانتصار المسيحي في ليبانتو ١٥٧١ كان إشارة لتحضير حاسم في ميزان القوة البحرية في البحر المتوسط، كما أنه أنهى عصراً من عصور العمليات البحرية الطموحة في البحر المتوسط، والتي تكاليفها باهظة(٣).

. لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة في إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحرية(٤)، إذا كان هذا الإنكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الإزدهار لقوة الدولة البحرية(٥).

سابعاً: ظهور أطماع فرنسا في الشمال الأفريقي:

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً إلى السلطان العثماني (٩٨٠هـ / ١٥٧٢م) ، وذلك بواسطة سفيره باسطنبول، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها وأن فرنسا مستعدة في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي، فأعرض

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٥٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٥٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٤٥٥.

(٤) انظر: بداية الحكم المغربي في السودان، ص٩٤.

(٥) انظر: فلسفة التاريخ العثماني، ص١٤٢.

السلطان عن السفير الفرنسي ولم يهتم به، ومع ذلك أوغلت فرنسا طموحها والحت على طلبها وسلكت للتوصل إلى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة، حتى تحصلت على امتيازات خاصة، في السقالة وأماكن أخرى على الساحل الجزائري وتصريح من السلطان بإقامة مراكز تجارية(١).

ثامناً: إعادة بناء الأسطول العثماني:

قبل القبودان باشا قلج علي، بهمة ونشاط متزايد، على تجديد الأسطول العثماني، وتعويض ما فقد منه، وما حل صيف ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م، حتى قد هيأ مائتان وخمسون سفينة جديدة، وخرج قلج علي بأسطوله في البحر وارتاعت البندقية من هذا الاستعداد البحري، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية بشروط مخزية إذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكه(٢)، ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التي تسبق فترة الاحتضار البحري ذلك لأن الدولة انصرفت إلى حروب متواصلة ، نشبت بينها وبين النمسا وحليفاتها من جهة، وبينها وبين فارس من جهة أخرى كما أنها انشغلت بإخماد الثورات الداخلية المستمرة(٣) .

تاسعاً: احتلال تونس:

كان فيليب الثاني قد تشجع لاحتلال تونس بسبب لجوء السلطان الحفصي أبي العباس الثاني الذي حكم تونس ٩٤٢-٩٨٠ / ١٥٣٥-١٥٧٢م إليه، وطلب منه المساعدة في إخماد الثورات بإعطائهم امتيازات كبيرة، وتتيح لهم سكن جميع أنحاء تونس، وتتنازل عن عناية وبنزرت وحلف الواد(٤) فرفض أبو العباس الشروط ولكن أخاه محمد بن الحسين

(١) انظر: تاريخ الجزائر العام (٣/٩٧-٩٨).

(٢) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٩٩.

(٣) انظر: جهود العثمانيين،ص٤٥٦.

(٤) انظر: تاريخ الجزائر الحديث ، ص١٤٣.

قبلها[1] بعد ذلك خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقلية في رجب ٩٨١هـ اكتوبر ١٥٧٣م، على رأس أسطول مكون من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرون ألف مقاتل، ونزل بقلعة حلق الواد التي كانت تحتلها اسبانيا، ثم باغت دون جون تونس واحتلها وخرج أهلها بوادي تونس فارين بدينهم من شر الاسبان[2]، كما انسحب الحاكم العثماني الى القيروان[3] وكانت أوروبا قد أدركت أنها لاتستطيع أن تقضي على الدولة إلا مجتمعة[4].

عاشراً: قلج علي واستعداداته الحربية:

اهتم قلج علي بتسليح البحارة وتدريبهم على الأسلحة النارية الحديثة، وقد لفت هذا النشاط البحري انظار كل المقيمين الأجانب وازدادت مكانة قلج علي حتى أن البابا نصح فيليب الثاني ملك اسبانيا أن يسعى لاغرائه[5] وذلك بمنحه راتباً من عشرة آلاف واقطاعية من مملكة نابلس أو غيرها من ممتلكات العرش الاسباني ويتوارثها نسله من بعده، مع لقب كومت أو ماركيز أو دوق، كما شمل المشروع أيضاً منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعديه[6]، وكان البابا يدرك أن مثل هذه المحاولة أن لم تنجح فإنها على الأقل ستثير شكوك السلطان على قلج علي وهو الشخص الوحيد القادر على دعم أمور السلطنة ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة أنها أثارت غضب قلج علي بدلاً من أن تقربه[7]، وأنه لايمكن شراء إمانة المسلم المجاهد إذ أنه وجوده في خدمة الدولة، إنما كان يعني أنه وهب نفسه لسبيل الله وهذا ماسارت عليه الدولة في سياستها في جميع فتوحاتها ولعل ذلك كان سبباً مباشراً في سرعة الفتح ونجاحه، في كل الأقاليم والميادين التي طرقتها

---

(١) جهود العثمانيين، ص٤٥٧.

(٢) حرب الثلاثمائة سنة، ص٣٩٩-٤٠٠.

(٣) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص

(٤) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٥٧.

(٥) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص٥١.

(٦) انظر: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص٢٨٠.

(٧) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص٥١.

الدولة وكان العثماني في أي موقع يخدم الدولة بكل إخلاص وما خدمته تلك، إلا خدمة للإسلام[1].

الحادي عشر: السلطان سليم يصدر أوامره لإعادة تونس :

أصدر السلطان سليم الثاني أوامره إلى وزيره سنان باشا وقبودانه قلج علي بالاستعداد للتوجه إلى تونس، لفتحها نهائياً، واعادة نفوذ الدولة العثمانية اليها، كما صدرت نفس الأوامر والتوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذخيرة، والمؤن والجنود مع مائتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الأحجام، كما أكد على المكلفين بالخدمة في الأناضولي والروم يلي بالإشتراك في السفر بحراً، كما أحضر المجدفين اللازمين للأسطول، وأنذر من لايحضر من المجدفين بالفصل من مناصبهم على أن لايسند إليهم في المستقبل أي عمل وبينما كان الأسطول يتأهب، أخذ حيدر باشا الحاكم العثماني في تونس والذي انسحب للقيروان في حشد المجاهدين من الأهالي الذين التفوا حوله[2].

أبحر الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا وقلج علي في ٢٣ محرم ٩٨٢هـ / ١٤ مايو ١٥٧٤م، فخرج من المضائق ونشر أشرعته في البحر الأبيض، فقاموا بضرب ساحل كالابريا، مسينا، واستطاع العثمانيون أن يستولوا على سفينة مسيحية ومن هناك قطعوا عرض البحر في خمسة أيام[3] في هذا الوقت وصل الحاكم العثماني في تونس حيدر باشا، كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا، كما وصل ثمة متطوعين من مصر[4].

بدأ القتال في ربيع سنة ٩٨١هـ/ ١٥٧٤م، ونجح العثمانيون في الإستيلاء على حلق

---

(١) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٥٨.

(٢) انظر: الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، ص٢٥١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٥٠.

(٤) انظر: حرب الثلاثمائة سنة ، ص٤٠٠.

الواد، بعد أن حوصروا حصاراً محكماً[1] وقامت قوات أخرى بمحاصرة مدينة تونس، ففر الاسبان الموجودن فيها ومعهم الملك الحفصي محمد بن الحسن إلى البستيون[2] التي بالغ الاسبان في تحصينها وجعلوه من أمنع الحصون في الشمال الأفريقي.

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم إلى حصار البستيون، وضيق العثمانيون الخناق على أهلها من كل ناحية وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى أنه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من في البستيون كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود، فعرفه أحد أمراء الجنود فقال له: ما هذا أيها الوزير؟ نحن إلى رأيك أحوج منا إلى جسمك، فقال له سنان: لاتحرمني من الثواب.

وشدد سنان باشا في حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه[3].

لجأ الحفصيون إلى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتضرعات لملوك اسبانيا سعياً لاسترداد ملكهم، واتخذهم الاسبان آلات طيعة تخدم بها مآربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم وقضى سقوط تونس على الآمال الاسبانية في افريقيا وضعفت سيطرتها تدريجياً حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الاسبان نحو إقامة دولة اسبانية في شمال افريقيا وضاع بين الرمال[4].

الثاني عشر: السلطان سليم الثاني يرسل حملة كبرى إلى اليمن:

اضطربت الأحوال في اليمن مع ظهور الزعيم الزيدي المطهر الذي كاتب أهل اليمن ودعاهم للخروج عن طاعة السلطان العثماني فاجتمعت القبائل لدى المطهر الذي

---

(١) انظر: تاريخ الجزائر الحديث، ص٥١.

(٢) البستيون: قلعة بناها الاسبان بجانب تونس.

(٣) انظر: حرب الثلاثمائة سنة، ص٤٠١.

(٤) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٦٠.

دخل صنعاء بعد أن القى بالعثمانيين هزيمة ساحقة[1] وشعرت الحكومة العثمانية بخطورة الموقف وقررت ارسال حملة كبرى إلى اليمن بقيادة سنان باشا وقد اهتم السلطان العثماني سليم الثاني اهتماماً كبيراً بإرسال تلك الحملة، لأن اليمن كان يمثل جزءاً هاماً من استراتيجية العثمانيين في البحر الأحمر وهي غلق هذا البحر أمام الخطر البرتغالي[2] علاوة على ذلك يكون درعاً قوياً للحجاز، وقاعدة للتقدم في المحيط الهندي.

وصل الوزير العثماني سنان باشا إلى مصر تنفيذاً لأوامر السلطان وهناك اجتمعت لديه الجنود في كافة الأنحاء، حتى أنه لم يبقى في مصر إلا المشايخ والضعفاء[3].

تحركت الحملة ووصلت إلى ينبع واستقبله هناك قاضي القضاة في مكة وعند وصوله إلى مكة المكرمة استقبله أهلها ودخلت الجيوش العثمانية معه، وكأن جنود مصر انتقلت إلى مكة بالإضافة إلى جنود الشام وحلب وفرمان ومرعش، وضبط سنان باشا الجنود، وأجرى الصدقات وأحسن على العلماء والفقهاء، ومكث عدة أيام في مكة وغادرها إلى جازان، وعندما اقترب منها، هرب حاكمها من قبل الإمام الزيدي المطهر، وأقام سنان باشا في جازان، فأقبلت عليه العربان يطلبون الطاعة وكان منهم أهل صبيا فأكرمهم سنان باشا وخلع عليهم وكساهم كما أقبلت عليه وفود عربان اليمن وبذلوا الطاعة طالبين الأمان.

أسرع سنان باشا إلى تعز، بعد أن ضبط جازان إذ بلغه أن الوالي العثماني في تعز ومن معه من الجنود في ضيق من أمرهم بسبب قطع عرب الجبال عليهم الميرة، وحصل عليهم المجاعة، فقطع الوزير سنان باشا المسافة في غاية السرعة، ونزل خارج تعز، وانتشر جنوده في جبالها ولما شاهد الزيديون كثافة ذلك الجيش، اعتصموا بأحد الجبال المسمى الأغبر.

قام سنان باشا وجزء من جيشه بمتابعة الزيود في جبل الأغبر، وتمكنوا منه عند ذلك خرج الزيود من مخابئهم لمواجهة العثمانيين، فانهزم الزيود وولوا هاربين فأنعم

---

(١) انظر: البرق اليماني في الفتح العثماني، قطب الدين النهروالي ص١٧٢ ١٧٧.

(٢) انظر: دراسات في تاريخ العرب القديم ، عمر عبدالعزيز، ص١٠٢،١٠٣.

(٣) انظر: غاية الاماني في اخبار القطر اليماني، يحيى بن الحسين (٢/٧٢٣).

سنان باشا على جميع الجنود العثمانيين[1].

الثالث عشر: الاستيلاء على عدن:

جهز سنان باشا حملتان وذلك للإستيلاء على عدن، الأولى عن طريق البحر بقيادة خير الدين القبطان المعروف بقورت أوغلي، واخو سنان باشا، والثانية عن طريق البر بقيادة الأمير حامي وبرفقته عدد من الفرسان.

وكان حاكم عدن قاسم بن شويع من قبل الإمام الزيدي المطهر، قد أظهر شعار الزيدية، فكرهه أهالي عدن لأنهم شافعيون، ثابتون على الكتاب والسنة وبنى مدرسة بإسم مطهر يدرس فيها بعض من مذهب الزيدية، كما استدعى البرتغاليون الذين أرسلوا سفينة وعليها عشرين جندياً، فأطلعهم قاسم إلى القلعة وأراهم مافيها من العدد والآلات وأعطاهم المدافع ليدافعوا عن عدن من جهة البحر ويكون البر للزيدية وأشياعهم إلا أن خير الدين القبطان سبق إلى عدن ورأى من وسط البحر عشرين شراعاً للمسيحيين قاصدة عدن ولما تحقق خير الدين من ذلك توجه بسفنه إليهم فولوا هاربين، وتتبعهم خير الدين حتى اطمأن على ذلك.

لما عاد خير الدين إلى الساحل وأنزل مدافعه فوجهها نحو قلعة عدن منتظراً القوة البرية لتتم محاصرة عدن ففاجأهم الزيود، وإذا بالأمير ماحي قد وصل وأحاطوا بعدن من كل جانب، فهجموا عليها هجمة واحدة ودخلوا عليها من كل جانب، وأعطى خير الدين الأمان للأهالي الذين جاءوا بقاسم بن شويع وولده وذويه، وإذا بشخص منهم تقدم ليقبل يد خير الدين، فضربه بخنجر في بطنه وجرح خير الدين على أثرها، وتقدم الأمير ماحي، وقطع رأس بن شويع لاتهامه بهذه الخيانة وأراد قتل ولده وجميع أتباعه فمنعه الأمير خير الدين عند ذلك فرح لذلك الفتح الوزير سنان باشا وشاركه في ذلك الجنود وزينوا زبيد وتعز وسائر الممالك السلطانية في اليمن، ثم عين الوزير سنان باشا ابن اخته الأمير حسين، وأرسل معه مئتين من الجنود، ورقى جميع الجنود الذين فتحوا عدن[2].

---

(١) انظر: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص٢١٨-٢٢٦.

(٢) انظر: البرق اليماني في الفتح العثماني، ص٢٤٩-٢٥٥.

الرابع عشر: دخول صنعاء :

فرغ سنان باشا في هذا الوقت من جنوب اليمن، فاتجه نحو ذمار وأمر بسحب المدافع لحصار صنعاء، فجهز المطهر نفسه للإنسحاب منها، ونقل ما فيها من الخزائن وتقدم سنان باشا نحو صنعاء بعد أن وعد أهلها بالأمان فاطمأنت قلوبهم واختاروا عدداً منهم لمقابلته، فأكرمهم سنان ودخل صنعاء بعد ذلك إلا أنه لم يستقر فيها بل نهض بجيوشه الجرارة لحرب كوكبان وثلا[1] لأن سنان باشا رأى أنه لن يتمكن من السيطرة على اليمن بأكمله إلا بالقضاء على مقاومة المطهر واتباعه فأخذ يوالي حشد قواته وتبعه في ذلك الوالي العثماني ودامت الحرب سجالاً مايقرب من عامين، انتهت بموت الإمام الزيدي المطهر في مدينة ثلا سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧٣م وقد أتاح موت المطهر للعثمانيين مزيداً من السيطرة وبسط النفوذ حتى تمكن الوالي العثماني حسن باشا من الإستيلاء على ثلا ومدع وعفار وذي مرمر والشرفين الأعلى والأسفل وصعدة مركز الإمامة الزيدية فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنية فترة من الوقت واستطاع حسن باشا أن يأسر الإمام الحسن بن داود الذي استحوذ على الإمامة بعد وفاة المطهر[2].

لقد تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية أولاً ثم البحر الأحمر والخليج العربي كحزام أمني حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين[3].

استطاعت الدولة العثمانية أن تبني درع قوي، حمى الأماكن المقدسة الإسلامية من الهجمات المسيحية، ومع ذلك الدرع فقد احتفظ السلطان بحرس عثماني خاص في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع، كما أقامت الدولة العثمانية محطات حراسة بجوار آبار المياه على طول الطريق بين مصر وسوريا ومكة المكرمة لحماية القوافل، كما قررت الدولة

---

(١) انظر: غاية الاماني في أخبار القطر اليماني، يحيى بن الحسين(٢/٧٣٦).

(٢) انظر: الفتح العثماني لليمن، فاروق اباظة، ص٣٣.

(٣) انظر: جهود العثمانيين، ص٤٨٤.

أن يكون الوالي في جدة ممثلاً للباب العالي في الحجاز، عرف الحجاز في العصر العثماني بثنائية السلطة، وقررت الدولة أن تقسم حصيلة الرسوم الجمركية التي تجمع من السفن في ميناء جدة بين الوالي العثماني وشريف مكة المكرمة[1].

الخامس عشر: دفاع عن السلطان سليم ووفاته رحمه الله:

وصف المستشرق (كارل بروكلمان ([2] السلطان سليم الثاني بأنه اشتهر باسم السكير، وبارتكابه المعاصي والذنوب والكبائر وبمصاحبته صحبة السوء والفسق والعصيان، وتأثر بهذه التهم الدكتور عبدالعزيز الشناوي[3] رحمه الله ورد الدكتور جمال عبدالهادي على هذه الإتهامات فقال:

١- شهادة الكافر على المسلم مردودة، فكيف يسمح الكتاب من أبناء المسلمين لأنفسهم بترديد مثل هذه الشهادات والافتراءات على الحكام المسلمين بدون دليل، ألم يتعلموا في مدرسة الإسلام قال تعالى: {لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً} (سورة النور، آية:١٢) ويقول سبحانه : {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} (سورة الحجر، آية: ٦).

٢- أن المستشرقين ومن سار على نهجهم، دأبوا على تصوير الحكام المسلمين المجاهدين بصورة السكارى الذين لايتورعون عن ارتكاب المحرمات[4]، بل دأبوا على النيل من دين الله، والأنبياء والرسل - عليهم السلام -، فكيف نأخذ عنهم مع علمنا بأنهم غير أمناء[5].

ثم ذكر أهم أعمال السلطان سليم الثاني التي تدل على نفي التهم التي ألصقت به

---

(١)انظر: جهود العثمانيين، ص٤٨٧.

(٢) انظر: الاتراك العثمانيون ، كارل بروكلمان (١٣٧/٣).

(٣) الدولة العثمانية دولة مفترى عليها (٦٧٢/١).

(٤) انظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ص٦٤.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص٦٤.

وتقدم بنصيحة إلى أساتذة التاريخ الذين لايتحرون الصدق والأمانة العلمية فقال: (نصيحة إلى أولئك الذين لايتحرون الحقيقة، ويرمون الناس في دينهم وخلقهم دون بينة أو دليل، أن يتبينوا وليضعوا في الاعتبار أن القذف جريمة، وعليه تقام الحدود، آمل أن ينتبه أساتذة التاريخ ويتورعوا على إيراد أي شبهة أو تهمة تتصل بأي شخص دون دليل أو بينة.

وليضعوا في الاعتبار أن الله يزن الحسنات، ويزن السيئات، ولايزن السيئات فقط دون الحسنات، والمؤرخ يجب أن يستشعر هذا، ويدرك أن الكلمة أمانة وهي شهادة أمام الله عزوجل - ومن هنا يلزمه التأكد من الخبر قبل أن يورده في كتابه)[1].

إن الدارس لتاريخ الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني يدرك مدى القوة والهيمنة التي كانت عليها الدولة (طلب نائب البندقية الصليبية في (استانبول (- في أعقاب معركة ليبانتو، وتحطم الأسطول العثماني مقابلة الصدر الأعظم، (محمد صوقلو باشا (ليسبر غوره ويقف على اتجاهات السياسة العليا للدولة العثمانية تجاه البندقية، وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً: إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى أين هي، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا، إن استيلاءنا على جزيرة (قبرص (كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره، وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا، وإن اللحية لتنمو بسرعة وكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بهما في الوجه لأول مرة ([2]. وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفوري الجاد، وإنصافاً للسلطان سليم الثاني فإنه قد أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني، فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطاني لتبني فيه أحواض السفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة، واستطاع الأسطول الجديد أن

---

(١) انظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، جمال عبدالهادي ، ص٦٥.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (٦٧٨/١).

يعاود جولاته في البحر المتوسط[1].

إن هذا الموقف يؤكد أن الإدارة القوية ليست مجرد حماس، وإنما لابد وأن يقترن ذلك بالعمل الجاد الذي أثمر إعادة بناء الأسطول في فترة وجيزة، وفي هذا دليل أيضاً على الرخاء الذي كانت تعيش فيه الأمة، مافرضت الضرائب، وماصودرت أموال، ولاقالوا موتوا جوعاً لأنه لاصوت يعلو على صوت المعركة، لقد أنفق السلطان سليم من ماله ومال أسرته لأنه تعلم من مدرسة الإسلام[2]، قال تعالى: {وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون} (سورة الأنفال، آية: ٦٠).

وفاته :

إن مؤرخي الغرب ذكروا أن سبب وفاة السلطان سليم الثاني الإفراط الشديد في تناول الخمر، إلا أن المؤرخين المسلمين يذكرون أن سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطة عظيمة مرض منها أيام ثم توفي عام ٩٨٢هـ[3].

---

(١) المصدر السابق نفسه (٦٧٨/١، ٦٧٧).

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي ، ص٦٦.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص١٢٨.

المبحث الثاني

السلطان مراد الثالث

(٩٨٢ - ١٠٠٣هـ/ ١٥٧٤-١٥٩٤م)

تولى العرش بعد وفاة والده، اهتم بفنون العلم والأدب والشعر وكان يتقن اللغات الثلاثة التركية، والعربية والفارسية وكان يميل إلى علم التصوف اشتهر بالتقوى واهتم بالعلماء، صرف للجنود عطايا الجلوس ومقدارها (١١٠,٠٠٠) ليرة ذهبية. فمنع الاضطرابات التي كانت تحدث عادة إذا تأخر صرف تلك الهبات(١).

أولاً: منعه للخمور

وكان من أول أعماله أن أصدر أمر بمنع شرب الخمور بعد ما شاعت بين الناس وأفرط فيها الجنود وخصوصاً الانكشارية، فثار الانكشاريون واضطروه لرفع أمره بالمنع وهذا يدل على ظهور علامات ضعف الدولة بحيث السلطان لايستطيع منع الخمور وإقامة أحكام الشرع عليهم وكذلك يدل على إنحراف الانكشارية عن خطها الإسلامي الأصيل من التربية الرفيعة، وحبها للجهاد وشوقها للشهادة(٢).

ثانياً: وضع الحماية على بولونيا وتجديد الامتيازات:

عمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ السياسة التي انتهجها والده من قبل، ففي عهده قام بعدة حروب في أماكن مختلفة. ففي عام (٩٨٢هـ/١٥٧٤م) هرب ملك بولونيا هنري دي فالوا وذهب إلى فرنسا، فأوصى الخليفة العثماني أعيان بولونيا بانتخاب أمير ترانسلفانيا ملكاً عليهم، ففعلوا، وصارت بولونيا (بولندا) فعلاً تحت حماية العثمانيين عام (٩٨٣هـ/١٥٧٥م) واعترفت النمسا بذلك في معاهدة الصلح التي أبرمتها مع الدولة العثمانية عام (٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م) ومدتها ثماني سنوات، وهاجم التتار على حدود بولونيا

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ، ص١٠٠.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية العثمانية، ص٢٥٩.

عام (٩٨٤هـ/١٥٧٦م) فاستنجدت بالسلطان العثماني فأعلن حمايتها بمعاهدة رسمية[١] وجدد السلطان مراد الامتيازات مع فرنسا والبندقية وزاد بعض الامتيازات القنصلية والتجارية مع زيادة بعض البنود في صالحهما أهمها، أن يكون سفير فرنسا مقدماً على كافة سفراء الدول الأخرى في الاحتفالات الرسمية والمقابلات الحكومية، لقد كثر توارد السفراء على الباب العالي للسعي في إبرام معاهدات تجارية أصبحت ذريعة فيما بعد للتدخل الفعلي في شئون الدولة، وفي زمن السلطان مراد تحصلت إيزابلا ملكة الانجليز على امتياز خصوصي لتجار بلادها وأصبحت السفن الانجليزية تحمل العلم البريطاني وتدخل الشواطئ والموانئ العثمانية[٢].

ثالثاً: الصراع مع الشيعة الصفوية :

وفي عام (٩٨٥هـ/١٥٧٧م) ونتيجة لحدوث اضطرابات في بلاد فارس بعد وفاة طهماسب، أرسل العثمانيون حملة عسكرية، تمكنت من قطع مفازات شاسعة في بلاد القوقاز وفتحت مدينة تفليس وكرجستان (الكرج). ودخل العثمانيون بعدها تبريز عام (٩٩٣هـ/١٥٨٥م) وتمكنت فيها جيوش مراد من السيطرة على أذربيجان والكرج (جورجيا) وشيروان ولوزستان. فلما تولى الشاه عباس الكبير حكم فارس، سعى إلى إقامة صلح مع العثمانيين، تنازل بمقتضاه عن تلك الأماكن التي أصبحت بيد العثمانيين. كما تعهد بعدم سب الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم- في أرض مملكته وبعث بابن عم له يدعى حيدر ميزرا رهينة إلى استنبول لضمان تنفيذ ما اتفقا عليه[٣].

رابعاً: تمرد وعصيان على أيدي الانكشارية :

قام الإنكشاريون بتمرد وعصيان في الولايات العثمانية بعد توقف الحروب، وكان السلطان قد كلفهم بحرب المجر غير أنهم هزموا أمام النمسا التي ساندت المجر، واحتلت عدة قلاع حصينة استردها سنان باشا بعد ذلك. كما أعلن أمراء الأفلاق والبغدان

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث ، ص١٠٠.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص٢٦٠.

(٣) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي، ص١٠١.

وترانسلفانيا التمرد وانضموا إلى النمسا في حربها مع العثمانيين، فسار إليهم سنان باشا عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م غير أنه لم يحرز النصر وخسر عدة مدن(١).

خامساً: مقتل الصدر الأعظم صوقللي محمد باشا:

قتل الصدر الأعظم نتيجة لدسائس جاشية السلطان المتأثرة بدسائس الأجانب الذين لايروق لهم وجود مثل هذا الوزير القدير، الذي سار على منهج الاستقامة، وطريق الحكمة، وبناء الدولة، وحسن القيادة، ودقة التخطيط، وضبط الإدارة، ومتابعة الولاة، واستغلال الفرص، فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة وفتح باب للشر في تنصيب وعزل الصدور العظام والتنافس عليه مما أضعف قوة السلطنة، وارتبكت أحوال البلاد، وتمردت بعض فرق الجيش، ولم تتمكن الحكومة من القضاء على هذا التمرد، ونتيجة لهذه الاضطرابات والثورات الداخلية خرجت بولونيا عن الدولة العثمانية واشتبكت في صراع معهما(٢).

سادساً: اليهود والسلطان مراد الثالث :

ظن اليهود أن الفرصة سانحة لهم لتحقيق حلم راودهم طويلاً، فنزحوا في هجرات متقطعة ومتقاربة إلى (سيناء (لاستيطانها، وكانت خطتهم تقوم في المراحل الأولى على تركيز إقامتهم في مدينة الطور، وكان اختيارهم لهذه المدينة اختياراً هادفاً، فهذه المدينة وهي تقع على الشاطئ الشرقي لخليج السويس لها ميناء يصلح لرسو السفن التجارية، وكان تأتيه سفن من جدة، وينبع، وسواكن، والعقبة، والقلزم، كما كانت المدينة ترتبط براً بخط قوافل مع (القاهرة (و (الفرما (.

وبذلك كان يسهل على اليهود إيجاد اتصالات خارجية فلا يصبحون في عزلة عن العالم بل تستطيع السفن أن ترسو في ميناء (الطور (تحمل أفواجاً من اليهود الجدد.

وقد تزعم حركة التهجير رجل يهودي اسمه (إبراهام)، استوطن (الطور(مع

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٠١.

(٢) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص١٠٢.

أولاده وسائر أفراد أسرته، ولما أقام اليهود بالطور تعرضوا بالأذى لرهبان (ديرسانت كاترين (مما دفعهم إلى إرسال شكاوى مكتوبة إلى سلاطين الدولة العثمانية وولاتها يشتكون من إيذاء اليهود لهم مذكرين بعهد العثمانيين لحمايتهم، ومنع اليهود استيطان (سيناء (ومحذرين من تروح اليهود إلى (سيناء(- وخاصة مدينة (الطور (- في جماعات كثيرة بقصد إيقاع الفتن.

ولما كانت الدولة الإسلامية مسئولة بحكم الشرع عن حماية أهل الذمة، فقد سارع على الفور المسؤولون العثمانيون إلى إصدار ثلاثة فرمانات ديوانية في عهد السلطان (مراد الثالث)، فأمروا بإخراج (إبراهام (اليهودي وزوجته وأولاده وسائر اليهود من (سيناء) ومنعهم في قابل الأيام منعاً باتاً من العودة إليها بما فيها مدينة (الطور (والإقامة بها أو السكنى[1].

سابعاً: وفاة السلطان مراد الثالث :

توفى السلطان مراد الثالث في ١٦ كانون الثاني ١٥٩٥ عن عمر يناهز ٤٩ عاماً ودفن رحمه الله في فناء أيا صوفيا[2].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د. جمال عبدالهادي، ص٦٨.

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٥٥.

المبحث الثالث

السلطان محمد خان الثالث

ولد عام ٩٧٤هـ، وجلس على سرير السلطنة عام ١٠٠٣هـ بعد وفاة والده باثني عشر يوماً، لأنه كان مقيماً في مغنيسا[١]، كانت أمه إيطالية الأصل تسمى صفية[٢].

ورغم حالة الضعف والتدهور التي كانت قد بدأت تعتري الدولة العثمانية إلا أن راية الجهاد ضد الصليبيين ظلت مرفوعة ومما يذكر لهذا السلطان أنه لما تحقق له أن ضعف الدولة في حروبها بسبب عدم خروج السلاطين وقيادة الجيوش بأنفسهم برز بنفسه وتقلد المركز الذي تركه سليم الثاني، ومراد الثالث، ألا وهو قيادة عموم الجيوش، فسار إلى بلغراد ومنها إلى ميادين الوغى والجهاد، وبمجرد خروجه دبت في الجيوش الحمية الدينية والغيرة العسكرية، ففتح قلعة (أرلو الحصينة) التي عجز السلطان سليمان عن فتحها في سنة ١٥٥٦م ودمر جيوش المجر والنمسا في سهل كرزت بالقرب من هذه القلعة في ٢٦ اكتوبر سنة ١٥٩٦ حتى شبهت هذه الموقعة بواقعة (موهاكز)[٣] التي انتصر فيها السلطان سليمان سنة ١٥٢٦م وبعد هذه المعركة استمرت الحروب دون أن تقع معركة حاسمة[٤].

وتعرضت الدولة في زمنه لثورات داخلية عنيفة قادها قره يازيجي وأخرى قام بها الخيالة إلا أن السلطان استطاع القضاء عليهما بصعوبة ومن تلك الأحداث الداخلية يظهر للباحث المدقق اختلال النظام العسكري وعدم صلاحيته لحفظ اسم الدولة وشرفها من أعدائها.

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف ، ص٨٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية ، ص٧٠.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٦٨.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٨.

أولاً: الشيخ سعد الدين افندي

كان من شيوخ السلطان محمد الثالث وممن شجعه على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش وقال للسلطان: (أنا معك أسير حتى أخلص وجودي من الذنوب، فإنني بها أسير)[1].

وفي أحد المعارك كاد أن يؤسر فيها السلطان وفرّ من حوله الجنود والأعوان قال الشيخ سعد الدين أفندي: (أثبت أيها الملك فإنك منصور بعون مولاك، الذي أعطاك، وبالنعم أولاك، فركب السلطان جواده، وحمل سيفه وتضرع إلى القوي العزيز، فما مضت ساعة حتى نزل نصر الواحد القهار وكانت تلك المعركة بعد فتح حصن اكري[2].

ثانياً: من شعره:

كان على نصيب عالٍ من التعليم والثقافة والأدب، وكان شديد التدين ويميل الى التصوف ومن أشعاره ذات المعاني السامية:

لانرضى بالظلم بل نرغب في العدل[3]

نحن نعمل لحب الله، ونصغى بدقة لأوامره[4]

نريد الحصول على رضى الله[5]

نحن عارفون وقلوبنا مرآة العالم.

قلوبنا محروقة بنار العشق في الازل

نحن بعيدون من الغش والخديعة وقلوبنا نظيفة[1]

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني، ص٦٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٣،٦٤.

(٣) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص٥٧.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٣٦.

(٥) انظر: السلاطين العثمانيون ، ص٥٧.

ثالثا: وفاته:

توفي السلطان محمد الثالث بعد أن أخمد الحركات التمردية، والثورات العنيفة، وقاد الجيوش بنفسه وكانت وفاته في نهار الأحد الثامن عشر من رجب سنة اثنتي عشرة وألف، ومده حكمه تسع سنين، وشهران ، ويومان، وله من العمر ثمان وثلاثون سنة[(١)].

وكان هذا السلطان عندما يسمع اسم نبينا محمد ﷺ يقوم إجلالاً واحتراماً لسيد الكائنات[(٢)].

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني، ص٦٤.

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٥٧.

المبحث الرابع

السلطان احمد الاول

(١٠١٢-١٠٢٦هـ/١٦٠٣-١٦١٧م)

تولى الحكم بعد وفاة والده وعمره ١٤ سنة ولم يجلس احد قبله من سلاطين العثمانيين في هذه السن على العرش وكانت أحوال الدولة مرتبكة جداً لانشغالها بحروب النمسا في أوروبا وحرب إيران والثورات الداخلية في آسيا. فأتم مابدأ به ابوه من تجهيزات حربية[١].

أولاً: الحرب مع النمسا والدول الأوروبية :

عين السلطان أحمد لالا محمد باشا صدراً أعظم خليفة للصدر الأعظم يمشجي حسن باشا، حيث كان سرداراً عاماً للجيوش التي جاهدت في النمسا وهو من خيرة قواد الجيوش، فاهتم بتقوية الجيوش العثمانية وحاصر قلعة استراغون وفتحها. كما حارب إمارات الأفلاق والبغدان والأردل وعقد صلحاً معهم. ولما مات لالا باشا خلفه قبوجي مراد باشا صدراً أعظم وكان قائداً لإحدى فرق الجيش، وقد نجحت الجيوش العثمانية في هزيمة النمسا واسترداد القلاع الحصينة من مدن يانق واستراغون وبلغراد وغيرها كما نجحت الجيوش العثمانية في جهادها بالمجر وهزمت النمسا هناك. ونجم عن ذلك، قبول النمسا بطلب الصلح ودفع جزية للدولة العثمانية مقدارها مائتا ألف دوكة من الذهب، وبقيت بلاد المجر بموجب هذه المعاهدة تابعة للدولة العثمانية[٢].

وجرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن إسبانيا، ورهبان القديس يوحنا في مالطة، والإمارات الإيطالية، وتراوح النصر بين الجانبين[٣].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ن ص١٠٥.

(٢) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي، ص١٠٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٠٥.

ثانياً: تجديد الامتيازات :

وجددت الدولة امتيازات فرنسا، وانجلترا، على مثلها، كما جددت الاتفاقية مع بولونيا بحيث تمنع الدولة تتار القرم من التعدي على بولونيا، وتمنع بولونيا القازاق، من التعدي على الدولة العثمانية[1] .

وتحصلت هولندا على امتيازات، واستغلت ذلك في نشر الدخان داخل ديار الإسلام وبدأ تعاطيه من قبل الجنود، فأصدر المفتي فتوى بمنعه فهاج الجند، وأيدهم الموظفون، فاضطر العلماء إلى السكوت عنه[2] .

وهكذا أصبح الجند ينقادون خلف شهواتهم ويعترضون على العلماء.

إن القوى الأجنبية الكافرة تهتم بنشر كل محرم في أوساط المسلمين.

إن الله تعالى أحل لنا الطيبات النافعة وحرم علينا الخبائث الضارة لأجسامنا وعقولنا وأموالنا ولذلك أفتى العلماء - رحمهم الله تعالى - بتحريم شرب الدخان وبيعه وشرائه لما فيه من الأضرار الدينية والدنيوية والإجتماعية والصحية وهي:

١- أنه دخان لايسمن ولايغني من جوع.

٢- أنه مضر بالصحة الغالية وما كان كذلك يحرم استعماله.

٣- أنه من الخبائث المحرمة قال تعالى: {يحل لهم انطيبات ويحرم عليهم الخبائث} (الأعراف، آية: ١٥٧).

٤- إن رائحة الدخان تؤذي الناس الذين لايستعملونه بل وتؤذي الملائكة الكرام لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم وقد حرم الله تعالى أذية المسلم قال تعالى: {والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا. فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً} .

وغير ذلك من الأدلة التي ذكرها العلماء ولكن لضعف الوازع التربوي، وضعف

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٠٥.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص٧٢.

سلطان الدولة التي تشرف على تنفيذ الأحكام يحدث التمرد من قبل الجنود والأفراد.

ثالثاً: الحرب مع الشيعة الصفوية (الفرس):

انتهز الشاه عباس الصفوي فرصة اضطراب الدولة العثمانية وباشر في تخليص عراق العجم واحتل تبريز ووان وغيرهما واستطاع أن يحتل بغداد والأماكن المقدسة الشيعية في النجف وكربلاء والكوفة، وقد زارها وسط مظاهر الإجلال والتقديس، وقد أورد بعض المؤرخين أنه قضى عشرة أيام في زيارته للنجف حيث قام بنفسه بخدمة الحجاج في ذلك المكان كما يذكرون أيضاً أنه إمعاناً في إعلان تمسكه بالمذهب الشيعي وولائه للرفض، وعلى الرغم من تعصبه الشديد للمذهب الشيعي إلا أنه رفع أيدي رجال الدين عن التدخل في شئون الحكم والسياسة ومارس نوعاً من السلطة المطلقة في حكم البلاد.

وقد أنزل الشاه عباس الصفوي أقسى أنواع العقاب بأعداء الدولة من السنة فإما أن يقتلوا أو تسمل عيونهم، ولم يكن يتسامح مع أي منهم إلا إذا تخلى عن مذهبه السني وأعلن ولائه للمذهب الشيعي[1]، واضطرت الدولة العثمانية أن تترك للدولة الصفوية الرافضية الشيعية جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون في عهد السلطان الغازي سليمان الأول بما فيها مدينة بغداد. وهذه أول معاهدة تركت فيها الدولة بعض فتوحاتها وكانت فاتحة الانحطاط والضعف وأول المعاهدات التي دلت على ضعف الدولة العثمانية[2].

لقد بالغ الشاه عباس الصفوي في عداءه للمذهب السني واتصل بملوك المسيحيين، وامعاناً في ضرب الدولة العثمانية حامية المذهب السني فقد عقد اتفاقات تعاون مشترك معهم من أجل تقويض أركان الدولة العثمانية السنية، ولم يكن يعبأ حتى إذا قدم العديد من التنازلات للدول الأوروبية تأكيداً لتعاونه معهم انطلاقاً من عدائه للدولة العثمانية.

وعامل الشاه عباس الصفوي المسيحيين في إيران معاملة حسنة على عكس معاملته للسنة، وقد كان لمعاملته المتميزة للمسيحيين أن نشطت الحركة التنصيرية

---

(١) انظر: الاسلامي آسيا ، د. محمد نصر مهنا، ص٢٥٠،٢٤٩.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٧٢.

المسيحية في إيران كما شجع التجار الأوروبيين في عقد صفقات تجارية كبيرة مع التجار في إيران وأصبحت إيران سوقاً رائجاً للتجارة الأوروبية، لقد توج تسامحه مع المسيحيين بأن أعلن في عام ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م اوامره بعدم التعرض لهم والسماح لهم بحرية التجول في ربوع الدولة الصفوية وجاء بالمرسوم الذي أصدره شاه الدولة الصفوية مايلي: (.. من اليوم يسمح لمواطني الدولة المسيحية ومن يدينون بدينهم بالحضور إلى أي بقعة من وطننا ولايسمح لأي شخص بأي حال من الأحوال إهانتهم، ونظراً لما بيننا وبين الملوك المسيحيين من علاقات ود ومحبة فيسمح للتجار المسيحيين بالتجول في جميع أنحاء إيران، ومزاولة نشاطهم التجاري في أي بقعة من الوطن، دون أن يتعرض لهم بالإيذاء من أي شخص سواء كان حاكماً او اميراً او خاناً او موظفاً أو تابعاً للدولة كما تعفى جميع أموال تجارتهم التي يحضرونها معهم من ضرائب المال وليس لأي شخص مهما يحضرونها معهم من ضرائب المال وليس لأي شخص مهما بلغت مكانته أن يزاحمهم أو يكلفهم المشاق، وليس من حق رجال الدين مهما كانت طوائفهم التجرؤ على الإضرار بهم أو التحدث معهم بخصوص العقائد المذهبية)[1].

لقد جامل الشاه عباس الصفوي المسيحيين وشرب معهم الخمر احتفالاً بأعيادهم كما أنه سمح لهم بالتبشير بالمسيحية في داخل إيران، وأعطاهم امتيازات ببناء الكنائس المسيحية في كبرى المدن الإيرانية وهذه المعاملة للمسيحيين كانت نكاية في الدولة العثمانية السنية[2].

إن تاريخ الشيعة الأثنى عشرية طافح بالعداوة والبغضاء لأهل السنة ودولتهم الميمونة إينما كانوا وحيثما وجدوا ولايزال هذا العداء مستمراً رغم الشعارات السياسية الرنانة التي يرفعها الروافض بين الحين والآخر.

---

(١) انظر: الاسلام في آسيا، ص٢٥١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٥٢.

رابعاً: الحركات الإنفصالية :

ظهرت إلى حيز الوجود في عصر السلطان أحمد الأول حركات داخلية تهدف إلى تقويض كيان الدولة وبنيانها مثل حركة (جان بولاد (الكردي، وحركة والي أنقرة (قلندر أوغلي (، وحركة فخر الدين الدرزي المعنى الثاني حفيد (فخر الدين المعنى الأول (الذي انضم إلى السلطان سليم الأول عندما دخل الشام عام (٩٢٢هـ)[١].

وسبب تلك الحركات اضطرابات داخلية حتى هيأ الله للدولة وزيراً محنكاً أكسبه تقدم السن مزيداً من الخبرات والتجارب فعين صدراً أعظم فكان عوناً للسلطان الفتى وانتصر على الثائرين وخاصة ثائر الأناضول قلندر أوغلي الذي كان قد عين والياً على أنقرة فقد نكلت به الدولة، وتمكن الصدر الأعظم قبوجي مراد باشا من تطهير الأناضول من أولئك الثائرين[٢].

خامساً: حركة فخر الدين بن المعنى الثاني الدرزي:

اعتلى فخر الدين بن المعنى الثاني السلطة في لبنان عام ٩٩٩هـ وكان درزياً وصولياً كبيراً واستطاع أن يجمع المعادين للإسلام من نصارى ونصيرية، ودروز، وأمثالهم[٣].

نبذة عن الدروز:

فرقة باطنية تؤله الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، أخذت جل عقائدها عن الإسماعيلية، وهي تنتسب إلى نشتكين الدرزي، نشأت في مصر ثم انتقلت إلى الشام، عقائدها خليط من عدة أديان وأفكار، كما أنها تؤمن بسرية أفكارها، فلا تنشرها على الناس[٤].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د.جمال، ص٧٠.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون، ص١٣٢.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص٧١.

(٤) انظر: الموسوعة الميسرة في الاديان (٤٠٠/١).

من أهم معتقداتها وأفكارها:

- يعتقدون بألوهية الحاكم بأمر الله ولما مات قالوا بغيبنه وأنه سيرجع.

- ينكرون الأنبياء والرسل جميعاً ويلقبونهم بالأبالسة.

يعتقدون بأن المسيح هو داعيتهم حمزة.

- يبغضون جميع أهل الديانات الأخرى والمسلمين منهم بخاصة ويستبيحون دماءهم وأموالهم وغشهم عند المقدرة.

- يعتقدون بأن ديانتهم نسخت ماقبلها وينكرون جميع أحكام وعبادات الإسلام واصوله كلها.

- ولا يكون الانسان درزياً إلا إذا كتب أو تلي الميثاق الخاص.

- يقولون بتناسخ الأرواح وأن الثواب والعقاب يكون بانتقال الروح من جسد صاحبها الى جسد أسعد أو اشقى.

- ينكرون الجنة والنار والثواب والعقاب الأخرويين.

- ينكرون القرآن الكريم ويقولون أنه من وضع سلمان الفارسي ولهم مصحف خاص بهم يمس المنفرد بذاته.

- يرجعون عقائدهم الى عصور متقدمة جداً يفتخرون بالانتساب الى الفرعونية القديمة والى حكماء الهند القدامى.

- يبدأ التاريخ عندهم من سنة ٤٠٨هـ وهي السنة التي أعلن فيها حمزة ألوهية الحاكم.

- يعتقدون أن القيامة هي رجوع الحاكم الذي سيقودهم الى هدم الكعبة وسحق المسلمين والنصارى في جميع أنحاء الأرض وانهم سيحكمون العالم الى الأبد ويفرضون الجزية والذل على المسلمين.

- يعتقدون أن الحاكم أرسل خمسة أنبياء هم حمزة واسماعيل ومحمد الكلمة

وأبوالخير وبهاء.

- يحرمون التزاوج مع غيرهم والصدقة عليهم ومساعدتهم كما يمنعون التعدد وإرجاع المطلقة.

- يحرمون البنات من الميراث.

- لا يعترفون بحرمة الأخ والأخت من الرضاعة.

يقولون في الصحابة أقوالاً منكرة منها قولهم: الفحشاء والمنكر هما (أبوبكر وعمر) رضي الله عنهما.

- لايصومون في رمضان ولا يحجون الى بيت الله الحرام، وإنما يحجون الى خلوة البياضة في بلدة حاصبية في لبنان.

- إن الجذور الفكرية والعقائدية للدروز ترجع الى المذهب الباطني ، وخاصة الباطنية اليونانية متمثلة في ارسطو وأفلاطون وأتباع فيثاغورس واعتبروهم أسيادهم الروحانيين، وأخذوا جُلّ معتقداتهم عن الطائفة الاسماعيلية، وتأثروا بالدهريين في قولهم بالحياة الأبدية ، وبالبوذيين في كثير من الأفكار والمعتقدات ، كما تأثروا ببعض الفلاسفة الفرس والهند والفراعنة القدامى(١).

هذه نبذة مهمة عن معتقدات الدروز حتى تتعلم الأجيال من هم أعدائهم، وكيف يتحينون الفرص للقضاء على الاسلام وأهله.

فهذا فخر الدين بن المعنى الثاني، أظهر تقربه من الخليفة العثماني وأعلن طاعته له حتى تمكن من جبال لبنان ، والسواحل وفلسطين ، وأجزاء من سورية، ولما قوي أمره فاوض الطليان فدعموه بالمال وبني القلاع والحصون ، وكون لنفسه جيشاً زاد على الأربعين ألفاً، ثم أعلن الخروج على الدولة العثمانية عام (١٠٢٢م) ، غير انه هزم وفرّ الى (إيطاليا(، وكان قد تلقى الدعم من إمارة (فلورنسا(الإيطالية ، ومن البابا، ورهبان

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الاديان (١/٤٠٠ الى ٤٠٤).

جزيرة مالكة (فرسان القديس يوحنا)[1].

وقد عاد فخر الدين الى لبنان عام ١٦١٨م بعد أن أصدر السلطان فرماناً بالعفو عنه واندفع لتغريب البلاد ثم أعلن التمرد من جديد مستغلاً الحرب العثمانية الصفوية الشيعية ولكنه فشل وأسر وسيق الى استانبول ثم اندلعت الثورة عام ١٠٤٥هـ ولكنه هذه المرة أسر وشنق، وفشلت الحركة المسلحة التي قادها ابن أخيه ملحم للأخذ بثأره[2].

سادساً: وفاة السلطان أحمد الأول:

كان رحمه الله في غاية التقوى، وكان رجلاً مثابراً في الطاعات، ويباشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعاً في ملابسه، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم والمعرفة، والقيادة وكان شديد الحب للنبي ﷺ ، وفي عهده بدأ ارسال ستائر الكعبة الشريفة من استانبول ، وقبل ذلك كانت ترسل من مصر، توفي رحمه الله في ١٦١٧م ودفن عند جامع سلطان أحمد[3].

وكان يعمل هذه الابيات الشعرية واضعاً إياها تحت عمامته:

أرغب دوماً في حمل صورة	انطباع أقدام النبي عالي المقام
من هو سيد الأنبياء	فوردة لحديقة الأنبياء ملكة هذه الأقدام الشريفة
فيا أحمدي لا تتردد ولو للحظة	ومرغ وجهك بأقدام الوردة الرفيعية الشريفة[4]

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص٧٦.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٣٢.

(٣) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٥٩.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص١٣٢.

المبحث الخامس

بعض السلاطين الضعاف

أولاً: السلطان مصطفى الأول:

تولى السلطة بعد وفاة أخيه عام (١٠٢٦هـ) ، ومنذ عهده يظهر جلياً أن يداً أجنبية كانت خلف تعيين وإزاحة الخلفاء، فهذا السلطان عزل بعد ثلاثة أشهر ، وجيء بأبن أخيه (عثمان الثاني) الذي لم يزد عمره على الثالثة عشر[1].

ثانياً: السلطان عثمان الثاني (١٠٢٦- ١٠٣١هـ/١٦١٧- ١٦٢١م)

تولي الحكم بعد عزل عمه مصطفى الأول، وكان صغيراً لم يزد عمره على الثالثة عشرة، أعلن الجهاد على بولونيا لتدخلها شؤون إمارة البغدان، وتم الصلح بين الطرفين عام ١٠٢٩هـ/١٦٢٠م بناء على طلب بولونيا، وطلب الانكشارية ، الذين تعبوا من مواصلة القتال، فغضب الخليفة عليهم[2] من طلبهم الراحة وخلودهم الى الكسل وإلزامه على الصلح مع بولونيا ، فعزم على التخلص من هذه الفئة الباغية ، ولأجل الاستعداد لتنفيذ هذا الأمر الخطير أمر بحشد جيوش جديدة في ولايات آسيا وأهتم بتدريبها وتنظيمها وشرع فعلاً في تنفيذ هدفه ، وعلمت الانكشارية بذلك فهاجوا وماجوا وتذمروا واتفقوا على عزل السلطان وتم لهم ذلك في ٩ رجب سنة ١٠٣١هـ (٢٠ مايو سنة ١٦٢٢م) وأعادوا مكانة السلطان مصطفى وقتلوا السلطان عثمان الثاني ترك لنا بعض الأشعار منها:

كانت نيتي الخدمة لحكومتي ودولتي ... وللعجب ان الحسود يعمل لنكبتي[3]

تولى السلطان مصطفى الحكم وللمرة الثانية إثر فتنة الانكشارية وصارت الحكومة ألعوبة بأيديهم، ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم وأصبحت المناصب

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د.جمال ، ص٧٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي، ص١٠٦.

(٣) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٦١.

تباع جهاراً وارتكبوا أنواع المظالم[1] وتغير الوزراء الصدور في مدته هذه سبع مرات خلال عام واحد وأربعة شهور، وكان الخلاف قد دب بين أمراء الأناصول وفرقة السباهية على استمرار الوزراء الصدور، حتى أن بعضهم لم يكمل شهراً واحداً. ونظراً لضعف السلطان وعجزه عن إدارة شؤون البلاد، تم عزله وتنصيب الأمير مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول[2].

ثالثاً: مراد الرابع (١٠٣٢- ١٠٤٩هـ/١٦٢٢- ١٦٣٩م):

تولى أمر السلطنة بعد عزل عمه مصطفى عام ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م وهو أخو عثمان الثاني ، ولصغر سنه فقد سيطر الانكشارية عليه. وكانت أحوال الدولة سيئة للغاية، فقام بإصلاح الأحوال الداخلية أولاً حتى تسنى له التفرغ للأحوال الخارجية ولذلك بدأ بالقضاء على طغاة العسكر الذي قتلوا أخاه السلطان عثمان[3] وأعدم جميع المتأسدين في استانبول وفي جميع أنحاء الدولة، وأسس تشيكلات قوية للمخابرات وثبت من خلالها اسماء جميع المستبدين في الدولة، وكان اذا صادف بلداً في اسفاره كان يدعوا مستبديها باسمهم ويعدمهم[4].

منع في عهده الخمر والتدخين وأعدم كل مرتد عن الاسلام[5].

الحرب مع الشيعة الصفوية:

اندلعت الحرب مع الشيعة الصفوية في العراق عام ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م، فقاد السلطان مراد الجيوش بنفسه واتجه الى بغداد، وكان عباس شاه فارس قد استولى عليها وقتل واليها العثماني واذل أهل السنة بها وعمل بهم الأفاعيل ، فحاصر مراد بغداد وهدم جزءاً كبيراً

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٢٧٩.

(٢)انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص١٠٧.

(٣)انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص١٠٧.

(٤) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٦٢.

(٥) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٣٦.

من اسوارها بالمدفعية ودخلها عام ١٠٤٨هـ وقتل من جنود الشيعة عشرين الفا، ثم أقام بها مدة جدد عمارتها، وأصلح ماتهدم من أسوارها ، وعين لها وزيراً ، وكان هذا السلطان يباشر الحروب بنفسه، ويخالط جنوده، وينام أحياناً في الغزوات على حصانه(١).

وفاته:

مرض سنة ١٦٤٠م وكان يخشى عليه من الموت ولكن شفي ثم مرض من جديد وتوفي رحمه الله في ٨ شباط ١٦٤٠م(٢) بسبب مرض النقرس وامتد حكمه ١٦ سنة و١١ شهراً استلم الخزينة عند ارتقائه العرش فارغة وتركها مملوءة عند وفاته(٣)، لقد كان هذا السلطان عاقلاً شجاعاً ثاقب الرأي ، استأصل الفساد وقمع العصاة، ولقب بمؤسس الدولة الثاني لأنه أحياها بعد السقوط واصلح حال ماليتها(٤).

رابعاً: السلطان ابراهيم بن أحمد (١٠٤٩- ١٠٥٨هـ/١٦٣٩- ١٦٤٨م):

تولى الحكم بعد أخيه مراد الذي لم يعقب ذكوراً، ولم يبق بعد موت السلطان مراد الرابع من نسل آل عثمان سوى أخيه السلطان ابراهيم، الذي كان مسجوناً مدة سلطنة اخيه ، ولما توفي أخيه أسرع كبار المملكة الى مكان الحبس ليخبروه بذلك، فعندما قدموا ظن أنهم قادمون لقتلة، فخاف وذعر ولم يصدق ماقالوه له، ولذلك لم يفتح لهم باب السجن ، فكسروه ودخلوا عليه يهنئونه، فظن أنهم يحتالون عليه للأطلاع على ضميره، فرفض قبول الملك بقوله: إنه يفضل الوحدة التي هو بها على ملك الدنيا، ولما أن عجزوا عن إقناعه، حضرت إليه والدته وأحضرت له جثة أخيه دليلاً على وفاته وحين ذلك جلس على سرير السلطنة، ثم أمر بدفن جثة أخيه باحتفال وافر ، وساق أمامها ثلاثة أفراس من جياد الخيل التي كان يركبها في حرب بغداد ثم مضى الى جامع أيوب

---

(١) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٦٣.

(٢)انظر: السلاطين العثمانيون، ص٦٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٦٣.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص١٣٦.

الانصاري، وهناك قلدوه بالسيف، ونادوا له بالخلافة[1].

كان يقول عند ارتقائه العرش: الحمدلله اللهم جعلت عبداً ضعيفاً مثلي لائقاً لهذا المقام اللهم اصلح واحسن حال شعبي مدة حكمي واجعلنا راضيا بعضاً عن بعض[2].

ولقد دافع عنه صاحب كتاب السلاطين العثمانيون وقال إن الافتراءات الكاذبة التي قيلت في حقه اكاذيب مختلفة من قبل الذين ارادوا عزله ثم قتلوه بعد ذلك[3].

كانت الأحوال الداخلية شبه مستقرة بسبب اصلاحات أخيه نحو الانكشارية، وتجديد الجيش ، فاتجه الى الاقتصاد في نفقات الجيش والاسطول وإصلاح النقد وإقامة النظام الضرائبي على أسس جديدة[4].

استطاع الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا أن يوقف تدخل النساء في شؤون السلطنة وتمكن من القضاء على محاولات رجال البلاط السلطاني لإفساد الدولة وقضى على العابثين والمفسدين وقاطعي الطريق في مختلف الولايات[5].

الحرب ضد البنادقة:

كانت جمهورية البنادقة تهيمن على جزيرة كريت وعلى الحركة التجارية في بحر إيجة مستغلين الصلح مع الدولة العثمانية، فعزم العثمانيون على تدمير نفوذ البنادقة في اشرق، فجهزت الجيوش والأسطول وأعلنت الحرب على البنادقة، واعتقل جميع البنادقة في طول البلاد وعرضها وأمر بمصادرة أموالهم وممتلكاتهم، ثم سير حملة الى جزيرة كريت عام ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م واستولت على أجزاء منها[6]، ولكن الجنود تمردوا في

---

(١) انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان ، يوسف آصاف، ص ١٠٥.

(٢) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٦٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٦٤.

(٤) انظر: الدولة العثمانية، د.اسماعيل ياغي، ص١٠٨.

(٥) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، اسماعيل سرهنك، ص١٥٠.

(٦) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٠٩.

استانبول وأهاجوا وماجوا وقرروا عزل السلطان ابراهيم وتولية ابنه محمد الرابع الذي لم يتم السابعة من عمره وقتل السلطان ابراهيم وقد امتد حكمه ٨ سنين و٩ شهور وكان عمره ٣٤ سنة[١].

خامساً: السلطان محمد الرابع (١٠٥١- ١١٠٤هـ/١٦٤٢- ١٦٩٢م):

ولد هذا السلطان عام ١٠٥١هـ، وتولى المسؤولية وهو ابن سبع سنوات ورأت أوروبا أن الوقت حان للنيل من الدولة العثمانية؛ لذلك كونت أوروبا حلفاً ضم : النمسا، وبولونيا، والبندقية، ورهبان مالطة، والبابا، وروسيا وسموه (الحلف المقدس) وذلك للوقوف في وجه المد الاسلامي الذي اصبح قريباً من كل بيت في أوروبا الشرقية بسبب جهاد العثمانيين الأبطال وبدأ الهجوم الصليبي على ديار الدولة العثمانية وقيض الله لهذه الفترة (آل كوبريلل) الذين ساهموا في رد هجمات الاعداء وتقوية الدولة، فالصدر الاعظم محمد كوبريللي المتوفي عام (١٠٧٢هـ/١٦٦١م) فأعاد للدولة هيبتها ، وسار على نهجه ابنه (احمد كوبريللي) الذي رفض الصلح مع النمسا والبندقية وسار على راس جيش لقتال النمسا، وتمكن عام ١٠٧٤هـ أن يفتح أعظم قلعة في النمسا وهي قلعة نوهزل شرقي فينا في ٢٥ صفر ١٠٧٤هـ/٢٨ سبتمبر ١٦٦٣م وفي عهد هذا الصدر الاعظم حاولت فرنسا التقرب من الدولة العثمانية، وتجديد الامتيازات ، غير أن الصدر الاعظم رفض ذلك، ثم حاولت فرنسا التهديد حيث ارسل (لويس الرابع عشر(ملك فرنسا السفير الفرنسي مع أسطول حربي، وهذا مازاد الصدر الاعظم إلا ثباتاً، وقال : (إن الامتيازات كانت منحة، وليست معاهدة واجبة التنفيذ)[٢].

لقد تراجعت فرنسا أمام تلك الارادة الحديدية واستعملت سياسة اللين والخضوع للدولة العثمانية حتى جددت لها المعاهدات القديمة وأعادت لها امتياز حماية بيت المقدس عام ١٠٨٤هـ[٣].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص١٣٧.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص٧٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٧٤.

وبوفاة الصدر الاعظم (أحمد كوبريللي(ضعف النظام العثماني، وهاجمت النمسا بلاد المجر، واغتصبت قلعة نوهزل ومدينة بست ومدينة بودا، واغار ملك بولونيا على ولاية البغدان، وأغارت سفن البندقية على سواحل المورة واليونان واحتلت أثينا وكورنثة عام ١٠٩٧هـ وغيرها من المدن.

وتذكر كتب التاريخ أن العلماء ورجال الدولة قد اتفقوا على عزل السلطان (محمد الرابع) فعزل عام ١٠٩٩هـ، وتولى مكانه أخوه سليمان الثاني[(١)].

سادساً: السلطان سليمان خان الثاني:

ولد عام ١٠٥٢هـ وتولى الحكم بعد أخيه (محمد الرابع) عام ١٠٩٩هـ واستمر التدهور في الدولة العثمانية في عهده، وازدادت شراسة الأعداء على عهده، فاغتصبت النمسا كثير من المواقع والمدن ومنها بلجراد عام ١٠٩٩هـ، كما احتلت البندقية وسواحل دالماسيا السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك وبعض الأماكن في اليونان وتوالت الهزائم على الدولة، وقيض الله لها رجلاً لهذا الفترة هو الصدر الأعظم (مصطفى بن محمد كوبريللي) الذي سار على نهج ابيه، وسمح للنصارى في استانبول ببناء ماتهدم من كنائسهم ، وأحسن إليهم[(٢)] وعاقب بأشد العقاب كل من عرض لهم في إقامة شعائر دينهم حتى استمال جميع مسيحي الدولة، وكانت نتيجة معاملة المسيحيين بالعدل أن ثار أهالي موره الأورام على البنادقة الكاثوليك، وطردوا جيشها من بلادهم بسبب إضطهادهم وإجبارهم على المذهب الكاثولوليكي. ودخلوا في حماية الدولة العثمانية مختارين طائعين لعدم تعرضها لديانتهم مطلقا[(٣)].

هذه شهادة من أبناء النصارى على سماحة الاسلام الذي مانعمت البشرية بنعمة الأمن والطمأنينة على الدين والعرض والمال والدم إلا في ظله؛ لأن القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين علمتهم ذلك، قال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم

---

(١)انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص٧٤.

(٢)المصدر السابق نفسه، ص٧٤.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العلية، ص٣٠٦.

يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين} (سورة الممتحنة: آية ٨).

وشاء الله تعالى أن يختار الصدر الأعظم شهيداً في ساحة الوغى وهو ينافح عن حرمات الدين في أحد المعارك ضد النمسا الصليبية عام ١١٠٢هـ[١].

وفاة السلطان سليمان الثاني:

في ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢هـ الموافق ٢٣ يونيو ١٦٩١م توفي السلطان سليمان الثاني عن غير عقب وعمره ٥٠ سنة بعد أن حكم ثلاث سنوات وثمانية أشهر ودفن في تربة جده السلطان سليمان الأول وتولى بعده أخوه[٢].

سابعاً: السلطان احمد الثاني (١١٠٢- ١١٠٦هـ/ ١٦٩٠- ١٦٩٤م):

تولى الحكم عام ١١٠٢هـ بعد وفاة أخيه سليمان الثاني، واستشهد في زمنه الصدر الأعظم مصطفى كوبر يللي الذي كان عظيم النفع للدولة العثمانية، وتولى بعده الصدر الاعظم جي علي باشا عريجي وكان ضعيفاً، واحتلت البندقية بعض جزر بحر إيجة، ولم تطل أيام السلطان وتوفي عام ١١٠٦هـ/١٦٩٤م وكان القتال في أيامه القصيرة عبارة عن مناوشات ، وتولى الحكم بعده ابن أخيه وهو مصطفى الثاني بن محمد الرابع[٣].

ثامناً: السلطان مصطفى الثاني (١١٠٦- ١١١٥هـ/١٦٩٤- ١٧٠٣م):

ولد عام ١٠٧٤هـ وتولى الخلافة عام (١١٠٦هـ/١٦٩٤م) وهو ابن السلطان محمد الرابع وفي عهده، بدأ تراجع المد الاسلامي عن ديار أوروبا الشرقية بسبب ضعف الايمان. وضعف روح الجهاد، وتسرب اسباب الهزيمة في كيان الامة، وقسوة الهجمات الصليبية على ديار الدولة العثمانية، وفي عهده تم توقيع معاهدة كار لوفتس جنوب غرب زغرب على نهر الدانوب عام ١١١٠هـ/١٦٩٩م، مع روسيا وطبقاً لشروط هذه المعاهدة انسحب العثمانيون من

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال ، ص٧٥.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص٣٠٦.

(٣) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي ، ص١١٥.

بلاد المجر، وإقليم ترانسلفانيا، وهذا مؤشر سيء في تاريخ بعض حكام الدولة العثمانية، وهو انسحابهم في المعارك تاركين المسلمين بين يدي عدو نزعت من قلبه الشفقة والرحمة[1]، وأصبحت كل الدول التي كانت تدفع الجزية عن يد وهي صاغرة ممتنعة من دفعها وكانت الدول النصرانية تقف في وجه العثمانيين ، وكانت متفقة فيما بينها للوقوف في وجه تقدم الدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها وذلك خوفاً من انتشار المد الاسلامي.

كان تنازل العثمانيين عن أراضيها بداية الانسحاب العثماني من أوروبا، كما أنه يسجل الانتقال الى عصر التفكك والاضمحلال السريع. وعلى أثر تدخل الانكشارية ومطالبتهم بعزل الصدور ورفض السلطان لذلك فقد قرروا عزله وتوفي بعد أربعة أشهر وكان عند وفاته في التاسعة والثلاثون من عمره ودفن رحمه الله.

تاسعاً: السلطان احمد الثالث (١١١٥- ١١٤٣هـ/١٧٠٣- ١٧٣٠م):

في عهده ظلت راية الجهاد مرفوعة ، واستطاعت الدولة أن تعيد المورة وآزاق ، وواصلت جهادها ضد روسيا وأنزل بها ضربة كادت أن تكون قاصمة، حينما حاصر المجاهدون العثمانيون قيصر روسيا وخليلته ومعهما ٢٠٠,٠٠٠ مجاهد كادوا يقعون في الأسر ولكن الخيانة تحت فتنة المال والنساء دفعت الصدر الأعظم الى رفع الحصار ، وخيانة الدولة، ووقع معاهدة (فلكزن) في جمادى الاخرة عام ١١٢٣هـ مع الروس، ترتب عليها إخلاء مدينة آزاق للصليبيين الروس وتعهد بعدم التدخل في شؤون القوزاق، ولهذا السبب عزل السلطان أحمد الثالث الصدر الأعظم بلطة جي باشا واستمر الجهاد ضد الروس، ورأت هولندا وإنجلترا إن مصلحتها إيقاف الحرب ولذلك تدخلوا، ووقعت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥هـ/١٧١٦م[2]، وتنازلت فيها روسيا عن كل ماستولت عليه من سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلت في الوقت نفسه عما كانت تدفعه الى حكام القرم[3].

ومن ناحية الغرب انتصر العثمانيون على البنادقة، واستولوا على كريت وبعض

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال ، ص٧٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص٣٦.

(٣) انظر : الدولة العثمانية، د.اسماعيل باغي، ص١١٧.

الجزر الاخرى، فاستنجد البنادقة بالنمسا من الدولة العثمانية إعادة ماأخذ من البنادقة إليهم فرفضت الدولة، وقامت الحرب بين الطرفين وانتصرت النمسا وسقطت بلغراد عام ١١٢٩هـ/١٧١٧م ثم جرى الصلح بعد ذلك في عام ١١٣٠هـ/١٧١٨م وتوسطت بريطانيا وهولندا في الصلح. وعقد صلح بساروفتز ، وبموجبه انتزع النمساويون بلغراد، وأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق وتبقى سواحل دالماسيا (شرق الأدرياتيك) للبندقية، وتعود بلاد المورة للعثمانيين كما أتاح الصلح لرجال الدين الكاثوليك في أن يستعبدوا مزاياهم القديمة في الأراضي العثمانية ، مما أتاح لهم وللنمسا التدخل في شؤون الدولة العثمانية باسم حمايتهم، وقد نص اتفاق منفصل على حرية التجارة لصالح تجار الدول الموقعة على المعاهدة. وهكذا حصلت النمسا على حق حماية التجار الأجانب داخل الدولة العثمانية[١].

ولما رأى الروس ضعف العثمانيين طلبوا منهم السماح للتجار وزوار بيت المقدس بالمرور في أراضي الدولة العثمانية دون دفع أية رسوم فوافق العثمانيون على ذلك. واحتل العثمانيون بلاد أرمينيا بلاد الكرج، بينما احتل بطرس الاكبر بلاد داغستان وسواحل بحر الخرز الغربية بسبب ضعف الدولة الصفوية، وكادت الحرب أن تقع بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا، وبقي كل فريق في المناطق التي دخلها دون معارضة الآخر. غير ان الصفويين هبوا وقاتلوا العثمانيين، ولكنهم هزموا وفقدوا تبريز وهمدان وعدداً من القلاع، ثم جرى الصلح عام ١١٤٠هـ/١٧٢٨م. وخلال هذه الفترة ثار الانكشاريون وعزلوا الخليفة ونصبوا مكانه ابن أخيه[٢].

الداماد ابراهيم باشا والحضارة الغربية:

كان عدد قليل من العثمانيين قد نادى بالاصلاح للوصول الى الوسائل التي حققت بها أوروبا قوتها خاصة في التنظيم العسكري والاسلحة الحديثة. وكان الداماد ابراهيم باشا الذي تولى الصدارة العظمى في عهد السلطان احمد الثالث هو أول مسؤول عثماني يعترف بأهمية التعرف على أوروبا، لذا فإنه أقام اتصالات منتظمة بالسفراء الأوروبيين المقيمين بالآستانة، وأرسل السفراء العثمانيين الى العواصم الأوروبية، وبخاصة

(١) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص١٥٧، ١٥٦.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، اسماعيل سرهنك، ص٢٠٨، ٢٠٧.

فينا وباريس للمرة الأولى. وكانت مهمة هؤلاء السفراء لا تقتصر على توقيع الاتفاقات التجارية والدبلوماسية الخاصة بالمعاهدات التي سبق توقيعها ، بل أنه طلب منهم تزويد الدولة بمعلومات عن الدبلوماسية الأوروبية وقوة أوروبا العسكرية. وكان معنى ذلك فتح ثغرة في الستار الحديدي العثماني والاعتراف بالأمر الواقع الخاص بأنه لم يعد بإمكان العثمانيين تجاهل التطورات الداخلية التي كانت تحدث في أوروبا(١).

وقد بدأ التأثر بأوروبا في مجال بناء القصور والإسراف والبذخ اللذين شارك فيهما السلطان أحمد ذاته بنصيب كبير، مما جعل الأغنياء وعلية القوم يسعون الى اقتباس العادات الأوروبية الخاصة بالاثاث وتزيين الدور وبناء القصور وإنشاء الحدائق(٢).

لقد بدأ ظهور تقليد الغرب في شهواتهم وإسرافهم تظهر للعيان وطبيعي أن تمضي فيهم سنة الله تعالى قال تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا وأتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} (سورة الأعراف : آية ٩٦).

وقال تعالى : {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرنها تدميراً} (سورة الاسراء: آية ٧٦).

وسجلت هذه الفترة بداية الحركة الأدبية العثمانية الحديثة فنشطت حركة الترجمة الى اللغة التركية ، كما أرسل السلطان أحمد مبعوثين الى فرنسا للاطلاع على المصانع ومنجزات الحضارة الفرنسية. كما تم إنشاء مكتب للطباعة في استانبول(٣).

عاشراً: السلطان محمود الأول (١١٤٣- ١١٦٨هـ/ ١٧٣٠- ١٧٥٨م):

تولى الحكم بعد ان هدأت الأحوال بسبب اضطرابات الانكشارية فقرر السلطان محمود الأول استقدام مستشار أوروبي فرنسي للشؤون العسكرية واسمه الكسندر الكونت

---

(١) انظر: في أصول التاريخ الاسلامي، ص١٥٩.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل باغي ، ص١١٩.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل باغي، ص١١٩.

دي بونفال، وقد عهد إليه بإحياء فرقة المدفعية، وادخلت أنظمة جديدة للخدمة العسكرية على أسس فرنسية ونمسوية بهدف جعل الخدمة العسكرية من جديد مهنة حقيقية وذلك بتوفير المرتبات والمعونات. واقترح توزيع فرق الانكشارية الى وحدات صغيرة يقودها ضابط شاب، غير أن الانكشارية عارضوا تنفيذ هذه الخطة وأوقفوها ، مما أدى الى تركيز بونفال على فرقة المدفعية وأهتم كذلك بصناعة المدافع والبارود والبنادق والألغام وعربات المدافع، وافتتح مدرسة للهندسة العسكرية، إلا أن الانكشارية عارضوا كل المشروعات، وعلاوة على ذلك أنشأ مصنع للورق، لكن هذه الاصلاحات سرعان مااندثرت[1].

اتجهت الدولة العثمانية الى قتال الشيعة الصفوية، فتغلبت على طهماسب الذي طلب الصلح عام ١١٤٤هـ/١٧٣١م، وتخلى العثمانيين عن تبريز ، وهمدان ، ولورستان غير أن والي الشاه على خراسان وهو نادر شاه، لم يقبل بهذه المعاهدة. فسار الى أصفهان ، وعزل الشاه طهماسب وولى مكانه أبنه عباس، وعين عليه مجلس وصاية ، سار لحرب العثمانيين فانتصر عليهم، وحاصر بغداد، طلبت الدولة الصلح، وجرى الاتفاق عام ١١٤٩هـ/١٧٣٦م في مدينة تفليس حيث أعلن نادر خان نفسه ملكاً على الفرس، واتفقوا على أن يرد العثمانيون كل مأخذوه الى الشيعة الايرانية[2].

الحرب مع الدول الأوروبية:

أعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولندا، واحتلتها روسيا ، ورغبت فرنسا التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولندا من كل من النمسا وروسيا وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة فينا واتفقت من جهة ثانية لقتال الدولة العثمانية، وبدأت روسيا القتال مع الدولة العثمانية، فتمكن العثمانيون من وقف تقدم الروس في إقليم البغدان. كما أوقفوا تقدم النمسا في البوسنة والصرب والأفلاق، وانتصرت على الصرب ، وعلى جيوش النمسا التي انسحبت من الحرب ، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتم توقيع معاهدة

---

(١) انظر: في اصول التاريخ العثماني، ص١٦٢-١٦٣.

(٢) انظر: التاريخ الاسلامي (٨) ، محمود شاكر ، ص١١٠-١١٢.

الصلح في بلغراد عام ١١٥٢هـ/١٧٣٩م، تنازلت فيه النمسا عن مدينة بلغراد وعن بلاد الصرب الافلاق، وتعهدت روسيا بعدم بناء سفن في البحر الأسود وهدم قلاع ميناء آزوف(١).

السلطان عثمان الثالث (١١٦٨- ١١٧١هـ/١٧٥٨- ١٧٦١م):

تولى الحكم وعمره ٥٨ سنة، وبويع في جامع أبي أيوب الأنصاري، وهنأه سفراء اوروبا ، وحكم ثلاث سنوات فقط لم يحدث فيه حروب ولا نزاعات خارجية واهتم بالاصلاحات الداخلية، وأصدر أوامر بمنع كل ما يخالف الشرع الشريف وقضى على الثورات والانتفاضات التي قامت في أنحاء الدولة وخاصة ثورات الأكراد(٢) ويذكر عنه أنه كان يتحسس أحوال الرعية ليلاً متنكراً(٣).

الحادي عشر:السلطان مصطفى الثالث(١١٧١- ١١٨٧هـ/١٧٥٧- ١٧٧٣)

تولى الحكم وعمره اثنتان وأربعون سنة، وكان على دراية واسعة بإدارة الدولة فعين الوزير قوجه راغب صدراً أعظم لسعة أطلاعه وخبرته بشؤون البلاد. وقد استطاع محمد راغب باشا من إخماد ثورة عرب الشام الذي اعتدوا على قوافل الحجاج(٤).

كان السلطان مصطفى يرى أن الخطر الداهم على الدولة العثمانية يتمثل في ظهور القوة الروسية الجديدة ويبدوا أنه اطلع على المخطط الأسود الروسي لتفتيت الدولة العثمانية الذي وضعه بطرس الأكبر في وصيته(٥) ولذلك أعد السلطان مصطفى الثالث لحرب روسيا ، فبدأ يعد التنظيمات المزمع تنفيذها بالجيش العثماني حتى يصبح قادراً على مواجهة الجيوش الأوروبية، لذا فقد تمكن الصدر الأعظم من عقد اتفاق مع حكومة بروسيا لمساعدة الدولة العثمانية عند الحاجة ضد النمسا وروسيا. وعملت على توسيع

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، اسماعيل سرهنك، ص٢٠٨-٢١٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د.اسماعيل ياغي، ص١٢١.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص٧٩.

(٤) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي ، ص١٢٢.

(٥) انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٣٢٢،٣٢١،٣٢٠.

نطاق التجارة البحرية والبرية. وعمل على وضع مشروع فتح خليج لإيصال نهر دجلة بالآستانة وأن تستعمل الأنهار الطبيعية مجرى له ليسهل نقل الغلال من الولايات الى دار الخلافة، ويساعد على نشر التجارة، إلا أن المنية عاجلته قبل البدء في مشروعه عام ١١٧٦هـ/١٧٦٢م. وخلفه في الصدارة حامد حمزة باشا ثم خلفه مصطفى باهر باشا ١١٧٧هـ/١٧٦٣م ثم بعد سنة تولى الصدارة محسن زاده محمد باشا ١١٧٨هـ/١٧٦٤م[١].

خاضت الدولة العثمانية حرباً مع روسيا بسبب اعتداءات القوزاق على مناطق الحدود، نجح ملك القرم في غارته وهدم عدداً من الضياع وذلك عام ١١٨٢هـ/١٧٦٨ كما سار الصدر الأعظم بفك الحصار عن بعض المواقع التي يحاصرها الروس، ولكنه فشل فكان جزاؤه القتل، وهزم الصدر الذي أتى بعده، واحتل الروس إقليمي الأفلاق والبغدان، وأخذ الروس يثيرون النصارى من الروم الأرثوذكس للقيام بثورات ضد الدولة ، فأثاروا نصارى شبه جزيرة المورة فقاموا بثورة، غير أن الثورة قد أخمدت[٢].

كما هاجم الروس مدينة طرابزون وفشلوا في احتلالها، ولكنها (روسيا) نجحت في اقتحام بلاد القرم والسيطرة عليها وذلك عام ١١٨٥هـ/١٧٧١م. ثم جرت مفاوضات الصلح ولكنها فشلت بسبب مطالب روسيا التعسفية، وعادت الحرب وانتصر العثمانيون[٣].

الإهتمام بدعم الثورات الداخلية:

لقد ظهر التآمر الروسي الصليبي ضد ديار الدولة العثمانية واضحاً وقاموا بمحاولة تمزيق الدولة من الداخل ، فقد دفعوا والي مصر من قبل دولة الخلافة، وهو (علي بك الكبير (الذي لقب بشيخ البلد الى الخروج على الدولة العثمانية عام (١١٨٣هـ/١٧٧٠م)، ففعل ، وأمر بأن يخطب باسمه على المنابر.

وفي جزيرة (باروس) تم لقاء بين الصليبيين الروس ومبعوثين من قبل (علي بك الكبير) وتم التخطيط الماكر لتدمير الدولة العثمانية من الداخل، يكون فيها علي بك

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، اسماعيل سرهنك، ص٢١٦.

(٢) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي، ص١٢٢.

(٣) انظر: الدولة العثمانية ، د. اسماعيل ياغي، ص١٢٢.

الكبير هو مخلب القط ومعه طاهر العمر والي مدينة عكا من قبل العثمانيين وبناء عليه قاد علي بك أبناء مصر المسلمين لقتال القوات العثمانية في بلاد الشام ودخل (سورية) عنوة في عام ١١٨٥هـ، بل إنه دخل دمشق، وصيدا وحاصر (يافا) بمساعدة طاهر العمر، بل إن الروس حينما قامت قوات الدولة العثمانية بمحاصرة صيدا، عاونوا عميلهم في رفع الحصار ومده بالأسلحة واستولوا على بيروت عام ١١٨٦هـ.

وجاء الوقت الذي أسر فيه علي بك الكبير، وتوفي في أسره، وقتل الخائن الآخر طاهر العمر بعد حصار عكا، وذلك على يد محمد بك الشهير بأبي الذهب[١].

إن الصليبية النصرانية عندما عجزت عن مقاتلة الدولة العثمانية في جبهات الوغى لجأت الى تفجير الدولة من الداخل عبر ضعفاء النفوس ممن ينتسبون الى الاسلام ويظهرون شعائره وأضاعوا مفهوم الولاء والبراء في بحر شهواتهم وأطماعهم والا كيف يكون ذلك والله يقول : {يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} (سورة الممتحنة: آية ١).

وقوله تعالى : {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين} (سورة آل عمران : آية ٢١).

إن المسلم الصادق مع نفسه وربه وأمته لايقف مع الروس الأرثوذكس ضد المسلمين السنيين العثمانيين ويستحل دماءهم[٢]. إن أعداء الأمة المسلمة يلجأون دوماً الى إشعال نار الفتنة داخل ديار الاسلام لتدمير قوة الأمة البشرية والاقتصادية والاخلاقية لتصبح الأمة مؤهلة للسقوط بيد الأعداء[٣]، لقد كان السلطان مصطفى الثالث من السلاطين المجاهدين وقد تصدى للهجمات الروسية الصليبية على الدولة، وأنزل بهم هزائم عدة وكان يرى بثاقب بصره وبعد نظره أن الدولة العثمانية بدأت في عصر التراجع

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص٨٠.

(٢)انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص٨٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٨٠.

والسقوط وظهرت تلك الرؤية في شعره:

ان الدنيا منهدمة لا تظن أنها تستقيم لنا

جميع مراتب الدولة بقيت في أيدي الاراذل

وان السعداء اليوم كلهم ادناء

ونحن متوكلون على الله جل جلاله

كان هذا السلطان مهتماً بالتاريخ الاسلامي عموماً وتاريخ الدولة العثمانية خصوصاً.

لقد استمرت الحرب مع روسيا فترة طويلة حيث بدأت في عام ١٧٦٨م وانتهت في ١٧٧٤م وفقدت الدولة العثمانية اراضي واسعة ومهمة وبدأ ظهور الضعف والتأخر والتخلف الحقيقي في الدولة، ومرض السلطان مصطفى الثالث في حرب روسيا حزناً وتوفي وعمره يناهز ٥٧ عاماً تقريباً(١). وتوفي الخليفة عام ١١٨٧هـ وتولى مكانه أخوه عبدالحميد الأول(٢).

الثاني عشر:السلطان عبدالحميد الأول(١١٨٧- ١٢٠٣هـ/١٧٧٣- ١٧٨٨م)

تولى الحكم عام ١١٨٧هـ/١٧٧٣م بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث، وكان محجوزاً في قصره مدة حكم أخيه مصطفى الثالث استطاعت روسيا أن تحقق نصراً على العثمانيين في مدينة فارنا في بلغاريا على البحر الأسود، وطلب الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة، وتم ذلك في مدينة قينارجة في بلغاريا عام ١١٨٧هـ/١٧٧٤م(٣) وأهم ماجاء فيها:

ازالة العداوة بين الدولة العثمانية وروسيا وحلول الصلح وصيانة الاتفاقات من التغيير والعفو عن الجرائم التي اقترفها رعايا الطرفين.

---

(١) انظر: السلاطين العثمانيون، ص٧٢.

(٢) انظر:الدولة العثمانية، اسماعيل ياغي، ص١٢٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٢٣.

عدم حماية الرعايا الملتجئين او الفارين أو الخونة ضمن شروط.

اعتراف الطرفين بحرية بلاد القرم بلا استثناء واستقلالها، ولهم الحرية التامة بانتخاب خان لهم دون تدخل ولايؤدون ضريبة. وباعتبارهم مسلمين فإن أمورهم المذهبية تنظم من قبل السلطان بمقتضى الشريعة الاسلامية.

سحب القوات العثمانية من القرم وتسليم القلاع وعدم إرسال جنود أو محافظ عسكري.

حرية كل دولة في بناء القلاع والأبنية والتحصينات وإصلاح مايلزم منها.

تعيين سفير روسي في الآستانة من الدرجة الثانية، والاعتذار له رسمياً عن مايحدث من خلل.

تعهد الدولة العثمانية بصيانة الحقوق والكنائس النصرانية في أراضيها ومنح الرخصة من الخلل.

حرية زيارة رهبان روسيا للقدس والأماكن الأخرى التي تستحق الزيارة مرخص بها دون دفع جزية أو خراج ويعطون التسهيلات والحماية أثناء ذلك[1].

حرية الملاحة للروس في كافة الموانئ العثمانية في البحرين الأبيض المتوسط والأسود مضمونة وكذلك حرية اتجار الرعايا الروس في البلاد العثمانية براً وبحراً مكفولة وللتجار الروس حرية الاستيراد منها والتصدير إليها والإقامة فيها. ويحق لروسيا تعيين القناصل في كافة المواقع التي تراها مناسبة.

يجب على الدولة العثمانية التعهد ببذل جهدها في كفالة حكومات الولايات الأفريقية اذا مارغب الروس بعقد معاهدات تجارية فيها.

يحق للروس بناء كنيسة على الطريق العام في محلة بكل أوغلي في غلطة باستانبول غير الكنيسة المخصصة وتكون تحت صيانة سفير روسيا وتؤمن الصيانة الكاملة لها والحراسة التامة خوفاً من التدخل.

---

(١) انظر: العثمانيون والروس، د.علي حسن ،ص٨٣.

إعادة بعض المناطق للدولة العثمانية من روسيا بشروط منها العفو العام عن أهاليها وحرية النصارى منهم من كافة الوجوه وبناء كنائس جديدة ومنح امتيازات للرهبان وحرية الهجرة للأعيان وعدم التعرض لهم وإعفائهم من تكاليف الحرب والجزية.

يرد الروس جزائر البحر الأبيض المتوسط التي هي تحت حكمهم للدولة العثمانية التي يجب أن تعفو عن أهلها وتعفيهم من الرسوم السنوية وتمنحهم الحرية الدينية وترخص لمن يريد منهم ترك وطنهم.

كما ذكرت بنود اخرى تتعلق ببعض المناطق في القرم وبتدابير الانسحاب وإخلاء الافلاق والبوجاق والبغدان وبتسريح الأسرى وتعيين السفراء من أجل المصالحة وتعهدت الدولة العثمانية بتأدية خمسة عشر ألف كيساً لروسيا في مدة ثلاث سنين يدفع منها في كل سنة قسط وهو خمسة آلاف كيس[1].

وحين التمعن في هذه الشروط يمكن ملاحظة مايلي:

إنهاء السيطرة العثمانية على البحر الأسود وتهيئة الأسس الديبلوماسية المقبلة للتدخل الروسي في القضايا العثمانية الداخلية .

تمدد الحدود الروسية الى نهر بوغ الجنوبي واشتمالها آزوف وسهوب كرش ونيكال في النهاية الشرقية من شبه نهري الدينبر وبوغ وسهوب وكينبورن.

أصبحت بلاد القرم مستقلة ورعاياها لا يلحقون الدولة العثمانية إلا دينياً فقط.

أصبح لروسيا حق بناء قناصل في أي مكان في الدولة العثمانية والملاحة الحرة في مياها.

سمحت المعاهدة للروس بالحصول على الامتيازات ضمن البلاد العثمانية تشمل الأرثونكس في الأفلاق والبغدان وجزر بحر إيجة وبالتالي تحولت روسيا الى حماية الارثونكس في أي مكان في الدولة العثمانية[2].

---

(١) انظر: العثمانيون والروس، ص٨٤.

(٢) انظر: العثمانيون والروس، ص٨٥.

ولم يكتف الروس الصليبيون بذلك ، بل واصلوا تآمرهم ، وفاجئوا الدولة العثمانية بدخول قواتهم بلاد القرم وهي جزء من ولايات الدولة العثمانية بسبعين ألف جندي غير مبالين بمعاهدة (كينارجه)[1].

وانبهرت ملكتهم كاترينا بهذا النصر وطافت ربوع القرم وأقيمت لها الزينات واقواس النصر التي كتب عليها (الطريق بيزنطة). وأثارت الدولة العثمانية من جديد فأرسل الباب العالي مذكرة الى السفير الروسي بالاستانة وذلك في صيف عام ١٢٠٠هـ فيها عدة مطالب منها التنازل عن حماية بلاد الكرج التي تخضع للسيادة العثمانية وتسليم حاكم الفلاح العاصي للدولة ورفضت روسيا المذكرة فأعلن الباب العالي الحرب وسجن السفير الروسي[2].

تحالف النمسا مع روسيا:

وكتبت كاترينا الى القائد العسكري بوتمكين بعدم انتظار العثمانيين والتقدم بإتجاه مدينتي بندر واوزي وتمكن نتيجة لذلك من دخول (اوزي) وعندها أعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية وحاول يوسف الثاني الامبراطور النمساوي احتلال بلغراد ولكنه عاد يجر أذيال الخيبة منسحباً الى مدينة تمسوار والجيش العثماني يتعقبه حتى هزمه شر هزيمة.

وفاة السلطان عبدالحميد الأول وأثرها على الأحداث:

في هذه الآونة توفى السلطان عبدالحميد الأول ووهنت عزيمة الجند ودخل اليأس قلوبهم واستغل الأعداء ماحدث وتظافرت جهودهم لإضعاف العثمانيين وتمكنوا من النصر في ٣١ تموز وفي ٢٢ ليلول عام ١٧٨٩م واستولى الروس على مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم الفلاخ والبغدان وبسارابيا ودخل النمساويون بلغراد وبلاد الصرب التي ردت بعد ذلك بمقتضى معاهدة زشتوي[3].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال ، ص٨٢.

(٢) انظر:العثمانيون والروس، ص٨٦.

(٣)انظر:العثمانيون والروس، ص٨٧.

المبحث السادس

السلطان سليم الثالث

(١٢٠٣-١٢٢٢هـ/١٧٨٨-١٨٠٧م)

تولى السلطة بعد وفاة عمه عبدالحميد الأول عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب بين الدولة العثمانية وأعداءها شرع في احياء الروح المعنوية في نفوس جنده واعتمد على تاريخ الدولة العثمانية وماقامت به من أعمال بطولية، ففي مراسيم تولية عرش الدولة قام السلطان بإلقاء خطبة حماسية أمام قادة الدولة أشاد فيها بما حققته الجيوش العثمانية من انتصارات في الماضي على أعدائها، وتكلم عن سبب هزائمهم المتأخرة أمام أعدائهم وبين بأنها بسبب ابتعادهم عن دينهم وعدم اتباع كتابهم وسنة نبيهم، وحثهم على ضرورة التضحية والجهاد ضد أعدائهم ، والاعتماد على الله في كل تصرفاتهم وطاعة أولي الأمر، ومقاومة الأعداء الذين استولوا على اراضي المسلمين وقتلوا وسجنوا الآلاف منهم حتى تستعيد الدولة بلاد القرم منهم[١].

أولاً: اصراره على الجهاد:

هذه الآمال عند السلطان سليم الثالث جعلته يرفض مساعي الصلح التي قام بها سفراء اسبانيا وفرنسا وبروسيا ، وطلب من الصدر الاعظم يوسف باشا اتخاذ الترتيبات اللازمة للتصدي لأعداء الدولة.

لقد أدرك السلطان المأساة التي يعيشها شعبه من جراء الهزائم المتوالية على الدولة العثمانية، ولكي يخفف من حدة الغضب والنفور، رفض السلطان مساعي الصلح وقرر التوجه بنفسه على رأس جيش نحو الدانوب.

وقام بزيادة مرتبات الجند وصرف مكافآت إضافية تزيد عما كانت عليه في عهد

---

(١) انظر: تاريخ سياسي، دولة علية عثمانية ، كامل باشا (٢/٢٥٠).

سلفه[١].

ورأى السلطان العثماني ضرورة تقوية مركزه بتعيين صديقه القديم حسين باشا الكريدلي قائداً للأسطول العثماني ونقل خدمات القائد السابق حسن باشا الى قيادة الجيش البرية في مُولدافيا وتعيينه حاكماً على مدينة (إسماعيل(وتكليفه في نفس الوقت بإعادة أوزي والتوجه بطريق البر نحو القرم[٢].

وكان هذا التغيير في مناصب قيادة الجيش له أسبابه، فمن جهة كان القائد حسن باشا على خلاف مع الصدر الأعظم يوسف باشا عندما رأى أن إعلان الحرب على روسيا لم يكن في وقته المناسب وأنهم بحاجة الى الاستعداد التام قبل دخول الحرب، ومن جهة أخرى فإن إخفاق الجيش العثماني بقيادة حسن باشا في استعادة (أوزي(وعودته قبل الوقت المحدد قد أثر على نفسية السلطان فرأى ضرورة تغيير القيادة ولكن السبب المعقول والأقرب الى المنطق أن القائد الجديد كان من أصدقاء السلطان[٣]، مما يجعل تعيينه في منصب الصدرة العظمى سنداً قوياً وتقوية لمركزه أمام أعدائه في الداخل والخارج[٤].

أصبح السلطان سليم في موقف يحتم عليه المواجهة مع أعدائه ومما قام به في هذا الشأن تكليفه لصدره الأعظم يوسف باشا بالاهتمام باقليم ولاشيا وحماية بلغراد من أي هجوم في منطقة الكوبان بهدف إثارة تتار القوقاز ضد روسيا ومساعدة الدولة العثمانية لاستعادة بلاد القرم.

استبشر الصدر الأعظم بثقة السلطان سليم الثالث فيه وظن كأن النصر قريب وكان يأمل أن يحقق أهداف الدولة المطلوبة منه[٥].

---

(١) انظر: تاريخ نوري في بيان أحوال دولت العلية، ص١١٠.

(٢) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٦٩-٦٨.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، اسماعيل سرهنك، ص٢٢٥.

(٤) انظر: موقف اوروبا من الدولة العثمانية، ص٦٩.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص٦٩.

ثانياً: هزيمة الجيوش العثمانية:

عـززت القـوات الروسـية والنمـساوية مواقعهـا ، واسـتنفرت جيوشـها وأصـبحت قواتهم قريبـة مـن بلغـراد مولـدافيا ولم يـستطيع الـصدر الأعظـم مـن إبعـاد الأعـداء عـن بلغراد واضـطر الـسلطان لعزلـه وعـين حـسن باشـا بدلـه، لقـد منـى يوسـف باشـا بهـزائم متتالية على يد القائـدين الروسي (سواروف(، والنمساوي (كوبرق(.

كـان الـسلطان سـليم الثالـث حـريص علـى اسـتعادة القـرم وتحقيـق النـصر علـى أعدائه، ورأى البدء بإعادة بنـاء الجيش وأصـدر أوامـره للـصدر الأعظـم باتخـاذ الـلازم نحـو تطوير الجيش ومتابعة الجهود في سبيل الاصلاح وإرسال حملة عسكرية الى ساحة القتـال، ورأى السلطان دعم هذه التوجهات بعقـد معاهـدة صـداقة مـع الـسويد تلتـزم فيهـا الدولـة العثمانية بـدفع مبـالغ نقديـة سـنوية محـددة لمـدة عـشر سـنوات مقابـل أن تقـاوم الـسويد روسيا من الناحيـة الشمالية، واتفقتا أيضاً على مواصلة الحرب معاً ضد روسـيا وأن لايقـوم أي منهما بعقد معاهدة سلام مع دولة اخرى دون علم الثانية[1] .

ثالثاً: موقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدات:

كانت مواقف الدول الأوروبية من هذه المعاهدات متباينـة فروسـيا رحبـت بهـذه المعاهدة وذلك لأنها كانت دائماً تحث السلطان سليـم الثالث على مواصلة الحـرب خوفـاً مـن أن تكون هي الأخرى من فرائس روسيا، وفرنـسا لم تؤيـد عقـد المعاهـدة علـى هـذا الوضـع لاتخدم السياسة الفرنـسية وأهدافها.

أما بريطانيا فيه كما يقول الشاعر:

يعيطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب[2] .

فهي وإن رضيت بالمعاهدة، ورغبت في بقاء الدولة العثمانية قوية، إلا أنها لاتفضل

---

(١) انظر: موقف اوروبا من الدولة العثمانية، ص٧٧.

(٢) انظر: تاريخ دولت عثمانية، عبدالرحمن شرف، ص٢١٠،٢١١.

الوقوف جنباً الى جنب مع الدولة العثمانية ضد روسيا أو النمسا، ولاتفضل تقديم أي نـوع من الدعم.

هـذه المواقـف الأوروبيـة يجـب أن لاتـستغربها، فهـي طبيعيـة، لأن علاقـاتهم مـع الدولة العثمانية علاقات مصالح ومطامع فقط، وإذا سعت بعض الـدول الأوروبيـة الى بقـاء الدولة العثمانية قوية الجانب، فذلك ليس حباً فيها ولكنـه هدف لخدمـة أغـراض سياسـية تتعلـق بتـوازن القـوى في القـارة الأوروبيـة وتتعلـق بالرغبـة في الحفـاظ علـى مـصالحهم الإقتصادية سواء في داخل الدولة العثمانية أو خارجها.

على الرغم من تأثير هـذه المواقـف الأوروبيـة علـى الاتجـاه العـام لـسياسة الدولـة العثمانية وتقدمها في المناطق الأوروبية ، لم ييـأس الـسلطان العثمـاني وكـان يحـدوه الأمـل بنجاح المهمة في حال توجيه الجيش، فأصدر أمره بتحريك القوات العثمانيـة عـبر البغـدان والافلاق حتى وصلت مقدمات جيشه الى نهر (رمينيك) عند حدود النمسا وهنـاك حـدث مـالم يكـن في الحـسبان حيـث تمكـن الجيـشان الروسـي والنمـساوي مـن مباغتـه الجـيش العثماني على غفلة وانتصر عليه وسميت تلك المواجهة بمعركة (بوزا) أو (رمينيك) نسبة الى النهر الذي وقعت عنده المعركة[١].

كان لهـذه المعركـة آثارهـا الـسيئة علـى الدولـة العثمانيـة فلـم يعـد هنـاك فرصـة لتنظيم الجيش ، فتوالت الهزائم على الدولة العثمانية وتزحزحت الى الوراء باتجاه شـرق الدانوب، وأعطت النمساويين الفرصـة لفـك حـصار بلغـراد وفـتح الطريـق لقـوات الحلفـاء وطرد العثمانيين من أوروبا[٢].

لقد كانت الحملات الصليبية على الأقاليم العثمانية خلال الشهور الأخير من عام ١٧٨٩م من أفضع ما شهدته المنـاطق الحدوديـة بـين الطـرفين ، ولـذلك تميـزت الفـترة الـتي أعقبت هذه الحملات بحالتين مختلفتين:

الأولى: وتتمثل في قيـام نـشاط دبلوماسـي وحركـات دينيـة وسياسـية في الأوسـط

---

(١) انظر: تاريخ دولت عثمانية، عبدالرحمن شرف ، ص٢١٠،٢١١.

(٢) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٧٣.

الأوروبية تنذر بالخطر، مما جعل الدول القوية تبحث عن السلام وتنادي بإيقاف الحرب بين الدولة العثمانية وعدوتها روسيا والنمسا.

ولاحت الثورة الفرنسية في الأفق وبدأت أخطارها تظهر على مختلف الأصعدة في اوروبا وأوجدت شعوراً قويا عند الدول الأوروبية ومعها روسيا بأن الوقت قد حان للتعاطف مع الدولة العثمانية خوفاً من استفحال الثورة النابليونية وهيمنة فرنسا على شؤون القارة الأوروبية[١].

والثانية: هي ماشهدته الفترة من تطورات واستعدادات عسكرية جديدة بسبب تلك الهزائم المتتابعة التي لحقت بالدولة العثمانية قبل وبعد معركة (بوزا(والتي أدت الى إثارة السخط والغضب في أوساط الرعية حتى ارتفعت الأصوات بتصحيح الأوضاع وإقالة الصدر الأعظم من منصبه[٢].

وتوالت الأحداث واستمرت الهزائم، وضعفت الدولة العثمانية، ومع ظهور الثورة الفرنسية رأت الدول الأوروبية ضرورة التوصل الى معاهدة مع الدولة العثمانية لجمع الشمل الأوروبي أمام الحركة النابليونية التوسعية، والأطماع الفرنسية التي أنستهم أطماعهم في اراضي الدولة العثمانية كمرحلة أولى، ونجحت الدول الأوروبية في وساطتها وتم عقد معاهدة (زشتوى المشهورة(في ٢٢ من ذي الحجة عام ١٢٠٥هـ الموافق ٤ من أغسطس ١٧٩١م[٣].

ولما تحقق لهم ذلك بقي عليهم المرحلة الثانية وهي وقف الحرب العثمانية الروسية التي بدون تحقيق ذلك سيكون موضوع المناطق في أرروبا معرضة للأخطار بسبب المغامرات النابليونية أو بسبب تفوق روسيا على الدولة العثمانية وبالتالي تهديداً

(١)المصدر السابق نفسه، ص٧٤.

(٢)انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٧٤.

(٣) انظر: موقف أوروبا من الدولة العثمانية، ص٨٢.

لأوروبا[1].

وكان وضع الدولة العثمانية بسبب الأحداث التي تعرضت لها أثرت على قوتها وعلى سير حملاتها نحو أوروبا وجعلتها في موقف لايمانع من الموافقة على أي أمر يؤدي الى السلام وبأي شروط، وكان تلك الأحداث مساعدة في مهمة الوسطاء، فتوصلوا بعد مفاوضات مع كل من روسيا والدولة العثمانية، الى عقد معاهدة سلام بينها في مدينة ياش وذلك بتاريخ ١٥ جمادى الأولى عام ١٢٠٦هـ، الموافق التاسع من شهر يناير عام ١٧٩٢م.

كان من أهم بنود هذه المعاهدة:

١- تبادل أسرى الحرب والسماح للرعايا الذين يعيشون خارج دولتهم بسبب الأزمات السياسية ، بالعودة الى بلدانهم الأصلية أو البقاء حسب رغباتهم.

٢ تتنازل الدولة العثمانية لروسيا عن ميناء أزوف وبلاد القرم وشبه جزيرة طمان وبلاد القوبان وبساربيا والأقاليم الواقعة بين نهري بجد والدينستر، ويكون النهر الأخير حداً فاصلاً بين الدولتين.

٣- ترجع روسيا للدولة العثمانية مناطق: البغدان واكرمان وكيلي واسماعيل مقابل أن تقوم الدولة بإعفاء رعايا البغدان من الضرائب وعدم مطالبة روسيا بتعويضات حرب أو ماشابه ذلك.

٤ يمنع الباب العالي رعايا دولته من الغارات على محافظتي تفليس وكاتالينا الروسيتين ، وعلى السفن الروسية في البحر المتوسط، وعليه القيام بدفع تعويضات لأي اضرار تحدث بعد ذلك من قبل رعايا الدولة العثمانية[2].

وحققت بذلك المعاهدة وقف الحرب الروسية العثمانية، وحققت بذلك أهداف الدول الأوروبية وأهمها إيقاف الحرب في زمن كانت أوروبا تعيش فيه انطلاق الثورة النابليونية تخشى تطورها على أنظمة الحكم فيها، وهكذا ضاعت آمال الدولة العثمانية

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٨٣.

(٢) انظر: موقف اوروبا من الدولة العثمانية، ص٨٣.

وضاعت معها تلك المناطق التي كانت تحت نفوذها حتى أصبح البحر الأسود تحت رحمة العلم الروسي وأصبحت موانئه العثمانية مثل أزوف وأوديسا وسيفاستبول قواعد للأسطول الروسي وأصبحت مصبات الأنهار العظيمة مثل الدانوب وبج والدنيستر وبروت وحركتها الملاحية تحت تصرف روسيا.

وهكذا قلصت هذه المعاهدة حدود الدولة العثمانية في أوروبا وأعطت في نفس الوقت الصفة التنازلية الشرعية من مكتسباتها لاعدائها.

وهكذا خطت الدول الأوروبية خطوات ساهمت في القضاء على الكيان العثماني في أوروبا وكأنها بذلك تحقق المشروعات الكثيرة[(١)] التي نادى بها الساسة والمفكرون الأوروبيون ضد الدولة العثمانية منذ قرون طويلة، وكانت القوى الصليبية والقوى الاستعمارية والقوى اليهودية تعمل في مثابرة وتنظيم نحو الهدف المنشود وكأنها: (شركة عالمية يتبادل فيها المؤسسون الأوروبيون النظرات الشذراء، وقد يختلفون معاً ولكنهم متفقون على آل عثمان، وكل منهم متحفز للنهش والقضاء والابتلاع)[(٢)].

وإن كانت معاهدة ياش قد أنهت المواجهات الروسية العثمانية لفترة مؤقتة إلا أنها في حقيقة الأمر بداية لنهاية أكثر فاجعة من الأولى[(٣)].

رابعاً: الإصلاح الداخلي والمعارضة:

وبعد هدوء القتال انصرف سليم الثالث للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجيش للتخلص من الانكشارية الذين أصبحوا سبب كل فتنة واتجه نحو تقليد أوروبا التي تجاوزتهم كثيراً فأهتم بصناعة السفن والأسلحة خاصة المدافع على الطريقة الفرنسية، وشهد عهده بدايات التعليم العسكري الغربي.

ونظراً لإقدام السلطان سليم على الاصلاحات وإنشاء فرقة النظام الجديد، فقد

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٨٦.

(٢) المسألة الشرقية للشاذلي، ص١٢٢.

(٣) انظر: موقف اوروبا من الدولة العثمانية، ص٨٦.

ثار الجنود الانكشارية وساندهم الأعيان ضد النظام الجديد، ورغم ان السلطان أصدر أمراً بإلغاء النظام العسكري الجديد، إلا أن الثوار قرروا عزل الخليفة وخلعه من الحكم[1] وتولي بعده ابن عمه مصطفى الرابع الحكم مرشح المحافظين الذي اصبح دمية في أيدي من عينوه على السلطنة ثم صدرت مراسيم سلطانية ألغت النظام الجديد وكل المدارس والمؤسسات والاصلاحيات المرتبطة به، ورغم ذلك فقد حدثت مشاكل في عهده أدت الى الإطاحة به[2].

خامساً: الغزو الفرنسي الصليبي على الدولة العثمانية في مصر (١٢١٣هـ/١٧٩٨م):

انتهز أعداء الاسلام تدهور الدولة العثمانية فأستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت، كانت تلك الحملة صدى للثورة الفرنسية ومتأثرة بافكارها الثورية. وقد أصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم (١٢٢) عالماً وهو عدد يزيد عن اضعاف العدد الذي أعتاد أن يصحبه في حملاته الأوروبية، وقد تأثر فكر هؤلاء العلماء في الغالب بالدور الفرنسي الذي يسعى لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية ويعادي حركات الاصلاح البروتستانتية منذ بداية القرن السادس عشر، ثم تأثروا في الفترة السابقة لقدومهم الى الشرق بأفكار روسو وفولتير ومونتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفين بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال مارفعوه من شعارات (الحرية ، الاخاء، المساواة)، وهي أفكار واتجاهات تعادي في مجموعها الدين والأفكار المستمدة منه بشكل عام وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل مايروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً على ضرب المصالح البريطانية في الشرق فمثل هذا الهدف لا يحتاج الى

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د.اسماعيل ياغي، ص١٢٧.

(٢) انظر: قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية، د. سليمان غانم، ص١٢.

هذا الحشد الهائل من العلماء[1]، فكان الى جانبه هدف إقامة امبراطورية فرنسية في الشرق إرضاء لطموحات الطبقة البرجوازية فيها والتي تسللت الى الحكم في اعقاب الثورة، وإرضاء للكنيسة التي وإن كانت الثورة قد وجهت لها بعض الضربات بشكل أضعف دورها داخل فرنسا عن ذي قبل إلا أنها ظلت لها تأثيرها الواسع والفعال على كثيرين من أبناء الشعب الفرنسي، فضلاً عن الدور الذي كانت تقوم به في تدعيم النفوذ الفرنسي في المستعمرات وكذلك في الشرق الاسلامي. ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية ، أو بالاحرى غزو عسكري وفكري، ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء[2].

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية ص١٤٢ ،١٤١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٤٢ ،١٤١.

المبحث السابع

جذور الحملة الفرنسية الصليبية

لاشك أن هؤلاء المستعمرين كانوا عاملين بطبيعة واحوال المسلمين في مصر من خلال وسائلهم المتعددة، منها ماقام به الرحالة الفرنسي (الجواسيس) الذي أكثروا من رحلاتهم خلال القرنيين السابع عشر والثامن عشر، وكانوا على صلة بالعناصر القبطية المسيحية واليهودية وبعض عناصر المماليك في مصر، ودرسوا كافة الجوانب السياسية، والاقتصادية والفكرية والعسكرية بأدق التفاصيل ومما يدلنا على ذلك حرصهم الشديد في ترويج أفكارهم فترة بقاء الحملة ، وحتى بعد رحيلها وزرعهم للمحافل الماسونية اليهودية في مصر التي أصبحت على صلة وثيقة بمحمد علي باشا فيما بعد، لقد كانت خطوات الحملة الفرنسية مدروسة بعناية شديدة قبل القدوم ولم تكن مفاجئة وحتى اكتشاف حجر الرشيد الأثري وفك رموز اللغة الهيروغليفية للمصريين القدماء فإنه إذا كان مفاجئة -وهو أمر مازال يحتاج الى بحث- فإن العناية لهذا الحدث والترويج له وماتبعه من فك رموز لغة الفراعنة واستخدامه كان أمراً مدروساً بعناية كذلك، وكان يدور في إطار الأهداف الكلية لهذه الحملة المعلن منها وغير المعلن. ويشير المؤرخ المسلم عبدالرحمن الجبرتي الذي عاصر هذه الحملة الى هذه الأمور في معرض حديثه عن المعهد العلمي الذي انشأه الفرنسيون في حارة (الناصرية(فيقول: (وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجة لايمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم خصوصا إذا رأو فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار)[1].

أولاً :سر قوة المسلمين:

كان الفرنسيون -والغربيون بصفة عامة- يدركون أن السر في قوة المسلمين يتمثل

---

(١) انظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٣/١٢٠).

في جانبين هامين الأول هو تمسكه بالدين والثاني في وحدة بلادهم في ظل حكومة اسلامية مطاعة مهابة، وقد أكد رجال الحملة الفرنسية إدراكهم لهذين العاملين حين أعلن نابليون وبعض رجاله[1] اعتناقهم للاسلام واحترام تعاليمه وزواجهم من مسلمات كي يتخذوا من ذلك ذريعة للتقرب للعوام أملاً في الاستقرار، وقد بدأ ذلك واضحاً في المنشور الأول الذي أعلنه نابليون على شعب مصر حيث ذكر: (أيها المصريون قد قيل لكم أنني مانزلت لهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين أنني ماقصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم)[2].

كما سعى رجال الحملة الى زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم، أما العامل الثاني وهو الرامي الى تمزيق وحدتهم فقد بدا واضحاً في سعي الفرنسيين لتجنيد قوة مسلحة من مسيحي مصر قادها (المعلم يعقوب(لمساعدة الحملة في ضرب الثورة الشعبية التي قادها العلماء ، والوقوف أمام قوات الخلافة العثمانية الاسلامية[3].

ثانياً: تفجير الجيوب الداخلية:

نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية على معاونة الحملة بمختلف الوسائل ، واعتبر بعض الكتاب المسيحيين أن الفائدة التي جنتها مصر خلال سني الحملة الثلاث أكثر من القرون الطويلة للحكم العثماني وقد أشاد البعض من هؤلاء العملاء بدور الخسة والنذالة الذي قام به المعلم يعقوب في تعاونه مع الفرنسيين ضد العثمانيين واعتبروه (تعاوناً يستحق بموجبه أن يقام له تمثال من ذهب في أكبر ميادين القاهرة

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية، ص١٤٣.

(٢) انظر: الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث للعدوي، ص٨٣.

(٣) انظر: قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية، ص١٤٤.

ويكتب عليه أنه أول من نادى باستقلال مصر في العصر الحديث)[1]. كان هذا الموقف من النصارى معاديا لرغبة الأغلبية المسلمة بنفس القدر مايمكن ادراكه من اتجاه أغلب المفكرين النصارى العدائي للأغلبية المسلمة في مصر المعاصرة والذي يبدو جليا في تأييدهم لخيانة بلادهم طالما هي ضد الوجود الاسلامي، وحتى بمفهوم الوحدة الوطنية الذين يسعون للتمسح به فإن (المعلم يعقوب(يعد من أبرز الذين خانوا بلادهم. وعلى أية حال كانت هذه الحادثة بداية لما عرف في التاريخ المصري باسم الفتنة الطائفية[2].

لقد قامت الأقليات غير الاسلامية من النصارى واليونان بمعاونة الاحتلال الفرنسي وقد علق على ذلك الاستاذ الدكتور عبدالعزيز الشناوي : (أسرفت بعض الطوائف غير الاسلامية في مصر في تأييد الفرنسيين اسرافا وصل الى حد تكوين فرقة عسكرية من ابناء هذه الطوائف. وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم على النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة. ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسد النقص في عدده، نتيجة المعارك التي خاضها في مصر والشام وإخماد الثورات الشعبية، وفتك الطاعون وغيره من الأمراض الوبائية بالجنود الفرنسيين وقد نظر الشعب المصري الى هذه الفرق على أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر، وتزعم هذه الفرق المعلم (يعقوب حنا(إذ كون فرقا عسكرية من الأقباط، وكانوا يرتدون زيا مشابها لزي الجنود الفرنسيين ، وقلده (كليبر(قيادة هذه الفرقة منحه رتبة أغا ثم رقى على عهد (مينو(الى رتبة لواء (جنرال) ومنحه رسميا لقب القائد العام للفيالق القبطية بالجيش الفرنسي)[3].

ورغم المقاومة الشديدة والحركة الجهادية بقيادة علماء الأزهر، فقد استطاعت القوات الفرنسية بمعاونة (المعلم يعقوب(المصري من احتلال مصر، وارتكبت من الفظائع ما يستلزم أن يفرد له صفحات من تاريخ هذه الفترة ، لترى الأجيال كم من القرى أحرقت،

---

(١) انظر: تاريخ الفكر المصري الحديث، د. لويس عوض (١/١٨٠-١٨٨).

(٢) انظر: قراءة جديدة في تاريخ الدولة العثمانية، ص١٤٤.

(٣) الدولة العثمانية دولة اسلامية (٢/٩٣٨) ومابعدها.

وكم الدور والأموال قد سرقت، وكم أعراض النساء الحرائر انتُهكت وكم من الأسر قد شردت على يد فرنسا زعيمة الحرية والاخاء والمساواة والانسانية.

وبعد احتلال القاهرة واصل نابليون احتلاله لبقية مدن مصر، (وغزة(والرملة ، ويافا وقد حاول احتلال عكا، ولكن يقظة أهلها بقيادة أحمد باشا الجزار حالت بين نابليون الصليبي وبين مايشتهي.

وحينما وصل نابليون الصليبي الى عكا وأصدر بياناً الى يهود العالم مُطلقاً عليهم اسم (الورثة الشرعيين لفلسطين(لإقامة دولة يهودية على ارض فلسطين. الا يكشف ذلك عن علاقة وثيقة بين نابليون الذي تستر بالاسلام، واليهود الذين خططوا وقاموا بما تسمى الثورة الفرنسية[١]؟؟

ثالثاً: السطان سليم الثالث يعلن الجهاد ضد فرنسا:

كان الهجوم الفرنسي على مصر يعتبر اول هجوم صليبي على ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث ، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين الصليبيين (١٢١٣هـ/١٧٩٨م) واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز، والشام، وشمال أفريقيا. فمن الحجاز خرجت جموع من المسلمين بقيادة محمد الكيلاني ، يقول الجبرتي في حوادث (شهر شعبان عام ١٢١٣هـ/٨ يناير الى ٥ فبراير عام ١٧٩٩م): (لما وردت أخبار الفرنسيين الى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية، انزعج أهل الحجاز وضجوا بالحرم وأن هذا الشيخ الكيلاني صار يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد، ويحرضهم على نصرة الحق والدين ، وفاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وانفسهم واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر الى القيصر مع ما أنظم إليهم من أهل ينبع وخلافه وكان مسلموا الحجاز خصوماً أشد للجنرال (ديزيه(الذي عهد إليه (بونابرت(غزو الصعيد والقضاء على قوات الجهاد بقيادة (مراد بك(، وقد صمموا على الظفر بإحدى الحسنيين: الاستشهاد أو الانتصار واتخذوا شعاراً لهم الآية القرآنية: {انفروا خفافاً وثقالاً

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د.جمال عبدالهادي، ص٨٦.

وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} (سورة البقرة: آية ٤١) وتكونت منهم ومن مسلمي الوجه القبلي في (مصر(وخاصة عرب (الهوارة(، وأهالي النوبة، وقوات (مراد بك(جبهة حربية اسلامية في مواجهة جبهة حربية نصرانية كانت تتألف من القوات الفرنسية، النهرية والبرية، والفيالق القبطية بقيادة المعلم (يعقوب يوحنا(في الجيش الفرنسي[١].

رابعاً: استجابة المهدي الدرناوي الليبي لنداء الجهاد ضد فرنسا:

حركته الغيرة الاسلامية والحمية الدينية فقام بدعوة مسلمي شرق ليبيا الى الجهاد في سبيل الله تعالى، فأقبل عليه الناس أفواجاً مثل قبائل أولاد علي، والهنادي وغيرهم، كما أنضم إليه سكان القرى التي مر بها وسار بهذه الجموع حتى بلغ دمنهور (١٢١٤هـ/ ابريل عام ١٧٩٩م) وكانت تعسكر بها حامية فرنسية أبادها المهدي عن بكرة أبيها وكان لانتصار الدرناوي الليبي على الفرنسيين الكفار صدى كبير، مما دفع حاكم الاسكندرية العسكري الفرنسي الجنرال (مارمون(الذي أرسل نجدة مزودة بالمدفعية لتعقب المهدي ولكنها هزمت أيضاً، فأرسل قوات أخرى من رشيد، ودارت معركة (سنهور(، وكان من أشد المعارك هولاً، ومن أعنف الوقائع التي واجهها الفرنسيون في (مصر(، واستمر القتال سبع ساعات، انتهت بانتصار المهدي الدرناوي وانسحاب الفرنسيين الى الرحمانية[٢]. وقيل أن المهدي الدرناوي ادعى المهدية.

وقد علق على ذلك أحد المؤرخين بقوله:

(واعترف نابليون بأهمية العازل الديني بين الفرنسيين والشعب المسلم وخلص الى رأي أن الحرب ضد المسلمين تعتبر حرب الاستنزاف ضد الفرنسيين ولم يمكن التغلب عليها. وقال آخر : إن المصريين وصفوا (بونابرت(بأنه نصراني ابن نصراني[٣].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية (٢/٣٩).

(٢) انظر: الدولة العثمانية ، د.جمال عبدالهادي ، ص٩٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٩٠.

وبرغم كل وسائل التودد فقد أبدى المصريون عدم تقبلهم للفرنسيين ، وعبر الجبرتي عن هذه المشاعر حين اعتبر سني الاحتلال الفرنسي لمصر (أولي سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وعموم الخراب وتواتر الأسباب {وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون} (١) (سورة هود، آية ١١).

وقد ذكر الاستاذ الدكتور الشناوي جملة حقائق تتعلق بالحملة الفرنسية على مصر:

• أن الشعب المصري بقيادة علماء الأزهر ينظرون الى الغزوة الفرنسية على انها غزوة صليبية تستهدف دينهم، وتستهد الخلافة الاسلامية.

• أن ماتسمى بثورة القاهرة الاولى والثورة الثانية، لم تكن في الحقيقة إلا حركة جهادية تستهدف إنهاء الحكم الفرنسي النصراني لمصر، وإعادة (مصر (الى حظيرة الخلافة العثمانية الاسلامية.

• أن العثمانيين والمماليك كانوا مسلمين، وأن مصر حينما كان يحمها المماليك ، إنما كانوا يحكمونها باسم السلطان العثماني المسلم.

• أن سكان الولايات العربية لم ينظروا الى السلطان العثماني على أنه سلطان المسلمين فحسب بل نظروا إليه على انه خليفة المسلمين(٢).

خامساً: الانجليز وأطماعهم في مصر:

كانت بريطانيا تتابع الأطماع الفرنسية في مصر وغيرها بدقة متناهية وعندما تحركت الحملة الفرنسية ووصلت الى مصر أرسلت أسطولاً بقيادة الاميرال نيسلون لتعقب

---

(١) عجائب الآثار (١/٢).

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٩٤٣/٢).

الحملة الفرنسية، وفاجأ نيسلون الأسطول الفرنسي وهو رابض في خليج أبي قير بعد أن أنزل قوات الحملة في الاسكندرية، وأشتبك معه في معركة ادت الى إغراقه في أول أغسطس ١٧١٨م ، وقد كان لمعركة ابي قير البحرية نتائج خطيرة من أهمها:

كبدت البحرية الفرنسية خسارة جسيمة قضت على كل أمل في إمكان إحيائها، فظل الانجليز أصحاب السيطرة في البحار.

فرض الإنجليز حصاراً شديداً على الشواطئ المصرية المطلة على البحر المتوسط حتى أصبح من المتعذر تماماً على فرنسا أن ترسل النجدات الى جيشها في مصر .

اضطر الفرنسيون في مصر الى الاعتماد اعتماداً كلياً في تدبير شؤونهم وسد حاجاتهم في هذه البلاد على مواردها الداخلية وحدها، وكان لذلك أكبر الأثر في اتباع بونابرت لما عُرف (بالسياسة الاسلامية الوطنية(التي كان هدفها توفير اسباب الحياة للفرنسيين وترويض المصريين بشتى الأساليب على قبول حكم اجنبي عنهم ولقد اعتمدت السياسة الفرنسية ثلاثة دعائم:

١- التظاهر باحترام الدين الاسلامي والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم.

٢- محاولة انتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية .

٣- إنشاء حكومة وطنية من (عقلاء) وأفاضل المصريين(١) .

غير أن هذه السياسة فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق أهداف بونابرت، والدليل على ذلك تلك المقاومة الاسلامية الشديدة التي انطلقت تقاتل جنوده إينما ساروا أو حلوا في الدلتا والصعيد، ثم الثورة التي قام بها المسلمون في القاهرة الاولى (حركة الجهاد الأولى).

وكان بونابرت وقت اندلاع المعركة خارج القاهرة ، فعاد إليها مسرعاً ونصب المدافع على تلال المقطم لتعاون مدافع القلعة في إطلاق القنابل على حي الأزهر مركز حركة الجهاد وشعلتها المتأججة.

ويؤخذ من رواية الجبرتي ومن رواية الفرنسيين انفسهم أنه في اليوم الثاني

---

(١) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. اسماعيل ياغي ، ص٢٠٩.

للثورة (٢٢ أكتوبر) حين شرع الثوار في مهاجمة مقر القيادة الفرنسية العامة بحي الأزبكية كان الجنود الفرنسيون يهاجمون الجامع الأزهر ثم دخلوه وهم راكبون الخيول وسلبوا ماكان فيه من الودائع وألقوا الكتب والمصاحف على الأرض وداسوها بأرجلهم ونعالهم، وظل الجنود الفرنسيون يحتلون الأزهر حتى ذهب وفد من مشايخه الى بونابرت يطلبون منه الجلاء عنه فكان ذلك نهاية للثورة التي استمرت ثلاثة أيام (٢١-٢٣ اكتوبر ١٧٩٨م). وانتقم الفرنسيون من المسلمين في القاهرة وضواحيها ابشع انتقام، فنهبوا ديار حي الأزهر والأحياء المجاورة وأعدموا صغار المشايخ الذين حرضوا على الثورة وصادروا ممتلكاتهم، واحاطوا القاهرة وضواحيها بالحصون والقلاع والمعاقل، وهدموا في سبيل ذلك الشيء الكثير من المنازل والقصور[1].

سادساً: العثمانيون وسياستهم الدولية:

كانت هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة ابي قير البحرية قد شجعت الباب العالي على مهاجمة الحملة الفرنسية في مصر، فأعلن الحرب على فرنسا وأصدر أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا في العاصمة العثمانية وإلقائهم في السجون. ولم تلبث وزارة الخارجية العثمانية أن دخلت مع انجلترا من جهة ومع روسيا من جهة اخرى في مفاوضات أسفرت عن عقد محالفة دفاعية هجومية بين روسيا وتركيا (٢٥ ديسمبر ١٧٩٨م) وعن عقد محالفة اخرى بين إنجلترا وتركيا (٥ يناير ١٧٩٩م) ، وكان العثمانيون يقومون في بلاد الشام باستعدادات جهادية ضد الحملة الفرنسية في مصر، مما جعل بونابرت يتخذ قراراً بأن يسق أعداءه في شن هجوم عليهم قبل أن يهاجموه، فكانت حملته على بلاد الشام (فبراير - يونيو ١٧٩٩م) التي تمكنت من ضرب القوات العثمانية المتجمعة هناك، إلا أنها لم تستطع أن تحطم قوات أحمد باشا الجزار بسبب فشلها في الاستيلاء على عكا. وبعد عودة الحملة الى مصر انتصر بونابرت في معركة أبو قير البرية ٢٥ يوليو ١٧٩٩م على قوة عثمانية اتخذت طريقها في رودس الى مصر، وكان من أهم نتائج هذه الموقعة حصول بونابرت من القائد العثماني مصطفى باشا الذي

---

(١) عجائب الآثار (١٨/٣).

وقع في الأسر على معلومات تفيد بأن حرباً عامة في أوروبا قد اندلعت ضد فرنسا، فغادر بونابرت مصر سراً الى بلاده تاركاً قيادة الحملة الى الجنرال كليبر[1].

وعلى العموم فبعد رحيل بونابرت الى فرنسا أقبل كليبر على تصريف الأمور بكل همة، فأعد تنظيم الحكومة وقسم القطر المصري الى ثمانية أقاليم إدارية، وأبقى الدواوين التي أنشأها بونابرت في الأقاليم، كما نظم شؤون تحصيل الضرائب وعني بضبط حسابات المديريات المختلفة الى جانب عنايته بسائر فروع الادارة والاهتمام بنشاط ديزيه العسكري في الصعيد إلا أن الضغوطات المطالبة بالعودة الى فرنسا أثرت على كليبر وبادر بالكتابة الى الصدر الأعظم في ١٧ سبتمبر ١٧٩٩م ينفي رغبة فرنسا في انتزاع مصر من تركيا، ويذكر الأسباب التي جعلت فرنسا ترسل حملتها الى مصر وهي محاولة إلقاء الرعب في قلوب الانجليز وتهديد ممتلكاتهم في الهند وإرغامهم على قبول الصلح مع فرنسا، بالإضافة الى الانتقام مما لحق بالفرنسيين من أذى على أيدي المماليك، وتخليص مصر من سيطرة البكوات وإرجاعها الى تركيا، ثم طلب كليبر من الصدر الأعظم فتح باب المفاوضات من أجل جلاء الفرنسيين عن مصر[2]. وقد جرت هذه المفاوضات بالفعل في مدينة العريش وأسفرت عما يسمى باتفاقية العريش (٢٤ يناير ١٨٠٠م) التي نصت على :

جلاء الفرنسيين عن مصر بكامل أسلحتهم وعتادهم ، وعودتهم الى فرنسا.

هدنة ثلاثة شهور قد تطول مدتها إذا لزم الأمر، ويتم خلالها نقل الحملة.

الحصول من الباب العالي أو حلفائه - أي الأنجليز وروسيا- على بلاده على أن تتعهد تركيا وحلفاؤها بعدم التعرض لهذا الجيش بأي أذى.

غير أن الحكومة البريطانية عندما بلغتها أنباء مفاوضات العريش كانت قد أتخذت موقفاً من شأنه تعطيل إتفاقية العريش عن إبرامها، إذ كانت تخشى من أن يعود جيش فرنسا المحاصر في مصر الى ميادين القتال في أوروبا، فترجح كفة الجيوش الفرنسية ويختل ميزان الموقف العسكري في القارة. ولما كان من المعتقد في ضوء رسائل الضباط

---

(١) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د.اسماعيل ياغي، ص٢١١.

(٢) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د.اسماعيل ياغي ، ص٢١٢.

والجنود الفرنسيين الى ذويهم في فرنسا، والتي وقعت في ايدي رجال البحرية البريطانية أن الحملة الفرنسية تمضي ببطء داخل الأراضي المصرية فقد فضلت حكومة لندن أن يبقى الفرنسيون في مصر أو يسلموا انفسهم كأسرى حرب. ولذلك أصدرت في ١٥ ديسمبر ١٧٩٩م أوامر صريحة الى اللورد كيث القائد العام للأسطول البريطاني في البحر المتوسط برفض أي اتفاق أو معاهدة بشأن الجلاء عن مصر، طالما كان هذا الاتفاق لا ينص على ضرورة أن يسلم الفرنسيون انفسهم كأسرى حرب تسليما مطلقا دون قيد أو شرط، فأعد كيث رسالة بهذا المعنى الى كليبر وصلته في أوائل مارس ١٨٠٠م.

وأمام هذا التحول المفاجئ لم يجد كليبر مفراً من وقف عملية الجلاء التي كان قد بدأها تنفيذاً لاتفاقية العريش، ثم أسرع في صبيحة يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠م بالزحف على رأس جيشه لوقف تقدم العثمانيين الذين وصلت طلائعهم الى المطرية على مسافة ساعتين من القاهرة، فوقعت معركة (عين شمس) التي امتد ميدانها من المطرية حتى جهات الصالحية، وهزم الفرنسيون فيها العثمانيون هزيمة شديدة. وفي أثناء معركة هليوبوليس كان فريق من جيش الصدر الأعظم وبعض عناصر المماليك قد تسللوا الى داخل القاهرة وأثاروا أهلها على الفرنسيين، فكانت ثورة القاهرة الثانية التي استمرت مدة شهر تقريباً من ٢٠ مارس الى ٣٠ ابريل سنة ١٨٠٠م[١].

ولم يستطيع كليبر إخماد الثورة إلا بعد إلتجائه الى العنف، فدك القاهرة بالمدافع من كل جانب، وشدد الضرب على حي بولاق حيث تركزت الثورة فاندلعت ألسنة النيران في كل مكان منه، والتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكائل والخانات، فلم يجد سكان بولاق مفراً من التسليم، وتلاهم سكان الأحياء الاخرى، وتولى مشايخ الأزهر الوساطة وأخذوا من كليبر العفو الشامل والأمان، ولكنه مالبث أن غدر بالمسلمين بعد أن خمدت الثورة، وكان اقتصاصه منهم رهيباً شديداً فأعدم بعضهم وفرض غرامات فادحة على كثير من العلماء والأعيان، كما فرض المغارم على أهل القاهرة جيمعاً، ولم يستثني منهم الطبقات الشعبية الكادحة[٢]، وعهد كليبر الى المعلم (يعقوب) أن يفعل بالمسلمين مايشاء، ومما

---

(١) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، ص٢١٤.

(٢) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، ص٢١٥،٢١٤.

يذكر أن بطريرك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته، وكثير مابذل له النصح بالعدول عن خطته، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه، ولم يزدد إلا إمعاناً في تأييد الفرنسيين[1].

ولم يمض على إخماد ثورة القاهرة إلا شهرين حتى أغتيل كليبر في ٢٤ يوليو ١٨٠٠م بطعنة قاتلة من أحد طلبة الأزهر الشاميين، وهو سليمان الحلبي، ومن المعتقد أن السلطات العثمانية كانت لها يد في مصرع كليبر وفي ١٧ يونيو أحتفل الجيش الفرنسي احتفالاً رهيباً بتشييع رفات كليبر ، وبعد دفن الجثة أعدم سليمان الحلبي وآلت القيادة العامة للحملة الى الجنرال مينو باعتباره أكبر ضباط الحملة سناً[2] وكان هذا القائد من أنصار البقاء في مصر وخط سياسته استهدفت توطين الفرنسيين فيها إلا أن الضغوطات الداخلية والخارجية أضطرته الى مغادرة مصر بعد الهجوم المشترك الذي قام به الانجليز والعثمانيون على الفرنسيين في مصر. لقد تظافرت عوامل عدة أرغمت المحتلين الفرنسيين على الخروج من مصر في النهاية، منها تحطيم أسطولهم في معركة ابي القير البحرية، وسيطرة الانجليز البحرية في البحر المتوسط، وتشديدهم الحصار على الشواطئ المصرية، مما أعجز الحكومة الفرنسية عن إرسال النجدات والإمدادات الى فرنسا في مصر، وانضمام الدولة العثمانية الى أعداء فرنسا، والانقسام الذي حدث في صفوف الحملة وبدأت بوادره منذ بدأ جيش بونابرت زحفه الشاق من الاسكندرية الى القاهرة، ثم استفحل أمره بعد رحيل بونابرت وخصوصاً عقب مصرع كليبر وإبان قيادة مينو للحملة، وجهاد الشعب المصري المسلم ضد الاحتلال الفرنسي الصليبي، ذلك الجهاد الذي تمثل في ثورتي القاهرة الاولى والثانية، وفي العمليات الجهادية التي اشتعلت في الدلتا ، وفي المقاومة التي اشتدت في الصعيد. ودون أدنى شك كان لجهاد مسلمي مصر للحكم الفرنسي بالغ الأثر في زعزعة أركانه، وفي عجز الفرنسيين عن بلوغ غايتهم وتنفيذ أهدافهم وانهيار آمالهم في تشييد تلك المستعمرة الجميلة التي كانوا يحلمون بإتخاذها نواة لامبراطوريتهم الاستعمارية

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي ، ص٨٩.

(٢) انظر: عجائب الآثار (٣٠/٣).

الجديدة في مصر[1].

سابعاً: آثار الحملة الفرنسية على الأمة الاسلامية:

لقد كان لهذه الحملة آثاراً بالغة وسبباً من أسباب هزيمة الأمة الداخلية ولقد صور هذه الآثار على الأمة الاستاذ محمد قطب فقال: (ثم كانت الهزيمة الحربية التي وقعت بالمماليك على يد نابليون في إمبابة إيذاناً بالهزيمة الداخلية، هزيمة العقيدة في داخل النفوس. لقد روع المسلمون بمدافع نابليون وبدت لهم سيوف المماليك هذراً فارغاً إزاء تلك المدافع الجديدة التي لم يكونوا يعرفونها أو يتصورون وجودها، في يد الاعداء. وانقلب ميزان القوى انقلاباً عنيفاً في نفوسهم فتلك هي المرة الأولى التي تنهزم فيها جيوش المسلمين عن جدارة، وتتغلب جيوش الصليبيين لأنها تملك قوة حقيقية من العتاد والفن الحربي والمعرفة لايملكها المسلمون ولقد كان ممكناً مع ذلك كله ألا يتغير الميزان في داخل النفوس، كان ممكناً أن تصمد النفوس للهزيمة ريثما تتجمع للانقضاض من جديد كما حدث مرات كثيرة من قبل، ولكن الرصيد الداخلي للعقيدة في تلك الفترة لم يكن من القوة بحيث يصمد للصدمة ويتجمع من جديد. حقاً لقد قام الشعب بمقاومة باسلة للحملة الفرنسية، وثارت القاهرة بزعامة العلماء وتأثيرهم الروحي وحدثت بطولات عجيبة. حقاً لقد حدث كل ذلك، ولكنه كان أشبه بالاعمال الفردية الفدائية، أما الكيان الحقيقي للدولة المسلمة المقاتلة التي تنظم القتال وتجيش الجيوش وتقف للغزاة بوصفها (دولة الاسلام)، أما ذلك كله فكان قد ذاب في معركة إمبابة ولم يعد له وجود.

وأحس المسلمون بالهزيمة الحقيقية هي هزيمة الحرب، فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً يحكم به المسلمون غير شريعة الله، قانوناً مستمداً من التشريع الفرنسي، وحصر تشريع الله في أمور الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث، وكانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ المسلمين المرة الأولى التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله، يضعه وينفذه قوم غير مسلمين ، لقد كان الصليبيون يدخلون الأراضي الاسلامية أحياناً، ويبقون في بعض الأحيان سنوات، بل وصل بهم الأمر قبل قبيل صلاح الدين أن

---

(١) انظر: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، ص١٨٨.

يقيموا لهم دويلات على شاطئ البحر الأبيض في بلاد الشام، ولكنهم لم يجرؤوا قط في أية مرة أن يضعوا قانوناً من عندهم يحكمون به المسلمين؛ فقد كانوا في كل مرة غزاة انتهبوا قطعة من الأرض ولم يكونوا قط دولة حاكمة مسيطرة في الأرض، وفي هذه المرة كانوا لأول مرة -دولة حاكمة في ارض الاسلام بعد أن أطاحوا بالدولة المسلمة وذوبوها في ميدان القتال.

وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية؛ هزيمة العقيدة. وبدء انحسارها في عالم الواقع، وانحسارها -من ثم- في داخل النفوس، وفي ظل هذه الهزيمة وتلك كان الانبهار الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين؛ انبهار بقوة السلاح أولاً، وانبهار بالعلم الغربي الذي حمله رجال البعثة المرافقة للحملة، وانبهار بالمطبعة التي جاء بها نابليون الى مصر، وانبهار بالتنظيمات التي أحدثها، وفي كلمة واحدة انبهار بكل ماجاء من الغرب وكل ماليس بإسلام.

وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة التي مهدت لكل ماأحدثه الاستعمار الصليبي بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم في واقع الحياة، لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثاً حقيقياً في عالم الواقع بعد هذه الهزيمة الداخلية التي خلفتها الحملة في نفوس المسلمين)[1].

لقد كانت للحملة الفرنسية أثر بالغ في مصر خصوصاً والشرق عموماً وستعرف ذلك في المباحث القادمة بإذن الله تعالى وكيف استطاعت المحافل الماسونية اليهودية الفرنسية أن تشق طريقها لطعن الاسلام بخنجرها المسموم، لقد استطاع الفرنسيون أن يزرعوا أفكارهم ويجدوا لهم عملاء في المنطقة ، واستفادوا بعد خروجهم العسكري من الدور الخطير الذي قام به محمد علي باشا حاكم مصر فيما بعد. لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر وخروجها وظهور شخصية محمد علي باشا في زمن السلطان سليم الثالث الذي تم عزله بسبب انه ادخل أساليب الفرنجة وعوائدهم الى الجيش ولم يقف

---

(١) انظر: هل نحن مسلمون ، ص١١٥-١١٨.

عند الاستفادة بالتقنية الحديثة، مما يشكل خطراً على عقائد الامة، وهذا ماورد في نص الفتوى التي أصدرها المفتي: (كل سلطان يدخل نظامات الإفرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك) لكن يظل الأمر محاط بالغموض، بل إن دراسة تاريخ السلطان سليم الثالث تظهر لنا إنه كان حريصاً على إحياء فريضة الجهاد كما كانت على عهد أجداده وآبائه، فهل هذا هو السبب وراء المؤامرة التي أطاحت به في جمادى الأولى عام ١٢٢٣هـ/٢٨ يونيو ١٨٠٨م)[١].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص٩١.

المبحث الثامن

السلطان محمود الثاني

(١٢٢٣-١٢٥٥هـ/١٨٠٨-١٨٣٩م)

تولى الحكم وعمره أربع وعشرون سنة، استفاد من إقامته الجبرية مع سليم الثالث حيث أطلعه الأخير على خطط الاصلاح. إلا أن السلطان الجديد أرغم في البداية على الانحناء أمام رغبات الانكشارية، فأمر بإلغاء كل الإصلاحات حتى يرضيهم الى أن تحين الفرصة لتطبيق وتنفيذ خطط الإصلاح. وكان محمود يتذرع بالصبر انتظاراً لساعة الخلاص من الانكشارية الذين هددوا كيان الدولة العثمانية ولكن الفرصة لم تتح له قبل مرور عدة سنوات، خاصة وأن عهده قد امتلئ بالحروب والتطورات الهامة التي استنزفت معظم جهوده وكافة إمكانياته[(١)].

أولاً: الحرب مع روسيا:

عقد السلطان محمود الثاني صلحاً مع انجلترا عام ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م وحاول أيضاً عقد اتفاق مماثل مع روسيا ولكنه فشل، واشتعلت نار الحرب بينهما، وهزم العثمانيون واستولى الروس على بعض المواقع وعزل الصدر الأعظم ضياء يوسف باشا وتولى مكانه أحمد باشا الذي انتصر على الروس، وأجلاهم عن المواقع التي دخلوها وساءت العلاقات بين فرنسا وروسيا، وكادت تقع الحرب بينهما، فطلبت روسيا الصلح مع الدولة العثمانية، وعقدت بين الطرفين معاهدة بخارست عام ١٢٣٧هـ/١٨١٢م والتي نصت على بقاء الأفلاق والبغدان وبلاد الصرب تابعة للدولة العثمانية. وقد مكن الصلح السلطان محمود من القيام ببعض الإصلاحات والقضاء على الثورات والتمردات في الدولة[(٢)].

ولما علم الصربيون بمعاهدة بخارست، وإعادة خضوعهم للدولة العثمانية، قاموا

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د. اسماعيل ياغي، ص١٢٧،١٢٨.

(٢) تاريخ الدولة العثمانية، أحمد سرهنك، ص٢٢٦-٢٢٨.

بالثورة غير أن القوات العثمانية أخضعتهم بالقوة، وفر زعماء الحركة الى النمسا، ولكن أحدهم وهو ثيودور فتش أظهر الولاء للعثمانيين وخضع للسلطة العثمانية وحصل على امتيازات خاصة من الدولة[1].

إلغاء الإنكشارية:

فسدت طبيعة الإنكشاريين وتغيرت أخلاقهم ، وتبدلت مهمتهم وأصبحوا مصدراً للبلاء للدولة والشعوب التابعة لها، وصاروا يتدخلون في شؤون الدولة وتعلقت إفئدتهم بشهوة السلطة وانغمسوا في الملذات والمحرمات وشق عليهم أن ينفروا في برودة الشتاء وفرضوا العطايا السلطانية ومالوا الى النهب والسلب حين غزو البلاد وتركوا الغاية التي من أجلها وجدوا وغرقوا في شرب الخمور وأصبحت الهزائم تأتي من قبلهم بسبب تركهم للشريعة والعقيدة والمبادئ وبعدهم عن أسباب النصر الحقيقية، وقاموا بخلع وقتل السلاطين من أمثال عثمان الثاني، واستمر الإنكشاريون في عهد السلطان مراد الرابع سنوات عشر سائرين في طريق الظلال سادرين في غيهم وطغيانهم، فهم الذين نصّبوه فأصبح الأمر والنهي لهم، وهم الذين قاموا بقتل السلطان ابراهيم الأول خنقاً حينما حاول التخلص منهم، وهم الذين أربكوا الدولة إذ وضعوها في حالة من الفوضى بقتلهم السلاطين وتولية أولادهم الصغار السن من بعدهم كالسلطان محمد الرابع، فقام الأفرنج بإحتلال أجزاء من البلاد، فاضطر الصدر الأعظم والعلماء الى عزله. ثم ثارت الانكشارية في عهد السلطان سليم الثاني ودخلت جيوش الاعداء بعضاً من اراضي الدولة واحتلتها. وخلع الانكشارية السلاطين مصطفى الثاني، أحمد الثالث، مصطفى الرابع، الى أن قيض الله للسلطان محمود الثاني عام ١٢٤١هـ للتخلص منهم[2].

فجمع السلطان مجموعة من أعيان الدولة وكبار ضباط الانكشارية في بيت المفتي، وقام الصدر الاعظم سليم أحمد باشا خطيباً فبين الحالة التي وصلت إليها الانكشارية من الضعف والانحطاط وبين ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة، فأقتنع الحاضرون ثم

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د.اسماعيل ياغي، ص١٢٨.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون ، ص١٠٧،١٠٨.

أفتى المفتي بجواز العمل للقضاء على المتمردين. وقد أعلن الموافقة كل من حضر من ضباط الانكشارية من حيث الظاهر وأبطنوا خلاف ذلك ولما شعروا بقرب ضياع امتيازاتهم وبوضع حداً لتصرفاتهم أخذوا يستعدون للثورة واستجاب لهم بعض العوام. وفي ٨ ذي القعدة عام ١٢٤١هـ بدأ بعض الانكشاريين بالتحرش بالجنود أثناء أدائهم تدريباتهم ثم بدأوا في عصيانهم فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية المتمردين فشجعوه على استئصالهم فأصدر الأوامر للمدفعية حتى تستعد لقتالهم ملوحاً باللين والتساهل في الوقت نفسه خوفاً من تزايد لهيب شرورهم. وفي صباح ٩ ذي القعدة تقدم السلطان ووراءه جنود المدفعية وتبعهم العلماء والطلبة الى ساحة (آت ميداني) حيث اجتمع العصاة هناك يثيرون الشغب وقيل إن السلطان سار معه شيخ الاسلام قاضي زادة طاهر أفندي والصدر الاعظم سليم باشا أمام الجموع التي كانت تزيد على ٦٠,٠٠٠ نفس ثم أحاطت المدفعية بالميدان واحتلت المرتفعات ووجهت قذائفها على الانكشارية فحاولوا الهجوم على المدافع ولكنها صبت حممها فوق رؤوسهم فأحتموا بثكناتهم هروباً من الموت، فأحرقت وهدمت فوقهم وكذلك تكايا البكتاشية، وبذلك انتصر عليهم. وفي اليوم التالي صدر مرسوم سلطاني قضى بإلغاء فئتهم وملابسهم واصطلاحاتهم واسمهم من جميع بلاد الدولة وإعدام من بقي منهم هارباً الى الولايات أو نفيه، ثم قلد حسين باشا الذي كانت له اليد الطولى في إبادتهم قائداً عاماً (سرعسكر) وبدأ بعدها نظام الجيش الجديد(١).

ثم أصبح السلطان محمود بعد ذلك حراً في تطوير جيشه، فترسم خطى الحضارة الغربية فأستبدل الطربوش الرومي بالعمامة ، وتزيا بالزي الأوروبي ، وأمر أن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة العسكريين منهم والمدنيين، وأسس وساماً دعاه وسام الافتخار(٢) فكان أول من فعل ذلك من سلاطين آل عثمان(٣).

وما قام به السلطان محمود من استبدال العمامة بالطربوش وفرض اللباس الأوروبي على كافة المجموعات العسكرية يدل على شعوره العميق بالهزيمة النفسية وسوف

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون ،ص١٦٩.

(٢) انظر: المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، عبدالله بن حمد، ص٧٣.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د.علي حسون ،ص١٦٩.

نتعرض لأسبابها إن شاء الله تعالى.

ثانياً: محمد باشا والي مصر:

كان محمد علي شخصية سيئة السمعة معروفاً بالقسوة وغلظة الكبد ترسله الدولة العثمانية لتأديب القرى التي تتأخر في دفع مايفرض عليها من المال، فيعسكر هو وأفراد حملته التأديبية حول القرية ينهبون ويسلبون ويفزعون الآمنين، حتى يرى أهل القرية أن الأفضل لهم أن يدفعوا الأموال المطلوبة وإن أبهظتهم وكان محباً للعظمة الى حد الجنون[١].

جاء محمد علي الى مصر على رأس فرقة من الروملي لإخراج الفرنسيين منها، واستطاع بمكره ودهاءه أن يكسب ثقة العلماء في مصر وسعى في القضاء على منافسيه على ولاية مصر بطرق ملتوية وماكرة وخبيثة حتى أصبح والياً على مصر ابتداءً من ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٢٠هـ الموافق ١٨ يونيو سنة ١٨٠٥م[٢].

وعلى الرغم من أن محمد علي قد ابدى حماساً شديداً لكي يصبح خادماً مطيعاً للسلطان[٣]، وأبد في سبيل ذلك كثيراً من عبارات التذلل والخضوع للسلطان ودولته[٤]، إلا أن السلطان كان على وشك أن يدرك أبعاد هذه العبارات، مظهراً بذلك تخوفه من هذا الوالي الجديد، فأمر بنقله عن ولاية مصر، إلا أن تدخل العلماء مرة أخرى قد جعل السلطان يصدر فرماناً آخر بتثبيته على ولاية مصر في ٢٤ شعبان سنة ١٢٢١هـ/ ٦ نوفمبر ١٨٠٦م[٥].

ومن هنا بدأ محمد علي في تدعيم مركزه الشخصي وتثبيت الولاية في شخصه،

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر لمحمد قطب، ص٢٠٥.

(٢) انظر: حروب محمد علي في الشام، د.عايض الروقي، ص٣٢.

(٣) انظر: قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية، د. سليمان الغنام، ص١٧.

(٤) وثيقة تركية رقم ٥٠/١-٢٤٨ في ربيع الأول ١٢٣٠هـ الرياض .

(٥) انظر : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص٣٩١.

وبالتالي في سلالته وهناك اسئلة كثيرة تحتاج الى اجابة منها ماحقيقة الدور الذي قام به محمد علي من أجل المصالح الفرنسية والبريطانية؟ ومن الذي كان خلف القضاء على الدولة السعودية الأولى وعلى ضم الشام الى مصر؟ هذه أسئلة نحاول حلها من خلال الدراسة التاريخية الواعية.

ثالثاً: المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي يصف محمد علي:

وصف المؤرخ الجبرتي محمد علي بأنه مخادع وكذاب يحلف الأيمان الكاذبة، ظالم لاعهد له ولا ذمة يضمر السوء واستخدم العسف والجور في نفس الوقت الذي يعد فيه بالعدل، لايخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ[١]. ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد علي بأنه ميكافللي، أو انه تعلم على فكر ميكافللي (صاحب نظرية الغاية تبرر الوسيلة)، فقيل له -اي محمد علي- : مرة أن ميكافللي ألف كتاباً اسمه الامير، فكلف أحد النصارى المحيطين به، وقد أعتاد أن يكون أغلب مرافقيه من النصارى واليهود، واسمه أرتين بترجمة هذا الكتاب وأن يوافيه كل يوم بصفحة مترجمة، فلما وصل الى الصفحة العاشرة توقف عن المواصلة قائلاً بأنه يمتلك من الحيل مالم يخطر لمكيافللي على بال[٢].

ولقد علق بعض الكتاب على ذلك بأن هذه الصفات التي رشحت محمد علي لأن يصبح والياً على مصر[٣] وتلك الصفة القذرة من حب الزعامة والى حد الجنون، وقسوة القلب، والنظر الى الذات وعدم المبالاة بالاسلام هي التي تبحث عنها المحافل الماسونية لصناعة الأبطال الذين يدمرون والاسلام ودولة الخلافة من داخلها.

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص١٥٩.

(٢) انظر: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، د.محمد فؤاد شكري (٨٥٧/٢).

(٣) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٦٠.

رابعاً: محمد علي والماسونية:

لم يكن من السهل على شاب قليل الخبرة وقليل المعرفة بمصر وطبيعتها أن يصل الى ما وصل إليه محمد علي مهما كانت قدرته أو ذكاؤه إلا إذا كان يستند الى قوة تخطط له وتعينه على تحقيق أهدافه وتسخره في نفس الوقت لتحقيق أهدافها ، وبخاصة أنه كما ذكر عن نفسه (لا يصلح للولاية وليس من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة)[1] وهذه الصفات حقيقية له مهما كان غرضه من قولها، ولهذا نجد أنفسنا أمام العديد من التساؤلا، لماذا ثارت الفرقة الألبانية بالذات التي يحتل فيها هو الرجل الثاني دون بقية الفرق العثمانية وأبعدت (خسرو باشا(عن الولاية تحت دعوى تأخر رواتبهم؟ ولماذا أندفع العلماء لتعيين قائد القوة الألبانية الثائرة طاهر باشا قائمقاماً ينوب عن الوالي المطرود ثم يقتل بعد عشرين يوماً؟ ولماذا يطرد الوالي الجديد أحمد باشا بعد توليه بيوم واحد فقط؟ ولماذا يساعد محمد علي خورشيد باشا في تولي الولاية ثم ينقلب عليه؟ وكيف استطاع محمد علي أن يفي برواتب الجند وبخاصة بعد استيلاء المماليك في الصعيد على مخصصات الأهالي هناك؟ ولماذا ولماذا؟ جوانب كثيرة يكتنفها الغموض!!!

وتشير كثير من الأدلة الى أن هذه القوة -التي لم تكن ظاهرة- هي الحركة الماسونية التي انبعثت في مصر سنة ١٧٩٨م علي يد رجال الحملة الفرنسية حيث مهد لها نابليون، ثم أسس خلفه كليبر ومعه مجموعة من ضباط الجيش الفرنسيين الماسونيين محفلاً في القاهرة سمي محفل إيزيسي، وأوجدوا له طريقة خاصة به هي الطريقة المفيسية أو الطريقة الشرقية القديمة[2]. وقد تمكن هذا المحفل من أن يضم إليه بعض الأعضاء من المصريين وإن كانوا قلة، ثم أنحل هذا المحفل رسمياً في أعقاب اغتيال كليبر سنة ١٨٠٠م، وظل أعضاؤه يعملون في الخفاء وبسرية.

ويشير المنشور الأول الذي وزعه نابليون على المصريين الى أنه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة فيذكر فيه (قولوا لهم - أي المصريين أن جميع الناس

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٦١.

(٢) انظر: نهاية اليهود لمحمد عزت، ص١٣٢.

متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط)[1] ويبدو تزعم الحملة الفرنسية للفكر الماسوني واضحاً منذ بدايتهم ولقد حاولوا فرض العادات الخبيثة التي استهجنها المسلمون في مصر كالبغاء والسفور وتشجيع النساء من الحرافيش ونساء الهوى على ارتكاب المحرمات بشكل علني واضح، حيث يعد هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونية[2].

وتوحي بعض الدلائل على أنهم - أي الفرنسيين - قد نجحوا في ضم المصريين من المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ حسن العطار الى المحفل الماسوني الذي أسسه كليبر سنة ١٨٠٠م ، فبعد أن هرب الشيخ حسن العطار الى الصعيد في أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء ثم عاد الى القاهرة على أثر دعوة الفرنسيين للعلماء اتصل على الفور برجال الحملة ونقل عنهم علومهم، وفي نفس الوقت تولى تعليمهم اللغة العربية[3] وقد اندمج الى حد كبير في علومهم ، وكثيراً ما تغزل في أشعاره بأصدقائه منهم[4]. ولقد دعت هذه الأمور أن يوصف العطار بأنه من دعاة التجديد[5]. وقد توثقت صلة الشيخ العطار بمحمد علي بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التي يعتمد عليها محمد علي في خطواته التجديدية في مصر وهو أمر يشير الى وجود صلة بين محمد علي والمحفل الماسوني المصري الذي تأسس إبان الحملة الفرنسية[6].

كما أن تطور الأحداث يشير الى تشبع محمد علي بالأفكار الماسونية التي كان مهيأً لها بحكم تكوينه الطبيعي فينقل عنه قوله وهو يفاوض الفرنسيين على مسألة احتلال الجزائر : (ثقوا أن قراري .. لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني

---

(١) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٦٧.

(٢) انظر: عجائب الآثار (١٦١/٣).

(٣) انظر: الصراع الفكري بين أجيال العصور، ابراهيم العدوي، ص٨٥.

(٤) انظر: الجبرتي والفرنسيس ، د.صلاح العقاد، ص٣١٦.

(٥) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٦٩.

(٦) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٦٩.

متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي .. قد تقولون أن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها)[1].

وقد شهد عصر محمد علي على تأسيس أكثر من محفل ماسوني في مصر فقد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلاً بالاسكندرية سنة ١٨٣٠م، على الطريقة الاسكتلندية وغيرها كثير[2].

(إن الماسونية هي القنطرة التي عبرت عن طريقها الصهيونية العالمية، إذا أسسها تسعة من اليهود بغية الوصول الى تحقيق الحلم الصهيوني المتمثل في انشاء حكومة يهودية عالمية تسيطر على العالم، فأعدت خططها وبرامجها المحققة لأهدافها وأطلقت على نفسها اسم : (القوة الخفية) واتخذت في ذلك السرية والعهود والمواثيق التي كانت تأخذها على العضو المنضم إليها وسيلة ضغط عليه بحيث يصبح آلة توجهه كما تريد. وقد استشرى فساد الماسونية في المجتمعات الغربية واستطاعت أن تجذب الكثيرين من الأعضاء عن طريق شعارها الظاهري: (الحرية ، الإخاء، المساواة)[3] (الماسونيون هم أيدي اليهود التنفيذية لمخططات البطش ومؤامرات الاضطهاد والإعدام والسحق السارية المفعول على جميع شعوب العالم)[4].

(الماسونية آلة صيد بيد اليهود، يصرعون بها كبار الساسة، ويخدعون الأمم الغافلة والشعوب الجاهلة. الماسونية خطر كامن وراء الرموز والألفاظ والطلاسم، وخنجر غمده اليهود في قلب الشعوب، وأقاموا لها عدواً من داخلها وعلة من وسطها. الماسونبة عقرب لدغ الشعوب قروناً، متجلياً رداء الحرية والمساواة والإخاء ..)[5].

(فالماسونية ماهي إلا يهودية الأصل والمنبت ومادامت كذلك فهي تجيد المكر

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٧٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٧٠.

(٣) انظر: الماسونية وموقف الاسلام منها، د. حمود الرجيلي، ص٣،٤.

(٤) انظر: اليهود الماسونية، عبدالرحمن الدوسري، ص٤٢.

(٥) انظر : حقيقة الماسونية لمحمد علي الزعبي، ص٧٠.

والخداع، وتتقن أساليب التشكيك في العقائد، والنيل من الأنبياء والرسل عليهم السلام، وتشيع الإلحاد والكفر في ربوع الأرض، وتدعو الى الإباحية والفساد والرجس، واليهود تاريخهم معروف في تحريف الكتب السماوية، وقتل الأنبياء، وإطفاء كل باقة من نور، إنهم أتباع الشيفات، وعبدة الذهب وأصحاب الاحتكار وجمع الأموال وغير ذلك من الرذائل التي اتصفوا بها. ولم يعد اليوم خافياً على أحد أن الماسونية منظمة يهودية يراد منها تخريب العالم اجتماعيا، واخلاقيا، ودينياً .. وتمتد أذرعتها المسمومة الى كل المبادئ والقيم بغية تدميرها والقضاء عليها)(١).

لقد انتشرت المحافل الماسونية في مصر والشام وتركيا وكانت تعمل ليلاً ونهاراً من أجل تفتيت وإضعاف الدولة العثمانية بمعاولها الفاسدة التي لاتكل ولا تمل ولقد استطاعت المحافل الماسونية الفرنسية في مصر أن تجعل فرنسا تحتضن محمد علي يقول الاستاذ محمد قطب: (واحتضنته احتضاناً كاملاً لينفذ لها كل مخططاتها: ؛ فأنشأت له جيشاً مدرباً على أحدث الأساليب ومجهزاً بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ بإشراف سليمان باش الفرنساوي:)(٢).

لقد كانت المصالح الفرنسية ترى دعم محمد علي ليتحقق لها أطماعه المستقبلية في حفظ وتقوية محافلها الماسونية ، وإضعاف الدولة العلية العثمانية، وزرع خنجرها المسموم في قلب الدولة العثمانية ولذلك أنشأت لمحمد على اسطولاً بحرياً متقدماً متطوراً، وترسانة بحرية في دمياط، والقناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر، أو لمحمد علي، إنما كان لتنفيذ المخطط الصليبي الذي فشلت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها الى الخروج.

لقد قام محمد علي بدور مشبوه في نقل مصر من انتمائها الاسلامي الشامل الى شيء آخر يؤدي بها في النهاية الى الخروج عن شريعة الله وكانت تجربة محمد علي قدوة لمن بعده من أمثال مصطفى كمال أتاتورك وجمال عبدالناصر..الخ.

---

(١) انظر: الماسونية وموقف الاسلام منها، د.حمود الرحيلي، ص١٨.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص٢٠٥.

إن المسلم الحق لا يمكن أن يقوم بمثل هذا الدور لا واعياً ولا مستغفلاً ، لأن إسلامه يمنعه أن يتلقى التوجيه من أعداء الاسلام.

لقد كان أعداء الاسلام يريدون القضاء على الدولة العثمانية. والقيام بتغريب العالم الاسلامي مع الاهتمام الخاص ببلد الأزهر ليقوم بتصدير أفكارهم الى بقية الشعوب الاسلامية، فأما القضاء على الدولة العثمانية فقد ساهم في إضعافها وإهدار طاقاتها، واسقاط هيبتها وتعدي على حرماتها وأما التقارب مع الأعداء والسير في فلكهم الفكري والحضاري والإنسلاخ التدريجي عن الانتماء العقدي والفكري والأخلاقي فقط قطع فيه شوطاً مدحه عليه حلفائه من الماسون الفرنسيين والبريطانيين وانهزم أمام الغزو الفكري المنظم وقام بتنفيذ سياسة الابتعاث بإرسال الطلاب الشبان الى أوروبا ليتعلموا هناك، وكان هذا من الأمور الخطيرة المنافذ التي دخل التوجه العلماني من خلالها، فدخل ساحة التعليم ومن ثم في ساحة الحياة في مصر الاسلامية وأهمل الأزهر وشيوخه وعلمائه واهتم بإرسال الشبان الصغار بأعداد متزايدة الى أوروبا وهم في سن المراهقة، غير محصنين بشيء لينغمسوا في الشهوات، ويتأثروا بالشبهات ثم يرجعوا الى بلادهم ليكونوا رأس الحربة المتجهة الى الغرب، لقد أرس معهم مع البعثات أئمة يؤموا الطلاب في الصلاة ولكن ماذا عملوا الأئمة؟ لقد كان رفاعة رافع الطهطاوي واحداً من أولئك الأئمة ولكنه عاد وهو واحد من دعاة التغريب ، وعندما استقبله أهله بالمرح يوم عاد من فرنسا بعد غيبة سنين، فأشاح عليهم في ازدراء ووسمهم بأنهم (فلاحون) لايستحقون شرف استقباله[(١)].

ثم ألف كتابه الذي تحدث فيه عن أخبار (باريس) ودعا فيه الى تحرير المرأة الى السفور، والى الاختلاط ، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس، فقال إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم[(٢)].

لقد استغرقت عملية الانتقال التدريجي مايقرب من قرن من الزمان، ولكنها

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص٢٠٩.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر ، ص٢٠٩.

كات عملية مستمرة لا تتوقف ، بل تتوسع على الدوام[1].

لقد كان محمد علي ثعلباً ماكراً همه نفسه وأولاده من بعده ولذلك قام بأعمال شنيعة، وأفعال قبيحة في إضعاف الأمة، والقضاء على شوكتها وتنفيذ مخططات فرنسا وبريطانيا وحرص على أن يجمل صورته في أعين الغرب ويقفوا آثارهم في التحديث بل ويفكر كما قال عن نفسه (بعقل افرنجي وهو يلبس القبعة العثمانية)[2].

لقد قام محمد علي نيابة عن فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية بتوجيه ضربات موجعة للاتجاه الاسلامي في كل من مصر، والجزيرة العربية، والشام ، والخلافة العثمانية مما كان لها الأثر في تهيئة العالم الاسلامي للأطماع الغربية.

خامساً : محمد علي وضربه للاسلام في مصر:

بعد أن نجح محمد علي في توطيد نفسه في الحكم واحاط نفسه ببطانة ومساعدين من نصارى الأروم والأرمن وكتبة من الأقباط واليهود، واستجلب لنفسه مماليك جعلهم حكاماً للأقاليم، وكان في كل ذلك مستنفراً لجموع المسلمين المصريين ومعبراً عن عدم الاهتمام أو الاكتراث بهم وبخاصة أن هؤلاء المساعدين قد أعانوه على سياسته الاستبدادية بين الفلاحين وصف الجبرتي ذلك بقوله: (فتح بابه للنصارى من الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم، كما أنه كان يحب السيطرة والتسلط ولا يأنس لمن يعارضه)[3].

وسلك محمد علي واتباعه من غير المسلمين سياسة من أبرز علاماتها الظلم والقهر والاستعباد ضد جموع الشعب المصري ، فجمع حجج الأرض من الفلاحين وفرض عليهم السخرة، أو دفع ضريبة بديلة وحرم عليهم أن يأكلوا شيئاً من كد أيديهم، وأبطل

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢١٠.

(٢) تجربة محمد علي الكبير، منير شفيق، ص٣٨.

(٣) عجائب الآثار (٤/١٥٠).

التجارة، وزاد في اسعار المعايش أضعافاً مضاعفة، وفرض الضرائب التي لايطيقون دفعها، وجعل كل نشاط اقتصادي يؤول إليه، ونقم على الناس[1]، وارجع الجبرتي ذلك الى مايتسم به محمد علي من (داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم([2]. وقد نتج عن هذه السياسة كره الفلاحين الشديد لمحمد علي وأعوانه، وهروبهم من الأراضي الزراعية، وترك قراهم فراراً من السياسة الظالمة، وأعرضوا عن الاشتراك في جيشه فقد بلغ عدد الفلاحين الفارين في عام واحد هو عام ١٨٣١م ستة آلاف فلاح[3].

أما في المدن وبخاصة في القاهرة فيذكر الجبرتي أن محمد علي حين كلف الناس بتعميرها (اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذائل وهي السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل والمهانة وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الاعداء وتعطيل معاشهم وأجرة الحمام)[4].

لقد كان الجبرتي معاصراً لسياسة الظلم التي مارسها محمد علي على الشعب المسلم في مصر الذي امتص حقوقه وخيراته وفتح للتجار الأوروبيين الباب على مصراعيه لدخول مصر والهيمنة على اقتصادها، وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أروربا من المنتجات الزراعية وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطاً حضارياً وتجارياً. وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر على الاسواق الأوروبية من الناحية الاقتصادية وبالتالي السياسية ، الى جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة على الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الاسلامي[5]، وأوقف مناهج التعليم القائمة على الدين تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونية، وهو أمر أكده المؤرخ الانجليزي أرنولد توينبي في

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص١٧٩.

(٢) عجائب الآثار (١٥٠/٤).

(٣) انظر: تاريخ الشرق العربي، د. عمر عبدالعزيز، ص٢٤٦.

(٤) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص١٨٠.

(٥) انظر: تاريخ الشرق العربي، د. عمر عبدالعزيز، ص٣٢٢،٣٢٣ نقلاً عن قراءة جديدة.

قوله : (كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية الى حقائق فعالة في مصر)[1].

لقد حقق الاستعمار الأوروبي هدفه في الاستفادة من المنشآت والاصلاحات المادية التي قام بها دميتهم محمد علي، أما شعب مصر المسلم فقد سيطر عليه اليأس ودفع ثمناً باهظاً يفوق حجم كل اصلاح وهو تحطيم هويته الحضارية التي صقلها الاسلام والتي ميزت دروه خلال العصور الاسلامية[2].

وفتح باب الدعوة الى الوطنية والقومية ومارس سياسة التضيق على دعاة الفكر الاسلامي من العلماء والمشايخ فكان هذا الاتجاه مسايراً لمساعيه الرامية الى الاستقلال بمصر وبالتالي إبعادها عن الارتباط بدولة الخلافة الاسلامية[3]، وقد لقي في اتجاهه هذا عوناً من المحافل الماسونية التي يعتبر هذا الاتجاه من صلب أهدافها.

ومن أبرز الذين عاونوه في هذا الاتجاه الشيخ حسن العطار سنة ١٧٧٦هـ/١٨٣٥م الذي تشير الدلائل على انضمامه للمحفل الماسوني المصري، فقد كان العطار يري أن البلاد (لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ماليس فيه)، وكانت وجهته في هذا التغيير هو الاتجاه الكامل الى الثقافة الأوروبية بعد ان عجز - في رأيه- المشايخ والعلماء عن مواصلة جهود المسلمين الأوائل[4].

وتبع العطار في اتجاه تلميذه رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م) حيث ابتعثه محمد علي الى فرنسا خمس سنوات (١٨٢٦-١٨٣١م) عاد بعدها لنشر ما يزكي الفكرة الوطنية وغيرها من الافكار الاجتماعية التي عايشتها فرنسا والتي لم تكن تتلاءم مع أوضاع المجتمع المرتبط بالفكر الاسلامي، وقد بدت هذه الافكار في العديد من القصائد التي نظمها

---

(١) انظر: أرنولد تويني عبدالرحمن الجبروتي وعصره، ص١٤.

(٢) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٨٢.

(٣) انظر: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، محمد فؤاد (٣/١٢٣٢).

(٤) انظر: التيارات السياسية بين المجددين والمحافظين ، بيومي ، ص٢.

وكذلك الكتب التي ترجمها بعد توليه الاشراف على مدرسة الألسن[1]، لقد تأثر الطهطاوي بتيارات الفكر الأوروبي من أقصى اليمين الى أقصى اليسار بشكل فاق تأثره بالفكر الاسلامي، حيث أبدى في عديد من جوانب فكره، وفي كافة مراحل حياته، إعجابه بأفكار الحرية والمساواة وضرورة الاعتماد على العقل ، لقد تبني ما دعا إليه نابليون إبان حملته الشهيرة، ولقد أظهر طهطاوي تأثراً وإعجاباً بآراء مونتسكيو، وتشبعه بالفكر الماسوني.

وتبع الطهطاوي كثيرون ممن وصلوا الدعوة الى الوطنية والى ضرورة الاتجاه الكامل الى الحضارة الغربية من امثال (علي مبارك) و(ابراهيم أدهم) و(صالح مجدي) و(محمد عثمان جلال) و(عبدالله أبو السعود) و(عبدالله فكري) وغيرهم ، وواصل الجميع هجومهم على التيار الاسلامي من كافة الجوانب[2] .

سادساً: حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وصراعها مع الدولة العثمانية:

تمهيد:

ولد الشيخ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م في بلدة العيينة الواقعة شمال الرياض بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلومتراً، أو مايقارب ذلك من جهة الغرب[3] .

ونشأ على حب العلم، فطلبه منذ صغره وظهر منه نبوغاً وتميزاً، فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث، وتتلمذ على كتب ابن تيمية في الفقه والعقائد والرأي وأعجب بها أيما إعجاب وتأثر بكتب ابن القيم ، وابن عروة الحنبلي وغيرهم من فحول هذا المنهل السلفي[4] .

---

(١) انظر: التيارات السياسية بين المجددين والمحافظين ، ص٢٣.

(٢) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص١٨٤.

(٣) انظر: امام التوحيد محمد عبدالوهاب، احمد القطان ، ص٣٥.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٣٦.

ورحل في طلب العلم الى مكة، والمدينة، والبصرة، والأحساء. وتعرض لفتن عديدة عندما جاهر بآرائه في العراق ثم رجع بعد ذلك الى نجد.

وعندما رجع الى حريملاء ببلاد نجد بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بالعلم والتعليم، والدعوة الى عقيدة التوحيد الصافية، وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله وتعرض لمحاولة اغتيال من بعض السفهاء في حريملاء وانتقل بعد ذلك الى بلدته العيينة وتلقاه أميرها بالترحيب وشجعه على أمر الدعوة، فأقام الشرع ونفذ الحدود، وهدم القباب، ولم يستمر في حريملاء طويلاً بسبب ضغط أمير الاحساء على أمير حريملاء لقتل الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، فخرج ماشياً على الأقدام الى الدرعية.

تحالفه مع محمد بن سعود:

استطاع محمد بن عبدالوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذي قام بماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد وكان هذا التحالف على اسس متينة واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ واستمر على هذا الحال يعلم الناس ويكتب الرسائل ويدبجها بالحجج والبراهين والأدلة على صحة دعواه، يدعو الى إزالة المنكر وهدم قباب القبور ، وسد ذرائع الشرك، وتحقيق العبودية لله وحده[١] وظلت الدعوة مسالمة متأنية تطرق القلوب برفق وأناه، وتدعوا الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واستمر يعلم من يحضر دروسه ويوضح عقيدته، ويشرح مبادئ دعوته للقاصي والداني ، ولكنه رأى أن اللين يقابل بالشدة، وأن الصدق يقابل بالكذب، والموعظة الحسنة يرد عليها بالمؤامرات فلم يكن بد من دخول مرحلة الجهاد وتغيير المنكر بالقوة.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركباً ... فما حيلة المضطر إلا ركوبها[٢]

وبدأ الشيخ يعاونه الأمير محمد بن سعود بإعداد العدة من الرجال والسلاح للخروج بجموع المجاهدين من الدرعية الى خارج حدودها لنشر الدعوة وتثبيت أركانها في

---

(١) انظر: امام التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص٤٥،٤٦.

(٢) انظر: استمرارية الدعوة، محمد السيد الوكيل (٢٩٣/٣).

الجزيرة وخارجها، وكان الشيخ يشرف بنفسه على إعداد الرجال، وتجهيز الجيوش وبعث السرايا، ويستمر مع ذلك على الدرس والتدريس، ومكاتبة الناس، واستقبال الضيوف، وتوديع الوفود فقد جمع الله له العلم والجاه، والعزة والتمكين بعد جهاد طويل[1] وقد كان له نظر سياسي ثاقب، وخبرة واسعة في أمور الحرب والسياسة[2].

واستمرت الحروب بين أنصار الدعوة وأعدائها سنين عديدة، وكان النصر حليف أصحاب الدعوة في أغلب المواقف وكانت القرى تسقط واحدة تلو الاخرى وفي عام ١١٧٨هـ/١٧٧٣م فتحت الرياض بقيادة الامير عبدالعزيز ابن محمد بن سعود ، وفر منها حاكمها السابق دهام بن دواس، وكان حاكماً ظالماً غشوماً، اعتدى على الدعاة مراراً، ونقض العهود التي أبرمها مع القائمين على الدعوة وبعد فتح الرياض اتسعت رقعة الأرض التي تخضع للدعوة ، ودخل كثير من الناس في الدعوة مختارين، فقد أزيلت العوائق التي كانت تصدهم عنها، وانفرجت الامور بعد ضيق، وجاء اليسر بعد العسر، وكثرت الأموال، وهدأت الأحوال، وأمن الناس في ظل الدولة الاسلامية الفتية، التي حرم الناس من نعمة الأمن مدة غيابها[3].

وبعد وفاة الشيخ محمد عبدالوهاب واصلت الدعوة مسيرها وساندها آل سعود بقوة السلطان وتحولوا إلى الحجاز، التي كان يسيطر عليها الشريف غالب بن مساعد والذي شرع في شن هجمات على السعوديين، دينياً وعسكرياً. ودام الصراع بينهما حتى عام ١٨٠٣م حين دخل السعوديون مكة من غير أن يتعرضوا لأية مقاومة من جانب الشريف غالب، الذي آثر الهروب إلى جدة وبعد عامين ضم السعوديون المدينة المنورة[4].

وامتد نفوذ الحركة السلفية على معظم الجزيرة العربية وشعرت بريطانيا بخطورة هذا النفوذ على مصالحها. لقد أصبحت الدولة السعودية الأولى يمتد نفوذها على

---

(١) انظر : امام التوحيد محمد بن عبدالوهاب، ص٥٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٧٨.

(٣) انظر : استمرارية الدعوة ، د. محمد الوكيل (٢٩٤/٣).

(٤) انظر : العالم العربي في التاريخ الحديث، ص١٧.

الخليج العربي والبحر الأحمر، ودخل القواسم في الخليج العربي تحت نفوذها ووصل نفوذها إلى جنوب العراق وأصبحت تأثر على الطريق البري بين أوربا والشرق، وفوق هذا وذاك فإن الأسس الدينية التي ترتكز عليها هذه الدولة قد قطع على بريطانيا إمكانية تطويعها أو عقد الاتفاقيات معها حيث كان العداء للنفوذ الأجنبي في المنطقة من أهم أهداف هذه الدولة[1]، لقد استطاع القواسم ومن خلفهم القوة السعودية من توجيه ضربات موجعة لأسطول الأنجليز في عام ١٨٠٦م وأصبحت مياه الخليج تحت سيطرتهم[2] لقد بلغت الدولة في زمن سعود بن عبدالعزيز الأوج من الناحية السياسية إذ وصلت كربلاء في العراق، وإلى حوران في بلاد الشام، وخضعت لها الجزيرة كاملة باستثناء اليمن[3].

سابعاً: المؤامرة ضد حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

فكر شياطين الإنس من أبناء أوربا في النتائج التي يصلون إليها لو استمرت الدولة السعودية الأولى ورأوا أن ذلك يقضي على مصالحهم في الشرق عموماً ولذلك لابد من تدمير هذه الدولة، فسلكوا مسالك شتى للقضاء على نفوذ الدعوة السلفية منها:

أولاً: تأليب الرأي العام داخل ديار الإسلام ضد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فقام الذين اعتقدوا بالبدع والخرافات على أنها من دين الإسلام بالتصدي لدعوة الشيخ ومقاومتها، وليست هذه المقاومة من جهة واحدة أو من طرف معين بل من كل الجهات ومن كل الأطراف، أتت من قبل المشايخ الذين يتمسكون بالنفوذ الذي يعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة، ويبغون المحافظة على ماهم عليه من البدع والخرافات ظانين أنها من الدين، أتت من سدنة القبور، أتت من المستفيدين من صناديق النذور، أتت من الذين يعيشيون على الأطعمة والأموال التي تقدم لهم في موالد الأموات والزيارات، وأتت أيضاً من الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد أتى بدين جديد يخالف ما اعتادوا

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص١٥٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٥٨.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال، ص٩٤.

عليه، وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدولة العثمانية كلها بل وفي العالم الإسلامي أجمع، حدث كل ذلك بعد أن شاع الإنجليز والفرنسيون وأعداء الإسلام الفتاوى التي استصدروها من علماء السوء بفساد مايدعو إليه اتباع محمد بن عبدالوهاب[١].

ثانياً: الدس والوقيعة بين حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وقيادة الدولة العثمانية لقد ألقى الإنجليز والفرنسيون وغيرهم في روع السلطان محمود الثاني أن حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، تهدف إلى الاستقلال بجزيرة العرب، والانفصال عن الخلافة العثمانية، ثم توحيد العالم العربي، وانتزاع لواء الخلافة والقيادة من الدولة العثمانية، وإقامة خلافة عربية، واستجاب السلطان محمود الثاني لوشايات الأعداء وما كان له أن يفعل ذلك وكان اللائق به أن يشك في هذا النصح الكاذب ويرسل من أمناء الدولة من يتحقق في الأمر ولم ينتبه سلطان المسلمين إلى خطورة تصديق هذا الخبر المدسوس على حركة إسلامية صادقة وتجاوب مع اقتراحات الأعداء بوجوب القضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها، وتكلف الدولة الكثير من الأموال والرجال للقضاء عليها[٢].

وضعت الدولة العثمانية خطتها لمحاربة الدولة السعودية الأولى ورأت أن تلقي عبء هذه المهمة على كاهل الولاة في الأقطار المجاورة، هادفة بذلك إلى غرضين: الأول القضاء على التوسع السعودي في المشرق العربي، والآخر: إضعاف هؤلاء الولاة واستنزاف مواردهم حتى يظلوا ضعافاً خاضعين للدولة خضوعاً تاماً، فاتجهت أول الأمر إلى والي بغداد، إذ كان أقرب الولاة إلى نجد، إلا أن ذلك الوالي كان مشغولاً بالارتباكات المحلية في ولايته، وكان جيشه من الضعف بحيث لايقوى على مجابهة السعوديين، وفشل عدة مرات في صد هجماتهم على حدود العراق، فاتجهت الدولة إلى والي الشام لعله ينجح فيما فشل فيه والي والعراق، فكان نصيبه من الفشل أفدح من زميله ولما يئست الدولة من قدرة ولاتها في بغداد والشام[٣] ولت وجهها شطر مصر فطلبت من واليها محمد علي عام ١٨٠٧م

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص٩٤.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص٩٥.

(٣) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث ، د. اسماعيل ياغي، ص١٧٦.

أن يقوم بحملة على بلاد العرب (لتصفية الحرمين الشريفين واستخلاصهما(من أيدي السعوديين، واسترداد سلطة الدولة المشرفة على الزوال في جزيرة العرب. ولكن محمد علي لم يلب طلب الدولة إلا في عام ١٨١١م بعد تخلصه من بكوات المماليك في مذبحة القلعة[١].

إن اتباع الدعوة السلفية لم يطلبوا الخلافة ولم يبدوا اعتراضهم على التبعية لها، ولكن الخلاف قد انحصر في أمرين أساسيين، الأول هو مطالبة السلفيين بضرورة التزام وفود الحجيج بمنهج الإسلام والإقلاع عن كل مافيه خروج عليه، والأمر الثاني هو شعور الدولة العثمانية بالحرج والضعف أمام سيطرة الوهابيين على المدن المقدسة في الحجاز حيث أدركوا أن في ذلك إسقاطاً لهيبتهم ومكانتهم السياسية[٢].

وقد بين الجبرتي أن موقف الوهابيين من وفود حجيج الشام (بألا يأتوا إلا على الشرط الذي اشترطوه عليهم وهو (أن يأتي بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع. فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم ([٣] كما ذكر موقفاً مماثلاً من موكب الحج المصري[٤].

واقتصر مرسوم السلطان العثماني القاضي بطلب الحرب مع السعوديين من محمد علي، وبدافع من رسائل شريف جدة وكذلك بوحي وتشجيع من الإنجليز، على (استخلاص الحرمين والوصية بالرعية والتجار ([٥]، وتكرر نفس الطلب بعد ذلك مجدداً الاقتصار على تخليص الحرمين الشريفين. وفي أعقاب نجاح القوات العسكرية في الاستيلاء على بلاد الحجاز، بعد أن هزمت وأخفقت عدة مرات أمام أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب أرسل السلطان محمود الثاني مرسوماً إلى مصر يقرأ في المساجد باستعادته

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٧٢.

(٢) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٨٥.

(٣) انظر: من أخبار نجد والحجاز، محمد اديب صالح، ص١١١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١١١، ١١٢.

(٥) قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٨٦.

للحرمين الشريفين[1]، وهو امر يوحي بأن السلطان العثماني ليس له هدف آخر سوى عودة الحجاز للسيادة العثمانية.

كان من الممكن أن تنتهي هذه الحرب إلى هذا الحد فقد سيطرت قوات محمد علي على مدن الحجاز، وعين محمد علي شريفاً جديداً على منطقة الحجاز التي اضطر للسفر إليها وقام بطرد الشريف غالب الذي ساند قواته وساعدها على دخول الحجاز[2]، كما أن قادة الدعوة السلفية السعوديين قد عرضوا عليه الصلح، ولكن محمد علي وضع شروطاً صعبة التحقيق لقبول الصلح وكذلك ضمن رده على طلب الصلح تهديداً يرويه الجبرتي فيقول: (وأما الصلح فلا نأباه بشروط وهو أن يدفع لنا كل ماصرفناه على العساكر من أول ابتداء الحرب الى وقت تاريخه، وان يأتي بكل ماأخذه واستلمه من الجواهر والذخائر التي كانت بالحجرة الشريفة ، وكذلك ثمن ماستهلك منها وأن يأتي بعد ذلك ويتلاقى معي وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك وإن أبى ذلك ولم يأت .. فنحن ذاهبون إليه)[3].

ثامناً: حقيقة حملة محمد علي على الحجاز ونجد:

إن الحرب بين محمد علي وأتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب لم تكن بين قوات يدين طرفاها بالاسلام، كما لم تكن حرباً عربية عربية كما يحاول البعض أن يصفها، بل إن هذه الحرب كانت بين قوة اسلامية ليست لها أية أطماع سياسة ولكنها أبدت غيرة وحرصاً على العودة الى المبادئ الاساسية للدين الاسلامي وهي القوة السعودية، كما أظهرت حماساً في دفع خطر المستعمرين (الكفار) عن الديار الاسلامية، أما القوة التي حاربتها والمرسلة من قبل والي مصر -والتي لم تكن مصرية بأي صورة من الصور، فأغلبها من الأرناؤوط وبعض الأتراك والنصارى وبعض الضباط الفرنسيين[4]، ولا يحمل أغلب قادتها

(١) انظر: من أخبار الحجاز ونجد، محمد اديب غالب، ص١١٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١١٠.

(٣) عجائب الآثار أخبار يوم آخر القعدة سنة ١٣٢٨هـ، أديب غالب ، ص١٤٩.

(٤) انظر: الدولة العثمانية، د.محمد انيس، ص٢٣٣.

من الاسلام سوى الاسم، ويصور لنا المؤرخ الجبرتي طبيعة هذه القوة من خلال تعليق من وصفه بالصلاح والورع، وهو شاهد عيان ، على هزيمة هذه القوات في البداية أمام أتباع الدعوة السلفية فيقول: (أين لنا النصر. وأكثر عساكرنا على غير الملة! وفيهم من لايتدين بدين، ولا ينتحل مذهبنا، وصحبتنا صناديق المسكرات ولايسمع في عرضينا آذان ولاتقام به فريضة، لايخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين. والقوم (يقصد الوهابيون) إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف أمام واحد بخشوع وخضوع. وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائم، أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة الحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته. وينادون في معسكرهم هلموا الى حرب المشركين، المحلقين النقون المستبيحين الزنا واللواط الشاربين الخمور، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلفاً غير مختونين، ولما وصلوا بدراً واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف وبها خيار الناس وبها أهل العلم الصلحاء نهبوهم وأخذوا نساؤهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم)[1].

إن محمد علي لم يكن متقيداً بشرع الله في حربه بل كان مخالفاً للشرع متعدياً على حدود الله تعالى غير مبالي بأحكام الاسلام فهذا جيشه يقتل ويدمر ويأخذ الأموال ويهتك الأعراض من هم المسلمين الموحدين.

فهذا علي ﷺ في موقعة الجمل يقول لأصحابه: (لاتتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ومن ألقي سلاحه فهو آمن)[2].

وقال : (.وإياكم والنساء وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراكم وإن الرجل ليتناول المرأة بالجريدة أو الهراوة فيعيّر بها هو وعقبه من بعده..)[3].

وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: (شهدت صفين وكانوا لايجهزون على جريح،

---

(١) انظر :قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٨٨.

(٢) رواه ابن ابي شيبة كتاب الجمل (٢٦٣/١٥).

(٣) نصب الراية للزيلعي (٤٦٣/٣).

ولايقتلون موليا، ولايسلبون قتيلا .. [(1)].

إن السلطان العثماني كان يكفيه خضوع الحجاز لحكمه ومهاجمة الدرعية لم تكن مطلبا ملحا أو ضروريا للدولة العثمانية، وكان محمد علي متشددا في شروط الصلح مما يدل على حرصه على استمرار الحرب، لأن هدفه من هذه الحرب خدمة أطماعه التوسعية في إطار ما تسمح به أهداف السياسة البريطانية في المنطقة، بعد أن أصبحت الدولة السعودية تشكل خطرا بالغا على الوجود البريطاني في المنطقة بأسرها سواء في البحر الأحمر أم في الخليج العربي أم في وصولها إلى الطريق البري عبر العراق، وأصبحت بريطانيا تحس بتهديد حقيقي لمصالحها في الشرق، ولهذا فإن وصف هذه الحملة بأنها حملة صليبية في ثوب إسلامي يعد وصفا حقيقيا[(2)].

عندما انهزم طوسون بن محمد علي أمام الأمير عبدالله بن سعود وتحطم نصف جيشه، خرج محمد علي بنفسه إلى الحجاز عام ١٨١٣م وقبض على شريف مكة (غالب بن مساعد واتهمه بالتآمر مع السعوديين، وصادر كل مايملك من أموال وأثاث ومتاع، وبذلك أصبح شريف مكة من موظفي محمد علي في الحجاز. ولم يلبث أن انتصر محمد علي في يناير ١٨١٥م على القوات السعودية في موقعة بسل[(3)]، وهي الموقعة التي يعتبرها البعض (من أكبر وقائع الحرب الوهابية، بل من أهم المعارك في تاريخ مصر الحربي ([(4)].

ولم يمكث محمد علي في الجزيرة العربية ليتابع النصر الذي أحرزه، بل عاد إلى مصر تاركا ابنه طوسون بالحجاز[(5)]، وسرعان ماتمكن طوسون من هزيمة السعوديين هزيمة جديدة لأول مرة، وأسرع بالزحف على القسم الشمالي من نجد فبلغ في زحفه مدينة الرس، ثم احتل الشبية وأصبح الطريق إلى الدرعية مفتوحا أمامه وأسرع الأمير

---

(١) الحاكم بسند صحيح ووفقه الذهبي في المستدرك (٢/١٥٥).

(٢) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٨٩.

(٣) انظر: الدولة السعودية الاولى، د.عبدالرحيم عبدالرحمن، ص١٩٩-٢٣٥.

(٤) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٧٢.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص١٧٢.

عبدالله بطلب فتح باب المفاوضات حقناً للدماء وحماية للمدن والقرى، ودارت المفاوضات بين الطرفين على مشروع الصلح بالشروط التالية:

١- إحتلال القوات المصرية الدرعية.

٢- أن يضع الأمير عبدالله نفسه تحت تصرف طوسون باشا، فيسافر إلى الجهة التي يريده أن يسافر إليها.

٣- أن يؤمن الأمير عبدالله سبل الحج، وأن يكون خاضعاً لحكم المدينة من قبل محمد علي إلى حين الموافقة على الصلح.

٤- ألا تصبح هذه الشروط - في حالة الاتفاق عليها - نافذة المفعول إلا بعد إقرارها من محمد علي.

غير أن هذه القوات لم تقبل من جانب الأمير عبدالله، وقرر إرسال وفد إلى مصر للتفاوض مع محمد علي مباشرة حول شروط الصلح، إلا أن الوفد فشل في مسعاه بسبب تشدد الباشا. وتأهب السعوديون للحرب والقتال، فأرسل محمد علي حملة جديدة عام ١٨١٦م بقيادة ابنه إبراهيم باشا[١].

وزحف إبراهيم باشا بقواته من الحجاز صوب نجد، ونجح في الاستيلاء على مدن عنيزة وبريدة وشقراء، وإخضاع كل منطقة القصيم وابتع إبراهيم في زحفه سياسة الملاينة مع القبائل وهي سياسة كان من شأنها استمالة عدد كبير من أهل نجد، إذ كان يعقد دائماً المجالس ويمنح الهبات للناس، واتخذ في بداية الأمر اسلوباً استعطف به القبائل فمنع النهب والسلب، واستطاع بخبرائه العسكريين الفرنسيين أن يواصل زحفه حتى الدرعية التي ضرب الحصار عليها لمناعتها، وكان حصاراً طويلاً استمر من ٦ إبريل إلى ٩ سبتمبر ١٨١٨م، وانتهى باستسلام الأمير عبدالله بن سعود ودخول إبراهيم الدرعية، حيث أرسل من هناك الأمير السعودي في حراسة مشددة إلى مصر، ثم أرسل من القاهرة إلى استانبول[٢]،

(١) انظر: الدولة السعودية الاولى ، ص٣٢٩-٣٤٥.

(٢) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، ص١٧٤.

لقد شهر بالأمير عبدالله في شوارع استانبول ثلاثة أيام كاملة ثم أمر بإعدامه شنقاً فرحمة الله على ذلك المظلوم[1] وستظهر حقيقة مقتله يوم الأشهاد. إن الذي دعا إلى الصلح صلح أهل الجزيرة من خلال رسالة وجهها الشيخ أحمد الحنبلي إلى طوسون لقد بينوا أنهم يعترفون بإمارة السلطان العثماني وأنهم لايخرجون عن دولة الخلافة فلما إذن كان الإصرار على توجيه القوات إلى جزيرة العرب؟ وهكذا أزهقت أرواح المسلمين بأيدي بعضهم البعض، نتيجة كيد الأعداء. لقد قام أهل الجزيرة بمساندة مسلمي مصر عندما احتلها الفرنسيون فلماذا هذا الاعتداء المتعمد؟ إن محمد علي استطاع بواسطة الزعماء الذين ينسبون إلى الإسلام أن يقنع كثير من عوام الناس بأنهم يفعلون ذلك امتثالاً لأمر خليفة رسول الله، الذي له عليهم حق السمع والطاعة وأن الهدف من ذلك منع جزيرة العرب من الانفصال عن جسد دولة الخلافة[2].

إن قضية الولاء والبراء كانت غائبة تماماً عن محمد علي، بدليل أنه أعطى ولاءه لأعداء الإسلام وسمح لهم بأن يقودوه ويقودوا الأمة معه إلى حتفها، وهذه نتيجة عملية لوصول تاجر دخان ظل غير معروف النسب إلى سدة الحكم في بلاد المسلمين[3].

لقد كانت سعادة بريطانيا كبيرة عندما علمت بسقوط الدرعية، عاصمة الدولة السعودية الأولى، في أيدي قوات إبراهيم باشا[4]، فقد كانت هي الدولة السلفية التي دعمت القواسم في جهادهم ضد بريطانيا في الخليج العربي، مما يعني تهديد المصالح البريطانية في الهند كما أسلفنا[5]، وهنا يجدر بنا أن نسأل، خاصة في تلك الأحداث التي عاشها العالم الإسلامي في تاريخه الحديث، لنقول: لو أن جيوش محمد علي وجيوش الدولة العثمانية تعاونت مع الدولة السعودية الأولى بدلاً أن تحاربها، لتقفا معاً في وجه الأطماع الأوروبية

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٧٤ .

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي ، ص٩٦.

(٣)انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص٩٧.

(٤) انظر : دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر (١٩٨/١).

(٥) انظر: تاريخ الاحساء السياسي ، د.محمد عرابي ، ص٤٢-٤٣.

بشكل عام، وبريطانيا بوجه خاص، أنه لو تم ذلك لتغير وجه التاريخ، خاصة وأن الدولة السعودية دولة مسلمة أقامت دعائمها على المبدأ السلفي الصحيح، والعالم الإسلامي في تلك الفترة في أمس الحاجة إليها، وعلى أية حال فلقد أدركت بريطانيا مدى الاستفادة من هذه الظروف، فأسرعت بزف التهاني إلى إبراهيم باشا، من مبدأ الاحتواء في ضوء المصالح الذاتية لها، وبعثت بالكابتن جورج فورستر سادلير[1] لتقديم التهنئة لإبراهيم باشا لاستيلائه على الدرعية، ولمحاولة إيجاد قاعدة يمكن من خلالها التنسيق بين قوات الباشا البرية، والقوات البريطانية البحرية للقيام بعمل حربي مشترك ضد القواسم، أتباع الدولة السعودية الأولى[2].

إن العلاقة بين بريطانيا ومحمد علي قديمة وفي بداية حكمه دخل في مفاوضات معهم استمرت أربعة أشهر أكد فيها محمد علي جديته ورغبته المخلصة في الارتباط بهم بل وطلب وضع نفسه تحت حمايتهم وهو مايؤكد تقرير فريزر الذي تولى التفاوض معه، الأمر الذي أدى بعد اقتناعهم بذلك- الى تخليهم عن أصدقائهم من المماليك. وقد تضمن التقرير الذي أعده قائد الحملة فريزر الذي تفاوض مع رسل مع محمد علي والذي أرسله الى الجنرال مور في ١٦ اكتوبر سنة ١٨٠٧م أهم جوانب هذه المفاوضات فقد جاء فيه : (أرجو أن تسمحوا لي بأن ابسط لكم ليكون .. موضع نظركم فحوى محادثة جرت بين باشا مصر والميجر جنرال (شريروك(والكابتن (فيلوز (أثناء قيامهما بمهمتهما لدى سموه. ولدي مايجعلني أعتقد أن هذه المحادثة ، ومن اتصالات خاصة كثيرة أخرى كانت لي معه، بأنه جاد وصادق فيما يقترحه. لقد أبدى محمد علي باشا والي مصر رغبته في أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية، ووعدناه بابلاغ مقترحاته الى الرؤساء في قيادة القوات البريطانية كي يقوم هؤلاء بإبلاغها الى الحكومة الإنجليزية للنظر فيها. ويتعهد محمد علي من جانبه بمنع الفرنسيين والأتراك أو أي جيش تابع لدولة أخرى من الدخول الى الاسكندرية من طريق البحر وبعد الاحتفاظ بالاسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى ولكنه لامناص له من الانتظار أن تعاونه انجلترا بقواتها البحرية اذا وقع هجوم

---

(١) ج ج لوريمر: دليل الخليج التاريخي (١٠٠٩/٢-١٠١٠).

(٢) انظر: حروب محمد علي في الشام، د.عايض الروقي، ص١١٢.

عليه من جهة البحر لأنه لايملك سفناً حربية. ويوافق محمد علي باشا في الوقت نفسه على تزويد كل السفن البريطانية التي تقف على بعد من الاسكندرية بما قد تحتاج إليه من ماء النيل عند إعطائها إشارة يصير الاتفاق عليها)[1].

وقد علق القنصل الفرنسي دروفتي على مابلغه من معلومات حول الاتفاق بين محمد علي والانجليز الذي هو من نوع معاهدة بأن (مثل هذه المعاهدة عند إبرامها سوف تحقق الأغراض التي توخاها الانجليز من إرسال حملتهم على مصر إن لم يفق أثرها من هذه الناحية كل ما كان يتوقعه هؤلاء من إرسال هذه الحملة)[2].

ولم يشأ الانجليز الإعلان عن كل مااحتوته بنود هذه الاتفاقية في أعقاب توقيعها وإخلائهم الاسكندرية وتسليمها الى باشا مصر حيث رأت بريطانيا ضرورة التريث في ذلك لما تحتويه من إعلان العداء الواضح للدولة العثمانية، لمساندتها لحاكم يريد الاستقلال عنها في وقت كانت الدبلوماسية الانجليزية لها مصالحها الكبرى مع دولة الخلافة والاستفادة منها ومن عميلها الجديد لبسط نفوذها على المنطقة إن أمكن[3].

تاسعاً: ثورة اليونان:

كانت أوروبا حريصة على تمزيق الدولة العثمانية واتخذت لذلك الهدف وسائل متعددة منها؛ إثارت الفتن الطائفيةوالدينية وتفجير الثورات الداخلية بدعمها المادي والمعنوي كانت بلاد اليونان تشكل جزءاً من ديار الاسلام، ويؤذن في مدنها وأريافها للصلوات الخمس في اليوم والليلة لقرون عديدة وكانت تحكم بشريعة الاسلام، وكان ذلك لايروق لزعماء النصارى سواء من اليونان أو غيرهم من الدول الأوروبية ولذلك شرعوا في تأسيس جمعيات سرية في داخل بلاد اليونان وفي روسيا وغيرها هدفها إحياء الأمبراطورية البيزنطية القديمة على أن نكون تحت إدارة البطريركية الأرثوذكسية الرومية في

---

(١) انظر: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، د.محمد فؤادي شكري (٢/٨٥٧،٨٥٦).

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/٨٢٦).

(٣) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص١٧٤.

استانبول ولو أصبح كثير من البطارقة والقساوسة ورجال الدين أعضاء أصليين في هذه الجمعيات السرية المناهضة للدولة العثمانية[1] وقام رجال الدين بأستخدام نفوذهم على الشعب وتحريكهم للثورة ضد الدولة العثمانية وكان القساوسة ورجال الدين على صلات وثيقة بزعماء الدول الأوروبية وخصوصاً روسيا ونجد وثيقة تاريخية هامة تدل على هذا الاتصال من أجل التنسيق والتعاون على تدمير الدولة العثمانية وشعبها ومقوماتها:

(وهذا نص رسالة البطريرك (جريجو ريوس(الى قيصر روسيا يبين له فيه كيفية هدم الدولة العثمانية من الداخل):

(من المستحيل سحق ، وتدمير الاتراك العثمانيين بالمواجهة العسكرية؛ لأن الأتراك العثمانيون ثوريُون جداً ومقاومون، وواثقون من أنفسهم، وهم أصحاب عزة نفس واضحة، وهذه الخصال التي يتمتعون بها إنما تنبع من ارتباطهم بدينهم، ورضائهم بقضاء الله وقدره وتشبعهم بهذه العقيدة، وأيضاً من قوة تراثهم وتاريخهم، وطاعتهم ومؤازرتهم لسلطانهم وقادتهم واحترامهم لكبارهم.

الأتراك العثمانيون أذكياء، وهم مجدّون مجتهدون متجاوبون مع رؤسائهم الذين يوجهونهم ويقودنهم في الطريق الايجابي الصحيح مما يجعلهم قوة هائلة تخشى منها؛ فهي تتميز بالقناعة والتصميم وشدة المراس والثبات عند المواجهة.

إن كل مزايا الأتراك العثمانيين هذه ، بل، وبطولاتهم وشجاعتهم إنما تأتي من قوة تماسكهم بدينهم وإرتباطهم بأعرافهم وتقاليدهم وصلابة أخلاقهم ، ولذا:

أولاً: لابد من كسر شعور الطاعة عندهم تجاه سلطانهم وقادتهم وتحطيم روحهم المعنوية وروابطهم الدينية، وأقصر طريق لتنفيذ هذا ، تعويدهم التعايش مع أفكار وسلوكيات غريبة لاتتوائم مع تراثهم الوطني والمعنوي.

ثانياً: لابد من إغراء الأتراك العثمانيين لقبول المساعدات الخارجية التي يرفضونها من إحساسهم بعزتهم - وتعويدهم عليها، حتى لو أدى ذلك الى إعطائهم قوة وقدرة ظاهرتين فقط لمدة محدودة.

---

(١) انظر: دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ثريا شاهين، ص٥٦،٥٧.

وفي اليوم الذي تهتز فيه معنوياتهم ، ستهتز قدراتهم الذاتية، فهذه المعنويات والروابط هي التي تدفعهم نحو النصر، إضافة الى قدراتهم الأخرى وكثرتهم العددية التي تبدو في الشكل أكبر مما هي عليه في الواقع في السيطرة والحكم، ووجودهم في المجتمع الدولي.

كذلك يمكن هدمهم وتدميرهم بإعلاء أهمية وقيمة الأمور المادية في تصوراتهم وأذهانهم - أي إفسادهم بالإغراءات المادية، فإنه ليس بكاف إحراز انتصارات عليهم في ميدان الحرب العسكرية فقط، ولكن العكس هو الصحيح؛ لأن إذا اتبع طريق الحرب وحده لتصفية الدولة العثمانية ، ويكون سبباً في تنبهم وسرعة إيقاظهم ووصولهم لمعرفة حقيقة مايخطط ويبيت في الخفاء لهم ولوطنهم من تخريب وتدمير .

إن مايجب علينا عمله هو إكمال هذه التخريبات في بنيتهم الذاتية والاجتماعية ومكانتهم الدولية دون أن يشعروا بشيء)[١] .

لقد كان البطريك (جريجو ريوس(بطريك استانبول عضواً فعالاً في خدمة الجمعية، وكان يستخدم كل موظفيه وكل نفوذه لتنفيذ أوامر الجمعية السرية التي تسعى لقيام دولة اليونان الكبرى وكان خطوات الجمعية كالتالي:

١- انشاء جمعيات سرية في كل مكان في الدولة العثمانية، والقيام بتسجيل أغنياء الروم وأكثرهم نفوذاً في هذه الجمعيات، كان هذا من أجل ضمان المساعدات المادية والمعنوية.

٢- تعيين المشهورين من الهيلينيين من رجال الكنيسة ، رؤساء للجمعية.

٣- تأسيس شركات تجارية لتأمين مصدر مالي للجمعية السرية.

٤- الافادة من الشباب الهيليني الذي يدرس في أوروبا.

٥- العمل على تأمين مساعدة الدول الكبرى[٢] .

---

(١) دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ترجمة محمد حرب تأليف ثريا شاهين، ص٧٠ الى ٧٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٠.

وأمتدت شبكات الجمعية السرية في بلاد المورة وخارجها وعملت المكائد للتخلص من العوائق الداخلية وأعلنت تمردها عام ١٨٢١م وفي هذا التمرد ، قام جرمانوس أسقف باتراس -رئيس تنظيم الجمعية السرية في المورة- بحمل علم عليه صورة مريم بزعمه وأخذ يصيح (يا أيتها الأمة اليونانية! هيا أفيقي وأقتلي الأتراك) و..يدعو كل الروم للحرب ضد العثمانيين ، وفي هذا الوقت أيضاً كان التمرد قد بدأ يتسع نطاقه وانتشاره.

بدأ هذا التمرد عام ١٨٢١م ، مكتسباً شخصية وطنية ودينية وقاده رجال الدين.

وقد صرح مكاريوس رئيس جمهورية قبرص السابق في حوار أجراه معه الصحفي والمحامي التركي (نوزاد فراكيل) عام ١٩٥١م بقوله: (. ربما تعلمون أن الكنيسة قادت تمرد اليونان -ضد العثمانين- عام ١٨٢١م . وكان القساوسة هم الذين أخذوا بزمام المبادرة، أي أنهم أول من رفع راية التمرد، وعن طريقهم حصلت اليونان على استقلالها من الدولة العثمانية)[١] ثم قال: إن الحرية هي الفكرة المثلى للمسيحية[٢]. والحق أن هذا هو الواقع لقد كلف القساوسة بإبلاغ القرى والقصبات بأن الهجوم على الاتراك -للقضاء عليهم- سيحدث ليلة عيد الفصح، وأخذوا يقسمون بعدم إفشاء هذا السر لأحد قبل موعده المحدد. علم العثمانيون من بعض أصدقائهم بهذا الموقف فانسحبوا -من قبيل الاحتياط- الى القلاع. ولكن لم تجد هذه القلاع مدداً فلم تقوَ على الصمود فسقطت واحدة تلو الأخرى في أيدي العصاة المتمردين.

وفي مدة قليلة - حوالي ثلاثة أسابيع- استطاع المتمردون خلالها السيطرة على المورة كلها، باستثناء المقاومة الشديدة التي أبداها العثمانيون في قلعة (تريبوليجة) -وهي مركز ولاية المورة-، وحيث استمرت هذه المقاومة شهوراً عديدة. وقد قتل الروم -بوحشية منقطعة النظير- العثمانيين الذين وقعوا في الأسر -اثناء هذا التمرد- وسلبوا أموالهم.

كان رجال الدين علىصلة مستمرة وقوية بكبار رجال جمعية (الفكرة العظمى) ودائماً في تعاون وثيق معهم. وساعد القساوسة في الأديرة القوات الرومية في الأفلاق

---

(١) دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص٦٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٥.

والبغدان، ودفعت لهم الكنيسة الأموال من صناديقها . كذلك سمح القساوسة للمتمردين باستخدام الاديرة مخازن للمدافع والبارود، كما سمحوا لهم باستخدامها (اي الأديرة) ملاجئ لهم.

وقد أرسل المطران باليابادرا رسالة الى القنصل الروسي قال له فيها: (من أجل التخلص من الأتراك تماماً يجب أن تقوم روسيا بمساعدة الشعب المتمرد)[١].

لعب بطريرك جريجوريوس دوراً كبيراً في تمرد الروم ضد الحكم العثماني كما ذكرنا سابقاً، ولكن لابد أن نوضح هنا أن هذا البطريرك رغم أنه كان عضواً في جمعية مبدأ إقامة اليونان الكبرى أو مايسميه الروم باسم الفكرة العظمى، فقد خاف عندما أعلنت روسيا -حسب مقتضيات السياسة الروسية وقتها- أنها تستنكر عصيان الارثوذكس.فأضطر البطريرك جريجوريوس الى اصدار مرسوم سماه باسم (بيان الحرمان) ضد المتمردين[٢].

استطاعت المخابرات العثمانية أن تأتي بمعلومات مؤكدة وموثقة مفادها (أن خطة إقامة دولة اليونان الأرثوذكسية الكبرى، قد أعدها البطريرك بنفسه)[٣].

وعندما وصلت الأخبار للسلطان محمود الثاني أصابته الدهشة وأصدر أوامره لتفتيش مقر البطريرك، واستطاع علي باشا أن يقوم بإعداد خطة مداهمة البطريركية بإحكام بالغ، أدت عند تنفيذها الى وقوع الوثائق المشار إليها في أيدي المسؤولين ورجال الحكومة.

كان من بين هذه الوثائق؛ تلك الخطابات الموجهة الى القساوسة الذين قادوا العصيان في الموره، والمعلومات الصادرة لاتخاذ التدابير اللازمة -للعصيان- في استانبول، والاستعدادات ، الترتيبات السرية التي تتكتم الدولة العثمانية عن أخبارها ثم سرّ بها أمراء الروم التابعين للكنيسة، والمراسلات والمعلومات التي وصلت الى البطريركية من

(١) دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص٦٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٦.

(٣)دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص٦٧.

سفارتي إنجلترا وفرنسا -خاصة معلومات مراحل الاستعداد الرومية في روسيا وأخبار الأسلحة المرسلة من مركز الجمعية السرية في مدينة أوديسا، وبيانات ونداءات طلب المعونة الموجهة الى كل الأرثوذكس في جميع أنحاء العالم، وإيصالات دفع نقود المساعدات المالية، للبطريركية من أجل العصيان.

وقع كل هذا في أيدي الحكومة العثمانية ولم ينكر البطريرك أي شيء من هذا، حيث قال: إنه هو الذي قام بعمل كل شيء ، وقبل التهم الموجهة إليه، وكان له شركاء في الجريمة، وقد عرفتهم الحكومة.

وأصدر السلطان محمود الثاني فرماناً بعزل البطريرك جريجوريوس من منصبه، ثم إعدامه[1]. وقد نفذ حكم الاعدام يوم عيد الفصح عند الروم الأرثوذكس ثم أصدر السلطان فرماناً آخر لانتخاب شخص يحل محل البطريرك السابق وسلم الفرمان الى استافراكي بك ترجمان الديوان الهمايوني، فارتعدت جماعته هلعاً بعد توجيه استافراكي الى البطريركية ، وقرأ على المسؤولين ذلك الفرمان، ثم انتخبوا (أويانيوس) بطريركا[2].

وشرعت الحكومة العثمانية في إعدام بعض قادة التمرد. وقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً في إعادة السكون حتى أن البطريرك أصبح واسطة بين المتمردين في الموره- وبين الحكومة العثمانية. ووصل به الأمر الى أن يرسل مايسمى بـ(عرض حال(يطلب فيه الإذن بالدعوة الى الاستئمان (طلب الأمان(. ولقد استجابت السلطات العثمانية لمساعي البطريرك الجديد، وتم العفو على كل من أظهر الندم على مافعله ، فاستردوا أموالهم وأملاكهم، وأما الموتى فقد أخذ وارثوهم مايستحقونه، واستمرت الكنائس في أداء أدوارها ، كما سارت الطقوس الدينية النصرانية كما هي عليه، كذلك تعهدت الحكومة براحة هؤلاء الناس واستقرارهم، وتم إبلاغ سفراء الدول الأجنبية بذلك، وبرغم كل هذا فقد استمرت

---

(١) انظر: دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص٧٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٧٤.

الأحداث ولم تتوقف واضطرت الحكومة الى التدخل[1].

عاشراً : محمد علي باشا واليونان:

قام محمد علي بدوره في القضاء على الدعوة السلفية في الجزيرة وحان الوقت لإضعافه وتقليم أظافره ولذلك دفعت الدول الأوروبية السلطان محمود الثاني بالاستعانة بجيشه لإخماده فتنة التمرد في اليونان وأثارت الدول الأوروبية على محمد علي بقبوله المهمة وأوهمته بأنه سيكون أكبر زعيم في المنطقة ويمكن أن يؤدي به الأمر ليكون خليفة المسلمين بعد أن يضعف سلطان الخلافة وقبل محمد علي باشا عرض السلطان محمود الثاني بشرط أن يحصل على ولاية كل من كريت واليونان وبمجرد تلقيه خبر القبول لهذا الشرط أمر أبنه ابراهيم باشا بتولي مسألة الحرب الموره[2] وتحركت جيوش مصر بقيادة ابراهيم باشا ومستشاره سليمان باشا الفرنساوي بحراً من الاسكندرية عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م باتجاه كريت وشبه جزيرة المورة مركز التمرد الصليبي ، وفتح نافرين عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م، ودخل أثينا عام ١٢٤١هـ/١٨٢٣م رغم معاونة القائد الانجليزي البحري اللورد كوشران الصليبيين اليونان؛ وبعد أن أجهضت القوة الاسلامية التمرد اليوناني الصليبي ابانت الصليبية الأوروبية عن وجهها الكالح، فأعلنت بسط حمايتها على بلاد اليونان. بل إن روسيا كانت تدعم التمرد اليوناني علناً، ورأت أن الفرصة سانحة لدخول استانبول وإعادتها الى عهدها السابق مركزاً للصليبية والوثنية ، ووقف الانجليز الى جانب روسيا[3].

وأجبرت الدولة العثمانية معاهدة (آق كرمان) في ٢٨ صفر عام ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م وأهم بنودها:

يحق لروسيا الملاحة في البحر الاسود ومرور سفنها من المضائق العثمانية دون تفتيش، ورغم أن المعاهدة قد عقدت بسبب التمرد اليوناني الصليبي ، إلا أنها لم تذكر

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٧٤.

(٢) الدولة العثمانية، د. جمال عبدالهادي، ص٩٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٩٩.

شيئاً عنه، وبعد قليل تقدمت انجلترا بطلب الى الدولة العثمانية في ٨ رجب ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م : (أن تتوسط الدولة العثمانية لأن هذا تدخل صريح في شؤونها الداخلية[1]، فكان هذا الرفض حجة تذرعت بها اوروبا لإعلان الحرب مرة أخرى.

اتفقت روسيا ، وفرنسا، وانجلترا في ١١ ذي الحجة على اجبار الدولة العثمانية لإعطاء اليونان استقلالها، بمعنى فصلها عن جسد الدولة الأم (الدولة العثمانية) ورفض السلطان العثماني، فأمرت الدول الأوروبية أساطيلها بالتوجه الى سواحل اليونان، وطلبت من ابراهيم باشا التوقف عن القتال فكان جوابه طبيعياً بأن يتلقى الأوامر من خليفة المسلمين أو من أبيه لا من غيرها، ومع ذلك توقف القتال عشرين يوماً ريثما تصل إليه التعليمات[2].

ودخلت الجيوش الأوروبية المتحالفة الى مرفأ (نوارين(دون أن ترفع أعلام الحرب؛ لذا فقد كان دخولها دخول خديعة وقامت هذه الأساطيل بمباغتت الأسطول العثماني المصري المشترك وغدرت به وأطلقت عليه النيران فهزمته هزيمة نكراء وأغرقت السفن - وهي مفاجأة لم يكن يتوقعها وبالتالي لم يعمل لها أي حساب- وبسبب هذه المعركة الغادرة انقلب الحال، فأصبحت القوات العثمانية في موضع الضعف والانهزام بعد أن كانت في موقع القوة والنصر. واستقبلت الشعوب الاوروبية هذه الحادثة بمظاهر الفرح والسرور[3]. لقد قتل من جيش محمد علي أكثر من ثلاثين الف جندي وهكذا تحقق مخطط الأعداء فأضعفوا قوات محمد علي وفصلوا جزء من ديار الاسلام عن الدولة العثمانية، لقد قامت فرنسا وانجلترا بعمل مزدوج حيث شجعوا السطان على إرسال جيش للقضاء على التمرد في بلاد اليونان ثم قضوا على ذلك الجيش.

ولما رأى محمد علي باشا والي مصر ماحل به أمر ولده بالانسحاب وقامت القوات الفرنسية بأخذ أماكن جيش محمد علي المنسحب وقامت فرنسا وانجلترا بعقد مؤتمر

---

(١) الدولة العثمانية ، د. جمال ، ص١٠٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٠٠

(٣) دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، ص٧٧.

قرروا فيه فصل بلاد اليونان عن الدولة العثمانية على أن يحكمها حاكم نصراني تختاره الدول الثلاثة[1] وصدق الله حيث يقول: {وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال}.

وقال تعالى: {ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا} وقوله تعالى: {لايرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة} لقد تآمر الأعداء بالاتفاق مع من ينتسبون الى الاسلام لاغتصاب واحتلال ديار الاسلام في عهد السلطان محمود الثاني[2].

الحادي عشر: محمد علي باشا يحتل الشام ويحارب الدولة العثمانية:

رأى الساسة البريطانيون والفرنسيون أن السماح لمحمد علي بتوجيه جيوشه الى الشام ثم الاناضول يخدم مصالحهم للتصدي للنفوذ الروسي المتزايد في أملاك الدولة الخلافة العثمانية وقد لقي هذا التوجه ترحيباً من محمد علي لخدمة أهداف أسياده البريطانيين خصوصاً ومما يدعم وجهة النظر هذه أن انجلترا عارضت بشدة شروع محمد علي في تنفيذ العرض الفرنسي بغزوه للجزائر لحسابهم قبل هجومه على الشام بعام واحد، وهددوه بالهجوم على أسطوله وجيشه إذا هو أقدم على مثل هذه العملية الأمر الذي دعاه الى التراجع عن التنفيذ على الرغم من أنه كان قد عقد اتفاقية بهذا الخصوص مع الفرنسيين، وهو أمر يؤكد على أن محمد علي ترك احتلال الجزائر بسبب ضغط بريطانيا ومخططاتها وكان ذلك يساعد بريطانيا في عرقلة النفوذ الروسي المتزايد في المنطقة وعلى أية حال فقد حاول محمد علي أن يخفي حقيقة دوره وأن يتذرع بأسباب سطحية يبرر بها هجومه على الشام مثل إيواء (عبدالله باشا) والي عكا لستة آلاف من المصريين الفارين هرباً من التجنيد في جيش محمد علي خلال سنة ١٨٣١م فقط ورفضه اعادتهم، وكذلك قيام (عبدالله باشا) بعمليات ابتزاز للتجار التابعين للباشا. وكتب محمد علي الى الباب العالي يبلغه بقيامه بمهاجمة (عبدالله باشا) لهذا السبب، ورد عليه الصدر الأعظم ما يدل الباحث على مدى الضعف الذي كانت عليه الدولة العلية وعدم قدرتها

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، ص١٠١.

(٢) المصدر السابق نفسه، د.جمال، ص١٠١.

على التصدي لمحمد علي فقال : (إن شكوى بعض التجار لايمكن أن تسوغ تحكيم الحسام وإشعال النار والحرب، وأن ما ينشب من نزاع بين الباشوات المتجاورين لايمكن أن يسوى بإشهار السيف بل بتدخل الباب العالي)[1]. ولم يقتنع محمد علي بما قاله الصدر الأعظم ودفع جيوشه بقيادة ابنه ابراهيم باشا وقام الموارنة بدعم جيش محمد علي والوقوف معه وكان الفرنسيون يشجعون الموارنة المسيحيين بالوقوف مع ابراهيم باشا وأمدوهم بالسلاح، وأعلن نصارى بلاد الشام، بأن إبراهيم باشا صديق لهم، وأبدوا استعداداً تاماً لمساعدته، كما أن ابراهيم باشا، قد ألغى كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود فقط في كل بلد سيطر عليه تحت دعوى المساواة والحرية[2] وهي دلائل قوية في تأثر ابراهيم باشا بالمحفل الماسوني عليه ودور هذا المحفل -التابع لفرنسا- في دعم أطماعه وأطماع أبيه[3].

وعلى الرغم من أن جيش ابراهيم باشا قد تمكن من هزيمة الجيش العثماني واستطاع أن يستكمل سيطرته على الشام إلا أن العثمانيين قد تمكنوا من إثارة الأهالي ضد ابراهيم باشا مستغلين العديد من الاسباب سواءً كانت دينية، أو اقتصادية خصوصاً بعد أن ضيق (ابراهيم باشا(الخناق على المسلمين في حين منح حريات واسعة للنصارى واليهود، وانتهى الامر بعقد اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م التي حددت الوجود المصري -لوالي مصر- في الشام بحياة محمد علي[4].

إن مراحل احتلال قوات محمد علي للشام أكدت اتجاهه المعادي للمسلمين والمساند للنصارى واليهود، وأكدت أيضاً أنه كان منفذاً للأهداف البريطانية على الصعيد السياسي وكان منفذاً للأهداف الفرنسية على الصعيد الثقافي في بلاد الشام.

لقد فتح ابراهيم باشا الباب على مصراعيه لدخول البعثات التبشيرية

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص١٩٢.

(٢) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص١٩٢.

(٣) انظر: الجامعة الاسلامية ، احمد الشوبكة ، ص١٠١.

(٤) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٩٣.

الفرنسية والأمريكية، وألغى كافة القوانين الاستثنائية وجميع ماكان يسري على النصارى وحدهم، ويعتبر بعض الكتاب أن عام ١٨٣٤م عام تحول تاريخي حيث عاد اليسوعيون، وتوسعت البعثات الامريكية ، وتم نقل مطبعة الإرسالية الامريكية من مالطة الى بيروت، واسست مدرسة للبنات في بيروت على يد (ايلي سميث(وزوجته[١]، وزودت بعض الأديرة بمطابع أخرى في إطار حرص الدول الأوروبية على حصر المطابع في يد المسيحيين فقط[٢] حتى تتمكن من تحقيق أهدافها في ظل عجز المسلمين عن امتلاك وسيلة التعبير عن آرائهم او نشر أفكارهم في هذا المجال[٣].

لقد كان دخول جيوش محمد علي باشا الى الشام نقطة انطلاق لدور المبشرين ، وأنه لولا وقوف ابنه معهم لبقيت عقولهم مشلولة وأفكارهم آسنة، فقد تمكنت كلية (عين طورة(التي أعيد افتتاحها -والتي مازالت قائمة لحد الآن- من القيام بدور كبير في تكوين كوادر من الكتاب والمفكرين. وفي نفس الوقت طبق سياسة تعليمية بين المسلمين كان الهدف منها الدعوة الى القومية بين أهالي الشام وجلب أحد الفرنسيين من مصر وهو (كلوت بك)[٤] ليشرف على تطبيق هذه السياسة بعد ان اكتسب خبرة تطبيقها في مصر، ووضع تحت يده مطبعة كاملة لنشر الكتب العربية لتعينه في تحقيق هدفه، وتمكن بكل هذه الاساليب -تشاركه الإرساليات التنصيرية ورجال الكهنوت في الأديرة من أن يقلب أساليب التربية والتعليم في مدى سنوات قليلة، ويحقق أهداف المحافل الماسونية الفرنسية في حربها للاسلام والمسلمين[٥].

بينما كانت جيوش محمد علي تمكن النصارى في بلاد الشام، وتضعف شوكة المسلمين بها، كانت جيوش فرنسا في عام ١٨٣٠م تغتصب الجزائر بعد ماضعفت الخلافة

---

(١) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٩٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٩٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٩٦.

(٤)انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٩٦.

(٥)المصدر السابق نفسه، ص١٩٦.

العثمانية ودخلت القوات الفرنسية بما يعادل ٢٨ ألف مقاتل، وأسطولاً يضم مائة سفينة ، وثلاث سفن تحمل ٢٧ ألف جندي بحري، وكانت الدول الأوروبية مؤيدة لهذا الاغتصاب السافر فقد حان توزيع تركت الرجل المريض وحل المسألة الشرقية بالطريقة الأوروبية.

وهنا نتساءل اين محمد علي باشا والي مصر عندما قام الفرنسيون باحتلال الجزائر؟ لماذا سكت ؟ هل لأن إمكانياته لاتسمح بدعم جهاد شعب الجزائر المسلم أو أنها بعيدة عنه؟ أو لأن السكوت ثمن ووعد من دول أوروبا ومنها فرنسا لمحمد علي بأن يظل والياً على مصر، ويتركوا له الفرصة لضم بلاد الشام، أو غير ذلك من الوعود الظلامية التي تحبك خلف الكواليس؟

لقد كان محمد علي مخلباً وخنجراً مسموماً استعمله الأعداء في تنفيذ مخططاتهم ولذلك وقفوا معه في نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي والإسلامي لديه ولدى أعوانه وجنوده[(١)].

لقد ترتب على دور محمد علي في المنطقة بأسرها أن تنبهت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذي أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيأ الظروف السياسية[(٢)].

وفي أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيوش محمد علي في الشام والأناضول اضطرت الدولة العثمانية للاستنجاد بروسيا بعد أن لمست أن (محمد علي (يحظى بتأييد بريطانيا وفرنسا، وعقدت معاهدة (انكيار اسكله سي(سنة ١٨٣٣م في أعقاب هدنة كوتاهيه، وكانت المعاهدة بمثابة تحالف دفاعي بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا بالتصدي لمحمد علي خشية المزيد من التدخل الروسي، وفرضت عليه اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م. وقد ترتب على هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح التي حاول السلطان محمود الثاني أن يقوم بها في الدولة العثمانية واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصاية الدول الأوروبية في مقابل حمايتها من أطماع محمد

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د. جمال عبدالهادي ، ص١٠٣،١٠٢.

(٢) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص١٩٧.

علي[1]. وهكذا كانت سياسة محمد علي خطوة مدروسة من قبل أعداء الإسلام لتهيئة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية مازالت آثارها تعاني منها الأمة حتى اليوم. لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الآتية بواسطة عميلها المخلص محمد علي:

١- تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً والمشرق عموماً.

٢- فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين في محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس في بذر بذور التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية.

٣- إتاحة الفرصة لشركات تجارية أوروبية تتحكم في الاقتصاد.

٤- منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.

٥- خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة.

٦- أصبح محمد علي نموذجاً تحتذي به الدولة الأوروبية في صنع عملائها في داخل ديار المسلمين، كمصطفى كمال، وغيره.

وبعد أن حققت الدول الأوروبية أهدافها بواسطة عميلها محمد علي حان الوقت لإضعاف قوات محمد علي وتحجيمها، فقد تحققت أهدافهم، ووصلوا إلى مقاصدهم. فلابد من إضعاف قوات محمد علي، ودخل الانجليز في صراع سافر مع قوات محمد علي واستطاعت بمساندة أهل الشام من هزيمة قوات محمد علي، والاستحواذ على الثغور الشامية وقتل في هذه المعارك ثلاثة أرباع قوات محمد علي . من شعب مصر وبلاد الشام وأجبر محمد علي تحت ضغوط الإنجليز على توقيع المعاهدة:

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٩٨.

١ يتنازل فيها عن حكم بلاد الشام، وأن يظل حكم مصر وراثياً له ولأبنائه.

٢- أن يحدد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً.

٣- أن لاتصنع مصر سفناً للأسطول.

٤- أن لايعين والي مصر في الجيش ضابطاً أعلى من رتبة ملازم وأن يدفع للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنوياً[١].

وشرعت فرنسا وانجلترا تثير الفتن الطائفية (من عام ١٨٤١م إلى ١٨٦٠م) بين الأقليات غير المسلمة في لبنان، الهدف هو إنهاك قوة الدولة العثمانية التي أرسلت قوات لإنهاء الفتنة وكذلك إيجاد المبرر للتدخل الفرنسي والبريطاني في لبنان تمهيداً لتمزيقه واحتلاله[٢].

واحتلت روسيا الأفلاق والبغدان وتم اتفاق عثماني روسي بلطه ليمان قرب استانبول عام ١٢٦٥ يونيو عام ١٨٤٨م يبقى في الإقليمين جيشا عثمانيا روسيا حتى يستقر الوضع، وما دخله الكفار الروس في ذلك؟

وبهذا المكر أصبح للنصارى وجود عسكري في ديار الإسلام {وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال} .

واشتد صراع الدول الأوروبية على تقسيم ولايات الدولة العثمانية تركة الرجل المريض[٣] وكانت الدول الأكثر اهتماماً بمصير الدولة العثمانية ومصير أملاكها، هي:

١- بريطانيا التي أرادت تأمين طرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى والهند خصوصاً، وتأمين تجارتها معها، سواء عن طريق السويس والبحر الأحمر، أو عن طريق الخليج العربي ونهري دجلة والفرات.

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. جمال، ص١٠٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٠٨.

(٣)انظر: الدولة العثمانية، د. جمال، ص١٠٨.

٢- روسيا القيصرية التي أرادت أن تجد لها منفذاً من البحر الأسود إلى المياه الدافئة بالبحر المتوسط، وذلك بالإستيلاء على القسطنطينية ومضايق البسفور والدردنيل، والتي أرادت كذلك أن يكون لها النفوذ الأكبر في شبه جزيرة البلقان لتؤسس بها دولة سلافية كبرى.

٣- فرنسا التي أخذت على عاتقها من زمن مبكر حماية مصالح رعايا النصارى الكاثوليك في بلاد الشام بصفة عامة والمارونيين على الأخص في لبنان، والتي أرادت رعاية مصالحها في هذه المنطقة، ثم استعلاء نفوذها في أملاك الدول الأخرى في الساحل الشمالي الإفريقي، وبالتحديد في تونس والجزائر.

٤- وفيما عدا الدول الثلاثة الرئيسية التي ذكرناها، فإن دولاً أخرى مثل النمسا وبروسيا، اهتمت بمصير الدولة العثمانية، التي بات من المتوقع هلاكها وزوالها، فسميت لذلك برجل أوروبا المريض[1] لقد تضافرت عدة عوامل ساهمت في إبراز المسألة الشرقية إلى عالم الوجود منها:

١- أن الطريق الذي تستطيع روسيا بواسطته الوصول إلى المياه الدافئة، هو الطريق الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة، ثم بحر إيجة، وأخيراً بالبحر المتوسط، أي بالمرور من مضيقي البسفور والدردنيل، وهما في حوزة الإمبراطورية العثمانية.

٢- إن الدولة العظمى التي يكون لها قواعد قوية في البحر الأسود. ويتسنى لها السيطرة على المضايق، تصبح ذات مركز ممتاز تتمكن بفضله من بسط سلطانها على بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وعلى طريق المواصلات والتجارة من البحر المتوسط الى الهند والشرق الأقصى.

٣- إن الدولة التي تمد نفوذها الى البلقان، تفرض سيطرتها على الشعوب البلقانية بعد تقلص سلطان العثمانيين على هذه المنطقة، وتصبح كذلك ذات مركز ممتاز يمكنها

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٤١.

من الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، ويهدد باختلال التوازن الدولي في أوروبا[1].

وفي خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانت سياسة الدول -باستثناء روسيا وفرنسا- تدور حول المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية لأسباب ناشئة من وجود العوامل التي ذكرناها.

وكانت بريطانيا في مقدمة الدول المتمسكة بمبدأ المحافظة على كيان الأمبراطورية العثمانية وقتئذ[2] وعندما بات ممكناً ملئ الفراغ الذي ينجم من تقلص النفوذ العثماني عن البلقان تخلت بريطانيا وسائر الدول عن مبدأ المحافظة على الدولة العثمانية وسعت الدول الأوروبية بالفعل لتصفية القسم الأكبر من هذه المسألة باستقلال دول البلقان. وكان من بين الدول البلقانية المستقلة حتى نهاية القرن التاسع عشر : اليونان ، ورومانيا، وبلغاريا والصرب[3].

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د. عبدالعزيز الشناوي (١/١٩٤-٢٣٢).

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٤٣.

(٣)انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٤٤.

المبحث التاسع

السلطان عبدالمجيد الأول

(١٢٥٥-١٢٧٧هـ/١٨٣٩-١٨٦٠م)

كان السلطان عبدالمجيد الأول ، ضعيف البنية شديد الذكاء، واقعياً ورحيماً، وهو من أجل سلاطين آل عثمان قدراً، أحب الاصلاح، وأدخل التنظيمات الحديثة، ورغب في تطبيقها في الحال. كما أدخل إصلاحات جمة في الجيوش العثمانية . وترقت في أيامه العلوم والمعارف، واتسعت دائرة التجارة ، وشيدت الكثير من المباني الفاخرة، ومدت في عهده أسلاك الهاتف وقضبان السكك الحديدية[(١)] .

تولى الحكم بعد وفاة والده السلطان محمود الثاني سنة ١٨٣٩م وكان عمره السادسة عشرة من عمره، فكان صغر سنه هذا فرصة لبعض الوزراء التغريبيين لإكمال مابدأه والده الراحل من إصلاحات على الطريقة الأوروبية ، والتمادي في استحداث الوسائل الغربية، ومن هؤلاء الوزراء الذين ظهروا في ثياب المصلحين ومسوح الصادقين (مصطفى رشيد باشا) الذي كان سفيراً للدولة في (لندن) و (باريس)، ووصل الى منصب وزير الخارجية في أواخر عهد السلطان (محمود الثاني)، وكانت باكورة إصلاحاته استصدار مرسوم من السلطان عرف (بخط شريف جلخانة) أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن سراي الزهر عام ١٨٣٩م وجاء فيه: (.. لايخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانيين الشرعية المنيفة بتمامها ولذا كانت قوة سلطتنا السنية ورفاهية وعماريه أهاليها وصلت حد الغاية، وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناءً على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر..)[(٢)] ثم جاءت بيانات يمكن تلخيص

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون ، ص١٩٨.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. علي حسون ، ص١٨٥.

بعضها فيما يلي:

١- صيانة حياة وشرف وممتلكات الرعايا بصورة كلية بغض النظر عن المعتقدات الدينية.

٢- ضمان طريقة صحيحة لتوزيع وجباية الضرائب.

٣- توخي العدل والإنصاف في فرض الجندية وتحديد أمدها .

٤- المساواة في الحقوق والواجبات بين المسلم وغير المسلم[١].

وبدأ عهد جديد يسمى عهد التنظيمات الخيرية العثمانية التي كان من بينها احترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية، ونص فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون[٢].

وفي جزيرة متلين اجتمع نفر من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود، وهناك خطبهم (رضا باشا(- وهو من المنسوبين الى الاصلاح- باسم السلطان ، فقال : أيها المسلمون والنصارى واليهود، إنكم رعية إمبراطور واحد وأبناء أب واحد ، إن السلطان يسوي بينكم جميعا)[٣].

(ولم يلق الخط الشريف أو الدستور الذي سانده (مصطفى رشيد(وقلة من المحيطين به ترحيباً أو تأييداً من الرأي العام العثماني المسلم، فأعلن العلماء استنكارهم وتكفيرهم لـ(رشيد باشا(، واعتبروا الخط الشريف منافيا للقرآن الكريم في مجمله وبخاصة في مساواته المسيحيين بالمسلمين، ورأوا أن ذلك -وبغض النظر عن النواحي الدينية- سيؤدي الى إثارة القلاقل بين رعايا السلطان.

وكان الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية، وهو إثارة الشعور

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٨٦.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، د. علي الزهراني (٢/٢٦٦).

(٣) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (٢٥٢/١).

القومي لدى الشعوب المسيحية ضد الدولة)[1].

وبهذا المرسوم طعنت عقيدة الولاء والبراء في الصميم، ونحيت جملة هامة من أحكام الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بأهل الذمة وعلاقات المسلمين مع غيرهم[2].

ومما يستلفت النظر أن استصدار خط شريف كلخانة كان (الثمن) الذي حصلت عليه بريطانيا والدول الأوروبية من السلطان العثماني في مقابل تسوية النزاع بينه وبين والي مصر (محمد علي باشا) الذي كان يريد الاستقلال والانفصال عن الدولة، أثناء أزمة العلاقات المصرية العثمانية المعروفة (١٢٥٥-١٢٥٧هـ/١٨٣٩-١٨٤١م) وينبغي الا يفهم من ذلك أن الضغط الأوروبي بوجه عام والبريطاني بوجه خاص، كان وحده منشأ حركة التنظيمات أو حركة التجديد والاصلاح العثمانية، خلال القرن التاسع عشر، فقد أسهم في هذه الحركة عامل آخر، هو اقتناع الدولة والمتأثرين بالثقافة والحضارة الأوروبية بضرورة إصلاح جهاز الدولة وتجديده على أساس اقتباس النظم الأوروبية أو استلها منها من غير مساس بالأحكام الشرعية[3].

(وبهذا التصريح الخطير الذي أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوروبا .. مس السلطان التقاليد العثمانية في الشغاف، وتناول الشريعة الاسلامية بالتحريف، فإن التقاليد والشريعة كلاهما لايبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين ، لابد أن يكون تمييز بين المسلمين بنفس الحقوق في ذمة المسلمين ، فأما هذا التصريح الخطير فله دلالته، فهو ينطق بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزاناً صالحاً للحكم ، ولابد من الأخذ باساليب الغرب ولو تعارض مع الشرائع والسنن)[4].

وقد أنشأ رشيد باشا مجلساً للنواب ، ووضع للدولة قانوناً للعقوبات وفق الشرائع

---

(١) انظر: قراءة جديدة في التاريخ العثماني ، ص٢٠٨.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢٦٧/٢).

(٣) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي ، ص١٥٤.

(٤) انظر: الشرق الاسلامي ، حسين مؤنس ، ص٢٥٦.

الحديثة واستقدام رجلاً فرنسياً ليضع قانوناً مدنياً حديثاً للدولة، واشتد في تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنت احترام الناس لها، وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة وأصدر أوراقاً مالية(١) ثم صدر مرسوم آخر عام ١٨٥٦م أكد فيه السلطان عبدالمجيد الأول المبادئ التي سبق له أن أعلنها على لسان رشيد باشا، وزاد فيه عدة امتيازات وحصانات لرعايا الدولة غير المسلمين(٢)، وعرف في التاريخ العثماني بالخط الهمايوني الذي كان أكثر جراة من الأول وأكثر اندفاعاً نحو الاقتباس من الغرب وقد تضمن الخط الهمايوني مايلي:

إلغاء نظام الالتزام والقضاء على الرشوة والفساد.

المساواة في التجنيد بين المسلمين وغير المسلمين.

معاملة جميع رعايا الدولة معاملة متساوية مهما كانت اديانهم ومذاهبهم(٣).

المحافظة على الحقوق والامتيازات التي تمتع بها رؤساء الملل غير الاسلامية.

القضاء على حواجز نظام الملل، ليتمتع كل مواطني الامبراطورية بمواطنة عثمانية متساوية.

أن تصبح المسائل المدنية الخاصة بالرعايا المسيحيين من اختصاص مجلس مختلط من الأهالي ورجال الدين المسيحيين يقوم الشعب بانتخابه بنفسه.

فتح معاهد التعليم أمام المسيحيين، لتفتح أمامهم وظائف الدولة .

السماح للأجانب بامتلاك الأراضي في الدولة كما وعد السلطان بالاستعانة برأس المال والخبرات الأوروبية بهدف تطوير اقتصاد الدولة(٤).

ويعتبر السلطان عبدالمجيد أول سلطان عثماني يضفي على حركة تغريب الدولة

---

(١) صدرت بدون رصيد معدني وبالتالي فقدت قيمتها ولم ينصهم المستشارون الأجانب.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/٢٦٨).

(٣) انظر: تاريخ العرب الحديث مجموعة علماء ، ص١٤٠.

(٤) انظر: تاريخ العرب الحديث، ص١٤٠.

العثمانية صفة الرسمية، إذ إنه أمر بتبني الدولة لهذه الحركة وأمر بإصدار فرماني التنظيمات عامي ١٨٥٤م،١٨٥٦م وبهما بدأ في الدولة العثمانية ماسمي بعهد التنظيمات وهو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي، وبهذين الفرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الاسلامية ، وبدأت الدولة في التقنين وإقامة المؤسسات[١].

والحق أن السلطان عبدالمجيد كان خاضعاً لتأثير وزيره (رشيد باشا(الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بداها هو[٢].

وحينما رأى المسلمون أن الدولة تساوي بهم النصارى واليهود، وتستبدل بالشريعة الحنيفة قوانين النصارى، وتخلع الأزياء القديمة الشريفة لتتخذ زي النصارى، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لاتكاد تأتي أمراً إلا راعت فيه خاطر النصارى وحرصت أن لاتمسهم بأذى أو تنالهم بضيم .نفروا من ذلك نفوراً عظيماً، ولم يجد السلطان ورجال دولته من بد في إسقاطه وعزله أمام مظاهر السخط الشعبي، وخوفهم من وثوب المسلمين وثورتهم[٣].

غير أن عزل رشيد باشا لم يؤد الى وقف حركة التغريب من استقدام المزيد من الانظمة والقوانين من الغرب بعد أن مهد لها الطريق ، وفتحت لها الأبواب. ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت في إقصائه سنة ١٨٤١م، إلا أنه عاد بعد أربع سنوات في عام ١٨٤٥م تسانده مجموعة من أعضاء المحافل الماسونية الذين ركزوا السير في طريق التحول العلماني ..[٤]، وعاد بعد ذلك ليتولى الصدارة العظمى سنة ١٨٤٦م وعزل منها سنة ١٨٥٨م[٥].

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢٦٨/٢).

(٢) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، ترجمة محمد حرب، ص٢.

(٣) انظر: الشرق الاسلامي ، حسين مؤنس، ص٢٥٦.

(٤) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص٢٠٩.

(٥) انظر: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها (١٨١/١).

وازدادت الأحوال سوءاً وانحطاطاً ، مما جعل رجال الدولة يفكرون حقيقة في التغيير والاصلاح فلا يجدون أمامهم غير الطريقة الأوروبية في الإصلاح، والوجهة التغريبية في التغيير التي بدء في اتخاذها، خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من رجال الدولة هؤلاء ممن بعثتهم الدولة للعمل في التمثيل السياسي الخارجي أو للدراسة العسكرية في الخارج، بعد أن خلت الساحة من ظهور مصلح إسلامي يعيد الأمور الى نصابها، ويقطع الطريق على أنصار الغزو الفكري بتبني إصلاح جاد يعتمد على المنهج الاسلامي(١).

وكما قال الكاتب التركي الاستاذ (نجيب فاضل(: ولخلو الامبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل، فقد ترك المجال للدوبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له.. وكانت النتيجة فقدان الروح، وضمور العقل، وذبول الارادة ، وعموم الشلل(٢).

وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الاعظم من ساسة الترك وولاتهم، وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين ، حتى إن العلامة العراقي الآلوسي لما زار والي كركوك علي باشا عام ١٢٦٧هـ أثنى عليه وامتدحه بحب العلماء واكرامهم، وبالأخلاق الفاضلة ، ثم قال بعد ذلك : (والظاهر أنه غير منحل العقيدة، ولا منتحل شيئاً من الآراء الإفرنجية الجديدة، حيث إنه لم يسمع منه جليس حديث لوندرة وباريس! ويكفي اهل البلد اليوم رحمة أن واليها سالم من تلك الوصمة، وقلما تنال هذه الرحمة في هذا الزمن الذميم!)(٣).

وقد استمر التيار التغريبي في محاولة إحكام السيطرة على جميع المجالات والأجهزة في الدولة العثمانية .

وعلى كل حال لقد كانت المعالم الرئيسة لحركة الاصلاح والتجديد العثمانية تدور حول نقاط ثلاثة هامة:

---

(١) انظر : الانحرافات العقدية العلمية (٢/٢٧٠).

(٢) انظر : السلطان عبدالحميد حياته وأحداث عصره، ص٤٣.

(٣) انظر : نشوة المدام في العودة الى مدينة السلام، ص١٠٣.

١ الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليمه في نظم الحكم والإدارة.

٢- الاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل العلماني .

٣- الاتجاه نحو مركزية السلطة في استانبول والولايات(١).

كانت سنة صدور خط كلخانة حدثاً في الأوساط الأوروبية يسجله أحد المنصرين الفرنسيين بقوله: (كان عام ١٨٣٩م عاماً عظيماً بالنسبة للتوغل الفرنسي في تركية .. لقد كان بداية التنظيمات والسنة الأولى في الإصلاح .. ونحن رجال الدين سنبدأ بالاستفادة من هذه الليبرالية الخجولة، ونبدأ بإرسالية تبشيرية للتعليم الكاثوليكي)(٢) وقال السيد إيتيان الذي ترأس هذه الارسالية : (هذه أول إمكانية لتعزيز انتصار الايمان الذي سنعلمه ، ذلك لأن القرآن يحرم حتى ذلك الوقت التعليم(٣). لقد سافرت أول إرسالية مكونة من سبعة رجال دين في ١٨٣٩/١١/٢١م الى استانبول . الأخوات يفتحن داراً لليتامى وفصولاً للتدريس في نهاية ١٨٤٠م يصل عدد التلاميذ الى ٢٣٠، وعام ١٨٤٢م يصل العدد الى ٥٠٠)(٤).

وهكذا لم تضيع أوروبة المسيحية وكنيستها وقتاً طويلاً للاستفادة من ظروف التحديث والتنظيمات؛ فبعد سبعة عشر يوماً من صدور الخط، كانت الارساليات التبشيرية الاولى تغادر مارسيلية باتجاه العاصمة العثمانية، وهي تحمل أفكارها العدائية للمسلمين ولقرآنهم الكريم الذي تتهمه بتحريم التعليم انتقلت عدوى التنظيمات الى الولايات العثمانية العربية شبه المستقلة وبسرعة ففي تونس أصدر محمد باي (عهد الأمان) عام ١٨٥٧م ، وبناه على القواعد التالية:

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د.اسماعيل ياغي ، ص١٥٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، د. قيس العزاوي، ص٦٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٦١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٦١.

أولاً: الحرية:

إذ أن الانسان لايستطيع بلوغ الفلاح إلا إذا كانت الحرية مضمونة له، وكان العدل سياجاً له ضد العدوان .

ثانياً: الأمان التام.

ثالثاً: المساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين أمام القانون:

وهذا متضمن في النقطة الثانية، لأن هذا الحق إنما هو ملك لجميع الناس، ويجب أن يكون للأجانب حقوق التونسيين، وأن يمارسوا الأعمال التجارية على أنواعها، وأن يكون لهم حق التملك[1] وسارت مصر على هذا المنوال ، وبصدور هذه القوانين في استانبول وتونس ومصر، تحول التحديث الذي كان رغبة أوروبة تدعمها بعض فئات نخبوية الى قوانين رسمية يتعهد فيها السلطان بإجراء التنظيمات اللازمة لتغريب المجتمع الاسلامي . وتحول الصراع من كونه ضغطاً خارجياً على الدولة العثمانية الى الداخل أي الى صراع داخلي عنيف بين سلطة اختارت أو أجبرت على تغريب المؤسسات ومجتمع يرفض هذه المؤسسات مستعيناً بالعلماء والفقهاء والدعاة الذين واجهوا بقوة تيار التحديث من منطلق انه مخالف للشريعة الإسلامية[2] . إن من ابرز خصائص التنظيمات أنها:

١- كانت أولى الوثائق الرسمية التي لم تستمد مصدريتها من الشريعة الاسلامية ، بل اعتمدت مصدراً وضعياً للتشريع مستوحى من التجربة الدستورية الأوروبية، وقد احتوت على مفاهيم غربية مثل (وطن(التي تضمنها خط كلخانة بدلاً من (الأمة(فكانت والحالة هي أولى الخطوات نحو فصل الدين عن الدولة.

٢- إن (إقرار الأمنية الكاملة(و (عهد الأمان(و(مجلس شورى النواب(أو المظاهر الأخرى المستوحاة من التجربة الغربية قد سمحت بإضفاء نوع من الشرعية على استمرار

---

(١) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ص٦١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٢.

الحيف على العامة من ناحية، وفتحت الطريق لطبقة التجار الغربيين والمبشرين لإلحاق المجتمع العثماني بقوانيين السوق وبمعايير الفكر التبشيري من ناحية ثانية.

٣- لقد تكلل خطا كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام ١٨٧٦م. ولأول مرة في تاريخ الاسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري وهي دساتير وضعية علمانية.

لقد وضعت التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة اسلامية، فعلمنة القوانين، ووضع مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، والابتعاد عن التشريع الاسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، قد سحب من الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين ناهيك أن عدو الدولة أصبح داخلياً، فالتوغل الأوروبي في مستوياته الثقافية والاقتصادية والسياسية من ناحية، والمسلمون وعلماء الدين الذين يرتابون بمسلك الدولة من الناحية الثانية، سيبدأون صراعاً لن ينتهي حتى بعد نهاية الدولة العثمانية، بل استمر الى يومنا هذا[1].

إن من الأهمية بمكان أن نقوّم ماحدث ولقد ترك السلطان عبدالحميد الثاني في مذكراته شهادته التاريخية، لقد حاول انقاذ الدولة العثمانية، بعد أن دارت عليها الدوائر وأحكم عليها الحصار، لقد كان سلطاناً واعياً لحقيقة الدعوات التحديثية التي اتخذت لها تسمية (الحركة الاصلاحية(تغطية لنواياها الحقيقية في ربط الدولة العثمانية بالغرب، وعن ذلك فحاربه الدستوريون ويهود الدونمة ؛ عزلوه. وفي أواخر عهده كتب وهو سلطان مسلوب الإرادة يكشف حقيقة التجديد والإصلاح يقول:

(التجديد الذي يطالبون به تحت اسم الاصلاح سيكون سبباً في اضمحلالنا. ترى لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات. لاشك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء ، وأنه كفيل بالقضاء على هذه الامبراطورية إذا أردنا أن نتبنى بعض الاصلاحات، فعلينا أن نأخذ بالحسبان الظروف السائدة في البلاد،وأن لانقيس الأوضاع على اساس المستوى الفكري لحفنة قليلة من الموظفين، ويجب أن يكون في

---

(١) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ص٦٣.

الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ماهو أوروبي. الأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحاضرتهم جملةً وتفصيلاً. لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ماعند الأوروبيين، علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ومن تلقاء أنفسنا، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة. ومن الظلم الفادح أن نتهم بمعاداة كل شيء يأتي من الغرب)[١].

لقد أصاب ميزان العدل في تقويمه لحركة الاصلاح العثمانية وبين كيفية الاستفادة من حضارة الغرب وأرى من الفائدة للقارئ الكريم أن يتعرف على موقف الاسلام من الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات الجاهلية الأخرى وكيف تكون الاستفادة من هذه الحضارات؟

إن الاستفادة من الحضارة الغربية الكافرة وغيرها على ثلاثة أنواع:

١- الاستفادة من الصناعات وأصولها والاكتشافات العلمية ، والعلوم التجريبية العسكرية والطبيعية، كالرياضيات والكيمياء والفيزياء ، والهندسة والاحياء والفلك بعد أن تمحص وتصفى من شوائب المؤثرات الجاهلية، وتصاغ بقوالب إسلامية صافية، فهذه الأمور مابين: واجب[٢] أخذه واقتباسه ، وهو مايحتاجه المسلمون حاجة ماسة، أو لاتقوم بعض الواجبات إلا به، كالسلاح، والنظم العسكرية، في مجالات الدعوة الى الله ، والجهاد في سبيله .. فكل مايحتاجه المسلمون -من المباحات- في هذا المجال فيجب أخذه والاستفادة منه ، والمسلمون أحق به.

كذلك مايتحقق به قيام الدول الاسلامية -من الوسائل المباحة- مع التحفظ الكامل والوعي التام، يجب الأخذ به، وإلاّ فتركه أولى. أو مباح[٣] وهذا قليل لأن الله أوجب على المسلمين الأخذ بالأسباب والحيطة لاكتفاء والاستغناء عما في أيدي الكفار أيا كان .

الثاني: التقليد في العبادات والعقائد والمبادئ والمفاهيم والتصورات والآراء

---

(١) انظر: الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، ص٧٦.

(٢) انظر: مجلة المنار لمحمد رشيد (٥٥٣/١-٥٥١).

(٣) انظر: مجلة المنار لمحمد رشيد رضا (ج١/٥٥١/٥٥٣).

الفلسفية ، حول الكون والحياة والانسان،والتي تتصل بالعقيدة، فهذه الأمور لاتفصيل فيها، فهي محرمة قطعاً، والاستمداد فيها من الكفار ردة أو كفر إذا اعتقد المقلد صحتها ودان بها، وعلى الأقل تكون حراماً مع جهل حقيقتها.

الثالث: التقليد في الأخلاق وإنماط السلوك والآداب والثقافة والفكر، والانتاج الفني، ونحو ذلك ، فهذه الأمور لاتخلو إما أن تتعارض مع أصول الاسلام وقواعده أو توقع فيما نهى الشارع عن تقليد الكفار فيه، فهذا أمر محرم، أو تكون مم يجهل أمره وحكمه فهو على الأقل مكروه، أما الشيء الذي يعتبر فضيلة -في تلك الحضارة وما أقله -فقد يكون مباحاً[1]- والله أعلم.

ولقد تحدث بعض العلماء والمفكرين المسلمين والمعاصرين حول التقليد وكيفية الاستفادة من الحضارة الغربية.

مصطفى صادق الرافعي يقول : (وإني أرى أنه لاينبغي لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد، بل أقتباس التحقيق، بعد أن يعطوا كل شيء حقه من التمحيص. فإن التقليد لايكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطة!! على أننا لانريد من ذلك إلا نأخذ من القوم شيئاً ، فإن الفرق بعيد بين الأخذ من زخرف المدينة وأهواء النفس، وفنون الخيال ورونق الخبيث)[2].

حسن البنا يقول: (من الحق أن نعرف أننا بعدنا عن هدى الاسلام وأصوله، وقواعده، والاسلام لايأبى أن نقتبس النافع ، وأن نأخذ الحكمة أنىَ وجدناها ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه، لنجري وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين)[3].

أبو الأعلى المودودي يقول: إن كان هناك شيء ينبغي ويستحق أن تأخذه أمة من الأمم الأخرى فإنما هو نتاج أبحاثها العلمية، وثمرات قواها الفكرية ، ومعطياتها

(١) انظر: التقليد والتبعية ، د. ناصر عبدالكريم الغفل، ص٣٨.

(٢) انظر: وحي القلم (٢٠٣/٣).

(٣) رسائل الامام الشهيد حسن البنا، ص٣٠٧، طبعة دار الاندلس.

الاكتشافية ومناهجها العلمية التي تكون قد بلغت بها معارج الرقي في الدنيا . إن أي أمة في الأرض إذا كان في تاريخها أو في نظمها الاجتماعية أو في أخلاقها درس نافع، فمن الواجب أن نأخذه منها، ومن الواجب أن نستقصي أسباب رقيها وازدهارها بكل دقة وتمحيص، ونأخذ منها مانراه ملائماً لحاجتنا وظروفنا.

ولكننا إذا أعرضنا عن هذه الأمور الجوهرية ورحنا نأخذ من أمم الغرب ملابسها وطرقها للمعيشة وأدواتها للأكل والشرب، برغم أن فيها السر لنجاح تلك الأمم ورقيها فلا يكون ذلك إلا دليلاً على غباوتنا وبلادتنا وحماقتنا ، فهل لأحد عنده العقل أن يعتقد أن كل ما أحرزه الغرب من التقدم والرقي في مختلف حقول الحياة، إنما أحرزه بالجاكيت والبنطلون وربطة العنق والقبعة والحذاء؟!

أو أن من أسباب رقيه وتقدمه أنه يتنالو طعامه بالسكين والشوكة؟ أو أن أدواته للزينة والرفاهية والمساحيق والمعاجين والأصباغ هي التي قد رسمت به الى أوج الرقي والكمال؟!!

فإن لم يكن الأمر كذلك - والظاهر انه ليس كذلك- فما للتقدميين المتشدقين بالإصلاح عندنا لاينـدفعون أو ماينـدفعون إلا بهذه المظاهر[1] ؟!

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي قال في (أضواء البيان) عارضاً موقف المسلمين من الحضارة الغربية:

(الاستقراء التام القطعي دل على أن الحضارة الغربية تشتمل على نافع وضار، أما النافع فيها فهو من الناحية المادية ، وتقدمها في جميع الميادين المادية أوضح من أن أبينه، وما تصمنته من المنافع للانسان أعظم مما يدخل تحت التصور، فقد خدمت الانسان خدمات هائلة من حيث إنه جسد حيواني، وأما الضار منها فهو الاهمال بالكلية الناحية التي هي رأس كل خير ولاخير البتة في الدنيا بدونها، وهي التربية الروحية للانسان

---

(١) انظر: الاسلام في مواجهة التحديات المعاصرة للمودودي ، ص١٦٣-١٦٤.

وتهذيب أخلاقه)[1].

ثم قال بعد أن ذكر حكم الانتفاع من النافع منها:

(وقد انتفع الرسول ﷺ بدلالة (ابي الأريقط الدؤلي(له في سفر الهجرة على الطريق مع أنه كافر، فاتضح من هذا الدليل أن الموقف الطبيعي للاسلام والمسلمين من الحضارة الغربية هو أن يجتهدوا في تحصيل ماأنتجته من النواحي المادية ويحذروا مما جنته من التمرد على خالق الكون جلا وعلا، فتصلح لهم الدنيا والآخرة. والمؤسف أن أغلبهم يعكسون القضية فيأخذون منها الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدين والتباعد من طاعة خالق الكون، ولا يحصلون على نتيجة مما فيها من النفع المادي، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين)[2].

سيد قطب يقول :(ولقد كان رسول الله ﷺ يتشدد مع أصحابه -رضوان الله عليهم في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج بقدر مايفسح لهم في الراي والتجربة في شؤون الحياة العلمية المتروكة للتجربة والمعرفة كشؤون الزرع وخطط القتال وأمثالها من المسائل العلمية البحتة التي لاعلاقة لها بالتصور الاعتقادي، ولا بالنظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الانسان وفرق بين هذا وذلك بين ، فمنهج الحياة شيء، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر، والاسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله ، هو الاسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة ..)[3].

ثم أورد قصة عمر ، حين رأى معه النبي ﷺ ، شيئاً من التوراة وغضب عليه حتى رجع، الحديث وقوله ﷺ: (لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ..) الحديث.

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤١٢/٤).

(٢) انظر : التقليد والتبعية ، د. ناصر العقل، ص٤١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ، سيد قطب (٢١/٢٠/٤).

فقال : (هؤلاء هم أهل الكتاب . وهذا هو هدي رسول الله ﷺ ، في التلقي عنهم في أمور تختص بالعقيدة والتصور ، أو بالشريعة والمنهج، ولا ضير وفق روح الاسلام وتوجيهه -من الانتفاع بجهود البشر كلهم في غير هذا من العلوم البحتة علماً وتطبيقاً، مع ربطها بالمنهج الايماني: من ناحية الشعور بها وكونها من تسخير الله للانسان، ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية، وتوفير الأمن له والرخاء ، وشكر لله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية، شكره بالعبادة، وشكره بتوجيه هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية.

فأما التلقي عنهم في التصور الإيماني ، وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود الانساني، وفي منهج الحياة وانظمتها وشرائعها ، وفي منهج الأخلاق والسلوك -أيضاً- أما التلقي في شيء من هذا كله فهو الذي تغير وجه رسول الله ﷺ ، لأيسر شيء منه، وهو الذي حذر الله الأمة المسلمة عاقبته، وهو الكفر الصراح)[1].

إن موجة تقليد الغرب بدأت عارمة حين دب الضعف والوهن في الخلافة العثمانية وتكالبت قوى الهدم بتقويضها -في الداخل والخارج- وحين شعرت هذه الدولة الضعيفة بالنقص أمام الدول النصرانية الفتية، فاتجهت الدولة العثمانية الى تقليد تلك الدول وأخذت من إنتاجها الجديد، وقد وافق هذا -شلل- في التفكير لدى المسلمين وبعد عن منهج الله الأصيل ، فاستمدت من الكفار ، دون وعي أو إدراك أو تفكير في أسباب تقدم تلك الدول الكافرة ودون أن تجد في اللحاق بها بالجد والاعتماد على القوة الذاتية، والجهود المسلمة..![2]

وبدأت موجة التقليد الأعمى قوية عارمة تدفعها -بحمق وعنف- الاهواء والانحرافات في الداخل، والجهود الماكرة المخططة من الخارج، فأخذت البلاد الاسلامية تسلك هذا الطريق واحدة تلو الأخرى، ابتداء من تركيا فمصر والشام ثم تونس وإيران والهند.

---

(١) انظر: التقليد والتبعية ، ص٤٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٠.

والعجيب أن كل إتجاهات التقليد في العالم الإسلامي بدأت بالإحساس بالضعف العسكري والحاجة إلى تنظيم الجيوش في البلدان الإسلامية ومن ثم نشأت عقدة الاعتماد على الغرب والإعجاب بكل ماهو غربي وافد من بلاد الكفار مهما كان فاسداً وتافهاً، واحتقار كل ماهو شرقي مهما كان صالحاً وعظيماً[١].

لقد نهى الله - سبحانه وتعالى - في كتابه الكريم عن التقليد الأعمى، فمقته وحذر من مغبته، في آيات كثيرة، ومناسبات عديدة، وأساليب متنوعة، ولاسيما تقليد الكفار، فتارة بالنهي عن تبعيتهم وطاعتهم، وتارة بالتحذير منهم، ومن الاغترار بمكرهم والانصياع لآرائهم والتأثر بأعمالهم وسلوكهم وأخلاقهم.

وتارة بذكر بعض خصالهم التي تنفر المؤمنين منهم، ومن تقليدهم.

وأكثر مايرد التحذير في القرآن من - اليهود - والمنافقين، ثم من عموم أهل الكتاب والمشركين.

وقد بين الله - سبحانه وتعالى - في القرآن أن تقليد الكفار وطاعتهم منه ماهو ردة فقال: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر} (سورة محمد الآيتان ٢٥-٢٦).

وحيث جعل الله في شريعته الكمال فقد نهى عن اتباع غيرها من الأهواء والنظم البشرية، ونهى عن اتباع الكفار والذين لايعلمون فقال: {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين} (سورة الجاثية: ١٨-١٩).

وقال تعالى في معرض التحذير من أهل الكتاب: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق} (

---

(١) انظر: التقليد والتبعية ، ص٢١.

البقرة، آية: ١٠٩).

وقال: {مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم} (البقرة: ١٠٥).

وقال: {يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء} (المائدة، آية: ٥١).

وكذلك نهى عن طاعتهم واتباع أهوائهم وخصالهم السيئة فقال: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم} (البقرة، آية: ١٢٠).

وقال: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين} (آل عمران، آية: ١٠٠).

وقال: {ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك} (المائدة، آية: ٤٩).

وبين خطر موالاتهم واتخاذهم بطانة، وأن ذلك فيه خطر عام يهدد مصالح الأمة وكيانها، فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر} (سورة آل عمران، آية: ١٨).

كما جاء النهي عن التقليد والتحذير منه بأسلوب القصة فإن الله سبحانه وتعالى - ذكر في القرآن الكريم الأمم الكافرة الغابرة وأخبارها ومواقفها العدائية ضد دعوة التوحيد ومسيرة الإيمان على مدار التاريخ، وما حصل لها من أنواع العقوبات والعذاب جزاء ضلالها وانحرافها، وهو بذلك يأمرنا بأخذ العبرة والعظة، وبالاعتبار بهم والاتعاظ بقصصهم والابتعاد عن تقليدهم، وتجنب سلوك نهجهم[1].

وذلك مثل قوله تعالى لما ذكر مافعله بأهل الكتاب من المثلات {فاعتبروا يا أولي

---

(١) انظر: التقليد والتبعية، ص٥١.

الأبصار} (الحشر، آية: ٩).

وقال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} (سورة يوسف، آية: ١١١).

وقسم العلماء الآيات التي نهت عن تقليد الكفار في القرآن على قسمين:

قسم بين أن مخالفتهم في عامة الأمور أصلح للمسلمين، وهذا تدل عليه جميع الآيات.

وقسم بين أن مخالفتهم مطلوبة وواجبة شرعاً، وهذا تدل عليه بعض الآيات[1].

ووردت في السنة - عن رسول الله ﷺ - أحاديث عامة تنهى عن التقليد الأعمى، والتشبه المقوت، وتحذر من مغبة ذلك فقال ﷺ في معرض النهي عن التشبه بكل مالم يشرعه أو يقره الإسلام، والنهي عن تقليد كل ماهو على غير سلوك المسلمين، مثل قوله ﷺ: (من تشبه بقوم فهو منهم ([2] كما وردت أحاديث كثيرة وصحيحة في النهي عن تقليد الكفار عموماً - وأهل الكتاب، والمشركين، والمجوس، وأهل الجاهلية، فقال ﷺ في مناسبات عديدة:

(خالفوا اليهود)[3]

(خالفوا المشركين)[4]

(ولا تتشبهوا باليهود)[5]

وحين حذر ﷺ من تقليد الكفار وماينتج عنه من خطر على عقيدة المسلمين

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، ص١٧.

(٢) سنن أبي داود، كتاب لباس الشهرة (٣٦٧/٢).

(٣) وردت في عدة أحاديث منها قوله ﷺ: (خالفوا اليهود فإنهم لايصلون في نعالهم).

(٤) في صحيح البخاري.

(٥) سنن أبو داود ابواب الاستئذان.

وكيانهم، علل ذلك بما هم عليه من انحراف وضلال، فعن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ

(لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حياً بين إظهركم، ماحل له إلا أن يتبعني)[1].

كما بين ﷺ محذراً ومشيراً الى ماسيحصل للمسلمين بتخليهم عن منهج الله واقتفائهم آثار اليهود والنصارى والأمم المنحرفة، وذلك فيما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا يارسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن ؟؟)[2].

إن من مقاصد الشريعة منع المسلمين من التقليد الأعمى، إذ أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وقد أكمل الله الشريعة للناس {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا} (سورة المائدة: آية ٣٠).

لقد جعل الله الشريعة مشتملة على كل المصالح في كل الأزمان والأمكنة ولكل الناس، فلا حاجة للاستمداد من الكفار أو تقليدهم وواضح مايحدثه التقليد من خلل في شخصية المسلم، من الشعور بالنقص والصغار، والضعف والانهزامية، ثم البعد والعزوف عن منهج الله وشرعه، فقد اثبتت التجربة أن الأعجاب بالكفار وتقليدهم سبب لحبهم والثقة المطلقة بهم والولاء لهم والتنكر للاسلام ورجاله وابطاله وتراثه وقيمه وجهل ذلك كله وهذا ماحدث للدولة العثمانية وولاياتها التابعة لها في القرنين الماضيين، حين تخلوا عن رسالتهم وحين استسلموا لسلطان الغرب ونهلوا من سمه الزعاف[3].

---

(١) مسند الامام أحمد (٣٣٨/٢).

(٢) البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب لتتبعن سنن من كان قبلكم ، المجلد الثالث، الجزء التاسع، ص٨٣.

(٣) انظر: التقليد والتبعية، ص٨١.

إن الحكم الشرعي للتقليد يختلف باختلاف نوعه وكيفيته ومدى خطورته وأثره، كما يختلف باختلاف المقلَد والمقلِد، والعلاقة الشرعية بينهما، واعتقاد المقلِد في تقليده لغير المسلمين. فيكون التقليد كفراً إذا كان في العقائد لأصول الإيمان وأصول العقيدة، أو الأحكام القطعية في الشريعة، أو مسائل الغيب الثابتة بالنص، وذلك كتقليد النصارى في عقيدة التثليث وتقليد الشيوعيين في إنكار النبوات والأديان.

وكتقليد الدول الكافرة في تعطيل حدود الله واعتقاد عدم صلاحية الشريعة الإسلامية للتطبيق، وغير ذلك.

ويكون التقليد فسقاً حين يكون في الأخلاق الفاسدة وارتكاب المنكرات والمعاصي كشرب المسكرات ونحوه.

ويكون حراماً مطلقاً، كموافقة الكفار في أعيادهم واحتفالاتهم وتقليدهم في ذلك.

ويكون مكروهاً كالتقليد غير المقصود ولا المتعمد في أمور الحياة العامة - إذا لم يمس العقيدة ولم يكن من خصائصهم وسماتهم.

وإذا خيف أن يؤدي التقليد إلى شيء من الأمور السابقة، - الكفر أو الفسوق أو الحرمة أو الكراهة - اتخذ الحكم ذاته، سداً للذريعة.

ويكون التقليد مباحاً بشروط وقيود، كالتقليد في الإنتاج المادي والعلوم الإنسانية والتجريبية البحتة، والتجارب العسكرية ونحوها، وذلك بعد صياغتها صياغة إسلامية وتنقيتها من شوائب (الجاهلية) وتجريدها من مصالح الكفار وبألا تتعارض مع المصالح الشرعية الدينية والدنيوية[(١)].

إن النظرة الفاحصة في تاريخ الأمم واستقراء أحوالها تبين لنا أن التقليد بين أمة وأمة، وبين قوم وقوم، يحدث بينهما من التشابه والتفاعل والانصهار، مايضعف التمايز والاستقلال في الأمة المقلِدة ويجعلها مهتزة الشخصية، واقتضت سنة الله في خلقه أن الأمة

---

(١) انظر: التقليد والتبعية، ص٨٣.

الضعيفة المغلوبة تعجب بالأمة القوية المهيمنة الغالبة[1] ومن ثم تقليدها فتكسب من أخلاقها وسلوكها وأساليب حياتها، إلى أن يصل الأمر إلى تقليدها في عقائدها وأفكارها وثقافتها وأدبها وفنونها، وبهذا تفقد الأمة المقلّدة مقوماتها الذاتية وحضاراتها - إن كانت ذات حضارة - وتعيش عالة على غيرها.

وإذا لم تستدرك الأمة المغلوبة أمرها، وتتخلص بجهودها الذاتية وجهادها من وطأة التقليد الأعمى فإنه - ولابد - أن ينتهي بها الأمر إلى الاضمحلال والاستعباد وزوال الشخصية تماماً، فتصاب بأمراض اجتماعية خطيرة من الذل والاستصغار والشعور بالنقص وعدم الثقة بالنفس، أضف إلى ذلك كله التبعية السياسية والاقتصادية والانهزامية في كل شيء وبالنسبة للأمم الربانية ذات الرسالة الإلهية - كالأمة الإسلامية - فإن تقليدها لغيرها يصرفها عن رسالتها ويصرف جهدها وطاقاتها عن دين الله ويرهقها بالبدع والخرافات ومالم يشرعه الله من النظم والقوانين، والأمراض الخلقية مما يؤدي بها في النهاية إلى التخلي عن رسالتها ومن ثم الولاء للكفار والطواغيت وهذا إيذان ببطش الله وعقابه، كما ورد في قصص القرآن عن أمم كثيرة من هذا النوع، والأمة اليوم واقعة بما وقعت فيه تلك الأمم من التقليد الأعمى للكفار والتخلي عن رسالة الله والتبعية والولاء للكافرين في كل شئون الحياة، والحكم بغير ما أنزل الله واستباحة الزنى والربا والفجور، ومع هذا مازالت تمنُّ على الله بإسلامها[2].

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، فصل اقتداء المغلوب بالغالب، ص١٤٧.

(٢) انظر: التقليد والتبعية، ص١١٥،١١٤.

المبحث العاشر

السلطان عبد العزيز

(١٢٧٧-١٢٩٣/ ١٨٦١-١٨٧٦م)

تولى الحكم بعد أخيه في أواخر عام ١٢٧٧هـ. وفي عهده تفجرت ثورة في جزيرة كريت وأخمدت عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٣م. وتم فتح قناة السويس عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٩م، وصدرت مجلة الأحكام العدلية وقانون التجارة البحرية في أوائل عهده، وزار أوربا وفكر في الاستفادة من خلاف الدول الأوربية فيما بينها، لكنه وجد أنها تتفق جميعها ضد الدولة لأنها دولة إسلامية، ولم يستطع الأوربيون أن ينسوا الحقد الصليبي المغروس في نفوسهم، غير أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم حسب مصالحهم الخاصة[١].

وكانت الدول الأوربية عازمة على الضغط على الحكومة العثمانية للإستمرار في خطوات الإصلاح والنهوض المزعوم على النهج الغربي، والفكر الأوربي، والمبادئ العلمانية وأكد السلطان عبدالعزيز عزمه على مواصلة السير في الطريق الذي سلكه أبوه محمود الثاني وأخوه عبدالمجيد، فأبقى على كل أصحاب المناصب من المتكلفين بتنفيذ الإصلاحات. وكان من أهم الإصلاحات الإدارية في عهده صدور قانون الولايات عام (١٢٨١هـ/١٨٦٤م)، وفي مجال الإدارة أيضاً أنشئت محكمة عليا قضائية (ديوان الأحكام العدلية). كما أنشئ عام (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) مجلس للدولة على النسق الفرنسي سمي (شوراي دولت) أي مجلس شورى الدولة، وكان من أهم اختصاصاته مناقشة الميزانية[٢].

أما في مجال التعليم، فقد أسست مدرسة ثانوية عام ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م هي مدرسة (غلطة سراي)، كان برنامج الدراسة فيها خيراً من برامج المدارس الثانوية الأخرى، وكانت كل المواد التي تدرس فيها باللغة الفرنسية فيما عدا اللغة التركية. وكانت الغاية من إنشائها هي تخريج طائفة من الشباب القادر على حمل عبء الوظائف العامة وكان هؤلاء

---

(١) انظر: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص٤٩٠-٤٩٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٥٩.

الشباب من مختلف الديانات، فالأغلبية من المسلمين، ولكن كان بها اليونان والأرمن، وهم نصارى، كما كان بها أعداد من اليهود. والواقع أن الطلاب قد أقبلوا على هذه المدرسة حتى بلغ عددهم عام ١٨٦٩م ستمائة طالب مسلمين ونصارى ويهود[(١)].

ورغم هذه الخطوات الإصلاحية التي تمت في عهد السلطان عبدالعزيز، إلا أن الدول الأوروبية لم تعتبرها كافية لتنهض دليلاً على أن الدولة العثمانية إنما تريد الإصلاح، وتعمل لتحسين رعاياها النصارى، ولإزالة المفاسد التي استشرت في نظام الإدارة والحكومة، وهي مفاسد كانت في نظر الكثير من المعاصرين الأوروبيين تهدد بانهيار الدولة في النهاية[(٢)].

وكان رأي فريق كبير من الإنجليز وغيرهم من المعاصرين، أن زوال الدولة العثمانية قد بات ضرورياً، حيث إنها قد فشلت في الأخذ بأسباب الإصلاح الأوروبي، فقال لورد كلارندون وزير الخارجية البريطانية في عام ١٨٦٥م: (إن الطريقة الوحيدة لإصلاح أحوال العثمانيين هي بإزالتهم من على سطح الأرض كلية)[(٣)]. وهذا يؤكد حقد النصارى على الدولة العثمانية المجاهدة لأنها هزمتهم منذ فتح القسطنطينية.

لقد فشلت الدولة العثمانية في الأخذ بأسباب الإصلاح الأوروبي لإنعدام كل صلة بين المبادئ الأوروبية وبين مبادئ الدولة العثمانية المستمدة من كتاب الله وسنة رسولهﷺ[(٤)].

عزل السلطان عبدالعزيز:

كان السلطان عبدالعزيز قد زار أوروبا، ورأى اتفاق وتآمر الدول الأوروبية على الدولة العثمانية، فحاول أن يستفيد من الخلاف القائم على المصالح بين دول أوربا الغربية

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٥٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٥٩.

(٣)انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٥٩.

(٤) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبدالهادي، ص١١٠.

وروسيا لمصلحة الدولة العثمانية، فبدأ يكثر من دعوة السفير الروسي، إلى استانبول فخافت الدول الأوروبية، وبدأت تشيع الشائعات عنه في التبذير والإسراف[١] واستطاع مدحت باشا أن يعزله ثم قام مع عصابته بقتله في عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)[٢].

إن مدحت باشا كان من يهود الدونمة روجت له الدعاية الماسونية في أنحاء الشرق العربي والغربي على أنه البطل العظيم حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية، وسمته (أبو الدستور). وسخر له أبواب دعايتها من صحف ومجلات وإذاعات، فوصل بذلك إلى أعلى الرتب منها باشوية سوريا والعراق، ومنصب الصدر الأعظم الذي يعتبر أكبر الرتب في السلطنة العثمانية. ثم بدأ بعد ذلك يدس ويخرب كما تملي عليه يهوديته وماسونيته، ويغمز دائماً بالتعاون مع الماسونية إلى مساوئ الحكم وخاصة حكم السلطان عبدالحميد عدو الماسونية الأكبر - الذي لم يترك ثقباً من بصيص أمل لليهود في فلسطين إلا وسده، ثم أسس (مدحت باشا (ويهود الدونمة الماسونية العالمية حوله (جمعية الاتحاد والترقي (التي حملت نفس شعار الماسونية وجعلت مقرها بسلانيك وانكشفت جوانب من هذا اليهودي للسلطان عبدالحميد فألقى القبض عليه وعزله ونفاه فيما بعد[٣].

كان سبب مقتل السلطان عبدالعزيز :

- رفضه للدساتير الغربية برمتها، وكذلك العادات الغربية البعيدة عن البيئة الإسلامية، وتمكنه من إصلاح أحوال الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة، وخاصة في المجال العسكري، حيث قوى الجيش، واستبدل الأسلحة القديمة بأخرى حديثة، واستورد مايلزم من السلاح من أفضل مصانع السلاح في أوربا، ووضع التنسيقات العسكرية على الطراز الحديث، وشكّل الفرق العسكرية لأبناء العشائر والقبائل من كافة الولايات، وسلح القلاع والحصون بأضخم وأحدث المدافع، فأصبحت مدفعية الدولة العثمانية يضرب بها المثل في

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١١٠

(٢)المصدر السابق نفسه ص١١٠.

(٣) انظر: اليهود والماسونية لبعدالرحمن الدوسري، ص٧٦، ٧٠.

التقدم، وأصلح دار المدفعية (الطوبخانة (وأدخل فيها المعدات والآلات الحديثة، حتى صار بإمكانها صنع كافة الأسلحة على الطراز الجديد، كما قام بإصلاحات في مجال البحرية وأحل الخبراء العثمانيين محل الخبراء الأجانب رغم اعتراض هؤلاء ودولهم، وأصبحت في عهده الدولة العثمانية من الدول البحرية الأولى في العالم، وعمل على إرسال البعثات البحرية إلى الخارج، واشترى المدرعات، وشيد عدة معامل لصنعها ولصنع الآلات والمراجل، وعادت دار صناعة (إزميت (إلى ما كان لها من مجد، كما أصلح الكثير من أحواض السفن، وأسس مجلة الأحكام العدلية، وعمل على احقاق الحق، وحوكم كبار الحكام، أمثال (خسرو باشا (و (عاكف باشا (و (طاهر باشا (وبذلك ظهر للعموم حبّه للعدل والإصلاح وهذا لايرضي الدول الأوروبية ولاتقبل به لأنها تريد أن يسود الظلم حتى تنهار الدولة بسرعة وقام بإصلاحات مالية، وأمر بوضع ميزانية منضبطة وألغيت القوائم المالية، وسوّت بذلك الدولة جميع ديونها، وأصبحت المعاملة بالنفوذ وانتظمت الأحوال المالية، لقد هال الدول الأوروبية رؤية ماحدث على يد هذا السلطان في وقت قصير، فتعرقلت مخططاتهم في القضاء على الرجل المريض، لذا رأوا تدبير مؤامرة خلعه ثم قتله[١] إن جذور المؤامرة في مقتل السلطان عبدالعزيز ترجع إلى تخطيط مدروس من قبل القناصل وممثلي الدول الأوروبية في العاصمة العثمانية وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممن تشربوا بأفكارهم من رجال الدولة وعلى رأسهم صنيعة الماسونية المدعو مدحت باشا[٢] الذي اعترف أثناء محاكمته باشتراكه في عزل وقتل السلطان عبدالعزيز، وهذا أمر معروف تاريخياً ومدّون في الوثائق[٣].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص٢٠٦،٢٠٥.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص٢٠٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٠٨.

المبحث الحادي عشر

السلطان مراد الخامس

(١٢٩٣هـ) ومدة ولايته ٩٣ يوماً

هو ابن السلطان عبدالمجيد ولد في ٢٥ رجب من عام ١٢٥٦هـ الموافق ١٨٤٠م وارتقى منصب الخلافة في ٧ جمادي الأولى من عام ١٢٩٣هـ[١].

كان على جانب كبير من الذكاء والثقافة التركية والغربية، كما أبدى اهتماماً بالأدب والعلوم والشؤون الأوروبية، وزار أوروبا والتقى ببعض الأوروبيين، وانخرط في سلك الماسونية، وكان على اتصال بنامق كامل أحد أعضاء الحركة وغيره، وكان ميالاً إلى الدستور والليبرالية والعلمانية[٢] وكانت الحركة الماسونية هي التي دفعت به إلى السلطنة ولكنه أصيب باضطراب عقلي بعد أن أصابته الدهشة والفزع عند إيقاظه بعد منتصف الليل عند خلع السلطان عبدالعزيز ولما بلغه مقتل حسن الجركسي ظهرت عليه اضطرابات عصبية أثرت على جهازه الهضمي. وكانت صحته في تدهور مستمر في الوقت الذي كان مدحت باشا يحاول إعلان الدستور الوضعي بدلاً من الشرع أثناء مرضه ويدرس القوانين والنظم الغربية ويتصل بأعوانه حتى استطاع إعداده بشكل جاهز وقد قيل إنّ جنون السلطان ظهر للناس بشكل واضح فكان لابد من خلعه وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام عام ١٨٧٦م وكان نص الفتوى : (إذا جن إمام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهدته؟ الجواب: يصح والله أعلم: كتبه الفقير حسن خير الله عفي عنه (٣) وبعد عزله تعافى من مرضه العقلي، وأمضى باقي حياته في قصر (جراغان (حتى توفي عن عمر يناهز الرابعة والستين[٤] لقد أثر الشباب من أعضاء

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص٢٠٩.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٧٨،١٧٧.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون ، ص٢٠٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢١٠.

جمعية الاتحاد والترقي على مراد الخامس، فانتسب إلى المحفل الماسوني، وأدمن شرب الخمر وتشبع بالأفكار العلمانية والفلسفية الغربية[1] وقد قال عنه السلطان عبدالحميد : (كان من طبيعته أن ينخدع لمن يبتسمون في وجهه، دون أن يفكر في المعقول وغير المعقول، حتى أنه بسبب ذلك لم يكن يخطر على باله، عدم لياقة اشتراكه، وهو خليفة المستقبل، في المحفل الماسوني، وتقدير المصيبة التي ستنجم عن ذلك، وقد استطاع بعض الأشخاص، ممّن يدعون أنهم أنصار التجديد أن يحرّضوه على إدمان الخمر، وزيّنوا له جوانب نستخف بها في الحياة الأوروبية)[2].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢١٠.

(٢) انظر : والدي السلطان عبدالحميد ، ص١٧٨.

الفصل السادس

عصر السلطان عبدالحميد

المبحث الأول

السلطان عبدالحميد

(١٢٩٣-١٣٢٦هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)

السلطان عبدالحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. إذ ولد في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م).

ماتت والدة السلطان عبدالحميد وهو في العاشرة من عمره فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه وكانت عقيماً. فأحسنت تربيته وحاولت أن تكون له أم، فبذلت له من حنانها كما أوصت بميراثها له. وقد تأثر السلطان عبدالحميد بهذه التربية وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادئ، وكان لهذا انعكاس على شخصيته طوال عمره.

تلقى عبدالحميد تعليماً منتظماً في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علماً وخلقاً. وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية ، ودرس التاريخ وأحب الأدب، وتعمق في علم التصوف، ونظم بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية[1].

وتدرب على استخدام الاسلحة وكان يتقن استخدام السيف، وإصابة الهدف بالمسدس، ومحافظ على الرياضة البدنية، وكان مهتماً بالسياسية العالمية ويتابع الأخبار عن موقع بلاده منها بعناية فائقة ودقة نادرة.

---

(١) انظر: السطان عبدالحميد الثاني، محمد حرب، ص٢٦.

أولاً : زيارته الى أوروبا مع عمه السلطان عبدالعزيز:

قام السلطان عبدالعزيز بزيارة أوروبا يرفقه وفد عثماني رفيع المستوى وكان من ضمنه الأمير عبدالحميد الذي ظهر أمام الأوروبيين بملابسه البسيطة وسيرته الحميدة في العفة[1] وقد استعد الأمير عبدالحميد لهذه الرحلة بمطالعات واسعة، فإنه كان دقيقاً في رؤيته، وفي حكمه على الأشياء التي رآها في الغرب، ولقد التقى الوفد العثماني بساسة ذلك العصر في أوروبا مثل: نابليون الثالث في فرنسا، والملكة فكتوريا في إنجلترا، وليوبلد في الثاني في بلجيكا، وغليوم الأول في ألمانيا، وفرنسوا جوزيف في النمسا[2] وقد سبقت تلك الرحلة زيارته مع السلطان عبدالعزيز الى مصر وانتبه أثناء وجوده في مصر الى الزيف الكاذب للبريق الأوروبي والأخذ هناك بالشكليات الأوروبية ، مما جعل مصر تستدين وتغرق في الديون، نتيجة انطلاق الوالي الخديوي اسماعيل باشا في إسرافه ومحاولته جعل مصر قطعة من أوروبا ، وأما رحلته الى أوروبا فقد استغرقت من ٢١ يونيو الى ٧ أغسطس من عام ١٨٦٧م. زار الوفد العثماني: فرنسا وإنكلترا وبلجيكا والدولة النمساوية المجرية.

وفي هذه الرحلة الأوروبية ، تفتح ذهن عبدالحميد الى أمور كثيرة، انعكست على فترة حكمه كلها بعد ذلك. وهذه الأمور هي :

١- الحياة الأوروبية بكل مافيها من طرق معيشة غريبة وأخلاقيات مختلفة وشكليات.

٢- التطور الصناعي والعسكري وبخاصة في القوات البرية الفرنسية والألمانية وفي القوات البحرية البريطانية.

٣- ألاعيب السياسة العالمية.

٤- تأثير القوى الأوروبية على سياسة الدولة العثمانية، وبخاصة تأثير نابليون

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٣.

الثالث على عمه السلطان عبدالعزيز، وضغط نابليون عليه، ليلتزم بمساندة الوزير علي باشا. رغم أن السلطان عبدالعزيز لم يكن يشعر أحداً أنه تحت تأثير أي قوة غريبة[1].

اقتنع الأمير عبدالحميد في هذه الرحلة : أن فرنسا دولة لهو، وإنكلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة. أما ألمانيا فيه دولة نظام وعسكرية وإدارة وكان إعجابه بألمانيا كثيراً، لذلك عهد بتدريب الجيش العثماني إليها -عندما أصبح سلطاناً- ولقد تأثر الأمير عبدالحميد بهذه الرحلة ودفعه ذلك التأثر الى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياة: تعليمية وصناعية ووسائل إتصالات وعسكرية، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: شراؤه غواصتين وكان سلاح الغواصات جديداً. وأدخل التلغراف الى بلاده من ماله الخاص، وأنشأ المدارس الحديثة، وأدخل فيها العلوم العصرية، وأدخل الى البلاد اول سيارة وأول دراجة، وأخذ بنظام القياس المتري. لكنه وقف بحزم ضد سريان الفكر الغربي في البلاد[2].

أثرت رحلة عبدالحميد الى أوروبا أيضاً في اتباعه سياسة استقلالية تجاه أوروبا. ولم يعرف عن عبدالحميد تأثير أي حاكم أوروبي عليه، مهما كانت صداقته ومهما كانت درجة التقارب بين بلده وبين الدولة العثمانية.

ولفت انتباه عبدالحميد أثناء هذه الرحلة الحوار الذي كان يجريه فؤاد باشا الصدر الأعظم العثماني مع بعض الزعماء الأوروبيين:

سئل فؤاد باشا أثناء هذه الرحلة : بكم تبيعون جزيرة كريت؟

فرد الباشا قائلاً: (بالثمن الذي اشتريناها به). وكان يعني بذلك : أن العثمانيين حاربوا في سبيل الحفاظ على جزيرة كريت ٢٧ عاماً كلها حروب.

وسئل فؤاد باشا ايضاً: (ماهي أقوى دولة في العالم الآن؟).

فرد قائلاً: (أقوى دولة الآن هي الدولة العثمانية. ذلك لأنكم تهدمونها من

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٥٦.

(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني ص ٥٧.

الخارج ونحن نهدمها من الداخل. ولم يستطع كلانا هدمها)[1].

تعلم عبدالحميد من هذا درس القدرة على إسكات القوى التي تود تحطيم الدولة العثمانية. وتعلم ذكاء الحوار السياسي وهو مابرع فيه بعد ذلك.

وكان عمر عبدالحميد أثناء هذه الرحلة ٢٥ عاماً[2].

ثانياً: بيعته للخلافة وأعلان الدستور:

بويع بالخلافة بعد أخيه مراد ، يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣هـ ٣١ أغسطس ١٨٧٦م. وكان عمره آنذاك اربعاً وثلاثين سنة، وحضر لمبايعته الوزراء والأعيان وكبار الموظفين من مدنيين وعسكريين في سراي طوبقبو. وهنأه بالخلافة كذلك رؤساء الطوائف المختلفة، وأطلقت المدافع بسائر أطراف السلطنة احتفالاً بهذه المناسبة. واقيمت الزينات بجميع جهات استانبول ثلاثة أيام وأرسل الصدر الأعظم برقيات الى دول العالم لإعلامها بذلك[3].

وكان السلطان عبدالحميد قد عين مدحت باشا صدراً أعظم، ثم أعلن في ٢٣ ديسمبر (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) الدستور الذي يضمن الحريات المدنية وينص على مبدأ الحكومة البرلمانية.

هذا الدستور ، كان البرلمان يتكون من مجلسين: مجلس النواب أو المبعوثان ثم مجلس الأعيان أو الشيوخ[4].

وقد تعرض السلطان عبدالحميد في بداية حكمه الى استبداد الوزراء واشتداد سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد والتي كانت تضم النخبة المثقفة

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٥٨.

(٢) انظر: السلطان عبدالحميد ، ص٥٨.

(٣)انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، ص١٨٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٧٨.

التي تأثرت بالغرب , التي استطاعت الأيدي الماسونية تجندهم لخدمة أهدافها، وقد بلغ من استبداد الوزراء بالحكم، أن كتب مدحت باشا، وهو في مقام الرئاسة لنخبة العثمانيين الجدد، الى السلطان عبدالحميد في أول عهده بالعرش (١٨٧٧م): (لم يكن غرضنا من إعلان الدستور إلا قطع دابر الاستبداد، وتعيين مالجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات، وتعيين وظائف الوزراء، وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم، حتى تنهض البلاد الى مدارج الارتقاء، وإني أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة..)[1].

ويقول السلطان عبدالحميد في هذا: (ولقد وجدت مدحت باشا ينصب نفسه آمراً ووصياً عليَّ. وكان في معاملته بعيداً عن المشروطية (الديمقراطية) وأقرب الى الاستبداد)[2].

وكان مدحت باشا وأصحابه من الماسون يدمنون الخمر قال السلطان عبدالحميد في مذكراته: (..ومن المعروف أن أحرار ذلك العهد من شعراء وأدباء اجتمعوا مساء يوم صدور مرسوم القانون الأساسي في قصر مدحت باشا، لا ليتحدثوا في أمور الدولة ، بل في أمور السكر والعربدة، وهم يحتسون الخمر، ومدحت باشا يدمن الخمر منذ شبابه ومشهور عنه هذا والتقت نشوة الخمر بالنشوة التي بعثها إعلان القانون الاساسي وعندما نهض مدحت باشا من على مائدة الأكل خرج مستنداً على أذرع الآخرين حتى لا يقع على الأرض. وبينما كان يغسل يديه قال لزوج أخته طوسون باشا وهو يؤرجح لسانه في فمه (بتأثير الخمر).

- ياباشا! من يستطيع الآن، وبعد كل ما وصلت إليه أن يبعدني عن منصبي؟! من ؟! قل لي كم عاماً سأبقي في الصدارة العظمى؟

رد عليه طوسون باشا قائلاً:

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٥٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٦٠.

- إذا بقيتم على هذا الحال، فليس أكثر من أسبوع[1]!

لقد كان مدحت باشا في مجالس الخمر الخاص به يفشي أدق اسرار الدولة وكانت هذه الأسرار تنتشر في اليوم التالي بين أهالي استانبول. وفي إحدى الليالي تحدث مدحت باشا عن عزمه على إعلان الجمهورية في الدولة العثمانية وأنه سيصبح رئيساً للجمهورية العثمانية الجديدة ثم إمبراطوراً لها. تماماً مثلما حدث مع نابليون الثالث بفرنسا)[2].

وكان مدحت باشا متهماً بقتل السلطان عبدالعزيز وشكل السلطان عبدالحميد لجنة للتحقيق في ذلك ثم قدم المتهمون الى المحكمة التي أدانتهم وحكم على مدحت باشا بالإعدام وتدخل السلطان عبدالحميد وخفض الحكم الى السجن ثم نفي الى الحجاز حيث مقر السجن العسكري هناك.

كان الدستور ينص على فصل السلطات من حيث الشكل لا المضمون، كما أن التغييرات التي طرأت على نظام الحكم طبقاً له كانت من قبيل التطور، فلم يفكر أحد في تقليص حق السلطان في السيادة، كما نص الدستور على أن شخص السلطان مصون لا تمس، وانه لايسأل أمام أحد عن أعماله، ومن ثم كان الدستور مرتهنا بشخصه[3]. فله وحده حق تعيين وإقالة الوزراء، كما انه هو الذي يعقد المعاهدات ويعلن الحرب ومعاهدات الصلح، وهو القائد العام للقوات المسلحة ومن حقه كذلك إصدار كافة القوانين في شتى المجالات دون الرجوع الى البرلمان. وهكذا ظل السلطان عبدالحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م) يتمتع بالسلطة التي سبق لأسلافه أن تمتعوا بها، بحيث إن مدحت باشا ذاته كان أول الضحايا. كما أن الصلاحيات الواسعة التي منحها الدستور للسلطان حدت من سلطة رئيس الوزراء بحيث لم يتيح له أن يلعب سوى دور ثانوي في تسيير دفة الحكم[4].

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، محمد حرب، ص٧٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٧٧.

(٣) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص٢٣٤.

(٤) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص٢٣٤.

ونص الدستور على حرية اعضاء البرلمان في إبداء آرائهم وفي التصويت، وكان لايمكن محاكمتهم إلا إذا تجاوزوا حدود قوانين المجلس، وحدد الدستور اللغة التركية العثمانية بإعتبارها اللغة الرسمية للدولة التي يجري بها الحديث في كل الجلسات، كما نص أن يكون التصويت سرياً او علنياً بحسب الظروف، وعلى أن يقر مجلس النواب الميزانية دون تدخل من جانب السلطان بعكس الحال فيما يتعلق بالقوانين العادية.

وأما بالنسبة لحقوق الأفراد فقد أعلن الدستور أن العثمنة هي السياسة الرسمية للدولة في إطار مبدأ المساواة الذي نصت عليه التنظيمات فقد خلع الدستور صفة العثمانية على كل رعايا الدولة ايا كان دينهم، ونص على تمتعهم بالحرية الشخصية، وعلى تساوي كل العثمانيين أمام القانون وعلى منحهم نفس الحقوق مع إلزامهم بنفس الواجبات. ونص الدستور كذلك على استقلال القضاء وأبقى على المحاكم الشرعية على أن يلجأ غير المسلمين لمحاكم الملل في المسائل المتعلقة بشؤونهم الدينية[(١)].

وقد أمر السلطان عبدالحميد بأن يوضع الدستور موضع التنفيذ، وبأن تجرى انتخابات عامة، كانت الاولى من نوعها في التاريخ العثماني ، وقد أسفرت تلك الانتخابات على تميثل المسلمين بـ(٧١) مقعداً والنصارى بـ(٤٤) مقعداً واليهود بـ(٤) مقاعد واجتمع أول برلمان عثماني في ٢٩ مارس عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) وكان مجلس الأعيان والشيوخ يتكون من ٢٦ عضواً بالتعيين من بينهم ٢١ مسلماً، في حين كان مجلس النواب يتكون من مائة وعشرين عضواً. وقد قام بعض نواب العرب بدور هام خلال المناقشات، غير أن مجلس المبعوثان كانت مدته قصيرة، فقبل أن يتم المجلس دورة انعقاده الثانية، طلب النواب في ١٣ فبراير عام ١٨٧٨م (١٢٩٦هـ) أن يمثل ثلاثة من الوزراء أمام المجلس للدفاع عن أنفسهم من الاتهامات الموجهة إليهم، فما كان من السلطان عبدالحميد إلا أن عطل المجلس وأمر بعودة النواب الى بلادهم، وقام بنفي وإبعاد البارزين منهم[(٢)].

وبذلك بلغت مدة انعقاد المجلس خلال دورته الأولى والثانية عشرة شهور

---

(١) انظر: الدولة العثمانية ، د. اسماعيل ياغي ، ص١٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٨١.

وخمسة وعشرين يوماً ولم يدع هذا المجلس للاجتماع ثانية لمدة ثلاثين عاماً، لم تفتح خلالها قاعة المجلس ولا مرة واحدة[1].

لقد كان السلطان عبدالحميد مضطراً في إعلان الدستور بسبب الضغوطد التي مارسها عليه الماسون بقيادة مدحت باشا ولذلك عندما اتحيت له الفرصة قام بتعطيل المجلس.

إن عبدالحميد الثاني كان ضد الديمقراطية والحكم بالدستور الذي يعرف في المصطلح العثماني باسم (المشروطية(أي الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطاته، على اعتبار أن هذا فكر وافد من الغرب ولذلك كان ضد المنادين به ورائدهم مدحت باشا وانتقد وزيره هذا بقوله: (لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوروبا، لكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى. أقراص السلفات لاتصلح لكل مرض ولكل بنية. وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بيئة قومية. كنت أظن أنها مفيدة أما الآن : فإني مقتنع بضررها([2]).

كان للسلطان حججه في هذا، منها سوء تصرف المنادين بالدستور في أول استجابة للسلطان لأفكارهم. من ذلك:

أن طلبت الحكومة من السلطان في وقت إعلان السلطان للدستور ، أن يوقع على بعض قرارات منها تعيين ولاة نصارى في ولايات، أغلب السكان من المسلمين ، وعلى قرار ، بقبول طلبة من النصارى في الكلية الحربية العثمانية التي هي عماد الجيش العثماني . فرفض السلطان التوقيع فما كان من مدحت باشا -وهو الوزير- إلا أن قال للسلطان: (إن مقصدنا من إعلان الدستور أن ننهي استبداد القصر، ويجب على جلالتكم أن تعرف واجباتكم)[3].

ومن الأسباب التي يسوقها السلطان عبدالحميد في رفضه للفكر الدستوري قوله:

---

(١) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري ، ص٩٩-١٠٠.

(٢) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، محمد حرب، ص٨٠.

(٣) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٩٥.

(إن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوباً شتى، والمشروطية في دولة كهذه موت العنصر الأصلي في البلاد، وهل في البرلمان الانكليزي نائب هندي واحد؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد؟)[1].

ولم يغير السلطان عبدالحميد موقفه تجاه الحكم الدستوري ، في دولته حتى بعدأن عزل عن العرش، وأخذ الناس يمارسون الحكم الدستوري، فيقول : (ماذا حدث عندما أعلنت المشروطية؟ هل قلت الديون؟ هل كثرت الطرق والموانئ والمدارس؟ هل أصبحت القوانين الآن أكثر تعقلاً ومنطقاً؟! وهل ساد الأمن الشخصي؟ هل الأهالي الآن أكثر رفاهية؟ هل تناقصت الوفيات وزاد المواليد؟ هل أصبح الرأي العام العالمي الآن بجانبنا أكثر من ذي قبل؟ الدواء النافع يصبح سماً زعافاً إذا كان في يد غير الأطباء. أو في أيدي من لا يعرفون أصول استعماله، وإني لجد آسف فالأحداث قد أظهرت صدق كلامي)[2].

ويبين السلطان عبدالحميد بأن موقفه ليس دائماً تجاه الحكم الدستوري، فالظروف التي كان يحكم فيها، إذا اختلفت، فستختلف وجهة نظره في الحكم الدستوري.

وفي هذا يقول : (ينبغي ألا يظن أن فكري واقتناعي دائماً ضد الحكم الذي يعتمد على أصول المشروطية) [3].

إن السلطان عبدالحميد مر عصره بظروف عصيبة، وازمات شديدة، وتآمر عالمي على الدولة العثمانية من الداخل والخارج فشرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الاسلامية لمنع التدخل الأوروبي في شؤون الدولة وحرص على تطبيق الشريعة الاسلامية وقام بإبعاد الكتاب والصحفيين عن العاصمة وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الاسلامية المجيدة في ولايات الدولة واستطاع أن يشكل جهاز استخباراتي قوي لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه في الخارج واهتم بفكرة الجامعة الاسلامية وحقق بها نتائج عظيمة واهتز الأوروبيون من هذا التفكير الاستراتيجي

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٩٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٩٦

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٩٦.

العميق وعملوا على تفتيتها.

لقد تكلم السلطان عبدالحميد عن جهاز مخابراته وبين الغرض منه فقال : (حسب العرف العثماني، يتعرف السلطان على تفكير الرعية وشكواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته وقضاته من جانب ، وعن طريق التكايا المنتشرة في ربوع البلاد بمشايخها ودراويشها من جانب آخر، فيجمع كل هذه الأخبار ويدير البناء عليها.

جدي السلطان محمود الثاني وسع دائرة مخابراته بإضافة الدراويش الرحل إليها. كان ذلك عندما ارتقيت العرش، وعلى ذلك استمر.

علمت ذات يوم من موسوروس باشا، سفيرنا في لندن، أن الصدر الأعظم السابق، السرّ عسكر حسين عوني باشا، تسلم نقوداً من الانكليز. إذا كان الصدر الاعظم وهو يحكم البلاد باسم السلطان يخون دولته، فإن مخابراته لابد أن تبلغ القصر على أنه يؤدي عمله على الوجه الأكمل ، لذلك تكدرت وتأثرت في أثناء تلك الايام قابلني محمود باشا، وأدلى إلي ببعض معلومات عن بعض أعضاء (تركيا الفتاة(، وكانت الاخبار التي قدمها لي هامة. سألته عن طريق حصوله عليها، فعرفت أنه أنشأ مخابرات خاصة، واحتوى بالنقود أقارباً لبعض الأشخاص من (تركيا الفتاة(، وهؤلاء كانوا يقابلون أقاربهم ويسمعون منهم ثم يخبرونه، فيدفع لهم.

صحيح أنه زوج أختي، إلا أنه لايصح أن يقيم احد باشوات الدولة مخابرات مستقلة عن مخابرات الدولة. قلت له أن يحل جهازه هذا فوراً، وإلا يعاود العمل بمثل هذا الأمر مرة أخرى، أحال إليّ جهازه هذا، وهو متضايق كثيراً.

لايمكن للدولة أن تكون آمنة، إذا تمكنت الدول الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصاً في درجة وزير أعظم.

بناءً على هذا قررت إنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرة، وهذا هو الجهاز الذي يسميه أعدائي بالجورنالجية (الشرطة السرية = المخابرات).

وكان ضرورياً ان اعرف ان بين أعضاء جهاز الجورنالجية (المخابرات) المخلصين الحقيقيين اشخاصاً مفترين، لكني لم أصدق ولم آخذ بأي شيء يأتي من هذا الجهاز مطلقاً

دون تحقق دقيق.

كان جدي السلطان سليم (سليم الثالث) يصيح قائلاً: (إن أيدي الأجانب تتجول فوق كبدي، وعلينا أن نرسل السفراء الى الدول الأجنبية لنقل أساليب التقدم الأوروبي وعلينا إرسال الرسل الى الخارج، ولنعمل سريعاً على تعلم ماوصلوا إليه.

كنت أحس أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنما في داخله. إنهم يشترون صدروي العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي. كيف يحدث هذا وهم الذين انفقت عليهم من خزانة الدولة ولا أستطيع معرفة ما يعملونه وما يديرون ويعدون؟

نعم، أنا أسست جهاز الجورنالجيه (المخابرات). وأنا أدرته.

متى حدث هذا؟

بعد أن رأيت صدروي العظام يرتشون من الدول الأجنبية مقابل هدم دولتهم والتآمر على سلطانهم أسست هذا الجهاز لا ليكون أداة ضد المواطن، ولكن لكي يعرف ويتعقب هؤلاء الذين خانوا دولتي في الوقت الذي كانوا يتسلمون فيه رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الذي كانت النعمة العثمانية تملؤهم حتى حلوقهم[١]!!

لقد وجهت للسلطان عبدالحميد انتقادات عنيفة من قبل جمعية الاتحاد والترقي بسبب جهاز الاستخبارات الذي شكلته وفي الحقيقة إن ذلك الجهاز استطاع أن يحقق ايجابيات كبيرة للدولة العثمانية فعندما (.. كان مثيرو الشغب والإرهابيون يثيرون الأرمن للتمرد ضد الدولة العثمانية كان الجنود يتصدون لهم وتراق دماء كثيرة .. كان جهاز السلطان عبدالحميد -خلال ثلاثين سنة- يخبر السلطان فور ظهور كل حركة ولذلك تمكن السلطان من اخماد كل تمرد داخلي في حينه[٢].

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، ص١٦٠.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٨٩.

ثالثاً: تمردات وثورات في البلقان:

قام سكان الجبل الأسود والصرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج عن الدولة العثمانية وكان ذلك في عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) واستطاع العثمانيون أخمادها، ورغب السلطان عبدالحميد في منع الدول الأوروبية من التدخل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية ، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة في الضرائب بين المسلمين والنصارى .. ولم يرض ذلك السكان، فعادوا الى الثورة التي قمعت ايضاً، ولكن النمسا التي كانت وراء الثورة وترغب في ضم البوسنة والهرسك إليها استمرت في تحريض السكان ضد الدولة العثمانية، فعملت النمسا مع روسيا وألمانيا وفرنسا وانكلترا على الطلب من السلطان بالقيام بإصلاحات فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة لم يتقبلوا بذلك. وهذا يدل على المطالبة بالإصلاحات ليست سوى مبررات واهية، وحقيقة الأمر أنهم يريدون التدخل في شؤون الدولة بشكل مباشر وغير مباشر لإضعافها والإطاحة بها[1].

كما قامت ثورة البلغار في نفس الوقت الذي قام فيه نصارى البوسنة والهرسك بثورتهم بدعم من النمسا والدول الأوروبية وخاصة روسيا، فقد تأسست جمعيات في بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسي بين النصارى الأرثوذكس والصقالبة، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح، وتبذل هذه الجمعيات بدورها جهدها لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك، وتحرضهم على الثورة ضد العثمانيين. وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية احتج البلغار على ذلك، فقاموا بثورة وساعدتهم روسيا والنمسا بالسلاح والأموال، فتمكنت الدولة العثمانية من القضاء على الثورة، فأخذت الدول الأوروبية تثير الشائعات عن المجازر التي ارتكبها العثمانيون ضد النصارى والعكس هو الصحيح وبهذه الشائعات اثير الراي العام الأوروبي ضد الدولة العثمانية، وطالبت الحكومات الأوروبية بإتخاذ إجراءات صارمة ضد العثمانيين ومنها الحصول البلغار على استقلال ذاتي وتعيين

---

(١)انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٨٩.

حاكم نصراني لهم[1].

وقام الروس والألمان والنمساويون بدفع الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، وكانت روسيا ترغب في توسيع حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمي الصرب والجبل الأسود بالدعم. وشرع الجنود الروس بالتدفق سراً على بلاد الصرب، والجبل الأسود، وتمكنت الدولة العثمانية من الانتصار على الصرب وحلفائهم، فتدخلت الدول الأوروبية وطلبت وقف القتال وإلا فالحرب الواسعة[2].

واجتمع مندوبوا الدول الأوروبية في استانبول وقدموا اقتراحات للدولة من أهمها: تقسيم بلاد البلغار الى ولايتين ويكون ولاتها من النصارى، وأن تشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات، وأن تعطى هذه الامتيازات لإماراتي البوسنة والهرسك أيضاً، وأن تتنازل الدولة عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود.

ولكن الدولة العثمانية رفضت هذه القرارات، وعقدت صلحاً منفرداً مع الصرب سحبت نتيجته جيوشها من بلاد الصرب، وأن يرفع العلم العثماني والصربي دليلاً على السيادة العثمانية[3].

لقد كان السلطان عبدالحميد الثاني على يقين من أن هدف الدول الغربية هو السعي لسقوط الدولة العثمانية حيث قال في مذكراته: (رأيت أثناء مؤتمر الدول الكبرى الذي عقد في استانبول ماعزمت عليه هذه الدول، وهي ليست كما يقولون تأمين حقوق الرعايا المسيحيين بل تأمين الاستقلال الذاتي لهؤلاء الرعايا. ثم العمل على استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية.

كانوا يعملون على تقسيم هذا الهدف على صورتين:

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٨٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٩٠.

(٣) انظر: الدولة العثمانية، ص١٩٠.

الأولى: إثارة الأهالي المسيحيين، وتعكير صفاء الجو، وبهذا تتصدى هذه الدول لحمايتهم.

والثانية: القول بالمشروطية، لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصاراً يستخدمونهم في كلا الغايتين، وبكل أسف كان على خبز العدو شيء من السمن. فلم يستطع بعض الشباب العثماني المثقف أن يفرق بين التطبيق السهل والحكم الدستوري في بلاد تتمتع بوحدة قومية، وبين تعذر هذا الحكم في الدول التي لاتتمتع بوحدة قومية[1].

رابعاً: الحرب الروسية العثمانية:

كانت روسيا ترغب في الوصول الى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية وقد نص (بطرس الأكبر) (١٦٢٧-١٧٢٥م) في وصيته للروس (في الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة) على ضرروة الصراع الحضاري ضد العثمانيين، الى أن تنتهي الدولة العثمانية من الوجود.

يقول (بطرس الأكبر) في الفقرة التاسعة من وصيته:

(نقترب من القسطنطينية والهند بقدر الإمكان فمن يملك القسطنطينية فقد ملك العالم. بناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيين).

وفي الفقرة الحادية عشرة يقول: (نشارك النمسا فيما قصدناه من إخراج العثمانيين من أوروبا).

وفي الفقرة الثالثة عشرة يقول: (وبعد التسلط على الممالك العثمانية، نجمع جيوشنا وتدخل أساطيلنا بحر البلطيق والبحر الأسود ونشرع في التفاوض مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة العالم بيننا)[2].

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، ص١٤٥.

(٢) انظر: التحفة الحليمية، ابراهيم حلمي بك، ص٢٤.

إن روسيا أهتمت بتلك الوصية وفي عصر السلطان عبدالحميد الثاني كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوروبية في البلقان واليونان وغيرها من الاقاليم العثمانية ولم تكتفي بذلك بل عملت على قيام دول نصرانية مستقلة مثل رومانيا، وبلغاريا والصرب واليونان وبعد أن حقق العثمانيون انتصارات رائعة في البلقان استعدت روسيا للحرب ثم أعلنتها حرب لاهوادة فيها ضد الدولة العثمانية وانضمت رومانيا الى روسيا ودخل العثمانيون في حرب طاحنة مع الروس، وعبرتُ الجيوش الروسية نهر الدانوب واستولت على بعض المدن التابعة للعثمانيين ومنها (تيرنوه) و(نيقولبلي بل) التي تقع في بلغاريا حالياً كما استولى الروس على بعض النقاط المهمة والمعابر المؤدية الى البلقان، وقام السلطان عبدالحميد بتغيير كبير في قيادات الجيوش العثمانية للتصدي للغزو الروسي، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة (بلفنه) التي تقع في بلغاريا حالياً وهي من أهم المعابر الى البلقان، ولكن القائد العثماني الشجاع الغازي (عثمان باشا) تصدى لهم بكل شجاعة ، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة ومع ذلك نجح ذلك القائد العثماني الفذ في التصدي للروس مرة أخرى، مما جعل السلطان العثماني يصدر مرسوماً خاصاً في الثناء على ذلك القائد[1].

وأمام هذا الصمود حاول الروس التغيير من سياستهم في الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإمدادات من الوصول الى الجيوش العثمانية فيها، وفي الوقت نفسه عززوا قواتهم وحضر القيصر الروسي بنفسه على المعركة القادمة وانضم أمير رومانيا الى روسيا وكان معه ١٠٠ ألف مقاتل، فأصبحت الكفة العسكرية في صالح الروس، حيث تجاوز عددهم ١٥٠ ألف مقاتل ففرضوا حصاراً على ثلاثة خطوط على القوات العثمانية، ومع هذا فإن العثمانيين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الابطال، ورغم أن عددهم كان قرابة ٥٠ ألف مقاتل، فإنهم لم يكتفوا بذلك الصمود، بل أعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إما النصر وفك الحصار عنهم أو الشهادة.

وقاد عثمان باشا قواته التي انحدرت على الأعداء وهم يهللون ويكبرون ، فسقطت

---

(١) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٤١٨.

أعداد منهم شهداء على أيدي قوات الروس، ومع ذلك فقد تمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين والخط الثاني، واستولوا على المدافع فيه، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث فسرت إشاعة قوية بين جنده باستشهاده ففت ذلك في عضدهم، وحاولوا الرجوع الى المدينة، ولكن بعض قوات الروس أصبحت بداخلها، وبذلك أصبح الجند العثمانيون في العراء بين نيران العدو المختلفة، فأضطروا الى الاستسلام للقوات الروسية. وكان ذلك في عام ١٢٩٤هـ أواخر سنة ١٨٧٧م، وقد سلم القائد العثماني نفسه وهو جريح الى الروس الذين كانوا معجبين به ويشيدون بشجاعته وإقدامه[1]، حتى أن القائد العام للقوات الروسية قام بتهنئة عثمان باشا على دفاعه الرائع وأعاد له سيفه احتراماً لقدرته القتالية وصبره. وارسل عثمان باشا الى روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام ١٨٧٧م، واستقبله القيصر بكل مراسم الاحترام ولم يعامل (عثمان باشا(معاملة الأسير[2].

وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب في البلقان على التحرك ضد العثمانيين وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فأشغلتهم عن الروس، الذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال مناطق جديدة. وبالفعل تمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة رومانيا حالياً) ولم يكتف الروس بهذا ، بل توجهوا جنوباً ناحية العاصمة العثمانية القديمة، ووصلوا الى مواقع لاتبعد سوى خمسين كيلومتراً عن استانبول ، وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئاً الى أبعد الحدود.

وفي الوقت نفسه كانت تجري العديد من المعارك بين العثمانيين والروس في الجانب الآسيوي حيث وصل الروس الى الأناضول ، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة احمد مختار باشا على الروس في أكثر من ست معارك، مما جعل السلطان عبدالحميد يصدر مرسوماً في الثناء عليه، وقد عاود الروس الهجوم في تلك المناطق مرة أخرى وتمكنوا سنة ١٢٩٥هـ من

---

(١) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٤١٩.

(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٤١.

إنزال الهزائم بالقوات العثمانية والاستيلاء على بعض المناطق في الأناضول نفسها[1].

وأمام تلك الهزائم العثمانية في أوروبا وفي آسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول في هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستيفاس عام ١٨٧٨م.

عقدت هذه المعاهدة في ٣ مارس عام ١٨٧٨م. ووقعها (صفوت باشا(عن الدولة العثمانية وهو يبكي. وكان لابد بالضرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية[2].

معاهدة سان ستفانو ١٥ فبراير ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ):

قدم المندوب الروسي شروطاً مسبقة، وطلب التوقيع عليها مباشرة وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل استانبول ، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع. وتنص المعاهدة :

تعيين حدود للجبل الأسود لإنهاء النزاع، وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال.

تستقل إمارة الصرب وتصاف إليها أراضي جديدة.

تستقل بلغاريا استقلالاً ذاتياً إدارياً، وتدفع مبلغاً محدداً الى الدولة العثمانية ويكون موظفو الدولة والجند من النصارى فقط. وتعيين الحدود بمعرفة العثمانيين والروس. وينتخب الأمير من قبل السكان ويخلي العثمانيون جنودهم نهائياً من بلغاريا.

تحصل دولة رومانيا على استقلالها التام.

يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن والنصارى من الأكراد والشركس.

يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت.

---

(١) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٤١٨.

(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٤٤.

تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية قدرها ٢٤٥ مليون ليرة ذهبية، ويمكن لروسيا أن تتسلم أراضي مقابل هذا المبلغ.

تبقى المضائق (البسفور والدردنيل) مفتوحة للسفن الروسية في السلم والحرب.

يمكن للمسلمين في بلغاريا أن يهاجروا الى حيث يريدون من أجزاء الدولة العثمانية[١].

وهكذا جرى تفتيت أملاك الدولة في أوروبا، وإن يكن تكبير بلغاريا قد أثار سخط الدول البلقانية الأخرى: النمسا، اليونان، والصرب، كما استاءت بريطانيا لازدياد النفوذ الروسي في البلقان واستعدت لمحاربة روسيا وحصلت من الدولة العثمانية على حق احتلال جزيرة قبرص (يونيو ١٨٧٨م) وإدارتها على أن تبقى تابعة للدولة العثمانية، وذلك في مقابل تعهدها بالدفاع عن أملاك الدولة في آسيا في وجه أي مزيد من التهديدات الروسية، بشرط أن يتعهد السلطان من جانبه بإدخال الإصلاحات اللازمة في أملاكه الآسيوية بالتشاور مع بريطانيا ، وقد تعاهدت بريطانيا بالجلاء عن قبرص في حالة جلاء الروس عن المناطق التي احتلوها في آسيا[٢].

لم يكن السلطان عبدالحميد راضياً في الأصل بدخول هذه الحرب لذلك لم يصدق على المعاهدة وقام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة، حتى أقنع بريطانيا في الوقوف بجانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستفانوه من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، لكي تصرف روسيا النظر عن الحرب، واستطاع تحقيق مكاسب للدولة، وقللت البنود الخسائر في المعاهدة الأولى.

ودلت أحداث المعاهدتين على عبقرية السلطان عبدالحميد السياسية، التي تمثلت في إحداث النفور بين دولة روسيا ودولة المانيا ايضاً[٣].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٩٣،١٩٢.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٩٣.

(٣) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٤٥.

يقول الامبراطور الألماني (غليوم الثاني(في مذكراته:

(جرى لي حديث مع أحد كبار القواد الذين ألحقوا بخدمة البلاط القيصري في عهد (الكسندر الثاني(قيصر روسيا، عن العلاقات بين البلاطين الروسي والألماني وبين الجيشين والبلدين فقلت لهذا القائد: إني أرى انقلاباً محسوساً في هذه العلاقات. فقال لي: (الذنب في ذلك على مؤتمر برلين ! تلك غلطة كبرى ارتكبها (بسمارك(فقد قضى على الصداقة القديمة التي كانت بيننا، وأزال الثقة بألمانيا من البلاط الروسي ومن الحكومة الروسية. وجعل الجيش يشعر بانه جنى عليه جناية عظمى بعد الحرب الدموية التي خاض غمارها عام ١٨٧٧م)[1].

مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م):

حضر ذلك المؤتمر الدول الكبرى (انكلترا، فرنسا، ألمانيا والنمسا) ، وجرى البحث في هذا المؤتمر تعديل معاهدة سان ستفانو التي عقدت بين روسيا والدولة العثمانية، وذلك لمعارضة الدول المعنية لهذه المعاهدة لأنها لاتتفق مع مصالحها الاستراتيجية .. واتفق المؤتمرون على تعديل معاهدة سان استفانو وعقدت معاهدة برلين والتي تناولت الشروط التالية:

١- استقلال بلغاريا وتعديل في حدودها، وتتشكل في جنوب البلقان ولاية باسم الروملي الشرقي تكون تحت سيادة الدولة العثمانية سياسياً وعسكرياً، ويحكمها نصراني، يعين لمدة خمس سنوات باتفاق الدولة وتبقى قوة لروسيا في بلغاريا والروميللي الشرقي وتحدد بخمسين الف جندي.

٢- تقدمت حدود اليونان قليلاً الى الشمال مع العلم بأن اليونان لم تدخل في موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان استفانو أي جزء منها.

٣- ضم البوسنة والهرسك للنمسا.

٤- ضم بسارابيا الى روسيا بعد إقتلاعها من رومانيا، وتضم مقاطعة دوبرجيه

---

(١) انظر: مذكرات غليوم الثاني، ص١٨-١٩.

وبعض الجزر الى رومانيا ومنحها الاستقلال التام.

٥- استقلال الصرب والجبل الاسود.

٦- ضم مدن قارص وردهان وباطوم لروسيا.

٧- قرر المؤتمر الإبقاء على الغرامة الحربية التي قررتها معاهدة سان استفانو على الدولة العثمانية ومقدارها ٢,٥ مليار ليرة ذهبية.

٨- تعهد الباب العالي بأن يقبل بلا تمييز في الدين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم.

٩- الموافقة على تحسين أوضاع النصارى في جزيرة كريت(١).

وكان المستشار الألماني بسمارك هو الذي دعا الى عقد المؤتمر خشية أن يؤدي تصدي بريطانيا الى روسيا الى نشوب حرب أوروبية عامة وتهديد الاتحاد الألماني الذي جاهدكثيراً من أجل قيامه، فإنه دعا الدول العظمى الى المؤتمر في برلين لمراجعة صلح سان استفانو وتسوية نتائج الحرب التركية الروسية(٢).

وقد ذكر بعض المؤرخين(٣) أن في كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم الإمبراطورية العثمانية على مذبح السلام الأوروبي، فعرض على بريطانيا مصر وعلى فرنسا تونس والشام وعلى النمسا البوسنة والهرسك وعلى روسيا البوغازين (البسفور والدردنيل) وغير ذلك من أملاك السلطان. غير أن هذه العروض لم تدرج في مقررات المؤتمر(٤).

وهكذا فإن مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الامبراطورية العثمانية التي أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها. كما أنه يسجل تعهد بريطانيا

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٩٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٩٥.

(٣) الدكتور اسماعيل ياغي، وأحمد مصطفى عبدالرحيم.

(٤) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص١٩٥.

وفرنسا بالمحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية. غير أن بريطانيا وفرنسا قد كشفتا عن نواياهما الاستعمارية ، فقد احتلت فرنسا تونس عام (١٢٩٩هـ/١٨٨١م) نظير احتلال بريطانيا لقبرص واحتلت بريطانيا مصر عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) معلنة أن احتلالها مؤقت[١].

وهكذا كانت النتيجة من الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ولمواجهة هذه الأوضاع المتردية كان على السلطان أن يتخذ لقب الخلافة لمواجهة التحديات الجديدة، وعمل على إنشاء الجامعة الاسلامية لكي يعمل على تكتل كافة المسلمين من حوله في الداخل والخارج.

ولاشك أن حركة الجامعة الاسلامية قد لاقت استحساناً وقبولاً لدى المسلمين الذين اعتقدوا أن ضعف الدولة العثمانية مرجعه ضعف الشعور الديني عند المسلمين ، الأمر الذي دفع فيه أعداء الاسلام للزحف على دار الاسلام ونهبها بلداً تلو الآخر[٢].

---

(١) انظر : الدولة العثمانية، د. اسماعيل ياغي، ص١٩٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٩٦.

المبحث الثاني

الجامعة الاسلامية

لم تظهر فكرة الجامعة الاسلامية، في معترك السياسة الدولية إلا في عهد السلطان عبدالحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبدالحميد عرش الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م. فبعد أن التقط السلطان عبدالحميد أنفاسه وجرد المتأثرين بالفكر الأوروبي من سلطاتهم، وتولى هو قيادة البلاد، قيادة حازمة اهتم السلطان عبدالحميد بفكرة الجامعة الاسلامية وقد تكلم في مذكراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الاسلامية بين كل مسلمي العالم في الصين والهند وأواسط افريقيا وغيرها، وحتى ايران وفي هذا يقول: (عدم وجود تفاهم مع ايران أمر جدير بالتأسف عليه وإذا أردنا أن نفوت الفرصة على الانجليز وعلى الروس فإنا نرى فائدة تقارب إسلامي في هذا الأمر)[1] وتحدث عن علاقة الدولة العثمانية بإنجلترا التي تضع العراقيل أمام الوحدة العثمانية يقول عبدالحميد الثاني: (الإسلام والمسيحية نظرتان مختلفتان ولايمكن الجمع بينهما في حضارة واحدة) لذلك يرى أن (الأنجليز قد أفسدوا عقول المصريين، لأن البعض أصبح يقدم القومية على الدين. ويظن أنه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوروبية، وإنجلترا تهدف من نشر الفكر القومي في البلاد الاسلامية الى هز عرشي .. وأن الفكر القومي قد تقدم تقدماً ملموساً في مصر. والمثقفون المصريون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبة في يد الانجليز إنهم بذلك يهزون اقتدار الدولة الاسلامية ويهزون معها اعتبار الخلافة)[2].

ويقول عن السياسة الانجليزية تجاه الخلافة: (قالت صحيفة ستاندرد الانكليزية مانصه: (يجب أن تصبح الجزيرة العربية تحت الحماية الانكليزية، ويجب على انكلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدسة) .. إن إنجلترا تعمل لهدفين : إضعاف تأثير الاسلام وتقوية نفوذها وبالتالي . لذلك أراد الانجليز أن يكون الخديوي في مصر خليفة للمسلمين

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد ، ص٢٣.

(٢) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد ، ص٢٣.

ولكن ليس هناك مسلم صادق واحد يقبل أن يكون الخديوي أميرا للمؤمنين لأنه بدأ دراسته في جنيف وأكملها في فيينا وتطبع بطابع الكفار)[1].

وعندما ظهر اقتراح انكلترا (لإعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة المسلمين)[2] ويعترف السلطان عبدالحميد الثاني بأنه لم يكن لدية الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوروبية . ولكن الدول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفهم من الخلافة جعلهم يتفقون على إنهاء الدولة العثمانية)[3]، و(أن الدولة العثمانية تضم أجناساً متعددة من أتراك وعرب وألبان وبلغار ويونانيين وزنوج وعناصر أخرى، ورغم هذا فوحدة الاسلام تجعلنا أفراد أسرة واحدة)[4].

ويُعبر عبدالحميد الثاني عن ثقته في وحدة العالم الاسلامي بقوله: (يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة. ووقتها لم يحن بعد لكنه سيأتي. سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه يحطمون رقبة الكفار)[5].

كانت فكرة الجامعة الاسلامية في نظر السلطان عبدالحميد يمكن بها أن يحقق أهدافا منها:

-مواجهة أعداء الاسلام المثقفين بالثقافة الغربية، والذين توغلوا في المراكز الادارية والسياسية الحساسة، في أجهزة الدول الاسلامية عموما، وفي أجهزة الدولة العثمانية خصوصاً، عند حدهم، عندما يجدون أن هناك سداً إسلامياً ضخما وقويا يقف أمامهم.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٤.

(٤) مذكرات السلطان عبدالحميد، ص٢٤.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص٢٤.

- محاولة إيقاف الدول الاستعمارية الأوروبية وروسيا، عند حدها عندما تجد أن المسلمين ، قد تكتلوا في صف واحد، وقد فطنوا الى أطماعهم الاستعمارية ووقفوا ضدها بالوحدة الاسلامية.

- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية، يحسب له حسابها في مواجهة الغزو الثقافي والفكري والعقدي الروسي الأوروبي النصراني.

- تأخذ الوحدة الاسلامية الجديدة دورها في التأثير على السياسة العالمية[1].

- تستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة قوتها وبذلك يمكن إعادة تقويتها، وتجهيزها بالأجهزة العلمية الحديثة، في الميادين كافة وبذلك تستعيد هيبتها وتكون درساً تاريخياً. يقول : (إن العمل على تقوية الكيان السياسي والاجتماعي الاسلامي، افضل من إلقائه أرضاً، وتكوين كيان غريب فكريا واجتماعيا على نفس الأرض)[2].

- إحياء منصب الخلافة، ليكون أداة قوية، وليس صورياً كما حدث لفترة . وبذلك لا يكون السلطان وحده فقط هو الذي يقف في مواجهة أطماع الغرب وعملائه في الداخل، وإنما هي وحدة شعورية بين شعوب المسلمين جميعاً. يكون هو الرمز والموجّه والموحّد.

والى هذا اشار المؤرخ البريطاني (آرنولد توينبي) في قوله: (إن السلطان عبدالحميد ، كان يهدف من سياسته الاسلامية، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لايعني إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين)[3].

ولذلك استخدم السلطان عبدالحميد ، كل الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت، من اتخاذ الدعاة من مختلف جنسيات العالم الاسلامي، من العلماء والمبرزين، في مجالات السياسة، والدعاة الذين يمكن أن يذهبوا الى أرجاء العالم الاسلامي المختلفة، للالتقاء

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٦٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٦٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٦٩.

بالشعوب الاسلامية وفهم ماعندهم وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السلطان الخليفة ونشر العلوم الاسلامية، ومراكز الدراسات الإسلامية، في الداخل والخارج، وطبع الكتب الاسلامية الأساسية، ومحاولة اتخاذ اللغة العربية لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية، لغة للدولة أو مايسمى بالتعبير المعاصر (تعريب) الدولة العثمانية، والعناية بالمساجد والجوامع من تجديد وترميم وبناء الجديد منها، والقيام بحملات تبرع لإحياء المساجد في العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، واستمالة زعماء القبائل العربية، وإنشاء مدرسة في عاصمة الخلافة، لتعليم أولاد رؤساء العشائر والقبائل، وتدريبهم على الإدارة ، واستمالة شيوخ الطرق الصوفية، والاستفادة من الصحافة الاسلامية في الدعاية للجامعة الاسلامية، واتخاذ بعض الصحف وسيلة للدعاية لهذه الجامعة، والعمل على تطوير النهضة العلمية والتقنية في الدولة العثمانية، وتحديث الدولة فيما هو ضروري[١].

ولقد ألتفت مجموعة من العلماء ودعاة الأمة الاسلامية الى دعوة الجامعة الاسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومصطفى كامل من مصر، وأبي الهدى الصيادي من سوريا، وعبدالرشيد إبراهيم من سيبريا، والحركة السنوسية في ليبيا وغيرها.

أولاً: جمال الدين الأفغاني والسلطان عبدالحميد:

أيد جمال الدين الأفغاني ، دعوة السلطان عبدالحميد الى الجامعة الاسلامية وقدم مشروعات أكبر بكثير من طموح السلطان. ولم يكن السلطان يأمل في أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الاسلامية ، ووحدة حركة بينهما. وهي وحدة شعورية عملية، في نفس الوقت، تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة لكن الأفغاني عرض على السلطان مشروعاً، يرمي الى توحيد أهل السنة مع الشيعة وكانت نظرة السلطان عبدالحميد لا ترمي في هذا الصدد أكثر من توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمي[٢].

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٧٢.

(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٨١.

واستفاد السلطان عبدالحميد كثيراً من الأفغاني، في الدعاية الى الجامعة الاسلامية، رغم الاختلاف بين فكر السلطان وفكر الأفغاني ، ومن أسباب الاختلاف:

إيمان الأفغاني بقضية وحدة المسلمين، وتأييده في نفس الوقت للثوار ضد السلطان عبدالحميد ، من القوميين الأتراك والعثمانيين عامة.

دعوة الأفغاني لوحدة الشعوب الإسلامية، بحيث تكون كالبنيان الواحد، وبقلب واحد ، في مواجهة الدول الأوروبية الرامية الى تقسيم الدولة العثمانية العاملة على انهيارها ، وفي نفس الوقت، لم يتعرض الأفغاني للاستعمار الفرنسي، ولو بكلمة تنديد. في وقت احتاج فيه السلطان عبدالحميد الى مقاومة الفرنسيين في شمال أفريقيا(١) .

تنديد جمال الدين بالاستعمار الإنكليزي في حين يذكر السلطان عبدالحميد أن المخابرات العثماينة، حصلت على خطة أعدت في وزارة الخارجية الانكليزية، واشترك فيها جمال الدين الأفغاني وبلنت الانكليزي وتقضي هذه الخطة بإقصاء الخلافة عن السلطان عبدالحميد وعن العثمانيين عموماً. وبلنت هذا سياسي إنكليز ي يعمل في وزارة الخارجية الانكليزية، ومؤلف كتاب (مستقبل الاسلام(ودعا فيه صراحة الى العمل على نزع الخلافة من العثمانيين، وتقليدها للعرب وقد رد مصطفى كامل باشا زعيم الحركة الوطنية في مصر على (بلنت(في كتاب مصطفى كامل باشا المشهور (المسألة الشرقية) قائلاً: (وبالجملة فإن حضرة مؤلف كتاب مستقبل الاسلام يرى -وماهو إلا مترجم عن آمال بني جنسه- أن الأليق بالاسلام أن ينصب أنكلترا دولة له بل إن الخليفة يجب أن يكون إنكليزيا)(٢) .

رغم الأطماع الروسية والحروب الروسية ، ضد الدولة العثمانية واقتطاع الروس لأجزاء من الأراضي العثمانية، فقد كان موقف السيد جمال الدين الأفغاني من مبدأ التوسع الروسي غريباً على مفهوم الجامعة الاسلامية، لأنه يعترف بما للروس من مصالح حيوية وإستراتيجية في الهند، تدفعهم لاحتلالها. وأن ليس لدى الافغاني اعتراض على هذا الاحتلال إذا حدث، بل ينصح الروس باتباع أسلم السبل وأسهلها لتنفيذه، وذلك بأن

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٨٢.

(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٨٣.

يستعينوا بدولة فارس، وبلاد الأفغان ، لفتح أبواب الهند، شريطة أن تسهمهما في الغنيمة وتشركهما في المنفعة.

الخلاف العقدي الذي ظهر بين العلماء في استانبول وبين جمال الدين الأفغاني وظهور كتاب الشيخ (خليل فوزي الفيليباوي) المعنون (السيوف القواطع) للرد على عقيدة الأفغاني وسكوت الأفغاني عن هذا ، وعدم دفاعه عن نفسه. والكتاب باللغة العربية، ومترجم وقتها الى اللغة التركية.

مال السلطان عبدالحميد، الى تركيز كل السلطات في يده بعد أن ذاق الأمرين من وزرائه وضباط جيشه وصدروه العظام المتأثرين بالفكر الغربي ، والذين هدفوا الى إقامة ديمقراطية أوروبية، تضم مجلساً منتخباً يمثل كل شعوب الدولة العثمانية، ومعارضة السلطان عبدالحميد لهذا بحجة أن عدد النواب المسلمين سيكون حوالي نصف العدد الكلي للبرلمان. في حين أن جمال الدين الأفغاني يميل الى الديمقراطية، وعدم تركيز السلطات في يد شخص واحد بعينه، وميل الأفغاني الى الحرية في التعبير عن الرأي[1].

ولقد ذكر السلطان عبدالحميد في مذكراته بأن جمال الدين الأفغاني مهرج وله علاقة بالمخابرات الإنكليزية: (وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنكليزية مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنكليزي يدعى بلنت قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الاتراك. واقترحا على الانكليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين.

كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب. كان في مصر، وكان رجلاً خطيراً. اقترح عليّ ذات مرة -وهو يدعي المهدية- أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى. وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا. وكان رجل الانكليز ، ومن المحتمل جداً أن يكون الانكليز قد أعدوا هذا الرجل لاختباري فرفضت فوراً ، فاتحد مع بلنت.

استدعيته الى استانبول عن طريق أبي الهدى الصيادي الحلبي ، الذي كان يلقي الاحترام في كل البلاد العربية.

قام بالتوسط في هذا كل من منيف باشا، حامي الأفغان القديم ، والأديب الشاعر

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني. ص١٨٤.

عبدالحق حامد. جاء جمال الدين الأفغاني الى اسانبول، ولم أسمح له مرة أخرى بالخروج منها..)[1].

أما راي جمال الدين الأفغاني في السلطان عبدالحميد فإنه يقول : (إن السلطان عبدالحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصاً في تسخير جليسه، ولا عجب إذا رأيناه يذلل لك مايقام الملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضيا عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعاً بحجته سواء من ذلك الملك والأمير والوزير والسفير..)[2].

وقال : (ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك، مخرجاً وسلماً، وأعظم ماادهشني ، ماأعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل ، كي لاتتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لايمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها)[3].

ويقول: (أما مارأيته من يقظة السلطان ورشده وحذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة الذي فيه نهضة المسلمين عموماً، فقد دفعني الى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك، عالماً علم اليقين ، أن الممالك الاسلامية في الشرق لاتسلم من شراك أوروبا، ولا من السعي وراء اضعافها وتجزئتها ، وفي الأخير ازدرائها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم..)[4].

إن جمال الدين الأفغاني أمره محير فهناك من يدافع عنه وهناك من يتهمه بالعمالة والإنضمام الى المحافل الماسونية فمثلاً، كتاب دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الاسلام للمؤلف مصطفى فوزي عبداللطيف غزال يرى أنه كان من عوامل الهدم في الأمة

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، ص ١٤٨.

(٢) انظر: جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبدالحميد، ص١٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٣٧.

(٤) انظر: جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، ص١٣٧.

في تاريخها الحديث، إما كتاب جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه للدكتور محسن عبدالحميد فيراه من المصلحين.

ثانياً : الطرق الصوفية:

استهدف السلطان عبدالحميد الطرق الصوفية في كسب ولائها للدولة العثمانية، والدعوة الى فكرة الجامعة الاسلامية، واستطاع أن يكون رابطة بين مقر الخلافة -استانبول- وبين تكايا ومراكز تجمع الطرق الصوفية في كل أنحاء العالم الاسلامي واتخذ من حركة التصوف في العالم الاسلامي وسيلة للدعاية للجامعة الاسلامية، كما اتخذ من الزهاد من غير المتصوفة وسيلة ايضاً للدعوة لفكر التجمع الاسلامي ، وتكونت في عاصمة الخلافة لجنة مركزية ، مكونة من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية حيث عملوا مستشارين للسلطان في شؤون الجامعة الاسلامية: الشيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشريفة في الحجاز، والشيخ (أبو الهدى الصيادي) شيخ الطريقة الرفاعية، والشيخ (محمد ظافر الطرابلسي) شيخ الطريقة المدنية، والشيخ رحمه الله أحد علماء الحرم المكي، كانوا أبرز أعضاء هذه اللجنة المركزية للجامعة الاسلامية، وكان معهم غيرهم، وكانت الدولة العثمانية تنتشر فيها هيئات فرعية في كافة الأقاليم خاضعة لهذه اللجنة ، ومن أهمها التي كانت في مكة تحت إشراف شريف مكة ومهمتها نشر مفهوم الجامعة الاسلامية في موسم الحج بين الحجاج، وأخرى في بغداد، وتقوم بنفس المهمة بين اتباع الطريقة القادرية، الذين يأتون بكثرة من الشمال الأفريقي لزيارة الشيخ عبدالقادر الكيلاني مؤسس الطريقة، وقد قدرت أعداد هؤلاء في إحدى السنوات بحوالي (٢٥,٠٠٠) نسمة. وكانت لجنة بغداد تمل على تهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الاسلامية ، ولمقاومة الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا ووصفت المخابرات الفرنسية ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشمال الأفريقي من بغداد، من أعمال ضد الفرنسيين وضد الاستعمار الفرنسي بأنها: (استفزازات بعض رجال الدين التابعين للطريقة القادرية)[1].

وللجنة المركزية للجامعة الاسلامية في استانبول، فرع أفريقي يعمل في شمال

---

(١) انظر : السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٩٦.

أفريقيا، وهو يعمل في سرية تامة، مهمته تنسيق العمل بين الجماعات الدينية هناك، لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وهذه الجماعات هي : (الشاذلية والقادرية والمدنية) [1].

وبلغ من نفوذ هذه الحركة وهيبتها: أن وصفتها إدارة المخابرات الفرنسية في شمال أفريقيا بقولها: (ويمكن للسلطان عبدالحميد -بصفته رئيساً للجامعة الاسلامية- أن يجمع من خلال ارتباطاته الوثيقة بالجماعات الدينية في شمال أفريقيا- جيشاً محلياً منظماً، يتمكن -إذا لزم الأمر- أن يقاوم به أي قوة أجنبية)[2].

ولم تستطع المخابرات الفرنسية أن تكشف وسائل التنظيم للطرق الصوفية التابعة للخلافة الاسلامية في شمال أفريقيا وكل ما استطاعت عمله، هو محاولتها إضعاف هيبة السلطان عبدالحميد في نفوس مسلمي شمال أفريقيا، ومحاولة هذه السلطات ضرب سياسة الجامعة الاسلامية. وذلك باتباع سياسة فرنسية تقوم على:

إغراء بعض شيوخ الطرق الصوفية بالمال وبالمركز، للوقوف مع فرنسا وسياستها في شمال أفريقيا.

منع الحجيج من الحج، حتى لايلتقوا بدعاة الجامعة الاسلامية بالسبل المناسبة. بمعنى : عدم إعلان منع الحج، واتخاذ أسباب صحية لتخويف الناس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا[3] وأرسل السلطان عبدالحميد مجموعة من الزهاد والمتصوفة الى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات الانكليزية الداعية الى سلب الخلافة من العثمانيين، لإعطائها الى العرب. واتصلت هذه القافلة أيضاً ببعض حكام الجزيرة العربية لاسيما الحجاز[4].

وهناك اتصالات بين السلطان عبدالحميد بوصفه رئيساً للجامعة الاسلامية ،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٩٧.

(٢) انظر : السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٩٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٩٨.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٩٨.

وخليفة المسلمين ، وسلطان الدولة العثمانية ، وبين تجمعات الطرق الصوفية وشيوخها في تركستان، وفي جنوب أفريقيا، وفي الصين. بعضها كشف عنها النقاب ، وأكثرها لم تكشف عنه الوثائق بشكل كافٍ بعد[١].

لقد نجح السلطان عبدالحميد الثاني في جمع الطرق الصوفية إلا أنه فضل السكوت عن كثير من انحرافاتها العقدية بحيث أن الطرق الصوفية في تلك المرحلة أنحرفت عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ إلا مارحم الله ولذلك أضعفت الأمة وساهمت في سقوط الخلافة الاسلامية العثمانية السنية سنبين ذلك بإذن الله تعالى في أسباب السقوط.

ثالثاً: تعريب الدولة:

كان السلطان عبدالحميد يرى منذ أن تولى الحكم ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة العثمانية. وفي هذا يقول: (اللغة العربية لغة جميلة. ليتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل. لقد اقترحت على (خير الدين باشا -التونسي- عندما كان صدراً أعظم أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر أعترض على اقتراحي هذا. وقال : (إذا عربنا الدولة فلن يبقى -للعنصر التركي- شيء بعد ذلك.

كان (سعيد باشا) رجلاً فارغاً، وكلامه فارغاً. مادخل هذه المسألة بالعنصر التركي؟! المسألة غير هذه تماماً. هذه مسألة ، وتلك مسألة أخرى إتخاذنا للغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه -على الاقل- أن يزيد ارتباطنا بالعرب)[٢].

إن السلطان عبدالحميد الثاني كان يشكو وخصوصاً في بداية حكمه من أن الوزراء وأمناء القصر السلطاني ، كانوا يختلفون عنه في التفكير ، وأنهم متأثرون بالغرب وبالافكار القوميةوالغربية وكانوا يشكلون ضغط على القصر ، سواء في عهد والده السلطان عبدالمجيد، وفي عهد عمه السلطان عبدالعزيز، أو في عهده هو. لم يقتصر الأمر في معارضة

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٩٨.

(٢) انظر:السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٩٩.

اقتراح السلطان عبدالحميد بتعريب الدولة العثمانية على الوزراء المتأثرين بالغرب فقط: بل تعداه الى معارضة من بعض علماءِ الدين[1].

إن من الأخطاء التي وقعت فيها الدولة العثمانية عدم تعريب الدولة وشعبها بلغة القرآن الكريم والشرع الحكيم.

يقول الاستاذ محمد قطب: (ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت، وتكلمت اللغة العربية التي نزل بها هذا الدين فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبث العابثين، فضلاً عما يتيحه تعلم العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما كان الحكام والعامة كلاهما في حاجة إليه، على الرغم من كل ماترجم الى التركية وما ألف أصلاً بالتركية حول هذا الدين)[2].

رابعاً: مراقبته للمدارس ونظرته للمرأة وسفور المرأة:

عندما تولى السلطان عبدالحميد السلطنة رأى أن المدارس، ونظام التعليم، أصبح متأثراً بالفكر الغربي، وأن التيار القومي: هو التيار السائد في هذه المدارس، فتدخل في شؤونها ووجهها من خلال نظرته السياسية الى الدراسات الاسلامية. فأمر بالآتي:

- استبعاد مادة الأدب والتاريخ العام من البرامج الدراسية لكونها وسيلة من وسائل الأدب الغربي، والتاريخ القومي للشعوب الأخرى مما يؤثر على أجيال المسلمين سلباً.
- وضع دروس الفقه والتفسير والأخلاق في برامج الدراسة.
- الاقتصار فقط على تدريس التاريخ الاسلامي بما فيه العثماني.

وجعل السلطان عبدالحميد مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية ووجهها

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٠٠.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٥٢.

لخدمة الجامعة الاسلامية[1].

وأهتم بالمرأة وجعل للفتيات داراً للمعلمات ومنع اختلاطهن بالرجال وفي هذا يذكر السلطان في معرض الدفاع عن نفسه أمام اتهام جمعية الاتحاد والترقي له بأنه عدو العقل والعلم بأنه : (لو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أفتح الجامعة؟ لوكنت هكذا عدواً للعلم ، فهل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال : داراً للمعلمات؟!)[2].

وقام بمحاربة سفور المرأة في الدولة العثمانية، وهاجم تسرب أخلاق الغرب، الى بعض النساء العثمانيات، ففي صحف استانبول في ٣ اكتوبر ١٨٨٢م ظهر بيان حكومي موجه الى الشعب يعكس وجهة نظر السلطان شخصياً في رداء المرأة.

يقول هذا البيان: (إن بعض النساء العثمانيات اللائي يخرجن الى الشوارع في الأوقات الأخيرة، يرتدين ملابس مخالفة للشرع. وإن السلطان قد ابلغ الحكومة بضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على هذه الظاهرة. كما أبلغ السلطان الحكومة ايضاً بضرورة عودة النساء الى ارتداء الحجاب الشرعي الكامل بالنقاب إذا خرجن الى الشوارع). وبناءً على هذا فقد اجتمع مجلس الوزراء واتخذ القرارات التالية:

- (تعطى مهلة شهر واحد يمنع بعده سير النساء في الشوارع إلا إذا ارتدين الحجاب الاسلامي القديم. وينبغي أن يكون هذا الحجاب خالياً من كل زينة ومن كل تطريز.

- يلغى ارتداء النساء النقاب المصنوع من القماش الخفيف أو الشفاف. وبالتالي ضرورة العودة الى النقاب الشرعي الذي لايبين خطوط الوجه.

- على الشرطة -بعد مضي شهر على نشر هذا البيان- ضمان تطبيق ماجاء فيه من قرارات بشكل حاسم، وعلى قوات الضبطية التعاون مع الشرطة في هذا.

- صدّق السلطان على هذا البيان بقراراته الحكومية.

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٠١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٩٩.

• ينشر هذا البيان في الصحف ويعلق في الشوارع)[1].

وفي اليوم التالي لنشر هذا البيان، أي في ٤ أكتوبر قالت جريدة (وَقِت) الصادرة في استانبول: (إن المجتمع العثماني عموماً يصوب هذا القرار ويراه نافعاً)[2].

وكان السلطان عبدالحميد يرى: (أن المرأة لا تتساوى مع الرجل من حيث القوامة) ويقول: (مادام القرآن يقول بهذا، فالمسألة منتهية ولا داعي للتحدث عن مساواة المرأة بالرجل).

ويرى: (إن فكرة هذه المساواة إنما جاءت من الغرب)[3].

كما كان يدافع عن تعدد الزوجات، في وقت كان الإعلام العثماني يثير هذه القضية معترضاً عليها. ويقول السلطان: (لماذا يعترض بعض المثقفين على هذا الأمر، ولماذا لايعترضون على وجوده في أماكن أخرى غير الدولة العثمانية، في بعض أماكن أوروبا وأمريكا؟) ويؤكد السلطان: إن مبدأ تعدد الزوجات مباح في الاسلام فماذا يعني الاعتراض عليه؟)[4].

لقد كان السلطان عبدالحميد مع تعليم المرأة ولذلك أنشأ داراً للمعلمات، لتخريج معلمات للبنات كما كان ضد الاختلاط بين الرجل والمرأة وضد سفور المرأة ولم يكن في عهده للمرأة راي في شؤون الدولة مهما كانت هذه الشؤون وإنما دور المرأة في البيت وتربية الأجيال وكان يعامل المرأة معاملة كريمة نادرة فهذه زوجة أبيه التي احتضنته وقامت بتربيته، عندما تولى السلطان العرش، أعلن زوجة ابيه التي ربته (والدة السلطان) بمعنى الملكة في المفهوم الحديث. وكانت الملكة في القصر العثماني، هي أم السلطان وليست زوجته كما في الدول الأخرى. ومع كل هذا، ففي اليوم التالي لتنصيب السلطان عبدالحميد على

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٠٠.

(٢) انظر: موسوعة أتاتورك (٥٩،٦٠/١).

(٣) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٠٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٠١.

عرش الدولة العثمانية، قابل زوجة أبيه وهي التي احبها حباً بالغاً، وقبل يدها وقال لها:

(بحنانك لم اشعر بفقد امي . وانت في نظري أمي لاتفترقين عنها. ولقد جعلتك السلطنة الوالدة. يعني أن الكلمة في هذا القصر لك. لكني أرجوك -وأنا مصر على هذا الرجاء- ألا تتدخلي بأي شكل من الأشكال في أي عمل من أعمال الدولة، كَبُرَ أم صغر)[1].

خامساً: مدرسة العشائر:

أنشأ السلطان عبدالحميد في استانبول ، باعتبارها مقر الخلافة ومركز السلطنة (مدرسة العشائر العربية) من أجل تعليم وإعداد أولا العشائر العربية، من ولايات حلب، وسورية ، وبغداد، والبصرة، والموصل، وديار بكر، وطرابلس الغرب واليمن، والحجاز، وبنغازي والقدس، ودير الزور.

وكانت مدة الدراسة في مدرسة العشائر العربية في استانبول خمس سنوات، وهي داخلية، تتكفل الدولة العثمانية بكل مصاريف الطلاب، ولكل طالب (إجازة صلة الرحم(وهي إجازة مرة كل سنتين. وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة:

وبرنامج مدرسة العشائر العربية، في استانبول كان كالآتي:

السنة الأولى: القرآن الكريم - الأبجدية - العلوم الدينية. القراءة التركية إملاء تدريب عسكري.

السنة الثانية : القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية. الإملاء. الحساب القراءة التركية - تحسين الخط، تدريب عسكري .

السنة الثالثة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - الإملاء حسن الخط- الحساب -الجغرافيا - الفرنسية - التدريب .

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٩٨.

السنة الرابعة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - الصرف العربي- اللغة الفارسية - الكتابة والنحو التركي - الجغرافيا - الحساب - حسن الخط الفرنساوي - التدريب.

السنة الخامسة: القرآن الكريم - التجويد - العلوم الدينية - النحو العربي- اللغة الفارسية - التاريخ العثماني - القواعد العثمانية - الكتابة والقراءة التركية - المكالمة التركية - الجغرافيا - الحساب - الهندسة - حسن الخط- المعلومات المتنوعة - حفظ الصحة - أصول إمساك الدفاتر - اللغة الفرنسية - حسن الخط الفرنساوي - الرسم - التدريب[1].

وكان المتخرجون من هذه المدرسة ، يدخلون المدارس العسكرية العالية. ويحصلون بعد ذلك على رتب عالية. كما يمكنهم كذلك أن يدخلوا المدرسة الملكية -وهي مدنية- يدرسون فيها سنة ويحصلون بعدها على رتبة قائمقام، ثم يعودون الى بلادهم[2].

كما أنشأ السلطان عبدالحميد (معهد تدريب الوعاظ والمرشدين) أقيم لإعداد الدعاة للدعوة الاسلامية، وللجامعة الاسلامية ثم يتخرجون فينطلقون الى مختلف أرجاء العالم الاسلامي يدعون للاسلام، ويدعون للخلافة، ويدعون للجامعة الاسلامية[3].

ولقد كانت نظرة السلطان عبدالحميد بعيدة وثاقبة ولذلك اهتم بمسلمين الصين.

خرجت الصحافة في استانبول ، بخبر مفاده أن عدد من مسلمي الصين متحمسون ، يحبون العلم ويرغبون الاستفادة من المعارف الاسلامية، وأن لديهم مؤسسات تعليمية

---

(١) انظر: تاريخ التربية التركية، عثمان أركين ،ص٦١٤-٦١٥،٨٤، ١١٨٢، ١١٨٠ على التوالي.

(٢)انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٠٢.

(٣) انظر: الانقلاب العثماني، مصطفى طوران، ص٣٧.

ومدارس، وأن في بكين وحدها ثمانية وثلاثين مسجداً وجامعاً، يؤدي المسلمون فيها الصلاة، ويدعون فيها للخليفة المسلمين السلطان عبدالحميد الثاني ، وأن خطبة الجمعة في مساجد وجوامع بكين تقرأ باللغة العربية، ثم تترجم الى اللغة الصينية، وأن الدعاء للسلطان عبدالحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكين فقط، بل ويمتد الى كل مساجد الصين وجوامعها[1].

تأسست في بكين عاصمة الصين جامعة أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم (دار العلوم الحميدية) نسبة الى السلطان الخليفة عبدالحميد الثاني، أو بتعبير السفير الفرنسي في استانبول اسم (الجامعة الحميدية في بكين) وذلك في تقرير له الى وزارة خارجيته في باريس.

وقد حضر افتتاح هذه الجامعة ، الآلاف من المسلمين الصينيين. وحضره ايضاً مفتي المسلمين في بكين ، والكثير من علماء المسلمين هناك.

وفي مراسم الافتتاح ، ألقيت الخطبة باللغة العربية، ودعا الخطيب للسلطان الخليفة عبدالحميد. وقام مفتي بكين بترجمة الخطبة والدعاء الى اللغة الصينية. و(بكى أغلب المسلمين الحاضرين بكاءً حاراً بدافع فرحتهم) و(إن مسلمي الصين مترابطون فيما بينهم ترابطاً واضحاً برباط الدين المتين. وإن إيراد الخطبة باللغة العربية لغة المسلمين الدينية، ورفع علم الدولة العثمانية على باب هذه الجامعة، قد أثر تأثيراً بالغاً في هؤلاء الناس الطيبي القلب، وحرك الدموع في اعينهم)[2].

سادساً: خط سكة حديد الحجاز:

عمل السلطان عبدالحميد على كسب الشعوب الاسلامية عن طريق الاهتمام بكل مؤسساتها الدينية والعلمية والتبرع لها بالأموال والمنح ورصد المبالغ الطائلة لاصلاح الحرمين وترميم المساجد وزخرفتها وأخذ السلطان يستميل إليه مسلمين العرب بكل

---

(١) انظر: جريدة ترجمان حقيقت رسالة من الصين ١٣٢٥/١٢/٢٦هـ.

(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٠٥.

الوسائل فكون له من العرب حرساً خاصاً وعين بعض الموالين له منهم في وظائف كبرى منهم (عزت باشا العابد) -من أهل الشام- الذي نجح في أن ينال أكبر حظوة عند السلطان عبدالحميد وأصبح مستشاره في الشؤون العربية. وقد لعب دوراً هاماً في مشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق الى المدينة المنورة وهو بهذا المشروع الذي اعتبره السلطان عبدالحميد وسيلة من والسائل التي أدت لأعلاء شأن الخلافة ونشر فكرة الجامعة الاسلامية.

وأبدى السلطان عبدالحميد اهتماماً بالغاً بإنشاء الخطوط الحديدية في مختلف أنحاء الدولة العثمانية مستهدفاً من ورائها تحقيق ثلاثة أغراض هي:

ربط أجزاء الدولة المتباعدة مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية والجامعة الاسلامية والسيطرة الكاملة على الولايات التي تتطلب تقوية قبضة الدولة عليها.

إجبار تلك الولايات على الاندماج في الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التي تنص على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في أية جبهة من الجبهات التي تتعرض للعدوان لأن مد الخطوط الحديدية ساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وإيصالها الى الجبهات[١].

وكانت سكك حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التي أنشأت في عهد السلطان عبدالحميد ففي سنة ١٩٠٠م بدأ بتشييد خط حديدي من دمشق الى المدينة للاستعاضة به عن طريق القوافل الذي كان يستغرق من المسافرين حوالي أربعين يوماً، وطريق البحر الذي يستغرق حوالي أثنى عشر يوماً من ساحل الشام الى الحجاز، وكان يستغرق من المسافرين أربعة أو خمسة أيام على الأكثر ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الخط مجرد خدمة حجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم الى مكة والمدينة وإنما كان السلطان عبدالحميد يرمي من ورائه أيضاً الى أهداف سياسية وعسكرية فمن الناحية

---

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، د. موفق بني المرجة، ص١١٣.

السياسية خلق المشروع في أنحاء العالم الاسلامي حماسة دينية كبيرة إذ نشر السلطان على المسلمين في كافة أنحاء الأرض بياناً يناشدهم فيه المساهمة بالتبرع لانشاء هذا الخط[1]، وقد افتتح السلطان عبدالحميد قائمة التبرعات بمبلغ (خمسين الف ذهباً عثمانياً من جيبه الخاص) وتقرر دفع (مائة الف) ذهب عثماني من صندوق المنافع، وأسست الجمعيات الخيرية وتسابق المسلمون من كل جهة للإعانة على إنشائها بالأنفس والأموال)[2].

وتبرع للمشروع الشخصيات الهامة في الدولة ، مثل الصدر الأعظم ووزير الحربية (حسين باشا) ووزير التجارة والأشغال (ذهني باشا)، ورئيس لجنة المشروعات (عزت باشا).

وتبارى موظفو الشركات في التبرع، مثل موظفي شركة البواخر العثمانية. وكذلك موظفو الدولة العموميين، والولايات مثل ولاية بيروت ودمشق وحلب وبورصة وغيرها.

وشارك القصر الحاكم في مصر، في حملة التبرعات، وشكلت في مصر لجنة الدعاية للمشروع وجمع التبرعات له برئاسة (أحمد باشا المنشاوي). كما شاركت الصحافة المصرية في حملة سكة حديد الحجاز بحماس ومثال على ذلك جريدة المؤيد. وجمعت جريدة (اللواء) المصرية تبرعات للمشروع بلغت حتى عام ١٩٠٤م ثلاثة آلاف ليرة عثمانية. وكان يرأسها مصطفى كامل باشا، كما جمع (علي كامل) مبلغ (٢٠٠٠) ليرة عثمانية للمشروع حتى عام ١٩٠١م.

وأسهم في هذه الحملة ، جريدة (المنار) وجريدة (الرائد المصري) وشكلت لجان تبرع للمشروع في كل من القاهرة والاسكندرية وغيرهما من مدن مصر.

وكان مسلموا الهند أكثر مسلمي العالم حماساً وعاطفة وتبرعاً للمشروع. وقد تبرع أمير حيدر اباد بالهند بإنشاء محطة المدينة المنورة في المشروع كما تبرع شاه إيران

---

(١) انظر : صحوة الرجل المريض، ص١١٣.

(٢) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٢٢.

بمبلغ (٥٠,٠٠٠) ليرة عثمانية.

ورغم احتياج المشروع لبعض الفنيين الأجانب في إقامة الجسور والأنفاق، فإنهم لم يستخدموا إلا إذا اشتدت الحاجة إليهم، مع العلم بأن الأجانب لم يشتركوا إطلاقاً في المشروع، ابتداءً من محطة الأخضر -على بعد ٧٦٠ كيلومتراً جنوب دمشق- وحتى نهاية المشروع. ذلك لأن لجنة المشروع استغنت عنهم واستبدلتهم بفنيين مصريين.

وبلغ عدد العمال غير المهرة عام ١٩٠٧م (٧٥٠٠) عاملاً. وبلغ إجمالي تكاليف المشروع (٤,٢٨٣,٠٠٠) ليرة عثمانية. وتم إنشاء المشروع في زمن وتكاليف أقل مما لو تعمله الشركات الاجنبية في أراضي الدولة العثمانية[(١)] وفي أغسطس سنة ١٩٠٨م وصل الخط الحديدي الى المدينة المنورة وكان مفروضاً أن يتم مده بعد ذلك الى مكة لكن حدث أن توقف العمل فيه لأن شريف مكة -وهو الحسين بن علي- خشي على سلطاته في الحجاز من بطش الدولة العثمانية فنهض لعرقلة مد المشروع الى مكة وكانت مقر إمارته وقوته. فبقيت نهاية الخط عند المدينة المنورة حتى إذا قامت الحرب الكبرى الأولى عمل الانكليز بالتحالف مع القوات العربية التي انضمت إليهم بقيادة فيصل بن الحسين بن علي على تخريب سكة حديد الحجاز ولا تزال هذه السكة معطلة حتى اليوم والمأمول أن تبذل الجهود لاصلاحها حتى تعود الى العمل في تيسير سفر حجاج بيت الله الحرام[(٢)].

وقد وصف السفير البريطاني في القسطنطينية في تقريره السنوي (١) العام ١٩٠٧م أهمية الخط الحجازي فقال: (إن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة عناصر بارزة في الموقف السياسي العام، أهمها خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الذي هو الرئيس الوحي للمسلمين ، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية، ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج الى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة). فلا غرو إذا ما لمسنا حنق الانكليز على ذلك الخط الحديدي وافتعالهم الأزمات

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٢٤.

(٢) انظر: صحوة الرجل المريض، ص١١٤.

لإعاقته، وانتهازهم أول فرصة لتعطيله ونسفه. لقطع الطريق على القوات العثمانية[١].

وكان أول قطار قد وصل الى محطة سكة الحديد في المدينة المنورة من دمشق الشام يوم ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٠٨م وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنسبة لمئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم كافة، فقد اختصر القطار في رحلته التي استغرقت ثلاثة أيام وقطع فيها ٨١٤ ميلاً مشقات رحلة كانت تستغرق في السابق اكثر من خمسة أسابيع كما خفقت في ذلك اليوم التاريخي قلوب أولئك الذين كانوا مشتاقين الى القيام بأداء فريضة الحج المقدسة[٢].

كانت سياسة عبدالحميد الاسلامية محضة، فاراد أن يجمع قلوب المسلمين حواليه باعتباره خليفة المسلمين جميعاً فكان مد خط السكة الحديدي بين الشام والحجاز من الوسائل الجميلة في تحقيق هدفه المنشود[٣].

كان كرومر المعتمد البريطاني في مصر (١٣٠١-١٣٢٥هـ/١٨٨٣-١٩٠٧م) من أوائل من الب أوروبا على الجامعة الاسلامية، وحرص على أن يتحدث في تقاريره السنوية عن الجامعة الاسلامية ببغض شديد وفي الوقت نفسه نشرت جريدة الأهرام (المصرية) تصريحات مثيرة لوزير فرنسي هو (هانوتو) هاجم فيها الجامعة الاسلامية . وكانت مهاجمة الجامعة الاسلامية تستتبع بالتالي بمهاجمة الدولة العثمانية حتى تتفرق الوحدة التي تجمع من حولها الدول الاسلامية لتواجه النفوذ الاستعماري الزاحف الذي قد رسم مخططه على أساس التهام هذه الوحدات والحيلولة دون إلتقائها مرة أخرى في أي نوع من الوحدة ليستديم سيطرته عليها[٤]، فاتخذوا لذلك عدة أعمال أساسية :

تعميق الدعوات الاقليمية والخاصة بالوطنية والأرض والأمة والعرق.

---

(١)

(٢) انظر: صحوة الرجل المريض، ص١١٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١١٤.

(٤) انظر: حاضر العالم الاسلامين، د.جميل المصري (١٠١/١).

خلف جو فكري عام لمحاربة الوحدة الاسلامية وتصفيتها.

وكل هذا مقدمة لإلغاء الخلافة العثمانية نهائياً وبالتعاون مع الصهيونية العالمية[1] ويهود الدونمة وأذنابهم من جمعيات تركيا الفتاة، والاتحاد والترقي،.. سياسة التودد والاستمالة!

انتهج السلطان عبدالحميد الثاني سياسة التودد الى الشخصيات ذات النفوذ في الأوساط الشعبية في مختلف البقاع، فهو من ناحية كان يظهر احترامه لأهل العلم، ويعلي من قدرهم، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ، ورتب رواتب أعضائه . وكان حسن النية مع مرشديهم، وكان أرباب العلم ذوي رتب عالية عنده، وكان يتودد الى الشخصيات المهمة والتي تشجع وتقف مع فكرة الجامعة الاسلامية، مثل (مصطفى كامل باش) في مصر، ويعفو عن أخطاء البارزين -إذا كانوا يحسنون النية معه، ماداموا مقتنعين ومساندين لفكرة الجامعة الاسلامية- مثل (نامق كمال).

وكان يختار بعض طلاب مدرسة العشائر العربية من أبناء العائلات الأصيلة العريقة ذات النفوذ والسطوة والسمعة الطيبة من أبناء زعماء العرب. وقد توسعت هذه المدرسة فيما بعد وأخذت من أبناء الأكراد والألبان وحرص على الاتصال بزعماء وشيوخ وأمراء قبائل العرب بواسطة الرسائل والرسل لتقوية روابط الود والمحبة والأخوة الاسلامية ، وكان على معرفة تامة بعمل الانجليز الذين اتصلوا بالشيوخ مثل (شريف مكة) و(الشيخ حميد الدين) في اليمن، وشيخ عسير وبعض شيوخ من أجل تحريضهم على الدولة العثمانية وتشجيعهم بالخروج على طاعة الخليفة، والانفصال عن الدولة العثمانية.

وعمل على إبطال مخططات الانكليز ومؤامراتهم الخبيثة، ولم يتوان عن حجز من يشك في ولائهم للدولة العثمانية ويلزمهم بالبقاء تحت رقابة الدولة في استانبول تحت مسميات المناصب والمرتبات، حتى تأمن الدولة مؤامراتهم ، كما فعل مع شريف مكة عندما عينه عضواً في مجلس شورى الدولة في استانبول ، ليمنعه من العودة الى مكة وقد

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/١٠١).

عبر السلطان عبدالحميد عن رأيه في الشريف حسين، أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا. قال السلطان عبدالحميد: (إن الشريف حسين لايحبنا. إنه الآن هادئ وساكن، لكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً). لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين الى مابعد خلع الاتحاديين للسلطان عبدالحميد.

فلما حكم حزب الاتحاد والترقي الماسوني، أعاد الشريف حسين الى مكة واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الانكليز ويحدث فجوة كبيرة بين مسلمي العرب والأتراك(١).

سابعاً: إبطاله مخططات الأعداء:

شرعت بريطانيا منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر في تحريض الأكراد ضد الدولة العثمانية، بهدف إيجاد عداء عثماني كردي من ناحية، وانفصال الأكراد بدولة تقتطع من الدولة العثمانية من ناحية أخرى.

وعندما قامت شركة الهند البريطانية زاد اهتمام الانكليز بالعراق، وقامت على العمل لإيجاد حركة قومية بين الاكراد وتجول مندوبون بريطانيون بين عشائر الاكراد في العراق في محاولة لتوحيد العشائر الكردية ضد الدولة العثمانية وكانت المخابرات العثمانية تتابع الأمور بدقة متناهية ووضع السلطان عبدالحميد خطة مضادة للعمل التدميري الانكليزي فقام بالتالي:

- قامت الدولة العثمانية بحماية المواطنين الأكراد من هجمات الأرمن الدموية ضدهم.

- أرسل الى عشائر الاكراد وفوداً من علماء المسلمين للنصح والإرشاد والدعوة الى الاجتماع تحت دعوة الجامعة الاسلامية ، وأدت هذه الوفود دورها في إيقاظ الأكراد تجاه الاطماع الغربية.

- اتخذ السلطان عبدالحميد إجراءات يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٢٧.

وبالدولة.

• أسس الوحدات العسكرية الحميدية في شرق الأناضول من الأكراد، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنية .

• كان موقف الدولة قويا ضد أطماع الأرمن في إقامة دولة تقطع من أراضيها، وبذلك شعر الأكراد المقيمون في نفس المنطقة بالأمان(١).

• عملت الدولة على كشف مخططات الانكليز الهادفة الى تفتيت الدولة العثمانية تحت مسمى حرية القوميات في تأسيس كل قومية دولة مختصة بها.

استطاع السلطان عبدالحميد أن يضيق على النفوذ البريطاني في اليمن ويحقق نجاحاً ظاهراً في صراعه مع الانكليز في تلك المنطقة، فقد انشأ فرقة عسكرية في اليمن قوامها ثمانية آلاف جندي، لإعادة اليمن الى الدولة العثمانية مرة أخرى ووصل اهتمامه باليمن الى إرسال مشاهير قادته ليقودوا هذه الفرقة مثل (أحمد مختار باشا) و(أحمد فوزي باشا) و(حسين حلمي باشا) و(توفيق باشا) والمشير (عثمان باشا)، و(اسماعيل حقي باشا) وقد حاول الانكليز إذكاء نيران التمرد في اليمن ضد الدولة العثمانية ولكن السياسة الحكيمة التي سار عليها السلطان عبدالحميد كفلت له النجاح في اليمن(٢).

وكانت العقلية العثمانية تسعى لمد خط سكة الحديد من الحجاز الى اليمن وهذا ماتثبته الوثائق العثمانية التي دلت على وجود تخطيط ودراسة عميقة لهذا المشروع الكبير(٣).

---

(١) انظر : السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٣٢-١٣٦.

(٢) انظر : السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٢٤.

(٣)

ثامناً: الاطماع الإيطالية في ليبيا:

كانت إيطاليا تحلم بضم شمال أفريقيا، لأنها تراه ميراث إيطالي هكذا صرح رئيس وزرائها (ماتريني)[1] . لكن فرنسا احتلت تونس وانكلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا.

رسمت إيطاليا سياستها في ليبيا على ثلاث مراحل:

الأولى: الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من (مؤسسات خدمية(.

الثانية: العمل على أن تعترف الدول بآمال إيطاليا في احتلال ليبيا ، بالطرق الدبلوماسية.

الثالثة: إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلي .

وكانت السياسة الإيطالية لاتلفت النظر الى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية في ذلك الوقت وكان الإيطاليون يتحركون (بحكمة' و(هدوء(شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

وكان السلطان عبدالحميد متيقضاً لتلك الأطماع الإيطالية وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط الإيطاليين في (ليبيا(وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: (إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية، سواء في ليبيا أو في البانيا، هدفاً أخيراً هو تحقيق أطماع إيطاليا في الاستيلاء على كل من :

١- طرابلس الغرب.

٢- البانيا.

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٣٨.

٣- مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير - الاسكندرون - انطاكيا).

قام السلطان عبدالحميد الثاني بإتخاذ التدابير اللازمة أمام الأطماع الإيطالية ولما شعر أنه سيواجه اعتداء إيطاليا مسلحاً على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبيا بـ (١٥,٠٠٠) جندي لتقويتها وظل يقظاً حساساً تجاه التحركات الايطالية، ويتابعها شخصياً وبدقة، ويطالع كل مايتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية في روما، ووالي طرابلس مما جعل الايطاليون يضطرون الى تأجيل احتلال ليبيا وتم لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي[1] وسنأتي على ذلك بالتفصيل بإذن الله في الكتاب السابع الذي يتحدث عن الحركة السنوسية وأثرها الدعوي والجهادي في إفريقيا.

إن فكرة الجامعة الاسلامية كان لها صدى بعيد في العالم الاسلامي لعدة أسباب منها:

كانت الدول الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تتنافس على الاستعمار في الشرق وحدث سلسلة اعتداءات على الشعوب الاسلامية فاحتلت فرنسا تونس (١٨٨١م) واحتلت انكلترا مصر (١٨٨٢م)، وتدخلت فرنسا في شؤون مراكش حتى استطاعت أن تعلن عليها الحماية (١٩١٢م) مقتسمة أراضيها مع اسبانيا وكذلك توغل الاستعمار الأوروبي في بلاد أفريقية اسلامية كالسودان ونيجريا وزنجبار وغيرها.

تقدمت وسائل النقل والاتصالات بين العالم الاسلامي وانتشرت الحركة الصحافية في مصر وتركيا والجزائر والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوة (اندونيسيا) وكانت الصحف تعالج موضوع الاستعمار وأطماع الدول الأوروبية في العالم الاسلامي وتنشر أخبار الأوروبيين المتكررة في الهجوم على ديار الاسلام، فتتأثر القلوب ، وتهيج النفوس، وتتفاعل مشاعر وعواطف المسلمين مع إخوانهم المنكوبين.

كانت جهود العلماء ودعواتهم في وجوب إحياء مجد الاسلام فقد انتشرت في ربوع العالم الاسلامي الدعوة الى وحدة الصف وإزداد الشعور بأن العدوان، الغربي بغير انقطاع

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص١٣٩.

على الشعوب الاسلامية مما يزيدها ارتباطاً وتماسكاً وبأن الوقت قد حان لتلتحم الشعوب الاسلامية وتنضوي تحت راية الخلافة العثمانية وغير ذلك من الاسباب[١].

إن السلطان عبدالحميد الثاني نجح في إحياء شعور المسلمين بأهمية التمسك والسعي لتوحيد صفوف الأمة تحت راية الخلافة العثمانية وبذلك يستطيع أن يحقق هدفين:

الأول : تثبيت دولة الخلافة في الداخل ضد الحملات القومية التغريبية الماسونية اليهودية الاستعمارية النصرانية.

الثانية: وفي الخارج تلتف حول راية الخلافة جموع المسلمين الخاضعين للدول الأوروبية كروسيا وبريطانيا وفرنسا. وبذلك يستطيع أن يجابه تلك الدول ويهددها بإثارة المسلمين وإعلانه الجهاد عليها في جميع أنحاء العالم الاسلامي[٢].

---

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، ص١١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١١٣.

المبحث الثالث

السلطان عبدالحميد واليهود

إن حقيقة الصراع بين السلطان عبدالحميد الثاني واليهود من أهم الأحداث في تاريخ السلطان المسلم الغيور عبدالحميد الثاني.

إن امر اليهود وعداؤهم للإسلام يعود جذوره الى ظهور الاسلام منذ أن انتصر الاسلام وأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة المنورة لخيانتهم المتكررة وعداواتهم الدائمة ومن ثم عن سائر الجزيرة العربية في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وهم يكيدون له وقد تظاهر بعضهم بالاسلام وبث السموم في جسم الامة الاسلامية عبر تاريخها الطويل وما عبدالله ابن سبأ والقرامطة والحشاشين والراوندية والدعوات الهدامة التي ظهرت في تاريخ المسلمين عنهم ببعيد.

لقد أهدى تتار بلاد القرم للسلطان سليمان القانوني في القرن الخامس عشر الميلادي فتاة يهودية روسية كانوا قد سبوها في إحدى غزواتهم فتزوجها السلطان سليمان القانوني وأنجبت له بنتاً فما إن كبرت تلك البنت حتى سعت أمها اليهودية من اللقيط الكرواتي رستم باشا ثم إمعاناً منها في الغدر تمكنت من قتل الصدر الأعظم ابراهيم باشا ونصبت صهرها اللقيط بدلاً عنه ثم قامت بتدبير مؤامرة اخرى استطاعت بها أن تتخلص من ولي العهد مصطفى ابن السلطان سليمان من زوجته الأولى ونصبت ابنها سليم الثاني ولياً للعهد.

في ذلك الزمن كان اليهود قد تعرضوا للاضطهاد في الأندلس وروسيا وتشرد الكثير منهم هرباً من محاكم التفتيش فتقدمت تلك اليهودية من السلطان وسعت لديه بالحصول على إذن لهم بالهجرة الى البلاد، وبالفعل فقد استقر قسم منهم في إزمير[(١)] ومنطقة أدرنة، ومدينة بورصه والمناطق الشمالية والغربية من الاناضول ، وبعد استقرارهم في الدولة العثمانية، طبقت الحكودة عليهم أحكام الشريعة الاسلامية حيث

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون،ص٢٤١.

تمتعوا في ظلها بقدر كبير من الاستقلال الذاتي، وفي الواقع أن يهود إسبانيا لم يجدوا المأوى فقط في تركيا العثمانية بل وجدوا الرفاهية والحرية التامة بحيث أصبح لهم التسلسل الهرمي في الدولة، إذ تغلغلوا في المراكز الحساسة منها مثل دون جوزيف ناسي، وغيرهم وتمتع يهود إسبانيا بشيء كبير من الاستقلال وأصبح رئيس الحاخاميين مخول له السلطة في الشؤون الدينية والحقوق المدنية بحيث أن مراسم وقرارات هذا الحاخام كانت تصدق من قبل الحكومة الى درجة تحولت الى قانون يخص اليهود[١].

وتجدر الاشارة في هذا المجال ، أن علي باشا وزير الخارجية (اصبح فيما بعد الصدر الأعظم ، قد شارك في بعثته الدبلوماسية عدد من اليهود في عام ١٨٦٥م المرسلة الى الاقطار الأوروبية المسيحية)[٢].

إن اليهود تمتعوا بكافة الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة[٣] ووجدوا السلم والأمان وحرية الوجود الكامل في الدولة العثمانية[٤].

أولاً: يهود الدونمة:

هناك مفاهيم عديدة لكلمة الدونمة، إذ إن الكلمة من الناحية اللغوية مشتقة من الكلمة التركية (دونمك) التي تعني الرجوع أو العودة أو الارتداد. أما المفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة فإنه يعني المرتد أو المتذبذب، بينما تعني هذه الكلمة من الناحية الدينية مذهباً دينياً جديداً، دعا إليه الحاخام ساباتاي زيفي، أما المفهوم السياسي لهذه الكلمة فإنه يعني اليهود المسلمين الذين لهم كيانهم الخاص[٥]، وقد أطلق المعنى الخاص بالدونمة منذ القرن السابع عشر على اليهود الذين يعيشون في المدن الاسلامية وخاصة في ولاية سلانيك

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، د.احمد النعيمي، ص٣٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٨.

(٤) انظر: اليهودوالدولة العثمانية، ص٣٩.

(٥) انظر: يهود الدونمة، د. احمد النعيمي، ص٨.

واطلق العثمانيون اسم الدونمة على اليهود لغرض بيان وتوضيح العودة من اليهودية الى الاسلام ثم أصبح علماً على فئة من يهود الاندلس الذين لجؤوا الى الدولة العثمانية وتظاهروا باعتناق العقيدة الاسلامية[١].

إن مؤسس فرقة الدونمة هو شبتاي زيفي الذي أدعى بأنه المسيح المنتظر في القرن السابع عشر، حيث انتشرت في تلك الايام شائعة تقول أن المسيح سيظهر في عام ١٦٤٨م كي يقود اليهود في صورة المسيح وانه سوف يحكم العالم في فلسطين ، ويجعل القدس عاصمة الدولة اليهودية المزعومة[٢] وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة عندئذ في المجتمع اليهودي ، وكانت الأوساط اليهودية القديمة تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح. ولذلك صادفت دعوة شبتاي تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا ، بل أيدها كثير من اليهود وأصحاب الأموال لأغراض سياسية ومالية[٣].

وذاع أمر شبتاي في أوروبا وبولندا وألمانيا وهولندا وإنكلترا وإيطاليا وشمال أفريقيا وغيرها.

وفي أزمير أخذ يلتقي بالوفود اليهودية التي جاءت من أدرنة وصوفيا واليونان والمانيا، حيث قلدته هذه الوفود تاج (ملك الملوك(ثم قام شبتاي بتقسيم العالم الى ثمانية وثلاثين جزءاً ، وعين لكل منها ملكاً، اعتقاداً منه بأنه سيحكم العالم كله من فلسطين، حيث كان يقول في هذا المجال: (أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر وأعتبر القدس قصراً لي)[٤].

وقام شبتاي بشطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب التي كانت تلقى في كنيس اليهود وجعل أسمه محل اسم السلطان، وسمى نفسه (سلطان السلاطين) و(سليمان

---

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، ص٢٤٢.

(٢) انظر: يهود الدونمة، ص١٦.

(٣) انظر: يهود الدونمة، ص٢١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٧.

بن داود) مما لفت انتباه الحكومة العثمانية[1].

وأصبح شبتاي مصدر قلق لكثير من حاخامين اليهود ورفعوا ضده شكوى الى السلطان، أكدوا فيها أن شبتاي ينوي القيام بحركة تمردية في سبيل تأسيس دولة يهودية في فلسطين[2].

ونتيجة لإشتداد فتنة شبتاي زيفي، أصدر الوزير القوي أحمد كوبرولو أوامره بإلقاء القبض عليه، وأودعه الوزير في السجن، وظل فيه لمدة شهرين ثم نقل الى قلعة جزيرة غاليبولي على الدردنيل، وسمح لزوجته وكاتبه الخاص أن يتخذا لهما سكناً معه وأصبح له مجلس كمجلس الأمراء، لايدخل عليه إلا بإذن مسبق وينتظر الذين يريدون أن يتمتعوا برؤيته أياماً من أجل ذلك وأخذت زوجته تسلك سلوك الأميرات مع القادمين عليها والقادمات حيث كانت وفود يهودية من أنحاء العالم قادمين لزيارته[3].

حوكم شبتاي في سراي أدرنة، حيث شكل السلطان هيئة علمية إدارية برئاسة نائب الصدر الأعظم وعضوية كل من (شيخ الاسلام) يحيى أفندي منقري زادة وواحد من كبار العلماء وهو إمام القصر محمد أفندي وانلي، وقام بدور المترجم من الإسبانية الى التركية الطبيب مصطفى حياتي[4].

أكد قاضي المحكمة. أن المسألة تعد بالنسبة للدولة العثمانية، وعلى مسمع من السلطان الذي جلس في غرفة مجاورة (وبواسطة الترجمان قيل لسبتاي تدعي أنك المسيح فأرنا معجزتك سنجردك من ثيابك ونجعلك هدفاً لسهام المهرة من رجالنا فأن لم تغرز السهام في جسمك فسيقبل السلطان ادعاءك. فهم شبتاي ما قيل له فأنكر ما أسند إليه وقال إنهم تقولوا عليه)[5]، فعرض عليه الإسلام فدخل فيه تحت اسم محمد عزيز

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٤.

(٣) انظر: يهود الدونمة، ص٣٦.

(٤) المصدر السابق نفسه،ص٣٦.

(٥) يهود الدونمة، مصطفى طوران ، ترجمة كمال خوجة نقل منه د.علي حسون ، ص٢٤٢.

افندي[1] وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود الى الاسلام، فأذنت له وانتهزها فرصة فأنطلق بين اليهود يواصل دعوته الى الايمان به ويحثهم على ضرورة تجمعهم معلنين في ظاهرهم الاسلام مبطنين يهوديتهم المنحرفة[2].

وظل شبتاي وأنصاره يتبعون دينهم الموسوي سراً، ويمارسون العمل للصهيونية في الخفاء، ويظهرون الاخلاص للاسلام في العلن والصلاح والتقوى أمام الأتراك، وكان يقول لأتباعه إنه كالنبي موسى الذي اضطر أن يبقى مدة من الزمن في قصور الفراعنة[3] وفي ظل هذه الظروف ألقي القبض على شبتاي مع مجموعة من أتباعه في كنيس (قوري جشمه) الكائنة في داخل المعبد بسبب أنه كان مرتديا زياً يهوديا وهو محاط بالنساء يشربون الخمر وينشدون الأناشيد اليهودية، وقراءة المزامير مع عدد من اليهود فضلاً عن اتهامه بدعوته المسلمين الى ترك دينهم والإيمان به، ولولا تدخل شيخ الاسلام لقطع رأسه، حيث اعترض على إعدامه قائلاً: (لو أعدم هذا المحتال سيكون سبباً لحدوث خرافة في الإنسانية ، حيث يدعي مريدوه بعروجه الى السماء كعيسى عليه السلام)[4]. فأكتفى بنفيه الى مدينة دولسجنو في ألبانيا وذلك في صيف عام ١٦٧٣م، وتوفى بعد خمس سنوات من نفيه وظلت عقيدة الشاباتائية موجودة لدى فرق سالونيك، وتفنن أتباعه في ممارسة المكر والتعصب والتجرد من المبادئ والأخلاق[5].

وقد نظم شبتاي زيفي عقيدة الدونمة في ثماني عشرة مادة وفي الحقيقة تعد المادة السادسة عشرة والسابعة عشرة أهم سمات الدونمة، إذ تشير المادة (١٦): (يجب أن تطبق عادات الأتراك بدقة لصرف أنظارهم عنكم ويجب الا يظهر احد من الأتباع تضايقه

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ،د.علي حسون ، ص٢٤٣.

(٢) انظر: يهود الدونمة، ص٣٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٤١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٤٢.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص٤٣.

من صيام رمضان ومن الأضحية ولن ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملأ)[١]. أما المادة (١٧) فإنها تشير الى الآتي: (إن مناكحتهم (يعني المسلمين) ممنوعة قطعا)[٢].

إن شبتاي يعد أول يهودي بشر بعودة بني اسرائيل الى فلسطين ، وفي حقيقة الأمر، عدت حركة زيفي حركة سياسية ضد سلطة الدولة العثمانية أكبر من كونها حركة دينية[٣].

لقد أسهمت هذه الطائفة في هدم القيم الاسلامية في المجتمع العثماني وعملت على نشر الإلحاد والأفكار الغربية وانتشار الماسونية والدعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرجال وخاصة في المدارس وكان الكثير من رجال الاتحاد والترقي يساهم في بعض نشاطاتها وأفراحها.

وقام يهود الدونما بدور فعال في نصرة القوى المعادية للسطان عبدالحميد والتي تحركت من سلانيك لعزله وهم الذين سمموا أفكار الضباط الشباب ولايزالون حتى وقتنا الحاضر يسعون لذلك ولهم صحف ودور نشر وتغلغلوا في الاقتصاد العثماني وكل مناحي الحياة في الدولة العثمانية[٤].

وقد استطاعوا أن يأثروا في جمعية الاتحاد والترقي، وكان السلطان عبدالحميد الثاني عارفاً بحقيقة الدونمة ويؤكد هذه الحقيقة الجنرال جواد رفعت أتلخان، حيث يقول في هذا الصدد: (إن الشخص الوحيد في تاريخ الترك جمعيه، الذي عرف حقيقة الصهيونية والشبتائية وأضرارهما على الترك والاسلام وخطرها تماماً، وكافح معهما مدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهم هو السلطان التركي العظيم كافح هذه المنظمات

(١) انظر: يهود الدونمة، ص٤٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٤٦.

(٤) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون، ص٤٦.

الخطيرة لمدة ثلاث وثلاثين سنة بذكاء وعزم وبإرادة مدهشة جداً كالأبطال)[١].

وفي حقيقة الأمر، أهتم عبدالحميد بإبقاء الدونمة في ولاية سالونيك، وعدم وصولهم الى الاستانة، بغية عدم السيطرة عليها والتجنب من تحركاتهم، ونتيجة للموقف الجاد من عبدالحميد إزاء فرقة الدونمة اتبعوا إستراتيجية مضادة له، حيث تحركوا ضده على مستوى الرأي العام العثماني والجيش[٢].

ونتيجة لموقف عبدالحميد من الدونمة، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافل الماسونية للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعارات معينة كالحرية والديمقراطية وإزاحة المستبد عبدالحميد، وعلى هذا الاساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد في الدولة العثمانية بين صفوف الجيش. وكانت الغاية من هذا هي تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني باستيطان فلسطين. وكان يهود الدونمة يشلكون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية[٣].

ثانياً: السلطان عبدالحميد وزعيم اليهودية العالمية (هرتزل):

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية (تيودر هرتزل) أن يتحصل على تاييد أوروبي للمسألة اليهودية من الدول (ألمانيا، وبريطانيا وفرنسا) وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبدالحميد، وطلب فلسطين منه وكانت الدولة العثمانية تعاني من مشاكل مالية متعددة، إذ كانت الأحوال الاقتصادية في البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة وجود بعثة مالية أوروبية في تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضماناً لديونها، الأمر الذي دفع عبدالحميد الثاني أن يجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثغرة هي السبيل الوحيد أمام هرتزل، كي يؤثر على سياسة

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد والخلافة الاسلامية للجندي، ص١٠٧.

(٢) انظر: يهود الدونمة، ص٨١.

(٣) انظر: الحركة الاسلامية الحديثة في تركيا لمحمد مصطفى، ص٦٨،٦٩.

عبدالحميد الثاني تجاه اليهود. وفي هذا الصدد يقول هرتزل في مذكراته: (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا .. مليونان منها ثمناً لفلسطين والباقي لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من البعثة الأوروبية ..ومن ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأي قروض جديدة يطلبها)[١].

لقد أجرى هرتزل إتصالات مكثفة مع المسؤولين في ألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا وإنكلترا وكانت الغاية من هذه الاتصالات هي إجراء حوار مع عبدالحميد الثاني. وفي هذا الصدد فقد نصح لاندو منذ ٢١ شباط ١٨٩٦م الصديق اليهودي لهرتزل أن يقوم بواسطة صديقه نيولنسكي رئيس تحرير (بريد الشرق) .وفي هذا المجال يقول هرتزل: (إن نحن حصلنا على فلسطين ، سندفع لتركيا كثيراً أو سنقدم عطايا كثيرة لمن . لمن يتوسط لنا. ومقابل هذا نحن مستعدون أن نسوي أوضاع تركيا المالية. سنأخذ الأراضي التي يمتلكها السلطان ضمن القانون المدني، مع أنه ربما لم يكن هناك فرق بين السلطة الملكية والممتلكات الخاصة)[٢].

وقام هرتزل بزيارة الى القسطنطينية وذلك في حزيران عام ١٨٩٦م ، ورافقه في هذه الزيارة نيولنسكي ، الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبدالحميد، ونتيجة لذلك فقد نقل بيولنسكي آراء هرتزل الى قصر يلدز، وقد دارت محاورة بين نيولنسكي والسلطان عبدالحميد إذ قال السلطان له: (هل بإمكان اليهود أن يستقروا في مقاطعة أخرى غير فلسطين؟ أجاب نيولنسكي قائلاً:

(تعتبر فلسطين هي المهد الأول لليهود، فعليه فإن اليهود لهم الرغبة في العودة إليها)، ورد السلطان قائلاً: (إن فلسطين لاتعتبر مهداً لليهود فقط، وإنما تعتبر مهداً لكافة الأديان الأخرى). أجاب نيولنسكي قائلاً: (في حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإنهم سوف يحاولون الذهاب وبكل بساطة الى الارجنتين)[٣].

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص١١٦.

(٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص١١٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٢٠.

وقام السلطان عبدالحميد بإرسال رسالة الى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها: (انصح صديقك هرتزل، أن لايتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأنني لاستطيع أن اتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي. وقد قاتل أسلافي من اجل هذه الأرض، ورووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملايينهم . إذا مزقت دولتي ، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتنا ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة)[١].

وفي هذا الصدد يقول عبدالحميد في مذكراته:

(ومن المناسب أن نقوم باستغلال الأراضي الخالية في الدولة، وهذا يعني من جانب آخر، أنه كان علينا أن ننهج إتباع سياسة تهجير خاصة، ولكننا لانجد أن هجرة اليهود مناسبة، لأن غايتنا هي استيطان عناصر تنتمي الى دين أسلافنا وتقاليدنا حتى لايستطيعوا من الهيمنة على زمام الأمور في الدولة)[٢].

وبعد إخفاق جهود هرتزل في واسطة نيولنسكي ، اتجه هرتزل الى قصر وليم الثاني أمبراطور المانيا، ولاسيما أنه كان صديقاً لعبدالحميد، بالاضافة الى كون وليم الثاني هو الحليف الوحيد للعثمانيين في أوروبا[٣] إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح يقول المؤرخ التركي نظام الدين نظيف في كتابه (إعلان الحرية والسلطان عبدالحميد الثاني) : (..عندما رد طلب الوفد اليهودي -المسند من قبل الامبراطور وليم- في الحصول على وطن لهم، أي : عندما خاب هرتزل في مسعاه إشتد العداء ضد (يلدز) وهذا ماكان يتوقعه عبدالحميد، لأن اليهود قوم يتقنون العمل المنظم، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم ، فالمال متوفر لديهم وكانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية، وكانت صحافة أوروبا في قبضتهم، فكان في مقدرهم اطلاق العواصف التي

(١) انظر:اليهود والدولة العثمانية، ص١٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٢٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٢١.

يريدونها لدى الرأي العام متى شاءوا..)[1].

يردف المؤرخ التركي قائلاً: (بدأوا أولاً بتحريك الصحافة العالمية، ثم أخذوا بتوحيد أعداء عبدالحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط، نجد، أنصار المشروطية يتخذون طابعاً منظماً وهجومياً، علماً بأنهم كانوا حتى ذلك الوقت متفرقين ويعملون دون نظام ودون تنسيق، إذ لم يكن صعباً عليهم توحيد أعداء عبدالحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط. وقد أخذ (المشرق الأعظم الماسوني الإيطالي) على عاتقه هذه المهمة في التوحيد والتنسيق لأنه كان أقرب مركز ماسوني للامبراطورية العثمانية. ولعبت المحافل الايطالية وخاصة محفل (ريزوتا) في سلانيك دوراً ملحوظاً..)[2].

إزاء هذا الاخفاق قرر هرتزل أن يستخدم وسائل أخرى لاستمالة عبدالحميد الثاني، حيث عرض نفسه عن طريق نيولنسكي خدمته بواسطة القضية الأرمنية[3] وفي هذا الصدد يقول هرتزل: (طلب مني السلطان أن أقوم بخدمة له، وهي أن أؤثر على الصحف الأوروبية ، بغية قيام الأخيرة بالتحدث عن القضية الأرمنية بلهجة أقل عداء للأتراك، أخبرت نيولنسكي حالاً باستعدادي للقيام بهذه المهمة، ولكني أكدت على إعطائي فكرة وافية عن الوضع الأرمني : من هم الأشخاص في لندن الذين يجب أن أقنعهم بما يريدون ، وأي الصحف يجب أن نستميلها لجهتنا وغير ذلك)[4].

وعلى هذا الأساس، فقد نشطت الدبلوماسية الصهيونية لاقناع الأرمن بالتخلي عن ثورتهم. ونتيجة لذلك فقد اتصل هرتزل مع سالزبوري والمسؤولين الانكليز بغية استخدامهم للضغط على الأرمن، كما نشط اليهود في مدن أوروبية اخرى مثل فرنسا للقيام بنفس الدور. إلا أن دبلوماسية هرتزل قد أخفقت بسبب عدم تحمس بريطانيا،

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد حياته وأحداث عهده، محمد أورخان، ص٢٨١، ٢٨٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٨٢.

(٣) انظر : اليهود والدولة العثمانية، ص١٣٢.

(٤) انظر: اليهود والدولة العثمانية ، ص١٣٧.

لأن ذلك كان يعني تأييد سياسة عبدالحميد، الأمر الذي يؤدي في إثارة الرأي العام البريطاني ضد الحكومة[1].

وقد حاول هرتزل لقاء عبدالحميد الثاني ، ولاسيما أثناء الزيارة الثانية للامبراطور وليم الثاني الى القسطنطينية، إلا أن موظفي قصر يلدز منعوه من ذلك. واستمر هرتزل في محاولاته المستمرة حتى تكللت جهوده بالنجاح بعد سنتين (١٨٩٩-١٩٠١م) من الاحتكاك المباشر مع الموظفين الكبار لقصر يلدز من مقابلة عبدالحميد، حيث قابل السلطان لمدة ساعتين وقد اقترح هرتزل قيام البنوك اليهودية الغنية في أوروبا بمساعدة الدولة العثمانية لقاء السماح بالاستيطان في فلسطين، بالإضافة الى ذلك فإنه قد أكد لعبدالحميد أنه سوف يخفف الديون العامة للدولة العثمانية وذلك منذ عام ١٨٨١م ، وقد وعد هرتزل عبدالحميد أن يحتفظ بمناقشاته السرية معه[2].

كان السلطان عبدالحميد في خلال مقابلته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً وكا يرخي لهرتزل في الكلام كي يدفعه أن يتحدث بكل مايخطر في مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب. وقد أدى هذا الأمر الى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح في مهمته هذه. ولكنه أدرك في نهاية الأمر بأنه قد أخفق مع عبدالحميد وأنه أخذ يسير في طريق مسدود معه[3].

وبعد إخفاق جهود هرتزل عند عبدالحميد الثاني، تحدث هرتزل قائلاً: (في حالة منح السلطان فلسطين لليهود ، سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع المالية، اما في القارة الأوروبية فإننا سنقوم بإيجاد حصن منيع ضد آسيا، وسوف نبني حضارة ضد التخلف، كما سنبقي في جميع أنحاء أوروبا بغية ضمان وجودنا)[4].

وفي الحقيقة كان عبدالحميد يرى أنه من الضروري عدم توطين اليهود في

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٣٨.

(٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص١٤١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٤٣.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٤٣.

فلسطين ، كي يحتفظ العنصر العربي بتفوقه الطبيعي. وفي هذا الصدد يقول: (.. ولكن لدينا عدد كافٍ من اليهود ، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم)[١].

وكانت الدولة العثمانية تسعى في أحيان كثيرة الى أبعاد اليهود العثمانيين عن أفكار هرتزل والحركة الصهيونية، ومع ذلك فإنها في أحيان أخرى كانت تستخدم لغة التهديد معهم. وفي هذا الصدد أوضح علي فروخ بك الوسائل الاعلامية الاجنبية، وبصراحة تامة: (إنه لبعيد من الصواب أن يقوم الصهاينة على خلق صعوبات للحكومة العثمانية، بغية إرغامها على تحقيق مصالحها. ولكن هذه الصعوبات سوف تؤدي في نهاية الأمر الى إلحاق الأذى بوجودهم السلمي والسعيد في الدولة العثمانية.. وهذه النقطة واضحة بالنسبة لعلاقة العثمانيين مع رعايا الأرمن، لأن قلة من المتمردين الذين قاموا على إرتكاب الخطأ والحماقة معتمدين الى الارشاد الميكافلي قد أدى في نهاية الأمر أن يندما على مافعلوه ، من دون التوصل على أية نتيجة)[٢].

وعلى الرغم ، من اخفاق جهود هرتزل عند السلطان عبدالحميد، كتب هرتزل قائلاً: (يجب تملك الأرض بواسطة اليهود بطريقة تدريجية دون ماحاجة الى استخدام العنف، سنحاول أن نشجع الفقراء من السكان الأصليين على التروح الى البلدان المجاورة بتأمين أعمال لهم هناك مع خطر تشغيلهم في بلدنا إن الاستيلاء على الأرض سيتم بواسطة العملاء السريين للشركة اليهودية التي تتولى بعد ذلك بيع الأرض لليهود. علاوة على ذلك تقوم الشركة اليهودية بالإشراف على التجارة في بيع العقارات وشرائها، على أن يقتصر بيعها على اليهود وحدهم)[٣].

---

(١)انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص١٤٦.

(٢)المصدر السابق نفسه، ص١٤٦.

(٣)انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص١٤٨.

وكتب هرتزل قائلاً: (أقر على ضوء حديثي مع السلطان عبدالحميد الثاني أنه لايمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية أو عن طريق الزج بها في حروب تهزم فيها، او عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقتين معاً في آن واحد)(١).

إن عبدالحميد كان يعرف أهداف الصهيونية، حيث قال في مذكراته السياسية: (لن يستطيع رئيس الصهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره وقد يكون قوله : ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوي فيه اليهودي على قيادة محراثه بيده، صحيحاً في رأيه ، أنه يسعى لتأمين ارض لإخوانه اليهود، لكنه ينسى أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل . لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين بل يريدون أموراً مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم. وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين)(٢).

وعن القدس يقول عبدالحميد الثاني: (لماذا نترك القدس ..إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية ، لابد أن تظل القدس لنا)(٣).

لقد كان غرض السلطان عبدالحميد في استماعه الى (تيودور هرتزل) معرفة الآتي:

حقيقة الخطط اليهودية.

معرفة قوة اليهود العالمية ومدى قوتها.

إنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود(٤).

---

(١)المصدر السابق نفسه، ص١٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٤٨.

(٣) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص٥٧.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٥٦.

وشرع السلطان عبدالحميد في توجيه أجهزة الاستخبارات الداخلية والخارجية لمتابعة اليهود وكتابة التقرير عنهم وأصدر إرادتين سنتين الأولى في ٢٨ يونيو ١٨٩٠م والأخرى في ٧ يونيو ١٨٩٠م. في الأولى (رفض قبول اليهود في الممالك الشاهسانية) والأخرى: (على مجلس الوزراء دراسة تفرعات المسألة واتخاذ قرار جدي وحاسم في شأنها)[١].

واتخذ السلطان عبدالحميد الثاني كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي الى اليهود في فلسطين ، وفي سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء أي امتياز للهود من شأنه أن يؤدي الى تغلب اليهود على أرض فلسطين. ولابد في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان عبدالحميد الثاني من الحكم. ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال: (إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، مادام السلطان عبدالحميد قائماً في الحكم، مستمراً فيه)[٢].

وتحركت الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبدالحميد الثاني ، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون في البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية[٣].

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٨٨.

(٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص١٥٨.

(٣) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني لمحمد حرب، ص٢٣٤.

المبحث الرابع

السلطان عبدالحميد وجمعية الاتحاد والترقي

كان الشباب العثماني المثقف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تأثر بافكار الثورة الفرنسية، التي حققت حكماً ديمقراطياً في فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من حكم الفرد، وكذلك تأثر بالحركة القومية الايطالية التي قادها (ماتزيني) بنظمها وخلاياها، وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لحملات عسكرية واعلامية ، غرضها إضعاف الدولة ومن ثم العمل على تفتيتها وكانت الدول الأوروبية تتخذ من أوضاع النصارى في الدولة حجة للتدخل، وفي هذه الظروف وبالضبط في عام ١٨٦٥م، كان ستة من الشباب العثمانيين المثقفين يسرُون عن أنفسهم في حديقة في ضواحي أستانبول تسمى (غابة بلغراد). تحدث هؤلاء الشباب في موضوعات سياسية، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية سرية، على نمط جمعية (إيطاليا الفتاة) التي أسسها الزعيم الايطالي (ماتزين) عام ١٨٣١م، بهدف الوحدة الايطالية تحت راية الجمهورية، أطلق هؤلاء الشباب على جمعيتهم هذه اسم (اتفاق الحميّة) ومن ضمن هؤلاء الشبان الشاعر الذي أصبح فيما بعد واسع الشهرة: نامق كمال. ورأوا أن العمل لابد أن يكون في شكل تعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالي فإن رغبة الشعوب النصرانية في الاستقلال بمناطقها عن الدولة، لن تجد لها مايبررها من تدخل أجنبي بحجة مساندة الأقليات الدينية، وكانوا يرون أن إنقاذ الدولة من حالة التردي التي وصلت إليها يكون، بإيجاد نظام سياسي ديمقراطي وكان في فرنسا في تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصري الذي نازع فؤاد باشا رغبة في تولي عرش مصر وفي فرنسا أعلن الأمير أنه ضمن التيار المنادي بالدستور في الدولة العثمانية، وقدم نفسه بعبارة ممثل حزب تركيا الفتاة واعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية المعنية فشاع اسم (حزب تركيا الفتاة) في أوروبا.

التحق ثلاثة من الاعلاميين الثوريين العثمانيين هم : نامق كمال، ومحمد ضياء وعلي سعاوي، بالأمير المصري مصطفى فاضل في باريس وكونوا منظمة أسموها جمعية (العثمانيين الجدد(. وكان ابرز شخصيات جمعية العثمانيين الجدد إعلاميين وشعراء وأدباء وعلى راسهم نامق كمال وعلي سعاوي. وكان من اشهر تلك الشخصيات تأثيراً على

الساحة الأوروبية نامق كمال الذي تثقف ثقافة إسلامية، وكما تأثر بفلاسفة الثورة الفرنسية، مثل (روسو). وله حياة أدبية واسعة وكتابات امتدت عبر ربع قرن عبر عن أفكاره من خلال الشعر ، والإعلام ، والكتابة والتاريخ وكانت كتاباته تسعى للاجابة عن ثلاثة أسئلة هي:

١- ماهي أسباب انحطاط الدولة العثمانية؟

٢ ماهي الطرق التي يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط؟

٣- ماهي الإصلاحات اللازم عملها في هذا السبيل؟

كما يمكن ادراج إجابات نامق كمال في ثلاث نقاط رئيسية هي :

١- أسباب انحطاط الدولة العثمانية، أسباب اقتصادية، سياسية.

٢- التربية، وهي الطريق التي يمكن أن يوقف بها هذا الانحطاط.

٣- الإصلاح الرئيسي الواجب عمله، هو : البدء بإقامة نظام دولة مركزية دستورية.

وكان نامق كمال -يرى أن حركة التنظيمات العثمانية، استبدلت بسلطة السلاطين سلطة الباب العالي، أي الصدور العظام الوزراء. لذلك فإن النظام الذي جاءت به التنظيمات، نظام أقل من النظام العثماني القديم. لذلك لم تستطع التنظيمات أن تحقق نهضة اقتصادية في الدولة. وفتحت هذ التنظيمات الباب على مصراعيه لتدخل الدول الأوروبية في الشؤون العثمانية الداخلية.

وقد قال نامق كمال بفكرة الحقوق الطبيعية التي هي الأساس الفلسفي للحضارة الغربية المعاصرة، وقدم نامق كمال- مشروعاً للدستور العثماني، الى مدحت باشا وكان متأثراً بالدستور الفرنسي (دستور نابليون الثالث عام ١٨٥٢م). ورأى نامق كمال أن هذا هو المناسب تماماً لظروف الدولة العثمانية في ذلك الوقت وكان نامق كمال صديقاً لمدحت باشا ولذلك تأثر بقرار السلطان عبدالحميد في عزله وقد تحدث السلطان عبدالحميد عن نامق كمال في مذكراته: (كان كمال بك أكثر من لفت انتباهي من بين عدة أشخاص أطلقوا على

أنفسهم (العثمانيون الجدد(. كان إنساناً مضطرباً جداً. لاتتوافق حياته العائلية مع حياته الخاصة، ولاتتوافق حياته القلمية مع حياته الفكرية.

يمكن أن تجزم بأن إنساناً ما، يستطيع عمل أمر ما، أو لا يستطيع. لكنك لاتستطيع القطع بهذا بشكل من الأشكال، وأنت تفكر في كمال بك. ذلك لأنه هو نفسه لايعرف نفسه تستطيع القول أنه واحد من الأشخاص النادرين، الذين يحيون حياتين مزدوجتين ، كل حياة تختلف عن الأخرى حسب مزاجه. من يعرفونه عن قرب، يعرفون أنه: عندما كان على وئام مع السراي كتب (التاريخ العثماني) وعندما فسدت هذه العلاقة، يعرفون أنه قطع رأس التنين بقوله: (كلب هو الذي يأمن لخدمة صياد غير منصف). إنه إنسان متقلب. ربما كان إنساناً مخلصاً جداً، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكر مثلك، ولا يمكنك معرفة عدد الساعات أو الأيام التي سيحمل فيها هذه الأفكار)[١].

بعد أن وجد السلطان عبدالحميد أن جماعة العثمانيين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها، واجبرته على دخول الحرب العثمانية الروسية، عمل على تشتيت أعضاء هذه الجمعية، فبدأ بنفي كبيرها وهو الصدر الأعظم مدحت باشا. بعد ذلك مباشرة، قامت ضد السلطان مؤامرتان لخلعه. واحدة : بقيادة علي سعاوي وهو من أعضاء هذه الجمعية. والاخرى: ماسونية قامت بها جميعة كلانتي سكاليري - عزيز.

والمؤمرتان مدعومتان من إنكلترا، وفشلت كلتاهما، لكنهما جعلت السلطان يتشدد في مراقبة الفكر الوافد والمتأثرين به، وقامت أثناء ذلك أيضاً خلية سرية، من طلاب المدرسة الحربية، في استانبول من أصحاب الفكر الجديد، هدفها مقاومة حكم السلطان عبدالحميد ، حيث استطاع أحد أعضاء جمعية (كلاني-عزيز بك) الماسونية وهو (علي شفقتي بك) الفرار الى نابولي، والى جنيف، حيث أصدر بين عامي ١٨٧٩م و١٨٨١م، جريدة مناهضة للحكم العثماني، بعنوان (استقبال) بمعنى المستقبل.

وفي عام ١٨٨٩م تأسست منظمة طلابية في المدرسة العسكرية الطبية في استانبول،

---

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد، ص٤٧.

حيث كان بعض الأساتذة هناك يحرضون الطلاب بشكل أو بآخر للقيام بمعارضة الحكم، ونشر أفكار العثمانيين الجدد بين الطلاب ، وكان المؤسس لهذه المنظمة إبراهيم تيمو الروماني الذي تأثر بالمحافل الماسونية الإيطالية. وأطلق على هذه المنظمة الاتحاد العثماني واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثورة الفرنسية المئوية، تاريخاً لإنشاء منظمتهم وجعلوا من أهدافهم مقاومة حكم السلطان عبدالحميد، وتكوين دولة مناسبة لأفكار العصر السياسية، تتخذا من الدول الغربية نموذجاً لها، مثل إنكلترا وفرنسا ألمانيا، والمناداة بالدستور والحرية والديمقراطية[1].

ومن المدرسة العسكرية الطبية ، سرت أفكار جمعية (الاتحاد العثماني) الى مختلف المدارس العليا الأخرى. وكانت خلايا جمعية الاتحاد هذه سرية على نظام جمعية (الكاربونارى) الإيطالية.

ولم تكن الجمعية متعجلة، لا في الدعاية لأفكارها، ولا في الحركة ضد السلطان. حتى إن أحمد رضا بك قد وصل الى منصب مدير ادارة المعارف في منطقة بوصة، وسافر عام ١٨٨٩م الى باريس بحجة حضور معرض باريس الدولي، ووصل الى هناك، وأعلن أنه لن يرجع الى بلاده. ومكث في فرنسا حوالي ست سنوات، لم تصدر عنه حركة معارضة جديرة بالتسجيل، الى حين أصدر جريدته (مشورات) عام ١٨٩٥م.

ويذكر مؤسس جمعية الاتحاد -وهو إبراهم تيمو- أنه كان بمضي أوقاته في الخارج -حتى عام ١٨٩٥م بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمتهم ، لتربيتهم تربية ثورية، ويعقد الاجتماعات السرية، وقراءة الأعمال الأدبية التي ألفها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد، مثل نامق كمال وضياء باشا وقراءة منشورات على شفقتي بك -عضو كلانتي الماسونية- وكان فاراً في أوروبا[2].

ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمية الاتحاد العثماني السرية في الداخل وفي الخارج تم الاتفاق على وحدة العمل العسكري والمدني ضد السلطان ، وعلى اعتماد اسم

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٧٩.

(٢) انظر: مذكرات إبراهيم تيمو، ص٩.

(جمعية الاتحاد والترقي) للجناحين المعارضين، العسكري والمدني، اللذين يعملان في إطار الجمعية.

كان اسم الجمعية في الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثماني). وكان أحمد رضا بك -ممثل الجناح المدني- متأثراً بأفكار الفيلسوف (أوغست كانت) وكان دستور هذا الفيلسوف هو:(الانتظام والترقي) . فأخذ أحمد رضا كلمة (الترقي) استلهاماً من دستور (كانت(واحتفظ العسكريون بسمى (الاتحاد)، واتفق الجميع أن تكون جمعيتهم باسم (الاتحاد والترقي)[1].

لقد تغلغلت خلايا (الاتحاد والترقي) في وحدات الجيش، وبين موظفي الدولة من المدنيين، واتحدا في العمل الموحد بعد اتفاق جناحيهما العسكري والمدني في باريس، للعمل الفعلي ضد السلطان عبدالحميد. واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام ١٨٧٧م بوقف العمل به[2].

وكان الفكر السياسي لجمعية الاتحاد والترقي يؤكد على المفاهيم الطورانية على المستويين الداخلي والخارجي،والطورانية تسمية تشير الى وطن الأتراك الأصلي ونسبته الى جبل توران الواقع في المنطقة الشمالية الشرقية في إيران[3] وكان داخل حركة الاتحاد والترقي اتجاهاً قوياً يؤكد أن الترك هم من أقدم أمم الأرض وأعرقها مجداً وأسبقها الى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ولم يقتصرا فيها على الترك الذين في سيبريا وتركستان والصين وفارس والقوقاز والأناضول وورسيا وكان شعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الاسلامية إلا إذا كانت تخدم القومية الطورانية، فتكون عندئذ وسيلة لاغاية وهذا يعني أن هذا الاتجاه يدعوا الى إحياء عقائد الترك الوثنية السابقة على أسلافهم، كالوثن التركي القديم (بوزقورت) أو الذئب الأبيض -الأسود الذي صوروه على طوابع البريد ووضعوا له الأناشيد

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٨١،٢٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٢٨١.

(٣) أنظر: اليهود والدولة العثمانية، ص١٦٣.

وألزما الجيش أن يصطف لإنشادها عند كل غروب، وكأنهم يحلون تحية الذئب محل الصلاة، مبالغة منهم في إقامة الشعور العرقي محل الشعور الاسلامي.

ويستشهد هؤلاء برجالاتهم في التاريخ أمثال: أتلاو وطغرك، جنكيزخان وتيمورلنك.

وقد تطرف هذا الاتجاه في الطورانية، إذ قالوا : (نحن أتراك فكعبتنا طوران). وهم يتغنون بمدائح جنكيز، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب ويرفعوا مستوى نفوسهم بزعيمهم ويمثل هذا الاتجاه كل من فياكوك الب[1] ويوسف أقثور وجلال ساهر ويحيى كمال وحمدالله صبحي ومحمد أمين بك الشاعر، وكثير من الأدباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشئ الجديد.

وكان تأثير اليهود على الطورانية أمر واضح وفي هذا الصدد يقول نيازي بركس في كتابه (المعاصرة في تركيا) : (أن لليهود الأوروبيين واليهود المحليين) في الدولة العثمانية في القرنيين التاسع عشر والعشرين دوراً ضخماً في إرساء تيار القومية الطورانية فالعلماء اليهود في الغرب مثل لومالي دافيد وليون كاهون وارمينيوس فاديري تصدوا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية كما أن اليهود المحليين في الدولة العثمانية، مثل كراسوا (قراصو) وموئيز كوهين وابارهام غالانتي ، كان لهم ضلع في جمعية الاتحاد والترقي وبمجرد أن نجحت هذه الجمعية في الإطاحة بحكم عبدالحميد ومن ثم الاستيلاء على السلطة تقدم الصهاينة الى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطناً قوميا لليهود..)[2].

وقد ذكر نيازي بركس في كتابه السابق اسم اليهودي موئيز كوهين الذي وصفه رينيه بيلو قائلاً:

١- إن كوهين هو من مؤسي الفكر القومي الطوراني في الدولة العثمانية.

---

(١) أنظر: اليهود والدولة العثمانية، ص١٦٥.

(٢) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص١١٩.

٢- إن كتاب موئيز كوهين هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية[١].

كان اليهودي موئيز كوهين نشطاً جداً في التعريف بحركة الاتحاد والترقي في الصحف الأوروبية، فقد كان يعرف بجانب العبرية والتركية، عدة لغات أوروبية، وبدأ هذا بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان (الأتراك يبحثون عن روح قومي)[٢].

لقد أسهم موئيز كوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جميعة الاتحاد والترقي وهي السياسة التي شقت شعوب الدولة العثمانية وأوجدت بينها العداوة والبغضاء.

وكان هذا اليهودي لايكل ولايمل في نشر الفكر القومي التركي لتفتيت الدولة العثمانية. وكتب ثلاثة كتب اعتمدت عند جمعية الاتحاد والترقي وهي: (ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب) و(الطوران) و(سياسة التتريك). كما أسهم هذا الكاتب اليهودي في الكتابة للفكر الكمالي بكتابة (الكمالية) وكتابة (الروح التركية) الذي أرخ فيه التطور العنصر التركي[٣].

لقد قامت جمعية الاتحاد والترقي على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك، تحت حلم الطورانية، وقد نادت بمفاهيم جديدة مثل الوطن والدستور والحرية، وكانت هذه المفاهيم غريبة على العثمانيين، وقد ضمت في صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة الى يهود الدونمة وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم عبدالحميد الثاني[٤].

(١) المصدر السابق نفسه، ص١١٩.

(٢)انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص١٢٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٢٢.

(٤) انظر: اليهود والدولة العثمانية ،ص١٦٨.

المبحث الخامس

الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد الثاني

كان السلطان عبدالحميد الثاني شديد الحذر من جمعية الاتحاد والترقي المدعومة باليهود والمحافل الماسونية، والدول الغربية واستطاع جهاز مخابرات السلطان عبدالحميد أن يتعرف على هذه الحركة ويجمع المعلومات عنها؛ إلا أن هذه الحركة كانت قوية، وقد جاءت مراقبة عبدالحميد لأعضاء هذه الحركة في وقت متأخر ، حيث دفعوا الأهالي الى مظاهرات صاخبة في سلانيك ومناستر واسكوب وسوسن مطالبين بإعادة الدستور، بالإضافة الى أن المتظاهرين هددوا بالزحف على القسطنطينية. الأمر الذي أدى بالسلطان الى الرضوخ على مطالب المتظاهرين حيث قام بإعلان الدستور وإحياء البرلمان وذلك في ٢٤ تموز ١٩٠٨م، وكانت هناك عدة أسباب جعلت من جميعة الاتحاد والترقي أن تبقي السلطان عبدالحميد الثاني في تلك الفترة على العرش منها:

١- لم تكن في حوزة الاتحاد والترقي القوة الكافية بعزله في عام ١٩٠٨م.

٢- اتباع عبدالحميد الثاني سياسة المرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدستور.

٣- ولاء العثمانيين لشخص السلطان عبدالحميد. وهذه النقطة واضحة، حيث أن لجنة الاتحاد والترقي لم تكن لها الجرأة الكافية على نشر دعايتها ضد السلطان عبدالحميد الثاني بين الجنود ، لأن هؤلاء كانوا يبجلون السلطان(١) .

إن الصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستوري لعام ١٩٠٨م، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين ، وعليه كان لابد من التخلص من السلطان عبدالحميد الثاني نهائياً ولذلك دبرت أحداث في ٣١ أبريل ١٩٠٩م في استانبول وترتب على أثرها، اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقي، عرف الحادث في التاريخ باسم حادث ٣١ مارت.

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص١٦٨.

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في العاصمة بتخطيط أوروبي يهودي، مع رجال الاتحاد الترقي وتحرك على أثره عسكر الاتحاد والترقي من سلانيك ودخل استانبول، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبدالحميد الثاني من كل سلطاته المدنية والدينية. ثم وجهت إليه جمعية الاتحاد والترقي التهم التالية:

١- تدبير حادث ٣١ مارت.

٢- إحراق المصاحف.

٣- الإسراف.

٤- الظلم وسفك الدماء(١).

مع أن جميعة الاتحاد والترقي العثمانية، تبنت الأفكار الغربية المضادة للاسلام وللفكر الاسلامي؛ لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير فيهم، وكسب أنصار لهم في معركتهم ضد السلطان عبدالحميد الثاني. وقد نجحوا في ذلك.

تقول الجمعية في بياناتها الى العثمانيين: (أيها العثمانيون: إن مقصدنا هو سلامة الدولة والخلافة، ولم يعد أحد يجهل هذا). (وبعون الباري وهمة الاخوان) و(أيها المسلمون: كفانا أن نقوم بدور المتفرج على سلطان جبار، عديم الايمان، يسحق القرآن تحت أقدامه، وكذلك يسحق الضمير والايمان) و(استيقظوا يأمة محمد) و(الشجاعة الشجاعة يامسلمون الشجاعة منا والعون من الله. نصر من الله وفتح قريب) و(أيها المسلم الموحد! اقرأ باسم ربك) و(انهض أيها المسلم الموحد! وانقذ دينك، وإيمانك من يد الظالمين. وأنقذ بذلك نفسك! فهنا شيطان جبار يحمل فوق رأسه تاجاً. وفي يده دينك وإيمانك. فأنقذ دينك منه وإيمانك أيها الموحد) و(ياأيها المسلمون: إن السلطان عبدالحميد -شرعاً- ليس بسلطان، ولا خليفة! ومن لايصدق قولنا هذا : فلينظر في الكتاب والسنة. لقد أبرزت جمعيتنا بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأوامر الله وأوامر الرسول الموجهة الى الحكومة والأهالي.

لكن السلطان عبدالحميد، أشاح بوجهه بعيداً عن أوامر الله ، وأوامر الرسول .

---

(١)انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٥٠.

وبالتالي : أثبت ظلمه ولم يخجل من الاعتراض على الله، لذلك ينبغي على شعبنا ، أن يلجأ الى السلاح ضده وإذا لم يفعل الشعب هذا، فليتحمل إذاً وزر ماعليه السلطان عبدالحميد من ظلم(١).

لقد كان الفكر الحاكم في اتجاهات جمعية (الاتحاد والترقي) ، هو : الماسونية وهي لاتعترف بالأديان، والفلسفة الوضعية (العقلانية وهي تنفي الدين) والعلمانية (وهي تبعد الدين عن الحياة)، ومع ذلك استخدم الثوار الاتحاديون الدين لمحاربة السلطان عبدالحميد الثاني وافتروا عليه باسم الدين(٢).

إن التهم التي وجهت للسلطان عبدالحميد الثاني لاتثبت أمام البحث العلمي، والحجج، والبراهين الدالة على براءته الكلية مما ينسب إليه، فقد أثبتت الأدلة على عدم علم السلطان عبدالحميد بحادث ٣١ مارت، كما أنه (من المحال إحراق السلطان عبدالحميد للمصاحف، فهو سلطان معروف بتقواه، ولم يعرف عنه تركه للصلاة وأهماله للتعبد، كما أنه معروف بعدم اسرافه ولأنه لايعرف الاسراف فقد كان المال يتوفر معه دائماً ولذلك فقد أزاح من على كاهل الدولة أعباء كثيرة من ماله الخاص). وعن ظلمه وسفكه للدماء فلم يعرف عن السلطان عبدالحميد هذا، وسفك الدماء لم يكن أبداً ضمن سياسته(٣).

ولم لا يغيب عن بال الانقلابيين الضغط على مفتي الاسلام محمد ضياء الدين بإصدار فتوى الخلع ففي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٠٩م اجتمع ٢٤٠ عضواً من مجلس الأعيان في جلسة مشتركة وقرروا بالاتفاق خلع السلطان عبدالحميد الثاني وكتب مسودة الفتوى ا لشيخ نائب حمدي افندي المالي لكن أمين الفتوى نوري أفندي الذي دعى للاجتماع رفض هذه المسودة وهدد بالاستقالة من منصبه ان لم يجر تعديل عليها وأيده في التعديل عدد من انصاره من النواب فعدل القسم الأخير على أن يقرر مجلس المبعوثان عرض التنازل عن العرش أو خلعه.

---

(١) انظر : السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٨٣،٢٨٢.

(٢) انظر : السلطان عبدالحميد الثاني، ص٢٨٣.

(٣) انظر : العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٥٠.

وإليكم نص الفتوى:

(الموقع عليها من شيخ الاسلام محمد ضياء الدين أفندي ووافق عليها مجلس المبعوثان بالإجماع (إذا قام أمام المسلمين زيد فجعل ديدنه طي واخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية وجمع الكتب المذكورة والتبذير والإسراف من بيت المال واتفاقية خلاف المسوغات الشرعية وقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي وسائر المظالم الاخرى ثم اقسم على الرجوع عن غيه ثم عاد فحنث وأصر على أحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة فورد من المسلسين من كافة الاقطار الاسلامية بالتكرار مايشعر باعتبار زيد هذا مخلوعاً فلوحظ ان في بقائه ضرراً محققاً وفي زواله صلاحاً فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم. الجواب: نعم يجب)[١].

قرأت هذه الفتوى في الاجتماع المشترك للمجلس الملي فصرخ النواب الاتحاديون نريد خلعه وبعد مداولات تم الموافقة على خلع السلطان عبدالحميد الثاني[٢].

وبتكليف من جمعية الاتحاد والترقي تم تكوين لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين وسلطان الدولة العثمانية عبدالحميد الثاني بقرار خلعه. وكانت هذه اللجنة تتألف من:

١- **إيمانويل قراصو:** وهو يهودي أسباني. كان من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة وكان مسؤلاً أمام جميعة الاتحاد والترقي عن إثارة الشغب، وتحريضه ضد السلطان عبدالحميد الثاني وتأمين التخابر بين سلانيك واستانبول فيما يتعلق بالاتصالات الحركة. وقراصو هذا محام، عملت جميعة الاتحاد والترقي بنجاح على تعيينيه في المجلس النيابي العثماني نائباً عن سلانيك مرة وعن استانبول مرتين. وصفته المصادر الانكليزية بأنه من قادة الاتحاد والترقي. عمل أثناء الحرب مفتشاً للاعاشة ، واستطاع أثناء وجوده في هذا المنصب ان يجمع أموالاً كثيرة لحسابه الخاص، ولعب دوراً هاماً في احتلال إيطاليا

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، ص٤١٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٤١٠.

لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا. واضطر نتيجة لخيانته للدولة أن يهرب الى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في تريسنا حيث مات عام ١٩٣٤م. وكان أثناء وجوده في الدولة العثمانية الاستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا ريزولتا الماسوني.

٢- **آرام** : وهو أرمني عضو في مجلس الأعيان العثماني.

٣- **أسعد طوبطاني**: وهو الباني ، نائب في مجلس المبعوثان عن منطقة دراج.

٤- **عارف حكمت**: وهو فريق بحري وعضو مجلس الأعيان، وهو كرجبي العراق[١].

يروي السلطان عبدالحميد في مذكراته تفاصيل هذه الحادثة فيقول: (إن مايحزنني ليس الابعاد عن السلطة، ولكنها المعاملة غير المحترمة التي ألقاها بعد كلمات أسعد باشا هذه والتي خرجت عن كل حدود الأدب ، حيث قلت لهم: إنني أنحني للشريعة ولقرار مجلس المبعوثان ذلك تقدير العزيز العليم، سوى إني أؤكد بأنه لم يكن لي أدنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالاحداث التي تفجرت في ٣١ مارت ثم أردف قائلاً: (إن المسؤولية التي تحملتموها ثقيلة جداً). ثم أشار عبدالحميد الى قرصو قائلاً: (ماهو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة[٢]؟ وبأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي؟)[٣].

لقد اعتبر اليهود والماسونيون هذا اليوم عيداً لهم، وابتهجوا به وساروا بمظاهرة كبيرة في مدينة سلانيك، ولم يكتف الماسونيون بذلك بل طبعوا صورة هذه المظاهرات في بطاقات بريدية لتباع في أسواق تركيا العثمانية ولمدة طويلة. لقد كان الاتحاديون يفتخرون دائماً بأنهم ماسونيون. وقد أدلى رفيق مانياسي زادة بتصريحات الى صحيفة تمبس والفرنسية في باريس عقب نجاح انقلاب حركة الاتحاد والترقي، حيث جاء فيها:(لقد كانت للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الايطالية

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٥١.

(٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص٢١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٢٠.

التي أمدتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها)[1].

إن هذه العلاقة بين الصهيونية والماسونية، وضحها السلطان عبدالحميد الثاني في الرسالة التي وجهها الى الشيخ محمود أبي الشامات شيخه في الطريقة الشاذلية بعد خلعه وذلك في سنة ١٣٢٩هـ[2] وقد جاء في هذه الرسالة:

(إن هؤلاء الاتحاديون قد أصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم اصرارهم، لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي: (إنكم لو دفعتم ملئ الدنيا ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الاسلامية والأمة المحمدية مايزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين). وبعد جوابي هذا اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدوني الى سلانيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير. هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن الطخ العالم الاسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة! فلسطين)[3].

وفي مقال نشرت في جريدة (بويوك ضوغو) التركية في ٢ مايو عام ١٩٤٧م العدد ٦١ يقول (محرم فوزي طوغاي) تحت عنوان (فلسطين والمسألة اليهودية) الآتي:

(منع السلطان عبدالحميد تحقيق هدف إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وكلف هذا لمنع السلطان عبدالحميد غالياً وأودى بعرشه، وأدى هذا فيما بعد الى انهيار الدولة العثمانية كلها). رغم أنه كان يدرك -كما قال نظام الدين لبه دنلي أوغلو- في دراسته عن دور اليهود في هدم الدولة العثماينة أن: (اليهود يمتلكون قوى كثيرة تستطيع النجاح في العمل المنظم ، فالمال كان عندهم والعلاقات التجارية الدولية كانت في أيديهم. كما كانوا

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٢١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٢٢.

(٣) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص٢٢٣.

يمتلكون الصحافة الأوروبية والمحافل الماسونية)[1].

إن بعض أقطاب حركة الاتحاد والترقي اكتشفوا فيما بعد أنهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية، فهذا أنور باشا الذي لعب دوراً مهماً في إنقلاب عام ١٩٠٨م، يقول في حديث له مع جمال باشا أحد أركان جميعة الاتحاد والترقي: (أتعرف ياجمال ماهو ذنبنا؟ وبعد تحسر عميق قال: (نحن لم نعرف السلطان عبدالحميد، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية فهذا ذنبنا الحقيقي)[2].

وفي هذا المعنى، يقول أيوب صبري قائد الاتحاديين العسكريين: (لقد وقعنا في شرك اليهود، عندما نفذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيين لقاء صفيحتين من الليرات الذهبية في الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبدالحميد لتنفيذ مطالبهم، إلا إنه لم يقبل بذلك)[3].

ويقول في هذا الصدد برنارد لويس: (لقد تعاون الاخوة الماسونيون واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبدالحميد، لأنه كان معارضاً قوياً لليهود، إذ رفض بشدة إعطاء أي شبر أرض لليهود في فلسطين)[4].

وقد علق نجم الدين أربكان المجاهد الكبير زعيم حزب الرفاه في تركيا على هذا الموضوع قائلاً: (إن الحركة الماسونية سعت سعياً شديداً لعزل السلطان عبدالحميد، ونجحت في سعيها وأن أول محفل فتح في تركيا العثمانية كان على يد أميل قره صو وهو صهيوني وقد انضم إليه ضباط منطقة سالونيكا..)[5].

---

(١) انظر: السلطان عبدالحميد الثاني، ص٨٨.

(٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص٢٢٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٢٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٢٩.

(٥) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص٢٢٩.

وبعد إبعاد عبدالحميد الثاني من السلطة، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غبطتها في الخلاص من (مضطهد اسرائيل) كما وصفته هذه الصحف. وفي هذا الصدد يقول لوثر : (وبعد إبعاد عبدالحميد من السلطة ، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غبطتها، وأخذت تزف البشائر بالخلاص من (مضطهد اسرائيل) الذي رفض استجابة طلب هرتزل لمرتين، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا قانون الأجانب)(١).

واستمرت الحملات الاعلامية المنظمة تشهر تشهيراً عنيفاً بالسلطان عبدالحميد الثاني استهدف أعداء الاسلام من تلك الحملات:

١- الدفاع عن أعضاء الاتحاد والترقي، مبررين تصرفهم في إنهاء حكم السلطان عبدالحميد كي تسترد الدولة مكانتها.

٢- تغطية فشل الاتحاد والترقي في حكم الدولة، فقد لجأ رجال الاتحاد والترقي الى القوة والاستبداد ، وأثاروا الفرقة بين سكان البلاد.

٣- إبراز صورة مشرقة لعهد الطاغية الملحد مصطفى كمال آتاتورك وأعوانه، وتبرير تصرفات عملاء اليهود والانكليز والدول الغربية في إلغاء الخلافة والسلطنة وإعلان الجمهورية التركية.

٤- رغبة الصهاينة في تدمير سيرة السلطان عبدالحميد الثاني إنتقاماً منه لسياسته المعادية لأهدافهم في فلسطين(٢).

وحقيقة الأمر أنه لولا أصالة الدولة العثمانية وعراقتها وشموخها لأصبحت هباءً منبثاً، وطويت صفحاتها في القرن الثامن عشر او القرن التاسع عشر، ولكنها ظلت تقاوم عوادي الزمن أكثر من قرنين ونتيجة للزحف الاستعماري ، والكيد اليهودي ، والنخر

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٣٠.

(٢) انظر: الدولة العثمانية ، د. الشناوي (١٠١٨/٢-١٠٢٣).

الماسوني ، والضعف الشديد الذي انتاب الدولة ، وهو ضعيف لم يكن للسلطان عبدالحميد مسؤلاً عنه غدت ممتلكات الدولة نهباً بين الدول الأوروبية الاستعمارية التي كانت تخطط منذ زمن بعيد للقضاء على الدولة[1] .

---

(١) المصدر السابق نفسه (١٠٦١/٢).

المبحث السادس

حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية

تولى السلطنة والخلافة بعد السلطان عبدالحميد الثاني أخوه محمد رشاد إلا أنه في الحقيقة لايملك أي سلطة فعلية وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقي وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها، قومية في عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها. فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة الأفكار القومية الطورانية التي تدعو الى تحرير كافة الاتراك. سدعين أن الشعوب الاسلامية في الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة، وهي الأفكار التي تطورت أخيراً بمجهودات بعض كتاب الجمعية وعلى رأسها مونيز كوهين اليهودي، والكاتب التركي الشهير ضيا كوك آلب، فاتبعت سياسة التتريك وذلك بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة أن كانت تقف اللغة العربية الى جانبها. فتأججت حركة الدعوة الى القومية العربية، في مواجهة حركة التتريك.

كوّن العرب حزب اللامركزية وتعني أن تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً وتبقي خاضعة خارجياً لاستانبول -كما كونوا جمعيات سرية مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبدالكريم الخليل والضابط عزيز علي المصري، والجمعية العربية الفتاة التي تشكلت في باريس عام ١٣٢٩هـ على منهج جمعية تركيا الفتاة ومن قبل طلاب يدرسون هناك تشبعوا بالأفكارت الغربية وخاصة مبادئ العصبية القومية واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونية وكان قصدهم: استقلال العرب التام، وقد نقلوا مقرهم من باريس الى بيروت ثم الى دمشق حيث ازداد عدد الأعضاء وخاصة من النصارى العرب.

وتكونت الجمعية الاصطلاحية في بيروت عام ١٣٣١هـ وتعاونت مع جمعية النهضة اللبنانية في المهجر فقدمتا رسالة مشتركة الى حكومة فرنسا عام ١٣٣١هـ التمستا فيها منها احتلال سوريا ولبنان بينما اتجه بعض مثقفي العراق نحو الانكليز وايد بعضهم إقامة إشراف بريطاني على برامج الإصلاح، بل وحتى الى بسط الحماية البريطانية على

البلاد[1].

ولما بطش الاتحاديون بأعضاء الجمعيات العربية، قامت العربية الفتاة بعقد مؤتمر عربي في باريس سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م، وقد هيأ الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع وقرر المؤتمرون :

١- ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة.

٢ اشراك العرب بالإدارة المركزية.

٣- جعل اللغة العربية لغة رسمية في كافة الولايات العربية .

٤- جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلا حين الضرورة .

٥- التعاطف مع مطالب الأرمن .

وأكد الأعضاء بأن حركتهم لا دينية وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر وكان برئاسة عبدالحميد الزهراوي[2].

وقد علقت فرنسا آمالاً كبيرة على المؤتمر وكان لها العديد من الانصار في داخله ثم قامت بنشر مقرراته.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ/١٩١٤-١٩٤٨م) دخلت تركيا الحرب الى جانب دول الوسط (المانيا والنمسا) في حين تمكن الانكليز (بمراسلات الحسين مكماهون) من جر العرب الى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) فسادت فكرة القومية العربيةووقع الصدام بين العرب والترك[3].

وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ووقعت الاستانة تحت سيطرة الانكليز وأصبح الخليفة كالأسير فيها.

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ، د. علي حسون، ص٢٤٩.

(٢) انظر: حاضر العالم الاسلامي د. جميل المصري (١٠٩/١).

(٣) المصدر السابق نفسه (١١٠/١).

إن خلع السلطان عبدالحميد وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تم أثناء الحرب وبعد الحرب في مراحل نلخصها فيما يلي:

١- اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الاسلامي الخاضع للدولة العثمانية بين الحلفاء، تجلى ذلك في معاهدة سايكس بيكو سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦م السري في الوقت الذي وعد فيه العرب بالاستقلال. وأهم ماتضمنته هذه المعاهدة:

- أن يكون جنوب العراق لبريطانيا، وساحل سوريا الشمالي (لبنان والساحل الشمالي من سوريا) لفرنسا.

- تتكون دولتنا عربيتان شمال العراق وأواسط بلاد الشام وجنوبها، يكون النفوذ في الأولى التي تشمل شمال العراق وشرق الأردن لبريطانيا، والنفوذ في الثانية التي تشكل أواسط سوريا والجزيرة الفراتية لفرنسا.

- تكون فلسطين دولية.

- تكون الآستانة والمضائق (البسفور والدردنيل) لروسيا[(١)].

٢- وعد بلفور الذي أصدرته بريطانيا للصهيونية في ٢/١١/ ١٩١٧م (محرم ١٣٣٦هـ) بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود.

٣- تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية بنقلها من دولة ذات طابع إسلامي إلى دولة غربية الطابع، فيمكن القول بأن الفترة التي بدأت في تركيا بخلع السلطان عبدالحميد وتولي الاتحاديين للحكم هي الفترة التي اجتمعت فيها إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية وإبراز طابع الجامعة الطورانية وإبلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفاً وقسوة مما مهد إلى زوال الدولة والتهام الغرب للأجزاء العربية ومنح اليهود وعد بلفور الذي يعطيهم الحق في إقامة دولة

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١/ ١١٠)

فلسطين[1].

فقد قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لا دينية، ولما احتل الانجليز استانبول (الاستانة) وأصبح الخليفة شبه أسير في أيديهم، وأصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال هازنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء في استانبول) هما أصحاب السيادة الفعلية[2].

وكانت اللعبة العالمية للقضاء على الخلافة العثمانية نهائياً تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرمق الباقي في جسم الأمة فينهشه ويجهز عليها وهذا أفضل قطعاً من كل الـ (مائة مشروع لتقسيم تركيا (وهدم الإسلام[3].

وتمت صناعة البطل بواسطة المخابرات الانجليزية بنجاح باهر، وظهر مصطفى كمال بمظهر المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء واليونان الذين احتلوا أزمير بتمكين من بريطانيا سنة ١٣٣٨هـ وتوغلوا في حقد صليبي دفين في الأناضول، فقام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد في الأتراك ورفع القرآن ورد اليونانيين على أعقابهم، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته وأخلت أمامه المواقع وبدأ مصطفى كمال يطفوا على السطح تدريجياً فقد ابتهج العالم الإسلامي وأطلق عليه لقب الغازي ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء

فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أول بيت من قصيدة مشهورة[4]

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك جدد خالد العرب

---

(١) المصدر السابق نفسه (١١٠/١)

(٢) المصدر السابق نفسه (١١١/١).

(٣) انظر: العلمانية ، د. سفر الحوالي ، ص٥٦٩.

(٤) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١١١/١).

ثم يجعله في مصاف صلاح الدين الأيوبي حين يقول:

حذوت حرب الصلاحيين في زمن | فيه القتال بلا شرع ولا أدب

وشبه انتصاره بانتصار بدر فيقول:

يوم كبدر فخيل الحق راقصه | على الصعيد وخيل الله في السحب

تهيئة أيها الغازي وتهنئة | بآية الفتح تبقى آية الحقب[1]

فكان الناس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفر باستسلام الخليفة وحيد الدين محمد السادس القابع في الاستانة مستكيناً لما يجري عليه من الذل، كبر في نظرهم الأول بمقدار مايهون الثاني، وزاد في سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف بإهدار دم مصطفى كمال واعتباره عاصياً متمرداً. ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلاً مكافحاً يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة، الذي خيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة.

ولكنه لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته صنيعة لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى وخاصة انجلترا التي رأت أن الغاء الخلافة ليس بالأمر الهين وإن ذلك لايمكن أن يتم دون اصطناع بطل وإعطائه صورة عظيمة وإظهار هالة حوله وتصويره وكأن الكرامات تجري على يديه وعندها يمكن توجيه الطعنة على يديه بلا ألم عميق إذ الشعور قد تخدّر من نشوة الانتصارات الزائفة، فالخلفاء أنفسهم هم الذين اصطنعوا القلاقل وطلبوا من السلطان إخمادها واقترحوا اسم مصطفى كمال لتلك المهمة ليصبح محط آمال الناس وموضع تقدير ضباط الجيش فتتصاعد مكانته وهيبته وتتدهور سمعة الخليفة وينحط مركز الخلافة في أعين الناس، فألاعيب الانجليزية لاتدرك بسهولة[2].

لقد استطاعت المخابرات الانجليزية أن تجد ضالتها المنشودة في شخصية مصطفى

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١١١/١).

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، ص٢٧٧.

كمال وكانت تلك العلاقة بين المخابرات الإنجليزية ومصطفى كمال بواسطة رجل المخابرات الانجليزي (ارمسترونج) الذي تعززت علاقته في فلسطين وسورية، عندما كان مصطفى كمال قائداً هناك في الجيش العثماني.

نجد أرمسترونج في كتابه عن مصطفى كمال يضع إصبعه بصراحة على بداية العقد النفسية عند مصطفى كمال حينما يشير إلى الزواج الثاني لوالدته من أحد الروديسيين الميسورين، وانقطاعه عن زيارتها ولجوئه إلى أصحابه من الرهبان المقدونيين، الذين تلقفوه فلقنوه مبادئ اللغة الفرنسية، مع صديقه المقدوني (فتحي). فإلتهما كتب فولتير وروسو ومؤلفات هوبز وجون ستيورات ميل وغيرها من الكتب المنوعة، حتى أصبح ينظم الشعر الملتهب بمشاعر القومية ويخطب في ملائه بالكلية العسكرية، فيحدثهم عن فساد السلطان، قبل أن يتجاوز العشرين من العمر. ثم انتقل إلى استانبول وانغمس في ملاهيها وحاناتها، وراح يشرب ويقامر ويغازل، قبل أن يسجن لانضمامه إلى (جمعية وطن)[1].

ويشهد ارمسترونج بعلاقة الاتحاد والترقي بالدونمة والماسونية في معرض تأريخه لحياة مصطفى كمال فيذكر كيف (دعي لحضور احد اجتماعاتها في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الايطالية، والجمعيات الماسونية الايطالية إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية وقد دأب الاتحاديون على الاحتماء بحصانة اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر، وكان بعضهم كفتحي المقدوني صديق كمال القديم، قد انضم إلى جماعة الماسون (البنائين الأحرار) ويروي كيف استعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية، وصاروا يتلقون الإعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات ويتصلون باللاجئين السياسيين الذين نفاهم السلطان إلى خارج البلاد.

ويكشف ارمسترونج كيف وقع الاختيار على مصطفى كمال وحده، من دون بقية أقرانه، لتنفيذ آخر خطوة في الخطة البريطانية فيقول: (ان طبيعته كانت تميل إلى

---

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، ص٢٦٥،٢٦٦.

أن يكون الآمر الناهي، فلم يظهر أي احترام لزعماء الاتحاديين، وتشاجر مع : أنور وجمال وجاويد اليهودي الأصل، ونيازي الألماني المتوحش، وطلعت الدب الكبير، الذي كان موظفاً صغيراً في مصلحة البريد.

وبعد أن تحول مصطفى كمال من مجرد ضابط صغير ثائر على الأوضاع الى قائد عسكري يملك رصيداً من الأمجاد والانتصارات لقبت بـ(الغازي) بفضل نفوذ رجال الاستخبارات البريطانية، ويذكرنا أرمسترونج صفحة جديدة من حياته الخاصة بعد كشفه عن مجونه وفسقه، وأهليته لنسف الخلافة الاسلامية ، فيتطرق الى زواجه الاسطوري من (لطيفة) تلك الفتاة الاميرية الموسرة التي عادت لتوها من باريس لتقدم خبراتها الادارية وثقافتها العصرية وإجادتها لعدة لغات فضلاً عن أنوثتها وسحرها مع قصر أبيها الفاخر في أزمير الى الغازي مصطفى كمال ، الذي أوقعته في حبائلها بتمنعها ودلالها فتخلص من (فكرية) التي أرسلها الى ميونخ للعلاج من المرض الذي نقله إليها، ثم دبر أمر انتحارها كما تخلص من (صالحة) ليقوم بزواج خاطف من (لطيفة) بعد أفسد حياة (سعادت) وعشرات البنات والنساء والغلمان وغيرها، كما تؤكد ذلك الوثائق التي تركها أحد زملائه من الضباط المتقاعدين[1] . وقد كانت لطيفة نفسها ضحية من ضحاياه، فيما بعد، حيث طلقها بقرار وزاري ، وتركها فريسة للأمراض والأوجاع، بعد تحذيرها للصمت من كل شذوذه، ولم تبق بجانبه إلا (عفت) ، تلك الفنانة التي كانت له معلمة ومؤرخة، حتى استطاعت أن تقود ذلك الوحش -على حد تعبير - بأسلوب الخضوع والعبودية له.

ولكن (لطيفة) هانم أشاكي كيل لك يمنعها قانون حماية مطصفى كمال من أي هجوم أو نقد من التلميح بين سطور مذكراتها التي نشرتها صحيفة (الحرية) التركية في حزيران (يونيو) عام ١٩٧٣من تسليط بعض الأضواء على حياة اتاتورك الخاصة وأفراطه في الشرب، محاولة إلقاء المسؤولية على اصحابه وزملائه أمثال: (قلج علي) و(نوري جنكر) ، و(رجب هدى) الذي كانوا يتعمدون اهدار وقته وهم مجموعة من القتلة والاشقياء المعروفين الذين ضمهم الى حاشيته ولحراسته وأصبح بعضهم يرفع الكلفة معه الى أبعد

---

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، ص٢٦٧.

الحدود بعد تنفيذهم للعديد من المهمات الاجرامية التي كلفهم بها للتخلص من بعض خصومه[1].

إن تلك الأخلاق العفنة التي اشتهر بها مصطفى كمال لاتستغرب منه خصوصاً عندما نعلم أن أصله من يهود الدونمة.

فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية : (لقد أكد الكثير من اليهود سلانيك أن كمال آتاتورك كان أصله من الدونمة، وهذا هو أيضاً رأي الاسلاميين المعارضين لكمال آتاتورك، ولكن الحكومة تنكر ذلك)[2].

ويعلق تويني على نسب مصطفى كمال قائلاً : (إن دماً يهودياً يجري في عروق الأسرة الكمالية. فقد كانت سلانيك مهبط اليهود أيام محنتهم. وقد درؤوا عقائدهم باعتناق الاسلام . ولكن طبائع مصطفى كمال ولون عينه وتكوينه الجسمي يبعده عن أن يكون متأثراً بدماء يهودية)[3].

ويقول أسامة عيناي : (أن الدونمة يعتزون كثيراً بآتوتورك ويعتقدون اعتقاداً راسخاً انه منهم وحجتهم في ذلك أن أتاتورك أسفر عن نياته ضد الاسلام حين تولى الحكم)[4].

إن افعال مصطفى كمال دلت على بغضه للاسلام فيما بعد، فبينما كان في عام ١٣٣٧هـ عندما انتصر على اليونان في انقرة يعلن أمام الشعب: (إن كل التدابير التي ستتخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة وتحرير السلطان والبلاد من الرق الأجنبي)[5]، نجده بعد أن تمكن من العباد والبلاد في عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م تعلن الجمعية

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٧.

(٢) انظر: يهود الدونمة، د.النعيمي، ص٨٧ الى ٨٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٩٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٩٤.

(٥) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١/١١٢).

الوطنية التركية بزعامته عن قيام الجمهورية التركية وانتخب مصطفى كمال أول رئيس لها، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتاً بالخلافة فاختير عبدالمجيد بن السلطان عبدالعزيز خليفة بدلاً من محمد السادس الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية الى مالطة ولم يمارس السلطان عبدالمجيد اي سلطات للحكم[1].

كان الخليفة عبدالمجيد رجلاً مهذباً مثقفاً كما يليق بسلالة بني عثمان، وقد اصبح في نظر الاتراك الصلة الحية بالتراث والتاريخ العثماني الاسلامي ، وكانت جماهير استانبول تهرع لإلقاء نظرة عليه وتحيته كل جمعة وهو في طريقه لأداء الفريضة، وكان الخليفة مدركاً تمام الإدراك مكانة منصبه السامية، وعراقة السلالة التي ينتمي إليها، فكان مرة يرتدي عمامة محمد الفاتح وثانية يتقلد لسيف السلطان سليمان القانوني.

استشاط مصطفى كمال غيظاً فما كان ليطيق أن يرى أو يسمع عن محبة الناس وتعلقهم بآل عثمان وبالخلافة والسلطنة، فمنع الخليفة من الخروج للصلاة ثم خفض مخصصاته للنصف وحكم مصطفى كمال البلاد بالحديد والنار، وضمن تأييد الدول العظمى لسياسته التعسفية.

دعا مصطفى كمال الجمعية التأسيسية إلى اجتماع في ٣ آذار/ مارس ١٩٢٤م، وكان على ثقة تامة من أن أحداً في الجمعية التأسيسية - التي لم يبقى منها سوى اسمها - لن يجرؤ على معارضته، وطرح على الجمعية مشروع قرار بإلغاء الخلافة التي أسماها (هذا الورم من القرون الوسطى ([2]، وقد أجيز القرار الذي شمل نفي الخليفة في اليوم التالي دون مناقشة، وانطفأت على يد مصطفى كمال شعلة الخلافة التي كان المسلمون طيلة القرون يستمدون من بقائها رمز وحدتهم واستمرار كيانهم[3].

لقد كان مصطفى كمال ينفذ مخططاً مرسوماً له في المعاهدات التي عقدت مع الدول الغربية، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٣م على تركيا فقبلت شروط

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١/١١٢).

(٢) انظر: التاريخ العثماني في شعر احمد شوقي لمحمد ابوغدة ، ص١١٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١١٠.

الصلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع (وهو رئيس الوفد الانجليزي في مؤتمر لوزان (وهي:

١- قطع كل صلة لتركيا بالإسلام.

٢- إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً.

٣- إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة.

٤- اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم[1].

وعم الاستياء الشديد العالم الإسلامي، فشوقي الذي مدحه سابقاً بكى الخلافة فقال:

عادت أغاني العرس رَجْعَ نواح	ونُعيت بين معالم الأفراح
كُفنتِ في ليلِ الزفاف بثوبه	ودُفنتِ عند تبلّج الإصباح
ضجّت عليك مآذن ومنابر	وبكيت عليك ممالكٌ ونواحِ
الهندُ والهة، ومصر حزينة	تبكي عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل، والعراق وفارسٌ	أمحا من الأرض الخلافة ماح
ياللرجال لحُرةٍ مؤودة	قُتِلت بغير جريرة وجُناح

ثم انبرى شوقي بوجه التقريع والنقد الشديد الى اتاتورك الذي يريد بجرة قلم وبالحديد والنار أن ينقل الاتراك رغم أنوفهم من آسيا الى أوروبا ، ومن جذورهم العميقة في الشرق الى الانتظار على أبواب الغرب:

بكتِ الصلاة وتلك فتنةُ عابثٍ	بالشرع عربيدِ القضاء وَقاح

(١) انظر: تاريخ الدولة العثماني، د.علي حسون ص٢٨٧.

أفتى خزعبلةً وقال ضلالة | وأتى بكفر في البلاد بَواحِ
إن الذين جرى عليهم فِقْهُهُ | خلقوا لفقهِ كتيبة وسلاحِ
نُقَل الشرائعَ والعقائد والقُرى | والناسَ نَقْلَ كتائب في الساحِ
تركته كالشبح المؤلة أمه | لم تسلُ بَعْدُ عبادة الأشباحِ
غرته طاعات الجموع ودولة | وَجَد السواد لها هوى المرتاحِ[1]

ولم يترك شوقي أن يبين سبب ظهور هؤلاء المتسلطين الى جهل الشعوب واستسلامها للطغاة المستبدين فقال:

مجدُ الأمور زواله في زَلَةٍ | لا ترج لا سمك بالأمور خلوداً
خلعته دون المسلمين عصابةٌ | لم يجعلوا للمسلمين وجوداً
يقضون ذلك عن سواد غافل | خَلِقَ السواد مضَلَلا ومَسُودا
إليّ نظرت الى الشعوب فلم أجد | كالجهل داءً للشعوب مُبيدا
وإذا سبي الفردُ المسلط مجلساً | ألفيت أحرار الرجال عبيداً[2]

لقد نفذ مصطفى كمال المخطط كاملاً وابتعد عن الخطوط الاسلامية ودخلت تركيا لعمليات التغريب البشعة، فألغيت وزارة الأوقاف سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، وعهد بشؤونها الى وزارة المعارف. وفي عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م أغلقت المساجد وقضت الحكومة في قسوة بالغة على كل تيار ديني وواجهت كل نقد ديني لتدبيرها بالعنف. وفي عام (١٣٥٠-١٣٥١هـ/١٩٣١-١٩٣٢م) حددت عدد المساجد ولم تسمح بغير مسجد واحد في كل دائرة

(١) انظر : التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، ص١١٢.

(٢) انظر: الشوقيات ديوان احمد شوقي (١١٢/١).

من الأرض يبلغ محيطها ٥٠٠متر وأعلن أن الروح الاسلامية تعوق التقدم.

وتمادى مصطفى كمال في تهجمه على المساجد فخفض عدد الواعظين الذين تدفع لهم الدولة أجورهم الى ثلاثمائة واعظ ، وأمرهم أن يفسحوا في خطبة الجمعة مجالاً واسعاً للتحدث على الشؤون الزراعية والصناعية وسياسة الدولة وكيل المديح له. وأغلق أشهر جامعين في استانبول وحول أولهما وهو مسجد آيا صوفيا الى متحف، وحول ثانيهما وهو مسجد الفاتح الى مستودع.

أما الشريعة الاسلامية فقد استبدلت وحل محلها قانون مدني أخذته حكومة تركيا عن القانون السويسري عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م. وغيرت التقويم الهجري واستخدمت التقويم الجريغوري الغربي، فأصبح عام ١٣٤٢هـ ملغياً في كل انحاء تركيا وحل محله عام ١٩٢٦م.

• وفي دستور عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م أغفل النص على أن تركيا دولة إسلامية، وغير نص القسم الذي يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً من أن يحلفوا بالله كما كان عليه الأمر من قبل.

• وفي عام ١٩٣٥م غيرت الحكومة العطلة الرسمية فلم يعد الجمعة، بل أصبحت العطلة الرسمية للدولة يوم الاحد، وأصبحت عطلة نهاية الاسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السبت وتستمر حتى صباح يوم الاثنين.

• وأهملت الحكومة التعليم الديني كلية في المدارس الخاصة، ثم تم إلغاءه بل أن كلية الشريعة في جامعة استانبول بدأت تقلل من أعداد طلابها التي أغلقت عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.

• وامعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التغريب فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطربوش وأمرت بلبس القبعة تشبهاً بالدول الأوروبية[1].

• وفي عام ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م بدأت الحكومة تفرض إجبارياً استخدام الأحرف

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١/١١٥).

اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية. وبدأت الصحف والكتب تصدر بالأحرف اللاتينية وحذفت من الكليات التعليم باللغة العربية واللغة الفارسية، وحرم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية واما الكتب التي سبق لمطابع استانبول أن طبعتها في العهود السالفة، فقد صدرت الى مصر، وفارس، والهند، وهكذا قطعت حكومة تركيا مابين تركيا وماضيها الاسلامي من ناحية، ومابينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربية والاسلامية من ناحية اخرى[1].

• وأخذ أتاتورك ينفخ في الشعب التركي روح القومية، واستغل مانادى به بعض المؤرخين من أن لغة السومريين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد مابين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال: بأن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة في العالم ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم بعد أن حارب كل نشاط إسلامي وخلع مصطفى كمال على نفسه (أتاتورك) ومعناه أبو الأتراك[2].

• وعملت حكومته على الاهتمام بكل ماهو أوروبي فازدهرت الفنون واقيمت التماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلها، وزاد الاهتمام بالرسم والموسيقى ووفد الى تركيا عدد كبير من الفنانين اغلبهم من فرنسا والنمسا[3].

• وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة وأمرت بالسفور ، وألغي قوامة الرجل على المرأة وأطلق لها العنان باسم الحرية والمساواة، وشجع الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص.

• وفي زواجه من لطيفة هانم ابنه أحد أغنياء أزمير الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان أزمير، أجرى مراسم الزواج على الطريقة الغربية كي يشجع على نبذ العادات الاسلامية واصطحبها وطاف بها أرجاء البلاد وهي بادية المفاتن تختلط مع الرجال

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/١١٥).

(٢) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١/١١٥).

(٣) انظر : المسألة الشرقية للدسوقي ، ص٤٢٨-٤٣٢.

وترتدي أحدث الأزياء المعينة على التبرج الصارخ[1].

• وأمر بترجمة القرآن الى اللغة التركية ففقد كل معانيه ومدلولاته، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية[2].

• عمل على تغيير المناهج الدراسية وأعيد كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضي التركي القومي، وجرى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية، واستبدلت بكلمات أوروبية أو حثية قديمة.

• وأعلنت الدولة عزمها في التوجيه نحو أوروبا وانفصلت عن العالم الاسلامي والعربي، وامعنت حكومتها من استدبار الاسلام حتى حاربت بقسوة أي محاولة ترمي الى إحياء المبادئ الاسلامية[3].

وكان خطوات مصطفى كمال هذه بعيدة الأثر في مصر وأفغانستان وإيران والهند الاسلامية، وتركستان وفي كل مكان من العالم الأسلامي، إذ أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الاستعمارية أن ينفذوا الى مكان الصدارة وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة المزعومة، فقد هللت له صحف مصر الاهرام، والسياسة والمقطم- ذات الاتجاهات المضادة للاسلام ، والمدعومة النفوذ الغربي واليهودي والماسوني.

لقد بررت تلك الصحف تصرفات كمال أتاتورك ووافقت عما ابتدعه، ونشرت له أقوال:(ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين). وأنه -اي مصطفى كمال- : (ألقى القرآن ذات يوم في بده فقال : ان ارتقاء الشعوب لايصلح أن ينفذ بقوانين وقواعد سنت في العصور الغابرة).

لقد كانت حكومة تركيا العلمانية الكمالية -هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان- ليست حكومة دينية من طراز فرنسا والانكلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١/١١٦).

(٢) المصدر السابق نفسه (١/١١٦).

(٣) انظر: الاتجاهات الوطنية لمحمد حسين (٢/١٠٠).

كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ أنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الاناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغى الكنائس[1].

وكان للاعلام اليهودي دور كبير في الترويج لهذه الردة ، مثلما كان له دوره البارز في تشجيع أتاتورك على البطش بأية معارضة اسلامية ، وكانت تزين له أن مايقوم به من المذابح والوحشية ضد المسلمين ليست سوى معارك بطولية، كما كانت منبراً لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي والمناداة بالحرية الفاجرة للمرأة التركية، والترويج لفنون الانحلال الخلقي معتبرة أن شرب الخمر والمقامرة والزنا ليست إلا مظاهر للتمدن والتحضر[2].

إن الحقيقة المرة أن مصطفى كمال أصبح نموذجاً صارخا للحكام في العالم الاسلامي وكان لأسلوبه الاستبدادي الفذ أثره في سياسات من جاء بعده منهم، كما أنه أعطى الاستعمار الغربي مبرراً كافياً للقضاء على الاسلام فإن فرنسا مثلاً بررت حرصها على تنصير بلاد شمال الأفريقي وأخراجها من دينها وعقيدتها واسلامها بأنه لايجب عليها أن تحافظ على الاسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم[3].

لقد أصبح مصطفى كمال زعيماً روحياً لكثير من الحكام الذين باعوا آخرتهم بدنياهم الزائلة.

قاد المسلمون ثورات مسلحة ضد الحكم العلماني التركي المعادي للاسلام وظهرت أهم الثورات في المنطقة الجنوبية الشرقية عام ١٣٤٤هـ، ثم في منيمين عام ١٣٤٩هـ وقد قمعها الكماليون بشدة منقطعة النظير وذهب ضحيتها عدد كبير من العلماء، وأهملت المنطقة اقتصاديا وعلميا.

وقامت حركة النور بزعامة الشيخ بديع الزمان سعيد النورس وتلاميذه من

---

(١) انظر : العلمانية ، د. سفر الحوالي ، ص٥٧٢.

(٢) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١١٧/١).

(٣) انظر: العلمانية، د.سفر الحوالي، ص٥٧٢.

بعده، وقد كتب العديد من الرسائل الاسلامية تحت عنوان (رسائل النور) في سبيل التوعية الاسلامية ومقاومة مبادئ الكماليين والعلمانية، ولم تعمد حركته الى حمل السلاح واقتصر جهادها على اللسان. وقد حاول أتاتورك استمالته ونافشه واستنكر دعوته الناس الى الصلاة مدعياً أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فاجابه:

(إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الاسلام إنما هي في الصلاة. وان الذي لايصلي خائن وحكم الخائن مردود)[1].

فسجنه ثم نفاه بعد أن اتهمه بمؤامرة لقلب نظام الحكم، ولكن دعوته استمرت في الانتشار سراً بين صفوف الجامعين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة، ومثل للمحاكمة مرة أخرى بتهمة أتاتورك بالدجال، فوقف أمام المحكمة وقال:

(إنني لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية، على حين يحق للمارقين الافتراء على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ثم يعد ذلك أمراً مقدساً لأنه حرية. اما نور القرآن الذي يأبى إلا ان يشع في افئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره ، فهو خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة..

أسمعوا يامن بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق: إنني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوة إفعلوا مايمكنكم فعله فغاية مانتمناه أن نجعل رؤسنا فداء لأصغر حقيقة من حقائق الاسلام..)[2].

فأعيد الى منفاه وبقي حتى عام ١٣٦٧هـ حين بدأت الحكومة تضطر للاستجابة لمطالب الشعب المسلم بخصوص النشاط الديني[3].

لقد تجلت سياسة أتاتورك العلمانية في برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهوري)

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١/١١٧).

(٢) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١/١٢٢).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/١٢٢).

لعام ١٣٤٩هـ مرة وعام ١٣٥٥هـ مرة ثانية والتي نص عليها الدستور التركي وهي المبادئ الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهي : القومية ، الجمهورية ، الشعبية ، العلمانية، الثورة، سلطة الدولة)[1].

توفي أتاتورك عام ١٣٥٦هـ بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين. لقد أصيب مصطفى كمال بمرض قبل وفاته بسنين بمرض عضال في الكلية لم تعرف كنهته. وكان يتعرض لآلام مبرحة مزمنة لاتطاق، كانت السبب في إدمانه على شرب الخمر مما أدى الى إصابته بتليف الكبد والتهاب في أعصابه الطرفيه وتعرضه لحالات من الكآبة والانطواء -وقد تدهور في المستويات العليا للمخ- لذلك كان هذا الديكتاتور مثلاً فريد في القسوة والتنكيل والأنانية المدمرة[2].

(١) المصدر السابق نفسه (١/١١٦).

(٢) انظر: المسألة الشرقية ، محمد ثابت الشاذلي ، ص٢٤٢.

المبحث السابع

بشائر إسلامية في تركيا العلمانية

بعد وفاة أتاتورك عام ١٣٥٦هـ تولى الرئاسة رفيقه على الدرب العلماني عصمت اينونو وسار على نهج سياسة أتاتوك. وعند نشوب الحرب العالمية الثانية ألتزمت تركيا الحياد ثم دخلت في نهاية الحرب الى جانب الحلفاء وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، تقاربت تركيا من الولايات المتحدة ودخلت في المعاهدات معها، وأقامت أمريكا على الأراضي التركية قواعد عسكرية، وظهرت الأزمات الاقتصادية العنيفة التي تزايد خطرها يوماً بعد يوم ، وازداد التضخم المالي.

وسمحت الدولة بتشكيل أحزاب علمانية جديدة فنشأ الحزب الديمقراطي عام ١٣٦٦هـ من انشقاق داخل صفوف حزب الشعب الجمهوري نفسه، وفاز في الانتخابات بدغدغة عواطف الناس، وقد تبنى السياسة الأمريكية وأصبح رئيسه جلال بايار رئيساً للجمهورية عام ١٣٧٤هـ ، كما أصبح عدنان مندرس رئيساً للوزراء ، وأصبح منصب رئيس الوزراء يفوق في الأهمية من منصب رئيس الجمهورية.

وبقيت الأزمات والكوارث الاقتصادية في تردٍ مستمر وتوجهت الانتقادات للحزب الحاكم ، فحل الحزب القومي الذي ظهر عام ١٣٦٨هـ بحجة معارضته المبادئ الكمالية ولكنه تشكل باسم آخر هو الحزب القومي الجمهوري، وفرضت غرامات فادحة على الصحفيين الذين يحطون من قدر الحكومة ، وضيق على اساتذة الجامعات والقضاة والموظفين المدنيين بصورة عامة، وفرضت قيود على الاجتماعات عام ١٣٧٦هـ.

ووجه الحزب الديمقراطي التهمة الى كثير من الابرياء بالاشتراك بما سمي:(مؤامرة الضباط التسعة) واتهمهم بالارتداد عن مبادئ العلمانية والميل الى جانب المنظمات الدينية الاسلامية وقد حصل بالفعل بعض التراجع عن بعض العداء ضد الاسلام بفعل الضغط الاسلامي[(١)].

---

(١) انظر: حاضر العالم الاسلامي (١/١٢٠).

حتى إن حزب الشعب الجمهوري، بدأ يغير من اتجاهاته العلمانية منذ الانتقال الى ظاهرة التعدد الحزبي ، حيث وافق الحزب على إنشاء كلية الالهيات، ومعهد العلوم الاسلامية في أنقرة.

واعتمد الحزب الديمقراطي على الجماعات الاسلامية في انتخابات ١٤ أيار ١٩٥٠م، وكان سبباً رئيسياً في فوزه على حزب الشعب الجمهوري، وفضلاً عن ذلك، اعتمدت أحزاب أخرى على الجماعات السالفة الذكر، مثل حزب العدالة في المدة الواقعة بين ١٩٦١ ١٩٨٠م.

وأما حزب الطريق المستقيم؛ فإنه استمد قوته في الثمانينات من الرأي العام الاسلامي.

وركب حزب العمل القومي بزعامة ألب أرسلان توركش الموجة الاسلامية وغيَّر مفهومه عن العلمانية، وبدأ بالتقرب من الرأي العام الاسلامي وكان شعار هذا الحزب في انتخابات عام ١٩٨٧م (دليلنا القرآن، وهدفنا الطوران)[1] .

إلا أن العمل الاسلامي المنظم الذي شق طريقه في تلك الأمواج العلمانية المتلاطمة يظهر جلياً مع ظهور حزب السلامة الوطني.

كانت الحركة الاسلامية في تركيا قبل ظهرو حزب السلامة الوطني تتكون من :

• المتصوفة المناوئة للحركة الكمالية، وهؤلاء حافظوا على التراث الاسلامي بمفهومه الخاص بهم، وواصلوا تحفيظ القرآن سراً وكان هدف هذه الحركة هو الحفاظ على العبادات الاسلامية في نفوس الرأي العام التركي، وفي هذا المجال قاموا بتكوين جمعيات للإنفاق على طلاب مدارس الأئمة والخطباء للإكثار منهم، وتعويض النقص الذي نتج عن اختفاء الدعاة الاسلاميين عندما اصطدم بهم الحزب الكمالي.

• حركة الإمام المصلح الكبير سعيد النورسي والتي تعرف بحركة النور والتي تركزت جهودها على الدعوة الى الايمان بالله واليوم الآخر ومحاربة المادية الملحدة

---

(١) انظر: الحركة الاسلامية الحديثة في تركيا، د. احمد النعيمي، ص١٨٤-١٨٧.

والاهتمام بتربية الأجيال وابتعد الكثير من اتباعها عن السياسة[1].

عندما تحصلت تركيا على نوع من الحريات تقدم الاسلاميون المؤمنون بضرورة خوض المعترك السياسي بتأسيس حزب النظام الوطني في كانون الثاني عام ١٩٧٠م، حيث قام على تأسيسه يونس عارف. وقد جاء دعم هذا الحزب بصورة رئيسية من التجار الصغار والحرفيين والرجال المتدينين في الأناضول، وتوسع الحزب في مدة قصيرة جداً وبدأ يشكل تهديداً خطيراً للأحزاب العلمانية وقد جاء في بيان التأسيس مايلي: (أما اليوم : فإن أمتنا العظيمة التي هي امتداد لأولئك الفاتحين الذين قهروا الجيوش الصليبية قبل ألف سنة، والذين فتحوا استانبول قبل ٥٠٠ سنة، أولئك الذين قرعوا أبواب فينا قبل ٤٠٠ سنة. وخاضوا حرب الاستقلال قبل خمسين سنة. هذه الأمة العريقة تحاول اليوم أن تنهض من كبوتها تجدد عهدها وقوتها مع حزبها الأصيل (حزب النظام الوطني) إن حزب النظام الوطني سيعيد لأمتنا مجدها التليد، الأمة التي تملك رصيداً هائلاً من الاخلاق والفضائل يضاف الى رصيدها التاريخي، والى رصيدها الذي يمثل الحاضر المتمثل في الشباب الواعي المؤمن بقضيته وقضية وطنه)[2].

وقدم حزب النظام برنامج عمله في منظومة من الأفكار يمكن إيجازها في الآتي:

جميع المؤسسات الهامة في تركيا في أيد غربية غير وطنية، والأمر الطبيعي والواجب القومي يقضي بأن تعود هذه المؤسسات الى أصحابها.

عاش الناس أربعين سنة والقوى الخارجية المؤثرة تحاول إبعادهم عن محورهم الحقيقي الى محور غريب، فوقع الناس في ضيق وعنت شديدين، ولابد من إرجاع الناس الى طبيعتهم ومحورهم الاصيل (فطرة الله) حتى يستقيم أمرهم ويتخلصوا من عقائدهم.

إن التسميات المعاصرة مثل اليمين واليسار والوسط هي من اختراع الماسونية والصهيونية، وكلها مؤسسات تابعة لغرض واحد وهو أن تنحرف تركيا عن خطها

---

(١) انظر: المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، عبدالحميد حرب ، ص٤٣٥. ندوة اتجاهات الفكر الاسلامي المعاصر البحرين ١٩٨٥.

(٢) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، ص١٢٦.

الحضاري الذي عمره ألف سنة، وانه لابد من التخلص من هذه الأسماء الغريبة والعودة الى الخط الأصيل الذي يصل الماضي التليد بالغد المشرق.

إن حزب النظام الوطني لايشبه الأحزاب الأخرى، فجميع الأحزاب تقوم على أساس التسلط وشهوة الحكم، ونحن نقوم على أساس جديد يبتغي مرضات الله والعمل في سبيل الوطن.

إن نظام التعليم في تركيا فاسد وضعته شرذمة من الحاقدين من الصليبين واليهود بشكل لايناسب الأمة، فهو يسقط من حسابه كل قيمة معنوية أو اخلاقية او دينية غايته فصل تركيا عن ماضيها الاسلامي وسلخها عن دينها وقيمتها، وبهذه الطريقة فقط يستطيعون أن يقتلوا الجيل ويدمروا البلاد، لقد مرت خمسون سنة ونحن نسمع أن تركيا جزء من أوروبا، وأن النهضة لابد أن تقوم على أنقاض الدين كما حصل في الغرب، متناسين أن الاسلام يختلف عن الكنيسة ودولة القس.

في الوقت الذي تمنع الدولة فيه توزيع الكتب على المعاهد الاسلامية العالية وتحاول إغلاق معاهد الأئمة والخطابة ومدارس تعليم القرآن، تنفق الملايين على المسارح والممثلين وثمناً للمشروبات التي توزع في السفارات وفي الوقت الذي تعترض الدولة على الطالبات اللواتي يلبسن الحجاب على رؤوسهن، تدرس في كتب اللاهوت في كل مكان دونما رقابة أو ضجة وهذا يعني أن حزب النظام الوطني أكد العودة الى الاسلام الحقيقي[1].

إن اليهودوالعلمانيين في تركيا لم يتحملوا هذا الصوت الفتي الذي يتدفق بالحيوية والنشاط ويحركه في قضاياه الإيمان العميق بالاسلام وبضرروة رجوع الشعب التركي إليه، ولذلك تحرك الجيش التركي في آذار ١٩٧١م بسبب نشاط حزب العمال وأحال قضية حزب النظام الوطني الى المحكمة الدستورية التي أصدرت قراراً جائراً بحل الحزب في ٢١ مارس ١٩٧١م[2].

---

(١) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، ص١٢٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٢٨.

وقد جاء في قرار محكمة أمن الدولة العليا مايلي:

إن المبادئ التي قام عليها الحزب وتصرفاته تخالف الدستور التركي.

العمل على إلغاء العلمانية في البلاد، وإقامة حكومة إسلامية.

قلب جميع الأسس الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية التي تقوم عليها البلاد.

العمل ضد مبادئ أتاتورك.

القيام ببعض التظاهرات الدينية.

وجاء في الحكم المحكمة أيضاً انه لايحق لأي شخص من شخصيات الحزب أن تعمل من خلال أي حزب سياسي آخر ، ولا أن يؤسسوا أي حزب جديد، ولا أن يرشحوا أنفسهم لأي انتخابات قادمة ولو بشكل مستقلين لمدة خمس سنوات. وهذا يعني أن المدة بين نشوء الحزب وإغلاقه كانت ستة عشر شهراً فقط[1].

وفي تلك الأحداث الساخنة والمشادة العنيفة بين الاسلام والعلمانية في تركيا ظهر المجاهد الكبير نجم الدين أربكان يخوض المعارك الفكرية مع العلمانيين ففي ٢ آب عام ١٩٧٢م وقبل تأسيس حزب السلامة الوطني تحدث أربكان في المجلس الوطني فقال: (في رأينا أن التوضيح المهم الأكثر ملاءمة لجعل الدستور، دستوراً ديمقراطياً، لابد أن تكون هناك مواد دستورية مناسبة قبل تحديد الحركات وحقوق الفكر والمعتقد، وهكذا من الممكن إيجاد مناخ للتطبيقات الحالية والتي تتعارض مع المبادئ الاساسية للدستور، وفي مثل هذه الحالة ، على المرء أن يتكلم عن وجود فكر الحرية والمعتقد، وأن دولتنا لتسعى وتنمو، ومن ثم لتأخذ مكانتها بين الأقطار الحضارية في العالم)[2].

كان أربكان يرى أن النظام الديمقراطي لايعد ديمقراطياً بدون الحقوق وحرية الفكر والمعتقد ، وكان يقصد من وراء ذلك الحرية التامة لاستخدام نشر الأفكار الاسلامية،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٢٨.

(٢) انظر: الحركة الاسلامية الحديثة في تركيا ، د. النعيمي ، ص١٢٨.

وقد فسرت كل من صحيفتي (جمهوريت) و(ملليت) العلمانيتين تصريحات وأقوال أربكان بأنها ذريعة لاستخدام الدين لأغراض سياسية[1].

لقد هاجم نجم الدين أربكان العلمانية واستفاد من الثغرات الموجودة في الدستور التركي ورد على الحملة الاعلامية العلماينة الموجهة ضد اطروحاته فقال: (إن مصطلحات القومية، والديمقراطية والعلمانية والاجتماعية، والتي تقوم عليها شخصية الدولة، واستناداً الى المادة الثانية من الدستور، إن هذا من الممكن توضيحه بأن هذه المادة لاتسمح بإستخدام وتفسير المعارضة في الممارسة، وفي هذا المجال وبصورة خاصة مصطلح القومية بحاجة الى توضيح ، وهذا يعني أنها بحاجة الى تحديدها بطريقة تقوم على احترام جميع القيم الروحية لقوميتنا من حيث التاريخ والتقاليد[2].

وأضاف نجم الدين قائلاً: (الدين هو معتقد أساسي ونظام فكري للأفراد، وهذا يعني الاعتراف بحق الحرية والوجود والاعتراف بحقوق المعتقد للفرد. إن تحريم الشخص من هذه الأسس هو ضد الروح والمبادئ الاساسية للدستور خاصة الفقرة (١) من المادة (١٩) والمادة (٢٠) من الدستور[3].

بعد هدوء جو العنف والقلق السياسي في السياسة الداخلية التركية من جراء الأحكام العرفية، قام أربكان بلم شعث حزب النظام الوطني وأسس حزباً جديداً أطلق عليه حزب السلامة الوطني.

استطاع حزب السلامة الوطني خلال مدة قصيرة لاتتجاوز ثمانية أشهر من تنظيم قواعد في ٦٧ محافظة ، وأعلن نجم الدين أربكان بأن نجاح حزبه خلال هذه المدة يعود الى تعاطف الرأي العام المحلي مع الحزب الذي ينادي بأهمية الأخلاق الدينية والمواقف المعنوية، وعلى هذا الأساس فقد أكد حزب السلامة الوطني في برنامجه على مايأتي:

(قيام تجمع يعتمد الفضيلة والأخلاق ويعطي القيمة المعنوية للانسان مثلما

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٢٨.

(٢) انظر: الحركة الاسلامية الحديثة في تركيا، ص١٢٨.

(٣) انظر: المعالم الرئيسية للأسس التاريخية لحزب السلامة الوطني ، ص٤٣٥.

نصت عليه المادتان العاشرة والرابعة عشرة من الدستور والتي تؤكد على القيمة المعنوية للإنسان على أساس من الأخلاق والفضيلة)[1].

أهم أعمال حزب السلامة:

- عندما شعر حزب السلامة بقوته، وصار جزءاً من الحياة السياسية في تركيا شرع منظروا الحزب بشن حملة إعلامية منظمة على أسس العلمانية في تركيا وبينوا للناس إن الإطار السياسي لتركيا الجديدة يناقض المبادئ السياسية للإسلام ويقضي الإسلام بتوحيد السلطات السياسية والدينية تحت سيطرة الدين، وفي هذا المعنى، فإن العلمانية، والنظام العلماني ضد الإسلام، والشريعة والدين وخاصة تطبيقها في تركيا، فإنها صممت لضمان الزندقة[2].

ويردف هؤلاء: (إن الخونة والكذابين هم وحدهم الذين يقولون بأن الدين والسياسة شيئان منفصلان، لأن المسلمين لايفضلون شؤون الدنيا عن شؤون السماء. لقد أصبح واضحاً بأن التشريع ليس من حق الإنسان. أما إذا وضع القوانين أو ادعى بأنه يفعل ذلك، فإن علمه هذا يعد خطيئة . إن خالق القوانين الإسلامية هو نفسه خالق الإنسان، لقد خلق الله الإنسان وفق هذه القوانين. إن القوانين الإنسانية لاتتناسب وطبيعة الإنسان. إن الإسلام نظام يصلح لكل زمان، إنه يمثل كلا من الدين والدولة. إن القرآن لم ينزل ليقرأ في القبور أو يغلق عليه في أماكن العبادة. لقد أنزل القرآن ليحكم[3].

إن المجاهد الكبير نجم الدين أربكان شق طريقه بصعوبة في محاربته للعلمانية بالحجة والبرهان ولقد عبر عن آرائه بصراحة خلال مباحثاته مع ضياء الحق حاكم باكستان سابقاً - رحمه الله - مؤكداً أن دخول الإسلام في كافة جوانب الحياة هو الشرط الوحيد لقيام دولة إسلامية، وفي هذا المجال قال نجم الدين أربكان: (قبل كل شيء يجب أن

---

(١) انظر : الحركة الاسلامية الحديثة ، د.النعيمي ، ص١٣٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٣١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٣٢.

تكون الدولة إسلامية، إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن الدين الإسلامي في خطر)[1].

إن حزب السلامة الوطني لم يحاول أن يتخذ موقف الهجوم المباشر على الديمقراطية في انتخابات عام ١٩٧٣م، إلا أنهم عبروا عن مشاعرهم الحقيقية عن ذلك في عام ١٩٨٠م، حيث بدأوا ينتقدون الديمقراطية مؤكدين أنها تتعارض مع مبادئ الإسلام[2].

وفي هذا المجال أكد حزب السلامة أن (الديمقراطية مؤامرة غربية لقيادة الجهلة بموجب الأساليب الغربية والمسيحية. إنه انتصار للمسيحية ضد الإسلام، لذلك يجب تطبيق القوانين الإلهية إذ لايمكن للإنسان تشريع قوانين يمكن تطبيقها([3].

وبالإمكان تلخيص وجهة نظر حزب السلامة الوطني عن الرأسمالية والاشتراكية، في مقالة لنجيب فاضل جاء فيها:

(نحن نقسم طريق الخلاص إلى مجموعتين: الأولى هي طريقة الإسلام في الخلاص، والثانية يمكن تصنيفها كنظم وراثية والتي لاتوصل إلى الخلاص. إن المجموعة الثانية لاتعتمد على التعاليم الإلهية وتناقض نفسها باعتمادها على قوانين من صنع الإنسان مثل الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية. لقد تم التأكيد أيضاً على أن الله قد أمرنا أن نحكم طبقاً لتعاليم القرآن الكريم، وليس حسب آرائنا الخاصة. إذا حكم الناس حب نظام التصويت. فإنهم لن يكونوا بحاجة إلى كلام الله. في المجتمعات التي تحل فيها كل القضايا وفق لنظام التصويت، لاينتشر الإسلام[4].

أما فيما يتعلق بموقف الحزب من الولايات المتحدة، فقد عارض الحزب الوجود الأمريكي في الأراضي التركية، كما عارض استخدام الولايات المتحدة الأراضي التركية في

---

(١) انظر: الحركة الاسلامية الحديثة ، ص١٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٣٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٣٥.

(٤) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي ، ص١٣٥.

استخدامها ضد دول منطقة الشرق الأوسط. ونتيجة لهذا فقد انتقد الحزب حكومة ديمريل في أواخر عام ١٩٧٩م بسبب زيادة النشاط العسكري الأمريكي في تركيا، حيث قدم استجواباً إلى مجلس النواب التركي مطالباً فيه محاسبة حكومة ديمريل بسبب هذا النشاط الأمريكي، وقد دلل هذا على قيام طائرتين بالهبوط في مطار مالقا وهما تحملان ١٨٠ عسكرياً مع أحدث المعدات الحربية، مؤكداً أن هذا يشكل تهديداً لأمن المنطقة.

وفي الحقيقة استطاع الحزب أن يشكل رأي عام مناهض للغرب والولايات المتحدة، عن طريق المشكلة القبرصية والتي قام فيها أربكان بدور رئيسي في إقناع القيادات العسكرية بإنزال قواتها في الجزيرة. فقد تولى القيادة مدة غياب أجويد في زيارة لدول أوروبا الشمالية.

ولقد عمل الحزب بقيادة أربكان على إفشال جميع الخطط والمشاريع اليونانية في بحر أيجة، وفي هذا المجال يقول أربكان:(سنتحرك وفق أسس العدل والحق لا وفق الأسس التي تحددها الأقطار الأوروبية الكبيرة)(١).

وفيما يتعلق بالسوق الأوروبية المشتركة يقول أربكان:(إن تركيا يجب أن لاتكون في السوق الأوروبية المشتركة للدول الغربية، وإنما في السوق المشتركة للدول الشرقية، إن تركيا متخلفة بالنسبة للغربيين، ولكنها متقدمة بالنسبة للشرقيين. إذا دخلت تركيا السوق المشتركة في الأوضاع السائدة اليوم، فإنما مستعمرة)(٢).

لقد كان لحزب السلامة تأثير كبير في الشارع التركي وعمل على إعادة الهوية الاسلامية ونازل بحجج الاسلام وبراهينه الأنظمة الاشتراكية والرأسمالية وكان زعيمه نجم الدين أربكان يتحدث بعزة الاسلام ويوضح للشعب التركي خطورة الانحراف عن منهج الله ويوجه صواريخه إلى أعداء الاسلام وفي هذا المجال، يقوم لنا نجم الدين أربكان النظامين الإشتراكي والرأسمالي وفيما يتعلق بالأول يقول أربكان: (أنه فكر يهدد الحريات،

---

(١) انظر: الاحزاب السياسية في تركيا، حسين فاضل كاظم، ص١٩٢.

(٢) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص١٣٧.

ويضر بالكيان القومي، ويركز على مصادر أجنبية)[1]، أما فيما يتعلق بالثاني، يقول أربكان: (الفكر الرأسمالي هو فكر يقوم على الربا، ومصدره أجنبي أيضاً، أما حزب السلامة فيمضي في طريقه رافعاً راية الاخلاق والأصالة. إن النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي لا يقتصران على ميدان الاقتصاد، وإنما يمتد تأثيرهما الى الميدانين الاجتماعي والمعنوي، ورغم اختلاف النظامين في الظاهر، فكلاهما مادي ، وكلاهما يعمل على النهوض بالجانب المادي في مقابل انحطاط الأخلاق والمعنويات، وكلاهما يزداد ارتفاعاً مادياً مع هبوط الثقافة والأخلاق)[2].

إن غاية حزب السلامة هو الوصول الى فهم (تركيا الكبرى(وحرص على التمسك بالماضي العثماني المجيد وبيّن للناس أهمية الالتزام بالاسلام واتبع سياسة تؤدي في مداها البعيد القضاء على مبادئ أتاتورك العلماني، وهو في نفس الوقت يدعو الى عدم التعاون مع العناصر غير الاسلامية في تركيا، وهو في نفس الوقت يعارض الشيوعية بعنف، ويؤكد على أن افضل طريق لإنتشار المبادئ الاسلامية هو توفير الحياة الحرة للمواطن التركي.

ودعا أربكان الى ضرورة تطوير علاقات تركيا مع العالم الاسلامي في المجالات كافة، حيث قال: (وأن لاتظل هذه العلاقات صورية، وإنما يجب أن تكون علاقات فعلية متطورة، حيث إن في العالم مايقرب من خمسين دولة إسلامية يبلغ سكانها مليارا، وهذه الدول الاسلامية سوق طبيعية قوية لإنتاجنا)[3].

وعلى هذا الاساس ، فقد انتقد اربكان كل من الصهيونية والماسونية[4] حيث قال في هذا المجال: (إن الصهيونية والماسونية حاولا عزل تركيا عن العالم الاسلامي، ومؤامراتهم مستمرة، ذلك أن المعركة بين الاسلام في تركيا والصهيونية قد اتخذت أشكالاً عدة وهي حرب طويلة المدى، ومستمرة منذ خمسة قرون، منذ فتح السلطان محمد

---

(١) انظر : يقظة الاسلام في تركيا ، أنور الجندي، ص٢٩-٣٠.

(٢) انظر : يقظة الاسلام في تركيا، ص٣٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٠.

(٤) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص١٤١.

الفاتح القسطنطينية وعمل على فتح رومية، ولكن هذا الصراع في المائة سنة الأخيرة، أخذ شكل مخطط أعد له سلفاً، فاستطاعت بعض القوى عام ١٨٣٩م أن تؤثر في جسم الدولة الفكري، وتدخل القوانين الوضعية البعيدة عن الاسلام بوساطة المنظمات اليهودية الماسونية، وقسم العمل اليهودي في تركيا إلى ثلاث مراحل مدتها ثلاثون سنة، وهي عبارة عن تنفيذ فكرة ليتويود وهرتزل بإسقاط الدولة الإسلامية في تركيا، أما المرحلة الثانية، فقد استمرت عشرين سنة، وكان لإبعاد تركيا عن الإسلام، ثم نشأ حزب الإتحاد والترقي، وكانت له علاقة باليهود والماسونية، ومن ثم استطاع إسقاط السلطان عبدالحميد، وبدأ في إبعاد تركيا عن النمط الإسلامي وتغريبها بطرق عديدة أهمها العلمانية التي كانت تعني في تركيا بالتحديد اضطهاد المسلمين)[١].

وقد خاض حزب السلامة الوطني الانتخابات العامة لعام ١٩٧٣م حيث حصل على ١١,٩٪ من الأصوات، أي بواقع ١,٢٤ مليون من أصوات الناخبين، ونتيجة لذلك فقد مثل نفسه في المجلس الوطني التركي بواقع ٤٥ مقعداً[٢].

وقد أعلن أربكان عشية انتخابات ١٩٧٣م: (إننا سنعيد عهد الرسول ﷺ، كما أعلن أربكان بعد الانتخابات أن شعار حزبه هو - المفتاح - وهذا ما سيؤهل للحزب فتح الطريق المغلقة أمامه، ويكون مفتاح كل الحكومات الائتلافية ([٣].

ونتيجة لذلك فقد تكونت أول حكومة ائتلافية، ضمت حزب الشعب الجمهوري، وحزب السلامة الوطني، وذلك في ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٤م، حيث ضمت الوزارة ثمانية عشر وزيراً من أعضاء حزب الشعب الجمهوري، وسبعة أعضاء من حزب السلامة.

وبفضل الله تعالى ثم جهود حزب السلامة الوطني بقيادة أربكان، مثلت تركيا ولأول مرة في آذار ١٩٧٤م في مؤتمر القمة الإسلامي، وقد اختير وزير الداخلية التركي (وهو من حزب السلامة الوطني (في هذا المؤتمر.

---

(١) انظر: الصحوة الاسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله،الجندي، ص١١٧.

(٢) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي ، ص١٤٢.

(٣) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي ، ص١٤٣.

إن نشاط حزب السلامة الوطني خلال السبعينات أدى إلى خرق المظاهر العلمانية في تركيا، حيث انتشرت بعض المظاهر الإسلامية وخاصة في شهر رمضان، كما تم التوسع في المدارس الإسلامية، حيث سمح لها بتدريب الأئمة والوعاظ، وأصبحت هذه المدارس تعلم حوالي ١٠٪ من الطلاب في المدارس الثانوية بما فيهم ٥٠,٠٠٠ من العنصر النسائي في تركيا، وفي الحقيقة وصل التصويت الإسلامي بين ١٠٪ ١٥٪، وقد اعتبر العلمانيون هذه النسبة بمثابة خطر على المدنية التركية[١].

وبتأثير من حزب السلامة الوطني، وطلاب النور في تركيا خرجت إلى حيز الوجود سلسلة (ألف كتاب (التي دعمتها وزارة التربية، وتناولت هذه السلسلة الثقافية التركية بمعيار إسلامي وأخذ حزب السلامة يعمق المفاهيم الإسلامية في المجلس الوطني التركي الكبير وهاجمت الصحف الإسلامية في تركيا كمال أتاتورك وأطلقت عليه اسم (الدجال) وضغط حزب السلامة الوطني على رئاسة الشؤون الدينية حتى أصدرت بياناً في حزيران ١٩٧٣م أكدت فيه على دعوة المرأة التركية إلى الحجاب.

وحينما سافر أربكان إلى السعودية عام ١٩٧٤م - وكان وقتئذ نائباً لرئيس الوزراء - بدأ زيارته للكعبة، وفي الرسالة التي كتبها للملك فيصل -رحمه الله-، ذكر مايلي: (إن معرفة الشعب والحجاج للمشاريع التي ستقام في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية بالقروض التي ستمنحونها لتركيا تعد من الأمور الهامة، إن دعمكم لموقفي في تركيا سيفتح لتركيا مرحلة جديدة في العالم الإسلامي، ومساعدتكم لنا في هذا المجال سوف تدعم هذه المرحلة)[٢].

واستطاع أربكان أن يمرر قانوناً في البرلمان يسمح بموجبه للأتراك السفر براً إلى الحج، وكان ذلك ممنوعاً[٣].

لقد كانت خطوات حزب السلامة الوطني جريئة في المجتمع التركي ولذلك لم

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٤٥.

(٢) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. محمد مصطفى، ص٢٠٧.

(٣) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص١٤٧.

يتحمل الجيش التركي خادم العلمانية في تركيا هذه الأعمال الحميدة ولذلك تدخل الجيش بانقلابه الذي قضى على التعددية والحرية السياسية في ١٢ أيلول ١٩٨٠م. وقد سبق هذا الانقلاب مظاهرات كبيرة في مدينة قونيا يوم ٦ أيلول، ونادى المتظاهرون بتأسيس دولة إسلامية، وقام أنصار حزب السلامة بالاستهزاء بكل مايؤمن به أتاتورك والمؤسسة العسكرية. وقد هتف هؤلاء الذين جاءوا من جميع أنحاء البلاد بالشعارات الدينية، وطالبوا باستخدام الشريعة الإسلامية في التعامل السياسي الداخلي، ومنعوا عزف النشيد الوطني[(١)].

واحتج المتظاهرون على ضم القدس، ونادوا بقطع العلاقات مع إسرائيل، ودعوة إسرائيل المناداة بالقدس الحرة. كما دعى إربكان في هذه التظاهرة إلى بدء الصراع لإنهاء العقلية الغربية الزائفة والتي تحكم تركيا. وقد كتب المتظاهرون الشعارات باللغة العربية، وقام هؤلاء بحرق العلم الصهيوني والأمريكي والسوفيتي ونادى المتظاهرون بشعار (الموت لليهود (ولاسيما أن مدينة قونيا تضم أعداداً من طائفة اليهود والتي يبلغ عددها ٢٠,٠٠٠ يهودي ونادى المتظاهرون أيضاً: (جاء دور القانون الديني وانتهت الهمجية، الشريعة أو الموت، إن الدولة الملحدة يجب أن تدمر، وإن القرآن هو دستورنا، نريد دولة إسلامية بدون الحدود والطبقات ([(٢)].

كانت شعبية حزب السلامة الوطني ترتقي، لأنه التزم القضايا الإسلامية علنا خصوصاً في العامين ١٩٧٩م، ١٩٨٠م واضطر الحزب الجمهوري وحزب العدالة بإرضاء حزب السلامة الوطني، وقدما تنازلات للاتجاه الإسلامي، طمعاً في المساعدات الاقتصادية من الأقطار الإسلامية والحاجة الملحة إلى بترولها.

لم يستحي قادة الجيش التركي بعد انقلابهم العسكري أن يقولوا بأن سبب تدخلهم من أجل وقف المد الإسلامي.

اتخذ الانقلابيون قراراً بحظر جميع الأحزاب السياسية وحجز قادتها وتقديمهم

---

(١) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص١٥١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٥١.

للمحاكمة وكان من الطبيعي أن يحاكم حزب السلامة الوطني وأن توجه التهم لزعيمه أربكان وزملائه المجاهدين وكانت كل التهم تدور حول حرص حزب السلامة على إعادة دولة الإسلام لتركيا والتخلص من الأفكار العلمانية والمبادئ الكمالية، إن الغطرسة التركية العلمانية أعلنت بكل وقاحة على لسان الجنرال إيفرن رئيس أركان الجيش التركي بأن لها من القوة بحيث تستطيع أن تقطع لسان كل من يتهجم على أتاتورك(١).

لقد استطاع حزب السلامة الوطني أن يدخل بعض التغييرات في السلوك السياسي الداخلي التركي، من بين ذلك (تحقيق الأذان في الجوامع وباللغة العربية، وفرض قراءة القرآن الكريم في محطات الإذاعة والتلفزيون، وكان ذلك محرماً منذ مجئ المفسد الكبير مصطفى كمال إلى الحكم.

لقد أصبح أربكان مع حزبه المجاهد معلماً من معالم الحركة الإسلامية المعاصرة في تركيا ولقد أثرت حركة حزب السلامة في الأوساط الإسلامية والطرق الصوفية والزوايا التقليدية ووجدت من التيار الإسلامي التقليدي من يناصرها ويقف بجانبها ويدعمها وحكمت المحكمة العسكرية الظالمة في عام ١٩٨٣ على المجاهد أربكان لمدة أربعة أعوام وعلى ٢٢ عضواً من أعضاء حزب السلامة الوطني بالسجن لمدد تصل إلى ثلاثة أعوام ونصف(٢).

وقام الجيش التركي بتسريح كل من تشم منه رائحة إسلامية وأعلن إيفرن في حملته التي استهدفت الإسلاميين داخل القوات المسلحة بأن هؤلاء المسلمين (كان هدفهم الوصول إلى المراتب العليا في القوات المسلحة، ماذا سيحدث لو أنهم أمسكوا بزمام الجيش؟)(٣) وأضاف قائلاً: (قد يحولون البلاد إلى أي نوع من الأنظمة التي يريدون، هل هذا نشاط ديني أم خيانة)(٤).

---

(١) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص١٥٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٥٦.

(٣)انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص١٦٥.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص١٦٥.

وبدأت القيادة العسكرية في تركيا تبحث عن حل لمشاكلها السياسية وإرضاء الضغوط الأوربية التي اتهمت تركيا بخرق حقوق الإنسان ويجب عليها إعادة الديمقراطية من جديد، فشكلت لجان جديدة لصنع دستور للبلاد بحيث يعطي الرئيس التركي الحق في فرض حالة الطوارئ، وحل البرلمان، والدعوة إلى انتخابات جديدة، وبذلك يكون باستطاعت العلمانيين قطع محاولات الإسلاميين المستمرة للقضاء على الدستور العلماني، وعدلت القوانين بحيث تكون للقيادة العسكرية حق الاحتفاظ ببعض السيطرة على الحياة السياسية في تركيا.

وبعد إعلان الدستور الجديد في عام ١٩٨٢ تكونت أحزاب سياسية وظهر حزب الرفاه وهو امتداد طبيعي لفكر السلامة الوطني وبدأت العناصر الإسلامية تتوافد على هذا الحزب الجديد والذي تعرض لمعارضة الجيش والضغط عليه لمنعه من دخول انتخابات عام ١٩٨٣م، إلا أنه خاض الانتخابات وحصل على نسبة ٥٪ من الأصوات[١].

إضافة إلى ذلك، اشترك حزب الرفاه في انتخابات تشرين أول ١٩٨٧م، حيث فاز ٧,٠٦٪ من الأصوات[٢].

وبدأت الجماعات الإسلامية تتمحور حول حزب الرفاه وشرع حزب الرفاه في قيادة الحركة الإسلامية في كافة المدن التركية، وحتى المحافظات الكبرى والقرى المتباعدة الأطراف، وانتعشت الحركة الاسلامية مع استلام أوزال السلطة وهو المتعاطف مع الاسلام في تركيا خاصة وأن أعداداً كبيرة من قيادة حزبه -حزب الوطن الأم- من الوجوه الاسلامية المعروفة في تركيا ودخلت كوادر قيادية هامة من حزب السلامة المنحل الى حزب الوطن الأم الذي نجح في انتخابات عام ١٩٨٣م بأغلبية كبيرة، وشجعت حكومة أوزال نشاط المساجد والمدارس الدينية واهتم وزير الدولة المشرف على الشؤون الدينية (كاظم اكصوي) بدروات تعليم القرآن الكريم والتي كانت في بداية الثمانينات ٢٠٠ دورة رسمية ووصلت الى ٣٠٠٠ دورة في عام ١٩٨٧م ونشطت الطرق الدينية، وقام كاظم اكصوي بجعل بعض

---

(١) انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، ص١٧٩.

(٢)انظر: الحركات الاسلامية الحديثة في تركيا، د. النعيمي، ص١٧٩.

المؤسسات الدينية والبنوك مثل بنك الأوقاف من أهم المراكز التي تغذي الحركة الاسلامية في تركيا[1].

واستمر حزب الرفاه في جهاده السلمي والتوغل المتزن في أعماق الشعب المسلم التركي الذي لاتزال أعمال حزب السلامة في ذاكرته ووجدانه والتي أعادت للمجتمع التركي وجوده وحضوره الاسلامي واستطاع حزب الرفاه الذي هو امتداد لحزب السلامة في مارس عام ١٩٩٤م أن يتحصل على أهم وأكبر البلديات في تركيا، وعلى فوزه بانتخابات ديسمبر عام ١٩٩٥م كأكبر حزب في البلاد، تسلم على أثرها السلطة في إئتلاف حكومي مع حزب الطريق القويم في يونيو ١٩٩٦م[2] وأصبح المجاهد الكبير نجم الدين أربكان رئيس الوزراء وقام بإصلاحات اقتصادية رائعة وارتفعت الرواتب في فترة وجيزة، وتقدم مندفعاً كالسهم نحو الدعوة لإقامة سوق اسلامية مشتركة ورفض دخول تركيا السوق الأوروبية المشتركة، فكانت دعوة الى قيام أمم إسلامية متحدة، ومجلس إسلامي مشترك، وضرب ممثلوا حزب الرفاه في البلديات وعلى مستوى الدولة أروع الأمثلة في النزاهة والعفة وطهارة اليد والمقدرة على التخطيط واهتمت مؤسسات الحزب بتقديم وتحسين أداء الخدمات للمواطنين وتعاطف الشعب التركي مع حزب الرفاه حتى كثير من المومسات أعطين أصواتهن لحزب الرفاه الذي عمل على إيجاد فرص للعمل الشريف لهن وترك بيوت الدعارة والفساد والرجوع الى الله بالتوبة والمغفرة.

ولقد عالج ممثل الرفاه والذي تولى بلدية استانبول مشاكل العاصمة بكل جدارة وتضاعفت ميزانية البلدية بعد أن كانت دائماً تشتكي من العجز المالي بسبب الاختلاس.

لم يرضى اليهود والعلمانيون عن هذه المكاسب العظيمة التي حققتها الحركة الاسلامية في تركيا فدفعوا قادة الجيش لممارسة ضغوطهم على الاحزاب حتى قضوا على التحالف بين حزب الطريق القويم وحزب الرفاه وتقدم حزب علماني متطرف مدعوم بقوة العسكر ورجال الاقتصاد العلمانيين وقدموا حزب الرفاه الى المحكمة الدستورية التي

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٨٢.

(٢) انظر: تحديات سياسية تواجه الحركة الاسلامية ، مصطفى الطحان، ص١١٨.

حكمت بحل حزب الرفاه ومصادرة أملاكه عام ١٩٩٧م ولايزال الاسلاميون في تركيا يديرون صراعهم مع اليهود والعلمانيين وأعداء الاسلام بكل جدارة وشجاعة وذكاء واني على يقين راسخ لا يتزعزع ان الحركة الاسلامية في تركيا ستصل الى الحكم وتطبق شرع الله بإذن الله، لأن كل المؤشرات والسنن تقول بذلك.

واختم بالتجربة الاسلامية في تركيا هذا الحوار للأستاذ والمجاهد الكبير الذي نخر أعمدة العلمانية في تركيا البرفسور نجم الدين أربكان، سأله صحفي مسلم مشهور بقوله: إن المشاركة في العملية الانتخابية أمر لايجوز من الناحية الشرعية. وهي مساهمة في تقوية النظام الجاهلي الذي يعتمد مثل هذه الاساليب . فرد أربكان: ماذا نفعل إذن..؟ هل كان بإمكاننا أن نحقق المكاسب الكبرى على صعيد الحريات الشخصية والعامة. ونؤسس هذه المئات من المدارس الاسلامية.ونرفع أصواتنا في البرلمان لتعديل المواد الدستورية التي تحد من الحريات الدينية، ونعيد للناس ثقتهم بأنفسهم وبدينهم، ونحاصر الشر بأنواعه حتى يكاد ينحسر عن بلادنا، بغير هذه الوسائل التي ترفع من مستوى أداء الجميع افراداً وجماعات وتدفع الجميع لتحمل مسؤولياتهم في إعادة البناء.[1]؟

إن التيار الاسلامي في تركيا لايزال في نمو متصاعد على الرغم من ضخامة مخططات الأعداء المحيطين به، وجسامة الأخضار التي يواجهها من اليمين واليسار عنى السواء وإننا لمنتظرون تحقيق وعد الله تعالى في قوله : {فأما الربد فيذهب جفاء واما ماينفع الناس فيمكث في الأرض} (سورة الرعد: آية ١٧).

وقوله تعالى: {إن الله لايصلح عمل المفسدين} (سورة يونس: آية ٨١).

وقوله تعالى: {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون} (سورة التوبة: آية ٣٢).

(١) انظر: تحديات سياسية تواجة الحركة الاسلامية ، ص٨٧.

المبحث الثامن

اسباب سقوط الدولة العثمانية

تمهيد

إن اسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الذي جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدوا على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وان الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم.

قال تعالى : {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب اليم} (سورة النور : الآية ٦٣).

لقد كان في ابتعاد أواخر سلاطين الدولة العثمانية عن شرع الله تعالى آثاره على الأمة الاسلامية؛ فتجد الانسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي في قلبه، وأصبح في ضنك من العيش: {ومن اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} (سورة طه: آية ١٢٤).

وقد أصيبت الشعوب الاسلامية في مراحل الدولة العثمانية الأخيرة بالتبلد وفقد الاحساس بالذات، وضعف ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه، وأصابهم ماأصاب بنو اسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: {لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون} .(سورة المائدة، آية ٧٨-٧٩).

فإن أي أمة لاتعظم شرع الله أمراً ونهياً تسقط كما سقط بنو اسرائيل قال رسول

الله ﷺ : (كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعنكم كما لعنهم)[1].

لقد تحققت في الدولة العثمانية سنة الله في تغيير النفوس من الطاعة والانقياد الى المخالفة والتمرد على أحكام الله. {ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} (سورة الأنفال:آية ٥٣).

كما أن الشعوب التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من اخوانهم في العقيدة.

إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الاسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أثر في تلك الشعوب، وكثرة الاعتداءات الداخلية بين الناس وتعرضت النفوس للهلاك. والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن ، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والانكليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمة العثمانية، وحرموا التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب ، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط الله عليهم من لايعرفونه؛ ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الدولة العثمانية.

إن الذنوب التي يهلك الله بها الدولة ، ويعذب بها الأمم قسمان:

١- معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به.

٢- كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحباة

---

(١) ابوداود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث ٤٦٧٠.

الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغني والثروة فهذا كله من الكفر بنعمة الله ، واستعمالها في غير مايرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وامراؤهم[1] .

إن الدولة العثمانية في بداية أمرها كانت تسير على شرع الله في كل صغيرة وكبيرة، ملتزمة بمنهج أهل السنة في مسيرتها الدعوية والجهادية آخذة بشروط التمكين وأسبابه كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أما في أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط التمكين ، وابتعدت عن أسبابه المادية والمعنوية قال تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون} (سورة النور: آية ٥٦،٥٥).

فكانت الدولة الاسلامية العثمانية في بداية أمرها مستوعبة لتلك الشروط أما في أواخر عهدها فقد أصاب تلك الشروط انحرافاً عن مفاهيمها الأصلية فمثلاً:

أولاً: من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء:

فكانت الدولة في عصورها المتقدمة عاملة بقول الله تعالى : {لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقة ويحذكرم الله نفسه والى الله المصير} (سورة آل عمران: آية ٢٨).

وقول الله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين} (سورة المائدة: آية ٥١).

---

(١) انظر: دولة الموحدين لعلي محمد الصلابي، ص١٧٠.

ويقول رسول الله ﷺ: (أوثق عرى الايمان المولاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله)[1].

أما في عصورها المتأخرة وخصوصاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين فقد أصيب مفهوم الولاء والبراء بالانحراف ، نتيجة للجهل الذريع الذي خيم على أغلب أقاليم الدولة العثمانية والبلدان الاسلامية، ولغياب العلماء الربانيين الذين ينيرون للأمة دروبها، ويأخذون بزمامها الى الطريق المستقيم وكان الحكام والسلاطين يصانعون الأعداء من الكافرين ويتولنهم من دون المؤمنين؛ حيث كان هؤلاء الكافرون على جانب عظيم من القوة المادية، والمسلمون في المقابل على العكس تماماً من الضعف؛ فقد ساعد الواقع الأليم الذي كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة[2].

فالواقع المليء بكافة صور الانحطاط من فقر وضعف وجهل ومرض وخرافة في مقابل الواقع الأوروبي مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء والبراء، ومع ذلك لايجوز لنا أبداً أن نبرر لهؤلاء المنبهرين انبهارهم بواقع الكافرين؛ إذ لو كان إيمانهم صادقاً ، وعقيدتهم راسخة لم تجرفهم أهواء الكافرين ولم تتقاذفهم أمواج المادة والقوة، كما كان حال الجيل الأول رضي الله عنهم الذي استعلى بدينه وعقيدته على قوة الكافرين وجبروتهم حتى في وقت الهزيمة ، ولحظة الفشل كما قال الله تبارك وتعالى: { ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين} (سورة آل عمران:آية ١٣٩).

ومع هذا فإن هذه العقيدة على مستوى شعوب الامة كانت متوهجة في النفوس ، مستقرة في العقول ؛ فقد كان المسلم في الشمال الأفريقي يحب أخاه المسلم في الشام ويبغض جاره النصراني وهكذا في كل الأقطار والبلدان وكان المسلم يحس بإخوانه في كل مكان بما يقع لإخوانه في الدين من اعتداءات ونكبات، ويشارك بعضهم مع إخوانهم لجهاد المعتدين، والنفير في سبيل الله. فكانوا الى حد كبير كما وصفهم الرسول ﷺ كالجسد الواحد إذا اشتكى

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٢/٣٤٣، ح٢٥٣٦).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية لعلي الزهراني (١/١٤٢).

منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[1].

وقد بينا مناصرة مسلمي الحجاز وليبيا لأخوانهم في مصر عندما احتلها الفرنسيون في عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م وكيف تفاعل المسلمون مع دعوة السلطان عبدالحميد الثاني الى فكرة الجامعة الاسلامية ودعوته لاتحاد المسلمين في العالم في مقابل التسلط الأوروبي والروسي وغيرهما، وقد أثمرت هذه الدعوة الى حد كبير ، وتجاوب معها المسلمون في كل مكان على اختلاف لغاتهم والوانهم وبلادهم، وليس أدل على ذلك من تبرع المسلمين في أقطار العالم لإنشاء خط سكة حديد بين بغداد والحجاز بثلث نفقات الخط.

إن الشعور بالترابط الديني بين المسلمين كان قوياً على الرغم من كثرة الانحرافات التي توحي بالفرقة والاختلاف كالمذاهب الكلامية والفقهية، والطرق الصوفية، وكانت عقيدة الولاء والبراء سليمة الى حد كبير في نفوس العامة، لذلك كبر على أعداء الاسلام من اليهود والنصارى أن يروا في تلك العقيدة جداراً صلباً وحاجزاً قوياً يقف أمام مخططاتهم ومحاولاتهم في القضاء على المسلمين ودينهم. ولذا أخذوا يعملون على تحطيم ذلك الجدار وتذويب ذلك الحاجز عن طريق صنائعهم وعملائهم في البلاد الاسلامية وفي الدولة العثمانية ممن بأيديهم مقاليد الأمور من السلاطين والباشوات. كما حدث مع السطان العثماني محمود الثاني المتوفى عام ١٨٣٩م الذي تزعم حركة الاصلاح المقلدة للمنهج الأوروبي، حيث عمل علىمسخ عقيدة الولاء والبراء وحاول طمسها في النفوس، ويتجلى هذا الاتجاه الخطير في قول السلطان نفسه (..إنني لا أريد - ابتداء من الآن - أن يميز المسلمون إلا في المسجد، والمسيحيون إلا في الكنيسة واليهود في المعبد، إني أريد مادام يتوجه الجميع نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق وبحماية الأبوية ومن هنا نعمت المسيحية وغيرها في الدولة في ذلك العصر بحرية واسعة النطاق[2].

وفي هذا العصر انتشرت المدارس اليونانينة والأرمنية والكاثوليكية انتشاراً واسعاً

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٤٣٨/١٠) رقم ٦٠١١.

(٢) انظر: حركة الإصلاح في عصر السلطان محمود الثاني ، د. البحراوي، ص٢١٤.

بفضل رعاية السلطان وتشجيعه[1].

وقد ثار رجال إحدى الحاميات العثمانية ضد احتمال إلزامهم أن يضعوا على صدورهم الحزامين المتقاطعين على شكل صليب على النسق النمساوي، وطرد الثوار الباشا المرسل من قبل السلطان[2].

وقد سمح السلطان لرعاياه المسيحيين بارتداء الطربوش بدلاً من القلنسوة القديمة، وبذلك خلصهم من الرمز المميز لهم، وكان لذلك رنة فرح شديدة عندهم، وقد حاول فرض الطربوش الأحمر على العلماء بدلاً من العمامة، فلما أبوا عليه ذلك تراجع مغطياً موقفه بإعلان الجهاد ضد الروس[3].

والأدهى من ذلك ما(حدث من استعانة الدولة العثمانية بضباط دانوا بالولاء لروسيا من قبل ، وظلت الدولة غافلة عن هذه الحقيقة، وبالتالي كان لروسيا عيون في جيش السلطان الجديد تزودها بأدق المعلومات والخطط)[4]. وكم من هزيمة ساحقة تلقتها الدولة العثمانية من روسيا، وكان من أسبابها تسرب المعلومات الهامة عن طريق هؤلاء.

هذا مثال بارز على ضعف عقيدة الولاء والبراء لدى بعض سلاطين العثمانيين وعدم الاهتمام بها.

أما الباشا محمد علي والي مصر، فقد فتن بالغرب ، وتابع سياستهم، وسار على خطاهم ، وما فتئ خلال حكمه الطويل الذي بلغ خمسة وأربعين عاماً تقريباً يتولى الكفار ويصانعهم، ويعلي من شأنهم ويقوم باتباعهم والاقتباس من نظمهم وقوانينهم ، والسير في ركابهم، مع شدة بطشه وتنكيله بالمسلمين، واستهانته بهم؛ فقد تخطى عقيدة

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢١٤.

(٢)انظر: حركة الإصلاح في عصر السلطان محمود الثاني ، د. البحراوي، ص٢٥٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٦١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص٢٤٧.

الولاء والبراء وضربها في الصميم، ليرضي أسياده الصليبيين وليخضع أمته وشعبه المسلم للمخططات اليهودية فقد اعتاد محمد علي باشا أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود، الذين تغلغلوا في حكومته وبلاطه، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملة الذين هم خاصته وجلساؤه وأهل مشروته، وشركاؤه في اختلاس أموال الدولة ونهب خيراتها[1].

وفتح البلاد على مصرعيها لأفواج النصارى الصليبيين للبحث والتنقيب، واكتشاف الآثار، ودراسة الأماكن دراسة دقيقة بل ومساعدته لهم وتذليله الصعاب في طريقهم[2].

لقد قام النصارى بدراسة مراكز الثروة، ودراسة المواقع دراسة تخطيطية، مما افادهم ولاشك في احتلال مصر فيما بعد عام ١٨٨٢م خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من هؤلاء المنقبين كانوا من الانكليز، وكانت هناك أهداف أخر لم يفطن لها كثير من الباحثين ونترك الحديث لأحد المستشرقين في كتابه (الشرق الأدنى؛ مجتمعه وثقافته): (إننا في كل بلد اسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ماقبل الاسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد مسلم الى عقائد ما قبل الاسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الاسلام وبين تلك الحضارات..)[3].

وعلى ضوء ماسبق من أهداف نستطيع أن نفسر أهتمامات هؤلاء النصارى بشق البلاد طولاً وعرضاً، وإنفاقهم الأموال الطائلة في كشف الآثار وتعريتها بدءاً بالفرنسيين ثم الانكليز الذين ساروا على خط واحد في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة[4].

يقول الاستاذ محمد قطب: (ولكن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هونبش الأرض الاسلامية لاستخراج الحضارات، تمهيداً

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١٦٥/١).

(٢) المصدر السابق نفسه (١٧٠/١).

(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص٢٠٢.

(٤) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١٧١/١).

لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للاسلام)[١].

وقدم محمد علي خدمة لمخططات الأعداء بضرب الاتجاه الاسلامي السلفي في الجزيرة العربية تظاهراً بطاعة السلطان العثماني الذي فقد السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين، واتخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودي يشكل خطراً على مصالحهما، خصوصاً في الخليج العربي والبحر الأحمر[٢].

وقد كان على رأس تلك الجيوش التي وجهها محمد علي ضباط فرنسيون وبعض النصارى[٣].

وقد سرت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمر، وكذلك بريطانيا وأبلغت فرنسا محمد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنها ممنونة مما رأته من اقتداره على نشر أعلام التمدن في البلاد الشرقية[٤].

وضايق محمد علي باشا العلماء والفقهاء والأزهريين في لقمة العيش وسيطر على الاوقاف التابعة للأزهر وضمها للدولة وبالتالي أحكم السيطرة على المشايخ القائمين على التعليم من رجال الأزهر[٥] وحتى الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم والعلوم الأولية للناشئة من أبناء المسلمين، لم تنج من غائلة محمد علي؛ فقد ذكر الجبرتي -رحمه الله- أن كثيراً من المكاتب أغلقت بسبب تعطل أوقافها واستيلاء محمد علي عليها[٦].

وذكر الشيخ محمد عبده أن ماأبقاه محمد علي من أوقاف الأزهر والأوقاف الأخرى لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها. وأنه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لوبقي

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص٢٠٢.

(٢) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص١٨٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٨٧.

(٤) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١٧٤/١).

(٥) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص١٧٩.

(٦) انظر: عجائب الآثار (٤٧٨/٢).

الى اليوم (في عهد الشيخ محمدعبده) لكانت غلته لاتقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بذلك مايساوي أربعة آلاف جنيه في السنة بينما نجده قد اندفع نحو التغريب وارسال البعثات كما ذكرنا في البحث.

إن هذه السياسة التدميرية التي نهجها محمد علي والتي فرضت قهراً على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها للرحيل، وهو أمر أكده المؤرخ الانكليزي أرنولد توينبي في قوله: (كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية الى حقائق فعالة في مصر)[1].

لاشك أن محمد علي باشا كان صنيعة من صنائع الغرب وعميلاً من عملائهم، سواء كان وصوله الى سدة الحكم نتيجة تخطيط صليبي على الأخص تخطيط فرنسي أو كان نتيجة لدهاء محمد علي ومكره وثقافته أو كان للأمرين معاً ، فإن هذا كله لايغير من الأمر شيئاً، ولاينفي أن محمد علي قد أحتوته الدول الغربية، وأخذت تقوده في ركابها ، وخصوصاً وأن فيه من الصفات والخلال التي ينشدها المستعمرون دائماً كجنون العظمة، وغلظة القلب وفظاظة الطبع ورقة الديانة أو عدمها[2].

وقد عمل محمد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء ، واستخدم سياسة العسف والارهاب والتنكيل في أنحاء مملكته لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين، ويقضي عليها قضاءً مبرماً[3].

ومع عظم الهالة التي أحيط بها محمد علي من قبل المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من المؤرخين القوميين والعلمانيين حول ما قام به من إصلاحات في كثير من المجالات التعليمية والاقتصادية والعسكرية إلا أنه من الثابت من سيرة محمد علي أنه يكره مسلمي مصر ويحتقرهم ويزدريهم ليما ازدراء ، وليس أدل من ذلك إلا قوله : (ثقوا أن قراري .. لاينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ، ص١٨٢.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١٨١/١).

(٣) المصدر السابق نفسه (١٨١/١).

الاعتبارات التي يتقيد بها قومي .وقد تقولون أن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها)[1].

وقد كان محمد علي باشا متواطئاً مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، حتى لقد هم -بعد أن جاءته الأوامر بالطبع- أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين وعملاً لحسابهم الخاص إلا أن أسياده رفضوا تلك الفكرة التي تهيج المسلمين وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم، لذا بادروا الى إلغائها ، واكتفى محمد علي بتزويد الفرنسيين في الجزائر بالغلال[2].

ويذهب الدكتور سليمان الغنام الى أن بريطانيا لما عملت بعزم محمد علي ثارت ثائرتها وهددته بنسف أسطوله إن هو فكر في ذلك.

هذه وقفة مع باشة من باشوات الدولة العثمانية عمل على اضعاف عقيدة الولاء والبراء لدى الأمة المسلمة بشكل مباشر تمثل في سياسة العسف والارهاب، وبشكل غير مباشر اتخذ التغريب له مساراً، لقد استحق محمد علي أن يكون رائد التغريب في العالم الاسلامي العربي التابع للدولة العثمانية وسار أولاده وأحفادهم من بعده على نفس السياسة، فقد ظلوا يتعهدون غراس التغريب والعلمنة ، ويسيرون في نفس الطريق ويتسابقون الى كسب ولاء الغرب ، وخطب وده[3].

إن فئة سلاطين الدولة العثمانية وباشواتها أمعنوا في موالاة الكافرين وألقوا إليهم بالمودة، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين وعملوا على اضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة وأصابوها في الصميم، وبذلك تميعت شخصية الدولة العثمانية وهويتها وفقدت أبرز مقوماتها وسهل بعد ذلك على أعداءها أن يحتووها ثم مزقوها شر ممزق.

---

(١)انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١٨٨/١).

(٢) انظر: الشرق الاسلامي، حسين مؤنس، ص٢١١.

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١٨٩/١).

ثانياً: انحصار مفهوم العبادة:

إن من شروط التمكين التي قام بها العثمانيون الأوائل تحقيق مفهوم العبودية الشامل كما مفهومه من القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكما أخذوه عن السلف الصالح رضوان الله عليهم .

ففهموا أن الدين كله عبادة، لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هي الغاية الحقيقية التي خلق الله الخلق لأجلها كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون} (سورة الذاريات: آية ٥٦). وكانت هي دعوة الرسل جميعاً من لدن نوح عليه السلام الى نبينا محمد ﷺ لأقوامهم: {ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره} (سورة الأعراف: الآيات ٨٥،٧٣،٦٥،٥٩).

وقال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (سورة النحل : آية ٣٦).

وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسولا إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون} (سورة الأنبياء: آية ٢٥).

لقد فهم العثمانيون الأوائل العبادة بمفهومها الشامل الذي أرداه الله عز وجل، وهي أن تشمل كل نشاط في حياة الإنسان: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين۝ لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} (سورة الأنعام: الآية ١٦٣،١٦٢).

فأصبحت حياتهم حافلة بالأعمال العظيمة من تقوية الدولة المسلمة وتربية دائمة لرعاياها، وتعليم القرآن ، والعلم، وجهاد الكافرين والمنافقين، وقيام على أمور المسلمين ، وتنفيذ لأهداف التمكين ولذلك نجد العلامة الشيخ شمس الدين آق يجمع بين دوره في توجيه الأمة وتعليمها وتوظيف علم النبات والطب والصيدلة لمصلحة المسلمين ، لقد كان هذا الشيخ يتعبد المولى عز وجل بالعلم الديني والدنيوي وكانت له بحوثه في علم النبات ومعالجة الأمراض المعدية وألف في ذلك كتاباً ، واهتم ايضاً بمعالجة مرض السرطان

وكان مجاهداً في صفوف جيش محمد الفاتح، مربياً لعوام العثمانيين على طاعة الله تعالى ومهتماً بتزكيتهم وآمر بالمعروف وناهياً عن المنكر وكان نعم المربي والناصح لمحمد الفاتح، فبعد أن فتحت القسطنطينية جاء محمد الفاتح يدخل في الخلوة مع الشيخ فمنعه الشيخ شمس الدين وقال لمحمد الفاتح: (إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك، فتختل أمورها ، فيمقت الله علينا ذلك والغرض من الخلوة تحصيل العدالة ، فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح إن هذا الفهم الجميل هو الذي سارت به الدولة العثمانية عندما كان للعلماء الربانيين صدارة التوجيه والإرشاد والتعليم، ولذلك نجد نهوضاً شاملاً في عصر السلطان محمد الفاتح في كافة شؤون الحياة التربوية والسياسية، والاقتصادية والعسكرية، والاجتماعية والعلمية كل ذلك النهوض مستمد من مفهوم العبودية الشامل الذي فهموه من الشريعة الغراء ولذلك نجد في الدولة العثمانية في عصر مجدها وقوتها تفوقاً في كافة المجالات فمثلاً في الـ جغرافيا يظهر اسم الريس بيري في زمن السلطانين سليم الأول، وسليمان القانوني، وكان الريس بيري، قائداً للبحرية العثمانية، وعالماً جغرافياً فذاً، ولد عام ١٤٦٥م وتوفي عام (١٥٥٤م)، كان هذا العالم الجغرافي رائداً من رواد رسم الخرائط في الأدب الجغرافي العثماني وله في هذا المضمار خريطتان هامتان، الأولى لإسبانيا وغرب أفريقيا والمحيط الأطلسي والسواحل الشرقية من الأمريكيتين. وهذه، قدمها إلى السلطان سليم الأول في مصر عام ١٥١٧م، وموجودة الآن في متحف طوبقبو في إستانبول (٦٠×٨٥سم) وعليها توقيع الريس.

والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إلى فلوريدا (٦٨×٦٩سم) وموجودة الآن في متحف طوبقبو بإستانبول أيضاً.

والجدير بالذكر أن الخريطة التي رسمها الريس بيري لأميركا هي أقدم خريطة لها.

في ٢٦ أغسطس عام ١٩٥٦م عقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأميركية ندوة إذاعية عن خرائط الريس بيري، اتفق كل الجغرافيين المشتركين فيها بأن خرائط الريس بيري لأمريكا : (اكتشاف خارق للعادة).

وقد كان الريس بيري على معرفة بوجود أمريكا قبل اكتشافها، ويقول في كتاب

البحرية : (إن بحر المغرب يقصد المحيط الأطلسي - بحر عظيم، يمتد بعرض ٢٠٠٠ ميل تجاه الغرب من بوغار سبته. وفي طرق هذا البحر العظيم توجد قارة هي قارة أنتيليا)، وتعبير قارة أنتيليا هي الدنيا أو أميركا. وقد كتب الريس أن هذه القارة اكشتفت عام (٨٧٠هـ/١٤٦٥م) أي قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا بحوالي ٢٧سنة[١].

لقد ترك ريس بيري كتاباً في البحرية آثار بما فيه من مُعلومات وخرائط دقيقة، دهشت المعاصرين من علماء الجغرافيا في أميركا وأوروبا، معلومات وخرائط أثبت العالم المعاصر صحتها.

وقد ذكر الراهب الجزويتي لاين هام مدير مركز الأرصاد في ويستون من يدل على عبقرية القائد العثماني ريس بيري في علم الجغرافيا حيث يقول: (خرائط الريس بيري صحيحة بدرجة مذهلة للعقل، خاصة أنها تظهر بوضوح أماكن لم تكن قد اكتشفت حتى أيامه في القرن السادس عشر الميلادي . إن الجانب المذهل في مكانة بيري، هو رسمه لجبال أنتاركتيكا بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط، مع أن هذه الجبال، لم يكن أحد قد تمكن من اكتشافها إلاّ في عام ١٩٥٢م أي في النصف الثاني من القرن العشرين، وكيف؟ بعد استخدام الأجهزة المتقدمة العاكسة للصوت، أما قبل القائد العثماني الريس بيري، يعني حتى القرن السادس عشر الميلادي، لم يكن أحد يعرف أن أنتاركتيكا موجودة، إذ كانت مغطاة بالجليد طوال عصور التاريخ)[٢].

والمعروف أن أنتاركتيكا هي القارة السادسة والواقعة في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، لم يقتصر الذهول على الراهب لين هام فقط، بل تعداه إلى كثير من العلماء والكتاب لقد قارن بعض العلماء صور الأرض التي تم التقاطها من مركبات الفضاء (في القرن العشرين) بالخرائط التي رسمها القائد البحري العثماني الريس بيري في البدايات المبكرة للقرن السادس عشر اتضح التشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٢٨٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٨٣.

بيري)[1].

إن النهوض في الدولة العثمانية في عصورها الزاهية كان في كافة المستويات العلمية، والشعبية، والحكومية والعسكرية وكانت حركة الدولة والأمة تعبيرا صادقا لمفهوم العبودية الشامل، أما في العصور المتأخرة للدولة العثمانية فقد انحصر مفهوم العبادة في صور الشعائر التعبدية التي أصبحت تؤدى كعادة موروثة ليس لها من أثر في حياة ممارسيها، اللهم إلا ماتستغرقه من زمن لأدائها. (وتم عزل العبادة عن بقية الإسلام حتى كأن الإسلام منحصر فيها دون بقية الأجزاء كالجهاد مثلاً، وأحكام المعاملات أو العلاقات المالية ومع أن أكثر الناس إن لم نقل كلهم يعلمون أن الإسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب، فإنهم أهملوا الجوانب الأخرى، وغضوا النظر عنها وأنزلوا مرتبتها. ودعا فريق من المرشدين إلى الإعراض عما سوى هذه العبادات، فالجهاد وإنكار المنكر ورد الطغيان والاستعمار ومقاومة الظلم والعمل في جميع ماينفع المسلمين من الأمور العامة، كل ذلك في نظر هذا الفريق من الناس وما أكثرهم في عصور الانحطاط فضول يشغل عن الله وعبادته .. وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى في الإسلام شاملة لجميع الواجبات التي أوجبها الإسلام من عبادات خاصة، وجهاد وعلم وعدل وعمل نافع للناس واستقامة في المعاملة وإحسان، كل ذلك مقروناً بتوحيد الله والإخلاص له أصبحت مقاييس التقوى محصورة في العبادات)[2].

وهكذا أعانت هذه الفكرة التي عزلت العبادة عن بقية أجزاء النظام الإسلامي الشامل على ضعف الوعي السياسي، والإجتماعي والأخلاقي.

ولقد تسبب هذا الانحصار في مفهوم العبادة في سلبيات من أهمها:

- صارت الشعائر التعبدية تؤدى بصورة تقليدية، عديمة الأثر والفائدة حين عزلت عن بقية أمور الإسلام فلا تؤدي هذه الشعائر دورها في حياة الإنسان وقد عزلت عن بقية جوانب العبادة الأخرى، فالصلاة التي يخبر الله عزوجل عنها بقوله: {إن الصلاة

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٨٤.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/١٠٠).

تنهى عن الفحشاء والمنكر} (سورة العنكبوت : ٤٥). لم تعد ذات أثر واقعي في حياة مؤديها من الناس حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر وقد حصرت العبادة في أداء الشعائر التعبدية فحسب.

تهاون الناس في بقية جوانب العبادات الأخرى.

إذ هي عندهم ليست من العبادة في شيء. حين نرى من المسلمين من يصلي الفروض جماعة في المسجد، ثم يخرج ويحلف عن عتبة المسجد كاذباً، ويغش في بيعه وشرائه، ويحتال في معاملاته، ويأكل الربا أضعافاً مضاعفة، ويقع في أعراض الناس، ثم تراه سادراً في ذلك مرتاح الضمير، هادئ الخاطر، قد أسكت وخزات ضميره وتأنيب نفسه بما نقره من ركعات.

- العناية بالجانب الفردي الشخصي، وإهمال الجوانب الإجتماعية فنجد أن المسلمين قد (عنوا بالآداب الفردية والمتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً ولكنه لايبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين، ناسياً أن (إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان (كما ورد في الحديث[(١)]، وقد يكون المسلم مراعياً لأحكام الطهارة وشروط النظافة في نفسه، ولكنه لايبالي أن يلوث للناس طرقهم وأماكن جلوسهم وأن يخل بالآداب الاجتماعية التي أمر الإسلام بها ([(٢)].

ونتيجة لكون مفهوم العبادة انحصر في الشعائر وحدها وخرجت منها بقية الأعمال، فاهتم الناس بشؤونهم الخاصة وأهملوا شئونهم العامة، ونمت روح الفردية على حساب الروح الإجتماعية.

- إقامة العبادة مقام العمل، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أحدث فيها من بدع عن اتخاذ الأسباب.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الايمان (٦٣/١).

(٢) انظر: المجتمع الاسلامي المعاصر لمحمد المبارك، ص٦٦.

(قراءة القرآن وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه، من آيات الجهاد والنظر إلى الكون والتفكير فيما خلق الله وإقامة العدل والميزان بالقسط، والحكم بما أنزل الله واستثمار مافي الكون من نعم الله مع أن ذلك كله عبادة.. وبينما كان الرسول ﷺ يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره الله ويدعو الله ويبتهل إليه لينصره إذا بالمسلمين في هذه العصور الأخيرة يجعلون الصلاة والدعاء - المأثور منه والمبتدع المخترع - بديلاً عن الأسباب فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر لا بأسبابها المشروعة التي جعلها الله سبباً وطريقاً إليها، بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها، وربما اخترعوا لذلك رقى وتمام وحجباً، وزيارات لأمكنة خاصة وأورادا ابتدعوها ..)[1].

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة، فخرج العمل السياسي بما يشتمل عليه من رقابة الأمة على أعمال الحاكم، وتقديم النصيحة إليه، والسهر على تطبيق الشريعة وأجراء العدل في حياة الناس.

وما أجمل ماقاله سيد قطب في توضيحه لحقيقة العبادة واستنكاره لمن يحصرها في الشعائر التعبدية: (إن الواقع أنه لو كان حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء)[2]. وهذا هو معنى العبادة الشامل الذي وعاه العثمانيون الأوائل، فطبقوه في حياتهم، وعملوا به في واقع الأرض، فدانت لهم الممالك، وخضعت أمامهم الطواغيت، ومكن الله لهم في الأرض، ورفعوا راية الإسلام خفاقة فوق بقاع شاسعة من المعمورة ويوم تبدل ذلك المفهوم وانحصر في دائرة

---

(١) انظر: المجتمع الاسلامي المعاصر، ص٦٩.

(٢) انظر: ظلال القرآن (١٩٣٨/٤).

الشعائر، فترت الهمم وضعفت العزائم عن القيام بأمور الإسلام كاملة فوقع الضعف ثم السقوط.

إن ماحل بالدولة العثمانية من هزائم عسكرية، وأزمات اقتصادية، وانحرافات خلقية، ومصائب اجتماعية، وتلوثات فكرية، وجفاف روحي، وتأخر حضاري، كان من أسبابه إفراغ الإسلام من محتواه الأصيل، وضياع مفهوم العبادة الشامل.

(فيوم كانت : { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة } عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أراضي المسلمين واستلاب خيراتهم ويوم كان (طلب العلم فريضة (لم يكن هناك تخلف علمي، بل كانت الأمة المسلمة هي أمة العلم، التي تعلمت أوروبا في مدارسها وجامعاتها!

ويوم كانت {فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه} عبادة، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض!

ويوم كانت (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته (عبادة، وكان ولي الأمر يستشعر أنه راع ومسؤول عن رعيته، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله! ويوم كانت {وعاشروهن بالمعروف} عبادة، لم تكن للمرأة المسلمة قضية، لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله لها بها كانت تؤدى إليها طاعة لله، وعبادة لله! .)[1].

لقد كان الانحراف عن مفهوم العبادة الشامل من أسباب إفساح المجال في العصور المتأخرة للدولة العثمانية لشيوع المذهب العلماني، وهيمنة الشعارات العلمانية على كثير من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية.

---

(١) انظر: مفاهيم يجب ان تصحح لمحمد قطب، ص٢٤٩.

ثالثاً: انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات:

إن الدولة العثمانية في القرنين الأخيرين كانت غارقة في كثير من مظاهر الشرك والبدع والخرافات، وحدث انحراف في توحيد الألوهية انحرافاً رهيباً، وغشيها موج من الظلام والجهل حجب عنها حقيقة الدين وطمس فيها نور التوحيد وعدل بها عن صراطه المستقيم[(١)].

يوم كانت الدولة العثمانية محققة للتوحيد، وتمارس مفهوم العبادة الشامل، وتحارب الشرك كانت في ذروة التمكين والعز والنصرة من الله تعالى، فهذا السلطان مراد الأول وهو في سكرات الموت بعدما طعنه جندي صربي يودع الدنيا بمعاني عميقة في التوحيد، وكلمات جامعة على التوحيد المنافي للشرك فيقول (لايسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام، أطيعوا ابني يزيد، ولاتعذبوا الأسرى ولاتؤذوهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء)[(٢)].

أما السلطان مراد الثاني فقد ترك وصيته : (فليأت يوم يرى الناس فيه ترابي)[(٣)]. لقد كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم، وكان يريد ألا يبنى شيئ على مكان دفنه.

لقد كان السلاطين الأوائل تتفجر معاني التوحيد في كلماتهم وتنعكس على أعمالهم وانتشرت تلك المفاهيم في الشعب العثماني قاطبة، أما في العصور المتأخرة فقد تغير الحال، ومع تضافر الأدلة وتواترها ووضوحها في النهي عن كل السبل المفضية إلى الشرك وتحذير النبي ﷺ وتشديده في ذلك قبل وفاته، كقوله ﷺ في الصحيحين: (لعن الله

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢٧٦/١).

(٢) انظر: الفتوح الاسلامية عبر العصور، ص٣٩١.

(٣) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٤٦.

اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا).

قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً[1]، وقوله ﷺ : (لعن الله زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج)[2].

وقال ﷺ قبل أن يموت بخمس : (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك)[3].

وقوله ﷺ : (اللهم لاتجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[4]، وقوله ﷺ : (لاتجلسوا على القبور، ولاتصلوا إليها)[5].

وحين ذكرت له بعض نسائه كنيسة رأينها في أرض الحبشة فيها تصاوير، قال ﷺ : (إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)[6].

ونهيه ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه، وجاء في رواية أخرى النهي عن الكتابة على القبور[7] وفي أواخر الدولة العثمانية كثر على غير العادة تشيد القباب وتبنى الأضرحة وإقامة المشاهد، وتحديث المزارات حتى لكأن هذه النصوص جاءت تأمر بالبناء على القبور، وتذكر فضله وتحث عليه.

وزاد الأمر سوءاً أن بعض الفقهاء أفتوا بجواز بناء القباب على القبور إذا كان الميت فاضلاً، واحتجوا بقولهم: إن بعض السلف استحسن ذلك، وزاد الطين بلة أنهم أودعوا تلك

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز ، باب مايكره من اتخاذ المساجد على القبور رقم ١٣٣٠.

(٢) الترمذي، كتاب الجنائز، باب ماجاء أن يتخذ على القبر مسجداً، رقم ٣٢٠.

(٣) مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، رقم ٥٣٢.

(٤) رواه مالك في الموطأ (١/١٧٢).

(٥) مسلم، كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبور، رقم ٩٧٢.

(٦) البخاري: كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية رقم ٤٢٧.

(٧) الترمذي، كتاب الجنائز، باب ماجاء في كراهية تجصيص القبور، صححه الألباني رقم ٧٥٧.

الآراء الفاسدة في مصنافتهم التي يعكف على دراستها الطلاب[١].

وأول من أحدث هذه المشاهد الشركية، والمزارات الوثنية في الأمة هم الشيعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن تحدث عن دور اليهود في نشأة التشيع: (فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد، محتجين بأنه لاتصلى الجمعة والجماعة إلا خلف إمام معصوم، ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب مالم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب من أهل الكتاب حتى صنف كبيرهم ابن النعمان[٢] كتاباً في (مناسك حج المشاهد) وكذبوا فيه على النبي ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه، وغيروا ملته، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد([٣]).

وانتقل هذا الوباء العظيم وبدأ في نخر الدولة العثمانية، وتعاظم شره، ووقع ماحذر منه النبي ﷺ من الشرك العظيم.

وقد تجلت مظاهر الشرك ووسائله في تلك الفترة في الصور التالية:

- بناء المساجد والقباب والمشاهد على الأضرحة والقبور في أقاليم الدولة، بل انتشر ذلك في العالم الإسلامي كله وللأسف الشديد نجد الدولة العثمانية في العصور المتأخرة تشجع على تلك المشاهد والأضرحة المنتشرة في العالم الإسلامي فمثلاً أعفت الدولة أهالي البصرة من الرسوم والتكاليف، احتراماً لصاحب الحضرة الشريفة، يعني الزبير بن العوام رضي الله عنه، وأن العثمانيين بنوا على ضريحه مسجداً، وقامت والدة السلطان عبدالعزيز بترميم القبب، وتكبير المسجد، وفي سنة ١٢٩٣هـ ورد أمر من السلطان عبدالحميد الثاني بتعمير هذه المراقد الشريفة على نظارة والي البصرة (ناصر باشا السعدون).

---

(١) الانحرافات العقدية والعلمية (٢٧٢،٢٧٣/١).

(٢) من كبار الشيعة الاسماعيلية في مصر.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٦٢/٢٧).

ثم في سنة ١٣٠٥هـ أمر السلطان عبدالحميد أيضاً بتبييض القبب وتعمير المسجد، وأمر أيضاً بكسوتين للضريحين (الزبير وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفتخر المطرز بالفضة وأمر أيضاً بوضع مباخر وقماقم من الفضة عند الضريحين الكريمين(١) وكانت جميع الأقاليم الإسلامية، في الحجاز واليمن وافريقيا ومصر والمغرب العربي والعراق والشام وتركيا وإيران، وبلاد ماوراء النهر والهند وغيرها تتسابق في بناء الأضرحة والقباب وتتنافس في تعظيمها والاحتفاء بها، إذ البناء على القبور هو مادرج عليه أهل ذلك العصر، وهو الشرف الذي يتوق إليه الكثيرون.

لقد أولع العثمانيون في عصورهم المتأخرة بالبناء على كل ما يعظمه الناس في ذلك العصر سواء أكان ما يعظمونه قبوراً أو آثار لأنبياء أو غير ذلك.

وأصبحت تلك المشاهد والأضرحة محلاً للاستغاثة والاستعانة بأصحابها وانتشرت عقائد شركية كالذبح لغير وجه الله والنذر للأضرحة، والاستشفاء وطلب البراء من الأضرحة والاعتصام بها، وأصبحت الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس وهكذا طغت هذه الأضرحة على حياة الناس، وأصبحت مهيمنة على شئونهم، وشغلت تفكيرهم، وتبوأت في نفوسهم وقلوبهم أعلى مكانة، وكانت رحى تلك الهيمنة تدور على الغلو والشرك بالأموات، والتعلق بهم من دون الله عزوجل فلا يبرمون من أمورهم صغيرة ولا كبيرة إلا بعد الرجوع إلى تلك الأضرحة، ودعاء أصحابها واستشارتهم، وهم لايملكون لأنفسهم ضراً ولانفعاً، فكيف لغيرهم، وقد كان العلماء وللأسف الشديد يتقدمون العامة ويسنون لهم السنن السيئة في تعظيم الأضرحة والمقامات والولوع بها ويزرعون الهيبة في نفوسهم بما كانوا يقومون به.

وقد تمادى الناس في الشرك والضلال وأمعنوا في الوثنية ومحاربة التوحيد فلم يكتفوا بالمقبورين والأحياء، بل أشركوا بالأشجار والأحجار، ووصل الأمر إلى اعتقاد العامة في بغداد في مدفع قديم في ساحة الميدان من بقايا أسلحة السلطان مراد العثماني التي استخدمها في حربه مع الفرس، لإخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدمون إليه النذور،

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/٢٩٤).

ويطلبون منه إطلاق السنة أطفالهم وهو يعرف عندم (طوب أبي خزامة (، مما حدا بالعلامة محمود شكري الآلوسي إلى التصدي لهذه الخرافة الشنيعة بكتابة رسالة يزجر بها هؤلاء الجاهلين أسماها بـ (القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع)[1].

واعتاد الناس في أواخر الدولة العثمانية أن يحلفوا بغير الله عزوجل من المخلوقين، وكان يسهل عليهم الحلف بالله كاذباً، عامداً متعمداً، ولكنه لايجرؤ أبداً أن يحلف بما عظمه من المخلوقين إلا صادقاً.

- انتشار البدع والخرافات:

كان السلاطين الأوائل في الدولة العثمانية ينفرون من البدع وأهلها ويحاربونها فهذا السلطان محمد الفاتح في وصيته يقول لمن بعده: (جانب البدع وأهلها وباعد الذين يحرضونك عليها (أما في العصور المتأخرة من الدولة العثمانية فإن البدع انتشرت انتشاراً ذريعاً، وأصبحت حياة رعايا الدولة ممزوجة بها، فقلما تخلو منها عبادة، أو عمل أو شأن من شؤون الحياة سواء في الجنائز والمآتم والأعراس والضيافات والولائم، وبدع الموالد عند المتصوفة المنحرفين وهكذا أصبحت البدع ترى في كل مكان تكاد تحتل منزلة الصدارة من حياة الناس يعمل بها الجاهلون ويأيدها العالمون، وأصبحت السنة بدعة والبدعة سنة[2] وتغير مفهوم الدين والعلم من منهج كامل وشامل لجميع مجالات الحياة إلى طقوس غريبة ورسوم بالية يتشبثون بها، ويحسبون أنهم مهتدون وتحول صحيح البخاري بما حواه من منهج للنبي ﷺ إلى تقليد بال رتيب، يتلى في الأزمات، ويقرأ في الحروب، طلباً للنصر ودحر الأعداء[3].

لقد أضحت السنة في تلك الفترة غريبة جداً، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم، وصار الناس متشبثين بالبدع على أنها من صميم الدين، ويأبون التفريط فيها مطلقاً، في الوقت الذي كانوا يفرطون فيه في كثير من أحكام الإسلام، ويكافحون من أجلها،

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/٣٦٧).

(٢) انظر: مشكلات الجيل في ضوء الاسلام، ص٣٧٣.

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/٣٨٠).

ويتعاهدون عليها، ويرون أنهم خدموا الدين، ونفعوا المسلمين[1].

- انتشار الخرافات:

في أواخر الدولة العثمانية فشت الخرافات والأساطير في جموع المسلمين بشكل منقطع النظير، وأضحت كحقائق مسلمة لاتقبل النقاش مطلقاً، وليس ذلك فحسب، وإنما غدت عند كثير منهم أموراً مقدسة لايجوز التهاون بها، فضلاً عن التشكيك في صحتها.

ومن الخرافات في الأستانة أنه جامع خوجة مصطفى باشا محاط بزنجير مربوط طوفه بشجرة سرو قديمة، ولهذا الزنجير خرافة يتناقلها الجهلاء مؤداها أن كل من أنكر شيئاً حقيقياً، وجلس تحت هذا الزنجير، فهو يسقط على رأسه، وإذا كان صادقاً في إنكاره، فالزنجير لايتحرك[2] لقد كانت الأمة في تلك الفترة غارقة في عبادة الأضرحة، والتعلق بها من دون الله عزوجل، ووقعت فريسة لكثير من مظاهر الشرك والغلو والبدع والخرافات، التي ملأت حياتها، وشغلت أوقاتها، وقتلت طاقاتها، وصرفت جهودها عن طريقها الصحيح، فعجزت عن النهوض من كبوتها، ولم تستطع أن تعالج أسباب انحطاطها؟ وانهزمت أمام جيوش الأعداء ووهنت عن مقاومة مخططاتهم ومؤامراتهم وكانت النتيجة ضياع الدولة العثمانية.

رابعاً: الصوفية المنحرفة:

إن أعظم انحراف وقع في تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد وأفكار وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد قوى عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها في أواخر العصر العثماني بسبب عوامل متعددة منها:

١- الأحوال السيئة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية، والواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة، من انتشار التخلف والظلم والطغيان والفقر والمرض

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤٢٨/١).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٤٣٢/١).

والجهل، كل ذلك جعل الناس يرتمون في أحضان الصوفية المنحرفة، التي لاتقوم بأكثر من الترتيب عليهم، والتحنير لهم، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الذي فروا منه.

٢- كان اضطراب الأمن وانعدامه سمة من سمات العصور المتأخرة، حيث كانت تزهق الأرواح لأسباب تافهة بل دون سبب في بعض الأحيان، وفي هذه الأجواء الحالكة، والظروف العصيبة، كان أرباب التصوف يحيون حياة هادئة يرفرف عليها الأمن والاطمئنان بعيدة عن المصائب والفتن التي فتكت بالناس.

(قد كان الفقراء أروح بالاً وأكثر طمأنينة من الفلاحين في حقولهم والتجار في متاجرهم والصناع في مصانعهم، فقد كانوا في أمن من تطبيق القوانين .. وكانوا في أغلب فترات الظلم الفادح في نجاة من هذه الشرور كلها، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم، ويخشون سلطانهم الروحي، ويؤمنون باتصالهم بالله، فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضا منهم، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال)[١].

٣- الترف في معيشة ارباب الفرق: (كان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك لايجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا، طاعمين كاسين، على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله. ومن أطرف مفارقة هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهاد الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شؤون العيش، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف ..)[٢].

٤- حب الأتراك العثمانيين للدروشة والتصوف: (كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم)[٣].

(لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر في المجتمع العباسي، ولكنها كانت ركناً

---

(١) انظر: التصوف في مصر أبان العصر العثماني، د. الطويل، ص١٥٤،١٥٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٥٤.

(٣) انظر: التصوف في مصر أبان العصر العثماني، ص١٥٤.

منعزلاً عن المجتمع، أما في ظل الدولة العثمانية، وفي تركيا بالذات، فقد صارت هي المجتمع وصارت هي الدين، وانتشرت - في القرنين الأخيرين بصفة خاصة - تلك القولة العجيبة: من لاشيخ له فيشخه الشيطان! وأصبحت - بالنسبة للعامة بصورة عامة - هي مدخلهم إلى الدين وهي مجال ممارستهم للدين[(1)].

وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصوفية، ويفيضون عليها من عطفهم وحدبهم، حتى جاء السلطان عبدالحميد إلى السلطنة في ظروف عصيبة، والمؤامرات تحاك للأمة، والكوارث والمحن تحيط بها من كل مكان، ودعاة القومية يبثون دعوتهم في سائر البلاد، فدعا إلى الجامعة الإسلامية والرابطة الدينية، وكانت الصوفية بجميع أصنافها وطرقها تشكل ثقلاً في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

لقد كان ذلك العصر، عصر الصوفية التي أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ولم تبقى مدينة ولاقرية إلا دخلتها إلا إذا استثنينا نجد وملحقاتها[(2)].

لقد سيطرت الصوفية المنحرفة على العالم الإسلامي في تلك الفترة، ووقع جمهور من المسلمين في أسرها، وعظم سلطان المتصوفة في نينك القرنين، وبلغ مبلغاً عظيماً، لو لم يكن من قوته ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة في طول البلاد وعرضها لكفى، فكيف إذا تبنته الدولة وناصره الحكام[(3)].

وكانت نظرة المتصوفة المنحرفة تحترم البطالة وتبيح انتسول، وتصطنع الضيق، وتسعى إلى مواطن الذل، وتغتبط بالهوان وكانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفة جداً (فما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته، وما افشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة في مال، فإن الرزق في طلب صاحبه دائر، والمرزوق في طلب رزقه حائر، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر.(.

---

(1) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٥٥.

(2) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٤٤٧/١).

(3) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٤٤٨/١).

وفسدت لدى كثير من المتصوفة عقيدة القضاء والقدر وأصبحت عندهم عقيدة سلبية مخذلة لقد كتب أحد المستشرقين الألمان وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة يقول: (طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل مايملك للواحد القهار. وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان: ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت في الجندي روح الفداء وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي فقذف به إلى الإنحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية)[1].

إن هذا الرجل وهو كافر أدرك هذه الحقيقة: حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السلف وبين الإيمان الذي ابتدعه الخلف متأثرين بالمتصوفة، فالذنب ليس ذنب العقيدة بل ذنب المعتقدين بها، وقد صاغ ذلك شاعر الإسلام محمد إقبال شعراً فقال:

من القرآن قد تركوا المساعي	وبالقرآن قد ملكوا الثّريا
إلى التقدير ردوا كل سعي	وكان زماعهم قدراً خفيا
تبدلت الضمائر في اسار	فما كرهوه صار لهم رضيا[2]

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأن ماوقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من الله، فمن حاول الاعتراض على ماوقع فكأنما يعترض على القضاء والقدر[3].

لقد كانت مفاهيم التصوف المنحرف تنخر في كيان الدولة العثمانية، وكان العالم الصليبي ينطلق في مجالات العلم وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوة والتقدم والرقي

---

(١) انظر: الاسلام قوة الغد العالمية، باول شمتز، ص٧٨.

(٢) انظر: العلمانية ، سفر الحوالي، ص٥١٩.

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٤٦٧/١).

ويـدير المـؤامرات والدسـائس لتفتيـت الدولـة العثمانيـة ومـن ثـم الهيمنـة علـى العـالم الإسلامي.

وكـان المتـصوفة المنحرفـون مقـبلين علـى اسـتماع الملاهـي والمعـازف ويتعلمـون الموسيقى وكانت مجالـسهم مليئـة بـالطبول والنايـات والأعـلام والرايـات وكانـت كـثير مـن الطرق المنحرفة لاتخلو حلقات الـذكر مـن الـدف حتـى قـال أبـو الهـدى الـصيادي وهـو مـن خواص السلطان عبدالحميد الثاني، ومن أنصار الجامعة الإسلاميـة:

اضرب الدف وجانب جاهلاً ... حكمة الشرع لمعنى مادرى

كل ما حرك قلباً ساكناً ... ودعا العقل منه معتبراً

واجال الروح في برزخها ... تذكر الله وتبغي مظهراً

فهو بر والذي يفعله ... فعل البر والله يرى

إن في الدف وفي رنته ... نغمة يعرفها من ذكرا

صوته ذكر وفي بحته ... أنه تذكر أوقات السرى

نضرب الدف ومنه عندنا ... ذاكراً نسمعه لن يفترا[(١)]

وقد كان للسماع عند جمهور المتصوفة منزلة عظيمة: يقول أبو الهدى الصيادي: (من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن لطف الاعتدال بعيد عن نور الروحانيـة، رائـد في غلظة الطبع وكثافته، بل هو أبلد من الجمال والطيور وسائر البهايم، فإن جميعها تتـأثر بالنغمات الموزونة .. وبالجملة فالسماع يثمر حالة في القلب وتـسمى وجـداً، ويثمـر الوجـد تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما بحركة موزونـة فتـسمى

(١) انظر: رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع للصيادي، ص٤٥.

التصفيق والرقص)[١].

وياليت أولئك المتصوفة اقتصروا على الولوع بالطرب والسماع والغناء، ولكنهم جعلوه إلى الله قربة، وعدوه طاعة تلين بها القلوب، وتشف بها الأرواح.

وما أحسن ماقاله العلامة الحافظ ابن القيم الجوزية عن هؤلاء المتصوفة حيث يقول: (فلو رأيتهم عند ذياك السماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟.

ويحق لهم ذلك، وقد خالط خمرة النفوس، ففعل فيها أعظم ماتفعله حميا الكؤوس، فلغير الله، بل للشيطان، قلوب هناك تمزق، وأثواب في غير طاعة تنفق، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخز في صدورهم وخزاً، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزاً فطوراً تجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالذباب ترقص وسط الديار، فيارحمة للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، وياشماتة أعداء الإسلام، بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من سماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وجداً ولاقدح فيه من لواعج الأشواق إلى الله زنداً، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان وولج مزموره سمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت . ولقد أحسن القائل:

تلي الكتاب فأطرقوا لاخيفة	لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا	والله مارقصوا لأجل الله

---

(١) انظر: رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع، ص٧٨.

دف ومزمار ونغمة شادن	فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا	تقييده بأوامر ونواهي
سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوى	زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن	شهواتها ياذبحها المتناهي
واتى السماع موافقاً أغراضها	فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه(١)

وهكذا أصبحت حياة المتصوفة المنحرفين في اللهو والسخافة وأضاعوا أوقاتهم وأعمارهم في مجالس الذكر والسماع والملاهي، وأصبحت حياتهم من أولها إلى آخرها تدور حول الذكر في صورته المنحرفة، وضاعت عبادة السعي في مناكب الأرض وطلب الرزق، والجهاد، وطلب العلم ونشره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكلها أمور تشغل عن الذكر وتصد عنه، ومن ثم ينبغي على المسلم أن لايشتغل بها وأن يعيش حياته على الذكر بالسماع والغناء والرقص.

ودخل في عالم التصوف المنحرف تقديس الأشخاص الأموات منهم والأحياء ونسبوا إليهم خوارق العادات والكرامات، وعاشوا في الأوهام، وعالم الخيال وأصيب الناس بالوهن والعجز والانحطاط، واتسعت هوة التخلف والسقوط، وكانت أوربا الصليبية تواصل صعودها في سلم الحضارة المادية وتعد جيوشها للزحف على العالم الإسلامي الغارق أهله في دنيا الخرافات والأوهام، والاتكال على الخوارق والكرامات.

وفي الوقت الذي كانت فيه الأمة تعاني أشد المعاناة من الضعف والانحطاط، وتدور عليها المؤمرات من الأعداء وتحاك لها الدسائس ، كان كثير من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوفة المنحرفين الذين أشاعوا روح الذل والخنوع في الأمة والذلة والهوان وغير ذلك من الأمراض المنحرفة، وتركت كثير من الطرق الصوفية المنحرفة الجهاد لمقارعة الاعداء، واصبح الأولياء في عرف الناس هم المجاذيب والمجانين والمعتوهين، ولاشك

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٥٠٦/١).

أن هناك بينهم نسبه كبيرة من الدجالين والمحترفين، استغلوا ما للمجاذيب من مكانة مقدسة في نفوس الناس ، فاندسوا في صفوفهم ، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء، من الذين لالوم عليهم ولا عتاب، مهما ارتكبوا من الموبقات، وجاهروا بالفواحش والآثام، وكان الكثير منهم يتعامل مع الجن فكان طبيعياً تنفذ سهام الاعداء، وتنجح مخططاتهم، وتحتل جيوشهم أرضنا، وتستباح بيضتنا ، ولقد حفلت الصوفية ببحر زاخر من العقائد المنحرفة والضالة ولعل آخر العقائد من آمن بها كثير من المتصوفة المنحرفين كعقيدة وحدة الوجود والحلول، لقد احتضن المتصوفة المنحرفين هذه العقائد، وعملوا على نشرها ، وألفوا مؤلفات من أجلها واعتبروها الحقيقة التي كشفت لهم سرها وستر عن الآخرين.

وكان تدريس كتابيَ (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) لـ(ابن عربي) وغيرها من كتب المتصوفة التي تطفح بعقيدتي وحدة الوجود والحلول هو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم، وهو المنزلة العلمية التي لايتبوؤها إلا الخاصة منهم. والمستوى العلمي الذي لايرقى إليه إلا فحول العلماء(١).

لقد لقيت هذه العقائد المنحرفة رواجاً واسعاً بين المتصوفة المنحرفين في تلك الفترة الحرجة التي كانت تمر بها الأمة الاسلامية، فكان كثير منهم يؤمن بعقيدة وحدة الوجود، التي لايمكن للحياة في ظلها أن تفسد، ويحيق الدمار بالعالم ، وتبطل الأديان بالكلية، فلا يبقى معها دين ولا جهاد، ولا عداء بين مسلم وكافر ، فالكل واحد، والوجود واحد، وإن تعددت المظاهر ، نسأل الله السلامة في الدين.

واستخفاف كثير منهم بالشرائع، وإلغاؤهم التكاليف أو إسقاطهم لها، واستهانتهم بأوامر الدين ونواهيه، تحت مسمى الولاية والحزب والجذب والشهود ولقد كان واقع الصوفية حجة قوية استندت إليها حركات التغريب التي نخرت الدولة العثمانية.

خامساً: نشاط الفرق المنحرفة:

كالشيعة الأثنى عشرية، والدروز والنصيرية ، والإسماعيلية والقاديانية

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٥٥٦/١).

والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الاسلام.

لقد كانت تلك الفرق قد استفحل أمرها، خصوصاً مع مجيء الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الاسلامية، فكانوا على عادتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنداً مخلصين تحت قياداتهم.

ففي الماضي كانوا أكبر عون للتتار والصليبيين ضد المسلمين، وهاهم يسيرون على نفس المنهج الممزوج بالخيانة والتآمر لحساب أعداء الأمة وقد مر بنا في هذا الكتاب دور الصفوية الأثنى عشرية الشيعة في محاربة الدولة العثمانية على مر عصورها، وحين احتل الفرنسيون سوريا وانطلقت الحركات الجهادية ضدهم كان الاسماعيلية في سليمة وغيرها يقاتلون جنباً الى جنب مع الفرنسيين كما فعلوا مع المجاهد (ابراهيم هنانو) ومن معه من المجاهدين[1].

أما طائفتا النصيرية والدروز فقد كانتا على مر التاريخ والعصور مصدراً لإثارة القلاقل وزعزعة الأمن والثورات المستمرة ضد الحكم الاسلامي، وعوناً للأعداء من الصليبيين المستعمرين وغيرهم.

وفي القرن الثالث عشر الهجري تفاقم أمر النصيرية وتعاظم خطرهم في بلاد الشام مما حدا بـ(يوسف باشا) والي الشام أن يقود جيشاً بنفسه ويقاتلهم حيث (انتصر عليهم وسبي نساؤهم وأولادهم ، وكان قد خيرهم بين الدخول في الاسلام أو الخروج من بلادهم فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا وبيعت نساؤهم وأولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الاسلام تقية، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم في البلاد..)[2].

وقد قاموا بثورة كبيرة عام ١٨٣٤م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوها وفتكوا بأهلها. وقد حاول السلطان عبدالحميد الثاني أن يعيدهم الى حظيرة الاسلام وأرسل رجلاً من خاصته اسمه (ضيا باشا) جعله متصرفاً على لواء اللاذقية في بداية القرن الرابع عشر الهجري فأنشأ لهم المساجد والمدارس، فأخذوا يتعلمون ويصلون ويصومون، وأقنع الدولة

---

(١) انظر: الأعلام (٤٢/١).

(٢) انظر: حلية البشر (١٦٠٠/٣).

بأنهم مسلمون فلم يعصوا له أمراً، وبعد أن ترك هذا المتصرف منصبه خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دنست[1].

وهذا من تفريط المسلمين تجاههم وكم خدعت تلك العقيدة الخطيرة (التقية) المسلمين حكاماً ومحكومين علماء ومتعلمين ، فأين علماء السنة الذين لاتنطلي عليهم دسائس الباطنين؟

إن تاريخ النصيريين ، تاريخ أسود ملطخ بالدماء ضد أهل السنة، وكانوا دائماً خنجراً مسموماً في جنب الأمة الاسلامية، يتآمرون ضدها في الخفاء، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلا ، والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائماً في تحالف مع أعدء الاسلام.

وكان أمير الدروز بشير الشهابي المتوفى سنة ١٢٦٦هـ يقف بجنوده بجانب جيش محمد علي عند احتلاله للشام، مما سهل على جيش محمد علي هزيمة الجيش العثماني في حمص، وعبر جبال طوروس، وأوغلت جيوشه في قلب بلاد الترك، وكان هناك مراسلات بين نابليون والدروز عند حصار الفرنسيين (عكا)[2].

أما البهائية فقد نشأت عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الانكليز بهدف إفساد العقيدة الاسلامية، وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية، وقد ادعى البهاء المهدية، ثم ادعى النبوة ، ثم ادعى الربوبية والألوهية[3].

إن من المؤلم حقاً تهاون الدولة العثمانية في القضاء على تلك النحلة الخبيثة وتطبيق فيهم حكم الله وشرعه في أمثالهم.

وأما القاديانية فهي نحلة تنسب الى (غلام أحمد القادياني)، نسبت الى قرية قاديان من إقليم البنجاب في الهند (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) وهي: (حركة نشأت بتخطيط من

---

(١) انظر: خطط الشام (٢٦٠/١).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٥٧٧/١).

(٣) المصدر السابق نفسه (٥٨٩/١).

الاستعمار الانكليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لايواجهوا المستعمر باسم الاسلام)[١].

وقد ادعى القادياني النبوة ثم الألوهية، وقد كان من أبرز ملامح دعوة (غلام احمد القادياني) (ميله الشديد للإنكليز وخدمته لأغراضهم في بلاد الهند، وإبطال عقيدة الجهاد لهم، وثناؤه عليهم، وحث اتباعه على نصرتهم في كل مكان..)[٢].

ويقول القادياني :(ولايجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين البغاة وأن يرفعوا على هذه الدولة المحسنة سيوفهم أو يعينوا أحداً في هذا الأمر ويعان على شيء أحد من المخالفين بالقول أو الفعل أو الإشارة أو المال أو التدابير المفسدة، بل هذه الأمور حرام قطعي ومن أرادها فقد عصى الله ورسوله وضل ضلالاً مبينا)[٣].

لقد كانت تلك الفرق مصدراً لإثارة القلاقل والفتن وإحداث الفوضى في داخل الدولة العثمانية وكذلك في تجمعات المسلمين كالهند وغيرها وكانت تلك الفرق لا تكل ولا تمل في تآمرها المستمر مع أعداء الاسلام وفي خيانة المسلمين في أحرج الأوقات، واحلك الظروف، لقد اكتوت الأمة بشرور تلك الفرق عندما ضعفت عقيدة أهل السنة في كيان الدولة القائمة عليها وفي نفوس رعاياها من أهل السنة.

سادساً: غياب القيادة الربانية:

إن القيادة الربانية من أسباب نهوض الأمة والتمكين لها، لأن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمنزلة الراس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسد القادة صار هذا الفساد الى الأمة، ولقد فطن أعداء الاسلام لأهمية القيادة الربانية في حياة الأمة ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصي الأمور وأزمة الحكم في الأمة الاسلامية ففي خطة لويس التاسع أوصى بـ(عدم تمكين البلاد الاسلامية

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة للأديان ، ص٣٨٩.

(٢) انظر: عقيدة ختم النبوة، د. عثمان عبدالمنعم، ص٢٠٩.

(٣) انظر: عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، د. أحمد حمدن ، ص٢٥٥.

والعربية من أن يقوم بها حاكم صالح) كما أوصى بـ(العمل على إفساد أنظمة الحكم في البلاد الاسلامية بالرشوة، والفساد، والنساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمة)[1].

وصرح القائد المستشرق البريطاني (مونتجو مري وات) في (جريدة التايمز اللندنية) قائلاً: (إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الاسلام، فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة اخرى)[2].

وقال المستشرق الصهيوني (برنارد لويس) تحت عنوان (عودة الاسلام) في دراسة نشرها عام ١٩٧٦م: (إن غياب القيادة العصرية المثقفة: القيادة التي تخدم الاسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم ، إن غياب هذه القيادة قد قيدت حركة الاسلام كقوة منتصرة ، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الاسلامية من أن تكون منافساً خطيراً على السلطة في العالم الاسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول الى قوى سياسية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة)[3].

إن الباحث في الدولة العثمانية يجد أن القيادة الربانية كانت موجودة في عصورها المتقدمة وخصوصاً عند فتح القسطنطينية فنجد القادة الربانيين في المجال الجهادي والمجال المدني ونلاحظ الصفات المشتركة بينهم، كسلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله ، والقدوة، والصدق والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن الاختيار للمعاونين، والتواضع وقبول التضحية، والحلم والصبر ، وعلو الهمة، والتميز بخفة الروح والدعابة، والحزم والإرادة القوية، والعدل والاحترام المتبادل ، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات.

لقد قاد محمد الفاتح الأمة في زمنه قيادة ربانية، وقد جرى الايمان في قلبه وعروقه، وانعكست ثماره على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله وسكناته وأحواله، وانتقل بدولته وشعبه نحو الأهداف المرسومة بخطوات ثابتة وكان العلماء

---

(١) انظر: قادة الغرب يقولون ، جلال العالم ، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق نفسه ،ص٢٥.

(٣) انظر : التمكين للأمة الاسلامية ، ص١٨٥.

الربانيون هم قلب القيادة في الدولة وعقلها المفكر، ولذلك سارت الأمة والدولة العثمانية على بصيرة وهدى وعلم[1] وأما في العصور المتأخرة يجد الباحث أنحرافاً خطيراً في القيادة العثمانية على المستوى العسكري والعلمي، فمثلاً وصل الى الصدارة العظمى مدحت باشا الماسوني، ووالي ولاية مصر محمد علي باشا العلماء والفقهاء وإن المرء ليعجب من اختيار العلماء لرجل مثل (محمد علي باشا) ليتولى أمورهم، وإصرارهم عليه في تولي الحكم. أما كان أحدهم أولى به من عسكري جاهل مغرور ويبدو إن العلماء فقدوا ثقتهم في علمهم وتهيبوا النزول الى الميدان، وتحمل المسؤوليات العظام؛ لأنهم قد ألفوا الركون الى حلقات العلم وتأليف الكتب، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمات ومسؤوليات؟

ومن الأمور المحزنة التي كانت تقع بين العلماء حدوث المنافسات والضغائن بينهم واستعانة بعضهم بالحكام واستعداء السلطة عليهم، ومتى ما حدث ذلك فإنها تسنح الفرصة للطغاة لإنزال ضرباتهم الموجعة لتقويض صف العلماء كالخلاف الذي وقع بين الشيخ (عبدالله الشرقاوي) شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد علي باشا الى الشيخ الشرقاوي بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى الى صلاة الجمعة، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: (أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه .. فأغروا به الباشا ففعل به ماذكر فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره)[2].

ويصف الشيخ مصطفى صبري حال العلماء الذين ابتعدوا عن أمور الحكم ونصح الحكام، وماهي نظرة العلمانيين للعلماء فقال: (والذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لايرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين، بحجة أنه لاينبغي لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقلبون أيديهم، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم، ثم يفعلون مايشاؤون لدين الناس ودنياهم، محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمر بمعروف أو نهي عن منكر، إلا ما بعد من فضول اللسان، أو مايكمن في القلب، وذلك أضعف

---

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم لعلي الصلابي، ص٣٢٨.

(٢) انظر: عجائب الآثار (١٣٤/٣).

الإيمان.

فالعلماء المعتزلون عن السياسة ، كأنهم تواطئوا مع كل الساسة، صالحيهم وظاليمهم، على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسي ..)[1].

لقد أخلد العلماء في أواخر الدولة العثمانية الى الأرض واتبعوا أهواءهم، وضعفوا عن القيام بواجباتهم، فكانوا بذلك قدوة سيئة للجماهير التي ترمقهم وترقبهم عن قرب ولقد غرق الكثير منهم في متاع الدنيا وأترفوا فيها، وكممت أفواههم بدون سيف أو سوط ولكن بإغداق العطايا عليهم من قبل الباشوات والحكام، ووضعهم في المناصب العالية ذات المرتبات الجزيلة والمزايا العظيمة التي تكون كفيلة بإسكات أصواتهم وكبح ثورتهم واعتراضهم[2].

(لقد كان علماء الدين دائماً في تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها، وهم ملجأها كذلك إذا حزبهم أمر ، وملاذها عند الفزع. تتجهم إليهم لتتلقى علم الدين منهم، وتتجه إليهم ليشيروا عليها في أمورها الهامة، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا الى رفع الظلم عنهم ، بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.. وكان العلماء يضطهدون من قبل ذوي السلطان أحياناً، ويلقون في السجون أحياناً، ويؤذون في ابدانهم وأموالهم وكراماتهم أحياناً ولكنهم يصمدون لهذا كان ، تقديراً لمسؤلياتهم أمام الله..

وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية، وكانوا كذلك دعاتها الى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان . يذكرونها بالله واليوم الآخر، وبالجنة التي تنتظر المجاهدين الصادقين، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان.

تلك كانت مهمة علماء الدين ، والدين حي في النفوس .. وفي التاريخ نماذج

---

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/٨٤).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٦٠٥/١).

عديدة لعلماء أرضوا ربهم وأدوا أمانتهم وجاهدوا في الله حق جهاده، وصبروا على ماأصابهم في سبيل الله فما ضعفوا وما استكانوا . فأين كان العلماء في تلك الفترة التي نحن بصددها من التاريخ؟

هل كانوا في مكان القيادة الذين عهدتهم الأمة فيه الى عهد ليس ببعيد..؟

هل كانوا حماة الأمة من العدوان؟ وحماتها من الظلم الواقع عليهم من ذوي السلطان؟

هل كانوا هم الذين يطالبون للأمة بحقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية وحقوقها الاقتصادية؟

هل كانوا هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقومون الى الامام الجائر فيأمرونه وينهونه، فتلهم أم لم يقتلهم؟

أم كان كثير منهم قد استعبدوا أنفسهم للسلطان، ومشوا في ركابه ، يتملقونه ويباركون مظالمة فيمدونه في الغي، بينما البقية الصالحة منهم قد قبعت في بيوتها ، أو انزوت في الدرس والكتاب ، تحسب أن مهمتها قد أنتهت إذا لقنت الناس العلم. ومانريد أن نظلمهم فقد كان منهم -ولاشك- من صدع بكلمة الحق، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحس أنه يستعبده لأولي السلطان أو يلجمه عن كلمة الحق. ولكنهم قلة قليلة بين الكثرة الغالية التي راحت تلهث وراء المتاع الأراضي، أو تقبع داخل الدرس والكتاب، على مافيها من جوانب القصور.)[1].

وكان من الطبيعي أن تصاب العلوم الدينية في هذه الفترة بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل أعطت اثرها عبر القرون المتوالية، ومن هذه العوامل:

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر ، ص٣٢٧.

١- الاهتمام بالمختصرات:

قام بعض العلماء باختصار المؤلفات الطويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم، حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء والطلاب حيث ضعفت ملكة الفهم والاستنباط عندهم: (فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها الى أصحابها)[١].

يقول الشيخ عبدالحميد بن باديس ناقداً للطريقة في تدريس الفقه: (واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفني الأعمار قبل الوصول إليها)[٢].

ويذكر الإمام الشوكاني اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي على ذلك فيقول: (قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ماهو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب، ونم يرفعوا الى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنه تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً)[٣].

٢- الشروح والحواشي والتقريرات:

يقول الشوكاني -رحمه الله- الذي درَس ودرّسَ الكثير من هذه الشروح والحواشي في مختلف العلوم الدينية واللغوية منتقداً لها: (مع أن فيها جميعاً ما لا تدعوا إليه الحاجة

---

(١) انظر : المجتمع الاسلامي المعاصر، ص٥٦.

(٢) انظر: ابن باديس حياته وآثاره (١٠٨/١).

(٣) انظر: أدب الطلب، ص٥٩.

بل غالبها كذلك ولاسيما تلك التدقيقات التي في شروحها وحواشيها فإنها عن علم الكتاب والسنة بمعزل)[1].

لقد كانت المؤلفات على كثرتها من شروح وحواشي وغير ذلك من الأغلال التي كبلت العقول وأدت الى جمود العلوم عبر قرون عديدة وكانت توجد بعض الحواشي والشروح المفيدة، ولكنها لاتكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم في تلك الفترة بعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة وكانت المعاهد الاسلامية كلها تقريباً بعيدة عن ذلك المنهج الاسلامي الأصيل.

فالأزهر مثلاً وهو المعهد الاسلامي الكبير والجامعة العتيقة كان مركزاً لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الاسلام ومبادئه يقول أحد الدارسين في الأزهر عن علم الكلام:

(ومن العلوم التي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإطلاق علم الكلام، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات، ولكني لم أعرف منه شيئاً عن الله ذا بال، وإنما انغمست في اصطلاحات زادت تفكيري غموضاً واضطراباً حتى تمنيت إيمان العوام..)[2].

لقد أصاب المناهج الاسلامية في تلك الفترة بالاضافة الى الجمود موجة من الجفاف حيث: (أن العصور المتأخرة بعدت بعداً كبيراً عن روح الاسلام واهتمت بالجسم والمادة حتى أصبحت الدراسات الاسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات الى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كانت يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها..)[3].

٢- الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلمية في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات ؛ فكانت تعطى في العصر المتأخر للدولة العثمانية جزافاً، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب

---

(١) انظر: البدر الطالع بمحاسن مابعد القرن السابع (٨٦/١).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٤٢،٤٣/٢).

(٣) انظر: المجتمع الاسلامي المعاصر ، ص٢١٠.

أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثير ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم في القاهرة يبعث الى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره[1].

فكانت ذلك التساهل من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهماً من عوامل انحدار المستوى التعليمي، وضعف العلوم الشرعية، حيث أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين الى العلم، حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع[2].

٤- وراثة المنصب العلمي:

أصبحت المناصب العلمية في أواخر الدولة العثمانية بالوراثة في الأمور العلمية المهمة كالتدريس والفتوى والإمامة وحتى القضاء، فقد صارت تلك المناصب تورث بموت من كانوا يتولونها، تماماً كما تورث الدور والضياع والأموال، فكثير ما كان يحدث ان يموت شيخ يدرس عليه، فلا يوارى في التراب حتى ينتقل منصبه وكرسيه الى ولده أو أخيه أو أحد أقاربه وقد يكون الوارث قليل الفهم مزجي البضاعة في العلم ولكن لابد للتصدر للإقراء والتدريس وعدم إخلاء الكرسي الذي قد يتربع عليه غريب عن أهل المتوفى حتى ولو كان جديراً بخلافته في منصبه الذي رحل عنه[3].

يقول المؤرخ التركي أحمد جودت المتوفى عام ١٣١٢هـ[4] متحدثاً عن تلك الظاهرة السيئة في الدولة العثمانية: (وصار أبناء الصدور والقضاة ينالون وظيفة التدريس وهم أحداث وأطفال، ويترقون لذلك في الوظائف، حتى إن الواحد منهم لتأتيه نوبته في

---

(١) انظر : الانحرافات العقدية والعلمية (٥٩/٢).

(٢) المصدر السابق نفسه (٦٤/٢).

(٣) المصدر السابق نفسه (٦٤/٢).

(٤) كان وزيراً في البلاط العثماني وكتب تاريخ جودت بالتركية في ١٢ مجلداً.

المولوية[1] وما طر شاربه ولا اخضر عذاره. وكان ينال التدريس أيضاً كل ذي وجاهة واعتبار حتى صارت المراتب والمناصب العلمية تؤخذ بالارث، فسهل على الوزراء ورجال الدولة تقليدها لأبنائهم وغيرهم، فازدحم عليها الغوغاء وصار الجهال يموج بعضهم في بعض، والتبس الأمر وفسد اي فساد)[2].

ويقول: (محمد كرد علي) في حديثه عن الأحوال العلمية في الشام وترديها في العصر العثماني: (وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبر الأب للابن، وكان المفتي (ابو السعود) من مشايخ الاسلام في الاستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد الى الجهلة بدعوى أن آبائهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم، بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء الأميين، وكم من أمي غدا في (دمشق) و(حلب) و(القدس) و(بيروت) قاضي القضاة، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم..)[3].

لقد كانت لتلك العادة السيئة آثار وخيمة في انحدار مستوى التعليم، وضعف الحياة العلمية عند المسلمين، وذلك بتوارث تلك المناصب الدينية، وحكرها في أسر معينة وبالتالي أثرت تلك العادة في إيجاد علماء ربانيين متجردين لدين الله تعالى همهم احقاق العدل، ونصرة المظلوم، وإعزاز الدين.

سابعاً: رفض فتح باب الاجتهاد:

في أواخر الدولة العثمانية أصبحت الدعوى بفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة تصل الى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين الى حد الكفر، وكان من التهم التي وجهها خصوم الدعوة السلفية الى علمائها دعوى الاجتهاد، وكانت تهمة شديدة في ذلك

---

(١) المولوية: ثاني رتبة في القضاء العثماني بعد رتبة قاضي العسكر.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٦٨/٢).

(٣) انظر: خطط الشام (٧٠/٢).

الزمن مع أن أحد منهم لم يقل بذلك، وكانت الدعوة الى قفل باب الاجتهاد توارثها المتعصبون على مر العصور واصبح حرصهم في أواخر الدولة العثمانية ظاهراً ونافحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كل من يحوم حوله مما شجع المتغربون بالسعي الدؤوب لاستيراد المبادئ والنظم من أوروبا ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لاتزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين الى يومنا هذا.

(فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطباته.فماذا يحدث؟

يحدث أحد أمرين : إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها. وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة، لأن هذا الظلم لم يمد بالاجتهاد حتى يعطيها.

وقد حدث الأمران معاً ، الواحد تلوا الآخر . الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة)[1].

لقد عانت الأمة من قفل باب الاجتهاد وكانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها لم تعطي هذا الباب حقه وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم : (وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل.. وكان من هذا أن مضى الناس -من غير المسلمين يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً . وهكذا سار الناس من غير المسلمين- قدماً في الحياة ووقف المسلمون حيث هم لايبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون)[2]. واستمر التعصب المذهبي في إضعاف المستوى التعليمي ، وانحدار العلوم وجمودها وتكبيل العقول والأفهام والحجر عليها. بالإضافة الى ماتسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعاتهم، وبعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها، وتعادي غيرها

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر ، ص١٥٩.

(٢) انظر: سد باب الاجتهاد وماترتب عليه ، د. عبدالكريم الخطيب، ص١٤٤.

من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعم الاقطار الاسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر؛ فالجامع الأزهر كان ميدانا رحبا للصراعات المذهبية خصوصا بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر[١].

إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الاسلامية اجتماعياً وسياسياً ، وأروثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الاسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والاسلام..)[٢].

لقد كان التعصب المذهبي منحرفاً عن منهج الله تعالى وزاد هذا الانحراف عمقاً في حجر العقول ، وجمود العلوم، وتفتيت الصف الاسلامي مما كان له أعظم الأثر في ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها، وانشغالها بمشاكلها الداخلية في الوقت التي كانت المؤمرات قد احاطت بها وشرع الصليبيون في الأجهاز على الرجل المريض.

ثامناً: انتشار الظلم في الدولة:

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي الى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها ، أي الذي قدره الله لهما بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على مايكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضى مدة محددة يعلمها الله[٣]. قال تعالى :{ولكل امة أجل فإذا جاء اجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} (سورة الأعراف: آية ٣٤). قال الآلوسي في تفسيره لهذه الآية: {ولكل أمة أجل} . اي ولكل أمة من الأمم الهالكة أجل، اي :

---

(١) انظر: عجائب الآثار (٢/٢٤٢).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/٨٦).

(٣) انظر: السنن الإلهية ، د. عبدالكريم زيدان ، ص١٢١.

وقت معين مضروب لاستئصالهم[1]. ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد الأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى[2].

إن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: {ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد۝ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ومازادهم غير تتبيب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} (سورة هود: الآيات ١٠٠-١٠٢).

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصرٌ بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: {كذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة} . فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت الى هلاكهم فلابد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذر من وخامة الظلم إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لايظلمون الناس والناس أنفسهم لايتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى ، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم الى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[3]. قال تعالى: {وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون} (سورة هود: آية ١١٧).

قال الإمام الرازي في تفسيره:(إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما

---

(١) انظر : تفسير الآلوسي (١١٢/٨).

(٢) انظر: السنن الإلهية ، ص١٢١.

(٣) انظر: السنن الإلهية ، ص١٢٢.

بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد)[1].

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: {بظلم} أي : بشرك وكفر {وأهلها مصلحون} أي : فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[2].

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم ، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولاتدوم مع الظلم والاسلام. وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان مايجزي به في الآخرة)[3].

لقد قام بعض الباشوات بأفعال قبيحة وسفكوا الدماء واغتصبوا الأموال؛ فهذا إبراهيم باشا المعروف بدالي أحد وزراء السلطان مراد الثالث وكان أمير الأمراء في ديار بكر بأسرها؛ ففتك فيها وظلم أهلها وأظهر من أنواع الظلم اشياء مستكرهة جداً، منها الاعتداء على الأعراض، ونهب الأموال، وفعل الأفاعيل العظيمة ولما وصل الأمر للسلطان وعقد مجلس القضاء وهاب الناس أن يشهد عليه ولم يستطع القاضي أن يدقق في الدعوة لأن أخته كانت عند السلطان مراد مقبولة جداً، وانصرف خصماؤه ، وقرره السلطان في ديار بكر فذهب إليها ناوياً على إهلاك كل من اشتكى عليه، وأهلك منهم خلقاً تحت العذاب ووصل الأمر الى أن ثار عليه أهل البلد وقاموا عليه قومة رجل واحد فتحصن في القلعة

---

(١) انظر : تفسير الرازي (١٨/١٦).

(٢) انظر : تفسير القرطبي (٩/١١٤).

(٣) انظر : رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ، ص٤٠.

وصار يقذف القذائف بالمدافع على أهل المدينة حتى قتل منهم خلقاً كثيراً[1].

وما قام به الباشا محمد علي من ظلم أهل مصر وأهل الشام، والحجاز معروف وقد ذكرناه في هذا الكتاب، وقد أشتد ظلم الاتراك للعرب، والاكراد، والألبان مع مجيء الاتحاد والترقي للحكم، بل قامت تلك العصابة بظلم الناس في داخل تركيا وخارجها وقد ذكرنا ما تعرض له السلطان عبدالحميد الثاني من ظلمهم، وعسفهم، وجورهم؛ فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم وزالت دولة الخلافة العثمانية من الوجود.

تاسعاً: الترف والانغماس في الشهوات:

قال تعالى: {فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين} (سورة هود: آية ١١٦). وقوله تعالى: {واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه} . أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع الى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء[2].

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين ابطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: {وكم قصمنا من قرية كان ظلمة وانشأنا بعدها قوماً آخرين ۝ فلما احسوا بأسنا إذا هم يركضون ۝ لاتركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون} .

---

(١) انظر: المختار المصون من أعلام القرون (٢/٩١٧،٩١٦).

(٢) انظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ، ص١٨٦.

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً} (سورة الاسراء:آية ١٦).

وجاء في تفسيرها: (وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجبّاريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة الى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وماوقع من سوءهم إنما وقع بأتباعهم وإغوائهم ، فكان توجه الأمر إليهم آكد)[١].

وحدث في زمن السلطان محمد بن إبراهيم : (زينت دار الخلافة ثلاثة أيام وكان السلطان محمد إذ ذاك ببلدة سلستره بروم ايلي فكتب الى قائم مقام الوزير بالقسطنطينية عبدي باشا النيشاني أنه يريد القدوم الى دار المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة اخرى إذا قدم؛ فوقع النداء قبل قدوم السلطان باربعين يوماً وتهيأ الناس للزينة ثم قدم السلطان فشرعوا في التزيين وبذلوا جهدهم في التأنق فيها واتفق أهل العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة في دور من الأدوار، وكنت الفقير إذ ذاك بقسطنطينة وشاهدتها ولم يبق شيء من دواعي الطرب إلا صرفت إليه الهمم ووجهت إليه البواعث، واستغرقت الناس في اللذة والسرور، واستوعب جميع آلات النشاط والحبور، وفشت المناهي وعلمت العقلاء أن هذا الأمر كان غلطاً وأن ارتكابه كان جرم عظيم، وما أحسب ذلك إلا نهاية السلطنة وخاتمة كتاب السعادة والميمنة، ثم طرأ الانحطاط وشوهد النقصان وتبدل الربح بعدها بالخسران..)[٢].

وفي سنة تسعين وتسعمائة للهجرة احتفل السلطان مراد بن سليم الثاني بختان ولده السلطان محمد وضع لذلك فرحاً لم يقع في زمن احد من الخلفاء والملوك وامتدت الولائم والفرحة واللهو والطرب مدة خمسة وأربعين يوماً وجلس للفرجة في دار إبراهيم باشا بمحلة آت ميدان وأغدق النعم العظيمة ورأيت في تاريخ الكبريَ أنه جعل صواني

---

(١) انظر: تفسير الآلوسي (٤٢/١٥).

(٢) انظر: المختار المصون من أعلام القرون (١١٦٤/٢،١١٦٣).

صغاراً من ذهب وفضة وملأ الذهب بالفضة والفضة بالذهب وألقى في ذلك لأرباب الملاهي وغيرهم من طالبي الإحسان[1].

وهذا انحراف خطير عن المنهج الذي سارت عليه الدولة في زمن قوتها وصولتها وتمكينها وكانت من وصايا محمد الفاتح لولي عهده (واحرس اموال بيت المال من أن تتبدد)، (ولاتصرف أموال الدولة في ترف أو لهو وأكثر من قدر اللزوم، فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك)، فكان من الطبيعي بعد هذا الانحراف الخطير والأنغماس في الترف واللهو والشهوات أن تزول الدولة بعد ضياع مقومات بقائها.

عاشراً: الاختلاف والفُرقة:

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لاتتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله سبحانه وتعالى من اسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال ﷺ: (فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وفي رواية (فأهلكوا)[2].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود : فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف[3].

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[4].

وقال ابن تيمية -رحمه الله- : (وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف)[5].

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/١١٥٥،١١٥٤).

(٢) انظر: صحيح البخاري بشرح العسقلاني (٩/١٠٢،١٠١).

(٣) المصدر السابق نفسه (٩/١٠٢).

(٤) المصدر السابق نفسه (٩/١٠٢).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/١١٦).

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي الى تفريقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرق يعتقد ببطلان ماعند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر الى استباحة قتال بعضهم بعضاً[1].

(وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة، لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها فيطمع فيهاجمها، ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها[2].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن توقى الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة العثمانية وهلاكها واندثارها. وإن من أخطر مانعاني منه الآن الخلاف في صفوف الإسلاميين القائمين بواجب الدعوة الى الله تعالى، وهذا الخلاف يؤدي الى ضعف الأمة إذا لم تأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبدالكريم زيدان:(والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة الى الله ثم يهلكها ولهذا كان شر ماتبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعلم لمصلحة الدعوة . وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفريق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفريق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لايقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في الناس، وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر

---

(١) انظر: السنن الإلهية ، ص١٣٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٣٩.

الناس بأحكام الاسلام، والاسلام يدعو الى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تغيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يؤول الأمر الى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد مانقول)[1].

لقد ابتليت الدولة العثمانية خصوصاً في أواخر عهدها بالاختلاف والتفريق بين الزعماء والسلاطين ، فقد حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (المماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القرامليون في ليبيا)[2] وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانية ساهم في اضعافها ثم زوالها وسقوطها ولقد ذكر بعض المؤرخين أسباب السقوط وحدث لهم تخليط بين الأسباب في السقوط وبين الآثار المترتبة عن الابتعاد عن شرع الله تعالى.

إن الحديث عن الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي والاخلاقي والاجتماعي وكيفية القضاء على هذا الضعف والحديث عن الاستعمار والغزو الفكري والتنصير وكيفية مقاومتها لا يزيد عن محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة، ولكن لايمكنه أبداً أن ينهض بالأمة التي أصيبت بالخواء العقدي وما لم يتم محاربة الأسباب الحقيقية والقضاء عليها فإنه لايمكن بحال من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة.

إن الآثار كانت متشابكة ومتداخلة ، يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالضعف السياسي مثلاً يؤثر في الضعف الاقتصادي، ويتأثر به ، وهكذا.

إن كثيراً من المحاولات التي بذلت في العالم الاسلامي من أجل إعادة دولة الاسلام، وعزته وقوته ركزت على الآثار ولم تعالج الأسباب الحقيقية الذي كانت خلف ضياع الدولة

---

(١) انظر : السنن الإلهية ، ص١٤١،١٤٠.

(٢) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. اسماعيل ياغي، ص٩٤.

العثمانية وضعف الأمة، وانحطاطها.

إن جهود النصارى، واليهود، والعلمانية ماكانت لتؤثر في الدولة العثمانية إلا بعد أن انحرفت عن شرع الله وفقدت شروط التمكين ، وأهملت أسبابه المادية والمعنوية قال تعالى: {لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الألباب ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} (سورة يوسف: آية ١١١).

نتائج البحث

تعرض التاريخ العثماني لحملات التشويه والتزوير والتشكيك من قبل اليهود والنصارى والعلمانيين.

١- سار مؤرخو العرب والأتراك في ركب الاتجاه المعادي لفترة الخلافة العثمانية.

٢- احتضنت القوى الأوروبية الاتجاه المناهض للخلافة الاسلامية وقامت بدعم المؤرخين في مصر والشام الى تأصيل الاطار القومي وتعميقه من أمثال البستاني واليازجي وجورج زيدان واديب اسحاق وسليم نقاش وشبلي شميل، وسلامة موسى، وغيرهم.

٣ استطاعت المحافل الماسونية أن تهيمن على عقول زعماء التوجه القومي في داخل الشعوب الاسلامية، وخضع أولئك الزعماء لتوجيه المحافل الماسونية أكثر من خضوعهم لمطالب شعوبهم وبخاصة موقفها من الدين الاسلامي.

٤ اعتمد المؤرخون الذين عملوا على تشوية الدولة العثمانية على تزوير الحقائق، والكذب والبهتان والتشكيك والدس ولقد غلبت على تلك الكتب والدراسات طابع الحقد الأعمى، والدوافع المنحرفة ، بعيدة كل البعد عن الموضوعية.

٥ قام مجموعة من علماء التاريخ العثماني من أبناء الأمة بالردود على تلك الاتهامات والدفاع عن الدولة العثمانية من أهمها وأبرزها تلك الكتابة التي قام بها الدكتور عبدالعزيز الشناوي في ثلاثة مجلدات ضخمة تحت عنوان الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، وما قدمه الدكتور محمد حرب من كتب مهمة مثل؛ العثمانيون في التاريخ والحضارة ، والسلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، وما كتبه الدكتور موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض.

٦- ترجع أصول الأتراك الى منطقة ماوراء النهر والتي تسمى اليوم تركستان والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً الى بحر قزوين غرباً، ومن السهول السيبرية شمالاً الى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً ، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى في تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك.

٧- دخل الأتراك في الإسلام في عام ٢٢هـ في زمن عثمان بن عفان ﷺ .

٨- أصبحت قبائل الأتراك بعد دخولها في الإسلام ضمن رعايا الدولة الإسلامية وازداد عددهم في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا في تولي المناصب القيادية والإدارية في الدولة؛ فكان منهم الجند والقادة والكتاب.

٩- استطاع السلاجقة (وهم اتراك) أن يقوموا بتأسيس دولة تركية كبرى ضمت خراسان وماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى.

١٠- ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السني بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي (الفاطمي) في مصر والشام فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية).

١١- استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام ٤٤٧هـ في بغداد وأن يقضي على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض ابي عبدالله الجلاب لغلوه في الرفض.

١٢ تولى زعامة السلاجقة ألب أرسلان بعد وفاة عمه طغرل بك وكان قائداً ماهراً مقداماً، وهو الذي انتصر على جيوش امبراطور الروم في معركة ملاذكرد في عام ٤٦٣هـ وكان ذلك الانتصار نقطة تحول في التاريخ الاسلامي لأنها سهلت على اضعاف نفوذ الروم في معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت ترتكز عليها الامبراطورية البيزنطية.

١٣- تولى زعامة السلاجقة بعد الب أرسلان ابنه ملكشاه واتسعت الدولة السلجوقية في عهده لتبلغ أقصى امتداد لها من أفغانستان شرقاً الى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً.

١٤- يعتبر نظام الملك من أعظم وزراء السلاجقة ، واشتهر بضبطه لأمور الدولة وحبه للعلم والعلماء، وكثرة انفاقه، واعماله في الخير، وبناء المدارس لتعليم المسلمين.

١٥- تضافرت عوامل عديدة في سقوط سلطنة السلجوقية مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية منها: الصراع داخل البيت السلجوقي، تدخل النساء في شؤون الحكم ، ضعف الخلفاء العباسيين، المكر الباطني الذي تمثل في اغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقاداتهم.

١٦- قدمت دولة السلاجقة أعمال جليلة للاسلام منها: كان لهم دور في تأخير زوال الدولة العباسية، حوالي قرنين من الزمان، منعت الدولة العبيدية في مصر من تحقيق أغراضها التوسعية ، كانت جهود السلاجقة تمهيداً لتوحيد المشرق الاسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي تحت راية الخلافة العباسية السنية، قاموا بنشر العلم والأمن والاستقرار في الأقاليم التي تحت نفوذهم، وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الامبراطورية البيزنطية، وحاولوا صد الخطر المغولي الى حد كبير، ورفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه.

١٧ ينتسب العثمانيون الى قبيلة تركمانية كانت تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي.

١٨- هاجر سليمان جد عثمان في عام ٦١٧هـ مع قبيلته من كردستان الى بلاد الأناضول فأستقر في مدينة اخلاط في شرق تركيا حالياً.

١٩- تولى زعامة قبيلة سليمان بعد وفاته ابنه أرطغرل الذي واصل تحركه نحو

الشمال الغربي من الأناضول، وفي طريقه وجد صراعاً مسلحاً بين السلاجقة المسلمين والروم النصارى، فأنضم الى المسلمين وكان تدخله في الوقت المناسب سبباً في تحقيق نصر السلاجقة.

٢٠- اقتطع القائد الاسلامي السلجوقي اطغرل ومجموعته أرضاً من الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم، وأتاح لهم فرصة توسيعها على حساب الروم.

٢١- تولى عثمان الأول قيادة قومه بعد وفاة أبيه وسار على نهج سياسة أبيه السابقة في التوسع في اراضي الروم.

٢٢- كان عثمان الأول يتميز بصفات رفيعة منها؛ الشجاعة ، والحكمة، والاخلاص، والصبر، والجاذبية الإيمانية، والعدل ، والوفاء ، والتجرد لله في فتوحاته ، وحبه للعلم والعلماء.

٢٣- كانت حياة عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية ، جهاداً ودعوة في سبيل الله وكان علماء الدين يحيطون به ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمامة ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد.

٢٤- تولى السلطان أورخان الحكم بعد وفاة والده عام ٧٢٦هـ وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات، وحرص على تحقيق بشارة رسول الله ﷺ في فتح القسطنطينية ووضع خطة استراتيجية تستهدف الى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد.

٢٥- إن من أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان، تأسيسه للجيش الاسلامي ، وحرصه على إدخال نظاماً خاصاً للجيش، فقام بتقسيم الجيش الى وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أشخاص ، أو مائة شخص، أو الف

شخص، وخصص خمس الغنائم للانفاق منها على الجيش ، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لايجتمع إلا وقت الحرب، وأنشأ له مراكز خاصة يتم تدريبه فيها.

٢٦- أهتم أورخان بتوطيد أركان دولته والى الأعمال الاصلاحية والعمرانية ونظم شؤون الادارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية، وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة.

٢٧- تولى الحكم بعد السلطان أورخان السلطان مراد الأول عام ٧٦١هـ وكان مراد الأول شجاعاً مجاهداً كريماً متديناً، وكان محباً للنظام متمسكاً به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفاً بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين شكل منهم مجلساً لشورته، وتوسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد.

٢٨- استطاع مراد الأول أن يفتح أدرنة في عام ٧٦٢هـ واتخذ من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية من عام ٧٦٢هـ، وبذلك انتقلت العاصمة الى أوروبا، وأصبحت أدرنة عاصمة إسلامية.

٢٩- كان السلطان مراد الأول يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه ومن دعاه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية واستشهد في معركة قوصوة ضد الصرب.

٣٠- قاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره.

٣١- تولى بايزيد الحكم بعد أبيه مراد عام ٧٩١هـ وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمساً للفتوحات الاسلامية، ولذلك أهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية واستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول وخلال عام اصبحت تابعة للدولة

العثمانية، وكان بايزيد مثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية ولذلك أطلق عليه لقب (الصاعقة).

٣٢- انهزم بايزيد أمام جيوش تيمورلنك بسبب اندفاعه وعجلته وعدم احسانه لاختيار المكان الذي نزل به جيشه.

٣٣- تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي ونشبت الحرب الأهلية في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات وكانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية.

٣٤- استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سني حكمه العثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد اركانها ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

٣٥- استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على حركة الشيخ بدر الديني الذي كان يدعو الى المساواة في الأموال، والأمتعة والأديان ولا يفرق بين مسلم وغير مسلم في العقيدة.

٣٦- كان السلطان محمد جلبي محباً للشعر والأدب والفنون وقيل هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية الى امير مكة.

٣٧- تولى أمر السلطنة مراد الثاني عام ٨٢٤هـ بعد وفاة أبيه محمد جلبي وكان محباً للجهاد ، والدعوة الى الاسلام، وكان شاعراً ومحباً للعلماء والشعراء.

٣٨- تولى محمد الفاتح حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في عام ٨٥٥هـ وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة وقد تميز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء

وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ.

٣٩- كانت من أهم أعمال السلطان محمد الثاني فتحه للقسطنطينية وكان لذلك الفتح أثر عظيم على العالم الإسلامي والأوروبي وكان لفتح القسطنطينية أسباب مادية ومعنوية وشروط أخذ بها.

٤٠- حرص العثمانيون على تحكيم شرع الله وظهرت آثاره الدنيوية والأخروية على المجتمع العثماني منها؛ الاستخلاف والتمكين ، الأمن والاستقرار ، النصر والفتح، العز والشرف، انتشار الفضائل وانزواء الرذائل وغير ذلك من الآثار.

٤١ من أهم الصفات القيادية في شخصية محمد الفاتح، الحزم والشجاعة والذكاء، العزيمة والاصرار، العدالة ، عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، الأخلاص، العلم.

٤٢- من أعمال محمد الفاتح الحضارية؛ بناءه للمدارس والمعاهد، والعلماء والشعراء والأدباء والترجمة، والعمران والبناء والمستشفيات واهتمامه بالتجارة والصناعة، والتنظيمات الإدارية ، والجيش والبحرية والعدل.

٤٣- ترك محمد الفاتح وصية عبرت اصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وفيمه ومبادئه التي آمن بها.

٤٤- يعتبر الشيخان محمد بن حمزة المشهور بـ (آق شمس الدين) ، وأحمد الكوراني من الشيوخ الذين كان لهم أثر على محمد الفاتح.

٤٥ بعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى ابنه بايزيد الثاني (٨٨٦هـ) وكان سلطاناً وديعاً ، نشأ محباً للأدب ، متفقهاً في علوم الشريعة الاسلامية شغوفاً بعلم الفلك.

٤٦ دخل بايزيد الثاني في صراع مع أخيه جم، واشتبك مع المماليك في معارك على الحدود الشامية، وحاول أن يساعد مسلمي الأندلس في محنتهم الشديدة.

٤٧- تولى الحكم السلطان سليم الأول بعد بايزيد الثاني، وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ ورغم قسوته فإنه كان يميل الى صحبة رجال العلم وكان يصطحب المؤرخين والشعراء الى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي امجاد الماضي.

٤٨- كان للسلطان سليم الأول الفضل بحمد الله في إضعاف النفوذ الشيعي في العراق وبلاد فارس وحقق على الصفويين الشيعة الروافض انتصاراً عظيماً في معركة جالديران.

٤٩- كانت نتيجة الصراع بين الدولة العثمانية والصفوية: ضم شمال العراق، وديار بكر الى الدولة العثمانية ، أمّن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية ، سيطرة المذهب السني في آسيا الصغرى بعد أن قضى على اتباع وأعوان اسماعيل الصفوي.

٥٠- استفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عاماً على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب.

٥١- دخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لاتستطيع أن تستمر في زحفها على أوروبا.

٥٢- استطاع العثمانيون أن يحققوا انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية وازاحوا دولة المماليك بعد ذلك من الوجود.

٥٣- بعد مقتل السلطان الغوري ونائبه طومان باي بادر شريف مكة (بركات بن محمد) الى تقديم السمع والطاعة الى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة وبذلك أصبح السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين.

٥٤- دخلت اليمن تحت النفوذ العثماني بعد سقوط دولة المماليك وكانت تمثل بعداً استراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر وفي سلامتها سلامة للأماكن المقدسة في الحجاز، واستفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية الى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي.

٥٥- بعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الاسلامية في البحر الأحمر مثل : مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير علي بك الى الساحل الأفريقي فتم تحرير مقديشو وممبسة ومنيت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة.

٥٦- في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٢٧-٩٧٤هـ) تمكنت الدولة العثمانية من ابعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ومهاجمتهم في المراكز التي استقروا بها في الخليج العربي.

٥٧- تمكن العثمانيون من صد البرتغال وإيقافهم بعيداً عن المماليك الاسلامية والحد من نشاطهم ونجحت الدولة العثمانية في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالي المبني على اهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على الاسلام والمسلمين بطرق مختلفة.

٥٨- كانت نتيجة الصراع العثماني البرتغالي؛ أن احتفظ العثمانيون بالاماكن المقدسة وطريق الحج، وحماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر، واستمرار الطرق التجارية التي تربط الهند واندونيسيا بالشرق الادنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر.

٥٩- فتحت رودس في زمن السلطان سليمان القانوني واستطاع سليمان القانوني أن يحاصر فينا، ودخل في سياسة التقارب مع فرنسا.

٦٠- اهتمت الدولة العثمانية بالشمال الأفريقي ووقفت مع حركة الجهاد البحري وقدمت لهم كافة المساعدات المادية والمعنوية .

٦١- دخلت الجزائر تحت نفوذ الدولة العثمانية منذ زمن السلطان سليم الأول وظهر في ساحة الجهاد في الشمال الأفريقي قائدان عظيمان هما الأخوان عروج، وخير الدين بربروسا.

٦٢- نجح خير الدين في وضع دعامات قوية لدولة فتية في الجزائر وكانت المساعدات العثمانية تصله بإستمرار من السلطان سليمان القانوني واستطاع خير الدين أن يوجه ضرباته القوية للسواحل الاسبانية وكانت جهوده مثمرة في إنقاذ آلاف المسلمين من اسبانيا .

٦٣- كان للوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه.

٦٤- بعد ان أصبح خير الدين بربروسا قائداً للاسطول العثماني اهتم بالحوض الشرقي للبحر المتوسط وتولى حكم الجزائر القائد حسن آغا الطوشي الذي انهمك في توطيد الأمن ، ووضع الأسس للإدارة المستقرة وحاول جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية.

٦٥ استطاع حسن آغا الطوشي أن يهزم الجيوش الصليبية بقيادة شارل الخامس على أراضي الجزائر وكانت لتلك الهزيمة أثرها على الامبراطورية الاسبانية ، وعلى ملكها شارلكان وعلى مستوى الأحداث العالمية.

٦٦- نزلت أنباء هزيمة شارلكان نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث بسرعة على المستوى الأوروبي.

٦٧- لم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة .

٦٨- ظهر في الشمال الأفريقي قادة عظام ساهموا في حركة الجهاد ضد الاسبان والنصارى في البحر المتوسط من أشهرهم، حسن خير الدين بربروسا، وصالح رايس، وقلج علي.

٦٩- حاولت الدولة العثمانية أن تكون علاقات استراتيجية مع الدولة السعدية إلا أنها فشلت في بعض الأحيان وخصوصاً في زمن السلطان محمد الشيخ السعدي ومحمد المتوكل .

٧٠- إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبدالملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير، أو معركة وادي المخازن.

٧١- كان انتصار المغاربة في معركة وادي المخازن بسبب عدة أمور منها، القيادة الحكيمة التي تمثلت في قيادة السلطان عبدالملك وأخيه ابي العباس، والتفاف الشعب المغربي حول قيادته، ورغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم ، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، واشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية المغربية النصرانية.

٧٢- تولى حكم الدولة السعدية السلطان أحمد المنصور بعد استشهاد أخية عبدالملك في معركة وادي المخازن.

٧٣- بوفاة قلج علي في الجزائر نظم البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً والسعي السلطة والنفوذ واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس.

٧٤- لم تستطع الدولة العثمانية أن تضم المغرب الأقصى بسبب، ظهور الجزائر في محاولاتهم لضم المغرب الأقصى.

٧٥- كان العثمانيون لديهم رغبة جامحة في استرداد الأندلس إلا أنهم لم يحققوا هدفهم المنشود، بسبب موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الانكشاريين من جهة أخرى، وجبهات المشرق من جهة ثالثة.

٧٦- اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام (٩٧٤هـ) وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان.

٧٧- تولى الحكم بعد سليمان القانوني سليم الثاني الذي لم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقللي لانهارت الدولة. وكان ذلك من فضل الله على الأمة.

٧٨- انهزم العثمانيون في معركة ليبانتوا عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م وكانت النتيجة لتلك المعركة مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط وكان ذلك الإنكسار نقطة تحول نحو توقف عصر الإزدهار لقوة الدولة البحرية.

٧٩- كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الاسلامي ، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً الى السلطان العثماني ، وذلك بواسطة سفيره في استانبول ، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الاسلام والمسلمين بها.

٨٠- عمل السلطان سليم الثاني على تخليص تونس من هيمنة الإسبان واستطاع العثمانيون بقيادة قلج علي وسنان باشا أن يفتحوا تونس في عام ٩٨٢هـ.

٨١- قضى ضياع تونس من الاسبان على آمالهم في أفريقيا وضعفت سيطرتها تدريجياً حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير

وتبدد حلم الاسبان نحو إقامة دولة اسبانية في شمال أفريقيا وضاع بين الرمال.

٨٢- أرسل السلطان سليم الثاني حملة كبرى الى اليمن واستطاعت أن تخلص عدن وصنعاء من هيمنة الزيود.

٨٣ تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو ٩٧٩هـ الى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الاسلامية اولاً ثم البحر الأحمر والخليج العربي كحزام أمني حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها اسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين.

٨٤- استطاعت الدولة العثمانية أن تبني درعاً قوياً، حمى الأماكن المقدسة الاسلامية من الهجمات المسيحية، ومع ذلك الدرع فقط احتفظ السلطان بحرس عثماني خاص في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع.

٨٥- تولى الحكم بعد وفاة سليم الثاني ابنه مراد الثالث وكان مهتماً بفنون العلم والأدب والشعر وكان يتقن اللغات الثلاثة التركية، والعربية والفارسية وحاول منع الخمور إلا أن الانكشاريين اضطروه لرفع أمره وهذا يدل على ظهور ضعف الدولة .

٨٦ تولى الحكم بعد مراد الثالث محمد الثالث ورغم حالة الضعف والتدهور التي كانت قد بدأت تعتري الدولة إلا أن راية الجهاد ظلت مرفوعة وقام هذا السلطان بدخول ميادين الوغى بنفسه وكان الشيخ سعد الدين أفندي ممن شجعه على الخروج بنفسه لقيادة الجيوش وقال للسلطان :(أنا معك أسير حتى أخلص نفسي من الذنوب ، فإني بها أسير).

٨٧- تولى الحكم بعد محمد الثالث أبنه احمد الأول وكان عمره ١٤ سنة ولم يجلس احد قبله من السلاطين العثمانيين في هذه السن على العرش وكانت أحوال الدولة مرتبكة جداً لانشغالها بحروب النمسا في أوروبا وحرب إيران والثورات

الداخلية في آسيا فأتم مابدأ به أبوه من تجهيزات حربية، وكان في غاية التقوى، وكان رجلاً مثابراً في الطاعات، ويباشر أمور الدولة بنفسه، وكان متواضعاً في ملابسه، وكان كثير الاستشارة لأهل العلم والمعرفة ، والقيادة وكان شديد الحب للنبي ﷺ.

٨٨. بعد وفاة السلطان أحمد الأول، تولى الحكم سلاطين ضعاف منهم مصطفى الأول، وعثمان الأول، ومراد الرابع، وابراهيم بن أحمد، ومحمد الرابع، وسليمان الثاني، وأحمد الثاني، ومصطفى الثاني، وأحمد الثالث، ومحمود الأول، وعثمان الثالث، ومصطفى الثالث، وعبدالحميد الأول.

٨٩- تولى السلطان سليم الثالث الحكم بعد وفاة عمه عبدالحميد الأول عام ١٢٠٣هـ وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الحرب بين الدولة العثمانية وأعداءها وشرع في إحياء الروح المعنوية في نفوس جنده.

٩٠- استطاعت الجيوش الروسية والنمساوية أن تهزم الجيش العثماني فكان لتلك الهزيمة آثارها على الدولة العثمانية وتوالت الهزائم على العثمانيين وتزحزحت القوات العثمانية إلى الوراء باتجاه شرق الدانوب، وأعطت النمساويين الفرصة لفك حصار بلغراد وفتح الطريق لقوات الحلفاء وطرد العثمانيين من أوربا.

٩١- بعد هدوء القتال انصرف سليم الثالث للإصلاحات الداخلية فبدأ بتنظيم الجيش للتخلص من الانكشارية الذين أصبحوا سبب كل فتنة واتجه نحو تقليد أوروبا إلا أنه عزل من السلطنة.

٩٢- انتهز الفرنسيون تدهور الدولة العثمانية وضعفها، فأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت، وكانت تلك الحملة صدى للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية.

٩٣- سعى رجال الحملة الفرنسية إلى زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء

وعوام المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم.

٩٤- نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية لمعاونة الحملة بمختلف الوسائل.

٩٥- كان الهجوم الفرنسي على مصر يعتبر أول هجوم صليبي على ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، وعلى الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد على الفرنسيين الصليبيين واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز، والشام، وشمال افريقيا.

٩٦- كانت بريطانيا تتابع الأطماع الفرنسية في مصر وغيرها بدقة متناهية وعندما تحركت الحملة الفرنسية، ووصلت إلى مصر أرسلت اسطولاً بقيادة الاميرال نيسلون لتعقب الحملة الفرنسية واستطاع الأسطول الانجليزي أن يدمر الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية.

٩٧- كانت هزيمة الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية قد شجعت الدولة العثمانية على مهاجمة الحملة الفرنسية في مصر، فأعلن الحرب على فرنسا وأصدر أوامره بإلقاء القبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا في استنبول والقائهم في السجون.

٩٨- اضطرت الحملة الفرنسية إلى مغادرة مصر بسبب الهجوم المشترك الذي قام به الانجليز والعثمانيون على الفرنسيس في مصر وقد تظافرت عوامل عدة أرغمت المحتلين الفرنسيس على الخروج من مصر في النهاية، منها تحطيم اسطولهم في معركة أبي قير البحرية وسيطرة الانجليز البحرية في البحر المتوسط، وتشديدهم الحصار على الشواطئ المصرية، مما أعجز الحكومة الفرنسية عن إرسال النجدات والإمدادات إلى فرنسا في مصر.

٩٩- كان للحملة الفرنسية اثر بالغ في مصر خصوصاً والشرق عموماً واستطاعت المحافل الماسونية اليهودية الفرنسية أن تشق طريقها لطعن الإسلام بخنجرها

المسموم، واستطاع الفرنسيون أن يزرعوا أفكارهم ويجدوا لهم عملاء في المنطقة، واستفادوا بعد خروجهم العسكري من الدور الخطير الذي قام به محمد علي باشا حاكم مصر فيما بعد.

١٠٠- تولى الحكم السلطان محمود الثاني في عام ١٢٢٣هـ واستطاع أن يتخلص من الإنكشارية وأزالها من الوجود وأصبح بعد ذلك حراً في تطوير جيشه، فترسم خطى الحضارة الغربية واستبدل الطربوش الرومي بالعمامة، وتزيا بالزي الأوربي، وأمر أن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة.

١٠١- في تلك الفترة الحرجة من التاريخ العثماني انتشرت المحافل الماسونية في مصر والشام وتركيا وكانت تعمل ليلاً ونهاراً من أجل تفتيت وإضعاف الدولة العثمانية بمعاولها الفاسدة التي لاتكل ولاتمل.

١٠٢- كانت المحافل الفرنسية ترى دعم محمد علي ليتحقق لها أطماعه المستقبلية في حفظ وتقوية محافلها الماسونية، وإضعاف الدولة العلية العثمانية وزرع خنجرها المسموم في قلب الدولة العثمانية ولذلك انشأت لمحمد علي أسطولاً بحرياً متقدماً متطوراً، وترسانة بحرية في دمياط.

١٠٣- قام محمد علي بدور مشبوه في نقل مصر من انتمائها الإسلامي الشامل إلى شيء آخر يؤدي بها في النهاية إلى الخروج عن شريعة الله وكانت تجربة محمد علي قدوة لمن بعده من أمثال مصطفى كمال أتاتورك وجمال عبدالناصر . الخ.

١٠٤- قام محمد علي نيابة عن فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وغيرها من الدول الأوروبية بتوجيه ضربات موجعة للاتجاه الإسلامي في كل من مصر، والجزيرة العربية، والشام، والخلافة العثمانية مما كان لها الأثر في تهيئة العالم الإسلامي للأطماع الغربية.

١٠٥- كان محمد علي مخلباً وخنجراً مسموماً استعمله الأعداء في تنفيذ مخططاتهم

ولذلك وقفوا معه في نهضته العلمية، والاقتصادية والعسكرية بعد أن أيقنوا بضعف الجانب العقدي والإسلامي لديه ولدى أعوانه وجنوده.

١٠٦- ترتب على دور محمد علي في المنطقة بأسرها أن تنبهت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذي أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالي استعدادها لتقسيم أراضيها حينما تتهيأ الظروف السياسية.

١٠٧- تولى الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمود الثاني ابنه عبدالمجيد الأول وكان ضعيف البنية، شديد الذكاء واقعياً ورحيماً وهو من اجل سلاطين آل عثمان قدراً.

١٠٨- كان السلطان عبدالمجيد خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو.

١٠٩- كانت حركة الإصلاح والتجديد العثماني تدور حول نقاط ثلاثة هامة: الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليمه في نظم الحكم والإدارة، الاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل العلماني، الاتجاه نحو مركزية السلطة في استانبول والولايات.

١١٠- تكلل خطا كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام ١٨٧٦م ولأول مرة في تاريخ الإسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ عن الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري وهي دساتير وضعية علمانية.

١١١- وضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة اسلامية، فعلمنت القوانين، ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، والابتعاد عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، قد سحب من الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين.

١١٢- إن النظرة الفاحصة في تاريخ الأمم واستقراء أحوالها تبين لنا أن التقليد بين أمة وأمة، وبين قوم وقوم يحدث بينهما من التشابه والتفاعل والانصهار، ما يضعف التمايز والاستقلال في الأمة المقلدة ويجعلها مهتزة الشخصية.

١١٣- اقتضت سنة الله في خلقه أن الأمة الضعيفة المغلوبة تعجب بالأمة القوية المهيمنة الغالبة ومن ثم تقليدها فتكسب من أخلاقها وسلوكها وأساليب حياتها، إلى أن يصل الأمر إلى تقليدها في عقائدها وأفكارها وثقافتها وأدبها وفنونها، وبهذا تفقد الأمة المقلدة مقوماتها الذاتية وحضاراتها إن كانت ذات حضارة - وتعيش عالة على غيرها.

١١٤- تولى الحكم في الدولة العثمانية السلطان عبدالعزيز ابن محمود الثاني عام ١٢٧٧هـ وكانت الدول الأوربية عازمة على الضغط على الحكومة العثمانية للإستمرار في خطوات الإصلاح والنهوض المزعوم على النهج الغربي، والفكر الأوربي والمبادئ العلمانية وكان السلطان عبدالعزيز يرفض الدساتير الغربية والعادات البعيدة عن البيئة الإسلامية وحاول النهوض بالمجتمع الإسلامي العثماني فدبرت مؤامرة لقتله بواسطة القناصل وممثلي الدول الأوروبية في العاصمة وقاموا بتنفيذها عن طريق عملائهم ممن تشربوا بأفكارهم من رجال الدولة وعلى رأسهم صنيعة الماسونية المدعو مدحت باشا.

١١٥- تولى الحكم بعد السلطان عبدالعزيز ابن أخيه مراد الخامس الذي كان منخرطاً في سلك الماسونية، وكان ميالاً إلى الدستور والليبرالية والعلمانية وكانت الحركة الماسونية هي التي دفعت به إلى السلطنة ولكنه أصيب باضطراب عقلي بعد أن أصابته الدهشة والفزع بسبب مقتل عمه عبدالعزيز وظهرت عليه اضطرابات عصبية أثرت علي جهازه الهضمي، وكانت صحته في تدهور مستمر، فكان لابد من خلعه وأعلن ذلك من قبل شيخ الإسلام.

١١٦- تولى حكم الدولة العثمانية بعد مراد الخامس السلطان عبدالحميد الثاني في عام ١٢٩٣هـ وضغط عليه من قبل مدحت باشا فأعلن الدستور، ومارس

الوزراء استبدادهم واشتدت سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد والتي كانت تضم النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب وعندما حانت الفرصة للسلطان عبدالحميد ألغى الدستور وشرّد زعماء التغريب وعمل على إضعاف سلطاتهم، وشرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية.

١١٧- عمل السلطان عبدالحميد على تشكيل جهاز استخباراتي قوي لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات على أعدائه من الخارج، وأخمد ثورات في البلقان وتمردات داخلية وكان جهاز الاستخبارات من الوسائل المهمة عند السلطان في القضاء على التمردات الداخلية في حينها.

١١٨- دخلت الدولة العثمانية في حرب ضروس مع روسيا وانهزمت أمامها واضطرت لعقد معاهدة سان ستفانو معها ثم بعد ذلك كان مؤتمر برلين في المانيا.

١١٩- ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية في معترك السياسة في زمن السلطان عبدالحميد الذي اهتم بهذه الفكرة من دعم أواصر الأخوة بين المسلمين في كل مكان حتى تستطيع الأمة أن تقف ضد الأطماع الصليبية.

١٢٠- شرع السلطان عبدالحميد في تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلامية بواسطة وسائل متعددة منها، الاتصال بالدعاة، وتنظيم الطرق الصوفية، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة العشائر، وإقامة خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء.

١٢١ حاول السلطان عبدالحميد التضييق على يهود الدونمة عندما علم قوتهم ومؤامراتهم ضد الإسلام ولذلك قام يهود الدونمة بوضع خطة إستراتيجية مضادة له حيث تحركوا ضده على مستوى الراي العام العثماني والجيش وقاموا بدعم المحافل الماسونية للإطاحة به، واستخدموا شعارات الحرية، والديمقراطية وإزاحة المستبد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد

في الدولة وبين صفوف الجيش، وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية التي تعمل على تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

١٢٢- كان السلطان عبدالحميد العائق القوي أمام مخططات حكماء صهيون فعملوا على ترغيبه بالمال فلم يستطيعوا وكان يتخذ التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين ولم يعط اليهود أي امتياز من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أراضي فلسطين.

١٢٣- تحركت الصهيونية العالمية، لتدعيم أعداء السلطان عبدالحميد، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية.

١٢٤- استطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تعزل السلطان عبدالحميد الثاني عن الحكم وقد تحصلت على دعم من الدول الأوربية، واليهود والمحافل الماسونية للوصول إلى هذا الهدف.

١٢٥ كانت جمعية الاتحاد والترقي لاتستطيع مقاومة الحلفاء بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، واضطر زعماؤها إلى الفرار إلى المانيا وروسيا.

١٢٦- استطاع الانجليز واليهود أن يدفعوا بمصطفى كمال نحو زعامة الدولة العثمانية وقام الأخير بتنفيذ مخططاً مرسوماً انتهى بتحقيق شروط كرزون الأربع وهي: قطع كل صلة لتركيا بالإسلام، إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً، إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد، ومصادرة أموال الخليفة، اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم.

١٢٧- عمل مصطفى كمال على سلخ تركيا من عقيدتها واسلامها، وحارب التدين، وضيق على الدعاة، ودعا إلى السفور والاختلاط، إلا أن صوت الحق في تركيا قاوم العلمانية بشدة وظهرت حركة سعيد النورسي وحزب السلامة الذي

أصبح فيما بعد حزب الرفاه ولازال الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغي، على أشده في تركيا.

-١٢٨ إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الذي جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله ظهرت في وجهتها الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.

-١٢٩ إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أثر في تلك الشعوب، وكثرة الاعتداءات الداخلية بين الناس، وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

١٣٠ إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق التاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط الله عليهم من لايعرفونه ولذلك سلط النصارى على المسلمين، وغاب النصر عن الأمة وحرمت من التمكين، وأصبحت في فزع وخوف وتوالت عليها المصائب، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

-١٣١ لقد أصيبت الأمة بانحراف شديد في مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشرت مظاهر الشرك والبدع والخرافات.

-١٣٢ إن من أعظم الإنحرافات التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائداً وأفكاراً وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد قوى عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها في أواخر العصر العثماني.

-١٣٣ كانت الفرق المنحرفة قد استفحل أمرها، خصوصاً مع مجيء الاستعمار

الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عادتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنداً مخلصين لقيادتهم ومن أشهر هذه الفرق، الشيعة الاثنى عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية، والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

١٣٤- أصبح كثير من العلماء ألعوبة بيد الحكام الجائرين، وتسابقوا للحصول على الوظائف والمراتب وغاب دورهم المطلوب منهم، وكان من الطبيعي أن تصاب العلوم الدينية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر، واهتم العلماء بالمختصرات، والشروح والحواشي والتقريرات وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ورفض كثير من العلماء فتح باب الاجتهاد، وأصبحت الدعوة لفتح بابه تهمة كبيرة تصل إلى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر.

١٣٥- انتشر الظلم في الدولة العثمانية، والظلم كالمرض في الإنسان يعجل بموته بعد أن يقضى المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها ولذلك زالت الدولة العثمانية من الوجود، وكذلك مما يعجل بزوال الدول انغماسها في الشهوات والترف وشدة الاختلاف والتفرق.

١٣٦- لقد ترتب عن ابتعاد الأمة عن شرع ربها آثار خطيرة، كالضعف السياسي، والحربي، والاقتصادي، والعلمي، والأخلاقي، والاجتماعي وفقدت الأمة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها، فاستعمرت، وغزيت فكرياً، نتيجة لفقدها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية وجهلها بسنن الله في نهوض الأمم وسقوطها.

قال تعالى: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء

والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون} (سورة الأعراف، الآية: ١٩٦).

١٣٨.إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وماهي إلا محاولة متواضعة هدفها معرفة عوامل نهوض الأمة وأسباب سقوطها وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجد عيباً فسد الخللا	جل من لاعيب فيه وعلا

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه وأن لايحرم اخواني الذين أعانوني على اكماله من الأجر والمثوبة وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى : {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} .

وبقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات	أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي	والخير أن يأتينا من عنده يأتي
لا استطيع لنفسي جلب منفعة	ولاعن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً	كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آتي

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك)، (وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).

المصادر والمراجع

(أ)

أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، د.محمد نور الدين .

أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبده ، المنتدى الاسلامي ، طبعة ١٤١١هـ.

إعلام الموقعين عن رب العالمين ، الإمام ابن القيم ، مراجعة وتعليق طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت - لبنان.

أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م.

اقتصاديات الحرب في الاسلام، د. غازي التمام، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م.

أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ابراهيم شحاتة، منشأة المعارف، الاسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

امام التوحيد محمد عبدالوهاب، أحمد القطان، مكتبة السندس الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

استمرارية الدعوة، محمد السيد الوكيل، دار المجتمع المدينة، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

أضواء البيان في أيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني عام ١٣٨٤. الطبعة الأولى.

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لإبن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي الطبعة الثانية عام ١٣٦٩هـ مطبعة السنة المحمدية.

ابن باديس حياته وآثاره: د. عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(ب)

البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

البطولة والفداء عند الصوفية، أسعد الخطيب، دار الفكر، سورية - دمشق.

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

بدر التمام في اختصار الاعتصام، اختصره أبي عبدالفتاح محمد السعيد الجزائري، دار الحنان الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩١م، الإمارات العربية المتحدة.

بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن أحمد ابن اياس، القاهرة مطابع الشعب، ١٩٦٠.

بداية الحكم المغربي من السودان الغربي، محمد الغربي، الدار الوطنية للتوزيع والنشر، طبعة عام ١٩٨٢م.

البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض، قطب الدين محمد بن أحمد المكي، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، بيروت ١٩٦٠م.

(ت)

تاريخ الترك في آسيا الوسطى، بارتولد ترجمة أحمد السعيد القاهرة، مطبعة الأنجلو المصرية ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

تاريخ الأمم والملوك، محمد بن جرير الطبري، دمشق، دار الفكر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، تحقيق الدكتور احسان حقي، دار النفائس، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

تاريخ دولة آل سلجوق، لمحمد الاصبهاني، القاهرة، دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة

الثانية ١٩٧٨م.

تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، تأليف يوسف آصاف، دار البصائر، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

تاريخ العرب الحديث، رأفت الشيخ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.

تاريخ العرب الحديث، تأليف د. جميل بيفون، د. شحادة الناظور، الاستاذ عكاشة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، دار الأمل للنشر والتوزيع.

التقليد والتبعية وأثرها في كيان الأمة الإسلامية، ناصر العقل، دار المسلم، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي بقلم محمد زاهد عبدالفتاح أبو غدة، دار الرائد كندا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

تاريخ سلاطين آل عثمان، للقرماني، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، دار البصائر دمشق سوريا.

تاريخ المشرق العربي، عمر عبدالعزيز عمر، دار المعرفة الجامعية، اسكندرية.

تجربة محمد علي الكبير، دروس في التغيير والنهوض، منير شفيق، دار الفلاح للنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٧م - ١٤١٨هـ.

التراجع الحضاري في العالم الإسلامي د. علي عبدالحليم، دار الوفاء، الطبعة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت.

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفداء أسماعيل، تحقيق: عبدالعزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد ابراهيم البناء، مطبعة الشعب القاهرة - مصر.

تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ.

تفسير السعدي، المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، المؤسسة السعدية بالرياض ١٩٧٧م.

تركيا والسياسة العربية: أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد عطا.

تفسير القرطبي، لأبي عبدالله القرطبي.

تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي.

تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزنتونا، ترجمه إلى العربية عدنان محمود سلمان، د. محمود الأنصاري، المجلد الأول. منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا استانبول ١٩٨٨م.

تطبيق الشريعة الإسلامية، د. عبدالله الطريقي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

التيارات السياسية في الخليج العربي، صلاح العقاد، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٤م.

تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، دار الشروق الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

الأتراك العثمانيون في افريقيا، عزيز سامح، دار النهضة العربية، ترجمة محمود عامر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

تاريخ الجزائر العام، عبدالرحمن الجيلالي، دار الثقافة بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.

تاريخ افريقيا الشمالية، شارل اندري جوليان، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٨م، تعريب محمد مزالي.

تاريخ المغرب، لمحمد عبود، دار الطباعة المغربية الطبعة الثانية.

تاريخ الفكر المصري الحديث - لويس عوض، ط١ القاهرة سنة ١٩٧٩م.

التيارات السياسية الاجتماعية بين المجددين والمحافظين د. زكريا سليمان موسى، دراسة فكر الشيخ محمد عبده، القاهرة سنة ١٩٨٣م.

تاريخ الاحساء السياسي. د. محمد عرابي، منشورات ذات السلاسل الكويت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، إبراهيم حلمي بك.

الاتجاهات الوطنية، لمحمد حسين، بيروت، ١٩٧٢م.

التصوف في مصر إبان العصر العثماني د. توفيق الطويل. مطبعة الاعتماد بمصر ط ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.

(ج)

جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، زيادة أبو غنيمة، دار الفرقان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبدالحميد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث، د. نبيل عبدالحي رضوان، مكتبة الطالب الجامعي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

الجبرتي والفرنسيس، د. صلاح العقاد، ندوة الجبرتي القاهرة ١٩٧٦م.

(ح)

حاضر العالم الإسلامي، د. جميل عبدالله محمد المصري، جامعة المدينة المنورة.

حروب البلقان والحركة العربية في المشرق العربي العثماني د. عايض بن خزام الروقي، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

حروب محمد علي في الشام وأثرها في شبه الجزيرة العربية، د. عايض بن خزام الروقي، ١٤١٤هـ، مركز بحوث الدراسات الإسلامية، مكة المكرمة.

حركة الجامعة الإسلامية، أحمد فهد بركات، مكتبة المنار، الأردن الطبعة الأولى ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ.

الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، عبدالعزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة الأولى

١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

الحكومة الإسلامية للمودودي، ترجمة أحمد إدريس، نشر المختار الإسلامي، للطباعة والنشر القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

الحسبة في العصر المملوكي د. حيد الصافح، دار الاعلام الدولي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، القاهرة.

حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، احمد توفيق مدني الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.

حقائق الأخبار عن دول البحار، اسماعيل سرهنك، المطبعة الاميرية، ببولاق، مصر الطبعة الأولى ١٣١٢هـ.

الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العمروسي دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

حقيقة الماسونية لمحمد الزعبي، دار الغربية، بيروت ١٩٧٤م.

الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا د. أحمد النعيمي، دار البشير، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

حركة الإصلاح في عصر السلطان محمود الثاني، د. البحراوي، دار التراث، القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(خ)

خراسان، محمود شاكر، الطبعة الأولى، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

خير الدين بربوس، بسام العسلي، دار النفائس الطبعة الثالثة: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الخلافة والملك للمودودي، تعريب أحمد إدريس، دار القلم، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

خليفة من خياط تاريخه، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية دار القلم بيروت ومؤسسة الرسالة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

خلاصة تاريخ الأندلس. دار مكتبة الحياة، بيروت، شكيب أرسلان.

خطط الشام، محمد كرد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٠هـ.

(د)

الدولة العثمانية والشرق العربي، محمد انيس، القاهرة، مكتبة الأنجول المصرية.

دور الكنيسة في هدم الدولة العثمانية، تأليف ثريا شاهين، ترجمة الدكتور محمد حرب، دار المنارة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، مصطفى فوزي عبداللطيف غزال، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبدالعزيز الشناوي، مكتبة الانجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة عام ١٩٨٠م.

الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، د. اسماعيل مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، قيس جواد العزاوي، مركز دراسات الإسلام والعالم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

الدولة العثمانية، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، د. جمال عبدالهادي، د. وفاء محمد رفعت جمعة، علي أحمد لبن، دار الوفاء، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور، يوسف الثقفي، دار الثقة، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.

دراسات في التاريخ المصري، أحمد سيد د. أ.ج، والسيد رجب حراز، القاهرة، دار النهضة، ١٩٧٦م.

الدولة السعودية الأولى، عبدالرحيم عبدالرحمن.

دولة الموحدين، علي محمد الصلابي، دار البيارق عمان-الأردن، ١٩٩٨م، الطبعة الأولى.

(ر)

الرسالة الخالدة، عبدالرحمن عزام، القاهرة ١٩٤٦م.

رسائل البنا، حسن البنا، دار الأندلس.

رياضة الإسماع في أحكام الذكر والسماع، محمد أبو الهدى الصيادي، مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٣م.

(ز)

زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن القيم الجوزية.

(س)

السلوك، أحمد بن علي المقريزي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.

السلاطين في المشرق العربي، د. عصام محمد شبارو، طبعة ١٩٩٤م، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان.

سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

السلطان عبدالحميد الثاني، د. محمد حرب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي د. محمد نصر مهنا، الطبعة الأولى، ١٩٩٠/١٩٩١، المكتب الجامعي الحديث، طبعة أولى، ١٩٩٠م.

السلطان محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، عبدالسلام عبدالعزيز فهمي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

السلاطين العثمانيون، كتاب مصور، طبع في تونس.

الإسلام وأوضاعنا القانونية، عبدالقادر عودة، الناشر المختار الإسلامي، القاهرة، الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٧هـ.

سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق، عزت عبيد الدعاس، حمص الناشر: محمد

السيد.

سنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكر مصطفى الحلبي، القاهرة.

الإسلام في مواجهة التحديات: أبو الأعلى المودودي، الطبعة الأولى عام ١٣٩١هـ، دار القلم.

سد باب الاجتهاد وماترتب عليه، عبدالكريم الخطيب، دار الأصالة الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، عبدالكريم زيدان.

(ش)

الشعوب الإسلامية، الأتراك العثمانيون، الفرس، مسلمو الهند، د. عبدالعزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، طبعة ١٤١١هـ/١٩٩١م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي دار الآفاق الجديدة بيروت.

الشرق الإسلامي في العصر الحديث، حسن مؤنس مطبعة حجازي القاهرة الطبعة الثانية، ١٩٣٨م.

الشوقيات، ديوان أحمد شوقي، دار العودة، بيروت ١٩٨٦م.

(ص)

صحوة الرجل المريض، د. موفق بني مرجه، دار البيارق، الطبعة الثامنة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦.

صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل.

صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

صراع المسلمين مع البرتغال في البحر الأحمر، غسان علي الرمال، جدة، دار العلم، ١٤٠٦هـ.

الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صوره الجبرتي، د. أحمد العدوي، أبحاث ندوة الجبرتي، القاهرة، سنة ١٩٧٦م.

(ط)

طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي، تحقيق عبدالفتاح محمد، محمود محمد الطناحي، دار احياء الكتب العربية.

(ع)

العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

العالم العربي في التاريخ الحديث، د. اسماعيل أحمد ياغي، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر عبدالرحمن الحوالي، طبعة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

العثمانيون والروس، د. علي حسون، المكتب الإسلامي الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبدالرحمن ابن خلدون.

علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، المكتبة العصرية، صيدا-لبنان، ط ١٩٦٩م. عبدالقادراحمد اليوسف.

علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، عبدالعزيز عبدالغني ابراهيم، الرياض، مطبوعات دار الملك عبدالعزيز، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار فارس- بيروت لعبدالرحمن الجبرتي.

عقيدة ختم النبوة المحمدية، د. أحمد سعدان حمدان، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، د. عثمان عبدالمنعم، مكتبة الأزهر ١٩٧٨م.

(ف)

فتوح البلدان، احمد يحيى البلاذري.

الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبدالعزيز العمري، دار اشبيلية، الرياض، الطبعة

الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، عبدالله التل، المكتب الإسلامي.

في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبدالرحيم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ.

في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق.

الفوائد لابن القيم.

فتح القسطنطينية وسير السلطان محمد الفاتح ومحمد مصطفى.

فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، محمد صفوت، منشورات الفاخرية، الرياض ودار الكتاب العربي، بيروت بدون تاريخ.

فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي محمد الصلابي، رسالة دكتوراه لم تطبع بعد.

فقه التمكين عند دولة المرابطين، علي محمد الصلابي، دار البيارق عمان، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٨م.

فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر، محمد عبداللطيف البحراوي، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

فلسفة التاريخ العثماني، محمد جميل بيهم، أسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها - شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت، ١٩٥٤م.

(ق)

قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د. زكريا سليمان بيومي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، عالم المعرفة.

قيام الدولة العثمانية، د. عبداللطيف عبدالله دهيش، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.

(ك)

الكامل في التاريخ، علي بن محمد بن أبي الكرم بن عبدالكريم، القاهرة.

الكشوف الجغرافية البرتغالية والاسبانية، مقالة في كتاب الصراع بين العرب والاستعمار، شوقي عبدالله الجمل، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(ل)

ليبيا بين الماضي والحاضر، حسن سليمان محمود، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٢م.

ليبيا منذ الفتح العثماني، اتوري، روسي، تعريب خليفة التليسي، دار الثقافة، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.

(م)

معركة نهاوند، شوقي أبو خليل.

مرآة الزمان لسبط بن الجوزي.

الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب، دار الأمير، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

مذكرات السلطان عبدالحميد، تقديم د. محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية د. حسان علي حلاق، دار الجامعة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.

موقف اوربا من الدولة العثمانية، د. يوسف علي الثقفي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

المختار المصون من أعلام القرون، محمد بن حسن بن عقيل موسى دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، الارشاد، جدة، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م/١٤١٠هـ.

معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، تأليف عمر رضا كحالة، احياء التراث العربي.

المشرق العربي والمغرب العربي د. عبدالعزيز قائد المسعودي، جامعة صنعاء، دار الكتب الثقافية، صنعاء، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبدالرحمن القاسم.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت، المنتدى الإسلامي.

معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، تأليف الشيخ الحافظ أحمد حكمي رحمه الله، تعليق عمر محمود، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

المجتمع المدني في عهد النبوة (الجهاد ضد المشركين، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

مواقف حاسمة، محمد عبدالله عنان.

منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصحابه، د. السيد محمد السيد نوح، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م نشرته جامعة الإمارات العربية.

المغرب العربي في بداية العصور الحديثة، صلاح العقاد، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.

المغرب العربي الكبير، شوقي عطا الله الجمل، طبعة أولى، ١٩٧٧م، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

المجتمع الإسلامي المعاصر، محمد المبارك، دار الفكر بيروت، ط ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، محمد المجذوب ط ١٣٩٠هـ.

المغرب في عهد الدولة السعدية، عبدالكريم كريم، شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٧م.

المغرب العربي الكبير، جلال يحيى.

محنة المورسيكوس في اسبانيا، لمحمد قشتيلو، مطبعة الشويخ، تطوان، ١٩٨٠م.

الموسوعة الميسرة في الأديان، لندوة الشباب العالمي، جدة.

المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، عبدالله بن حمد الشبانة، دار طيبة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

مصر في مطلع القرن التاسع عشر، د. محمد فؤادي شكري، القاهرة سنة ١٩٥٨م.

الماسونية وموقف الإسلام منها، د. حمود أحمد الرحيلي، دار العاصمة. السعودية، طبعة أولى ١٤١٥هـ.

من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، محمد أديب غالب، دار اليمامة السعودية ط١ سنة ١٩٧٥م.

المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، محمد عبدالحميد حرب، ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر البحرين.

مفاهيم يجب أن تصحح، لمحمد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

المجتمع الاسلامي المعاصر، محمد المبارك، دار الفكر ، بيروت ط ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.

مشكلات الجيل في ضوء الاسلام ، محمد المجذوب ط ١٣٩٠هـ.

(ن)

الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، تأليف علي بن نجيب الزهراني، دار طيبة مكة، دار آل عمار الشارقة، الطبعة الثانية١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

النظام السياسي في الإسلام د. محمد ابو فارس، دار الفرقان، عمان، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

النجوم الزاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تعزي الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، نوال صيرفي، الرياض مطبوعات دار الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام: أبو الثناء الآلوسي. مطبعة ولاية بغداد، ١٢٩٣هـ.

(و)

واقعنا المعاصر، محمد قطب، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. مؤسسة المدينة المنورة.

الولاء والبراء في الإسلام، محمد سعيد القحطاني، دار طيبة، مكة الرياض، الطبعة السادسة، ١٤١٣هـ.

وادي المخازن، شوقي ابو خليل.

وحي القلم، مصطفى صادق الرفاعي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية.

والدي السلطان عبدالحميد، مذكرات الأميرة عائشة، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(ي)

اليهودية والماسونية، عبدالرحمن الدوسري، دار السنة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، السعودية.

اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة دار البشير، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

يهود الدونمة، دراسة في الأصول والعقائد والمواقف د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

سلاطين الدولة العثمانية
رقم الإيداع /5928
الترقيم الدولى 978-977-6341-99-9